## محمد أسد

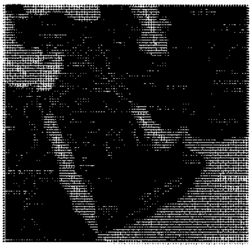

# الطريق إلى مكة

**THE ROAD TO MECCA**

Muhammad Asad

ترجمة

**د. رفعت السيد علي**

عن طبعة

SIMON AND SCHUSTER

١٩٥٤

تقديم

**الشيخ صالح بن عبد الرحمن الحصيّن**

الرئيس العام لشؤون المسجد الحرام والمسجد النبوي

ح مكتبة الملك عبد العزيز العامة، ١٤٢٥
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

الطريق إلى مكّة
٥٠٤ ص، ١٧×٢٤ سم
ردمك ١ - ٠ - ٩٤٤٣ - ٩٩٦٠
١ ـ مكّة المكرّمة ـ وصف ورحلات أ ـ العنوان ب ـ السلسلة
ديوي ٩١٥,٣١٢١٠٤ ١٤٢٤/١٧١٣

رقم الإيداع: ١٤٢٤/١٧١٣
ردمك ١ - ٠ - ٩٤٤٣ - ٩٩٦٠
حقوق النشر محفوظة لمكتبة الملك عبد العزيز العامة.

مكتبة الملك عبد العزيز العامة بالرياض
ص.ب: ٨٦٤٨٦ / الرياض ١١٦٢٢
هاتف: ٤٩١١٣٠٠ ١ ٩٦٦ + فاكس: ٤٩١١٩٤٩ ١ ٩٦٦ +
الموقع الإلكتروني: www.kapl.org.sa

جميع الحقوق محفوظة، لا يجوز إعادة نشر أي جزء من هذا الكتاب، أو تخزينه أو تضمينه في جهاز للاسترجاع، أو نقله بأي صورة أو وسيلة، سواء أكانت إلكترونية أم ميكانيكية أم بالتصوير الضوئي أم بالتسجيل أو بغير ذلك، دون الإذن المسبق من الناشر.

تمت أعمال الترجمة والتصميم والطباعة بالتعاون مع
مؤسسة التراث ص. ب: ٦٨٢٠٠ ـ الرياض ١١٥٢٧، المملكة العربية السعودية
هاتف: ٤٨٠٧٧١٠ فاكس: ٤٨٠٧٧٠٨
بريد إلكتروني: al-turath@al-turath.com
الموقع على الإنترنت: www.al-turath.com

تمّت اضافة مجموعة من الصور من تصوير المؤلّف أخذت من مجموعة السيّدة بولا أسد من الأرشيف الوطني للصور التاريخيّة بمكتبة الملك فهد الوطنيّة.

بسم الله الرحمن الرحيم

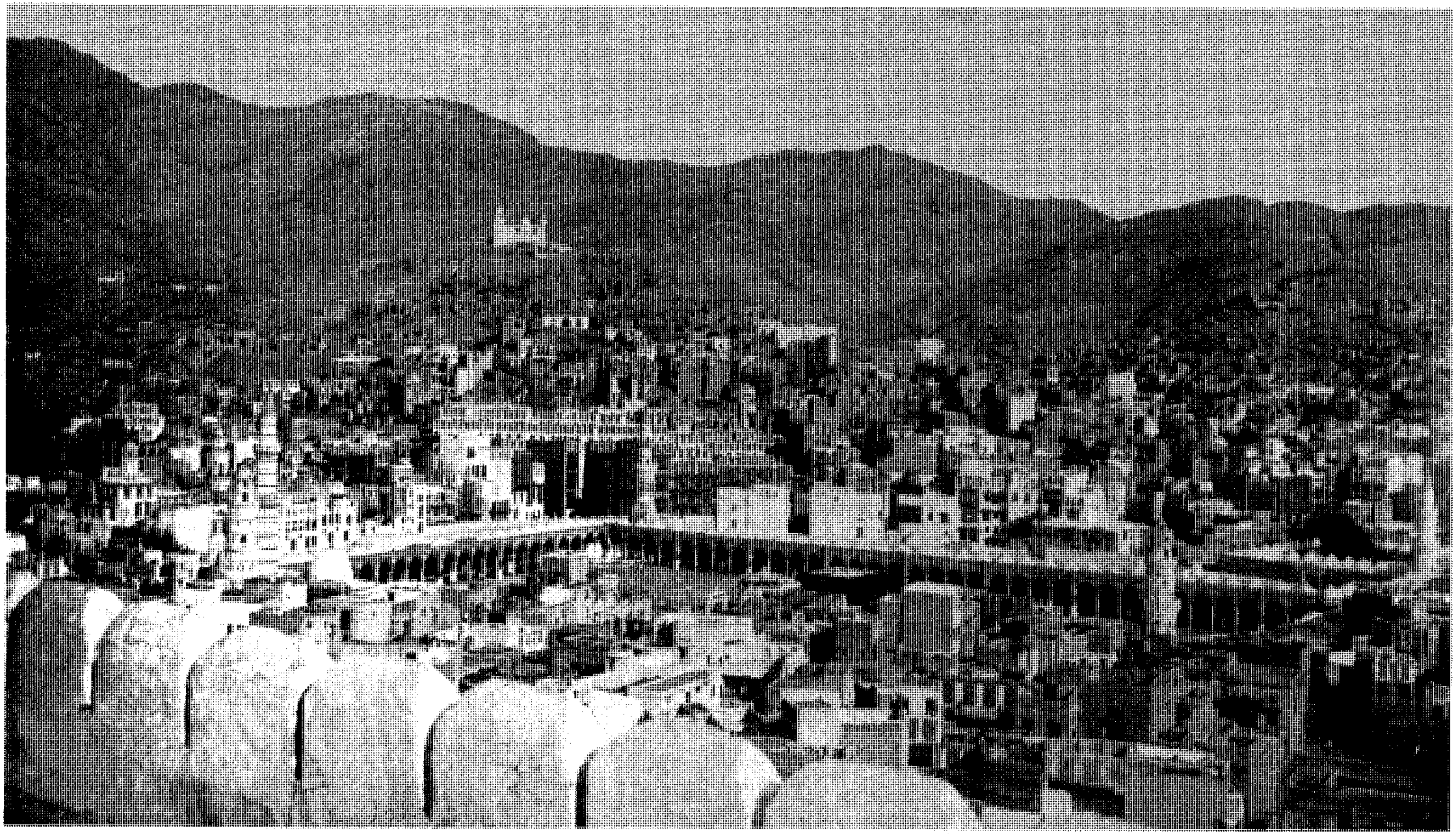

الحرم المكّي الشريف وحوله بعض مباني مكّة المكرّمة ١٣٤٥ (١٩٢٧م)

# مقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف المرسلين، نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم أجمعين ..

قامت مكتبة الملك عبدالعزيز العامة بالرياض بنشر العديد من الكتب والدراسات منها الأصلية أو المترجمة في مختلف المجالات وفق خطة طموحة ومتكاملة للنشر العلمي والترجمة تتضمن نشر الكتب المتخصصة من خلال استراتيجية ذات بعدين: الأول، نشر الكتب التي تتضمن الأوراق البحثية للمؤتمرات التي تقيمها المكتبة على مدار العام لدراسة القضايا الحيوية وتحليلها جنباً إلى جنب مع ما تنتجه ثمرات العقول الوطنية والعربية. والبعد الثاني قيامها بترجمة الكتب المشتهرة وغيرها التي تشمل أحدث ما توصّل إليه الفكر الإنساني، وقد اكتسبت سُمعة حسنة، مكنتها من تعزيز أبحاثها ودراساتها التي تركز في متابعة التطورات الثقافية والحضارية والاقتصادية المتزايدة، وتعمل على تحديد بعض التوقعات العلمية والنتائج المستقبلية..

وتواصلاً مع دورها مع هذا النهج الثقافي؛ تقدّم المكتبة اليوم ترجمة أمينة لكتاب «الطريق إلى مكة» لواحد من أهم رجالات الغرب الذي أسلموا خلال القرن العشرين، وتركوا بصمة كبرى في الثقافة العربية والإسلامية والأوروبية على السواء؛ فـ«ليوبولد فايس» النمساوي الجنسية، اليهودي الأصل، الذي أسلم فيما بعد وتسمى بـ«محمد أسد» درس الفلسفة والفن في جامعة فيينا ثم اتجه

للصحافة فبرع فيها، وأصبح مراسلاً صحفياً في الشرق العربي والإسلامي، فأقام مدة في القدس، ثم زار القاهرة فالتقى الشيخ مصطفى المراغي، شيخ الجامع الأزهر، فحاوره حول الأديان، وانتهى إلى الاعتقاد بأن «الروح والجسد في الإسلام هما بمنزلة وجهين توأمين للحياة الإنسانية التي أبدعها الله تعالى» ثم بدأ بتعلم اللغة العربية في أروقة الأزهر، وهو لم يزل بعدُ يهودياً.

شُغل «ليوبولد فايس» بالبحث عن الحقيقة الكبرى، وكان دائماً مهموماً ومشغولاً ومدهوشاً في الوقت نفسه لظاهرة الفجوة الكبيرة بين واقع المسلمين المتأزم وبين حقائق دينهم الإسلامي المشعّة، وفي يوم راح يحاور بعض المسلمين منافحاً عن الإسلام، ومحمّلاً المسلمين تبعة تخلفهم عن الشهود الحضاري؛ لأنهم تخلّفوا عن الإسلام؛ وجاء إسلام محمد أسد رداً حاسماً على اليأس والضياع، وإعلاناً مقنعاً بقدرة الإسلام على استقطاب الحيارى الذين يبحثون عن الحقيقة .. يقول الدكتور عبدالوهاب عزام عن إسلامه: «استجابةُ نفس طيبة لمكارم الأخلاق ومحاسن الآداب، وإعجابُ قلب كبير بالفطرة السليمة، وإدراك عقل منير للحق والخير والجمال» ..

وعن رأيه فيما يُثار من أن هناك فرقاً بين الإسلام كدين، والمسلمين كأشخاص .. يحكي المفكر السويسري «روجيه دوباكييه» الذي اهتدى للإسلام، قصةً ذكر فيها رداً على ذلك، حيث قال: «أنا أعرف صديقاً منذ فترة اعتنق الإسلام في السادسة والعشرين من عمره اسمه «محمد أسد» كان يهوديّاً واعتنق الإسلام عام ١٩٢٦م، وألف كتاباً بعنوان «الطريق إلى مكة» وأصبح من علماء الإسلام، وله مؤلفات أخرى كثيرة .. قابلته منذ فترة في باكستان حيث يعيش هناك.. وسألته نفس هذا السؤال: هل هناك فرق بين الإسلام كدين والمسلمين كأشخاص؟ فقال لي: إذا كنا قد اعتنقنا الإسلام فليس هذا بسبب المسلمين.. لكن السبب أن الإسلام حقيقة لا ينكرها أحدٌ. صحيح هناك تدهور في حال المسلمين.. ولكني أصارحك القول بأن التدهور في حال أصحاب الأديان الأخرى أكثر مما هو في المسلمين ... إن الإسلام آخر تعبير عن الرحمة الإلهية.. وما زال قادراً على العطاء.. عطاء كل ما يُخَلّص الإنسان من شقاء الحياة وآلامها ومتاعبها..إن الإسلام يجدد الصلة

بين المرء وربه التي قطعها إنسان اليوم. حتى إذا كان المسلمون في حالة تدهور أو انهيار، فإن دينهم قادر على منحهم الحياة السعيدة المطمئنة التي تعينهم على التغلب على تلك الأزمات الأخلاقية التي يعيشها الغرب» ... هكذا حلّل محمد أسد الوضع، فكم كان طرازاً نادراً من الرحّالة في عالم الأرض، وفي عالم الفكر والروح..

قام محمد أسد بعد إسلامه بأداء فريضة الحج، كما شارك في الجهاد مع عمر المختار، ثم سافر إلى باكستان فالتقى شاعر الإسلام محمد إقبال، ثم عمل رئيساً لمعهد الدراسات الإسلامية في لاهور حيث قام بتأليف الكتب التي رفعته إلى مصاف ألمع المفكرين الإسلاميين في العصر الحديث. وأشهر ما كتب محمد أسد كتابه الفذ «الإسلام على مفترق الطرق» .. وهذا الكتاب «الطريق إلى مكة»، كما قام بترجمة معاني القرآن الكريم وصحيح البخاري إلى اللغة الإنجليزية.

والكتاب عموماً تصدره المكتبة في طبعة منقّحة ومزيدة؛ تتميز ترجمة هذا الكتاب بأنها استكمال لأجزاء ناقصة في الأعمال المترجمة سابقاً، إذ يحتوي على فصل جديد بعنوان: «رسالة فارسية»..

جزى الله خيراً كل من أسهم في إصدار هذا الكتاب المهم، آملين أن يكون إضافة مهمة لرصيد هذا الكتاب الذي أعطى مؤلفه ثمار تجربته في رحلته إلى الإسلام وإلى الجزيرة العربية، بالوصف والتحليل والتدقيق..

وآخر دعوانا أن الحمد لله ربّ العالمين

مكتبة الملك عبدالعزيز العامة
غرة المحرم ١٤٢٥

# تقديم

كان الصبي (ليوبولدفايس) تحت إصرار والده يواظب دراسة النصوص الدينية ساعات طويلة كل يوم، وهكذا وجد نفسه وهو في سن الثالثة عشرة يقرأ العبرية ويتحدثها بإتقان، درس التوراة في نصوصها الأصلية وأصبح عالماً بالتلمود وتفسيره، ثم انغمس في دراسة التفسير المعقد للتوراة المسمى (ترجوم) فدرسه وكأنما يهيئ نفسه لمنصب ديني.

كان إنجازه المدهش يَعِدُ بتحقيق حلم جده الحاخام الأرثوذكسي النمساوي بأن تتصل بحفيده سلسلة من أجداده الحاخامات، ولكن هذا الحلم لم يتحقق، فبالرغم من نبوغه في دراسة الدين أو ربما بسببه نمت لديه مشاعر سلبية تجاه جوانب كثيرة من العقيدة اليهودية، لقد رفض عقله ما بدا من أن الرب في النصوص التوراتية والتلمودية مشغول فوق العادة بمصير أمة معينة وهم اليهود بالطبع. لقد أبرزت النصوص الرب لا كخالق وحافظ لكل خلقه من البشر بل كرب قبلي يسخر كل المخلوقات لخدمة الشعب المختار.

لم يؤد إحباطه من الديانة اليهودية في ذلك الوقت إلى البحث عن معتقدات روحية أخرى، فتحت تأثير البيئة اللاإرادية التي يعيش فيها وجد نفسه يندفع ككثير من أقرانه إلى رفض الواقع الديني وكل مؤسساته، وما كان يتطلع إليه لم يكن يختلف كثيراً عما يتطلع إليه باقي أبناء جيله وهو خوض المغامرات المثيرة.

# تقديم

في تلك المرحلة من عمر «ليوبولدفايس» اشتعلت الحرب العالمية الأولى سنة ١٣٣٢ـ١٣٣٦ (١٩١٤ـ١٩١٨م) وبعد انتهاء الحرب ـ وعلى مدى عامين ـ درس بلا نظام تاريخ الفن والفلسفة في «جامعة فينا» ولكن ما كان مشغوفاً بالتوصل إليه هو جوانب محببة إلى نفسه من الحياة، كان مشغوفاً أن يصل بنفسه إلى مُثُل روحية حقيقية كان يوقن أنها موجودة لكنه لم يصل إليها بعد.

كانت العقود الأولى للقرن العشرين تتسم بالخواء الروحي للأجيال الأوروبية، أصبحت كل القيم الأخلاقية متداعية تحت وطأة التداعيات المرعبة للسنوات التي استغرقتها الحرب العالمية الأولى في الوقت الذي لم تبد فيه أي روحية جديدة في أي أفق، كانت مشاعر عدم الإحساس بالأمن متفشية بين الجميع، إحساس داخلي بالكارثة الاجتماعية والفكرية أصابت الجميع بالشك في استمرارية أفكار البشر وفي كل مساعيهم وأهدافهم، كان القلق الروحي لدى الشباب لا يجد مستقراً لأقدامه الوجلة، ومع غياب أي مقاييس يقينية أخلاقية لم يكن ممكناً لأي فرد إعطاء إجابات مقنعة عن أسئلة كثيرة كانت تؤرق وتحير كل جيل الشباب.

كانت علوم التحليل النفسي (وهي جانب من دراسات الشاب ليوبولدفايس) تشكل في ذلك الوقت ثورة فكرية عظمى، وقد أحس فعلاً أن تلك العلوم فتحت مزاليج أبواب معرفة الإنسان بذاته، كان اكتشاف الدوافع الكامنة في اللاوعي قد فتح أبواباً واسعة تتيح فهماً أوسع للذات، وما أكثر الليالي التي قضاها في مقاهي «فينا» يستمع إلى مناقشات ساخنة ومثيرة بين رواد التحليل النفسي المبكرين من أمثال «ألفريد أدلر» و«هرمان سيتكل». إلا أن الحيرة والقلق والتشويش حلت عليه من جديد، بسبب عجرفة العلم الجديد وتعاليه ومحاولته أن يحل ألغاز الذات البشرية عن طريق تحويلها إلى سلاسل من ردود الأفعال العصبية.

لقد نما قلقه وتزايد وجعل إتمام دراسته الجامعية يبدو مستحيلاً فقرر أن يترك الدراسة ويجرب نفسه في الصحافة.

كان أول طريق النجاح في هذه التجربة تعيينه في وظيفة محرر في وكالة الأنباء «يونايتد تلجرام»، وبفضل تمكنه من عدة لغات لم يكن صعباً عليه أن يصبح بعد وقت قصير نائباً لرئيس تحرير قطاع أخبار الصحافة الاسكندنافية بالرغم من أن سنه كانت دون الثانية والعشرين، فانفتح له الطريق في «برلين» إلى عالم أرحب «مقهى دي فيستن» و «رومانشية» ملتقى الكتاب والمفكرين البارزين ومشاهير الصحفيين والفنانين، فكانوا يمثلون له (البيت الفكري) وربطته بهم علاقات صداقة توافرت فيها الندية.

كان في ذلك الوقت سعيداً بما هو أكثر من النجاح في حياته العملية، ولكنه لم يكن يشعر بالرضا والإشباع ولم يكن يدري بالتحديد ما الذي يسعى إليه وما الذي يتوق إلى تحقيقه.
كان مثله مثل كثير من شباب جيله فمع أن أياً منهم لم يكن تعساً إلا أن قليلاً منهم كان سعيداً بوعي وإدراك.

في أحد أيام ربيع سنة ١٣٤٠ (١٩٢٢م) وعمره لم يتجاوز الثانية والعشرين كان على ظهر السفينة متوجهاً إلى (القدس، فلسطين).

لو قال له أحد في ذلك الوقت إن أول معرفة له مباشرة بالإسلام ستصبح نقطة تحول عظمى في حياته لعد ذلك القول مزحة، ليس بالطبع لأنه محصن ضد إغراءات الشرق التي تربط ذهن الأوروبي برومانتيكية ألف ليلة وليلة، ولكنه كان أبعد ما يكون عن أن يتوقع أن تؤدي تلك الرحلة إلى أي مغامرات روحية.

كل ما كان يدور في ذهنه عن تلك الرحلة كان يتعامل معه برؤية غربية، فقد كان رهانه محصوراً في تحقيق أعمق في المشاعر والإدراك من خلال البيئة الثقافية الوحيدة التي نشأ فيها، وهي البيئة الأوروبية، لم يكن إلا شاباً أوروبياً نشأ على الاعتقاد بأن الإسلام وكل رموزه ليس إلا محاولة التفافية حول التاريخ الإنساني، محاولة لا تحظى حتى بالاحترام من الناحية الروحية والأخلاقية، ومن ثم لا يستحق الذكر، فضلاً عن أن يوازن بالدينين الوحيدين اللذين يرى الغرب أنهما

# تقديم

يستحقان الاهتمام والبحث: اليهودية والمسيحية، كان يلف تفكيره الفكر الضبابي القاتم والانحياز الغربي ضد كل ما هو إسلامي أو كما يعبر عن نفسه: (لو تعاملت بعدل مع ذاتي لأقررت أني أيضاً كنت غارقاً حتى أذني في تلك الرؤية الذاتية الأوروبية والعقلية المتعالية التي اتسم بها الغرب على مدى تاريخه... ص ١٣٠).

ولكن بعد أربع سنوات كان ينطق بشهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ويتسمى باسم «محمد أسد».

بالرغم من أن حياته تفيض بالمغامرات والمفاجآت والمصادفات فلم يكن إسلامه نتيجة لأي من ذلك بل كان نتيجة لسنوات عدة من التجول في العالم الإسلامي والاختلاط بشعوبه، والتعمق في ثقافته، واطلاعه الواسع على تراثه بعد إجادته للغة العربية والفارسية.
كان في الأعوام المبكرة من شبابه بعدما أصابه الإحباط وخيبة الأمل في العقيدة اليهودية التي ينتمي إليها قد اتجه تفكيره إلى المسيحية بعد أن وجد أن المفهوم المسيحي للإله يتميز عن المفهوم التوراتي لأنه لم يقصر اهتمام الإله على مجموعة معينة من البشر ترى أنها وحدها شعب الله المختار، وعلى الرغم من ذلك كان هناك جانب من الفكر المسيحي قلل في رأيه إمكانية تعميمه وصلاحيته لكل البشر ألا وهو التمييز بين الروح والبدن؛ أي بين عالم الروح وعالم الشؤون الدنيوية. وبسبب تنائي المسيحية المبكر عن كل المحاولات التي تهدف إلى تأكيد أهمية المقاصد الدنيوية، كفت من قرون طويلة في أن تكون دافعاً أخلاقياً للحضارة الغربية، إن رسوخ الموقف التاريخي العتيق للكنيسة في التفريق بين ما للرب وما لقيصر نتج عنه ترك الجانب الاجتماعي والاقتصادي يعاني فراغاً دينياً وترتب على ذلك غياب الأخلاق في الممارسات الغربية السياسية والاقتصادية مع باقي دول العالم. ومثَّلَ ذلك إخفاقاً لتحقيق ما هدفت إليه رسالة المسيح أو أي دين آخر.

فالهدف الجوهري لأي دين هو تعليم البشر كيف يدركون ويشعرون، بل كيف يعيشون معيشة صحيحة وينظمون العلاقات المتبادلة بطريقة سوية عادلة، وإن

إحساس الرجل الغربي أن الدين قد خذله جعله يفقد إيمانه الحقيقي بالمسيحية خلال قرون، وبفقدانه لإيمانه فقد اقتناعه بأن الكون والوجود تعبير عن قوة خلق واحدة وبفقدان تلك القناعة عاش في خواء روحي وأخلاقي.

كان اقتناعه في شبابه المبكر أن الإنسان لا يحيا بالخبز وحده قد تبلور إلى اقتناع فكري بأن عبادة التقدم المادي ليست إلا بديلاً وهمياً للإيمان السابق بالقيم المجردة، وأن الإيمان الزائف بالمادة جعل الغربيين يعتقدون بأنهم سيقهرون المصاعب التي تواجههم حالياً، كانت جميع النظم الاقتصادية التي خرجت من معطف المادة علاجاً مزيفاً وخادعاً ولا تصلح لعلاج البؤس الروحي للغرب. كان التقدم المادي بإمكانه في أفضل الحالات شفاء بعض أعراض المرض إلا أن من المستحيل أن يعالج سبب المرض.

كانت أول علاقة له بفكرة الإسلام وهو يقضي أيام رحلته الأولى في القدس عندما رأى مجموعة من الناس يصلون صلاة الجماعة يقول (أصابتني الحيرة حين شاهدت صلاة تتضمن حركات آلية، فسألت الإمام هل تعتقد حقاً أن الله ينتظر منك أن تظهر له إيمانك بتكرار الركوع والسجود؟ ألا يكون من الأفضل أن تنظر إلى داخلك وتصلي إلى ربك بقلبك وأنت ساكن؟ أجاب: بأي وسيلة أخرى تعتقد أننا يمكن أن نعبد الله؟ ألم يخلق الروح والجسد معاً؟ وبما أنه خلقنا جسداً وروحاً ألا يجب أن نصلي بالجسد والروح؟ ثم مضى يشرح المعنى من حركات الصلاة، أيقنت بعد ذلك بسنوات أن ذلك الشرح البسيط قد فتح لي أول باب للإسلام: ص ١٤٦).

بعد هذه الحادثة بشهور كان يدخل الجامع الأموي في دمشق ويرى الناس يصلون، ويصف هذا المشهد: (اصطف مئات المصلين في صفوف طويلة منتظمة خلف الإمام، ركعوا وسجدوا كلهم في توحد مثل الجنود، كان المكان يسوده الصمت يسمع المرء صوت الإمام من أعماق المسجد الجامع يتلو آيات القرآن الكريم، وحين يركع أو يسجد يتبعه كل المصلين كرجل واحد. أدركت في تلك اللحظة مدى قرب الله منهم وقربهم منه بدا لي أن صلاتهم لا تنفصل عن حياتهم اليومية بل كانت جزءاً منها، لا تعينهم صلاتهم على نسيان الحياة بل تعمقها أكثر

بذكرهم الله. قلت لصديقي ومضيفي ونحن ننصرف من الجامع: ما أغرب ذلك وأعظمه! إنكم تشعرون أن الله قريب منكم، أتمنى أن يملأني أنا أيضاً ذلك الشعور، رد صاحبي: ما الذي يمكن أن نحسه غير ذلك والله يقول في كتابه العزيز

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾، ص ١٩٢.

ويقول أسد بعد ذلك: (تركت تلك الشهور الأولى التي عشتها في بلد عربي قطاراً طويلاً من الانعكاسات والانطباعات، لقد واجهت مغزى الحياة وجهاً لوجه وكان ذلك جديداً تماماً على حياتي. الأنفاس البشرية الدافئة تتدفق من مجرى دم أولئك الناس إلى أفكارهم بلا تمزقات روحية مؤلمة من عدم الاطمئنان والخوف والطمع والإحباط الذي جعل من الحياة الأوروبية حياة قبيحة وسيئة لا تعد بأي شيء)، ص ١٥٧.

(أحسست بضرورة فهم روح تلك الشعوب المسلمة لأني وجدت لديهم تلاحماً عضوياً بين الفكر والحواس، ذلك التلاحم الذي فقدناه نحن الأوروبيين، واعتقدت أنه من خلال فهم أقرب وأفضل لحياتهم يمكن أن أكتشف الحلقة المفقودة التي تسبب معاناة الغربيين وهي تآكل التكامل الداخلي للشخصية الأوروبية، لقد اكتشفت كنه ذلك الشيء الذي جعلنا نحن أهل الغرب ننأى عن الحرية الحقة بشروطها الموضوعية التي يتمتع بها المسلمون حتى في عصور انهيارهم الاجتماعي والسياسي)، ص ١٥٨.

(ما كنت أشعر به في البداية أنه لا يعدو أكثر من تعاطف مع شكل الحياة العربية والأمان المعنوي الذي أحسبه فيما بينهم تحول بطريقة لا أدركها إلى ما يشبه المسألة الذاتية، زاد وعيي برغبة طاغية في معرفة كنه ذلك الشيء الذي يكمن في أسس الأمن المعنوي والنفسي وجعل حياة العرب تختلف كلياً عن حياة الأوروبيين، ارتبطت تلك الرغبة بشكل غامض بمشكلاتي الشخصية الدفينة، بدأت أبحث عن مداخل تتيح لي فهماً أفضل للشخصية العربية والأفكار التي شكلتهم وصاغتهم وجعلتهم يختلفون روحياً عن الأوروبيين. بدأت أقرأ كثيراً بتركيز في تاريخهم وثقافتهم ودينهم، وفي غمرة اهتمامي أحسست بأني قد توصلت إلى

اكتشاف ما يحرك قلوبهم ويشغل فكرهم ويحدد لهم اتجاههم، أحسست أيضاً بضرورة اكتشاف القوى الخفية التي تحركني أنا ذاتي وتشكل دوافعي وتشغل فكري وتعدني أن تهديني السبيل)، ص ١٥٩.

(قضيت كل وقتي في دمشق أقرأ من الكتب كل ما له علاقة بالإسلام كانت لغتي العربية تسعفني في تبادل الحديث إلا أنها كانت أضعف من أن تمكنني من قراءة القرآن الكريم.. لذا لجأت إلى ترجمة لمعاني القرآن الكريم .. أما ما عدا القرآن الكريم فقد اعتمدت فيه على أعمال المستشرقين الأوروبيين.

ومهما كانت ضآلة ما عرفت إلا أنه كان أشبه برفع ستار، بدأت في معرفة عالمٍ من الأفكار كنت غافلاً عنه وجاهلاً به حتى ذلك الوقت، لم يبد لي الإسلام ديناً بالمعنى المتعارف عليه بين الناس لكلمة دين بل بدا لي أسلوباً للحياة، ليس نظاماً لاهوتياً بقدر ما هو سلوك فرد ومجتمع يرتكز على الوعي بوجود إله واحد، لم أجد في أي آية من آيات القرآن الكريم أي إشارة إلى احتياج البشر إلى الخلاص الروحي ولا يوجد ذكر لخطيئة أولى موروثة تقف حائلاً بين المرء وقدره الذي قدره الله له، ولا يبقى لابن آدم إلا عمله الذي سعى إليه، ولا يوجد حاجة إلى الترهب والزهد لفتح أبواب خفية لتحقيق الخلاص، الخلاص حق مكفول للبشر بالولادة، والخطيئة لا تعني إلا ابتعاد الناس عن الفطرة التي خلقهم الله عليها، لم أجد أي أثر على الثنائية في الطبيعة البشرية فالبدن والروح يعملان في المنظور الإسلامي كوحدة واحدة لا ينفصل أحدهما عن الآخر.

أدهشني في البداية اهتمام القرآن الكريم ليس بالجوانب الروحية فقط بل بجوانب أخرى غير مهمة من الأمور الدنيوية، ولكن مع مرور الوقت بدأت أدرك أن البشر وحدة متكاملة من بدنٍ وروح، وقد أكد الإسلام ذلك، لا يوجد وجه من وجوه الحياة يمكن أن نعده مهمشاً بل إن كل جوانب حياة البشر تأتي في صلب اهتمامات الدين. لم يدع القرآن الكريم المسلمين ينسون أن الحياة الدنيا ليست إلا مرحلة في طريق البشر نحو تحقيق وجود أسمى وأبقى وأن الهدف النهائي ذو سمة روحية، ويرى أن الرخاء المادي لا ضرر منه إلا أنه ليس غاية في حد ذاته، لذلك لا بد أن

تقنن شهية الإنسان وشهواته وتتم السيطرة عليها بوعي أخلاقي من الفرد، هذا الوعي لا يوجه إلى الله فقط بل يوجه أيضاً إلى البشر فيما بينهم، لا من أجل الكمال الديني وحده بل من أجل خلق حالة اجتماعية تؤدي إلى تطور وعي للمجتمع بأجمله حتى يتمكن من أن يحيا حياة كاملة.

نظرت إلى كل تلك الجوانب الفكرية والأخلاقية بتقدير وإجلال، كان منهجه في تناول مشكلات الروح أعمق كثيراً من تلك التي وجدتها في التوراة، هذا عدا أنه لم يأت لبشر دون بشر ولا لأمة بذاتها دون غيرها، كما أن منهجه في مسألة البدن بعكس منهج الإنجيل منهج إيجابي لا يتجاهل البدن، البدن والروح معاً يكونان البشر كتوأمين متلازمين، سألت: ألا يمكن أن يكون ذلك المنهج هو السبب الكامن وراء الإحساس بالأمن والتوازن الفكري والنفسي الذي يميز العرب والمسلمين)، ص ١٩٣-١٩٤.

بعد أن غادر سوريا بقي شهوراً في تركيا في طريق عودته إلى أوروبا لتنتهي رحلته الأولى إلى العالم الإسلامي.

(بدأت انطباعاتي عن تركيا تفقد حيويتها وأنا في القطار المتوجه إلى «فينا» وما ظل راسخاً هو الثمانية عشر شهراً التي قضيتها في البلاد العربية، صدمني إدراكي أني أتطلع إلى المشاهد الأوروبية التي اعتدتها بعيني من هو غريب عنها، بدا الناس في نظري في غاية القبح وحركاتهم خالية من الرقة، ولا علاقة مباشرة بين حركاتهم وما يدرونه ويشعرون به، أدركت فجأة أنه على الرغم من المظاهر التي تنبئ بأنهم يعرفون ما يريدون إلا أنهم لا يعرفون أنهم يحيون في عالم الادعاء والتظاهر، اتضح لي أن حياتي بين العرب غيرت منهجي ورؤيتي لما كنت أعده مهماً وضرورياً للحياة، تذكرت بشيء من الدهشة أن أوروبيين آخرين قد مروا بتجارب حياتية مع العرب وعايشوهم أزماناً طويلة فكيف لم تعترهم دهشة الاكتشاف كما اعترتني أم أن ذلك قد وقع لهم أيضاً؟ هل أهتز أحدهم من أعماقه كما حدث لي)، ص ٢٠٤-٢٠٥.

(توقفت بضعة أسابيع في «فينا» واحتفلت بتصالحي مع أبي الذي سامحني على ترك دراستي الجامعية ومغادرتي منزل الأسرة بتلك الطريقة الفجة، على أي حال كنت مراسلاً لجريدة «فرانكفوتر ذيتونج» وهو اسم يلقى التقدير والتبجيل في وسط أوروبا في ذلك الوقت، وهكذا حققت في نظره مصداقية ما زعمت له قبل ذلك من أني سأحقق ما أصبو إليه وأصل إلى القمة)، ص ٢٠٥.

(رحلت بعد ذلك من «فينا» مباشرة إلى «فرانكفورت» لأقدم نفسي شخصياً إلى الصحيفة التي كنت أمثلها في الخارج على مدى عام، كنت في طريقي إليها وأنا أشد ثقة بنفسي فالرسائل التي كنت أتلقاها من «فرانكفورت» أظهرت لي أن مقالاتي كانت تلقى كل التقدير والترحيب)، ص ٢٠٥- ٢٠٦.

(أن أكون عضواً عاملاً في مثل تلك الصحيفة كان مصدر فخر واعتزاز لشاب في مثل سني، وعلى الرغم من أن مقالاتي عن الشرق الأوسط قوبلت باهتمام شديد من قبل جميع المحررين إلا أن نصري الكامل تحقق في اليوم الذي كلفت فيه أن أكتب مقالاً افتتاحياً بالصحيفة عن مشكلة الشرق الأوسط)، ص ٢٠٧- ٢٠٨.

كان من نتائج عملي في جريدة «فرانكفورت ذيتونج» النضج المبكر لتفكيري الواعي، كما نتجت عنه رؤية ذهنية أكثر وضوحاً من أي وقت مضى، فبدأت في مزج خبرتي بالشرق بعالم الغرب الذي أصبحت جزءاً منه من جديد. منذ عدة شهور مضت اكتشفت العلاقة بين الاطمئنان النفسي والعاطفي السائد في نفوس العرب وعقيدة الإسلام التي يؤمنون بها، كما بدا يتبلور في ذهني أن نقص التكامل النفسي الداخلي للأوروبيين وحالة الفوضى اللاأخلاقية التي تسيطر عليهم قد تكون ناتجة من عدم وجود إيمان ديني وقد تكونت الحضارة الغربية في غيابه، لم ينكر مجتمع الغرب الإله إلا أنه لم يترك له مكاناً في أنساقه الفكرية)، ص ٢٠٨.

بعد عودته إلى أوروبا من رحلته كان يحس بالملل إحساس من أجبر على التوقف قبل التوصل إلى كشف عظيم سيميط عن نفسه الحجب لو أتيح له مزيد من الوقت.

كان يتوق إلى العودة إلى الشرق مرة أخرى، وقد تحقق له ما أراد إذ إن رئيس تحرير الجريدة الدكتور هنري سيمون ـ الذي كان في ذلك الوقت مشهوراً في أرجاء العالم ـ قد رأى فيه مراسلاً صحفياً واعداً فوافق بحماس على عودته إلى الشرق الأوسط بسرعة.

عاد إلى الشرق ليقضي عامين آخرين بين مصر وبلاد الشام والعراق وإيران وأفغانستان، عاد من أوروبا وفي ذهنه صورة عن عالم الغرب ظلت تزداد في ذهنه مع الأيام رسوخاً وثباتاً، عبر عن هذه الصورة فيما يأتي: (حقاً إن الإنسان الغربي قد أسلم نفسه لعبادة الدجال، لقد فقد منذ وقت طويل براءته، وفقد كل تماسك داخلي مع الطبيعة، لقد أصبحت الحياة في نظره لغزاً، إنه مرتاب شكوك ولذا فهو منفصل عن أخيه، ينفرد بنفسه، ولكي لا يهلك في وحدته هذه فإن عليه أن يسيطر على الحياة بالوسائل الخارجية، وحقيقة كونه على قيد الحياة لم تعد وحدها قادرة على أن تشعره بالأمن الداخلي، ولذا فإن عليه أن يكافح دائماً وبألم في سبيل هذا الأمن من لحظة إلى أخرى، وبسبب من أنه فقد كل توجيه ديني وقرر الاستغناء عنه فإن عليه أن يخترع لنفسه باستمرار حلفاء ميكانيكيين، من هنا نما عنده الميل المحموم إلى التقنية والتمكن من قوانينها ووسائلها، أنه يخترع كل يوم آلات جديدة ويعطي كلاً منها بعض روحه كيما تنافح في سبيل وجوده، وهي تفعل ذلك حقاً، ولكنها في الوقت نفسه تخلق له حاجات جديدة، ومخاوف جديدة وظمأ لا يروى إلى حلفاء جدد آخرين أكثر اصطناعية، وتضيع روحه في ضوضاء الآلة الخانقة التي تزداد مع الأيام قوة وغرابة، وتفقد الآلة غرضها الأصلي ـ أي أن تصون وتغني الحياة الإنسانية ـ وتتطور إلى صنم بذاته، صنم من فولاذ، ويبدو أن كهنة هذا المعبود والمبشرين به غير مدركين أن سرعة التقدم التقني الحديث هي نتيجة ليس لنمو المعرفة الإيجابي فحسب بل لليأس الروحي أيضاً، وأن الانتصارات المادية العظمى التي يعلن الإنسان الغربي أنه بها يستحق السيادة على الطبيعة هي في صميمها ذات صفة دفاعية فخلف واجهتها البراقة يكمن الخوف من الغيب، إن الحضارة الغربية لم تستطع حتى الآن أن تقيم توازناً بين حاجات الإنسان الجسيمة والاجتماعية وبين أشواقه الروحية، لقد تخلت عن آداب دياناتها السابقة دون أن تتمكن أن تخرج من نفسها أي نظام أخلاقي آخر ـ مهما

كان نظرياً ـ يخضع نفسه للعقل، بالرغم من كل ما حققته من تقدم ثقافي فإنها لم تستطع حتى الآن التغلب على استعداد الإنسان الأحمق للسقوط فريسة لأي هتاف عدائي أو نداء للحرب مهما كان سخيفاً باطلاً يخترعه الحاذقون من الزعماء.. الأمم الغربية وصلت درجة أصبحت معها الإمكانات العلمية غير المحدودة تصاحب الفوضى العملية، وإذا كان الغربي يفتقر إلى توجيه ديني حاذق فإنه لا يستطيع أن يفيد أخلاقياً من ضياء المعرفة الذي تسكبه علومه وهي لا شك عظيمة إن الغربيين ـ في عمى وعجرفة ـ يعتقدون عن اقتناع أن حضارتهم هي التي ستنير العالم وتحقق السعادة، وإن كل المشكلات البشرية يمكن حلها في المصانع والمعامل وعلى مكاتب المحللين الاقتصاديين والإحصائيين إنهم بحق يعبدون الدجال)، ص ٣٩٨- ٣٩٩.

في هذه الرحلة الثانية أمكنه أن يتقن اللغة العربية، ولذلك فبدل أن ينظر إلى الإسلام بعين غيره من المستشرقين ومترجمي القرآن غير المسلمين صار في إمكانه أن ينظر إلى الإسلام في تراثه الثقافي كما هو، لم يعد على اعتقاده السابق استحالة أن يتفهم الأوروبي بوعي العقلية الإسلامية، أيقن أنه لو تحرر المرء تماماً من عاداته التي نشأ عليها ومناهجها الفكرية وتقبل مفهوم أنها ليست بالضرورة الأساليب الصحيحة في الحياة لأمكن أن يفهم ما يبدو غريباً في نظره عن الإسلام، كانت فكرته عن الإسلام تتطور وتنمو طوال هذه الرحلة الثانية التي أمكنه فيها أن يختلط بالشعوب ويناقش العلماء، يتصل بالزعماء.

(كان التفكير في الإسلام يشغل ذهني، إن الأمر بدا لي في ذلك الوقت إنه رحلة لاستكشاف ما أجهله من تلك المناطق كان كل يوم يمر يضيف إلي معارف جديدة، ويطرح أسئلة جديدة لأجد إجاباتها تأتي من الخارج جميعها أيقظت شيئاً ما كان نائماً في أعماقي وكلما نمت معارفي عن الإسلام كنت أشعر مرة بعد أخرى أن الحقائق الجوهرية التي كانت كامنة في أعماقي من دون أن أعي وجودها بدأت تنكشف تدريجياً ويتأكد تطابقها مع الإسلام): ص ٢٨٠- ٢٨١.

كان اليقين ينمو في داخله بأنه يقترب من إجابة نهائية عن أسئلته، بتفهمه لحياة

المسلمين كان يقترب يومياً من فهم أفضل للإسلام، وكان الإسلام دائماً مسيطراً على ذهنه (لا يوجد في العالم بأجمعه ما يبعث في نفسي مثل تلك الراحة التي شعرت بها والتي أصبحت غير موجودة في الغرب ومهددة الآن بالضياع والاختفاء من الشرق، تلك الراحة وذلك الرضا اللذان يعبران عن التوافق الساحر بين الذات الإنسانية والعالم الذي يحيط بها)، ص ٢٦٤.

بهذه الروح من التسامح تجاه الآخر استطاع بسهولة أن يتخلص من انخداع الرجل الغربي وإساءته فهم الإسلام بسبب ما يراه من تخلف وانحطاط في العالم الإسلامي.

(الآراء الشائعة في الغرب عن الإسلام تتلخص فيما يأتي: «انحطاط المسلمين ناتج عن الإسلام وأنه بمجرد تحررهم من العقيدة الإسلامية وتبني مفاهيم الغرب وأساليب حياتهم وفكرهم فإن ذلك سيكون أفضل لهم وللعالم»، إلا أن ما وجدته من مفاهيم وما توصلت إلى فهمه من مبادئ الإسلام وقيمه أقنعني أن ما يردده الغرب ليس إلا مفهوماً مشوهاً للإسلام... أتضح لي أن تخلف المسلمين لم يكن ناتجاً عن الإسلام، ولكن لإخفاقهم في أن يحيوا كما أمرهم الإسلام.. لقد كان الإسلام هو ما حمل المسلمين الأوائل إلى ذرا فكرية وثقافية سامية): ص ٢٦٩- ٢٧٠.

(وفر الإسلام باختصار حافزاً قوياً إلى التقدم المعرفي والثقافي والحضاري الذي أبدع واحدة من أروع صفحات التاريخ الإنساني، وقد وفر ذلك الحافز مواقف إيجابية عندما حدد في وضوح نعم للعقل ولا لظلام الجهل، نعم للعمل والسعي ولا للتقاعد والنكوص، نعم للحياة ولا للزهد والرهبنة، ولذلك لم يكن عجباً أن يكتسب الإسلام اتباعا في طفرات هائلة بمجرد أن جاوز حدود بلاد العرب، فقد وجدت الشعوب التي نشأت في أحضان مسيحية القديس بولس والقديس اوجستين... دينا لا يقر عقيدة ومفهوم الخطيئة الأولى.. ويؤكد كرامة الحياة البشرية، ولذلك دخلوا في دين الله أفواجاً، جميع ذلك يفسر كيفية انتصار الإسلام وانتشاره الواسع والسريع في بداياته التاريخية ويفند مزاعم من روجوا أنه انتشر بحد السيف، لم يكن المسلمون إذاً هم من خلقوا عظمة الإسلام، بل كان الإسلام من خلق عظمة

المسلمين، وبمجرد أن تحول إيمانهم إلى عادة، وابتعد أن يكون منهجاً وأسلوباً للحياة خبا وهج النبض الخلاق في تلك الحضارة وحل محلها تدريجياً التقاعس والعقم وتحلل الثقافة)، ص ٢٧٢.

كان ذكاؤه الحاد ونفاذ بصيرته، ونهمه إلى الإطلاع على التراث الفكري للمسلمين، يعمق معرفته بالإسلام فيبصره على حقيقته (كانت صور نهائية متكاملة عن الإسلام تتبلور في ذهني، كان يدهشني في أوقات كثيرة أنها تتكون داخلي بما يشبه الارتشاح العقلي والفكري، أي إنها تتم من دون وعي وإرادة مني، كانت الأفكار تتجمع ويضمها ذهني بعضها إلى بعض في عملية تنظيم ومنهجة لكل الشذرات من المعلومات التي عرفتها عن الإسلام. رأيت في ذهني عملاً عمرانياً متكاملاً تتضح معالمه رويداً رويدا بكل ما تحتويه من عناصر الاكتمال، وتناغم الأجزاء والمكونات مع الكل المتكامل في توازن لا يخل جزء منه بآخر، توازن مقتصد بلا خلل، ويشعر المرء أن منظور الإسلام ومسلماته كلها في موضعها الملائم الصحيح من الوجود)، ص ٤٠٦– ٤٠٧.

(كانت أهم صفة بارزة لحضارة الإسلام، وهي الصفة التي انفردت بها عن الحضارات البشرية السابقة أو اللاحقة أنها منبثقة من إرادة حرة لشعوبها، لم تكن مثل حضارات سابقة وليدة قهر وضغط وإكراه وتصارع إرادات وصراع مصالح، ولكنها كانت جزأ وكلاً من رغبة حقيقية أصيلة لدى جميع المسلمين مستمدة من إيمانهم بالله وما حثهم عليه من إعمال فكر وعمل، لقد كانت تعاقداً اجتماعياً أصيلاً لا مجرد كلام أجوف يدافع به جيل تالٍ عن امتيازات خاصة به... لقد تحققت أن ذلك العقد الاجتماعي الوحيد المسجل تاريخياً تحقق فقط على مدى زمني قصير جداً، أو على الأصح أنه على مدى زمني قصير تحقق العقد على نطاق واسع، بعد أقل من مئة سنة من وفاة الرسول ﷺ بدأ الشكل النقي الأصيل للإسلام يدب فيه الفساد وفي القرون التالية بدأ المنهج القويم يزاح إلى الخلفية... لقد حاول المفكرون الإسلاميون أن يحفظوا نقاء العقيدة إلا أن من أتوا بعدهم كانوا أقل قدرة من سابقيهم، وتقاعسوا عن الاجتهاد.. وتوقفوا عن التفكير المبدع والاجتهاد الخلاق.. كانت القوة الدافعة الأولى للإسلام كافية لوضعه في قمة سامية من

الرقي الحضاري والفكري.. وهذا ما دفع المؤرخين إلى وصف تلك المرحلة بالعصر الذهبي للإسلام، إلا أن القوة الدافعة قد ماتت لنقص الغذاء الروحي الدافع لها وركدت الحضارة الإسلامية عصراً بعد عصر لافتقادها القوة الخلاقة المبدعة، لم يكن لدي أوهام عن الحالة المعاصرة للعالم الإسلامي، بينت الأعوام الأربعة التي قضيتها في مجتمعات إسلامية أن الإسلام مازال حياً وأن الأمة الإسلامية متمسكة به بقبول صامت لمنهجه وتعاليمه إلا أن المسلمين كانوا مشلولين غير قادرين على تحويل إيمانهم إلى أفعال مثمرة، إلا أن ما شغلني أكثر من إخفاق المسلمين المعاصرين في تحقيق منهج الإسلام الإمكانيات المتضمنة في المنهج ذاته، كان يكفيني أن أعرف أنه خلال مدى زمني قصير.. كانت هنالك محاولة ناجحة لتطبيق هذا المنهج، وما أمكن تحقيقه في وقت ما يمكن تحقيقه لاحقاً، ما كان يهمني ـ كما فكرت في داخلي ـ أن المسلمين شردوا عن التعليمات الأصلية للدين... ما الذي حدث وجعلهم يبتعدون عن المثاليات التي علمهم إياها الرسولﷺ منذ ثلاثة عشر قرناً مضت ما دامت تلك التعليمات لا تزال متاحة لهم إن أرادوا الاستماع إلى ما تحمله من رسالة سامية؟ بدا لي كلما فكرت أننا نحن في عصرنا الحالي نحتاج إلى تعاليم تلك الرسالة أكثر من هؤلاء الذين عاشوا في عصر محمدﷺ، لقد عاشوا في بيئات وظروف أبسط بكثير مما نعيش فيها الآن، ولذلك كانت مشكلاتهم أقل بكثير من مشكلاتنا... العالم الذي كنت أحيا فيه ـ كله ـ كان يتخبط لغياب أي رؤية عامة لما هو خير وما هو شر... لقد أحسست بيقين تام.. أن مجتمعنا المعاصر يحتاج إلى أسس فكرية عقائدية توفر شكلاً من أشكال التعاقد بين أفراده، وأنه يحتاج إلى إيمان يجعله يدرك خواء التقدم المادي من أجل التقدم ذاته، وفي الوقت نفسه يعطي للحياة نصيبها، أن ذلك سيدلنا ويرشدنا إلى كيفية تحقيق التوازن بين احتياجاتنا الروحية والبدنية، وأن ذلك سينقذنا من كارثة محققة نتجه إليها بأقصى سرعة... في تلك الفترة من حياتي شغلت فكري مشكلة الإسلام كما لم يشغل ذهني شيء آخر من قبل، قد تجاوزت مرحلة الاستغراق الفكري و.. الاهتمام العقلي بدين وثقافة غريبين، لقد تحول اهتمامي إلى بحث محموم عن الحقيقة)، ص ٤٠٧ – ٤١٢.

لقد صار في إمكانه أن يميز بين ما هو الإسلام وما هو غريب عنه في تصورات

المسلمين وسلوكهم، في رحلته الأولى رأى حلقة ذكر يقيمها الصوفية في أحد مساجد «سكوتاري» في تركيا ويصفها بهذه العبارات:( «كانوا» يقفون في محيط واحد فاستداروا في نصف دورة ليقابل كل واحد منهم الآخر أزواجاً، كانوا يعقدون أذرعهم على صدورهم وينحنون انحناءة شديدة وهم يستديرون بجذوعهم في نصف دائرة.. في اللحظة التالية «كانوا» يقذفون أذرعهم في الاتجاه المعاكس الكف اليمنى ترتفع والكف اليسرى تنزل إلى الجانب، وتخرج من حلوقهم مع كل نصف انحناءة واستدارة أصوات مثل غناء هامس «هو» ثم يطرحون رؤوسهم للخلف مغمضين أعينهم ويجتاح ملامحهم تقلص ناعم، ثم تتصاعد وتتسارع إيقاعات الحركة وترتفع الجلاليب لتكون دائرة متسعة حول كل درويش مثل دوامات البحار.. تحولت الدائرة إلى دوامات، اجتاحهم الانهماك، وشفاههم تكرر بلا نهاية «هو، هو»)، ص ٢٧٧.

وفي الرحلة الثانية يتذكر حلقة الذكر هذه ويعلق عليها: (اتضحت في ذهني معاني لم تبد لي عندما شاهدت حلقة الذكر «في سكوتاري»، كان ذلك الطقس الديني لتلك الجماعة - وهي واحدة من جماعات كثيرة شاهدتها في مختلف البلاد الإسلامية - لا يتفق مع صورة الإسلام التي كانت تتبلور في ذهني.. تبين لي أن تلك الممارسات والطقوس دخيلة على الإسلام من جهات ومصادر غير إسلامية، لقد شابت تأملات المتصوفة وأفكارهم أفكار روحية هندية ومسيحية، مما أضفى على بعض ذلك التصوف مفاهيم غريبة عن الرسالة التي جاء بها النبي ﷺ، أكدت رسالة النبي ﷺ أن السببية العقلية هي السبيل للإيمان الصحيح بينما تبتعد التأملات الصوفية وما يترتب عليها «من سلوك» عن ذلك المضمون، والإسلام قبل أي شيء مفهوم عقلاني لا عاطفي ولا انفعالي، الانفعالات مهما تكن جياشة معرضة للاختلاف والتباين باختلاف رغبات الأفراد وتباين مخاوفهم بعكس السببية العقلية، كما أن الانفعالات غير معصومة بأي حال)، ص ٢٧٩.

كتب بعد ذلك بسنوات: (لقد بدا لي الإسلام مثل تكوين هندسي محكم البناء، كل أجزائه قد صيغت ليكمل بعضها البعض وليدعم بعضها بعضاً، ليس فيها شيء زائد عن الحاجة وليس فيها ما ينقص عنها، وناتج ذلك كله توازن مطلق وبناء

# تقديم

محكم، ربما كان شعوري بأن كل ما في الإسلام من تعاليم وضع موضعه الصحيح هو ما كان له أعظم الأثر علي، لقد سعيت بجد إلى أن أتعلم عن الإسلام كل ما أستطيع أن أتعلمه، درست القرآن وأحاديث النبي ﷺ درست لغة الإسلام وتاريخه وقدراً كبيراً مما كتب عن الإسلام وما كتب ضده، أقمت ست سنوات تقريباً في نجد والحجاز معظمها في مكة والمدينة بغرض أن أتصل مباشرة ببيئة الإسلام الأصلية، وبما أن المدينتين كانتا مكان اجتماع المسلمين من مختلف الأقطار فقد تمكن من الاطلاع على مختلف الآراء الدينية والاجتماعية السائدة حالياً في العالم الإسلامي، وكل هذه الدراسات والمقارنات خلقت لدي اعتقاداً راسخاً أن الإسلام كظاهرة روحية واجتماعية لا يزال أقوى قوة دافعة عرفها البشر رغم كل مظاهر التخلف التي خلفها ابتعاد المسلمين عن الإسلام.

Islam At the Crossroads ED. 1982 p 11-12

طوال العامين اللذين قضاهما في رحلته الثانية في العالم الإسلامي كان بعقله ومعلوماته يتقدم بسرعة في الطريق إلى الإسلام، لقد وعي ذلك وهو يعدو بجواده فوق جبال إيرانية مغطاة بالثلج الأبيض: (بدا العالم كله مبسوطاً أمامي في رحابية لا تنتهي بدا شفافاً في عيني كما لم يبد من قبل، رأيت نمطه الداخلي الخفي، وأحسست بنبضه الدفين في تلك الأصقاع البيضاء الخالية، واندهشت من خفاء ذلك عليّ منذ دقيقة مضت، وأيقنت أن كل الأسئلة التي تبدو بلا إجابة ماثلة أمامنا في انتظار أن ندركها، بينما نحن ـ الحمقى المساكين ـ نطرح الأسئلة وننتظر أن تفتح الأسرار الإلهية نفسها لنا بينما تنتظر تلك الأسرار أن نفتح نحن أنفسنا لها، مرّ أكثر من عام بين انطلاقي المجنون على جوادي فوق الجليد والبرد قبل أن أعتنق الإسلام، ولكن حتى في ذلك الوقت قبل إسلامي كنت أنطلق ـ دون أن أعي ذلك ـ في خط مستقيم كمسار السهم المنطلق باتجاه مكة المكرمة)، ص ٣٠٠- ٣٠١.

(كنت في طريقي إلى مدينة هراة إلى مدينة كابل ... توجهنا إلى قرية ده زانجي، جلسنا في اليوم التالي حول غداء وافر كالمعتاد «في بيت الحاكم» وبعد الغداء قام رجل من القرية بالترفيه عنا ...

غنى على ما أذكر عن معركة داود وجالوت، عن الإيمان عندما يواجه قوة غاشمة .. علق الحاكم في نهاية الأغنية قائلاً: «كان داود صغيراً إلا أن إيمانه كان كبيراً» فلم أتمالك نفسي وقلت باندفاع: «وأنتم كثيرون وإيمانكم قليل»، نظر إلي مضيفي مندهشاً فخجلت مما قلت من دون أن أتمالك نفسي وبدأت بسرعة في توضيح ما قلت واتخذ تفسيري شكل أسئلة متعاقبة كسيل جارف، قلت: «كيف حدث أنكم معشر المسلمين فقدتم الثقة بأنفسكم تلك الثقة التي مكنتكم من نشر عقيدتكم في أقل من مئة عام حتى المحيط الأطلسي .. وحتى أعماق الصين، والآن تستسلمون بسهولة وضعف إلى أفكار الغرب وعاداته؟ لماذا لا تستجمعون قوتكم وشجاعتكم لاستعادة إيمانكم الفعلي، كيف يصبح أتاتورك ذلك المتنكر التافه الذي ينكر كل قيمة للإسلام، رمزاً لكم في الأحياء والنهوض والإصلاح؟».

ظل مضيفي صامتاً .. كان الثلج قد بدأ في التساقط خارجاً، وشعرت مرة أخرى بموجة من الأسى مختلطة مع تلك السعادة الداخلية التي شعرت بها ونحن نقترب من ده زانجي أحسست بالعظمة التي كانت عليها تلك الأمة، وبالخزي الذي يغلف ورثتها المعاصرين. أردفت مكملاً أسئلتي: «قل لي كيف دفن علماؤكم الإيمان الذي أتى به نبيكم بصفائه ونقائه؟ كيف حدث أن نبلاءكم وكبار ملاك أراضيكم يغرقون في الملذات بينما يغرق أغلب المسلمين في الفقر .. مع أن نبيكم علمكم أنه لا يؤمن أحدكم أن يشبع وجاره جائع؟ هل يمكن أن تفسر لي كيف دفعتم النساء إلى هامش الحياة مع أن النساء في حياة الرسول ﷺ والصحابة ساهمن في شؤون حياة أزواجهن؟ «كان مضيفي ما زال يحملق فيَّ دون كلمة، وبدأت أعتقد أن انفجاري ربما سبب له ضيقاً، في النهاية جذب الحاكم ثوبه الأصفر الواسع وأحكمه حول جسمه .. ثم همس «ولكن أنت مسلم» ضحكت وأجبته «كلا لست مسلماً ولكن رأيت الجوانب العظيمة في رسالة الإسلام مما يجعلني أشعر بالغضب وأنا أراكم تضيعونه، سامحني إن تحدثت بحدة، أنا لست عدواً على أي حال» إلا أن مضيفي هز رأسه قائلاً: «كلا أنت كما قلت لك مسلم إلا أنك لا تعلم ذلك، لماذا لا تعلن الآن هنا: أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، وتصبح مسلماً بالفعل بدلاً من أن تكون مسلماً بقلبك فقط، قلت له: «لو قلتها في أي وقت فسأقولها عندما يستقر فكري عليها ويستريح لها» استمر إصرار الحاكم: ولكنك تعرف عن

الإسلام أكثر مما يعرفه أي واحد منا، ما الذي لم تعرفه أو تفهمه بعد؟ قلت له: «الأمر ليس مسألة فهم بل أن أكون مقتنعاً، أن أقتنع أن القرآن الكريم هو كلام الله، وليس ابتداعاً ذكياً لعقلية بشرية عظيمة» ولم تمح كلمات صديقي الأفغاني من ذهني على مدى شهور طويلة)، ص ٤٠٠– ٤٠٣.

بعد شهور من هذه الحادثة كان ينطق بالشهادة أمام رئيس رابطة المسلمين في برلين كان قد رجع إلى أوروبا من رحلته الثانية التي استغرقت عامين من التجوال في العالم الإسلامي فعرف أن اسمه أصبح من الأسماء المعروفة .. وأنه أصبح واحداً من أشهر مراسلي الصحف وسط أوروبا، بعض مقالاته لقيت ما يفوق الاعتراف بأهميتها، وتلقى دعوة لإلقاء سلسلة من المحاضرات في أكاديمية الجغرافيا السياسية في برلين، ولم يحدث كما قيل له أن رجلاً في مثل سنه (السادسة والعشرين) قد حقق ذلك التميز، وأعيد نشر مقالاته الأخرى في صحف كثيرة حتى أن واحدة من تلك المقالات نشرت في ثلاثين مطبوعة مختلفة، ولكن بعد عودته واتصاله من جديد بأصدقاء الفكر والثقافة في برلين، ومناقشته معهم قضية الإسلام، أحس أنه وإياهم لم يعودوا يتحدثون من المنطلقات الفكرية نفسها، شعر بأن من يرون منهم أن الأديان القديمة أصبحت شيئاً من الماضي وهم الأغلبية ومن كانوا لا يرفضون الأديان رفضاً كلياً، كانوا كلهم يميلون بلا سبب إلى تبني المفهوم الغربي الشائع الذي يرى أن الإسلام يهتم بالشؤون الدينية وتنقصه الروحانيات التي يتوقع المرء أن يجدها في أي دين (ما أدهشني بالفعل أن اكتشف أن ذلك الجانب من الإسلام هو ما جذبني إليه من أول لحظة وهو عدم الفصل بين الوجود المادي والوجود الروحي للبشر، وتأكيد السببية العقلية سبيلاً للإيمان، وهو الجانب ذاته الذي يعترض عليه مفكرو أوروبا، الذين يتبنون السببية العقلية منهجاً للحياة، ولا يتخلون عن ذلك المهج العقلاني، إلا عندما يرد ذكر الإسلام، ولم أجد أي فرق بين الأقلية المهتمة بالأديان والأغلبية التي ترى أن الدين أصبح من المفاهيم البالية التي عفى عليها الزمن، أدركت مع الوقت مكمن الخطأ في منهج كل منهما، أدركت أن مفاهيم من تربوا في أحضان الأفكار المسيحية في أوروبا ... تبنوا مفهوماً يسود بينهم جميعاً فمع طول تعود أوروبا نسق التفكير المسيحي تعلم حتى اللادينيين أن ينظروا إلى أي دين آخر من خلال عدسات مسيحية فيرون أي

فكر ديني صالحاً لأن يكون ديناً إذا غلفته مسحة غامضة خارقة للطبيعة تبدو خافية فوق قدرة العقل البشري على استيعابها، ومن منظورهم لم يف الإسلام بتلك المتطلبات .. كنت أوقن بأني في طريقي إلى الإسلام وجعلني تردد اللحظة الأخيرة أؤجل الخطوة النهائية التي لا مفر منها، كانت فكرة اعتناق الإسلام تمثل لي عبور قنطرة فوق هاوية تفصل بين عالمين مختلفين تماماً قنطرة طويلة حتى إن المرء عليه أن يصل إلى نقطة اللاعودة أولاً قبل أن يتبين الطرف الآخر للقنطرة، كنت أعي أني لو اعتنقت الإسلام اضطررت إلى خلع نفسي نهائياً من العالم الذي ولدت ونشأت فيه، لم تكن هناك حلول أخرى، فلم يكن ممكناً لامرئ مثلي أن يتبع دعوة محمد ﷺ ويظل بعدها محتفظاً بروابطه مع مجتمع يتصف بثنائية المفاهيم المتعارضة والمتناقضة، كان سؤالي الأخير الذي كنت متردداً أمامه هو: هل الإسلام رسالة من عند الله أم أنه حصيلة حكمة رجل عظيم؟)، ص ٤١٣- ٤١٥.

ولم يمكث غير بعيد حتى جاءت الإجابة، لقد اتصل من جديد بحياة الغرب مباشرة، ورأى مبلغ التعاسة والشقاء الذي يعانيه الغربيون ولكنهم لا يعونه أو لا يعون سببه كان في القطار مع زوجته، وشغل نفسه بالتطلع إلى وجوه الناس (بدأت أتطلع حولي إلى الوجوه .. كانت جميعاً وجوهاً تنتمي إلى طبقة تنعم بلبس ومأكل جيدين ولكنها كانت تشي بتعاسة داخلية عميقة ومعاناة واضحة على الملامح تعاسة عميقة حتى أن أصحابها لم يدركوا ذلك .. كنت أوقن بأنهم غير واعين وإلا لما استمروا في إهدار حياتهم على هذا المنوال من دون أي تماسك داخلي ومن دون أي هدف أسمى من مجرد تحسين معيشتهم ومن دون أمل يزيد على الاستحواذ المادي الذي من الممكن أن يحقق لهم مزيداً من السطوة)، ص ٤١٥- ٤١٦.

جاءت الإجابة حين قرأ القرآن فور عودته إلى بيته ـ وكانت تلك التجربة التي مر بها في القطار حية في تفكيره.

(وقفت لحظات مشدوهاً وأنا أحبس أنفاسي، وأحسست أن يدي ترتجفان ... لقد كان القرآن يتضمن الإجابة إجابة حاسمة قضت على شكوكي كلها وأطاحت بها بلا رجعة، أيقنت يقيناً تاماً أن القرآن .. من عند الله)، ص ٤١٦- ٤١٧.

# تقديم

بعد إسلامه بست سنوات كان يقطع الصحراء الكبرى قادماً من قصر عثيمين على الحدود السعودية العراقية وقاصداً مكة، كانت رحلة مليئة بالمفاجآت والمغامرة لقد أشرف فيها على الموت.

وكتب هذا الكتاب الذي بين يدي القارئ يقص التفاصيل المثيرة لهذه الرحلة، ويقص معها تفاصيل رحلة أخرى رحلة روحه إلى مكة، رحلتها إلى الإسلام.

كل ما سبق من الاقتباسات أخذ من هذه القصة الرائعة، والأرقام التي تتلو الاقتباسات هي أرقام صفحات هذا الكتاب، لم أر طريقة لتقديمه أفضل من أن يكون مقدماً بفكر المؤلف وتعبيره.

لقد عنيت مكتبة الملك عبدالعزيز العامة بإعادة ترجمة كتاب «الطريق إلى مكة» لا بسبب أن ترجمته السابقة ـ مع دقتها وجمال أسلوبها ـ كانت غير كاملة، حيث استغنى المترجم السابق مثلاً عن الفصل السابع بعنوان (رسالة فارسية) بالإضافة إلى أجزاء أخرى يبدو أن المترجم قدر أنها خارج اهتمام القارئ العربي، عنيت المكتبة بترجمة الكتاب لا لهذا السبب فقط وإنما لأسباب وجيهة أخرى منها:

١ـ قيمة الكتاب الأدبية، فهو بحق قطعة رائعة من الفن الأدبي يمثل رواية واقعية لا بالمعنى الفني للاصطلاح فحسب بل بالمعني الحقيقي، إن قدرة المؤلف التعبيرية تجعل الألفاظ نابضة بالحياة والحركة، تكاد تحس مضامينها بالحواس الخمس، تقرأها وكأنك تشاهد شريطاً سينمائياً ناطقاً، بل أبلغ من ذلك تحس هواجس الخواطر وتدفق الانفعالات، تأمل هذا المشهد مثلاً صفحات ص ٣٩١- ٣٩٢.

٢ـ قيمته التاريخية، فهو يتضمن وصفاً صادقاً، ودقيقاً ومعبراً عن الشرق الأوسط قبل ثمانين عاماً، لا من حيث المظاهر المادية فحسب بل من حيث الملامح الاجتماعية والثقافية والنفسية للسكان، لقد اختفت كثير من الملامح التي صورها المؤلف وأصبحت جزءاً من التاريخ ولكن بقي بعضها ثابتاً متجدداً اقرأ مثلاً: (خلال السنوات التي قضيتها في الشرق الأوسط من ١٩٢٢ إلى

١٩٢٦ شهدت الحصار الغربي للحياة الثقافية الإسلامية والاستقلال السياسي للعرب والمسلمين، إذا حاولت الشعوب الإسلامية مقاومة تلك الهيمنة يصف الرأي العام الأوروبي تلك المقاومة ببراءة شديدة ـ بأنها (إرهاب ضد الأجانب)، اعتادت أوروبا زماناً طويلاً التعامل مع كل ما يحدث في الشرق الأوسط بفجاجة مع مراعاة لمصالحها فقط، وحجة الغرب دائماً تنحصر في التمزق السياسي العربي، والتخلف الاقتصادي للشرق الأوسط، وكل تدخل غربي في شؤون الشرق يوصف ـ بنفاق ـ بأنه دفاع عن المصالح المشروعة للغرب، بل الأغرب أن يتم تعليله بأنه لتأمين تقدم تلك الشعوب ورقيها .. كان دارسو الشرق الأوسط على استعداد دائم لبلع ذلك الطعم من الادعاءات متجاهلين أن كل تدخل مباشر أو غير مباشر من خارج البلاد لا يؤدي إلا إلى إعاقة تطور أي مجتمع إسلامي ونموه، لم يمر قط في أذهانهم أن أكثر العلل والآفات الاجتماعية والاقتصادية التي يعانيها الشرق الأوسط ليست إلا نتيجة مباشرة للمصالح الغربية وعدا ذلك يهدف التدخل الغربي بشكل أو بآخر إلى توسيع نطاق بؤر الاضطرابات الداخلية وزيادتها لتصعيب سيطرة الشعوب المعنية على معتقداتها)، ص ١٦٤– ١٦٥.

٣ـ قيمته الفكرية ذلك أن عمق تأملات المؤلف وقدرته على التحليل، وصرامته في التحيز للتفكير العقلاني، ومعارفه على علم النفس، جعلت تفسيره للظواهر يستحق احترام القارئ وإعجابه حتى لو لم يتفق معه عليه، انظر مثلاً تفسير المؤلف لظاهرة المرح عند المصريين (ص ١٦٩–١٧٠) أو تفسيره لاعتناق الشعب الإيراني للمذهب الشيعي (ص ٣٧٣–٣٨٠).

إن القارئ الملم بتاريخ إيران قد لا يجد من واقع التاريخ ولا من واقع الحياة ما يؤيد هذا التفسير الأخير، ولكنه سيدرك به طريقة تفكير المؤلف وأسلوبه في تحليل الوقائع والظواهر.

٤ـ قيمته فيما يتعلق بالإسلام: فبسبب أن المؤلف خرج من جاهلية الغرب، إلى نور الإسلام لم يكن لديه لبس عن خصائص الحضارة الغربية، وعجزها عن أن تقدم نموذجاً لسعادة البشر، وبسبب أنه جاء من الغرب مدركاً لخصائص ثقافته لم يكن لديه الشعور بالنقص ـ الذي لا يكاد المفكر المسلم المولود في ديار الإسلام يتخلص منه ـ تجاه الحضارة والثقافة الغربية، وبذلك صار في

# تقديم

مقدوره أن يقدم الجديد للفكر الإسلامي، وقديماً لاحظ عمر بن عبد الخطاب ﵁ أن من لم يعرف الجاهلية قد يصعب عليه أن يصل إلى حقيقة الإسلام، إنما تنقض عرى الإسلام عروة عروة إذا نشأ في الإسلام من لا يعرف الجاهلية.

إذ كان على المواطن العربي واجب الشكر لمكتبة الملك عبدالعزيز العامة بالرياض على ترجمتها ونشرها لهذا الكتاب القيم فإنه يكفيها جزاء ذلك أن يهتم بقراءته. وهل للمكتبة هدف إلا إتاحة العلم والمعرفة للمواطن؟ وبالله التوفيق.

صالح بن عبد الرحمن الحصيّن
الرئيس العام
لشؤون المسجد الحرام
والمسجد النبوي

# مقدمة المؤلف

المؤلف ١٣٥١ (١٩٣٢م)

ما أرويه في هذا الكتاب لا يعد سيرة ذاتية لامرئ يشعر بالفخر إزاء ما قام به في الحياة العامة، كما لا يعد رواية لمغامرات خضتها - على الرغم من أنني صادفت مغامرات عجيبة - إلا أنها لم تمثل لي أكثر من مجرد أحداث مرافقة ومصاحبة لما كان يدور داخلي وما أصادفه، وما عدا كل ذلك لا يعد قصة حياة رجل يفتش بقصد ونية عن إيمان عميق أو عقيدة بذاتها - فذلك الإيمان حلَّ عليّ عبر رحلة السنين دون أن أسعى إليه. حكايتي ببساطة هي حكاية اكتشاف رجل أوروبي للإسلام، واندماجه في المجتمع الإسلامي.

لم يخطر بذهني ولا طاف بخاطري أن أكتب تلك الحكاية؛ لأنني لم أعتقد في أي وقت أن أحداث رحلة حياتي من الممكن أن تشكل أهمية لأي إنسان باستثنائي بالطبع. إلا أن عودتي إلى باريس بعد غياب واغتراب داما أكثر من خمسة وعشرين عاماً عن عالم الغرب الذي أنتمي إليه، ثم انتقالي بعدها إلى نيويورك سنة ١٣٧١ (١٩٥٢م)، صادفا ما جعلني أقتنع بوجهة نظر جديدة. فبحكم وظيفتي ممثلاً للحكومة الباكستانية لدى الأمم المتحدة في نيويورك، كنت موضع اهتمام الصحافة والرأي العام، كما كنت محط فضول كثير من الأصدقاء والمعارف الغربيين من أوروبيين وأمريكيين، وقد اعتقد كل من عرفني في البداية أنني لست إلا «خبيراً» أوروبياً يعمل لدى حكومة شرقية لغرض وظيفي بحت، وظنوا أنني قد سايرت نمط حياة الأمة التي أمثلها، إلا أن جهودي المتفانية والمكثفة في الأمم المتحدة من أجل قضايا البلد الذي أمثله وتحقيق أهدافه السياسية والثقافية التي تهم كل العالم الإسلامي، أصابتهم بالحيرة والدهشة، واشتد الفضول، وتزايد عدد من يتوجهون إليّ بالسؤال عن حياتي وخبراتي وتجاربي، وكان لابد لي أن أحكي حكايتي.

رويت لهم كيف بدأت حياتي العملية في شبابي المبكر مراسلاً للصحف الأوروبية من دول الشرق الأوسط، وبعد أعوام من الترحال والانتقال المتواصل بين دول الشرق الأوسط اعتنقت الإسلام سنة ١٣٤٤ (١٩٢٦م)؛ وعشت بعد ذلك ستة أعوام في أماكن مختلفة من الجزيرة العربية، نعمت خلالها بصداقة الملك عبدالعزيز آل سعود، ثم توجهت بعد ذلك إلى الهند، والتقيت هناك الشاعر والفيلسوف الإسلامي والأب الروحي لمشروع إقامة دولة باكستان الإسلامية «محمد إقبال». وله يرجع الفضل في إقناعي بالعدول عن مواصلة سفري إلى شرق تركستان والصين وإندونيسيا، وأن أبقى معه بالهند لبلورة التصور الفكري لإقامة دولة إسلامية مستقلة تحمل اسم باكستان، التي لم تكن في ذلك الوقت إلا حلماً يراود خياله. مثَّل لي ذلك الهدف، و لـ «إقبال» هدفاً جوهرياً وطريقاً لابديل له لإعادة إحياء الآمال الإسلامية الخامدة، وإحياء هوية سياسية واحدة لشعوب إسلامية نبتت من جذر واحد، وتعتنق كلها عقيدة واحدة.

قصرت نفسي أعواماً طويلة على تحقيق ذلك الهدف النبيل، دارساً، وكاتباً، ومحاضراً. ومع مضي الأعوام اكتسبت شهرة واسعة وأصبحت متخصصاً في الفكر الإسلامي والثقافة الإسلامية. ولما تحقق الحلم وأعلن عن قيام دولة باكستان الإسلامية المستقلة سنة ١٣٦٦ (١٩٤٧م)، كلفتني الحكومة الوليدة بإنشاء إدارة خاصة تسعى لإحياء النهضة الإسلامية على أن أتولى إدارتها، كان ذلك المشروع يهدف إلى وضع البرامج والخطط، وبلورة نظريات، وتحديد أطر المفاهيم الإسلامية للدولة وللمجتمع الإسلامي كأسس يرتكز عليها التوجه النهائي العام للدولة الإسلامية. وبعد عامين من العمل على إنجاز تلك المهمة الجليلة، انتقلت إلى العمل بوزارة الخارجية الباكستانية، وعيّنت رئيساً لإدارة علاقات الشرق الأوسط، وركزت كل جهودي في تأسيس علاقات وروابط قوية بين باكستان ودول العالم الإسلامي؛ ثم عينت بعد ذلك مندوباً لباكستان لدى الأمم المتحدة بنيويورك.

كان ذلك يعني أن الأمر يتجاوز عمل رجل أوروبي في مجتمع إسلامي تصادف وجوده به، فقد كان تحولاً واعياً وإرادياً من ثقافة وفكر معينين تشبعت بهما من مولدي إلى شبابي، إلى ثقافة أخرى وفكر آخر مغايرين كلياً لما درجت عليه، وكان ذلك التحول هو ما بدا مدهشاً وغريباً ولا يمكن تسويغه من وجهة نظر من عرفتهم وصادقتهم من أبناء الغرب. لم يتصوروا كيف يمكن لامرئ غربي المولد والنشأة والتربية أن يقدم نفسه إليهم، بلا تحفظ وبكل وضوح، ممثلاً لدولة إسلامية، وكيف أمكنه أن يبدل إرثه الثقافي الغربي، ويعتنق الإسلام، وتساءلوا عن ذلك الدافع الذي يجعله يتقبل مفاهيم دينية واجتماعية تختلف، حسب زعمهم، عن كل المفاهيم الغربية المتحضرة.

سألت بدوري، لماذا يتبنى الغربيون تلك الأحكام، ويؤمنون بها بيقين تام؟ هل اهتموا في أي وقت بالبحث الجاد للتوصل إلى رؤية صحيحة ومباشرة للإسلام، أم أن ما يوقنون به لا يستند إلا إلى مجموعة من الأقوال الموروثة بالغرب والمفاهيم المشوهة التي ورثوها ضمن إرثهم الثقافي من أجيال سبقتهم من دون بحث أو تمحيص؟ هل يعود ذلك إلى توارث نمط الفكر اليوناني ـ الروماني القديم

الذي كان يقسم الأمم إلى إغريق ورومان في جانب، وباقي البشر المصنفين «برابرة» في جانب آخر. وأن ذلك النمط من التفكير قد انتقل إلى الفكر الغربي، وتأصَّل به حتى إنهم أصبحوا عاجزين - ولو نظرياً - عن قبول فكرة وجود قيم إيجابية في ثقافات أخرى تقع خارج محيطهم الثقافي والفكري والمعرفي؟

ظل المؤرخون والمفكرون الأوروبيون منذ عصر الإغريق والرومان ميالين إلى رؤية تاريخ العالم بوجهة نظر ثقافة الغرب وبمصطلحاته وخبراته فقط. وطبقاً لتلك الرؤية المحدودة فإن أي حضارة غير أوروبية يحكم لها أو عليها بمقدار تأثيرها في مصاير أهل الغرب فقط، وهكذا كان تاريخ العالم وتعدد ثقافاته لا يعدو أن يكون مجرد امتداد لتاريخ الغرب.

لابد - بالطبع - أن تخلق تلك النظرة الضيقة منظوراً مشوهاً، فقد اعتاد الأوروبي والأمريكي قراءة ما يخص الحضارة الغربية، ويناقش قضاياها بتفاصيل وأشكال متعددة، بينما لا تحتوي قراءاته إلا على القدر اليسير من شؤون العالم وحضاراته، وجعله ذلك يوقن بأن التجربة الحضارية للغرب ليست فقط الأعلى والأسمى، بل إنها فوق أي قياس موازنة بحضارات العالم الأخرى؛ وهكذا، يؤمن المواطن الغربي أن نمط الحياة لديه هو النمط الوحيد الصالح والملائم للحياة، وأنه المقياس الأوحد الذي لابد أن تقاس عليه أي أنماط أخرى، ويعني ذلك - بالطبع - أن أي مفاهيم معرفية أو ثقافية أو أي أنساق اجتماعية أو قيم أخلاقية تختلف عن النمط الغربي إنما تنتمي إلى مستوى أدنى من الحياة.

لقد اقتفت الثقافة الغربية أثر الإغريق والرومان في تصنيفهم العالم، وآمنوا أن حضارات «الآخرين» ليست إلا خطوات متعثرة على مسار التقدم والتحضر الذي قطعه الغرب معصوماً عن أي خطأ، أو على أفضل الأحوال أنها ليست إلا بعض الفصول المتتابعة في كتاب، تعد الحضارة الغربية فيه فصل الختام.

حين شرحت وجهة نظري لصديق أمريكي - وهو مفكر متميز - قال: «أوافقك على أن الإغريق والرومان كانوا محدودين في منهجهم الفكري، ونظرتهم إلى

الحضارات الأخرى المغايرة، ولكن ألا تعدّ تلك المحدودية نتيجة حتمية لصعوبات التواصل اللغوي والفكري بينهم وبين بقية شعوب العالم في عصرهم؟ أوَ لم يتم تجاوز تلك المحدودية في عالمنا المعاصر؟ ألا نشغل أنفسنا في الغرب بما يجري خارج مدار فلكنا الثقافي؟! هل نسيت تلك الكتب الكثيرة التي وضعت هنا في الغرب عن الفنون والفلسفات الشرقية؟ تلك الكتب نشرت في أوروبا وأمريكا في آخر ربع قرن.. ما عدا الدراسات التي وضعت عن الأفكار السياسية التي تشغل بال أهل الشرق. لا يمكن لأي منصف أن يتجاهل أو ينكر تلك الرغبة لدى أهل الغرب في فهم نتاج الثقافات الأخرى».

أجبته: «قد تكون على صواب إلى حد ما؛ إذ إن النظرة التقليدية للحضارة الإغريقية ـ الرومانية في تصنيف العالم لم يعد لها ذلك الأثر في تقسيم الغرب للحضارات، وخفّت وطأتها إلى حد كبير، ويعود السبب إلى النضج الفكري لكثير من مفكري الغرب، فتخلوا عن كثير من التصورات الخاطئة، بل أصبحوا يتشككون في جوانب كثيرة لثقافتهم وحضارتهم الغربية، وبدؤوا البحث والتنقيب في أماكن أخرى من العالم لاستجلاء ثقافاتها ومعارفها. وأيقن كثير من الباحثين والمفكرين بأنه لا يوجد مصدر واحد، ولا قصة واحدة لتاريخ الإنجازات البشرية؛ فمصادر التقدم متعددة لا أحادية، ويرجع ذلك ببساطة إلى أن الجنس البشري، من منظور تاريخي، لا يعد جنساً واحداً، بل أجناساً متباينة ذات أهداف مختلفة فيما يختص بمعنى الحياة البشرية وهدفها. وعلى الرغم من ذلك لا أشعر أن الغرب لم يصبح أقل شعوراً بتفوقه وعلوه تجاه الحضارات المغايرة، وأنه يتبنى التقسيم الإغريقي ـ الروماني: أصبح الغرب فقط أكثر تسامحاً. وأذكرك أن ذلك التسامح لم يشمل نظرته إلى الإسلام بقدر ما شمل الحضارات الشرقية الأخرى التي تقدم نوعاً من الجاذبية الروحية للغرب الجائع روحياً، وهي توجهات روحية بعيدة كل البعد عن جوهر التقدم الغربي مما لا يشكل أي تحدٍّ للقيم الغربية».

سألني باهتمام: «ما الذي تعنيه؟».
أجبته: «حسناً، حين يقوم أي دارس أو باحث غربي بدراسة الهندوسية أو البوذية، يظل طوال الوقت على وعي دائم بالاختلافات الجوهرية بين تلك العقائد

وعقيدته. قد يعجب بفكرة أو بأخرى في تلك العقائد، إلا أنه لا يضع في حسبانه جدياً أنه قد يعتنق واحدة من تلك المعتقدات، فهو يؤمن سلفاً بتلك الاستحالة، ولذلك يدرس ويوازن تلك الديانات باتزان ودون خوف، بل أحياناً بتقدير وتعاطف. أما حين يصل الأمر بالباحث الغربي لدراسة الإسلام - الذي يعد هو الآخر غريباً على القيم الغربية كالهندوسية والبوذية - نجد أن تلك الموضوعية تتوارى وتختل، وتشوبها انحيازية عاطفية ومعنوية. ربما يرجع ذلك - فيما أظن - إلى أن قيم الإسلام قريبة من جوهر تلك القيم السائدة في الغرب مما يشكل تحدياً حقيقياً لمفاهيم غربية متعددة؛ روحية واجتماعية.

رحت أشرح له نظرية توصلت إليها من عدة أعوام مضت، وهي تفسر العداء العميق للإسلام الذي نصادفه في محتوى الثقافة الغربية، واتجاهاتها السياسية المعاصرة.

قلت له: «حتى نصل إلى تفسير مقنع لذلك العداء لابد لنا من العودة إلى التاريخ القديم لإدراك الخلفية النفسية للعلاقة المبكرة بين العالم الغربي والعالم الإسلامي. فما يعتقده الغرب تجاه الإسلام في عصرنا الحالي ترجع جذوره إلى الانطباعات التي تولدت بين الأمم الأوروبية في أثناء الحروب الصليبية».

تعجب صاحبي متسائلاً: «الحروب الصليبية؟ أظنك لا تعني أن ما حدث منذ ألف عام تقريباً مازال يؤثر في البشر في القرن العشرين؟» قلت له: «بل هو كذلك، أعرف أن ذلك يبدو صعب التصديق؛ ولكنك تتذكر ما واجه علماء التحليل النفسي حين أثبتوا أن كثيراً من المكونات المعنوية للشخص البالغ - والذي تختلف ميوله وأذواقه وأغراضه وأهدافه وأهواؤه عن أي امرئ آخر، يتلخص فيما أطلق عليه «الخصوصية الفردية» - وأن كل تلك التعقيدات الفردية يمكن تتبعها وكشفها بالوصول إلى مصادرها الأولى، فيما مر به المرء من تجارب وخبرات وأحداث تعرَّض لها في مقتبل طفولته المبكرة؟

حسناً، ألا تتكون الأمم من مجموع أفرادها؟ تطور الأمم ومكوناتها الفكرية مرتبط

## مقدمة المؤلف

بالخبرات والتجارب والأحداث التي مر بها أفرادها في طفولتهم، قد تكون تلك التجارب والخبرات مبهجة، وقد تكون مؤلمة تبعاً لتصورات الطفولة البسيطة عن حدث معين، وأثر كل حدث وتجربة يتوقف على درجة حدته، والألم الذي يسببه. كان القرن السابق للحروب الصليبية هو نهاية الألفية الأولى للميلاد، ومن الممكن أن نعدّ ذلك القرن السابق على الحروب الصليبية يشكل الطفولة المبكرة للحضارة الأوروبية الغربية الحالية...».

استطردت مذكراً صديقي - وهو مؤرخ - أن ذلك القرن هو العصر الذي بدأت أوروبا تتبين فيه - أول مرة - معالم طريق ثقافتها الخاصة، مستقلة تماماً عن الإرث الروماني المنسي، ثقافة جديدة ظهرت إلى الوجود بلغات أوروبية غير رومانية ولاتينية؛ تستلهم الخبرات والرؤى الدينية للمسيحية الغربية. في ذلك القرن كانت الفنون الرفيعة تستيقظ ببطء من السبات الطويل الناتج من هجرات الشعوب الأوروبية التي كانت أقرب إلى الحروب التي قام بها القوطيون[١] والهون[٢] والآفار[٣]؛ بدأت النهضة بعد أن تخلصت من الأحوال المتردية التي سادت في الأعوام المبكرة من العصور الوسطى، عالم حضاري جديد كان ينهض ويبرز إلى الوجود، وتتشكل ملامحه. في تلك المرحلة الأولى من تكوينها، تلقت أوروبا أقصى انتكاسة يمكن أن تتلقاها - وبتعبير معاصر «صدمة» - وهي صدمة الحروب الصليبية.

كان للحروب الصليبية تأثير قوي في حضارة كانت قد بدأت تعي ذاتها. بمصطلحات تاريخية، كانت الحروب الصليبية أول محاولة مبكرة - وأنجح

---

١- شعب جرماني اجتاح الإمبراطورية الرومانية في القرون الأولى للميلاد، واستناداً إلى أسطورتهم، التي رواها المؤرخ القوطي «جوردانيس» في منتصف القرن السادس، أنهم أصلاً من جنوب إسكندنافية وعبروا مستخدمين ثلاث سفن بقيادة ملكهم «بيريج» ليصلوا إلى الساحل الجنوبي لبحر البلطيق.

٢- وهم بدو غزوا جنوب شرق أوروبا سنة ٣٧٠ بعد الميلاد، وبنوا في سبعة عقود إمبراطورية عملاقة هناك، وفي وسط أوروبا.

٣- هم شعب غير محدد الأصل واللغة وقد أدّى دوراً كبيراً في أوروبا الشرقية (القرنين السادس والتاسع بعد الميلاد) وأسسوا إمبراطورية، تمتد بين البحر الأدرياتيكي والبلطيق من جهة ونهري الألب وتيبر من جهة أخرى.

محاولة ـ في رؤية أوروبا لذاتها، وقد توحدت تحت راية ثقافية واحدة، ولم تمر أوروبا بتجربة مماثلة لا قبلها ولا بعدها، وقد خاضت الأمم الأوروبية تلك الحرب متفقة أول مرة على هدف واحد.

اجتاحت موجة مسمومة كل أرجاء القارة الأوروبية، حماس ملتهب تجاوز وعبر كل الحواجز التي كانت تفصل بين تلك الأمم والقبائل والطبقات المختلفة. كانت أوروبا تموج بشعوب وقوميات لا يربطها رابط، الفرانك والساكسون والجرمان والبورجاند والصقليين والنورمانديين واللومبارديين[١]، ممالك إقطاعية ودول مدن من شذرات الإمبراطورية الرومانية وبقاياها بعد انهيارها النهائي، ولم يكن يربط ذلك الخليط المتباين إلا رابط واحد، هو أنها جميعاً تعتنق الديانة المسيحية: في أثناء الحروب الصليبية وبسببها ارتفع الرابط الديني إلى مستوى جديد، فقد أصبحت قضية مشتركة لكل الشعوب الأوروبية المسيحية على حد سواء ـ مفهوم سياسي ديني «النصرانية» ولّد بدوره المفهوم الثقافي لـ «أوروبا» ككل. وحين حث البابا أوروبان الثاني المسيحيين في خطابه في مدينة كليرمون، في نوفمبر سنة ٤٨٨ (١٠٩٥م)، على خوض الحرب ضد «الجنس الشرير» الذي يسيطر على الأرض المقدسة، أعلن ـ ربما دون أن يدري ـ ميثاقاً مشتركاً للحضارة الغربية.

وَهَبت التجربة الجارحة والمريرة للحروب الصليبية أوروبا وعياً بثقافاتها ووحدتها؛ إلا أنه قُدِّر لتلك الحروب أن تبرز الإسلام بوجه مزيف في عيون الشعوب الأوروبية. ولا يعود الأمر ببساطة إلى أن الحروب الصليبية كانت تعني فقط صراعاً عسكرياً وإراقة دماء، فحروب كثيرة نشبت بين أمم كثيرة ثم نُسيت آثارها مع الزمن، كما نشأت عداوات بدت في حينها أنها لا تمحى، تحولت مع الزمن إلى علاقات صداقة، وتعاون مثمر. لم تقتصر الخسائر التي نجمت عن الحروب الصليبية على الصدام المسلح: كانت الخسارة الكبرى الأولى والأهم خسارة فكرية ـ نتجت من تسميم الفكر الأوروبي ضد العالم الإسلامي

١ـ جرمانيون حكموا مملكة في إيطاليا من ٥٦٨ ـ ٧٧٤م.

عبر التصوير الإرادي المشوه والكريه لتعاليم الإسلام ومثله العليا. فحتى يستمر الزخم الداعي إلى استمرار الحرب الصليبية، دمغوا الرسول ﷺ بأوصاف كريهة وادعوا أنه معادٍ للمسيح، ووصمت ديانته بأشنع الأوصاف، وأنها منبع الشرور غير الأخلاقية والانحراف والشذوذ. وكان زمن الحروب الصليبية هو الزمن الذي أشيع فيه في أنحاء أوروبا أن الإسلام دين ملذات حسية وعنف وقسوة، وأنه دين شعائر لا دين تطهر من القلب. دخلت كل تلك الأفكار الشائعة عن الإسلام الفكر الغربي، ولم تخرج منه بعد ذلك أبداً، وفي ذلك العصر أيضاً حول متعصبو الحروب الصليبية اسم محمد ﷺ - وهو محمد ﷺ ذاته الذي علَّم المسلمين أن الإيمان بمن سبقه من الرسل من شروط الإسلام - على سبيل التهكم والازدراء إلى «ماهاوند». كانت روح البحث الموضوعي لا تزال في علم الغيب بالنسبة إلى أوروبا؛ وكان من السهل على القوى المسيطرة على أوروبا أن تزرع بذور الكراهية السوداء لدين وحضارة يختلفان عن دينها وحضارتها؛ ولذلك لم يكن من المصادفة أن «Chanson de Roland » (أنشودة رولاند) المحمومة، التي يصف فيها النصر الأسطوري للمسيحية على المسلمين «الكفار» في جنوب فرنسا، قد كتبت بعد تلك المعركة بثلاثة قرون - وقبل الحرب الصليبية الأولى مباشرة - وتحولت بعد ذلك لتصبح مثل النشيد القومي لأوروبا؛ وليس من قبيل المصادفة أيضاً، أن قمة الحروب الصليبية كانت علامة فارقة في بداية تكوّن الثقافة الأوروبية المشتركة، والتي اختلفت عن الثقافات السابقة المحلية: لقد شكّلت الكراهية للإسلام ومعاداته مهداً للحضارة الأوروبية.

إنه لمن المؤسف - تاريخياً - أن يظل ذلك العداء للإسلام - الذي كان دينياً في منشئه - موجوداً في لا وعي أهل الغرب حتى بعد أن فقدت المعتقدات الدينية زخمها وقوتها لديهم. ولا يبعث ذلك على الدهشة في حقيقة الأمر. فنحن نعرف أن المرء قد يتخلى عن كل معتقدات الدين التي ورثها، ونقلت إليه في طفولته، بينما تظل بعض المشاعر العاطفية التي ارتبطت بتلك المعتقدات ماثلة في ذهنه بطريقة لا عقلانية تجافي المنطق بقية أيام حياته - وهذا هو ما حدث بالضبط للشخصية الغربية. ما زالت أشباح الحروب الصليبية وظلالها تحوم في الغرب حتى يومنا

هذا؛ ومازالوا يتعاملون مع الإسلام برؤية تحمل بقايا تلك النظرة الراسخة...».

ظل صديقي صامتاً فترة طويلة؛ وما زلت أذكر هيئته الطويلة النحيلة وهو يذرع الغرفة جيئة وذهاباً، يداه في جيبي معطفه، يهز رأسه كالمذهول، وقال أخيراً: «قد يكون هناك شيء ما فيما تقول بالفعل قد يكون فيما تقول شيء ما، وعلى الرغم من أنني لست في الوضع الذي يسمح لي بالحكم على «نظريتك» بارتجال أو تسرع، لكن على أي حال، ألا ترى على ضوء ما ذكرته لي عن حياتك، التي قد تبدو لك بسيطة وغير معقدة، أنها قد تبدو غريبة جداً وغير عادية في نظر الرجل الغربي؟ ألا تود أن تشركهم معك في تلك التجربة؟! لماذا لا تكتب قصة حياتك؟ أنا على يقين من أنها ستكون من القصص الماتعة».

أجبته ضاحكاً: «حسن، قد أغري نفسي بترك العمل الدبلوماسي، وأضع مثل ذلك الكتاب، على الرغم من أي شيء، فالكتابة حرفتي الأساسية...»

ودون وعي مني فقدت المزحة جانبها الهازل، وبدأت أفكر جدياً على مدى أسابيع في كتابة قصة حياتي ومن ثم أساعد ـ ولو بقدر ضئيل ـ على رفع تلك الحجب السميكة، والأستار الثقيلة التي تفصل الإسلام وحضارته عن العقل الغربي. لقدكان طريقي إلى الإسلام فريداً من عدة أوجه: فأنا لم أتحول إلى الإسلام لأني عشت زمناً طويلاً بين المسلمين، بل على العكس قررت أن أعيش بينهم لأني اعتنقت الإسلام.

ألا أكون أكثرنفعاً لو حققت بعض الفهم المتبادل بين الإسلام وعوالم الغرب، بتقديم تجاربي الخاصة جداً للقارئ الغربي، أكثر من النفع الذي أقدمه في العمل الدبلوماسي والذي يمكن أن يقوم به رجال أكفاء غيري من أبناء البلد الذي أمثله؟ ففي كل الأحوال يمكن لأي امرئ ذكي أن يمثل باكستان لدى الأمم المتحدة، ولكن كم من الرجال بمقدورهم الحديث إلى المواطن الغربي بمعطياته العقلية كما يمكنني أنا؟ أنا مسلم ـ إلا أنني أنتمي إلى الغرب: وبذلك يمكنني أن أتكلم بلغة واعية مفهومة للمسلمين ولأهل الغرب...

وهكذا، قرب نهاية سنة ١٣٧١ (١٩٥٢م) استقلت من عملي في وزارة الخارجية الباكستانية، وبدأت في كتابة هذا الكتاب. ولا أدري أكان سيشكل «قراءة ماتعة» كما توقعٍ صديقي الأمريكي أم لا؟ لا أستطيع إلا أن أعيد التتبع من ذاكرتي - مستعيناً فقط ببعض المذكرات القليلة، وبعض اليوميات المتناثرة، وبعض المقالات الصحفية التي كتبتها في أثناء تلك الأحداث التي واكبت حياتي الماضية - وأفض الخيوط المتشابكة في ذاكرتي عن أحداث حياتي، تلك الخيوط الممتدة إلى أعوام كثيرة، وبامتداد مساحات شاسعة من الجغرافيا.

وهذه هي: ليست قصة حياتي بأجمعها، ولكنها عن السنوات التي قضيتها فيٍ الجزيرة العربية قبل أن أنتقل إلى الهند - تلك السنوات المثيرة التي قضيتها مرتحلاً بين كل دول المنطقة على وجه التقريب من أقصى صحراء ليبيا حتى مرتفعات باميرز المغطاة بالجليد في أفغانستان، وبين مضيق البوسفور حتى بحر العرب. لقد ذكرت في النص، ولا بد أن يظل ذلك في الأذهان، المدى الزمني الذي استغرقته آخر رحلة صحراوية من أعماق الجزيرة العربية إلى مكّة المكرّمة في أواخر صيف سنة ١٣٥١ (١٩٣٢م)؛ فعلى مدى تلك الأيام الثلاثة والعشرين اتضح في ذهني تماماً نمط حياتي، وما أحب أن أكون، وما أود أن أحقق عبر تلك الحياة.

والجزيرة العربية الموصوفة والمصورة في هذا الكتاب لم يعد لها وجود تداعي تفردها وتكاملها تحت تيار النفط المتدفق وما جلبه من عوائد، لقد اختفت بساطتها التامة وتلاشت، واختفت معها الجوانب الإنسانية الفطرية الفريدة. ومع الألم الذي تحسه لفقدان الأشياء الثمينة التي تفقدها إلى الأبد، مازلت أذكر مسار رحلتي الأخيرة عبر الصحاري، حين سرنا، وسرنا، رجلين على ناقتين، عبر الأضواء السابحة في الصحراء....

# الفصل الأول

محمد أسد مع مرافقه في طريقهما إلى الرياض ١٣٤٧ (١٩٢٨م)

## العطش

كنا نسير بلا توقف، رجلين على ناقتين، وشمس ملتهبة حارقة، كل شيء يسبح في ضوء مبهر قوي، كثبان رملية تعكس أضواءً حمراء وبرتقالية تبهر البصر، كثبان بعد كثبان بلا نهاية، وحدة وصمت محرق، رجلان على ناقتين يتأرجحان فى رتابة لا يتغير إيقاعها على وقع الخطا التي تجلب النعاس، تجعلك تنسى فى أي يوم أنت، وتنسى الشمس المحرقة، والريح الملتهبة، والطريق الطويل الذي لا تبدو له نهاية.

## (١)

تنمو على حواف الكثبان مجموعات متناثرة من حشائش جافة صفراء. وفي أماكن متباعدة تناثرت أعشاب «الحمض» التي تتسلق الكثبان الرملية كالأفاعي العملاقة، الحواس كلها يغشاها النعاس، الجسم يتمايل على رحل الجمل، لا يصل الإدراك عبر السمع إلا صوت تفتت الرمال تحت أخفاف الجملين وصوت احتكاك كلابة ركاب الرحل بالركبتين. الوجه ملثم بالغترة للحماية من الشمس والرياح المحملة بالرمال؛ تشعر كأنك كنت تحمل وحدتك مثلما تحمل الأغراض المادية المحسوسة، عبر ذلك الإحساس الثقيل بالوحدة، عبره تماماً تختلط الأفكار.. حتى آبار تيماء.. آبار تيماء المظلمة العميقة إلا أنها تهب الماء الذي يطفئ لهيب الظمأ...

سمعت صوتاً: «... لابد من عبور النفود حتى نصل إلى تيماء...»، لم أدر أكان هاتفاً طاف بذهني أم أنه صوت مرافقي. سألته: «هل قلت شيئاً يا زيد؟».
رد مرافقي: «لا يوجد من يجازف بعبور النفود فقط من أجل زيارة منطقة آبار تيماء، إلا أنت بالطبع...»

كنت عائداً برفقة زيد من قصر العثيمين شمال نجد على تخوم العراق، بعد أن أنهيت مهمة أسندها إلي الملك عبد العزيز آل سعود، في وقت أقل من المتوقع، ووجدت أن أمامي متسعاً من الوقت أقضيه أينما شئت، فقررت أن أزور واحات تيماء القديمة، والتي تقع على مسافة بعيدة من موضعنا الذي كنا فيه، مسافة تربو على مئتي ميل إلى الجنوب الغربي. واحات تيماء المذكورة باسم (تيما) في العهد القديم والتي قال عنها النبي أشعيا: «وشعب تيما الذي أعطاه ماءً حين كان عطشاً». جعل ماء تيماء الغزير وآبارها العظيمة التي لا مثيل لها في كل الجزيرة العربية، منطقة تجارية كبيرة قبل الإسلام، فكانت مقصد ترحال القوافل السارية في أرجاء الجزيرة العربية، وموطناً للثقافة العربية المبكرة. تشوقت قبل ذلك كثيراً إلى زيارة تلك المنطقة؛ لم أسلك الدروب الملتفة الطويلة التي تسلكها القوافل للوصول إلى تيماء، اتخذت طريقاً مباشراً من تيماء عبر قلب صحراء النفود الكبرى، ذات الرمال الحمراء الممتدة على مساحات شاسعة تفصل بين الأراضي

المرتفعة وسط الجزيرة وصحراء سورية. لا طرق ولا مدقات ولا أثر لمسير في تلك البحار الشاسعة من الرمال الحمراء المقفرة. تزيل الرياح أي آثار لقدم بشر أو حيوان مرّ على سطحها، ولا يبقى أثر يسترشد به من يقطعها أو من تحمله أقداره على اختراقها. تحت وقع هبات الرياح التي لا تنقطع تتغير أشكال كثبان الرمال ومواضعها على الدوام، تنتقل في إيقاع بطيء إلا أنه مستمر ودؤوب، غير محسوس، وتتبدل أشكالها من شكل إلى آخر، ومن موضع إلى غيره، تتسطح الكثبان الرملية وتتحول إلى أودية، وتتراكم الرمال في أودية فتحولها إلى كثبان، تبرقشها حشائش صفراء جافة ميتة، تصدر أصواتاً خفيفة واهنة عند هبوب الرياح، أعشاب ذات طعم مر تعافها حتى الجمال.

على الرغم من أنني قد قطعت تلك الصحراء قبل ذلك في اتجاهات مختلفة، ولأسباب متباينة، فإنني لم أجرؤ على عبورها بمفردي دون دليل من البدو، وهكذا كان زيد دليلي ورفيقي في تلك الرحلة. كانت تلك المنطقة موطنه وموطن قبيلته، فهو من قبائل شمّر، التي تحيا على المشارف الشرقية والغربية لصحراء النفود الكبرى.. وحين تهطل أمطار الشتاء المفاجئة الغزيرة، تتحول تلك الكثبان الرملية إلى مروج تموج بالعشب والكلأ، فترعى إبل قبائل شمّر على ذلك الكلأ عدة أشهر من كل عام. كانت تلك الصحراء تسري في دم زيد، وكان قلبه يخفق متجاوباً مع نبضها.

ربما كان زيد أحد أفضل الرجال الذين قابلتهم في الجزيرة العربية وأنضرهم: جبهة عريضة، وبدن نحيل، قامة متوسطة الطول وممشوقة، مملوء بحيوية فائقة، فوق بشرته القمحية اللون تبرز وجنتان قويتان، وشفتان مزمومتان حازمتان تزيد من جاذبيته، فى آن واحد تختلط أمارات الحزم بالجمال الحسي مما يكون جاذبية مميزة لبدو صحراء العرب، عدا الاعتزاز بالذات، مع مودة إنسانية حميمة وصادقة. كان زيد خليطاً رائعاً من الطبيعة البدوية وحياة المدنية في نجد، إلا أنه احتفظ في أعماقه بيقين المشاعر الغريزية البدوية وصدقها من دون انفعالات سريعة الاشتعال، كما اكتسب الحكمة العملية التي تميز أهل المدن دون أن يكون ضحية لآفات حياة المدن المعاصرة. كان يعشق المغامرات مثلي دون اختلاق ولا

اصطناع. امتلأت حياته منذ نعومة أظفاره بالأحداث المثيرة: فقد كان صبياً مقاتلاً ضمن فرقة غير نظامية من قوات الجمال التي كانت تمولها الحكومة التركية في شبه جزيرة سيناء في أثناء الحرب العالمية الأولى؛ ثم محارباً بين المدافعين عن موطن قبائل شمّر ضد قوات الملك عبد العزيز آل سعود؛ ثم عمل مهرباً للسلاح في الخليج العربي؛ وعاشقاً جموحاً لنساء كثيرات في مناطق مختلفة من العالم العربي (كن بالطبع زوجات شرعيات، ثم يطلقهن)؛ وعمل في تجارة الخيول في مصر؛ ثم جندياً مرتزقاً في العراق؛ وفي الأعوام الخمسة الأخيرة، كان مرافقاً لي في انتقالي عبر أرجاء الجزيرة العربية.

الآن، في أواخر صيف سنة ١٣٥١ (١٩٣٢م)، كنا نرتحل معاً، كما فعلنا كثيراً من قبل، نشق طريقنا عبر الكثبان الرملية الموحشة المقفرة، نتوقف كلما وصلنا إلى إحدى الآبار التي تفصلها بعضها عن بعض مسافات طويلة، نستريح ليلاً تحت قبة من نجوم ترصّع السماء؛ وفي الآذان صوت أبدي رتيب لوقع أقدام الجمال فوق الرمال الساخنة؛ وأحياناً، يرتفع حداء زيد منشداً بصوت أجش على وقع خطا الجمال؛ نستريح ليلاً، يعدّ زيد القهوة العربية ويطهو الأرز، ونخوض أحياناً منافسات عنيفة؛ ينساب النسيم البارد على أبداننا في راحة الليل ونحن ممددان على الرمال، ثم تشرق الشمس من بين هامات الكثبان الرملية، حمراء كالدم، لتصب حرارتها بعنف كالألعاب النارية؛ وأحياناً أرى معجزة انبعاث الحياة في الأعشاب التي تبدو ميتة وجافة حين تنساب إليها قطرات من الماء بالمصادفة.

كنا قد توقفنا لأداء صلاة الظهر، وبينما كنت أتوضأ من قربة ماء، تساقطت قطرات على بقعة من حشائش جافة بين قدمي، مجموع من سيقان الحشائش الجافة الباهتة، صفراء ذاوية بلا حياة تحت حرارة شمس لافحة. حين تساقطت عليها قطرات الماء، بدا كما لو كانت رعشة تسري في أنصال أوراقها الجافة المتغضنة، رأيت أوراقها وأنا مشدوه، وهي تتفتح ببطء وارتجاف. نثرت قطرات ماء أخرى عليها، تحركت أنصال أوراقها واستدارت، ثم استقامت ببطء، باستحياء وتردد... كتمت أنفاسي مندهشاً وأنا أصب مزيداً من الماء على بقعة الأعشاب. تحركت أسرع، وانفردت سيقانها المائلة، واستقامت أوراقها بحيوية أشد، كما لو

كانت هناك قوة خفية تدفعها للاستيقاظ من أحلامها الملأى بالموت والفناء. كان مشهداً رائعاً لا يمكن أن أنساه، بدت أنصال أوراق الأعشاب الضئيلة تتمدد كما تتمدد أطراف نجمة البحر، كأنها مأخوذة بنشوة خجولة لا يمكن كبح جماح متعتها، احتفاء جامح من المتعة الحسية: عادت الحياة منتصرة إلى ما كان يبدو من لحظات ميتاً، رأيت ذلك ووقع تحت بصري، حدث باتقاد مشبوب، بقوة طاغية تتوق إلى الحياة، وتفوق في قوتها وعظمتها القدرة على الفهم والتفسير.

لا تحس عظمة الحياة وسطوتها، إلا في الصحراء حيث الاحتفاظ بالحياة صعب وعسير، والحياة فيها كالهبة، كالكنز، ودائماً تحفل بالمفاجآت. تدهشك الصحراء على الدوام بمفاجآتها حتى لو كنت خبيراً بها لأعوام طويلة، لا تكف أبداً عن إظهار المفاجآت المدهشة، وفي اللحظة التي تظن فيها أنك قد أحطت بها بقسوتها وقفرها، تجدها تستيقظ من حلمها، وتهب أنفاسها ورحمتها، وتجد عشباً قد ظهر فى موضع لم يكن فيه في اليوم السابق إلا شظى حصى ورمال. وتبعث أنفاسها مرة أخرى فترى أسراباً من طيور صغيرة تحلق وتحوم في سمائها... من أين؟ وإلى أين؟ طيوراً ضئيلة بأجنحة طويلة، خضراء زمردية زاهية؛ وأسراباً من جراد تظهر عالية في السماء فجأة، تدنو وتنأى في سرعة، رمادية كالحة، بأعداد لا نهائية كحشود المقاتلين الجائعين...

تجد الحياة في الصحراء في أوج عظمتها وتدفقها وحيويتها: عظمة التنوع، دائماً تثير الدهشة والحيرة، في هذه الصحراء يكمن شذا الجزيرة العربية الذي يصعب تسميته، كما يكمن في ربوع صحاريها الأخرى، تحسه في التغيرات الدائمة في قفارها الشاسعة، في مواضع منها تجد أرضاً صخرية نارية المنشأ، صخور سوداء ذات سطح خشن، ثم كثبان رملية تبدو بلا نهاية، وأودية بين جبال صخرية، تغطيها أعشاب شوكية، ينطلق فجأة من بينها أرنب بري مذعور ويمر أمامك كالبرق؛ ثم مناطق من رمال ناعمة تبرقشها آثار أقدام غزلان البراري، وقطع حجرية سوداء اللون، استعملت مواقد للطهي أو إعداد القهوة، أقامها عابرو سبيل حضَّروا عليها طعامهم في أزمنة لا تعرف مداها؛ ثم قرية صغيرة بين أشجار نخيل في منطقة آبار تعلوها بكرات خشبية تسحب عليها دلاء الماء

بالحبال من أعماقها، تصدر أصواتاً كأنها موسيقى رائعة للآذان المتعطشة وكأنها تغني للحناجر الجافة التي أضناها العطش؛ وقد تجد بئراً في وادٍ صحراوي، يتجمع حولها رعاة البدو لسقي قطعان ماعزهم وإبلهم العطشى، ترتفع أصواتهم بغناء جماعي وهم يرفعون الدلاء الجلدية الملأى بالمياه من أعماق البئر، يسكبون ماء الدلاء في أحواض السقي المصنوعة من الجلد والتي تُقبِل عليها الأغنام والإبل في شغف وحبور. ثم من جديد سهوب شاسعة جرداء تعلوها شمس حارقة دون رحمة؛ وتجمعات أعشاب ذاوية خشنة صفراء، ونباتات ورقية زاحفة على سطح الرمال ملتفة الفروع كالأفاعي وكأنها تشير بإيماءة ترحيب إلى الإبل الجائعة؛ ثم شجرة أكاسيا وحيدة تنشر غصونها في رحابة تحت سماء زرقاء، وتظهر من بين الروابي والكتل الصخرية فجأة سحالي ذات جلود ذهبية يشاع عنها أنها لا تشرب ماءً طوال حياتها، تدوّر عيناها يمنة ويسرى في نظرات حائرة، ثم تختفي فجأة كما تختفي الأطياف والأشباح. في فراغ بين جبال صخرية تنتصب خيام مصنوعة من شعر الماعز الأسود؛ وقطيع من الإبل يساق إلى معاطنه قبل غروب الشمس، يقوده راعي القطيع من على بعير يركبه بلا رحل، حين ترتفع أصوات الرعاة لجمع القطيع ودفعه إلى المسير، يمتص الفراغ اللانهائي أصواتهم ونداءاتهم ويبتلعها بلا صدى.

تلمح أحياناً أشباحاً وأطيافاً عند الأفق البعيد: ترى أهي سحب أم غيوم كثيفة؟ تقترب الأشباح مغيرة ألوانها ومواضعها من لحظة إلى أخرى، ثم تتخذ شكل جبال بنية رمادية - إلا أنها طافية في الهواء كالسحب، ترتفع قليلاً فوق خط الأفق - عند الاقتراب منها تبدو كأعمدة صخرية من دبابيس عملاقة ذات قمم مدببة عالية في الهواء، ثم تدنو تلك الأشكال وتقترب من أديم الأرض وتتحول إلى أشكال بحيرات وأنهار متدفقة ترتعش على سطوحها اللامعة أشكال جبال وأشجار؛ تدعوك مياهها إليها وتجذبك باتجاهها، ثم تكتشف فجأة أن ذلك من مداعبات الجن، وأن ما تراه ليس إلا سراباً طالما قاد المرتحلين إلى آمال زائفة مخادعة ثم إلى الهلاك: في تلك اللحظات امتدت يدي بعفوية لتتحسس قربة الماء المعلقة برحل الناقة...

هناك ليالٍ تحفل بأنواع أخرى من المخاطر، قد تكون في منطقة قبيلتين متحاربتين تغيران بعضهما على بعض ليلاً، حينئذ لابد أن تتجنب إشعال النار ليلاً، وتظل يقظاً طوال الليل منبهاً كل حواسك وبندقيتك بين كفيك. في المناطق التي يسودها السلام قد تلتقي بعد ترحال طويل قافلة، وفي المساء تستمع إلى أحزان المتحلقين حول النيران وهمومهم، رجال لوَّحت الشمس وجوههم: يتحدثون عن أشياء عظيمة كما يتحدثون عن أمور بسيطة، عن الحياة والموت، عن الجوع والتخمة، الفخر والحب والكراهية، عن التوق الشديد وإرواء ظمأ الشهوات، عن الحروب، عن النخيل في قراهم النائية، لا تسمع أبداً حديثاً تافهاً يخلو من معنى، ولا ثرثرة خاوية لإزجاء الوقت، فالمرء لا يسعه الثرثرة بلا معنى في ترحاله عبر الصحراء... يلح عليك نداء الحياة في أيام العطش، حين يلتصق لسانك بسقف فمك، ويصبح مثل حطبة جافة، ولا يظهر في الآفاق أمل غير رياح السموم اللافحة، وعواصف الرمال.

في أيام أخرى، حين تحل ضيفاً على مضارب بدو، ويقدمون إليك آنية مملوءة بحليب النوق الدسم في بداية الربيع، حين تزهر الروابي والكثبان وتعلوها الخضرة بعد فصل المطر وتغدو قطعان الحيوانات وأثداؤها مثقلة باللبن، ومن ركن الخيمة تسمع أصوات نساء ضاحكات وهن يطهون خروفاً على النار، نحروه إكراماً للضيف.

تتوارى الشمس خلف التلال الرملية مثل كرة من الحديد الأحمر، وفي المساء تبدو السماء مكتظة بالنجوم، وتبدو أعلى وأعمق من أي سماء في مكان آخر من العالم، ننام تحتها نوماً عميقاً يخلو من الأحلام، ثم يحل الفجر الرمادي الشاحب بنسمات باردة حتى يحل صباح ساطع الضياء. ليالي الشتاء باردة، وخفقات رياحه الباردة تهب على مخيم المرتحلين المتجمعين حول النار يتقاربون بعضهم من بعض طلباً للدفء؛ أيام الصيف حارقة وأنت ترتحل على ظهر بعيرك تهتز على وقع خطاه، الوجه ملثم بالكوفية للوقاية من الرمال الساخنة التي تذروها الرياح، تغوص حواسك في غلاف من النعاس، بينما يحوم فوق رأسك طير مفترس في خطوط ترسم دوائر على صفحة السماء.

(٢)

مر الأصيل بطيئاً، وأكملنا سيرنا عبر الفيافي والكثبان، بصمت ووحدة. وبعد فترة، قطع الصمت أربعة رجال أو خمسة وامرأتان من البدو الرحل، يركبون الجمال، ويسحبون بغلاً يحمل على ظهره خيمة سوداء مطوية، وآنية طهو، وأدوات متباينة، ويعتلي كل حمولة البغل طفلان. حين اقتربوا توقفوا على مسافة منا:

- «السلام عليكم».

رددنا: «عليكم السلام ورحمة الله».

سألونا: «إلى أين؟»

أجبنا: «تيماء، إن شاء الله».

سألونا: «من أين؟»

أجبت: «من قصر تيماء».

ساد الصمت بعد ذلك، كان المتحدث شيخاً ضئيل الجسم، حاد الملامح بلحية سوداء مدببة، كان كبيرهم؛ نظراته الحادة الثاقبة مرت على وجه زيد في تمعن، ثم استقرت في ريبة على وجهي، ساوره الشك، أجنبي ذو بشرة بيضاء يظهر بلا توقع قادماً من مكان مجهول في تلك البرية المقفرة؛ أجنبي قادم من بلاد العراق التي يحتلها البريطانيون، وقد يكون (قرأت أفكاره التي ارتسمت على صفحات وجهه) كافراً يقتحم أرض الجزيرة خفية، راحت أصابعه تعبث في حيرة برحل ناقته، بينما التف حولنا باقي جماعته بغير نظام، كانوا ينتظرون ما سيقوله. بعد لحظات، بدا من الصعب عليه أن يتحمل صمتاً أطول من ذلك، فسألني:

- «من أي عرب أنت؟»

كان يقصد إلى أي قبيلة أنتمي، ولكن قبل أن أتمكن من الرد، أضاءت ملامحه ابتسامة مفاجئة دلت على أنه تذكرني:

«أوه، تذكرتك، الآن لقد رأيتك بصحبة الملك عبد العزيز، ولكن كان ذلك من زمن طويل مضى - ربما من أربعة أعوام...».

فرد ذراعيه علامة على الترحيب والود، وتذكر الأيام التي رآني فيها في القصر الملكي في الرياض، كان قد أتى إلى الرياض وزعيماً لقبائل شمّر معلناً ولاء

قبيلته للملك عبد العزيز آل سعود، كان البدو عادة يذكرونه باسمه الأول، عبد العزيز، بلا ألقاب رسمية ولا صفات تشريف: فهم في تلقائيتهم وفطرتهم يرون الرجل في الملك قبل أي جانب آخر، كانوا يجلونه بلا جدال في إطار ما تفرضه البيئة الصحراوية. رحنا نتبادل الذكريات، ونتحدث عن رجال عرفناهم، نتبادل الطرائف وما حولها عن ألف ضيف فى ضيافة الملك، يتلقون عند رحيلهم الهبات والهدايا التي تختلف من ضيف إلى آخر بحسب مكانته؛ من صرّة من النقود الفضية أو عباءة إلى أكياس مملوءة بهدايا ذهبية، أما الخيول والجمال فقد كان غالباً ما يمنحها إلى زعماء القبائل.

لم يكن كرم الملك وسخاؤه ينبعان من خزانته بقدر ما كانا ينبعان من قلبه. كان صدق مشاعره وحميميتها أثمن من أي هبات أو هدايا، وهو ما جعل الشعب كله يلتف حوله، بمن فيهم أنا بالطبع، فقد أحببته حباً صادقاً. كانت صداقة الملك عبد العزيز آل سعود لي على مدى أعوام إقامتي في الجزيرة العربية مثل ضوء دافئ يغمر جوانب حياتي.

كان يناديني بصفة الصديق، ويعاملني بهذه الصفة، على الرغم من أنه ملك وأنا لست إلا مراسلاً صحفياً. كنت أناديه بدوري بلقب الصديق، لا بسبب ما أظهره تجاهي طوال فترة إقامتي في مملكته، فقد كان ذلك جانباً من خصاله تجاه كثيرين ممن عدّهم أصدقاء له، ولكن لأنه كان يفتح قلبه لي في مناسبات كثيرة، تماماً مثلما كان يفتح خزائنه لكثيرين من أبناء شعبه، كنت أحب أن أناديه بلقب الصديق، وكان رجلاً لا يُضارع. لم يكن فقط «طيب القلب»؛ فطيبة القلب وحدها أحياناً تبدو رخيصة، وما أعجبني في شخصيته هو ما يعجب المرء بنصل سيف دمشقي قديم، فالسيف الدمشقي سلاح «جيد»، ويجمع جودة الصفة وحسن المنظر. هكذا كنت أعد الملك عبد العزيز رجلاً جيداً، فقد كان صادقاً مع ذاته ومتسقاً معها في كل سلوكياته، ودائماً ما كان يمضي إلى تحقيق ما ارتآه بعزيمة صادقة؛ لأنه لم يحاول أبداً أن يكون شيئاً آخر غير ذاته.

* * *

كان أول لقاء لي بالملك عبد العزيز آل سعود في مكّة المكرّمة سنة ١٣٤٥ (بدايات عام ١٩٢٧م)، كان ذلك بعد اعتناقي الإسلام بعدة أشهر. وكان أيضاً بعد موت زوجتي المفاجئ، إذ كانت بصحبتي عند أول حج لي، وأحدث رحيلها المفاجئ تأثيراً شديدًا في نفسي، شعرت بالمرارة واجتنبت الناس، واعتزلت كل معارفي. حاولت مراراً أن أخرج من تلك المرحلة المؤلمة من حياتي، وأنهي وحدتي الموحشة. كنت أقضي جل وقتي وحيداً في مسكني؛ متجنباً كل البشر إلا أقل القليل منهم، وعلى مدى أسابيع طويلة لم أقم بزيارة مجاملة للقصر. ثم قمت ذات يوم بزيارة أحد ضيوف الملك عبد العزيز من الأجانب، وهو الحاج آجوس سالم من مسلمي إندونيسيا ـ قيل لي في أثناء تلك الزيارة: إنه بناء على أمر الملك تم وضع اسمي على قائمة ضيوفه ـ ويبدو أنه قد وصل إلى علمه سبب تخلفي عن الحضور إلى قصره قبل ذلك، وأنه تقبل ذلك بصمت الفاهم لما أعانيه. وهكذا، كنت ضيفاً لم يتسن له أن يرى مضيفه من قبل. توجهت في الموعد المحدد إلى بيت جميل في جنوب مكّة المكرّمة، يقع على حافة صخرية تشرف على بداية الطريق المتجهة جنوباً إلى اليمن. من شرفات المنزل الرحب تبدو أجزاء كبيرة من المدينة؛ مآذن الحرم، آلاف من البيوت تبدو كمكعبات بيضاء، وأسوار شرفات أسطحها مشيدة من أحجار ملونة، خلف البيوت تبدو تلال الصحراء الساكنة تعلوها سماوات متوهجة كمعادن منصهرة.

ربما كنت سأستمر في تأجيل زيارتي لقصر الملك لو لم أكن قد التقيت الأمير فيصلاً مصادفة، والأمير فيصل هو الابن الثاني للملك عبد العزيز، والتقيته في مكتبة الحرم الواقعة تحت العقود المحيطة بها. كنت أشعر بمتعة الجلوس في تلك القاعة الطويلة التي تصطف على جدرانها خزائن المخطوطات العربية القديمة، عدا المخطوطات الفارسية والتركية؛ وكان الهدوء المخيم في داخلها، وضوؤها الخافت يبثان في نفسي مشاعر من الدعة. في أحد الأيام، كسر الصمت المخيم حفيف ملابس وهمس رجال تسبقهم مجموعة من الحراس، كان الأمير فيصل في مروره المعتاد من خلال المكتبة إلى الحرم، كان رجلاً طويلاً ونحيلاً وعليه سيماء الجلال والمهابة التي تتجاوز عمره البالغ اثنين وعشرين عاماً على الرغم من أنه كان بلا لحية. ومع صغر سنه، إلا أنه كان

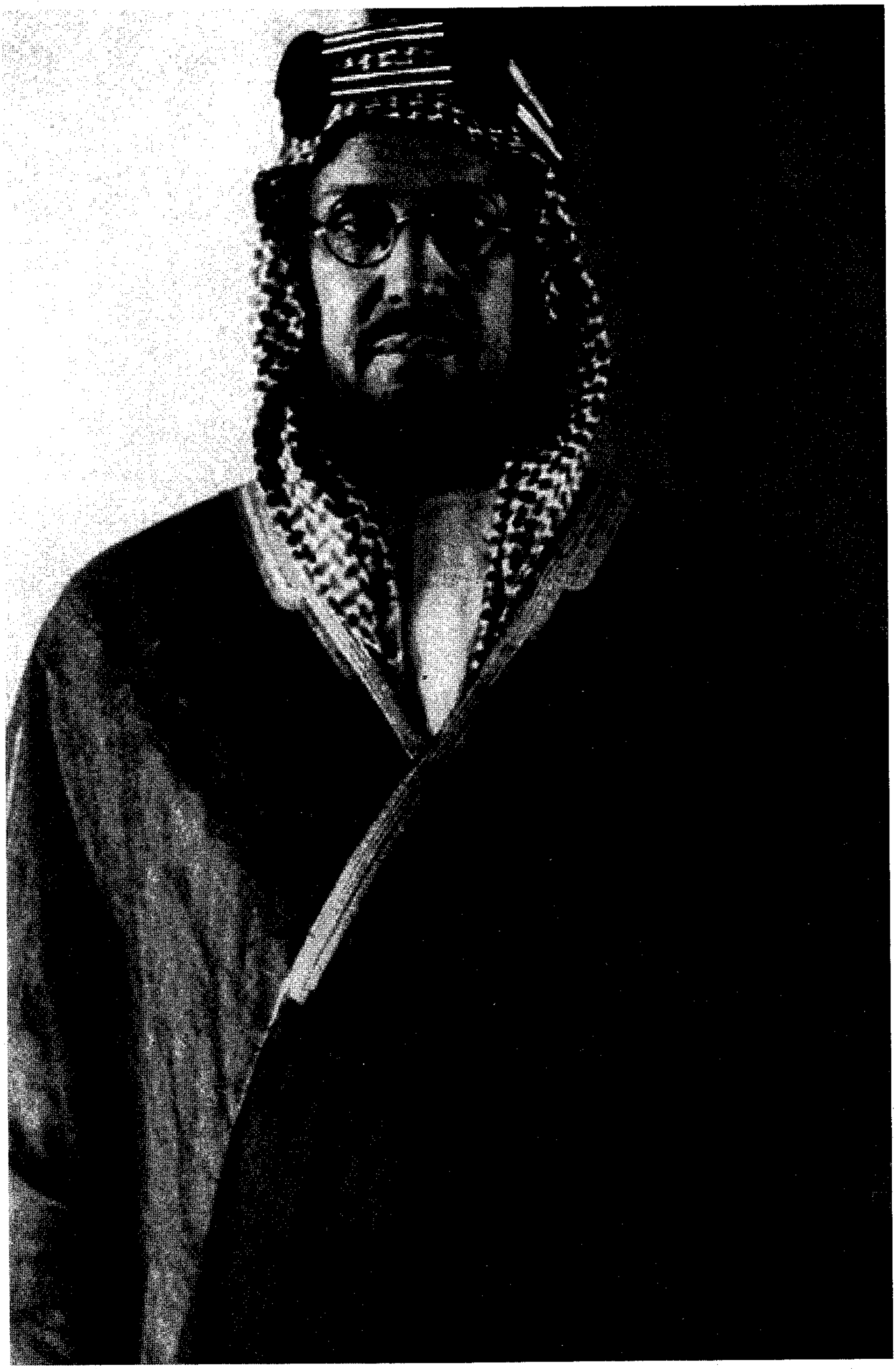

جلالة الملك عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود - رَحِمَهُ اللَّهُ - ١٣٤٦ (١٩٢٧م)

حاكماً للحجاز نائباً عن الملك بعد أن دخلها الملك وأخضعها لحكمه قبل ذلك بعامين (كان سعود، ابن الملك الأكبر وولي العهد، نائباً للملك على نجد، وكان الملك يقضي نصف العام في مكّة المكرّمة، عاصمة الحجاز، ونصف العام الآخر في الرياض، عاصمة نجد).

قام أمين المكتبة، وهو أحد باحثي مكّة المكرّمة من الشباب ربطتني به صداقة حيناً من الزمن، بتقديمي إلى الأمير فيصل، فصافحني؛ وحين انحنيت أمامه، مد يده ورفع هامتي بلطف وابتسامة دافئة تضيء وجهه قائلاً: «نحن أهل نجد لا نحب أن ينحني رجل أمام رجل آخر؛ لا ينحني الرجل لغير الله»، بدا عطوفاً رقيق الحاشية، حالماً بشكل ما مع بعض التحفظ والحياء.

برهنت الأيام بعد ذلك على صدق انطباعي الأول عن الأمير فيصل بعد أن عرفته شخصياً معرفة وثيقة دامت أعواماً. كانت هيبته ونبل سلوكه طابعاً أصيلاً في شخصيته غير مفتعل ونابعاً من داخله. حين تبادلنا الحديث في ذلك اليوم في مكتبة الحرم، شعرت فجأة برغبة عميقة في لقاء من أنجب مثل ذلك الأمير.

قال الأمير فيصل: «سيسر الملك لقاؤك، لماذا تتجنب لقاءه حتى الآن؟».

فى الصباح التالي أتى مساعدا الأمير في سيارة لاصطحابي إلى قصر الملك. شقت السيارة طريقها بصعوبة عبر شارع المعلاة التجاري المزدحم، كان الشارع مزدحماً بالجمال، وكان مركزاً لبيع السلع البدوية بمختلف أنواعها - رحال جمال، عباءات، طنافس، قرب مياه جلدية، سيوف ذات أجربة فضية، خيام، أباريق القهوة النحاسية - أفضى الطريق التجاري عند نهايته إلى طريق آخر أهدأ وأوسع وأرحب، حتى وصلت السيارة إلى دار كبيرة يقيم فيها الملك. كانت أمام الدار أعداد كبيرة من الجمال المرحولة (التي وضعت عليها الرحال)، وعدد من الحراس المسلحين، وساسة الجمال يعتنون بها، وكان من الواضح أنها جمال ضيوف الملك. انتظرت في قاعة فسيحة ذات أعمدة على أرضها أبسطة عادية، وحول الجدران صُفّت آرائك رحبة مغطاة بمفارش فاتحة اللون، ومن النوافذ بدت

غصون خضراء لأشجار تقع خارجها، أشجار زرعت بمشقة وعناء فى تربة مكّة المكرّمة العصية. ظهر بعدها عبد أسود قائلاً: «الملك يدعوك». دخلت غرفة أخرى أقل مساحة وأكثر إضاءة، وأحد جوانبها مفتوح على الحديقة. كانت الأرض مغطاة بطنافس فارسية ثمينة؛ وكان الملك جالساً تحت نافذة عريضة تطل على الحديقة، مربعاً ساقيه على أريكة وبين يديه جلس سكرتيره يتلقى تعليماته ويدونها. حين دخلت عليه، نهض فارداً ذراعيه فى ترحيب قائلاً: «أهلاً وسهلاً»، وهي تعني للضيف أنه أينما حل بين أهل له وأنه يخطو في سهولة ويسر حيث شاء، وهي من أقدم عبارات الترحيب العربية وأجملها.

تطلعت في تعجب إلى قامة الملك عبد العزيز الفارعة. وحين لثمت طرف أنفه وجبهته (كنت على دراية بعادات أهل نجد فى تحية العظماء) كان عليّ أن أنهض على أطراف أصابع قدمي، بينما انحنى هو قليلاً حتى أتمكن من لثم جبهته. ثم أومأ إلى سكرتيره الذي جلس من جديد، ثم أمسك يدي وجذبني برقة للجلوس إلى جواره. قال الملك: «أمهلني دقيقة، أوشك على الانتهاء من هذه الرسالة».

استمر في الإملاء على سكرتيره بهدوء، وبدأ حواراً معي، دون أن يخلط للحظة بين ما يمليه وما يوجهه إلي من حديث، وبعد عدة جمل رسمية، قدمت إليه خطاب تعريف بشخصي، بدأ في قراءته، مما عنى لي أنه يقوم بثلاثة أعمال في آن واحد، دون أن يقطع إملاءه، أو الاطمئنان على راحتي، ونادى الخدم لتقديم القهوة.

أتيحت لي الفرصة أن أتأمله عن كثب. كان متناسق الأعضاء على الرغم من ضخامته، كانت قامته لا تقل عن ستة أقدام ونصف القدم، ولا يبدو طول قامته إلا حين ينهض واقفاً، كان وجهه، الذي تحيط به كوفية ذات مربعات تقليدية بيضاء وحمراء يعلوها عقال منسوج من خيوط ذهبية، يحمل أمارات الرجولة والقوة. وكانت له لحية وشارب محفوفان على طريقة أهل نجد، وكان عريض الجبهة، ذا أنف مستقيم طويل، أما فمه فقد كان يشي بالرقة لا بالتهاون، وحين يتحدث يبدو وجهه مفعماً بحيوية فائقة، أما في أوقات صمته فيظهر على وجهه حزن

صاحب السمو الملكي الأمير فيصل بن عبد العزيز ١٣٤٦ (١٩٢٧م)

دفين، كأنما انسحب بأفكاره إلى عالم داخلي فريد؛ وكانت عيناه العميقتان في محجريهما يشيان بذلك الانطباع.

داوم الملك على استدعائي يومياً، تقريباً، بعد اللقاء الأول. ذهبت إليه ذات يوم وأنا أبيت النية أن أستأذنه في السماح لي للقيام برحلة طويلة إلى أعماق الجزيرة العربية لمشاهدة مناطقها المختلفة، وكان أملي ضعيفاً في نيل تلك الموافقة، فلم يكن الملك عبد العزيز يسمح للأجانب بزيارة نجد من خلال عرف متوارث أصبح له قوة القانون. بينما كنت أُهمُّ بإخباره عن رغبتي، سدّد إليّ نظرة نفذت إلى مكنون خواطري وأفكاري، ثم ابتسم قائلاً: «هل تأتي معنا يا محمد إلى نجد وتمكث معنا في الرياض بضعة أشهر؟» أصابتني الدهشة كما أصابت الحاضرين، فدعوة مثل تلك إلى أجنبي للإقامة في نجد لم تقع من قبل على وجه التقريب. أردف قائلاً قبل أن أفيق من دهشتي: «من الأفضل أن تسافر معي بالسيارة في الشهر القادم».

أخذت نفساً عميقاً،وأجبته: «أطال الله عمرك يا إمام، ولكن مافائدة السفر بالسيارة لي؟ ما فائدة أن أنتقل بسرعة من مكّة المكرّمة إلى الرياض فى خمسة أيام أو ستة دون أن أشاهد أي مناطق في البلاد خارج الطريق؟ لن أشاهد من السيارة إلا كثبان الرمال، وربما بعض الناس في آفاق بعيدة تبدو كالأطياف.. إن لم يكن لديكم مانع، فمن الأفضل لي قطع تلك المسافة على ناقة، وذلك أفضل لي من كل الجوانب يا طويل العمر».

ضحك الملك عبد العزيز قائلاً: «أَلديك هذا الشوق إلى مشاهدة عيون أبناء شعبي من البدو؟ لابد أن أحذرك مقدماً، فالبدو أناس بسطاء فطريون، ونجد أرض صحراوية بلا جَمَال يميزها من غيرها، ورحل الجمل يابس وصلب، والطعام شحيح خلال الرحلة ولن تجد إلا الأرز والتمر وقد تجد اللحم في أحيان نادرة، ولكن إن شئت واستقر عزمك على ذلك فسأتركك تسافر، وأتمنى ألا يعتريك الندم على معرفتك البدو، إنهم فقراء، إلا أن قلوبهم مملوءة بالإخلاص».

بعد ذلك بأسابيع، انطلقت من مكّة المكرّمة بعد أن منحني الملك عبد العزيز جملين وزاداً للطريق وخيمة، وأمر بأن يصحبني دليل ليرشدني إلى الطريق، ووصلت إلى الرياض بعد شهرين من مغادرتي مكّة المكرّمة. كانت تلك الرحلة هي الأولى لي عبر الأرجاء الداخلية للجزيرة العربية، المرة الأولى تتبعها عدة مرات ستأتي لاحقاً بعد ذلك، أما الشهور التي طلب مني الملك أن أقضيها معه في الرياض فقد امتدت إلى أعوام، لم أشعر بمرور الزمن، ولم أدر كيف امتد إلى أعوام قضيتها بين أغلب أرجاء المملكة مرتحلاً من مكان إلى مكان، ولم يعد الرحل يابساً ولا صلباً بأي حال...[١]

* * *

قال العجوز صاحب الملامح الحادة وقائد الجماعة المرتحلة التي قابلتنا: «أطال الله عمر الملك عبد العزيز، فهو يحب البدو، ولذا يحبه البدو».سألت في داخلي: «ولماذا لا يحبونه؟ إن راحة يده مبسوطة، ودارته مفتوحة على الدوام لكل بدو نجد، وهي إحدى صفاته التي ذاع صيتها، إلا أن تلك الصفة لم تنل رضاي ولا إعجابي، فكثرة الهدايا والهبات والأموال التي يغدقها عليهم الملك عبد العزيز آل سعود في سخاء جعلتهم يعتمدون كلياً على كرمه، حتى إنهم فقدوا أي دافع للعمل على تحسين نمط حياتهم بالكد والجهد، وانزلقوا بالتدريج إلى حالة من المتلقين للإعانات، وبذلك ظلوا قانعين وراضين بجهلهم وكسلهم.

في أثناء حديثي مع الشيخ ذي الملامح الحادة، بدا على زيد نفاد الصبر. فبينما كان يتحدث مع أحد الرجال، كانت عيناه تحطان من آن إلى آخر على وجهي، كمن يذكرني أن أمامنا طريقاً طويلاً مازال علينا أن نقطعه، وأن تبادل أحاديث الذكريات مع أولئك القوم لن يسرّع خطو الجمال. ركب بدو شمّر ركائبهم وواصلوا مسيرهم باتجاه الشرق، وسرعان ما اختفوا خلف التلال. ومن مكاننا وصلت إلى مسامعنا كلمات أغنية بدوية راح واحد منهم يشدو بها، لحث جمالهم على المسير، ودفعاً لملل السفر الطويل، وبينما ولينا وجهتنا باتجاه الغرب، إلى تيماء، كان صوت الحادي يتلاشى رويداً رويداً، حتى اختفى تماماً وساد الصمت من جديد.

---

١ـ كناية عن تعوده ركوب الجمال، وتكيفه مع حياة الصحراء.

(٣)

ارتفع صوت زيد فجأة محطماً الصمت السائد: «انظر، أرنب بري» حولت بصري بسرعة فرأيت كتلة من الفراء الرمادي تقفز مندفعة بين تجمع عشبي، بينما كان زيد ينزلق بسرعة من على رحل ناقته وحل العصا التي تثبت مقدم الرحل واندفع باتجاه الأرنب مؤرجحاً العصا فوق رأسه ليقذف بها الأرنب، في اللحظة التي أوشك فيها على قذف العصا، اشتبكت قدمه في جذر ميت لشجرة حمض، فسقط منكباً على وجهه، بينما اختفى الأرنب في لمح البصر.

ضحكت، بينما كان زيد ينهض من عثرته، وهو يتطلع إلى العصا التي كانت بيده في حسرة وأسى، وقلت له: «أضعت علينا عشاءً شهياً، لا عليك يا زيد، من الواضح أن ذلك الأرنب لم يكن من نصيبنا ولا قسمتنا...».

أجاب بذهن شارد: «لا، لم يكن مقسوماً لنا»، ثم تبينت أنه كان يعرج في خطواته وعلامات ألم شديد تبدو على وجهه، فسألته: «هل أصيبت قدمك؟».
قال: «كلا، لا شيء، التوى كاحلي فقط، سيتحسن بسرعة». إلا أنه لم يتحسن. فبعد ساعة وهو على ناقته كان وجهه يطفر بحبات العرق من شدة الألم المتزايد؛ وحين انتقل بصري إلى كاحله، وجدته قد تورم بشدة.

قلت: «لا فائدة يازيد من مضينا وأنت على هذه الحال، فلنضع رحالنا هنا؛ ليلة من الراحة تعيد قدمك سليمة إن شاء الله».

* * *

لم يستقر زيد على حال طوال الليل من شدة الألم، وجافاه النوم حتى مطلع الفجر، كانت تحركاته القلقة من شدة ألمه تقلق نومي الذي لم يكن مريحاً.

عند الفجر قال: «لا أرى إلا ناقة واحدة، وحين تطلعنا حولنا، اكتشفنا أن إحدى الناقتين قد اختفت، وكانت ناقة زيد. أراد زيد أن يركب ناقتي وينطلق باحثاً عن

الأخرى التي شردت، إلا أن كاحله المصاب جعل من الصعب عليه حتى الوقوف، فضلاً عن السير وركوب الناقة والنزول عنها.
قلت له: «استرح أنت يازيد، سأذهب للبحث عنها، لن تصعب عودتي، سأرجع على آثار ذهابي».

ركبت ناقتي على ضوء الفجر الوليد، وانطلقت باحثاً عن الناقة الشاردة، تتبعت آثار أقدامها على الرمال في السهل الرملي حتى الكثبان. مضيت مدة ساعة متتبعاً أثرها، ثم ساعة أخرى، ثم ثالثة، وظل أثر الناقة ممتداً إلى مسافات لا تنتهي. أوشك النهار على الانتصاف، فتوقفت لالتقاط أنفاسي، ترجلت، أكلت حفنة تمر، وارتويت من قربة الماء المعلقة في رحل الناقة. توسطت الشمس كبد السماء، إلا أنها لم تكن بسطوتها المعتادة. كانت سحب دكناء، وهي غير معتادة في ذلك الوقت من العام، تغطي أجزاءً من صفحة السماء دون حركة؛ كانت السحب كثيفة بأشكال عجيبة، وهبت ريح شديدة أطاحت بحواف الكثبان الرملية الناعمة.

استرعى انتباهي ظهور شكل غريب على قمة تلٍّ رملي مرتفع، فسألت هل هي حركة لحيوان؟ هل هي الناقة الشاردة؟ وعندما دققت النظر، وجدت أن الحركة تنتقل إلى أعلى التل وإلى حافته الجانبية، كانت الحافة تتحرك حركة طفيفة متموجة رقراقة إلى الأمام باتجاهي، مثل حافة موجة تتقدم ببطء، ثم زحفت عتمة حمراء وغطت صفحة السماء كأنها قادمة من خلف الكثيب المواجه لي، وأصبح الكثيب في تلك العتمة الحمراء بلا ملامح ولا معالم، بدا كأنه حجاب قد أسدل عليه؛ وامتدت العتمة الحمراء بسرعة وحلّت على كل المرئيات من حولي، ثم هبت على وجهي دفقة قوية من رياح محملة بحبات الرمال، ودارت من حولي في دوامة شديدة، ثم راحت الرياح تهدر بعنف من كل الاتجاهات، تكنس وجه الوادي الرملي في هبات عاتية، وانتقلت الحركة المتموجة التي كانت تبدو على التل المواجه لي، وشملت كل الكثبان والتلال الرملية التي يصل إليها بصري. وخلال دقائق أظلمت السماء وتحولت إلى لون بني مثل

صدأ الحديد المتدرج في عتامته، وامتلأ الجو بدوامات من الرمال الدقيقة، علقت في الجو مثل ضباب أحمر، كانت العاصفة الرملية قادمة كل ما رأيته مقدمتها المنذرة.

ذعرت ناقتي، ارتجفت، حاولت أن تنهض فزعاً، إلا أنني قبضت على لجامها بقوة، قاومت بكل قوتي لأحافظ على توازني حتى لا تطيح بي العاصفة العاتية التي تحولت إلى قوة الإعصار، كافحت حتى قيدت ساقي الناقة الأماميين، ثم قيدت الخلفيين، ألقيت بنفسي خلفها فوق الرمال ولففت عباءتي حول رأسي ووجهي ودفنت رأسي تحت أبط الناقة حتى لا أختنق من الرمال الناعمة. أحسست بالناقة وهي تدفن خطمها على كتفي للسبب ذاته. شعرت بالرمال تتراكم حول جسمي وتدفنه داخلها بوصة بعد بوصة من الجانب البعيد عن الناقة، رحت أغير وضع جسمي مرة بعد أخرى حتى لا تغطيني الرمال الهائجة. لم أصب بخوف ولا وجل، فلم تكن أول عاصفة أصادفها. مكثت منبطحاً، محكماً لفَّ العباءة حول رأسي ووجهي، ولم يكن هناك ما أفعله غير الانتظار، وهدير الرياح وخفقات جلبابي الذي أصبح مثل شراع مركب حُلَّت حباله، بل أصبح مثل راية خفاقة في الرياح، مثل رايات القبائل التي يحملونها على الصواري، في مسيراتهم، ذكرتني برايات خفاقة رأيتها منذ خمسة أعوام مضت، كان يحملها فرسان نجد من البدو - آلاف منهم وكنت واحداً منهم - عائدين من عرفات إلى مكّة المكرّمة بعد الحج. كان الحج الثاني لي، وقد قضيت عاماً في الارتحال بين أرجاء الجزيرة العربية وقررت العودة إلى مكّة المكرّمة في الوقت المناسب لأشارك في وقفة عرفات. شرق المدينة المباركة، في طريق العودة من عرفات وجدت نفسي وسط جمع غفير من بدو نجد يرتدون ملابس الإحرام البيضاء، يركبون جمالهم في سهل ترابي - بحر متلاطم من الرجال بملابس الإحرام البيضاء، على جمال صفراء بلون العسل، وجمال بنية ذهبية، وجمال بنية دكناء - تركض في هدير وترتج الأرض من ركض آلاف الجمال المندفعة كموجة عاتية لا يملك لها أحد صدّاً، وأعلام القبائل مرفوعة عالية تخفق في الرياح، وهتاف أبناء القبائل يعلن عن قبائلهم ومآثر أسلافهم في الحروب والنزال، تنبع هتافات الحرب والحج عند أبناء نجد من منبع الفخر.. أما

باقي الحجيج من الأماكن الأخرى، من مصر والهند وشمال إفريقية ويافا - غير المعتادين على ذلك الحماس البدوي، فقد تفرقوا مذعورين عندما اقتربت منهم جحافل الجمال العادية، فلن يظل حياً من يقف في طريقها، ومسيرة القبائل الماضية كالرعد، والموت الفوري نصيب من يسقط من فوق رحل جمله وسط آلاف الآلاف من راكبي الجمال العادية كالعاصفة.

ومهما كان جنون من يقومون بتلك الحملات من عرفات إلى مكّة المكرّمة، فقد شاركت فيها، وانتقلت إليّ عدوى حماسها، وأسلمت نفسي إلى جموحها واندفاعها وزئيرها مع الإحساس بفرحة وسعادة تملأان قلبي - كانت الرياح التي تمر فوق رأسي وأنا أدفنها في إبط الناقة تنشد قائلة: «لن تكون أجنبياً ولا غريباً بعد الآن.. لن تكون غريباً أبداً بين أبناء هذه الأرض...»

لم أعد أجنبياً ولا غريباً، أصبحت الجزيرة العربية موطني. تحول ماضيّ الغربي إلى حلم بعيد، لم يصبح حلماً غير واقعي تماماً حتى أنساه، كما لم يعد واقعياً تماماً ليشكل جانباً من حاضري. لا يعني ذلك بالطبع أنني أصبحت من آكلي اللوتس، بل على العكس، فكلما مكثت مدة أشهر في إحدى المدن مثل المدينة المنورة على سبيل المثال التي كان لي بها زوجة عربية وطفل ومكتبة ملأى بالكتب عن التاريخ المبكر للإسلام - يزداد قلقي ويدفعني الشغف إلى المغامرة والحركة، وأشتاق إلى جو الصحراء الجاف المنعش، وإلى رائحة الجمال، وإحساسي برحالها. من العجيب أن دوافعي الملحة إلى التجوال التي كانت تجعلني لا أستقر في موضع أغلب فترات حياتي (كنت في ذلك الوقت قد تجاوزت الثانية والثلاثين من عمري) كانت تغريني مرة بعد أخرى، وتدفعني إلى أنواع من المخاطر والمفاجآت المهلكة ومواجهة الموت، وعلى الرغم من ذلك لم تنل تلك المخاطر من تلك الرغبة، كما لم توهن عزيمتي وتطلعي إلى العثور على مكان أشعر فيه بالاستقرار في هذا العالم - أن أصل إلى مرحلة أستطيع بعدها أن أخلق علاقة بين ما يحدث لي وما أفكر فيه وما أحسه وما أرغب فيه. لو فهمت الأرض على وجهها الصحيح، فإن ما يشكل شخصيتي هو وَلَعي الشديد باكتشاف عالمي الداخلي، وقد دفعتني تلك الرغبة إلى عالم مختلف تماماً،

مختلف في مداركه الدفينة، وفي مظهره الخارجي، عالم يتباين كلياً مع عالمي الذي ولدت ونشأت عليه في أوروبا وما كان يمكن أن يشكله ذلك العالم من شخصيتي..

* * *

بعد أن هدأت العاصفة، نزعت جسمي من الرمال، كانت ناقتي أيضاً نصف مدفونة في الرمال، لم يكن هناك أسوأ من تلك التجربة التي لا بد أن الناقة قد مرت بها عدة مرات من قبل. من أول نظرة لم يبد أن العاصفة قد تسببت في أي أضرار باستثناء الرمال التي ملأت فمي وأنفي وأذنيّ، وفقدان قربة الماء التي كانت معلقة برحل الناقة. ولكن سرعان ما اكتشفت خطأ تقديراتي الأولى للخسائر.

لقد تغير شكل كل ما كان يحيط بي من كثبان قبل العاصفة، وانمحت تماماً آثار خطوات ناقتي على الرمال، وكذلك آثار خطوات ناقة زيد التي كنت أسعى خلفها. اكتشفت أنني في أرض بكر جديدة بمعالم وتضاريس جديدة، وبلا أي آثار قديمة على سطحها.

لم يعد هناك ما أفعله إلا محاولة العودة إلى مكان خيمتنا حيث تركت زيداً - بالاستعانة باتجاه حركة الشمس والحس الداخلي الغريزي بالاتجاهات عند من اعتادوا قطع الصحاري والترحال. إلا أن الوسيلتين لا يمكن الاعتماد عليهما تماماً، فكثبان الرمال تعوق السير في خط مستقيم، فلا تستطيع المحافظة على الاتجاه الذي خمنته، إذ لا بد من الدوران حولها.

أصابتني العاصفة الساخنة بعطش شديد، توقعت أنني لا أبعد عن وضع خيمة زيد إلا ساعات، وكنت قد شربت آخر جرعة ماء من قربتي الصغيرة منذ ساعات. على الرغم من أن ناقتي أيضاً لم ترتو من يومين منذ آخر مرة توقفنا فيها عند بئر، فإن الجمال ذات بأس في احتمال العطش، وقطع المسافات الطويلة، ويمكنني أن أعتمد عليها حتى أصل إلى زيد. وجهت خطم الناقة في الاتجاه الذي خمنت أني سأجد زيداً فيه، وقدتها في خطو سريع.

مرت ساعة ثم ساعتان ثم ثلاث ساعات، ولا أثر لزيد ولا للخيمة. لم تكن التلال الرملية البرتقالية اللون تشكل معلماً ذا قيمة، فكلها تقريباً ذات شكل موحد.

وصلت في وقت متأخر من العصر إلى موضع صخري من الأرض يبرز فوق سطح الرمال، كان من صخور الجرانيت النادرة وسط ذلك البحر اللانهائي من الرمال، وتذكرت تلك المنطقة على الفور، لقد مررنا بها أنا وزيد عصر البارحة، وكانت على مسافة يسيرة من الموضع الذي أقمنا خيمتنا فيه. أحسست براحة عميقة ـ بدا لي أنه لم يعد من الصعب الوصول إلى موضع الخيمة إذا سرت في اتجاه الجنوب الغربي كما فعلنا أمس حين كنا عند تلك الصخرة.

كنا قد قطعنا المسافة أنا وزيد من عند الصخرة إلى مكان خيمتنا فى ثلاث ساعات، ولكن بعد أن سرت بالناقة ما يزيد على ثلاث ساعات لم أجد أثراً للخيمة ولا لزيد. هل فقدت الاتجاه مرة أخرى؟ حثثت السير باتجاه الجنوب الغربي الذي حافظت عليه على الدوام، مسترشداً بموضع الشمس، ومرت ساعتان بلا أثر للخيمة ولا لزيد. حلَّ عليّ الظلام، ولم يكن ملائماً مواصلة السير؛ كان من الأفضل أن أستريح حتى يشرق نور النهار. ترجلت عن راحلتي، عقلتها، حاولت أن آكل حفنة من التمر إلا أن عطشي كان شديداً فوهبتها للناقة، وتمددت لاصقاً جسمي ببدن الناقة.

نمت نوماً متقطعاً غير مريح، لم يكن استغراقاً في النوم كما لم يكن يقظة واعية، امتلأ نومي بأحلام مزعجة نتيجة لإنهاك بدني، وكان نومي متقطعاً من شدة عطشي الذي تحول إلى نوع من الألم؛ عدا ذلك، كان في الأعماق الداخلية الدفينة التي لا يتوصل المرء إلى كنهها، والتي يخشى المرء أن يكشف عنها حتى إلى ذاته، خوف هلامي رمادي خجول، يتوارى إلا أنك تشعر بوجوده في الأعماق، ما الذي يحدث إذا لم أصل زيداً والخيمة وقربة الماء؟ فحسب علمي، لا يوجد ماء، ولا مأوى لبشر على مسيرة أيام في كل الاتجاهات.

نهضت عند الفجر، أعدت حساباتي في أثناء الليل، وخمنت أنني ابتعدت كثيراً إلى الجنوب، وأن زيداً والخيمة في مكان ما إلى الشمال والشمال الشرقي من

موضعي. وجهت الناقة إلى اتجاه يقع بين الشمال والشمال الشرقي وأنا عطشان ومنهك وجائع، أمضي في خطوط متعرجة حول الكثبان من وادٍ إلى وادٍ، أدور حول الكثبان مرة إلى اليسار ومرة إلى اليمين. عند الظهر توقفت لأستريح، كان لساني قد التصق بحلقي، وشعرت به مثل جلد جاف قديم متشقق؛ وحلقي ينبض بالألم وعيناي ملتهبتان، التصقت ببطن الناقة، وسحبت عباءتي ولففت بها وجهي ورأسي، حاولت أن أنام، إلا أن النوم لم يواتني، بعد الظهر بدأت السير من جديد، ولكن في اتجاه أميل إلى الشرق - أيقنت أنني مضيت باتجاه الغرب أكثر مما ينبغي - إلا أن الخيمة وزيداً لم يظهرا في أي أفق.

حلَّت ليلة جديدة، تحول العطش إلى عذاب وألم مبرح، وبلغ الاشتياق إلى جرعة ماء أشده، رغبة ملحة استحوذت على عقلي وفكري، اختفت وتلاشت أي رغبات وأفكار أخرى عداها. بمجرد أن أضاء الأفق بنور الفجر الوليد، ركبت من جديد حتى طلع الصباح، سرت حتى الظهر، واصلت المسير حتى العصر، ولا جديد يلوح فى الآفاق إلا كثبان رملية وحرارة محرقة. كثبان بعد كثبان بلا نهاية، أم ربما كانت تلك هي النهاية؟ نهاية كل الطرق التي سلكتها، ونهاية كل ما أسعى إليه وكل ما تمنيت تحقيقه؟ ونهاية انتمائي إلى شعب لن أصبح غريباً بينه بعد الآن؟ دعوت من أعماقي: «يارب، لا تجعلني أنتهي بهذه الوسيلة...».

ارتقيت في العصر كثيباً عالياً لإلقاء نظرة أشمل على الأنحاء من حولي، لمحت بقعة دكناء في الشرق البعيد، كدت أصيح فرحاً، إلا أنني كنت أضعف من القيام بذلك، لابد أن اللون الأدكن هو الخيمة، وزيد، وقِرَب المياه، القربتان الكبيرتان المملوءتان بالمياه.

كانت ركبتاي ترتجفان حين ركبت ناقتي. سرت ببطء وحرص في اتجاه البقعة الدكناء حتى لا أفقد الاتجاه، بكل تأكيد ليست البقعة الدكناء إلا الخيمة وزيد. في تلك المرة سرت في خط مستقيم، لا أدور حول التلال والكثبان بل أصعد فوقها وانحدر عنها وكان ذلك يضاعف المسافة، إلا أن الأمل يحثني أنه خلال ساعتين على أكثر

تقدير، سأصل إلى الماء. بعد أن عبرت آخر كثيب، أصبح الهدف أشد وضوحاً أمامي، شددت لجام الناقة، ورحت أتأمل ذلك الشيء الأدكن الذي كان يبعد نصف ميل، أوشك قلبي على التوقف: فالشكل الأدكن لم يكن إلا البروز الصخري الجرانيتي الذي مررت به مع زيد من ثلاثة أيام ومررت به بمفردي من يومين مضيا...
كنت أهيم في دائرة على مدى يومين.

(٤)

كانت قوتي قد تلاشت فانزلقت من فوق ظهر الناقة، لم أعبأ بأن أعقل الناقة، كانت هي الأخرى في حالة من الإجهاد تمنعها من الشرود. بكيت؛ إلا أن عيني الجافتين المتورمتين لم يكن فيهما دمعة واحدة.

كم مضى عليّ من زمن حين بكيت آخر مرة... بدت كل حياتي وكأنها ماض سحيق البعد، أصبح كل شيء ماضياً، لا يوجد حاضر، لا يوجد إلا عطش، وحر لافح، وعذاب.

أمضيت حتى الآن ثلاثة أيام بلا قطرة ماء، وخمسة أيام من آخر مرة ارتوت فيها الناقة. قد تتحمل العطش يوماً آخر، أو يومين، أما أنا فلا يمكنني الاحتمال أكثر من ذلك، ربما يصيبني الجنون قبل الموت، وقعت آلام بدني في شراك الرعب الذي ألمّ بعقلي، كان كل منهما يصب في الآخر وينميه، ذبول وتمزق...

أردت أن أستريح، إلا أنني كنت على يقين من أنني لو استرحت الآن فلن أنهض بعد ذلك أبداً، جررت أقدامي المتثاقلة وركبت الناقة، أجبرتها بالضرب والنخس على النهوض، أوشكت على السقوط من فوق السرج حين مالت إلى الأمام وهي تنهض على ساقيها الخلفيتين، وكدت أسقط للخلف حين نهضت على قائميها الأماميين. تحركت الناقة بتثاقل باتجاه الغرب المنشود، يا للسخرية، ما الذي يعنيه «الغرب المنشود» في هذا البحر المخادع المتماوج من الرمال؟ إلا أنني كنت أتوق إلى الحياة. هكذا مضيت متهالكاً، نمضي أنا والناقة متثاقلين بما تبقى فينا في ظلام الليل. لابد أن الصباح قد أشرق حين

تهاويت ساقطاً من فوق الرحل. لم تكن السقطة عنيفة؛ كانت الرمال ناعمة فاحتضنتني برفق، ظلت الناقة واقفة بموضعها فترة، ثم انهارت من عليائها باركة على ركبتيها، ثم رقدت جواري مادّةً عنقها إلى الرمال. تهاويت أنا في منطقة الظل الضيقة التي شكّلها جسم الناقة وأنا ملتف بالعباءة محتمياً بها من حرارة الشمس ومن آلام بدني ومن العطش والخوف النابعين من داخلي. لم يعد لدي أي قدرة على التفكير، بل لم أعد قادراً على إغلاق عيني. كل حركة جفن أضحت كحديد محمي يجري على صفحة العين. عطش وحر؛ عطش وصمت قاتل؛ صمت جاف يابس يحش كالمنجل، ويكفنك في وحدة ويأس، صمت يجعل من تدفق دمائك في أذنيك ومن زفرة الناقة من حين إلى آخر يبدوان بشكل مهدد كأنها آخر أصوات تسمعها على الأرض، وأنا والناقة، الإنسان والحيوان، آخر كائنات حية، آخر كائنات مشؤومة على الأرض.

في الأعالي من فوقنا، في بحار الحر اللافح في صفحة السماء، حوَّم نسر في بطء دون أن ينقض علينا، كأنه رأس دبوس على صفحة سماء شديدة الشحوب، منطلق بحرية فوق كل الآفاق...

تورم حلقي، انقبض وضاق وانغلق، كل شهيق أتنفسه كان يغرس آلاف الإبر الشائكة المؤلمة من قاعدة لساني إلى طرفه، ذلك اللسان الذي كبر وتضخم، والذي يجب ألا يتحرك، إلا أنه لا يكف عن الحركة المؤلمة، إلى خلف داخل الحلق، ثم للأمام، كمبرد خشن في تجويف جاف. كان كل ما بداخلي يحترق ويعتصر في قبضة آلام لا تتوقف. لثوانٍ تحولت السماء التي كانت بلون رمادي إلى لون أسود حالك. تحركت يدي بلا إرادة مني، ودقت على العلامة المثبتة على رحل الناقة، ثم توقفت عن الحركة، موجة إدراك باهت هبت على عقلي الضبابي وبرزت من بينها خمس طلقات موجودة في بندقيتي مع فكرة غائمة عن النهاية السريعة لآلامي التي يمكن تجنبها بضغطة على زنادها... همس هاتف في داخلي: أسرع، تناول البندقية قبل أن تفقد القدرة نهائياً على تحريك يدك، ثم شعرت بشفتيّ تنفرجان وتتمتمان بكلمات من دون صوت، كلمات تأتي من حشايا وأعماق ميتة في جوانب عقلي: «لنبلونكم..

سنبلوكم..»»، اكتسبت الكلمات التي كانت غامضة شكلاً وصوتاً، وتدفقت في شكل ومعنى.. في آية من آيات القرآن الكريم، راحت تترى على شفتي وفي أعماقي:

﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ ۗ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٥﴾ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾﴾[1]

أصبح كل ما أحسه ملتهباً يسبح في ظلام دامس، ومن وسط الظلام الملتهب أحسست بنسمات هواء بارد، وسمعت حفيفه الحاني - حفيف هواء عليل يهب على أشجار حافة جدول ماء، والماء يتدفق في تيار جارٍ بين ضفتين معشبتين، كان المكان هو مسقط رأسي، وأنا مستلق على الضفة صبياً صغيراً في التاسعة، ألوك سيقان العشب والحشائش، وأتطلع إلى أبقار بيضاء ترعى بالقرب مني وفي عيونها دعة وهدوء واستكانة وبراءة الرضا. على مسافة كانت هناك نساء قرويات يعملن في حقل، كانت إحداهن تربط منديلاً أحمر على رأسها، وترتدي تنورة زرقاء ذات خطوط عريضة بيضاء، وعلى حافة الماء أشجار صفصاف باسقة، وفوق صفحة الماء تطير بطة بيضاء، ترتعش صفحة الماء تحت وقع خفقات أجنحتها، هواء عليل يهب على وجهي كزفير الحيوانات، آه، حقاً، كان زفير حيوان، كانت بقرة بيضاء ببقع بنية قد دنت من وجهي، كانت تمس وجهي برفق، وتزفر من خطمها، شعرت بحركة أقدامها إلى جواري....

فتحت عيني، شعرت بزفرة بعيري وحركة أقدامه بجواري. كان قد نهض نصف نهوض على ساقيه الخلفيتين ورقبته ورأسه مرفوعان، اتسعت فتحتا أنفه كأنه يشم رائحة طيبة، ظهرت فجأة في هواء الظهيرة، زفر بقوة من جديد، أحسست بتموجات الإثارة التي تجتاح رقبته باتجاه أكتافه وتنساب إلى جسده نصف الناهض. لقد رأيت جمالاً قبل ذلك تزفر وتشخر حين تشم رائحة الماء بعد أيام طويلة في

---

١- سورة البقرة: الآيات ١٥٥، ١٥٦، ١٥٧.

الصحراء؛ إلا أن هذه المرة لم يكن هناك ماء... أم ترى أن هناك ماء؟ رفعت رأسي وتابعت الاتجاه الذي أدارت الناقة رأسها. كان بذلك الاتجاه كثيب رملي قريب منخفض تعلوه صفحة سماء فولاذية خالية، ولا صوت من أي اتجاه. ولكن كان هناك صوت، صوت خافت يشبه تردد وتر قيثار بعيد، خافت رقيق وعميق، كان الصوت قادماً من خلف الكثيب، بدا قريباً جداً بعد لحظة.. ولكني أدركت في جزء من ثانية - أنه أبعد من إمكان الوصول إليه، وأبعد من المدى الذي يمكن أن يبلغه صوتي المكتوم في أعماقي. أدركت أن هناك بشراً على مسافة ما، ولكن يستحيل أن أصل إليهم، بل لم يكن بإمكاني أن أقف على قدمي من ضعفي وهزالي، ظهر الصوت أكثر رقة، كان البدو ينشدون في أثناء ترحالهم على إيقاع خطو الجمال. حاولت أن أصيح فلم يخرج من حلقي صوت. اصطدمت يدي بطريقة آلية ببندقيتي المعلقة بالرحل... بعين خيالي رأيت الطلقات الخمس الموجودة فيها.. بجهد فائق رحت أحلها. كان حمل طلقة يماثل رفع جبل وطيد، نجحت آخر الأمر، أسندت البندقية على كعبها، وأطلقت طلقة رأسية، وراحت تعوي في الهواء. أطلقت طلقة ثانية، وأصخت السمع. توقف الغناء الذي كان يشبه القيثار. لحظات لم يكن هناك إلا صمت عميق. فجأة ظهر فوق الكثيب رأس رجل، ثم ظهر كتفاه، ثم رجل آخر إلى جواره. نظرا إلى أسفل لحظة، ثم استدارا وصاحا بكلام ما إلى أشخاص في الجانب الآخر من الكثيب، ثم انزلق الرجل المتقدم راكضاً باتجاهي.

بعد لحظات كان هناك تجمع حولي اثنان، ثلاثة رجال - ما هذا الزحام بعد الوحدة الطويلة؟ كانوا يحاولون رفعي، كانت حركتهم مضطربة.. شعرت بشيء بارد حارق، شيء مثل الثلج والنار في آن واحد على شفتي، رأيت وجهاً بدوياً ذا لحية ينحني فوقي، كانت أصابعه تعتصر قطعة مبللة من القماش القذر بين شفتي، ويده الأخرى تحمل قربة ماء مفتوحة الفوهة، تحرك فمي غريزياً باتجاه فوهتها، إلا أن البدوي دفعني برفق بعيداً عنها. غمس القماش في الماء وقطره قطرات بين شفتي. حاولت أن أضغط فكي لأمنع الماء من الوصول إلى حلقي الملتهب؛ إلا أن البدوي ضغط فكيَّ لإبعادهما بعضهما عن بعض ثم قطر بعض قطرات أخرى في فمي.. لم يكن ماء، كان رصاصاً مصهوراً. لماذا يفعلون ذلك بي؟ أردت أن أفر من ذلك العذاب، إلا أنهم أعادوني إلى موضعي، أولئك

الشياطين.. جلدي يحترق. كل بدني يسبح في لهب حارق، هل ينوون قتلي؟ آه لو كانت لدي القوة والقدرة على جذب بندقيتي للدفاع عن نفسي، إلا أنهم لا يدعونني أنهض، أمسكوني على الأرض وفتحوا شفتيّ وفمي بالقوة من جديد وسكبوا بعض الماء، وكان لابد أن أبتلعه ـ للغرابة الشديدة لم يكن حارقاً كما كان من لحظات مضت، كما راحت الكوفية المبللة التي وضعوها حول رأسي تبعث فيَّ إحساساً بالراحة، وحين صبوا بعض الماء على ملابسي، كان إحساسي بالملابس المبللة يبعث في بدني رعشة ماتعة...

ساد الظلام، كنت أسقط، وأستمر في السقوط في بئر عميقة، وكانت سرعة سقوطي تجعل الهواء يدوي في أذنيّ، وتحول الدوي إلى ضجيج، ضجيج من سواد وظلام، ظلام، ظلام.

(٥)

ظلام، ظلام، ظلام رقيق بلا صوت، ظلام حنون ودود يضحك مثل غطاء دافئ ويجعلك تظل متدثراً به على الدوام، خليط من الإجهاد والنوم والخمول؛ إحساس بأنه لا حاجة إليك في فتح عينيك ولا حتى تحريك إصبع؛ إلا أنك تجد نفسك تفتح عينيك وتحرك ذراعك، لا ترى إلا ظلاماً فوقك، ظلاماً منسوجاً لخيمة بدوية تجدها فوق رأسك، خيمة من شعر الماعز الأسود، خيمة بفتحة أمامية ضيقة يظهر منها جانب من صفحة السماء مرصعة بنجوم لا حصر لها، وتحتها انحناء رقيق لحافة كثيب رملي يتألق تحت ضوء النجوم... أظلمت فتحة الخيمة وشغلها جسم رجل يقف بها، كان إطار عباءته الخارجي يرسم صورة محددة على صفحة السماء من خلفه، ثم سمعت صوت زيد يقول في فرح وتعجب: «لقد استيقظ، لقد استيقظ» دنا بوجهه الحازم الجاد من وجهي، وأمسك كتفيّ بكفيه، ثم دخل الخيمة رجل آخر، لم أتمكن من رؤيته بوضوح، وبمجرد أن تحدث بتلك اللهجة البطيئة الوقورة عرفت أنه بدوي من قبائل شمّر.

شعرت بعطش حارق من جديد، وجذبت بلهفة إناء الحليب الذي مده زيد باتجاهي، تجرعته في نهم، ولم أشعر بأي ألم عند البلع، بينما راح زيد يقص عليّ كيف تصادف أن حطت جماعة البدو رحالها بالقرب منه حين هبت العاصفة، وكيف

عادت ناقته الشاردة من تلقاء ذاتها في أثناء الليل، ولما قلقوا على مصيري، خرجوا جميعاً للبحث عني، وبدؤوا يفقدون الأمل بعد مرور ثلاثة أيام على غيابي، ثم سمعوا صوت الطلقات التي أطلقتها من خلف الكثيب الرملي.. وعلمت منه أنهم أقاموا الخيمة فوقي في المكان الذي عثروا عليّ فيه، وأمروني أن أظل بها طوال الليل والنهار التالي. لم يكن أصدقاؤنا البدو في عجلة من أمرهم، وكانت قربهم مملوءة بالمياه، بل إنهم وهبوا ثلاث قرب لناقتي العطشى، كانوا يعلمون أن هناك واحة على مسيرة يوم واحد باتجاه الجنوب، حيث الماء والنباتات التي ترعاها الجمال.

ساعدني زيد في الليل على الخروج من الخيمة، مدَّ لي بطانية فوق الرمال، تمددت فوقها تحت النجوم الساطعة.

* * *

استيقظت بعد ساعات لا أدري عددها على صوت أقداح القهوة بيد زيد؛ كانت رائحة القهوة الطازجة تنشر الدفء في النفس، ناديت: «زيد»، أدهشني صوتي على الرغم من ضعفه الواضح فقد عاد إليه بعض صفائه: «أعطني بعض القهوة».

رد زيد: «بالله سأفعل ياعمي»، لقد نشأ على عادة عربية أصيلة في مخاطبة من يظهر لهم التبجيل والاحترام بلقب العم، سواء أكان أكبر منه سناً أم أصغر (بالمناسبة، كنت أصغر من زيد ببضعة أعوام)، ثم أردف: «سأعطيك قهوة بقدر ما يود قلبك».

احتسيت القهوة، وتطلعت إلى وجه زيد الطافح بسعادة رزينة، قلت له: «لماذا يا أخي نعرّض أنفسنا لهذه المهالك بدلاً من المكوث في بيوتنا مثل العقلاء من الناس؟»

ردَّ زيد: «لأنه لا يليق بأمثالك وأمثالي أن ننتظر في بيوتنا حتى تتيبس أعضاؤنا، وتجتاحنا الشيخوخة. عدا ذلك، ألا يموت الناس أيضاً في بيوتهم؟! ألا يحمل الناس مصايرهم حول أعناقهم أينما كانوا؟!».

كانت الكلمة التي استعملها زيد للدلالة على المصير هي كلمة «قسمة» المعروفة في الغرب بلفظها التركي «قسمت». بينما كنت أرتشف قدحاً آخر من القهوة، جال بخاطري أن ذلك التعبير العربي يحتوي على معنى عميق مختلف: «وهو ما يكون للمرء فيه نصيب أو حصة».
مالك فيه نصيب.

أصابت الكلمات وتراً رقيقاً مراوغاً في ذاكرتي... وابتسامة عريضة كانت تصاحب ذلك القول حين سمعته أول مرة... ابتسامته تبدو من خلف سحابة من الدخان، دخان له رائحة نفاذة...، وكانت الابتسامة لواحد من أغرب من رأيت وقابلت، الذي التقيته بعد مروري بتجربة غريبة وخطيرة، كنت أحاول النجاة من خطر يبدو وشيكاً - يبدو فقط - فهرعت منه في سباق محموم دون أن أدري إلى أحضان خطر حقيقي كدت ألقى فيه حتفي - وقادني الخطر المفترض، والخطر الحقيقي كلاهما اللذان كنت غافلاً عنهما إلى نجاتي من موت محقق...

كان ذلك منذ ثمانية أعوام مضت، كنت مرتحلاً على جواد بصحبة خادمي التتري إبراهيم من شيراز إلى كرمان جنوب إيران - كانت كرمان مدينة نائية قليلة السكان، وليس لها طريق ممهد يؤدي إليها وتقع على بحيرة نيريس. كنا في الشتاء، وكانت الأرض موحلة غارقة في طين وماء، وكانت المنطقة سهولاً واسعة ممتدة ولا تجاورها القرى، يحدها من الجنوب «كوه - جشنجان» والتي تعني «جبال الجياع»، وفي اتجاه الشمال تتلاشى الأرض متحولة إلى مستنقعات تحيط بالبحيرة. في عصر ذلك اليوم درنا حول تل منعزل، فبرزت البحيرة فجأة أمامنا: سطح هائل من المياه الساكنة الراكدة الخضراء اللون، بلا صوت، وبلا نفس، وبلا حياة، مياهها شديدة الملوحة، ولا يمكن لأي نوع من الأسماك أو الأحياء المائية أن يحيا فيها. أما سواحل البحيرة فلم يكن عليها إلا بعض الشجيرات الملتفة والأعشاب الصحراوية. كان سطح الأرض مغطى بجليد ممزوج بالطين، وعلى بعد مئتي ياردة من موضعنا، ظهر أثر ممر ضيق يفصل البحيرة عن المستنقعات، ويسلكه المسافرون.

حلَّ المساء، ولم نصل بعد إلى «خان - إي - خيت» وهي استراحة على الطريق يقضي فيها المسافرون الليل. كان علينا أن نصل إلى ذلك الخان بأي ثمن؛ فلم يكن في تلك الأصقاعِ مأوى آخر غيره، كما أن قربنا من المستنقعات جعل من استمرارنا في السير ليلاً في غاية الخطورة. وبالفعل، كان بعض أهل المنطقة قد حذرونا في الصباح ألا نسافر وحدنا في ذلك الطريق، فأي خطوة غير محسوبة قد تقودنا إلى الغرق في المستنقعات. عدا ذلك، فقد كانت خيولنا في غاية الإجهاد بعد سير طويل مرهق على أرض رخوة، ولا بد من منحها قسطاً من الراحة لاسترداد عافيتها.

تساقط مطر غزير مع حلول الظلام. مضينا..، ونحن راكبان مبللان ومكتئبان وصامتان، اعتمدنا على غريزة الخيل في معرفة الاتجاهات أكثر من اعتمادنا على أبصارنا التي لم تكن تميز شيئاً في ذلك الظلام الدامس. مرت ساعات ولم يظهر أي أثر للخان. ربما نكون قد تجاوزناه في الظلام، وعلينا أن نقضي الليل في العراء تحت وابل منهمر من الأمطار التي كانت تزداد ساعة بعد أخرى... خاضت حوافر الخيل في المياه؛ والتصقت ملابسنا بأبداننا بعد أن تشبعت بالمياه. بدت لنا أشكال سوداء دكناء في ظلام الليل تحت وشاح من سيل مياه الأمطار؛ ارتجفنا حتى العظام؛ وجعلنا إدراكنا أن المستنقعات قريبة منا نرتعد أكثر خوفاً من السقوط فيها. فإذا انحرفت الجياد في أي ثانية عن طريقها كما قال لنا أهل المنطقة في الصباح، إذاً «فليرحمك الله».

كنت في المقدمة، وإبراهيم من خلفي ربما على مسافة عشر خطوات. مرة بعد أخرى راح ذلك الخاطر يطوف في ذهني: هل تجاوزنا.. خان - إي - خيت في هذا الظلام الدامس؟ ياله من احتمال مرعب، أن يفرض علينا قضاء الليل تحت تلك الأمطار الباردة! وإن تقدمنا أكثر من ذلك فسيزداد احتمال سقوطنا في المستنقعات.

فجأة، سمعت صوتاً ناعماً كأنه خوض حوافر الجواد في طين أملس طري؛ وأحسست بجوادي وكأنه ينزلق على وحل لزج، وغطس قليلاً، ورفع إحدى قائمتيه في خوف وفزع، لينزلق من جديد، اخترق الاحتمال ذهني في قسوة: المستنقع!

جذبت اللجام بشدة وشددت كعبي بقوة إلى بطن الحصان الذي رفع رأسه عالياً وبدأ في جذب قوائمه في غضب وتخبط. انبثق العرق البارد من كل مسامات جسمي. كانت ليلة حالكة الظلام حتى إنني لم أتمكن من رؤية كفي، وفي غمرة تقلصات جسد حصاني المنتفضة أحسست أنه يناضل نضالاً يائساً ضد الغوص في أعماق المستنقع. وبلا تفكير جذبت السوط المعلق بجانب الحصان ورحت أسوطه على قائمتيه الخلفيتين بكل ما أوتيت من قوة لأدفعه لبذل أقصى ما لديه من قوة - فإن توقف عن المسير لابد أن تبتلعه مياه المستنقع وأنا معه بالطبع... قفز الجواد الذي لم يتعود على ذلك الضرب المجنون - وكان من خيول كاشجاي التي تتميز بالسرعة والقوة - على قائمتيه الخلفيتين، إلى أرض صلبة استقرت عليها كل قوائمه من جديد، قفز وانزلق، وجر نفسه إلى الأمام من جديد، لينزلق مرة أخرى، وطوال الوقت كانت قوائمه تقاوم بيأس ذلك المستنقع اللزج.

اندفع شيء لم أتبينه في الظلام بقوة فوق رأسي مصدراً حفيفاً... رفعت ذراعي لحماية رأسي فتلقيت عليه ضربة مؤلمة لم أعرف مصدرها.. من أين؟ تراكمت الأفكار والاحتمالات بسرعة بعضها فوق بعض فتشتت فكري.. من بين أصوات تساقط قطرات المطر ولهاث الجواد استطعت أن أميز لثوان بدت كأنها دهور، صوت شفط المستنقع لنا... أيقنت أن النهاية قد حانت. خلصت ساقي من الركاب استعداداً للقفز من فوق صهوة الجواد لأجرب حظي في النجاة بنفسي - ربما أستطيع النجاة لو تركت جسمي ممدداً على صفحة المستنقع - على حين غرة وأنا لا أكاد أصدق بالنجاة، صدر عن حوافر الجواد صوت ارتطامها بأرض صلبة، مرة، مرتين... بزفرة راحة عميقة، جذبت العنان وأوقفت الجواد المرتعد، لقد نجونا..

في تلك اللحظة فقط تذكرت مرافقي في السفر وناديته في الظلام وأنا أفيض رعباً: «إبراهيم»، ولم أسمع رداً. وغمرت برودة قاسية أعماق قلبي، ناديت من جديد: «إبراهيم» - لم يكن حولي إلا ظلام دامس وسيل أمطار منهمر. ألم يتمكن من النجاة؟ بصوت متهدّج من الخوف ناديت: «إبراهيم».
ثم سمعت مالم أصدقه في البداية، فقد أتاني صوته من مسافة بعيدة إلى الخلف: «هنا... أنا هنا».

وهنا فقدت القدرة على تفسير وجود هذه المسافة الطويلة بيننا. ناديت من جديد: «إبراهيم».
أتاني صوته من جديد: «هنا... هنا» ـ اتجهت إلى مصدر الصوت بعد أن ترجلت عن جوادي وسحبته من عنانه مختبراً بحرص كل بوصة من الأرض، سرت ببطء متناهٍ وعناية شديدة صوب الصوت البعيد: حتى وصلت إلى إبراهيم الجالس بهدوء فوق سرج جواده.

بادرته: «ما الذي حدث لك يا إبراهيم؟ ألم تنزلق أنت أيضاً في المستنقع؟»
رد متسائلاً: «مستنقع؟! كلا ـ لقد وقفت في موضعي حين وجدتك تركض بالجواد فجأة مبتعداً عني».

أركض مبتعداً؟.. فهمت سر اللغز: لم يكن كل كفاحي للنجاة من المستنقع إلا ثمرة تخيلاتي. لقد خطا جوادي داخل بقعة طينية خلت عندها أننا سقطنا في المستنقع، فسطت الجواد وجعلته يركض بجنون، وخدعني الظلام حين فسرت ركض الجواد بأنه صراع يائس للنجاة من المستنقع، ورحت أركض به في الظلام، غير مدرك لوجود الأشجار المتقزمة المنتشرة في الوادي... تلك الأشجار، لا المستنقع، كانت هي الخطر الحقيقي الذي كاد يودي بحياتي في أثناء عدوي بالجواد، وفرع الشجرة الذي ضرب ذراعي كان من الممكن أن يحطم رأسي أثناء عدوي المجنون بالجواد في الظلام الدامس لو كان أضخم من ذلك، وبذلك أصل في رحلتي إلى نهاية محتومة في لحد بلا شاهد في جنوب إيران...

كنت حانقاً على نفسي، وتضاعف غضبي؛ لأننا فقدنا الإحساس بالاتجاه بعد ركضي المجنون بالجواد، وأصبح من المستحيل الآن أن نعثر على الممر الذي كنا نسير فيه قبل ذلك، أي أنه يستحيل الآن أن نعثر على الخان... مرة أخرى كنت على خطأ..
ترجَّل إبراهيم عن جواده ليجس الأرض بيده ويفحصها ربما يعثر على أثر للممر الذي كنا نسير فيه؛ وبينما كان يزحف بتلك الطريقة على يديه وركبتيه، اصطدم رأسه فجأة بجدار ـ كان الجدار هو الجانب المظلم من خان ـ إي ـ خيت.

لولا تخيلي بالسقوط في المستنقع، لما سرنا متجاوزين الخان، الذي كان بجوار المستنقع الذي كان على مبعدة مئتي ياردة فقط من الخان كما علمت بعد ذلك...

كان الخان أحد المباني القديمة من عصر الشاه عباس الأعظم - وهو مكون من حجرات واسعة مشيدة من الحجارة وممرات مسقوفة بينها، وقد أصبحت الأبواب متهالكة، والمدافئ متداعية. لا تزال توجد في أماكن متفرقة آثار لنقوش فنية قديمة فوق أقواس الأبواب وخزف شققه القدم؛ أما الحجرات القليلة الصالحة للإقامة فقد كانت مفروشة بالقش المخلوط بروث الخيول الجاف. دخلت وإبراهيم القاعة الرئيسة، فوجدنا المشرف على الخان يجلس إلى جوار نار مشتعلة على الأرض، وكان هناك رجل حافي القدمين ضئيل الجسم يرتدي معطفاً بالياً مرقعاً بأقمشة من مختلف الألوان والأصناف. فنهضا، وانحنى الرجل الضئيل برزانة أقرب إلى تمثيل المسارح وهو يضع راحة يده اليمنى فوق موضع قلبه. كان أشعث أغبر، إلا أن عينيه تميزتا بحيوية فائقة في وجه هادئ مرتخي الملامح.

غادر المشرف القاعة ليخدم خيلنا، ويقدم لها الطعام، وخلعت أنا معطفي المبلل بالمطر، وانهمك إبراهيم على الفور في إعداد الشاي على النار المشتعلة. وبتنازل النبلاء والعظماء الذين لا يتنازلون عن كرامتهم ومهابتهم حين يجاملون من هم دونهم تقبل الرجل الضئيل قدحاً من الشاي قدمه له إبراهيم.
ومن دون أن تظهر عليه أمارات الفضول الزائد، وبطريقة من يبدأ حواراً في إحدى قاعات الاستقبال الرسمية، استدار نحوي سائلاً: «جنابك إنجليزي؟»

أجبته: «كلا، أنا نمساوي».

سألني: «هل من اللائق أن أسألك عن العمل الذي دفعك إلى المجيء إلى هنا؟»
أجبته: «أنا مراسل للصحف، وأنتقل في أنحاء بلدكم لأصفها لأبناء شعبي، إنهم يحبون أن يعرفوا كيف تعيش الشعوب الأخرى، وبماذا يفكرون».
هز رأسه وعلت شفتيه ابتسامة موافقة، واستغرق في صمته. بعد فترة تناول وعاء تدخين فخاري نارجيلة وأخرج قصبة من طيات معطفه البالي؛ وثبت القصبة إلى

الوعاء الفخاري المملوء بالماء؛ ثم سحق شيئاً في راحة يده كالتبغ ووضعه بتأنٍ وعناية فائقة في طاسة النارجيلة كأنه أغلى من الذهب، ثم غطاه بالجمر المشتعل. وبمجهود واضح راح يشفط الدخان من القصبة، فيسعل بعنف ويبصق مخاطاً من حلقه، كان الماء داخل النارجيلة يقرقر برتابة، وبدأت رائحته تملأ أرجاء القاعة، فتعرفت الرائحة في الحال، إنها رائحة القنب الهندي، - ففهمت سر سلوك الرجل الغريب، لقد كان مدمناً. لم تكن عيناه غائمتين كما يحدث لعيون مدمني الأفيون[١]؛ فمدمنو الأفيون تظهر عليهم معالم الانفصال عن الواقع وعما يحيط بهم، كما تبدو عليهم حدة غير نابعة من ذواتهم، ويحدقون إلى معالم بعيدة عن العالم الواقعي من حولهم.

نظرت إليه في صمت، وعندما انتهى من التدخين، سألني:

«ألا تجربه؟»

رفضت شاكراً؛ لقد جربت الأفيون مرة أو مرتين (دون أن أشعر بأي متعة)، إلا أن تجربة الحشيش بدت لي شاذة وغير مغرية. ابتسم الحشاش وتفحصني بعينيه نصف المغمضتين وتعبير ساخر على وجهه، و....[٢]:

ضحك في حبور من جديد تلك الضحكة القصيرة التي تهز كل بدنه، ضحكة بلا صوت، تجمع بين السخرية والحكمة؛ ثم توقف عن الضحك وكشر تكشيرة ساخرة خلف سحابات الدخان، وعيناه اللامعتان مثبتتان على هدف ثابت بعيد غير مرئي.

* * *

«نصيبي من الحياة»... رحت أفكر في تلك العبارة وأنا مستلقٍ تحت صفحة السماء المرصعة بنجوم الليل الودودة. «أنا - هذه الحزمة من اللحم والعظم والمشاعر والإدراك - خلقت في مسار هذا الوجود، وحين أكون داخل أي حدث أكتشف أن «الخطر» ليس إلا وهماً، وأن ذلك الخطر لا يستطيع أن «يقهر» إرادتي، وأن كل ما

---

١- مادة مخدرة تستخرج من زهرة نبات الخشخاش (المترجم).

٢- يذكر هنا المؤلف في الأصل كلاماً على لسان صاحب الخان، يفسر فيه الإدمان تفسيراً خاطئاً يجانب الصواب، فرأينا ضرورة عدم ذكره .

يحدث ويقع لي ليس إلا بعض التيار المكوّن للحياة، والذي يحتضن كل الوجود الذي أنا بعضه. ألا يمكن على سبيل المثال أن يكون الخطر والأمان، والموت والسعادة، والمصير والتحقق، ليست إلا وجوهاً متباينة لتلك الحزمة الضئيلة من اللحم والعظم التي هي أنا؟ يا لها من حرية مطلقة بلا حدود، يا ألله، ما أعظم هباتك للإنسان!...».

كان لا بد أن أغلق عيني، فقد كانت السعادة التي أشعر بها في تلك اللحظة حادة وقوية إلى درجة الإيلام.

(٦)

دبت العافية في بدني فتمكنت من الجلوس، وأحضر لي زيد أحد رحال الجمال لأتكئ عليه. قال وهو يضعه خلفي: «استرح يا عمي، السعادة تملأ قلبي حين أراك بخير بعدما حسبتك بين الأموات». قلت له: «أنت صديق مخلص يا زيد. لا أدري ماذا كنت سأفعل من دونك كل تلك السنين لو لم تستجب لرسالتي وتحضر إليّ من العراق». قال: «لم أندم أبداً على تلك الأعوام التي قضيتها معك يا عمي. مازلت أذكر اليوم الذي تلقيت فيه رسالتك، مرَّ على ذلك خمسة أعوام عندما أرسلت تطلب مني القدوم إلى مكّة المكرّمة... كان مجرد التفكير في رؤيتك من جديد يملؤني بالسعادة، وخصوصاً أن الله أنعم عليك في ذلك الوقت بنعمة الإسلام. كنت في ذلك الوقت قد تزوجت من فتاة عراقية، عذراء، أبهجني حبها فوق ما يطيق عقلي، يا للفتيات العراقيات!.. لهن خصور دقيقة وصدور صلبة مثل هذا» وقبض بكفه على كرة السرج الصلبة، وهو يبتسم للذكرى، وأردف: «من الصعب أن تترك ذلك السرور وتمضي بعيداً... لذلك قلت لنفسي... سأذهب إلى مكّة المكرّمة، ولكن ليس على الفور، بعد عدة أسابيع أخرى، إلا أن الأسابيع مرت، وتلتها شهور. وعلى الرغم من أنني طلقت تلك المرأة البغيضة سريعاً، لأن عينها كانت على ابن عمها ـ إلا أنني لم أستطع ترك العمل مع عقيل العراق، ولا أن أترك بسهولة أصدقائي الذين عرفتهم هناك ومباهج بغداد والبصرة، كنت دائماً أقول لنفسي: ليس الآن، بعد فترة أخرى... وفي يوم كنت أركب ناقتي مبتعداً عن معسكرنا بعد أن قبضت راتب الشهر المنصرم، وكنت

أفكر في قضاء الليل لدى أصدقائي، تذكرتك وتذكرت ما قلته في رسالتك عن موت زوجتك الغالية، رحمها الله، وتخيلت كم تشعر بالوحدة بعد موتها! وفي لحظة قررت العودة إلى مكّة المكرّمة، فمددت يدي ونزعت النجمة العراقية من عقالي وقذفتها بعيداً، ودون أن أعود إلى معسكري لأجمع أغراضي وحوائجي أدرت وجه الناقة باتجاه صحراء النفود، وانطلقت إلى نجد، توقفت عند أول قرية لأبتاع قربة ماء وبعض المؤن، ولم أتوقف بعدها إلا في مكّة المكرّمة بعد أربعة أسابيع من انطلاقي...».

قلت: «هل تذكر يا زيد أول رحلة لنا معاً في أعماق الجزيرة العربية باتجاه الجنوب قاصدين وادي بيشة، حيث بساتين النخيل وحقول القمح، ثم إلى صحراء رنية التي لم يطأها أجنبي قبلي؟».

قال زيد: «كيف أنساها ياعمي، وجدتك مُصرّاً على زيارة الربع الخالي في تلك المنطقة التي تتدافع فيها الرمال تحت نار الشمس... وما رأيك بالبدو الذين يعيشون على حدود الربع الخالي الذين لم يروا زجاجاً في حياتهم، حتى إنهم ظنوا أن زجاج نظارتك مصنوع من الجليد؟ كانوا، الجن ذاته، يقرؤون الأثر على الرمال كما تقرأ الشعوب الأخرى الكتب، ويقرؤون على صفحة السماء والهواء ما ينبئهم بالعاصفة قبل هبوبها.. أتذكر يا عمي ذلك الدليل الذي استأجرناه من رنية، ذلك البدوي الذي كدت أن ترديه قتيلاً بالرصاص عندما أراد أن يتركنا وسط الصحراء؟ لقد اغتاظ بشدة من آلة التصوير التي كانت معك».

ضحكنا من أعماقنا من ذكرى تلك المغامرة التى مرت عليها أعوام كثيرة، وفي حينها لم يكن فيها ما يبعث على الضحك، كنا على مسيرة ستة أيام أو سبعة جنوب الرياض حين تلبست الدليل حالة من الضيق والغضب، بل الرفض بعدما شرحت له وظيفة آلة التصوير التي كنت أحملها آنذاك.. كان بدوياً متشدداً ينتمي إلى تنظيم الإخوان في الرين، قرر أن يتركنا في الصحراء لامتلاكنا آلة مكروهة تصنع الصور المحرمة دينياً.

كان لا يهمني فراقه لو لم نكن في منطقة مجهولة لي ولزيد، فإن تركنا فإننا لا بد هالكون في تلك الصحراء. حاولت في البداية أن أقنع ذلك البدوي الشرير أنه لا ضرر من آلة التصوير، ولكن بلا جدوى، لم تفلح معه كل وسائل الإقناع، وأدار ناقته باتجاه رنية، ليتركنا وحيدين بالصحراء، فقلت له بحزم: إن تركنا فإن ذلك سيكلفه حياته لأننا حتماً سنهلك في هذه الصحراء. لم يهتم بما قلت، وهمز ناقته للمسير، صوبت بندقيتي نحوه، وأنذرته بأني سأطلق النار عليه إن غادرنا، وكنت مصمماً على فعل ذلك، وكان ذلك كافياً لأن يختار بين سلامته الشخصية وسلامته الروحية، وبعد قليل من التمنّع وافق أن يصحبنا فقط إلى أول منطقة مأهولة على مسيرة ثلاثة أيام، أو نذهب إلى القاضي الشرعي لنحتكم إليه في شرعية آلة التصوير.

جردناه من كل سلاح، وتناوبنا على حراسته في أثناء الليل حتى لا يهرب.. بعد عدة أيام وصلنا إلى القويعية وتوجهنا إلى قاضيها، وفي البداية أصدر حكماً مؤيداً للدليل، لأنه كما قال: «من العار والحرام صنع صور للأحياء» (قياساً على فهم خاطئ لحديث للرسول ﷺ - من أن رسم الكائنات الحية حرام، ولا تحتوي الشريعة الإسلامية على أي تحريم في هذا الشأن)[1]. عند ذلك أخرجت للقاضي الخطاب المفتوح الموجه من الملك «إلى كل أمراء البر وكل من يطلع على هذا الخطاب» - استطال وجه القاضي أكثر وأكثر وهو يتابع القراءة: «محمد أسد ضيفنا وصديقنا وعزيز علينا، كل من يظهر وداً له فقد أظهر وداً لنا، وكل من أظهر عداوة تجاهه فإنما يظهر عداوته لنا»، كان لخطاب الملك عبد العزيز آل سعود وختمه الذي ذيل به الخطاب، فعل السحر على القاضي، فحكم بعد قراءة الخطاب بأنه «تحت ظروف معينة، يجوز التصوير...» إلا أننا تركنا الدليل يمضي، واستأجرنا دليلاً آخر ليقودنا إلى الرياض.

قال زيد: «هل تذكر تلك الأيام في الرياض يا عمي، عندما كنا ضيوفاً على الملك، لم يعجبك في ذلك الحين امتلاء إسطبلات الخيل القديمة بالسيارات الجديدة اللامعة... وكرم الملك...».

---

١- لعله يقصد حديث الرسول ﷺ: «كل مصور في النار» أو الحديث: «من صوّر صورة عذّب وكلّف أن ينفخ فيها الروح... » والحديثان صحيحان في البخاري ومسلم ومسند أحمد.

قلت له: «هل تذكر أنت يوم أرسلنا الملك لاستجلاء سر تمويل تمرد البدو، وكيف رحلنا على مدى عدة ليالٍ، ثم تسللنا إلى الكويت، حتى توصلنا إلى سر الريالات الفضية الجديدة والبنادق التي كانت ترد إلى المتمردين عبر البحر؟».

رد زيد: «وتلك المهمة الأخرى يا عمي التي كلفك بها سيد أحمد - أطال الله عمره - حين أرسلك إلى سيرينيكا [1] - وكيف عبرنا البحر سراً في دهو - وكيف واصلنا سفرنا إلى الجبل الأخضر في ليبيا، متخفين من رقابة الإيطاليين - لعنة اللّه عليهم - وكيف التحقنا بالمجاهدين تحت زعامة عمر المختار؟ تلك - لعمري - كانت أياماً مثيرة».

هكذا رحنا نسترجع الذكريات ويذكّر بعضنا بعضاً بأيام كثيرة مضت، أيام بلا حصر قضيناها معاً، وراحت عبارة «هل تتذكر»، «وهل تتذكر» تتأرجح بيننا، وتوغل بنا في أعماق الليل، حتى بدأت جمرات الأخشاب المشتعلة تخمد، ولم يبق منها إلا توهج جمرات بعضها، ووجه زيد يتقهقر إلى ظلال تدريجية مع انطفاء لهب الأخشاب حتى غاص وجهه في ظلام دامس كأنه أصبح ذكرى في نظري الذي أثقله النعاس.

تتداخل صور الماضي والحاضر في صمت الصحراء الذي تنيره النجوم، ومع هبات نسيم عليل يداعب سطح الرمال الناعمة، ثم تنفصل متداعية واحدة على إثر أخرى مع أصوات استغاثة عجيبة، عادت الذاكرة خلال الأعوام إلى السنوات الأولى في الجزيرة العربية، وأول حج أؤديه في مكّة المكرّمة، وإلى عتمة وكآبة أحاطتا بتلك الأيام المبكرة، إلى وفاة السيدة التي أحببتها كما لم أحب أي امرأة أخرى إلى اليوم، والتي ترقد الآن تحت تراب مدينة مكّة المكرّمة، لا يميز موضع قبرها إلا حجر بسيط من دون كتابة عليه، والذي كان نهاية طريقها وبداية طريقي، نهاية وبداية، الصوت والصدى تعانقا بغرابة في الوادي الصخري لمكة المكرمة.

* * *

---

١ـ سيرينيكا: منطقة تاريخية في شمال إفريقية، كانت حتى سنة ١٣٨٢ (١٩٦٣م) منطقة تابعة لليبيا، وقد سكن المستعمرون الإغريق مسبقاً في ٦٣١ قبل الميلاد نصفها الشمالي القديم الذي عرف بعدها بـ (بنيتابولس).

«زيد، هل هناك مزيد من القهوة؟»

«بأمرك يا عمي».

نهض زيد بتؤدة، ورفع إبريق القهوة النحاسي بيده اليسرى، وفنجانان صغيران بلا مقبض يرتطمان ويصدران رنينا يبعث على الطرب بيده اليمنى - واحد لي والآخر له - وصب بعض القهوة في فنجاني وقدّمه لي. من تحت الظلال التي تلقيها كوفيته على وجهه راحت عيناه ترعيانني في يقظة وهدوء، كما لو كان الأمر أخطر كثيراً من احتساء فنجان قهوة. تلك العينان بأهدابهما الطويلة - ذات نظرات صارمة وحازمة يبدو فيهما الحزن العميق في حالات السكون، إلا أنهما مستعدتان على الدوام إلى التحول إلى مرح وسرور مفاجئ - وتقرأ فيهما حياة مئات الأجيال التي عاشت في البوادي والصحاري في حرية: تلك العينان لرجل انحدر من أسلاف لم يُستعبدوا من شعوب أخرى كما لم يستعبدوا شعوباً أخرى.

أجمل ما فيه خفة حركته: هادئة، واعية بإيقاعها، في غير عجلة وبلا تكاسل: اكتمال مع اقتصاد يذكرك بتكامل الفرق الموسيقية وتناغمها، لا ترى هذا النمط من الحركة إلا بين البدو الذين انعكس اتساع الصحراء عليهم وعلى حركتهم. وباستثناء بعض المدن والقرى، لم تتأثر الحياة في الجزيرة العربية بالبشر بقدر ما أثرت الجزيرة العربية بقسوة صحاريها وصرامتها في البشر، وأجبرتهم على سلوكيات معينة، واختزال كل الأفعال التي تمليها عليهم، واختزال الضرورات الخارجية إلى حدها الأدنى، حتى تصبح محددة تماماً وأساسية ولازمة لاستمرار الحياة، تلك الحياة التي ظلت على ما هي عليه أجيالاً طويلة متعاقبة، واكتسبت مع مرور الزمن بريق الزجاج وحدته: تلك البساطة الموروثة في السلوكيات والأفعال واضحة في إيماءاتهم وحركاتهم، وفي سلوكهم ومواقفهم إزاء الحياة.

- «قل لي يا زيد، إلى أين نتوجه غداً؟»

نظر إليّ وابتسامة تعلو شفتيه: «كيف تسأل يا عمي، إلى تيماء بالطبع..؟»

قلت: «لا يا أخي، كنت أريد الذهاب إلى تيماء، ولكنني لم أعد أشعر بأي رغبة في ذلك، سنتوجه إلى مكّة المكرّمة....».

# الفصل الثاني

بئر على الطريق ١٣٦٤ (١٩٢٨م)

## بداية الطريق

كان الوقت قرب المساء، بعد انقضاء بضعة أيام على مواجهة تجربة الموت عطشاً، وصلنا إلى واحة صغيرة بسيطة قررت وزيد أن نبيت ليلتنا. بدت التلال الرملية الشرقية تحت أشعة الشمس الآفلة كأنها تلال من عقيق يماني. كانت الألوان المتباينة رقيقة جداً حتى بدت وكأن النظر إليها يدميها، ثم يتتابع تدفق الظلال التي تتحول إلى غبشة من الإعتام المتزايد. ومع هذا مازال بالإمكان تمييز تيجان أشجار النخيل وكأنها الريش، والمنازل المنخفضة التي تكاد تتوارى خلفها، البيوت وأسوار بساتين النخيل مشيدة من الطين المجفف، والبكرة الخشبية التي تعتلي فوّهة البئر تصدر أنغاماً عذبة.

(١)

أنخنا الجمال على مسافة من القرية تحت أشجار النخيل، وأنزلنا الأمتعة المتدلية على جوانبها، كما حللنا الرحال ورفعناها عن ظهورها المتعبة الحارة. تجمع حولنا بعض الصبية في فضول، كان واحد منهم له عينان واسعتان ويرتدي ملابس رثة، عرض على زيد أن يريه مكاناً فيه أغصان جافة تصلح لإشعالها؛ وبينما ذهبا لجلب الأغصان، أخذت الجمال إلى البئر لأرويها. عندما أدليت الدلو الجلدي إلى أعماق البئر ثم رفعته مملوءاً بالمياه، أقبلت بعض نساء القرية وهن يحملن جراراً نحاسية وفخارية لملئها بالماء، كن يحملن الجرار على رؤوسهن في اتزان ورشاقة من دون أن يسندنها بأيديهن التي امتدت على جوانبهن لحفظ توازن الجرار حاملات أطراف أغطية رؤوسهن باليد الأخرى، كأنهم طيور ترفرف بأجنحتها.

قلن: «السلام عليكم أيها المسافر».

رددت: «عليكم السلام ورحمة الله».

كانت ثيابهن سوداً، ووجوهن مكشوفة ـ كما هو حال نساء البدو والقرى في تلك المنطقة من الجزيرة ـ فبدت عيونهن سوداً واسعة. وعلى الرغم من استقرارهنّ بالواحات من أجيال طويلة إلا أنهنّ لم يفقدن صفات الأسلاف التي تمتد إلى حياة البرية القبلية في اقتصاد الحركة، لم يخجلن أن يمددن أيديهن، ويتناولن حبل الدلو من يدي في صمت، ويسحبن الماء من البئر لسقي جمالي ـ تماماً كما حدث من أربعة آلاف عام مضت، كما فعل أسلافهن مع خادم إبراهيم عليه السلام حين أتى من أرض كنعان للبحث عن زوجة لإسحق عليه السلام ابن سيده بين بنات أقاربه في بادان ـ آرام[1]:

طفت القصة التوارتية على سطح أفكاري وأنا واقف بناقتي أمام بئر واحة

١ـ في الأصل ينقل المؤلف تلك القصة عن التوراة.

صغيرة في قلب صحراء النفود العظمى، وتأملت المرأة التي تناولت حبل الدلو من يدي، وسحبت الماء من البئر لتسقي جمالي. كانت منطقة بادان ـ آرام بعيدة، وكذلك عصر إبراهيم عليه السلام إن تلك النسوة في تلك المنطقة، وما أثاره سلوكهن من أحداث مرّ عليها أربعة آلاف عام، جعلن ما مضى من قرون كأنها أحداث الأمس القريب.

«فليبارك اللّه أيديكن يا أخواتي، وليحفظكن».

رددن: «وأنت أيضاً يحفظك اللّه أيها المرتحل».

واستدرن إلى جرارهن فملأنها بالماء وعدن إلى بيوتهن.

* * *

بعد عودتي إلى موضع أمتعتنا تحت النخيل، أنخت الجمال وعقلتها حتى لا تشرد في الصحراء ليلاً. أشعل زيد النار، وانهمك في إعداد القهوة. كان الماء يغلي في إبريق القهوة بمصبه المنحني على شكل قوس، وكان هناك إبريق أصغر جاهز تحت كوع زيد. أمسك بيده اليسرى بمقبض ملعقة معدنية ضخمة يبلغ طول مقبضها نحو قدمين ليحمّص بها حبات القهوة على النار، وتصنع القهوة في الجزيرة العربية طازجة في كل مرة. بمجرد أن يغمق لون حبوب القهوة، يضعها في هاون نحاسي ويطحنها، ثم يصب الماء المغلي من الإبريق الكبير إلى الإبريق الصغير، ويفرغ فيه البن المطحون ويضعه على حافة النار حتى تنضج ببطء، ثم يضيف إليها عدداً من حبوب الهيل التي تزيد القهوة مرارة، لأنه، طبقاً للقول الشائع في الجزيرة العربية، لا بد أن تكون القهوة الجيدة «مرة كالموت لاهبة كالعشق».

لم أكن مهيّأً لتناول قهوتي باستمتاع، كنت مجهداً ولزجاً من العرق الذي غمر بدني بعد ساعات طويلة فوق رحل الناقة، أما ملابسي فقد كانت متسخة ولزجة أيضاً تلتصق ببدني، كنت أتشوّق إلى الاستحمام؛ فعدت سائراً إلى البئر بين أشجار النخيل.

كان الظلام قد أرخى سدوله وبساتين النخيل مهجورة في ذلك الوقت من الليل؛ لم يكن على مقربة من البيوت إلا كلب ينبح، خلعت ملابسي ونزلت إلى البئر، أمسكت بالأحجار الناتئة، وارتكزت عليها بقدمي، واستعنت بحبل الدلو حتى وصلت إلى المياه ثم غمرت نفسي فيها. كانت المياه باردة، ووصل ارتفاعها إلى صدري والحبال مدلاة إلى جواري في الظلام، منتصبة رأسياً وتحفظها الدلاء الغاطسة مشدودة باستقامة، تحت قدمي كنت أشعر بالتدفق الرقيق للماء تندفع إلى أعلى من عين تحت الأرض وتغذي البئر بتيار رقيق لا ينضب.

كانت النسمات في الأعلى تهمهم على حافة البئر فترتد الهمهمة إلى أعماقه كطنين يصدر من قوقعة حين تضغطها على أذنك، مثل تلك القوقعة الضخمة التي كنت مشغوفاً بالاستماع إلى طنينها وأنا طفل في منزل أبي الذي نشأت فيه من أعوام طويلة مضت، كنت طفلاً صغيراً، تكاد عيناه تصل إلى حافة المائدة وتطول سطحها بصعوبة. أتذكر أنني كنت أضغط القوقعة على أذني وتنتابني الحيرة والأسئلة: هل تلك الأصوات في داخلها على الدوام، أم تصدر منها فقط إذا ضغطتها إلى أذني؟ أتبعث ذلك الطنين بصفة مستمرة أم أن استماعي إليها هو الذي يبعثه من داخلها؟ حاولت مراراً أن أخدع القوقعة بأن أبعدها عن أذني حتى يتوقف الطنين ثم أقربها فجأة في غفلة منها إلى أذني: فأسمع الطنين من جديد - لم أتيقن أبداً أكان الطنين دائماً داخلها حتى لو لم أضعها على أذني أم لا؟ لم أعلم في ذلك الوقت، بالطبع، أنني شغلت ذهني بسؤال حيَّر فلاسفة أحكم مني على مدى دهور طويلة: كانت القضية هي: أيوجد «واقع» مستقل عن إدراكنا، أم أن أدوات إدراكنا هي التي تخلق الواقع الذي ندركه؟ لم أدرك ذلك وقتها، ولكن حين أتذكر ذلك أكتشف أن التفكير في تلك المعضلة لازمني منذ طفولتي حتى أعوام قريبة مضت - كما لازمت من وقت إلى آخر كل عقل بشري مفكر سواء في الوعي أو في اللاوعي: فمهما تكن الحقيقة الموضوعية، فإن العالم يتبدى لكل منا في حدود انعكاساته وشكلها على فكر كل امرئ على حدة: ولذلك لا يدرك أيٍ منا من «الواقع» إلا ما له علاقة بوجوده الشخصي. ومن هنا نجد تفسيراً ملائماً لاعتقاد البشر المستمر منذ البداية النشيطة لوعيهم في وجود حياة ثانية بعد الموت - وهو اعتقاد شديد العمق، شائع الانتشار عبر العصور كلها وعند جميع أجناس البشر،

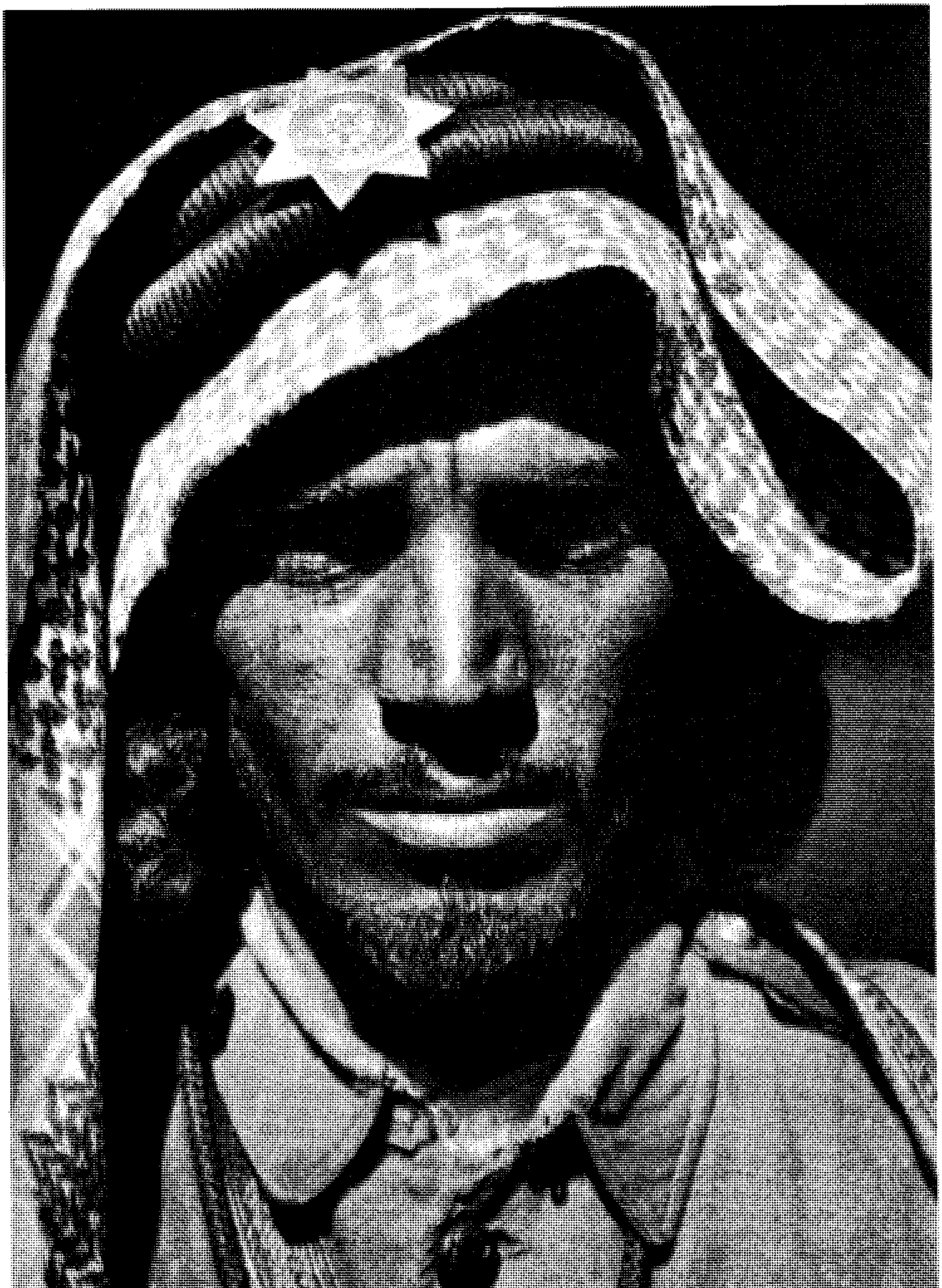

زيد مرافق المؤلف ١٣٤٦ (١٩٢٨م)

ويتخلصون من فكرة الموت بنوع آخر من التفكير «بالتمني» ويمكن القول: إن ذلك النمط من التفكير كان ضرورة لا يمكن تجنبها، وتتواءم تماماً مع التركيبة الخاصة للعقل البشري، التفكير المجرد بعبارات نظرية في موت الفرد وفنائه بشكل نهائي ليس صعباً، ولكن إدراك ذلك واستيعابه وقبوله أمر مستحيل. لأن ذلك يعني أنه يمكن أن يستوعب أيضاً فناء كل الواقع كما يدركه ـ وبعبارات أخرى، أن تتخيل العدمية: وهو ما لا يقدر عليه العقل البشري.

لم يعلمنا الفلاسفة والأنبياء الإيمان بالبعث بعد الموت، كل ما فعلوه أن أعطوا شكلاً ومحتوى روحياً لإدراك غريزي قديم قدم البشر[١].

* * *

ابتسمت في داخلي لتعارض ما أفكر فيه من أمور ذهنية عميقة مع ما أنا منهمك فيه من أعمال أرضية دونية من إزالة العرق والأقذار التي تراكمت على بدني من سفر دام أياماً. ولكن على أي حال هل هناك حدّ واضح يفصل بين ما هو دنيوي وما هو ذهني عميق مبهم؟

هل يوجد على سبيل المثال ما هو أكثر دنيوية من الانطلاق بحثاً عن جمل شارد، وهل يوجد ما هو أكثر غموضاً وأصعب على الفهم من أن تشرف على الموت عطشاً؟

ربما كانت الصدمة الناجمة عن تلك التجربة القاسية هي ما جعلت حواسي وأفكاري أكثر حدة وتيقظاً كرد اعتبار لذاتي: الحاجة إلى الفهم والإدراك بعمق أكبر لمسار حياتي الشخصية، إلا أنني استدركت سائلاً: هل يوجد حقاً من يستطيع أن يفهم المعنى والمغزى من حياته مادام على قيد الحياة؟ نحن لا نعرف بالطبع ما حدث لنا في فترات عمرنا ومراحله المختلفة، وقد ندرك ونفهم أحياناً لماذا وكيف حدث لنا ما حدث، إلا أن هدفنا ووجهتنا ـ مصيرنا ـ لا يمكن أن نلمحه أو نحيط به؛ لأن المصير هو مجموع ما اعتمل بداخلنا وحركنا في الماضي

---

١ـ من المعلوم أن جميع الرسالات السماوية تضمنت الاعتقاد بالبعث بعد الموت.

زوجة المؤلف منيرة مع ابنه طلال ١٣٦٤ (١٩٢٨م)

والحاضر، وكل ما سيعتمل بداخلنا ويحركنا في المستقبل - ولذلك فهو لا يفصح عن مكنونه إلا عند نهاية الطريق، ولابد أن يظل صعباً على الفهم أو نصف مفهوم مادمنا على درب الحياة.

كيف لي أن أحدد، وأنا في الثانية والثلاثين من عمري، ما الذي كان عليه مصيرى، أو ما هو الآن؟

يتراءى لي أحياناً أنني أرى حياة رجلين عندما أتذكر ما مضى من حياتي. وحين أنغمس في هذا التفكير، أسأل، أهذان الجانبان من حياتي متغايران إلى هذا الحد - أم أن هناك خلف كل الأشكال المتباينة في النمط والاتجاه، مشاعر واحدة وهدفاً واحداً لهما معاً؟

رفعت رأسي فرأيت جزءاً مستديراً من السماء بحجم فوّهة البئر مملوءاً بالنجوم، وفي وقفتي الساكنة بلا حركة أحسست أني أرى انتقالها البطيء عن مواضعها في حركة مستديمة لا تتوقف، صفوف بعد صفوف على مدى ملايين السنين. انتقل فكري إلى ذلك الصف الضئيل من الأعوام الذي يشكّل عمري - السنوات الباهتة في ذاكرتي عن دفء غرفة طفولتي في مدينة كنت على دراية بدروبها المنعزلة وأركانها النائية مثل درايتي بشوارعها المعروفة ومعالمها البارزة؛ ومن بعد تلك المدينة مدن أخرى ملأى بالمباهج والمسرات وآمال لا نهائية تموج في صدور شباب في مقتبل أعمارهم؛ ثم بعد ذلك الانتقال إلى عالم جديد ومختلف بين أناس لهم سلوكيات مختلفة بدوا في نظري غير متحضرين أول الأمر ومع مرور الزمن أحسست بتآلف عميق معهم، وأنني أنتمي إليهم أكثر ما كنت أنتمي إلى شعبي في موطني، ثم بعد ذلك مرتحلاً بين الفيافي والقفار وصحارٍ واسعة، ثم في مدن قديمة قدم الوعي الإنساني، في بيدٍ بلا أفق، وجبال تذكرك وحشتها بوحشة القلب الإنساني، والوحدة في هجير الصحاري؛ والنمو البطيء المطرد ليقين جديد، ثم ذلك اليوم بين جليد منطقة هندو - كوبن في أفغانستان، بعد مناقشة طويلة مع صديق أفغاني، صاح بعدها: «ولكنك مسلم، إلا أنك لا تعي ذلك...»، وذلك اليوم بعد أشهر أخرى، حين تيقنت أنني مسلم؛ ثم حجّي الأول إلى مكّة المكرّمة؛ وموت زوجتي، واليأس الذي تلاه؛ ثم تلك الأعوام الطويلة التي

قضيتها بين عرب الجزيرة العربية بعد إسلامي: ثم أعوام طويلة من الصداقة العميقة مع ملك صنع بسيفه مملكة عظيمة !!؛ وأعوام من التجوال في صحاري الجزيرة العربية، ومهام خطيرة أسندها إليّ الملك، وقمت بها في مناطق القبائل المتمردة، ورحيلي إلى مواقع ثوار ليبيا الذين يجاهدون في سبيل استقلال بلادهم، ثم الإقامة الطويلة في المدينة، حيث قصرت كل جهدي على تعميق معرفتي بالإسلام في مكتبة مسجد الرسول ﷺ، وحجي السنوي إلى مكّة المكرّمة، وزواجي من فتيات بدويات، ثم تطليقي لهن؛ والعلاقات الإنسانية الحميمة التي ربطتني بكثير من الأصدقاء، ثم أيام من الانطواء والوحدة؛ وخوض المناقشات ذات المستوى الرفيع مع مثقفين وعلماء مسلمين من جميع أرجاء العالم الإسلامي، ثم رحلات إلى مناطق لم يطأها أجنبي من قبل في الجزيرة العربية: كل تلك الأعوام من الانغماس في عالم ينساه الغرب ويتجاهل وجوده.

وجدت نسق أعوام حياتي طويلاً، وليس قصيراً كما بدا لي، طفت الأعوام الغارقة في أعماق النسيان على السطح، وأماطت اللثام عن وجهها من جديد، وراحت تناديني بأصوات مختلفة متباينة: فجأة، وبخفة متناهية في أعماق القلب، اكتشفت أن طريقي كان طويلا، ولا نهاية له حتى الآن. قلت لنفسي: «كنت على الدوام تجري بلا توقف، لم تبن حتى اللحظة شكلاً محدداً لحياتك يمكنك أن تتلمسه، كما لم تتوصل إلى الآن إلى إجابة عن السؤال، إلى أين تمضي؟... تنقلت بين بلاد كثيرة، وكنت ضيفاً على بيوت لا تستطيع عدها، إلا أن توقك ورغبتك في كشف المجهول لم يصلا إلى إشباعٍ حتى اللحظة، لم تزل غريباً حتى اللحظة، لم تضرب جذراً في مكان».

لماذا تدور في ذهني تلك الأفكار، حتى بعد أن وجدت مكاني بين شعب أومن بما يؤمن به، لماذا لم أضرب جذراً في مكان؟

من عامين، عندما اتخذت زوجة من بنات المدينة المنورة، رغبت في أن يهبني الله ابناً، وقد وهبني إيّاه، طلال، بدأت بعدها أشعر أن العرب هم أهلي وعشيرتي وأصهاري وإخوتي في الإسلام. أردت لابني أن يضرب بجذوره عميقاً في هذه

البلاد، وأن يشب واعياً بإرثه الحضاري والإنساني العظيم. وقد يبدو هذا كافياً لأي امرئ لجعل أي مرتحل مثلي راغباً في الاستقرار، وأن يشيد بيتاً لأسرته. لماذا إذاً لم ينته حلّي وترحالي؟ ولماذا لا تشبعني تماماً تلك الحياة التي اخترت نمطها بنفسي؟ ما الذي ينقصني بهذا الموطن؟ بالطبع ليست القضايا الفكرية التي تشغل أهل أوروبا والغرب عموماً. لقد تركتها خلفي، ولم أشعر في أي لحظة أني افتقدتها. في الحقيقة، أصبحت بعيداً عنها بُعداً هائلاً حتى إنه أصبح من الصعب أن أكتب إلى أي صحيفة أوروبية من الصحف التي تدفع لي ما أعيش به؛ في كل مرة أرسل فيها تقريراً، كنت أشعر بأني ألقي حجراً في بئر ليس لها قرار: يختفي الحجر في دياجير ظلام البئر بلا صدى ينم على وصوله إلى قاع البئر.

كنت منهمكاً في أفكار مقلقة ومحيرة، نصف جسدي في مياه بئر مظلمة في واحة عربية، فجأة طفا صوت من أعماق ذاكرتي، صوت رجل عجوز من قبائل الأكراد بشمال إيران، قال لي ذات يوم: المياه الراكدة في بركة تأسن وتتشبع بالطين والعكر، أما المياه المتحركة المتدفقة، فإنها تظل نقية.. هكذا الإنسان في سكونه أو تجواله. كأن سحراً ألمَّ بي، اختفت الحيرة، بدأت أنظر إلى نفسي بعين مغايرة من بعيد، أتصفح نفسي كمن يقلّب صفحات كتاب ليختار من بين محتوياته ما يصلح للقراءة، وبدأت أدرك أن حياتي لم تكن لتأخذ مساراً مختلفاً عما هي عليه الآن، أبداً.

والآن، عندما أسأل نفسي: «ما الحصاد الكلي لحياتي التي عشتها حتى هذه اللحظة؟» أجد أن بعضاً مني يجيب: «خرجت لتستبدل عالماً بآخر ـ كسبت عالماً جديداً لنفسك بدلاً من عالم قديم لم تمتلكه قط»، أدركت بوضوح تام أنني قد أخذت على عاتقي مهمة قد تستغرق عمراً بأكمله لإنجازها.

* * *

تسلقت خارجاً من البئر، ارتديت ملابس نظيفة كنت قد أحضرتها معي، ثم عدت إلى الموضع الذي وضعنا رحالنا فيه، كان زيد قد أعد القهوة، احتسيتها ثم تمددت منتعشاً ومستدفئاً بالنار التي أشعلها.

(٢)

كنت ممدداً على الرمال، مشبكاً ذراعي خلف عنقي، أتأمل ليل الجزيرة العربية الذي يغشاني، ليلاً حالكاً تزين سماءه نجوم كثيرة. هوى نيزك في قوس عظيم، ثم تلاه آخر بعد فترة، ثم ثالث: أقواس من ضوء تخترق حجب الظلام. ترى أهي كتل شهبية من كواكب مدمرة، أم شذرات كوارث كونية تسبح في فراغ الكون الهائل؟ لو سألت زيدًا، سيرد بأنها ليست إلا رجوماً للشياطين الذين يحاولون التسلل في ليال معينة إلى السماء سماء الدنيا لاستراق السمع... ربما تكون تلك الومضة الشديدة التي تهوي في الشرق موجهة إلى إبليس نفسه ملك الشياطين؟

أصبحت أعرف كثيراً من الأساطير المرتبطة بالسماء والنجوم، أكثر مما هو معروف عنها في موطن طفولتي وشبابي في النمسا.

كيف يمكن لي أن أكون شيئاً آخر؟ منذ أن جئت إلى الجزيرة العربية وأنا أعيش كما يعيش أهلها، وأرتدي الزي العربي مثلهم تماماً، وأتحدث العربية، أحلامي التي أراها في المنام بالعربية؛ العادات والتصورات والوجدان العربي صاغت أفكاري دون إرادة مني؛ لم تمنعني أي من التحفظات الفكرية الأجنبية من الوصول إلى حالة من التفهم الحقيقي والتواصل مع شعب آخر.

وجدت نفسي فجأة، أضحك بصوتٍ عالٍ، ضحكة سعادة وتحرر - كانت ضحكة بصوت مرتفع حتى إن زيداً نظر إليّ بدهشة، وأدارت ناقتي رأسها باتجاهي مستطلعة في بطءٍ وشموخ، كان سبب سعادتي اكتشافي المفاجئ أن طريقي في الحياة كان سهلاً ومستقيماً على الرغم من طوله الشديد، ويمتد بين عالم لم أمتلكه وعالم أمتلكه تماماً؛ لأنه من صنعي وإرادتي.

ألا يشبه مجيئي إلى هذه البلاد عودة الغائب إلى وطنه؟ عودة القلب إلى موطنه الأول الذي هجره منذ آلاف السنين وعاد الآن ليتعرف سماوات تلك المنطقة، بسعادة وفرح يؤلمان من حدتهما. هذه السماء العربية الحالكة والعالية، الحافلة بالنجوم أكثر من أي سماء أخرى ـ كانت هذه السماء ذاتها التي علت أسلافي الأوائل في أثناء هجراتهم وتجولهم في قوافل جوالة من المقاتلين، انطلقوا منذ آلاف السنين من هذه الأرض مع قوة تناميهم، يدفعهم الطمع إلى امتلاك أرض خصبة والحصول على الغنائم باتجاه أرض كلدان الخصبة، إلى مستقبل مجهول: تلك القبيلة البدوية الصغيرة من العبرانيين، أجداد ذلك الرجل الذي سيولد بعد ذلك في مدينة أور الكلدانيين. ذلك الرجل، إبراهيم، لا ينتمي إلى مدينة أور التي ولد فيها. فلم يكن إلا ابناً من أبناء قبائل عربية كثيرة شقت طريقها في وقت ما مهاجرة من شح الجزيرة العربية وجفافها إلى أرض الأحلام في الشمال التي سمعوا أنها تفيض لبناً وعسلاً ـ أراضٍ آمنة في الهلال الخصيب، بلاد سورية وما بين النهرين. كانت تنجح تلك القبائل المهاجرة أحياناً في هزيمة القبائل التي سبقتهم، وينصبون أنفسهم حكاماً بدلاً منهم، ثم يختلطون ويذوبون تدريجياً مع المهزومين، ويخطون معاً إلى عتبات تكوين أمة جديدة ـ كما فعل الآشوريون والبابليون الذين أقاموا ممالكهم على أنقاض الحضارة السومرية، وكما فعل الكلدانيون الذين تنامت قوتهم في بابل، أو العموريون الذين عرفوا بعد ذلك باسم الكنعانيين في فلسطين، والفينيقيون على سواحل سورية. في عصور أخرى كانت القبائل المهاجرة شديدة الضعف لا تقدر على هزيمة من سبقوهم إلى الاستقرار فيذوبون داخلها، أو يدفعون بهم من جديد إلى الصحراء، ليبحثوا عن مراعٍ أخرى أو أرض أخرى لغزوها.

كانت عشيرة إبراهيم من تلك القبائل الضعيفة، وكان أصل اسمه كما ذكره سفر التكوين آب ـ رام الذي يعني بالعربية القديمة «شديد الرغبة»؛ سكنوا مدينة أور على حافة الصحراء، في عصر لم تتمكن فيه القبيلة من الاستيلاء على أرض في بلاد النهرين، وكانوا على وشك الهجرة إلى الشمال بمحاذاة نهر الفرات باتجاه حرّان ثم إلى سورية. كان «شديد الرغبة» هو سلفي الأول الذي قاده اللّه تعالى إلى آفاق مجهولة اكتشف فيها ذاته، وهو الوحيد الذي يمكن أن يتفهم لماذا أنا

هنا - فهو الآخر جال كثيراً وظل في رحيل دائم عبر بلاد كثيرة قبل أن يشيد بنيان حياته على أساس متين يمكنه أن يلمسه بيديه، ويرى أبعاده، نزل هو أيضاً ضيفاً على بيوت كثيرة في أماكن شتى قبل أن يسمح له بضرب جذوره في مكان. تبدو حيرتي ضئيلة بجوار تجربته الإلهية التي تكتنفها الأسرار. لابد أنه علم في حياته - كما أعلم أنا الآن من حياتي - أن المعنى الكامن في ترحالي يكمن في رغبة خفية في أن ألتقي ذاتي عن طريق التقائي عالماً يعد الالتقاء به إجابة عن جوهر مسألة الوجود، والواقع الحقيقي الذي يختلف كلياً عما ألفته في طفولتي وشبابي.

(٣)

ما أطوله من طريق يمتد بين طفولتي وشبابي في قلب أوروبا حتى حاضري الحالي في الجزيرة العربية! إلا أنه طريق ماتع عند تذكر معالمه، وخصوصاً إذا عدت به عكسياً، مرتحلاً إلى الماضي.

تلك الأعوام المبكرة من طفولتي في مدينة لوو البولندية - كانت في ذلك الوقت جزءاً من النمسا - في منزل هادئ ورصين مثل الشارع الذي يطل عليه: شارع طويل جميل إلا أنه ترب قليلاً، تحفه من جانبيه أشجار البندق.. وكان مرصوفاً بكتل خشبية تكتم وقع خطوات الخيل عليها.. أحببت ذلك الطريق بوعي يفوق وعي طفولتي؛ لا لأنه طريق بيتي فقط، ولكن - كما أظن - لأنه كان يبعث مشاعر نبيلة بامتلاك الذات النابعة من مرح وسعادة أسعد مدينة كما بدت لي في طفولتي بغاباتها الساكنة على حافتها وساحة المقابر الواقعة في مكان غير ظاهر داخل تلك الغابة. وتمضي العربات الجميلة ذات العجلات الصامتة المغطاة بالكاوتشوك، إلا من صوت الإيقاع الرتيب لحوافر الخيل، وفي الشتاء تغطي الشارع طبقة جليد بسمك قدم تقريباً، تنزلق عليه الزلاجات، ويخرج البخار كالسحب من مناخر الخيول، ويدوي صوت أجراسها المعلقة برقابها في الجو القارس: لو كنت أنت ذاتك الجالس على الزلاجة، وتشعر بالصقيع يلامس وجهك ويجمد خديك، لأيقن قلبك الطفولي أن الأحصنة التي تجر الزلاجة، تحملك إلى سعادة لا أول لها ولا آخر.

كانت هناك أيضاً أشهر الصيف في الريف، حيث كان يعيش جدي لأمي، وكان من رجال المصارف الأثرياء، اقتنى ضيعة بالريف ليسعد بها أسرته، وكان في تلك الضيعة جدول ماء جارٍ تحف به أشجار الصفصاف؛ تحوطه مراعٍ عشبية مملوءة بأبقار وديعة، والضوء والظلال محملان بروائح الحيوانات والقش والتبن وضحك الفتيات القرويات اللاتي ينشغلن في المساء بحلب الأبقار، تشرب الحليب الدافئ الذي تعلوه رغوة طازجة، مباشرة من الإناء - ليس لأنك عطشان - بقدر ما تجده مثيراً أن تشرب لبناً طازجاً...

وتلك الأيام من شهر (آب) أغسطس، أيام حارة تقضيها في الحقول بين عمال المزرعة المشغولين بحصاد القمح، ومع النساء اللاتي كن يجمعن سنابل القمح ويربطنها في حزم: منهن شابات في مقتبل العمر، ممتعات عند النظر إلى أجسامهن القوية المشدودة، وصدورهن الناهدة، وأذرعهن القوية الدافئة، تشعر بقوتها حين يحطنك بها معتصرات إياك فيما يبدو وكأنه مداعبة بريئة في راحة الظهيرة بين أعواد القمح: كنت صغيراً فلم أذهب في تفكيري حينها إلى أكثر من اللعب من تلك الاحتضانات الدافئة... ورحلات اصطحبني إليها أبي وأمي إلى ڤيينا، وبرلين، وجبال الألب، وغابات بوهيميا، وبحر الشمال، وبحر البلطيق: أماكن تبعد كثيراً عن مدينتنا، وكانت تبدو لي كأنها عوالم أخرى جديدة. في كل مرة أبدأ فيها واحدة من تلك الرحلات، كانت أول صافرة للقطار البخاري وأول دورة لعجلاته تجعلان قلبي يوشك على التوقف من توقعي للعجائب التي سأراها وتكشف لي عن نفسها... ورفاق اللعب، أبناء وبنات، شقيقي وشقيقتي وأبناء أعمام وأخوال؛ وأيام الإجازات التي كانت تعني الحرية بعد أيام الأسبوع المضنية في المدرسة: نخرج معاً لإقامة المخيمات في الأماكن الخالية.

اللقاءات الأولى مع الفتيات الجميلات، وحمرة الخجل من الإثارة التي لا يفيق المرء منها إلا بعد ساعات وساعات.

طفولة سعيدة كانت، مشبعة حتى بعد انقضائها. كان والداي يعيشان عيشة رغدة؛ وعاشا الجانب الأعظم من حياتهما من أجل أطفالهما. كانت أمي هادئة

الطباع وكان هدوؤها متصلاً ببساطتها، التي كيفت نفسي عليها، وفي أعوامي الأخيرة، كان أبي من داخله قلقاً متوتراً، وربما كان ذلك ما انعكس عليّ وتطبعت به.

* * *

إن كان عليّ أن أصف أبي، فلابد أن أذكر أن ذلك الرجل الذي كان عزيزاً على قلبي، كان نحيلاً، متوسط القامة، أدكن البشرة والعينين، عيناه تفيضان عاطفة، ولم يكن متوافقاً مع ظروفه. في شبابه المبكر حلم بترسيخ حياته للعلوم، خاصة الفيزياء، إلا أنه لم يتمكن قط من تحقيق حلمه، واضطر إلى أن يرضى بمهنته التي عمل بها وهي المحاماة.. وعلى الرغم من نجاحه في عمله بعقليته الذكية المتفتحة، إلا أنه لم يجد ذاته في ذلك العمل، وربما كان ميله إلى الوحدة ناتجاً من إدراكه الدائم أن اهتماماته الحقيقية قد خذلته.

كان والده - جدي - حَبْراً يهودياً في مدينة شيرنوفيتس عاصمة إقليم بوكوفينا الذي كان تابعاً للنمسا، مازلت أتذكره رجلاً عجوزاً حلو الشمائل والخصال، له كفان رقيقتان، ووجه رقيق الملامح تحيطه لحية طويلة بيضاء، وعدا اهتمامه الشديد بالرياضيات وعلوم الفلك اللذين كان يدرسهما في أوقات فراغه - كان أيضاً لاعباً ماهراً بالشطرنج، بل من أمهر لاعبي الحي الذي كان يقطنه. وكان الشطرنج سبباً في الصداقة العميقة التي ربطت بينه وبين القس المسيحي الأرثوذوكسي اليوناني. كانا يقضيان أمسيات كثيرة حول رقعة الشطرنج، وكثيراً ما كانا يقطعان الانهماك في اللعب بمناقشات مطولة حول الجوانب الميتافيزيقية في ديانتيهما. قد يظن امرؤ أن مثل ذلك الاهتمام من جانب جدي بالمسائل العقلية قد رحب باهتمام ابنه - أبي - بدراسة العلوم. ولكن على عكس ذلك، قرر بلا تراجع أن ابنه البكر لابد أن يحافظ على التقاليد الروحية التي حرصت عليها العائلة على مدى أجيال طويلة، ورفض مجرد التفكير في أي مهنة أخرى لأبي عدا وراثة مهنته الحبرية. ربما قوّى من إصراره واقعة مؤسفة أساءت لسمعة العائلة وحرصت أسرة جدي على إخفاء أخبارها وتكتمها: فقد «خان» عم جدي تقاليد العائلة بطريقة شائنة، وتحول عن الديانة اليهودية، دين أجداده.

كان من الواضح أن جد الجد الأسطوري هذا، الذي لم يكن اسمه يذكر قط بصوت مسموع، قد نشأ في الطريقة نفسها المتشددة، رسّموه حبراً كامل الصلاحيات في سن مبكرة، وزوّجوه امرأة لم يكن يحبها، وبما أن مهنة الحبر لم تكن تدر ما يكفي للمعيشة في أيامه، فقد كان يزيد من دخله بالمتاجرة في الفراء، وكان ذلك يستلزم قيامه برحلة سنوية إلى سوق الفراء المركزي في أوروبا في مدينة ليبزج. وعندما بلغ الخامسة والعشرين من عمره، انطلق بعربته التي تجرها الخيل - في النصف الأول من القرن التاسع عشر - إلى واحدة من أسفاره التجارية البعيدة، في مدينة ليبزج فباع الفراء الذي جمعه كما يفعل كل عام، إلا أنه باع العربة والحصان أيضاً، وحلق لحيته وأزال سوالفه، ونسي زوجته التي يبغضها، ثم توجه إلى إنجلترا، وظل فترة يمتهن أعمالاً وضيعة، ويدرس الرياضيات والفلك في المساء، واستشعر أحد الذين عمل لديهم مواهبه العلمية، فعاونه على متابعة دراسته بجامعة أكسفورد، وتخرج فيها باحثاً واعداً، ثم تحول إلى المسيحية. وبعث وثيقة طلاق إلى زوجته اليهودية، ثم تزوج فتاة مسيحية من طبقة النبلاء، ولم تعرف عنه عائلتنا شيئاً بعد ذلك، باستثناء أنه قد تميز عالم فلك وأستاذاً جامعياً ناجحاً، وحصل في آخر حياته على لقب «فارس» الإنجليزي.

كان ذلك المثال المروع سبباً في إصرار جدي لأبي على اتخاذ موقف صارم تجاه ميول أبي لدراسة العلوم الدنيوية، أصر على أن يصبح أبي رجل دين، وتحقق له ذلك، ولكن أبي لم يكن من الذين يستسلمون بسهولة، فبينما كان يدرس التلمود بالنهار، كان يقضي أغلب الليل في الدراسات التي يحبها سراً، دون مساعدة مدرس، إذ راح يدرس تاريخ تطور الرياضيات. في وقت ما، وثق بأمه فأخبرها بما يفعل، وعلى الرغم من قلقها، إلا أن طبيعتها المتسامحة لم تشأ أن تحرم ابنها من تحقيق رغبة عمره. في سن الثانية والعشرين درس ما يدرس في المدارس في ثمانية أعوام في أربعة أعوام فقط، وتقدم إلى امتحان البكالوريا واجتازه بنجاح وتفوق. وبعد حصوله على الشهادة واتته الجرأة هو وأمه على إفشاء السر المخيف إلى جدي، وترتب على ذلك مشهد مأساوي؛ ولكن جدي خضع في النهاية ووافق على أن يترك أبي الدراسات الدينية، وأن يكمل تعليمه الجامعي.

لم تسمح الحالة المادية للأسرة على أي حال لأبي أن يحقق حلمه الكبير في دراسة الفيزياء، ووجد أنه لا بد أن يعمل بمهنة مربحة تدر عليه دخلاً فتحول إلى المحاماة. بعد ذلك بأعوام استقر في مدينة «لوو» في لا غاليسيا الشرقية، وتزوج أمي، وكانت واحدة من أربع بنات لمصرفي ميسور الحال، وفي تلك المدينة، في سنة ١٣١٨ (١٩٠٠م)، ولدت ثاني الأبناء الثلاثة لأبي.

ظلت رغبة أبي العارمة لدراسة العلوم تبدو في قراءاته الموسعة للموضوعات العلمية، كما بدت في اهتمامه الشديد الذي لا يظهره بوضوح بابنه الثاني - أنا - مع أني أظهرت ميلاً لدراسات لا تتصل مباشرة باكتساب المال، ولا تعد بتحقيق «مهنة» ناجحة، فلم يكتب لآماله النجاح لأنه كان يتمنى أن يجعل من ابنه عالماً. وعلى الرغم من أنني لم أكن غبياً، إلا أنني كنت لا مبالياً، كانت الرياضيات والعلوم الطبيعية على وجه الخصوص تصيبني بالضجر والملل، في الوقت الذي كنت أشعر فيه بمتعة كبيرة في قراءة الروايات التاريخية الرومانسية المثيرة التي كان يكتبها «سانيكو ڤتش»، وقصص الخيال العلمي التي كان يكتبها «چول فيرن»، وروايات الهنود الحمر التي كان يكتبها «چيمس فينمور كوبر» و«كارل ماي»، وبعدها أشعار «ريلكه»، والاستماع إلى المقطوعات الموسيقية الإيقاعية لـ «ألسو سبراخ زارا ثوسترا». كانت ألغاز الجاذبية الأرضية وقوانين الكهرباء لا تقل ضجراً عن قواعد اللغة اللاتينية واليونانية، كنت أنتهي من دروسها وبرودة تسري في أوصالي - وغني عن القول أني كنت أتجاوز اختبارات تلك المواد بشق النفس. أصاب ذلك أبي بإحباط شديد، إلا أنه وجد بعض العزاء في رضاء المدرسين عن ميولي الأدبية للآداب البولندية والألمانية بالإضافة إلى التاريخ.

وطبقاً لتقاليد عائلتنا، تلقيت دروساً دينية خاصة في المنزل، وكانت عن القصص الدينية العبرية. لم يكن ذلك عائداً إلى اهتمام خاص بالدين لدى أبويّ فقد كانا ينتميان إلى جيل يؤدي الشعائر الدينية باللسان والشفاه. وعلى الرغم من أن تلك الشعائر قد شكلت حياة أسلافهم الأوائل، إلا أنهم لم يبذلوا أي جهد لتوافق حياتهم اليومية تعاليم الدين أو حتى بالالتزام الأخلاقي الذي تمليه

عليهم تلك التعاليم. في مثل ذلك المجتمع تراجعت مفاهيم العقيدة الدينية وتقلصت إلى موقف من اثنين: ممارسة شعائر جامدة من قِبل المتمسكين عن طريق العادة في إرثهم الديني، أو لا مبالاة ساخرة من قِبل الأكثر «تحرراً» الذين يرون الدين خرافة عفّى عليها الزمن والتي يتقبلونها في بعض المناسبات على أنها مظاهر لابد منها إلا أنهم يسخرون منها سراً، وكأنها موقف عقلي لا يمكن الدفاع عنه. كان والداي ينتميان إلى الصنف الأول، إلا أن الشك قد اعتراني أن أبي كان يميل إلى الصنف الثاني. على أي حال أصر أبي أن أواظب على دراسة النصوص الدينية ساعات طويلة كل يوم. وهكذا، وجدت نفسي وأنا في سن الثالثة عشرة أقرأ العبرية بطلاقة وأتحدثها بإتقان، كما ألممت بالآرامية (وهو ما يفسر سرعة إتقاني للعربية بعد ذلك). ودرست التوراة في نصوصها الأصلية؛ وأصبحت عالماً بنصوص التلمود وتفسيره؛ وكان بإمكاني شرح الفرق بين التلمود البابلي والتلمود الأورشليمي بإتقان وتمكن وثقة؛ ثم انغمست في دراسة التفسير المعقد للتوراة المسمى «ترجوم»، فدرسته وكأنني أهيّئ نفسي لمنصب ديني.

وعلى الرغم من النبوغ في دراسة الدين، أو ربما بسببه، نمت لدي مشاعر بالتعالي تجاه جوانب كثيرة من العقيدة اليهودية، وما تتضمنه من منهج فكري. لم أرفض بالتأكيد الحقوق الأخلاقية التي أكدتها النصوص اليهودية، ولا الوعي الرفيع والسامي بالرب لأنبياء اليهود، ولكن ما رفضه عقلي هو مابدا من أن الرب في النصوص التوراتية والتلمودية يهتم اهتماماً غير مفهوم ولا مسوغ له بالشعائر التي لابد على عباده من أدائها، كما وجدت أن الرب مشغول فوق العادة بمصير أمة معينة دون غيرها، وهم اليهود بالطبع. مالت نصوص التوراة التي تؤرخ لنسل إبراهيم إلى إبراز الرب لا كخالق وحافظ لكل خلقه من البشر، بل كرب قبلي يسخّر كل المخلوقات لخدمة ما يحتاج إليه «الشعب المختار»؛ ويكافئهم بتوفيقهم في غزواتهم إن كانوا مخلصين له، كما يعرضهم للتعذيب على أيدي الكافرين به عندما يبتعدون عن طريق الإخلاص له كما وصفه لهم. على ضوء ذلك العيب الجوهري، نجد الحماس والتوهج الديني لأنبياء اليهود المتأخرين يجعلانه لا يرقى إلى أنه رسالة عالمية لجميع البشر.

وعلى الرغم من أن تلك الدراسات الدينية أتت بنتائج عكسية - فقد أبعدتني أكثر مما قربتني من عقيدة أهلي وأجدادي - إلا أن تلك الدراسات أفادتني في الأعوام الأخيرة في فهم الغرض الجوهري لأي دين، كما هو، ومهما يكن شكله. لم يؤد إحباطي من الديانة اليهودية في ذلك الوقت إلى البحث عن معتقدات روحية أخرى، فتحت تأثير تلك البيئة اللاإرادية، وجدت نفسي أندفع مع كثير من أقراني، إلى رفض ذلك الواقع وكل مؤسساته الدينية؛ وبما أن عقيدتي لم تعن لي أكثر من مجموعة من النواهي، لم أشعر بأي فارق في ابتعادي عن تلك التعاليم. لم تكن الأفكار الدينية والفلسفية تعنيني في قليل أو كثير؛ فما كنت أتطلع إليه لم يكن يختلف كثيراً عما يتطلع إليه باقي أبناء جيلي وهو: خوض المغامرات المثيرة.

في أواخر سنة ١٣٣٢ ( ١٩١٤م) كانت الحرب العالمية مشتعلة الأوار، وبدت في نظري أول فرصة سانحة لتحقيق أحلامي الطفولية، كنت في الرابعة عشرة، وهربت من المدرسة، والتحقت بالجيش النمساوي تحت اسم مستعار، كنت أكبر مما يشي به عمري، وتم إلحاقي على أن عمري ثمانية عشر عاماً، وهو الحد الأدنى لمن يلتحق بالخدمة العسكرية. إلا أنني لم أكن أحمل عصا الماريشالية في حقيبة ظهري. فبعد أسبوع أو نحو ذلك، نجح والدي المسكين في اقتفاء أثري بمعاونة الشرطة، وعدت في حراستهم إلى ڤيينا بشكل مخزٍ، حيث كانت أسرتي قد استقرت بها من فترة سابقة، بعد ذلك بأربعة أعوام التحقت بالجيش بطريقة مشروعة؛ ولكني كففت عن الحلم بعظمة أحققها في الحياة العسكرية، ورحت أبحث عن مسارات أخرى لتحقيق ذاتي. على أي حال، اندلعت ثورة في النمسا بعد التحاقي بالجيش بعدة أسابيع، وانهارت الإمبراطورية النمساوية، كما انتهت الحرب العالمية الأولى.

* * *

درست على مدى عامين بعد انتهاء الحرب - بلا نظام، وبلا تواصل - تاريخ الفن والفلسفة بجامعة ڤيينا، ولم أكن ميالاً إلى تلك الدراسات، فلم تكن المهن النظرية تستهويني، كنت مشغوفاً بالتوصل إلى جوانب حميمة

ومحببة إلى نفسي من الحياة، وأن أقتحم تلك الجوانب من دون أن أضفي على نفسي وسائل مصطنعة كما يفعل كثيرون، وأن أصل بنفسي إلى مُثُل روحية حقيقية كنت أوقن أنها موجودة إلا أنني لم أتوصل إليها بعد.

ليس من اليسير أن أشرح ما كنت أعنيه بتعبير «مُثُل روحية»؛ إلا أنه لم يدر بخلدي أن أحقق ذلك وأدركه عن طريق الوسائل التقليدية للدين، أو في الصدد نفسه عن طريق أي مقولات جاهزة مهما كانت متقنة. لم تكن تلك الضبابية الفكرية وغياب الوضوح حتى أكون منصفاً لنفسي من صنعي أنا، فقد كانت ضبابية فكرية وعدم وضوح رؤية أصيب بهما جيلي بأجمعه.

كانت العقود الأولى للقرن العشرين تصطدم بالخواء الروحي للأجيال الأوروبية، وأصبحت كل القيم الأخلاقية التي اعتنقتها الأمم الأوروبية على مدى عدة قرون هشة متداعية تحت وطأة التداعيات المرعبة لما حدث بين سنتي ١٣٣٢ و ١٣٣٦ (١٩١٤ و ١٩١٨م)، وهي السنوات التي استغرقتها الحرب العالمية الأولى، في الوقت الذي لم تبد فيه أي قيم روحية جديدة في أي أفق. كانت مشاعر الهشاشة وعدم الإحساس بالأمان متفشية بين الجميع، إحساس داخلي بالكارثة الاجتماعية والفكرية أصابت الجميع بالتشكك في استمرارية أفكار البشر، وفي كل مساعيهم وأهدافهم. بدا كل شيء وكأنه طاف فوق فيضان لا شكل له، والقلق الروحي لدى أجيال الشباب لا يجد مستقراً لأقدامه الوجلة، ومع غياب أي مقاييس يقينية أخلاقية، لا يستطيع أي فرد إعطاء إجابات مقنعة عن أسئلة كثيرة كانت تؤرق وتحيّر كلّ جيل الشباب، العلم يقول: «المعرفة أصل كلّ شيء» - وينسى العلم أن المعرفة من دون هدف أخلاقي لا تؤدي إلا إلى فوضى عارمة.

كان المصلحون الاجتماعيون والثوار، والشيوعيون، يسعون - بلا شك - إلى بناء عالم أفضل وأسعد حالاً، وكلهم كانوا يفكرون في مصطلحات ورؤية خارجية في المشكلات الاجتماعية والاقتصادية، ولكي يتجاوزوا ذلك العيب، طرحوا نظرية «المفهوم المادي للتاريخ»، وهو نوع من الميتافيزيقية المضاد للميتافيزيقية. من جهة أخرى كان المتدينون التقليديون لا يجيدون إلا أن ينسبوا إلى ربهم

صفات مستمدة من سلوكياتهم البشرية، وعاداتهم الفكرية التي أصبحت على المدى الزمني جامدة بلا معنى: وحين كنا نرى ـ نحن الشباب صغار السن ـ أن تلك الصفات التي يدعيها البشر على الرب تقف دائماً في موازنة جادة ومتناقضة مع البؤس الواقع في عالم البشر من حولنا، كنا نقول لأنفسنا: «إن القوى المحركة والمتحكمة في المصاير والأقدار لابد أن تكون مختلفة عن مضمون تلك الصفات التي يسبغها البشر على الرب؛ ولذلك ـ فإنه لا يوجد رب!!».

أيقن بعضنا أن سبب ذلك التخبط الفكري قد يكمن في الاعتباطية التي يتصف بها حراس العقيدة ممن يظنون أنهم لا يأتيهم الباطل، ويزعمون أنهم وحدهم أصحاب الحق في «وصف» الرب و«تعريفه»، ثم يلبسونه ملابسهم وأرديتهم، وبعد ذلك يفصلونه عن البشر ومصايرهم.

أدى عدم استقرار المبادئ والأخلاق على المستوى الفردي إلى فوضى أخلاقية وفكرية، كما أدى بالأفراد إلى البحث عن مفاهيم شخصية وفردية لما يمكن أن يحقق حياة سعيدة متوازنة. ربما كان ذلك الإدراك الغريزي هو ما دفعني إلى اختيار دراسة تاريخ الفن موضوعاً أساسياً في دراستي الجامعية.

افترضت في ذلك الوقت أن وظيفة الفنون الحقيقية هي إثارة الرؤى وحثها لخلق نموذج منطقي مترابط يعيد ربط صورة الأحداث المهشمة. وعلى الرغم من ذلك لم تشبعني تلك المناهج الدراسية التي واظبت عليها. كان أساتذتي ومنهم أسماء كبيرة ومشهورة مثل «شتر زيجوفسكي» و«دڤوراك» مهتمين بشكل أساسي باكتشاف القوانين الجمالية التي تحكم الخلق الإبداعي الفني أكثر من اهتمامهم بالتوصل إلى النبض الروحي الكامن في جوهر الأعمال الخلاقة الداخلي، وبعبارة أخرى، كان منهجهم موجهاً إلى جانب ضيق يتعلق بالإجابة عن مشكلة الشكل، كما يبدو من خلال الفنون الإنسانية.

لم ترضني دراسات التحليل النفسي التي درستها في تلك المرحلة أيضا، والتي اتسمت بالحيرة والتخبط الفكري، مثلها مثل تاريخ الفنون، ولكن لأسباب مغايرة، كانت علوم التحليل النفسي في ذلك الوقت تشكل ثورة فكرية عظمى، حتى إنني

أحسست في أعماقي أن تلك العلوم قد فتحت مزاليج أبواب المعرفة التي كانت مغلقة وأنها تبشر بتغيير تفكير الإنسان ومعرفته بذاته ومجتمعه. لقد فتح اكتشاف الدوافع الكامنة في اللاوعي والتي تشكل الشخصية الإنسانية طرائق واسعة تتيح فهماً أوسع للذات. كان من الممكن أن أنجذب لتلك الدراسات الجديدة في التحليل النفسي، فقد كان للأفكار «الفرويدية» تأثير يماثل تأثير النبيذ في أفكاري، وما أكثر الليالي التي قضيتها في مقاهي «ڤيينا» أستمع إلى مناقشات ساخنة ومثيرة بين رواد التحليل النفسي المبكرين، كان منهم «ألفريد أدلر»، و«هيرمان ستيكل»، و«أوتو جروس»، إلا أن الحيرة والقلق والتشوش حلت عليّ من جديد بسبب عجرفة العلم الجديد وتعاليه، الذي حاول أن يختزل ألغاز الذات البشرية، ويحولها إلى سلاسل من ردود الأفعال العصبية.

كانت النتائج «الفلسفية» التي توصل إليها رواد التحليل النفسي ومن آمنوا بهم تبدو مبالغة في الدقة ومبالغة في تبسيط المشكلات البشرية، ومع أنهم وضعوا أنفسهم في موضع الحقائق المطلقة؛ إلا أنهم في النهاية لم يحددوا أي طريق يحقق حياة جيدة للبشر.

وعلى الرغم من أن تلك المشكلات شغلت ذهني، إلا أنها لم تزعجني، فلم أكن اهتم كثيراً بالاتجاهات الميتافيزيقية التي تبحث عما وراء الطبيعة، كما لم تشغل ذهني أي تساؤلات حول «الحقائق» الكلية المطلقة. كان اهتمامي ينصب في ذلك الوقت على النواحي التي يمكن إدراكها والإحساس بها من جوانب الحياة: البشر وأنشطتهم، وعلاقاتهم بينهم. وكان ذلك هو الوقت الذي بدأت فيه تكوين علاقات مع النساء.

في مجرى التفكك والانحلال العام للقيم الأخلاقية التي كانت راسخة قبل الحرب العالمية الأولى، تحللت كوابح وقيود كثيرة كانت تسود العلاقة بين الجنسين. والذي حدث لم يكن ثورة مقننة مضادة للقيود والتحريمات الصارمة الأخلاقية للقرن التاسع عشر بقدر ما كان ردة فعل سلبية بسبب نقل العلاقات بين الجنسين من حالة كانت تحكمها فيها مقاييس أخلاقية معينة كانت تبدو وكأنها مقاييس

أبدية لا تقبل التشكيك، إلى حالة مضادة. أو تأرجح النواس بين معتقدات الأمس التي آمنت باستمرارية الجنس البشري وديمومته وتقدمه المستمر، إلى مرارة الوضوح العاري الذي قدمه «شبنجلر»، والنسبية الأخلاقية التي قدمها «نيتشه»، إلى النهلستية[١] الروحية (العدمية الروحية) التي رضعت من التحليل النفسي.

حين أتطلع خلفي إلى تلك الأعوام التي تلت الحرب العالمية الأولى، أشعر أن الشباب من الجنسين الذين تحدثوا وكتبوا بحماس شديد عن «حرية الجسد»، كانوا أبعد ما يكونون عن روح الحماس الحقيقية التي أظهروها: كانت نشوتهم وعياً شديداً بالذات أقرب إلى الحماس والاستهتار الشديد الذي لا يرقى إلى الثورة. كان لعلاقتهم الجنسية المتحررة جانب عرضي غير مقصود - يؤدي في الغالب إلى اتصالات جنسية غير شرعية.

حتى لو انتابني شعور بأنني ما زلت مقيداً ببعض بقايا الأخلاقيات التقليدية، كان من الصعب أن أتجنب الانجراف إلى سلوكيات أصبحت واسعة الانتشار؛ لقد افتخرت أنا أيضاً بذلك التحول، وابتهجت له مثل كثيرين غيري من أبناء جيلي لما كان يعدّ «تمرداً على التقاليد البالية الجوفاء». تحولت العلاقات بسهولة إلى ممارسات جنسية، وتحولت بعض الممارسات إلى حب عاطفي. وعلى الرغم من كل ذلك لا أظن أبداً أنني كنت متحرراً، لأن كل العلاقات التي خضتها ومارستها، مهما كانت سطحية وقصيرة المدى، إلا أن دافعها كان السعي إلى أمل متفائل، غامض إلا أنه مسيطر، يسعى إلى إثبات أن الفردية المخيفة والعزلة التي فصلت البشر عن البشر قد يحطمهما التحام رجل وامرأة.

* * *

١- نظرية ترى أن القيم والمعتقدات التقليدية لا أساس لها من الصحة، وأن الوجود لا معنى له، وأن المجتمعات البشرية في حالة من السوء تجعل الهدم مرغوباً فيه لذاته. (المترجم).

نما قلقي وتزايد وجعل إتمام دراستي الجامعية يبدو مستحيلاً، فقررت أن أترك تلك الدراسات، وأن أجرب نفسي في الصحافة. عارض أبي ذلك القرار لأسباب كانت أقوى من أملي في تسليمه برغبتي، أصر على أنه يجب عليّ قبل أن أقرر العمل بالكتابة الصحفية، لا بد أن أثبت أولاً أنه يمكنني الكتابة، وبعد مناقشة حادة بيننا قرر «أن درجة الدكتوراه لم تمنع أبداً من يحصل عليها من أن يكون كاتباً ناجحاً». كانت حجته معقولة ومنطقية؛ إلا أنني كنت صغير السن، مندفعاً نحو ما أراه، شديد الأمل والطموح، ومملوءاً بالقلق. حين أيقنت أنه لن يغير رأيه، لم يعد هناك ما أفعله إلا أن أبدأ حياتي بنفسي. ودون أن أخبر أحداً بنياتي، ودعت مدينة «فيينا» ذات يوم من أيام صيف سنة ١٣٣٨ (١٩٢٠م)، وركبت القطار متجهاً إلى مدينة «براغ».

كل ما كنت أملكه، عدا أمتعتي الشخصية، خاتم من الماس تركته لي أمي قبل موتها في العام السابق، بعت الخاتم إلى أحد سقاة مقهى المثقفين في «براغ» وعلى الرغم من خديعتي في تلك الصفقة، إلا أن ما تلقيته من ثمن للخاتم بدا وكأنه ثروة، وبتلك الثروة في جيبي واصلت سفري إلى «برلين»، ولما وصلت إليها قدمني بعض أصدقائي القدامى الذين كنت أعرفهم في «ڤيينا» قبل أن يرحلوا إلى «برلين» إلى دوائر الأدباء الساحرة، وفناني برلين الذين يجتمعون عادة في مقهى «ڤيستين» العتيق.

كان عليّ منذ تلك اللحظة أن أدير أمور حياتي دون أن أنتظر معونة أحد؛ كما قررت ألا أقبل وألا أتوقع أي معونة من أبي، بعد ذلك بأسابيع، بعد أن هدأ غضب أبي، كتب إليّ قائلاً: «أتوقع أن ينتهي بك الأمر إلى متسكع ومتسول في حفرة إلى جانب أحد الطرق»، فرددت عليه قائلاً: «لست أنا من يتسول على جنبات الطرق - سيعلو نجمي حتى أصل إلى القمة». أما كيفية وصولي إلى تلك القمة، فلم تكن واضحة في ذهني بأي شكل من الأشكال، كل ما كنت أدركه هو رغبتي في العمل بالكتابة الصحفية، كان يملؤني الاقتناع بالطبع أن عالم الصحافة ينتظرني بأذرع مفتوحة.

نفد كل ما كان معي من مال بعد بضعة أشهر، فبدأت أبحث عن عمل، وبالنسبة إلى شاب صغير السن يتطلع إلى امتهان الصحافة، فإن الاختيار الواضح هو صحيفة

يومية كبرى، إلا أنني بالطبع لم أكن أمثل اختياراً لأي صحيفة، وتحققت من ذلك يوماً بعد يوم، استنفد ذلك أسابيع طويلة من التسكع المضني على أرصفة «برلين» - فقد أصبح أجر قطار الأنفاق أو الحافلات العامة عزيز المنال - ومقابلات مهنية ومتكررة مع رؤساء تحرير صحف، ومحرري أخبار، ومساعدي محررين حتى أيقنت أن الأمر يتطلب معجزة ليقبلوا كاتباً بلا خبرة وبلا سطر واحد مكتوب في أي صحيفة قبل ذلك، ولن تتسنى له أدنى فرصة لدخول الساحة المقدسة لأي صحيفة. ولم تقع معجزة تيسر لي تحقيق هدفي. بدلاً من ذلك تعودت تحمل الجوع وأمضيت عدة أسابيع لا آكل فيها إلا وجبة واحدة يومية مكونة من كوب من الشاي وشطيرتين صغيرتين فقد كان إيجار الغرفة التي أسكنها يتضمن الإفطار. لم يتمكن أصحابي المثقفون في مقهى «فيستين» من تقديم معونة إلى شاب غض بلا خبرة مثلي، وعدا ذلك، كان أغلبهم يعيشون في ظروف لا تختلف كثيراً عن ظروفي، يحيون من يوم إلى يوم على حافة العدم والخواء، ويناضلون بكل ما أوتوا من قوة ليحافظوا على أنوفهم فوق سطح الماء. أحياناً، حين كان الحظ يسعد واحداً منهم بنشر مقال أو بيع لوحة، يقيم احتفالاً تراق فيه المشروبات والمأكولات، ويدعونني للمشاركة في تلك النفحة المفاجئة؛ كما كان أدعياء الثقافة من الأغنياء يقومون أحياناً بدعوة الصعاليك من المثقفين إلى العشاء في منازلهم، ثم يحملقون في فزع ونحن نحشو أمعاءنا الخاوية بشرائح الخبز المحمص المغطى بالكافيار، ونجرع معه ما تصل إليه أيدينا من مشروبات، ونرد له جميله بأحاديث منمقة ملأى بمصطلحات ثقافية عن رؤيتنا «للحياة البوهيمية»، إلا أن تلك الدعوات كانت استثناءً، فالقاعدة في أغلب الأيام كانت جوعاً مطلقاً - أما الليل فقد كان يزخر بالأحلام الملأى بشرائح اللحم والسجق، وشرائح الخبز المغطاة بالزبدة. فكرت عدة مرات في الكتابة إلى أبي لطلب معونته، وكنت متأكداً من أنه لن يتردد لحظة في مساعدتي؛ إلا أن كرامتي كانت تحول دون ذلك في اللحظة الأخيرة، وكنت أكتب له عوضاً عن ذلك عن أخبار الوظيفة الرائعة المرموقة والأجر الجيد الذي أتلقاه عن تلك الوظيفة... وأخيراً واتاني الحظ الذي كسر تلك الحلقة، إذ قدمني أحد الأصدقاء إلى «ف. و. مورنو»، الذي ذاعت شهرته بوصفه مخرجاً سينمائياً (كان ذلك قبل أن تجتذبه هوليوود إلى مزيد من الشهرة، ثم موته المفاجئ غير المتوقع)، كان «مورنو» شخصية محببة ذات تأثير، ونلت إعجابه على الفور، فسألني «مورنو» إن

كنت أود أن أعمل معه في فيلم جديد سيبدأ تصويره، وعلى الرغم من أن الوظيفة كانت مؤقتة، فإنني رأيتها وكأن السماء تفتح لي باباً، فقلت بتلعثم: «نعم، أقبل...».

قضيت شهرين رائعين متحرراً من القلق والحصار المالي ومعجباً بخبرات «مورنو» التي لم أر مثيلاً لها من قبل، عملت مساعداً له. ازدادت ثقتي بنفسي إلى حد بعيد، ولم يكن ذلك بالطبع بسبب أن بطلة الفيلم - وهي ممثلة شهيرة فائقة الجمال - لم ترفض مغازلة مساعد المخرج الشاب لها. حين انتهى تصوير الفيلم كان على «مورنو» أن يسافر إلى خارج ألمانيا لتصوير فيلم آخر، وتركته وأنا على اقتناع بأن أيامي السيئة قد انتهت.

دعاني بعد ذلك بفترة قصيرة، صديق يدعى «أنطون كوه» - وهو صحافي من ڤيينا اشتهر في برلين ناقداً مسرحياً - إلى الاشتراك معاً في كتابة مشاهد فيلم تقاضى عربوناً لكتابته، قبلت الفكرة بحماس، وبذلت جهوداً كبيرة في كتابة النص، على أي حال، دفع المنتج بسعادة المبلغ المتفق عليه، تقاسمته و«أنطون» مناصفة. واحتفالاً بدخولنا إلى «عالم السينما» دعونا الأصدقاء إلى العشاء في واحد من أشهر مطاعم برلين، حين تلقينا قائمة الحساب وجدنا أن كل ما حصلنا عليه تبخر ثمناً لسرطان البحر والكاڤيار والنبيذ الفرنسي. إلا أن حظنا تحسن، فبدأنا على الفور في كتابة مشاهد فيلم آخر، عن ملهاة تخيلية عن شخصيتي «بلزاك» و«بتسار»، ووجدنا مشترياً للسيناريو في اليوم ذاته الذي انتهينا فيه من كتابته. في تلك المرة رفضت أن «نحتفل» بنجاحنا، وبدلاً من ذلك ذهبت في إجازة لمدة أسابيع قضيتها على بحيرات «باڤاريا». بعد عام آخر مملوء بالمفاجآت الجيدة والسيئة التي قابلتني في مختلف مدن وسط أوروبا، وحَفِل بكثير من الوظائف المؤقتة، نجحت أخيراً في اختراق عالم الصحافة.

* * *

تم اختراقي عالم الصحافة في خريف سنة ١٣٣٩ (١٩٢١م)، بعد فترة أخرى من المتاعب المالية، إذ كنت جالساً ذات عصر بمقهى «دي ڤيستين» متعباً ومكتئباً، وجلس أحد الأصدقاء إلى جانبي. وحين علم بالمشكلات والمتاعب التي أمر بها،

قال مقترحاً: «قد تكون هناك فرصة لك، لقد بدأ «داميرت» في إنشاء وكالة أنباء بالتعاون مع وكالة «يونايتدبرس» الأمريكية، وسيطلق عليها اسم «يونايتد تليجرام» وأنا متأكد من أنه سيحتاج إلى عدد كبير من مساعدي التحرير، ويمكنني أن أقدمك إليه إن أحببت».

كان «داميرت» من الشخصيات المعروفة في الأوساط السياسية في برلين، وكان عضواً بارزاً في الحزب الكاثوليكي المركزي، وكوّن ثروة بمجهوده الشخصي، ويتمتع بسمعة طيبة؛ وراقت لي كثيرا فكرة العمل معه.

اصطحبني صديقي في اليوم التالي إلى مكتب الدكتور «داميرت». دعانا الرجل الأنيق المهذب الذي يبلغ منتصف العمر إلى الجلوس قائلاً: «حدثني السيد «فنجال» (وكان ذلك اسم صديقي) عنك. هل عملت من قبل بأي صحيفة؟

أجبته: «كلا ياسيدي» ثم أردفت: «إلا أن لدي خبرات كثيرة، تستطيع أن تعدني خبيراً بأمور أوروبا الشرقية، وأجيد عدة لغات». (في الحقيقة ـ كانت اللغة الوحيدة من لغات أوروبا الشرقية التي أجيدها هي اللغة البولندية، كما كنت لا أعرف إلا القليل عما يدور في ذلك الجانب من العالم، إلا أنني قررت ألا أهدر الفرص التي تتاح لي بسبب تواضع لا مسوغ له).

رد قائلاً فيما يشبه الابتسام: «هذا مثير»، ثم أردف «لدي فرصة للخبراء، إلا أنني لسوء الحظ لا أحتاج إلى خبير في شؤون أوروبا الشرقية في اللحظة الراهنة»، رأى علامات الإحباط التي ارتسمت على وجهي فواصل حديثه: «إلا أنه مازال لدي فرصة عمل لك ـ قد تكون أقل من قدراتك...»
سألته في لهفة ـ وإيجار المسكن الذي لم أسدده يتراءى لي في ذهني: «ما تلك الفرصة يا سيدي؟».
قال: «في الحقيقة أنا بحاجة إلى مزيد من موظفي الهاتف.. أوه، كلا، كلا، لا تنزعج، ليس عامل بدالة هاتف: أعني أنني أريد موظفي هاتف ينقلون الأنباء ويملونها بالهاتف إلى الصحف المحلية بالولايات...»

كانت الوظيفة بالطبع دون توقعاتي. نظرت إلى الدكتور «داميرت» ونظر إليّ؛ وحين رأيت تجعدات نظرة السخرية البادية حول عينيه تتزايد، أيقنت أن الموقف قد وصل إلى نهايته، قلت وأنا أتنهد من أعماقي بضحكة قصيرة مفتعلة: «قبلت الوظيفة».

بدأت مهنتي الجديدة في الأسبوع التالي، كانت مملة، وتبعث على الضجر، وتبعد كثيراً عن مهنة الصحافة التي أحلم بمزاولتها. لم يكن هناك ما أفعله إلا نقل الأنباء بالهاتف عدة مرات في اليوم من أوراق مكتوبة إلى الصحف المحلية المشتركة بالوكالة؛ إلا أنني كنت موظف هاتف جيداً، كما كان المقابل جيداً أيضاً. دام الحال على ذلك مدة شهر، وفي نهايته ساقت لي المصادفة فرصة سانحة لم أحلم بها.

كانت روسيا السوفييتية تعاني في سنة ١٣٣٩ (١٩٢١م) مجاعة شديدة قاسية. كان الملايين من أبناء الشعب يعانون الجوع، حتى إن مئات الآلاف لقوا حتفهم جوعاً في ذلك الوقت. كانت كل الصحف الأوروبية تعرض أخبار المجاعة والموقف العصيب في روسيا السوفييتية؛ وسارعت هيئات كثيرة لوضع خطط لإرسال مساعدات غذائية للتخفيف من وطأة المجاعة. وكان من تلك البرامج برنامج تزعمه «هربرت هوفر» الذي قام ببرامج مماثلة قبل ذلك لمساعدة دول وسط أوروبا بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى. كما كان الكاتب الروسي الشهير «مكسيم جوركي» يقوم بنشاط كبير من داخل روسيا للعمل على تخفيف وطأة المجاعة؛ كانت نداءاته المؤثرة لدول العالم عبر وسائل الإعلام تهز المشاعر في أوروبا؛ وأشيع أن زوجته ستقوم قريباً بزيارة عواصم وسط أوروبا وغربها لتحريك الرأي العام لمدّ يد المساعدة بوسائل أكثر فاعلية.

جاءت فرصة عمري، عن طريق أحد معارفي (واتتني عدة فرص في أماكن ومواقف غريبة عن طريق معارفي وأصدقائي)، وجذبتني حتى وضعتني في قلب الأحداث الساخنة.

حدث ذلك عن طريق البواب الليلي لفندق «إيسبلاناد» وكان أحد أفخم فنادق «برلين»، حين رآني بادرني قائلاً: «السيدة جوركي سيدة عظيمة؛ ولا يمكن لأي امرئ أن يخمن أنها من بولندا...»

صحت في دهشة: «السيدة جوركي؟ أين رأيتها بحق الجحيم؟». خفض محدثي صوته حتى تحول إلى همس: «إنها تقيم في فندقنا هذا، وصلت بالأمس، وتقيم هنا باسم مستعار، المدير وحده هو الذي يعلم حقيقة شخصيتها، إنها تريد أن تتجنب مطاردة الصحفيين لها».

سألته متشككاً: «وكيف عرفتها؟».

ردّ باعتزاز: «نحن ـ البوابين ـ نعلم كل ما يدور بالفندق» ثم تنهد سائلاً: «هل تعتقد أنها ستكون فرصة عظيمة لو تمكنت من إجراء حوار وحديث مطول مع السيدة جوركي، وسيضاعف من قيمة الحوار أنه لا توجد صحيفة واحدة في برلين تعرف بوجود السيدة جوركي.. اشتعل الحماس في أوصالي مثلما تشتعل ألسنة اللهب في أغصان جافة.

سألت صديقي: «هل بإمكانك أن تريني إياها بأي وسيلة؟»

أجاب: «لا أدري، إنها تبذل كل جهدها لكي لايعلم أحد عنها شيئاً... إلا أنني قد أستطيع القيام بشيء لك.. لو جئت إلى البهو في المساء، لربما كان بإمكاني أن أشير إليها خفية».

بعد أن اتفقت معه، ذهبت راكضاً إلى مكتبي في وكالة أنباء يونايتد تليجرام: كانت المكاتب خاوية على وجه التقريب بعد انتهاء وقت العمل، ولحسن الحظ كان رئيس التحرير مازال في مكتبه. أمسكت بتلابيبه قائلاً في تعجل: «هل تعطيني بطاقة صحفية إذا وعدتك أن أعود إليك بسبق صحفي كبير؟».

سألني بتشكك: «ما الذي تتكلم عنه؟».

قلت: «أعطني البطاقة، وسأعود إليك بسبق صحفي، وإن لم أفعل فبإمكانك أن تستعيد البطاقة مني الليلة».

وافق صائد الأنباء العجوز في النهاية، وخرجت من مكتبه أتيه فرحاً ببطاقة صحفي كتب عليها ممثل وكالة يونايتد تليجرام.

قضيت الساعات التالية في بهو فندق «إيسبلاند»، وفي التاسعة مساءً وصل صديقي ليبدأ نوبة عمله، ومن الباب غمز لي بعينه، ثم اختفى خلف طاولة الاستقبال، ظهر بعد دقائق، وأخبرني أن السيدة جوركي خارج الفندق، قال: «إذا انتظرت في البهو، فمن المؤكد أنك ستراها عند عودتها.

التقطت إشارة صديقي في الحادية عشرة، كان يشير خفية إلى سيدة تخطت الباب: كانت رقيقة دقيقة الحجم في منتصف الأربعينيات من عمرها، وترتدي رداء أسود محبوكاً على جسدها، وعليه معطف أسود من الحرير كان ينساب من خلفها على الأرض. وشت حركتها بأرستقراطية أصيلة حتى إنه كان من الصعب تخيل أنها زوجة شاعر «الشعب العامل»، وأصعب منه تخيل أنها مواطنة سوفييتية. اعترضت طريقها، وانحنيت باحترام، ووجهت إليها الحديث بأغرب نغمة في صوتي: «السيدة جوركي؟».

أخذتها المفاجأة وهلة، ثم استردت عيناها بريقهما الجميل، وردت بلغة ألمانية لا تشوبها إلا لكنة سلافية بسيطة لا تكاد تبين: «أخطأت.. أنا لست السيدة جوركي - اسمي كذا.. كذا» (وذكرت لي اسماً روسياً طويلاً إلا أنني نسيته) أصررت على رأيي قائلاً: «كلا ياسيدة جوركي.. أنا متأكد أنني لم أخطئ، وأعلم أيضاً أنك لا تودين أن يزعجك الصحافيون - إلا أن هذا الأمر يعني لي الكثير - بل الكثير جداً إن سمحت لي بالحديث بضع دقائق فقط. هذه أول فرصة لي لأثبت بها ذاتي. أنا متأكد أنك لا تودين تدمير فرصتي وما يترتب على ذلك من آثار سيئة على مستقبلي العملي في

الحياة...؟» ثم أظهرت لها بطاقتي الصحفية قائلاً: «لقد حصلت عليها اليوم فقط، ويتحتم عليّ إعادتها إلا إذا قدمت حديثاً أجريه مع السيدة جوركي».

استمرت السيدة الأرستقراطية في ا لابْتِسام: «وإذا أخبرتك بكلمة شرف أنني لست السيدة جوركي، هل ستصدقني حينئذ».

قلت لها: «كل ما تذكرينه لي مقروناً بكلمة شرف منك سأصدقه على الفور».

صدرت منها ضحكة رقيقة مفاجئة وقالت: «يبدو أنك شاب لطيف، (كان رأسها الجميل لا يتجاوز كتفي) لن أكذب عليك أكثر من ذلك. أنت تكسب، هل تمنحني شرف تناول الشاي في جناحي؟» وهكذا، كان لي شرف تناول الشاي مع السيدة جوركي في جناحها الخاص.

وصفت لي بحرارة بالغة أحوال المجاعة التي تمر فيها بلادها على مدى ما يقرب من الساعة؛ وحين غادرتها بعد منتصف الليل، كان معي مجموعة سميكة من الأوراق التي دونت بها الحوار.

فتح مساعدو التحرير الليليون في يونايتد تليجرام أعينهم في دهشة عندما رأوني في تلك الساعة من الليل، إلا أنني لم أهتم بهم فقد كان لدي عمل عاجل لا بد أن أتمه، كان عليّ أن أنتهي من صياغة الحوار بسرعة قدر ما أستطيع، ثم حجزت مكالمات هاتفية عاجلة لكل الصحف المحلية المشتركة في يونايتد تليجرام دون إذن أو تصريح من رئيس التحرير.

في الصباح التالي دوَّت القنبلة الصحفية، فبينما خرجت صحف برلين اليومية الكبرى دون أي إشارة إلى وجود السيدة جوركي في برلين، كانت الصحف المحلية المشتركة لدى وكالة أنباء يونايتد تليجرام كلها تنشر على صدر صفحاتها الأولى خبر إجراء الممثل الخاص للوكالة حديثاً شاملاً مع السيدة جوركي الموجودة سراً في برلين، وقدم موظف الهاتف سبقاً صحفياً كبيراً.

بعد الظهر عقد الدكتور «داميرت» اجتماعاً للمحررين في مكتبه. وتم استدعائي لحضور الاجتماع، وبعد محاضرة استهلالية ركز فيها إلى أنه لا يجوز إرسال أي مادة صحفية إلى الصحف المشتركة بالوكالة مهما تكن أهميتها إلا بعد إجازتها من محرر الأخبار، أخبرني أنني قد رقيت إلى درجة محرر. أخيراً أصبحت صحفياً.

(٤)

سمعت أصوات أقدام خفيفة قادمة على الرمال: إنه زيد، عائد من البئر بعد أن ملأ القرب بالمياه، وضعها على الرمال بالقرب من النار فصدر عنها رنين ارتطام الماء بالماء، ثم أكمل إعداد العشاء: طها أرزاً ولحم جمل كان قد اشتراه من القرية عند حلول المساء، وبعد أن قلَّب الطعام بالمغرفة والبخار يتصاعد من الإناء، استدار إليّ سائلاً: «هل تأكل الآن ياعمي؟».

أفرغ الطعام في قصعة متسعة على شكل كومة كبيرة، وقرّب القصعة أمامي من دون أن ينتظر ردي، ثم تناول وعاءً نحاسياً ملأه بالماء لأغسل يدي: «بسم اللّه، أدام اللّه عليك نعمة الحياة».

انهمكنا في الأكل، جالسين متربعي الساقين يواجه أحدنا الآخر بيننا القصعة، ونتناول الطعام بأصابع اليد اليمنى. رحنا نأكل في صمت، لم يكن أي منا من مكثري الحديث، ثم وجدت نفسي غارقاً في خضم ذكريات تتوالى على ذهني، أفكر في العمر الذي عشته قبل قدومي إلى الجزيرة العربية، قبل أن أعرف زيداً، لذا لم أتمكن من الحديث بصوت مرتفع، فرحت أتحدث في صمت مع نفسي وإلى نفسي، أتذوق طعم الحاضر عبر أحوالي في الماضي.

تناولنا عشاءنا، وأنا متكئ على رَحْل الجمل، وأصابعي تعبث بالرمال، أحملق في نجوم الجزيرة العربية الصامتة على صفحة السماء، فكرت أنه كان من الممكن والرائع لو وجدت بصحبتي من يمكنني أن أحكي له ما حدث لي في تلك الأيام البعيدة، إلا أنه لم يكن بصحبتي إلا زيد. كان زيد عظيماً ومخلصاً وذا وفاء نادر، وكان رفيقي في الأيام الخوالي. كان أريباً، دقيق الفهم، حسن الإدراك، وخصاله حميدة.

ألقيت عليه نظرة جانبية - كان وجهه بملامح حادة تحيطها خصل طويلة من الشعر، كان منحنياً على إبريق القهوة، أدرت رأسي باتجاه الناقتين الباركتين يلوكان طعامهما في أناة - أيقنت أني أحتاج إلى مستمع آخر: امرئ لم يؤد دوراً في حياتي الماضية، وبعيد عن مشاهد الأيام والليالي الحالية وروائحها ومشاهدها: امرئ أستطيع أمامه أن أسرد الأفكار التي ترد إلى ذهني واحدة بعد أخرى بلا تزويق، فقد ترى عيناه ما بتلك الأفكار، وأراها أنا من جديد، وبذلك يساعدني على التقاط أطراف حياتي وهي تمر خلال حديثي، إلا أنه لم يكن معي إلا زيد، وزيد هو الحاضر.

# الفصل الثالث

## رياح

سرنا، وسرنا، رجلين على ناقتين، وانداح الصباح مبتعداً.

حطم زيد الصمت السائد: «شيء غريب، شيء غريب جداً».

سألته: ما الغريب يا زيد؟»

قال: «أليس غريباً يا عمي، أننا كنا متوجهين منذ أيام قليلة إلى تيماء وغيرنا وجهتنا الآن إلى مكّة المكرّمة؟ أنا متأكد أنه لم يكن في نيتك التوجه إلى مكّة المكرّمة قبل تلك الليلة التي تهت فيها. أعرف أنك متقلب مثل بدوي.. مثلي تماماً. هل كان ذلك من عمل الجن يا عمي، من يغير وجهتي هكذا فجأة؟ منذ أربعة أعوام مضت طلبت مني أن أوافيك بمكّة المكرّمة - والآن تأمرني فجأة أن نغير اتجاهنا إلى مكّة المكرّمة، هل نترك أنفسنا هكذا توجهنا الرياح وكأننا لا نعرف ما نريد؟».

المؤلف ورفيقه خلال الرحلة
١٣٤٦ (١٩٢٨م)

أجبته: «كلا يا زيد - إننا، نترك أنفسنا للرياح؛ لأننا نعرف ما نريد: إن قلوبنا تدرك ما نريد، حتى لو كانت أفكارنا بطيئة في ملاحقة ذلك، إلا أنها ستدرك في النهاية ما يدور في القلوب، وعندئذ نعتقد أننا قد اتخذنا قراراً...»

* * *

ربما كان قلبي يدرك ذلك منذ عشرة أعوام مضت، عندما وقفت بجوار السفينة التي أقلتني في أول رحلة لي إلى الشرق الأوسط، كانت السفينة تتجه جنوباً عبر البحر الأسود، وكانت ليلة ضبابية لم يبد في عتمتها أي شيء، وتلا الليل نهار ضبابي أيضاً متجهين إلى مضيق البوسفور، كان الماء بلون الرصاص؛ يتناثر زبده، ويتطاير على سطح السفينة؛ أما محركها، فكان له إيقاع يشبه دقات القلب.

وقفت بجوار السياج المعدني، أتطلع عبر قتامة الضباب الشاحبة، إن سألني امرؤ عما كنت أفكر فيه وما توقعاتي التي أحملها في ذهني في أول رحلة لي إلى الشرق الأوسط، فلن أستطيع الإجابة عن سؤاله بالتحديد. ربما كان الفضول.. ربما: إلا أنه لم يكن فضولاً يفصح عن نفسه بطريقة سافرة مباشرة، على الأقل لم تكن في ذهني أهداف عظيمة القيمة. وجد قلقي الداخلي علاقة تربطه بالضباب السائد على صفحة البحر. لم يشغل فكري أني أزور بلاداً غريبة، وشعوباً مختلفة، كما لم تشغل فكري صور لمستقبل قريب أو مدن غريبة بأشكال غير مألوفة أوشك أن أصل إليها، وبشر بأزياء غريبة وسلوكيات مغايرة سأراها عاجلاً، رأيت أن تلك الرحلة حدث وقع بالمصادفة، ويحتمل أن تكون مبهجة إلا أنها لا تحمل أهمية خاصة على الإطلاق، وفي تلك اللحظة تعكر فكري وتشتت بهموم الماضي.

الماضي؟ هل لي أي ماضٍ؟ كان عمري اثنين وعشرين عاماً.. إلا أن أبناء جيلي - أولئك الذين ولدوا مع مطلع القرن العشرين - عاشوا عصراً سريع الإيقاع يختلف عن أي زمن عاشته أي أجيال أخرى سابقة، بدا الماضي الذي أتذكره كما لو كنت أنظر في مدى زمني سحيق غائر القدم. نهضت من مخيلتي كل المصاعب والمشكلات والمغامرات التي خضتها فيما مضى من عمري، كل التطلع والشوق واللهفة والسعي وخيبة الأمل والخذلان والنساء وأولى علاقات في حياتي.

كانت الليالي تبدو لنا بلا نهاية، نسير تحت ضوء النجوم، لا ندري على وجه التحديد ما الذي نريده، أسير برفقة صديق في شوارع خالية، نتحدث عن أشياء تبدو لنا جوهرية، متغافلين عن جيوبنا الخاوية، وافتقاد الأمان في الأيام المقبلة.. تلك المشاعر من عدم الرضا السعيد التي لا يعرفها إلا الشباب والرغبة العارمة في إعادة بناء العالم من جديد.. وإحساس يقيني بحتمية إعادة تشكيل المجتمع ليحيا الجميع حياة صحيحة ومشتركة.. وتنظيم علاقاتهم لتحطيم عزلة الفرد.. ما الخير وما الشر؟ ما المصير؟ ما الأفعال الجوهرية التي يجب القيام بها دون تظاهر لتتطابق طبيعة المرء وحياته حتى يمكن له أن يقرر بصدق وارتياح من الأعماق: «أنا وقدري شيء واحد».

مناقشات مثقفين لا تصل أبداً إلى نهاية ولا إلى حلول... على مقهى المثقفين في ڤيينا وبرلين، مناقشات ساخنة تغصّ بمصطلحات عن «الشكل» و«المضمون» وتعابير عن الحرية السياسية ومعناها، عن علاقة الذكر والأنثى.. جوع إلى المعرفة، وأحياناً إلى الطعام... وليالي الغرام بلا قيود: فراش تبعثرت أغطيته عند الفجر، في الوقت الذي تكون فيه إثارة الليل قد ذوت وانطفأت جذوتها، وتحولت إلى لون رمادي فاتر لا حياة فيه: عندما يأتي صباح جديد ينسى المرء رماد الفجر، ويسعى من جديد بخطوات مترنحة، ويشعر أن الأرض ترتجف في مرح تحت وقع أقدامه... والإثارة المصاحبة لكتاب جديد أو وجه جديد؛ البحث، ثم التوصل إلى أنصاف إجابات؛ وتلك اللحظات النادرة عندما يتبدى العالم فجأة، ولثوانٍ، وكأنه سكن تماماً، وأضاءته ومضة عابرة من الفهم واعدة بكشف لم يصل إليه أحد من قبلك: ومضة كاشفة تحمل إجابات كل الأسئلة الحائرة.

* * *

كانت سنوات عجيبة تلك السنوات التي شكّلت واستهلّت عشرينيات القرن العشرين في وسط أوروبا، كان الجو العام يسوده انعدام الأمان الاجتماعي والأخلاقي وأدى إلى شيوع اليأس الذي عبّر عن نفسه في أعمال موسيقية تجريبية تتسم بالجرأة، وعبر اليأس عن نفسه في التصوير والفنون التشكيلية والمسرح، كما بدا في تلمس اتجاهات جديدة دارت حول تساؤلات رائدة عن شكل الحضارة

المطلوبة؛ إلا أن ذلك أفضى بمصاحبة التفاؤل الإجباري إلى فراغ روحي وغموض متشائم ولدا من فقدان الأمل المتزايد في مستقبل البشر.

وعلى الرغم من حداثة سني، فإنه لم يخف عني أنه بعد كارثة الحرب العظمى لم تعد الأمور تحتوي على أي قدر من الصواب في عالم أوروبي محطم، متذمر ومتوتر عاطفياً. إلهام الحقيقي لم يعد إلهاً روحياً: بل أصبح إلههم البحث عن الراحة والرفاهية. ولا جدال أن الكثيرين أحسوا وفكروا بشكل روحي، وبذلوا جهوداً يائسة ضد التيار ليصالحوا معتقداتهم الأخلاقية والروحية مع روح الحضارة المادية السائدة، إلا أن من نجح منهم كان استثناءً نادراً. أما الأوروبي العادي الذي يمثل الغالبية - سواء الديموقراطي أو الشيوعي، العامل اليدوي والمفكر - فقد بدوا جميعاً وكأنهم باتوا لا يؤمنون إلا بمعتقد إيجابي واحد: هو عبادة التقدم المادي، والإيمان بأنه لا يوجد أي هدف للحياة أهم من تحويلها بصفة دائمة ومستمرة إلى حياة سهلة ومريحة، أو كما يذكر المصطلح الذي ساد: «الاستقلال عن الطبيعة». كانت معابد تلك العقيدة وكنائسها هي المصانع العملاقة، ودور السينما، والمعامل الكيماوية، والمراقص، والكهرباء، كما كان قساوستهم ومبشروهم هم رجال البنوك، والمهندسين، والساسة ونجوم الأفلام، والإحصائيين، وكبار رجال الصناعة، ورجال الطيران، ومفوضي الأحزاب الشيوعية. كان الفزع الأخلاقي واضحاً في افتقاد أي اتفاق حول معاني الخير والشر وخضوع كل القيم الاجتماعية والاقتصادية لقانون «النفعية» - حتى إنه صبغ بصبغته نساء الشوارع اللاتي رحن يهبن أنفسهن لأي عابر في أي وقت يطلب منهن ذلك. التوق الذي لا يشبع للقوة والمتعة عند الضرورة الذي يقود إلى انفصال المجتمع الغربي إلى مجموعات متناحرة متعادية مسلحة ومصرة على إفناء بعضها بعضاً حينما وحيثما تتعارض اهتمامات تلك الجماعات أو تتناقض. وعلى الجانب الفكري، كان الناتج بشراً تنحصر أخلاقهم في إحراز المنفعة، ومثلهم الأعلى للحق هو النجاح المادي.

رأيت كيف اضطربت حياتنا وافتقدت إلى السعادة الحقيقية، وكيف تقلص التواصل والتعايش بين فرد وآخر على الرغم من الإصرار الهستيري على تماسك

«المجتمع» و«الأمة»؛ وإلى أي مدى شردنا بعيداً عن الفطرة؛ وإلى أي مدى ابتذلت أرواحنا؟ شاهدت كل ذلك وعشته: إلا أنه لم يصبني - كما لم يصب بعضاً ممن عشت بينهم - ورأيت أن الحل، أو على الأقل الحل الجزئي لتلك الحيرة - موجود في ثقافة أخرى، كانت أوروبا هي بداية تفكيرنا ونهايته: حتى اكتشفت الحكيم - «لاو - تسي» - وأنا في سن السابعة عشرة أو نحوها.

* * *

بدا اكتشافي «لاو - تسي» حقيقياً، ولم أكن قد سمعت عنه من قبل، حتى وقعت عيناي على ترجمة ألمانية لـ «تاو - تي - كنج» موضوعة على طاولة مكتبة بڤيينا، فأثار الاسم الغريب بعض فضولي ففتحت الكتاب بطريقة عشوائية، وجرت عيناي على فصل قصير من الحكم، فشعرت برجفة مفاجئة في أعماقي، وخزة من السعادة المفاجئة جعلتني أنسى ما حولي، ولا أشعر بوجوده، وأتجمد في مكاني مسحوراً ومأخوذاً بما قرأت: ما أقرؤه يظهر لي جوهر حياة البشر في صفائها، خالية من النزاعات والصراعات، تسمو إلى سعادة خالصة مفتوحة لا تنضب أمام القلب البشري إذا هفا إلى رفع ذاته إلى حريته وخلاصه: وجدت فيما قرأته صدقاً خالصاً، تعرفت إليه ونفذ إلى عقلي ومشاعري بفرح يماثل فرح العائد إلى وطنه بعد غياب طويل... على مدى أعوام، كان «لاو - تسي» بمنزلة نافذة أتطلع من زجاجها النقي إلى حياة بعيدة عن ضيق الرؤى ومخاوف الذات، والهواجس الطفولية التي ترغم البشر على محاولة تأمين وجودهم في كل لحظة عن طريق «تحسين الوسائل المادية» بأي ثمن، لم أكن أرى أن تحسين الوسائل المادية غير ضروري بالنسبة إليّ، بل على العكس، ظللت معتقداً أنها مهمة وضرورية، إلا أنني كنت مقتنعاً في الوقت ذاته أنها - أي الوسائل المادية - لا يمكن أن تحقق غاية نهائية أو هدفاً جوهرياً، وهو تحقيق سعادة البشر، إلا إذا تصالح صاحبها وتوافق مع المكونات الروحية، وآمن بالقيم المطلقة. أما كيفية تحقيق إعادة التصالح تلك، وأي نوع من القيم ذلك يدور بخلدي، فلم يكن واضحاً تماماً في ذهني.

كان من الحماقة بالطبع أن أتوقع إمكانية تغيير البشر لأهدافهم ومن ثم توجهاتهم ومسعاهم بمجرد أن يبشرهم أحد بذلك، كانت رؤية لاو ـ تسي تذهب إلى أن المبشر لابد أن يفتح نفسه للحياة بدلاً من جذبها ومحاولة قهرها بالعنف. لم يكن التبشير ولا الإدراك الذهني قادرين كل واحد بمفرده على تغيير المجتمع الأوروبي؛ فما كان ينقص المجتمع الأوروبي هو الإيمان النابع من القلب، والاستسلام الصادق والحميم للقيم والذي لا يحتوي على «لو» و«لكن»: ولكن متى يتحقق مثل ذلك الإيمان...؟

لم يتبادر إلى ذهني في ذلك الوقت أن أفكار لاو ـ تسي لا تهدف فقط إلى اختراق الذهن لتحقيق تغيير في المواقف الفكرية، بل كان يسعى أيضاً إلى تغيير المفاهيم الجوهرية التي تنبع منها المواقف الفكرية. لو أنني أدركت ذلك لعلمت أنه لا يمكن لأوروبا أن تحقق ذلك الصفاء الروحي الذي يتحدث عنه لاو ـ تسي إلا إذا امتلكت شجاعة التساؤل عن أصل جذورها الروحية والأخلاقية وحقيقتها. كنت بالطبع أصغر من أن أصل بوعيي إلى مثل ذلك الاستنتاج: أصغر من أن أتمكن من الإحاطة بالتحدي الذي يطرحه الحكيم الصيني بكل عظمة مضموناته. حقيقة، صدمتني رسالته حتى الأعماق، لقد كشفت لي عن أفق للحياة يمكن فيه للمرء أن يصبح هو وقدره شيئاً واحداً، أي أن يتوحد المرء مع ذاته: ولكن بما أني لم أدرك بوضوح كيف يمكن لتلك الفلسفة أن ترسي مقاييس يمكن تطبيقها في الواقع العملي للحياة لذلك النسق الأوروبي، بدأت تدريجياً أتشكك في إمكانية تطبيقها. لم أتوصل حتى إلى نقطة ما أتوقف عندها أسأل هل كانت طريقة الحياة الأوروبية في جوهرها هي الطريقة الوحيدة الملائمة للحياة، أي أنني كنت مثل كل المحيطين بي، مغلفاً تماماً ومشبعاً كلياً بالنظرة الثقافية الذاتية الأوروبية.

وعلى الرغم من أن صوت لاو ـ تسي لم يصمت أبداً داخلي، إلا أنه تراجع خطوة بعد خطوة إلى أن احتل مكانه بين التأملات الفكرية الذهنية المجردة، ومع مرور الوقت لم تعد أكثر من رؤى فكرية في صياغة شعرية جميلة. داومت على قراءته من حين إلى آخر؛ وفي كل مرة كنت أشعر بوخزة الرؤى السعيدة؛ ثم أضع الكتاب جانباً، مع الإحساس بالأسى أن ذلك لم يكن إلا نداءً حالماً إلى برج عاجي لا يوجد إلا في

الخيال، وعلى الرغم من قسوة التناقضات والنزاعات ومرارة عالم تسوده الأطماع كنت جزءاً منه، إلا أنني لم أكن أبحث عن برج عاجي أحيا فيه من صنع لاو ـ تسي.

وجدت نفسي لا أشعر بحماس للأهداف والمساعي التي كانت تسري في الحياة الفكرية الأوروبية، وتموج بها الآداب والفنون والاتجاهات السياسية، وطنين المناقشات الحامية، فمع أوجه التناقضات بين كل التيارات والاتجاهات إلا أن هناك جانباً مشتركاً جمعها كلها في افتراض واحد، هو الافتراض الساذج بأنه من الممكن انتشال الحياة من فوضاها الحالية والارتقاء بها إلى الأفضل لو تم تغيير الأحوال الاقتصادية والسياسية إلى الأفضل. كنت أوقن أن التقدم المادي في حد ذاته ليس هو الحل، على الرغم من أنني لم أكن أعرف على وجه اليقين أين يمكن أن أجد الحل، كما لم أتمكن من إقناع نفسي بذلك الحماس الذي اعترى كل جيلي من أجل «التقدم».

لم أكن تعساً، أو انطوائياً، بل كنت في ذلك الوقت سعيداً بما هو أكثر من النجاح في حياتي العملية، لم أكن أستمد سعادتي من وظيفتي، كان عملي في وكالة يونايتد تليجرام يرجع إلى تمكني من عدة لغات، وكنت قد أصبحت نائباً لرئيس تحرير قطاع أخبار الصحافة الإسكندنافية، وفتح أمامي ذلك العمل سبلاً وطرقاً عريضة إلى عالم أرحب وأوسع. كان مقهى «دي ڤيستين» ومن بعده مقهى «رومانشيه» ملتقى الكتاب والمفكرين البارزين والفنانين ومشاهير الصحفيين وممثلين ومنتجين، وكانوا يمثلون لي البيت الفكري. ربطتني بهم جميعاً علاقات صداقة توافرت بها النديّة، كان لي أيضاً شهرتي التي لم تقل عن شهرة كثيرين منهم، فحياتي كانت مملوءة بصداقات عميقة، وعلاقات حب وغرام عابرة. كانت الحياة مثيرة، ملأى بأحلام واعدة صاخبة الألوان، كلا، لم أكن تعساً بالتأكيد ـ لكني لم أكن أشعر بالرضى ولا بالإشباع، لا أدري بالتحديد ما الذي أسعى إليه وما الذي أتوق إلى تحقيقه؟ وفي الوقت نفسه كنت مقتنعاً، مع غرور الشباب وجموحهم، أنني سأعرف في يوم ما، ما أبحث عنه وأحققه. هكذا كنت أتأرجح بين ما أحسه في قلبي من رضا وعدم رضا مثلي مثل كثير من شباب تلك السنوات الغريبة: فمع أن أياً منا لم يكن تعساً، إلا أن قليلاً من كان سعيداً بوعي

وإدراك. لم أكن تعساً: ولكن عزوفي عن المشاركة في الاتجاهات والصراعات المتعارضة للتوجهات الاقتصادية والسياسية والاجتماعية نما مع الوقت ليتحول إلى إحساس غامض من عدم الانتماء الكامل، وصحب ذلك الإحساس غموض آخر، رغبة عارمة في الانتماء، إلى من؟ - وأن أصبح جزءاً من كل.. أي كل؟

* * *

في أحد أيام ربيع سنة ١٣٤٠ (١٩٢٢م)، تلقيت رسالة من خالي دوريان، أصغر أشقاء أمي، ربطتني به علاقة صداقة أكثر منها قرابة. كان طبيباً نفسياً وأحد تلاميذ عالم النفس الشهير «فرويد»، وكان في ذلك الوقت يشغل وظيفة طبيب نفسي في مصحة عقلية في مدينة القدس. ولأنه لم يكن صهيونياً ولا يتعاطف مع المخططات ا لصهيونية - كما أنه لم يكن ميالاً للعرب، فقد شعر بوحدة وعزلة لأن حياته اقتصرت على العمل وكسب المال فقط. لم يكن متزوجاً، ولذا فكر في ابن شقيقته كرفيق ملائم في تلك الوحدة. أشار في رسالته إلى تلك الأيام المثيرة عندما كان يرشدني إلى ذلك العلم الفذ الجديد، علم التحليل النفسي؛ واختتم رسالته قائلاً:

«لماذا لا تأتي وتقيم بضعة أشهر هنا؟ سأدفع نفقات سفرك قدوماً وعودة؛ وسأترك لك تحديد موعد عودتك إلى برلين، وحين تكون معي هنا، ستعيش معي في منزل عربي قديم مشيد من الحجارة، جوه لطيف صيفاً وبارد حتى التجمد في الشتاء، سنقضي وقتاً ماتعاً معاً، ولدي كتب كثيرة هنا، حين تشبع من تأمل المناظر الغريبة حولنا، يمكنك أن تقرأ كما تشاء..»».

اتخذت قرار السفر بتصميم وعزيمة اتصفَتْ بها دائماً قراراتي الكبرى، وفي الصباح التالي أخبرت الدكتور «دامبرت» في وكالة يونايتد تليجرام أن هناك أموراً وأسباباً مهمة تحتم عليّ التوجه إلى الشرق الأوسط، وأنني سأترك العمل خلال أسبوع.

لو أخبرني أي امرئ في ذلك الوقت أن أول معرفة مباشرة لي بالعالم الإسلامي

ستؤدي إلى ما يفوق كثيراً ما يخرج به أي مسافر في رحلة أو إجازة عمل، وأنها ستصبح نقطة تحول عظمى في حياتي، لكنت قد ضحكت كثيراً من تلك المزحة المجافية للعقل. ليس بالطبع لأنني محصن ضد إغراءات البلاد التي ترتبط في ذهني وذهن كل الأوروبيين ـ بالجو الرومانطيقي لحكايات ألف ليلة وليلة: فقد توقعت أن أرى ألواناً وأصنافاً من البشر، وأزياء مختلفة متباينة، والمرور بمواقف رائعة مثيرة، إلا أنني لم أتوقع أي مغامرات روحية. لم تمثل لي تلك الرحلة وأنا أعد نفسي لها أي وعد خاص أو حلم بتحقيق أي جانب شخصي. كل ما كان يدور بذهني عن تلك الرحلة كنت أتعامل معه برؤية غربية، فقد كان رهاني محصوراً في تحقق أعمق في المشاعر والإدراك من خلال البيئة الثقافية الوحيدة التي نشأت بها، وهي البيئة الثقافية الأوروبية. وكيف يمكن أن يكون الأمر غير ذلك؟ لم أكن إلا شاباً أوروبياً صغيراً في مقتبل عمره، نشأت على الاعتقاد بأن الإسلام وكل رموزه ليسا إلا محاولة التفافية رومانطيقية حول التاريخ الإنساني، محاولة لا تحظى حتى «بالاحترام» من الناحية الروحية والأخلاقية، ومن ثم لا يستحق الذكر، فضلاً عن أنه أقل من أن يوازن بالعقيدتين الوحيدتين اللتين يرى الغرب أنهما تستحقان الاهتمام والبحث وهما المسيحية واليهودية.

بذلك الفكر الضبابي الغائم، والانحياز الغربي ضد كل ما هو إسلامي (لا يشمل ذلك بالطبع المظهر الرومانطيقي الخارجي للحياة الإسلامية كما تبدو في نظر الغرب) ولو تعاملت بعدل مع ذاتي، لابد أن أقرر أنني أيضاً كنت غارقاً حتى أذني في تلك الرؤية الذاتية الأوروبية والعقلية الذاتية الثقافية التي اتسم بها الغرب على مدى تاريخه.

* * *

والآن، كنت على سطح سفينة في طريقي إلى الشرق، كان السفر ماتعاً من برلين حتى القسطنطينية، وفي هذا الصباح الضبابي على متن تلك السفينة ظهر شراع أحمر من بين حجب الضباب، ومرّ بجوار السفينة، عرفت أن الشمس على وشك الظهور، كانت حزماً من ضوء شاحب، رفيعة كالخيوط، تسقط على العتمة الضبابية السائدة على سطح الماء، كان للعتمة الضبابية لون شاحب مثل الألوان

المعدنية تحت تواصل تزايد أشعة الشمس الموشكة على الإشراق، ترسبت الكتل البيضاء للضباب ببطء وتثاقل على سطح الماء، ثم تفرقت بعضها عن بعض، ثم تناثرت محيطة بجوانب حزم ضوء الشمس المتزايد كأقواس متطايرة، مثل أجنحة الطيور.

سمعت من خلفي صوتاً عميقاً ممتلئاً يقول: «صباح الخير» استدرت وتعرفت على الفور إلى رفيقي في السفر ذي المعطف الأسود والذي قابلته في الليلة الماضية، وجه ودود تعلوه ابتسامة محببة جعلتني أميل إليه بسهولة. كان قساً يسوعياً نصف بولندي ونصف فرنسي، ويعمل معلماً للتاريخ في واحدة من كليات مدينة الإسكندرية؛ وكان عائداً إليها بعد انقضاء إجازته، كنا قد تبادلنا الحديث في الليلة السابقة حول موضوعات مختلفة اتضح منها أننا مختلفان في عدة نواحٍ فكرية، وكنت ناضجاً بما يكفي لأدرك أنه طراز من الرجال الأذكياء الجادين، كما يتمتع بروح مرحة.

رددت تحيته: «صباح الخير يا أب فيليكس، انظر إلى البحر...» كان نور الصباح قد أشرق واستعادت المرئيات ألوانها الطبيعية بعد انقشاع الضباب. وقفنا على مقدم السفينة تهب علينا رياح الصباح، حاولت متابعة تغيرات الألوان السريعة والمتعاقبة في أمواج المياه المتلاطمة على صفحة البحر. أزرق؟ أخضر؟ رمادي؟ من الممكن أن تكون زرقاء إلا أنها عكست لوناً أرجوانياً من الشمس الصاعدة، انزلق اللون المنعكس على صدر الأمواج، وتطاير زبد أبيض من نصل الأمواج، وبدا كأنه رغوة جليدية تجري على حافة ألوان معدنية مجعدة، ثم تحولت الأمواج العاتية إلى مجرد حركة ارتجاجية وسطح مياه مرتجف - وإلى آلاف الدوامات الدقيقة المستقلة بعضها عن بعض وتحول لون فجواتها من الأرجواني إلى الأخضر القاتم؛ ثم يتصاعد اللون الأخضر في قلب الدوامة متحولاً إلى لون بنفسجي مرتجف؛ ثم يتحول في لحظة إلى لون خمري، ثم في وهلة إلى الفيروزي ويصبح حافة موجة، ويتكسر من جديد؛ مرة بعد أخرى في الرغوة البيضاء التي نشرت شباكها على تلال الأمواج المتتابعة... مرة بعد مرة في تتابع لا ينتهي.

بعثت حركة الأمواج وألوانها المتغايرة في نفسي إحساساً بالقلق والتوتر لعدم قدرتي على متابعة تبايناتها السريعة. عندما تطلعت إليها بنظرة شاملة، أحسست لثوانٍ أنه يمكن أن ألم بكل ذلك من خلال صورة كلية متكاملة؛ إلا أن التركيز الإرادي وربط مفهوم منفصل مستقل بمفهوم آخر لم يؤديا إلا إلى إدراك سلسلة من الصور المنفصلة التي لا يربطها رابط، ومن مشكلة العجز عن الفهم والإحاطة، والتشتت الذهني الغريب المقلق، تولدت فكرة سطعت في ذهني بوضوح شديد، أو هكذا بدت لي في ذلك الوقت، قلت بطريقة لا إرادية معبراً عن الفكرة التي راودتني: «من يتمكن من الإلمام بكل تلك المتغيرات السريعة بحواسه سيكون بإمكانه السيطرة على قدره ومصيره».

رد الأب فيليكس: «أعرف ما تعنيه، ولكن لماذا يرغب البشر في السيطرة على أقدارهم للنجاة من المعاناة؟ ألا يكون من الأفضل أن يتحرر البشر من أقدارهم»؟!
قلت: «أنت تتكلم تقريباً مثل بوذي يا أب فيليكس. هل ترى أيضاً أن السعادة المطلقة (النيرڤانا) هي هدف الوجود؟»

رد قائلاً: «أوه، كلا، بالتأكيد لا أعني ذلك... نحن ـ المسيحيين ـ لا نسعى لإخماد الحياة والمشاعر، نحن نسعى فقط إلى السمو بالحياة فوق مستوى المادة والحس إلى مملكة الروح».
سألته: «ألا يعد ما تذكره نوعاً من إلغاء الذات والوجود والحياة لحساب الروح؟!»

رد قائلاً: «لا، ليس كذلك يا صديقي الشاب، فما أذكره هو السبيل الوحيد للحياة الحق، للسلام...».

فجأة ظهر أمامنا مضيق البوسفور، بدا طريقاً مائياً واسعاً تحفه من جانبيه أمواج يتصاعد منها زبد أبيض من ارتطامها بالتلال الصخرية على جانبيه. تناثرت على التلال الصخرية قصور عالية شغلت جانباً من سماء ضفتي المضيق، من بينها حدائق بدت كشرفات تطل على المياه، وقلاع عثمانية قديمة بدت وكأنها كتل صخرية ضخمة معلقة على حافة الماء مثل أعشاش طيور جارحة.

سمعت صوت الأب فيليكس يتابع حديثه وكأنه آتٍ من مسافة بعيدة: «أنت تعرف أن أعمق رموز الطموح البشري هو رمز الجنة؛ ستجده في كل الديانات في صور تخيلية مختلفة، إلا أن المعنى هو ذاته، وهو، تحديداً، الرغبة في التحرر من القدر والمصير. البشر في الجنة بلا مصير؛ لقد استسلموا لإغراء البدن، وسقطوا فيما نسميه الخطيئة الأولى، إثم الروح أمام متطلبات البدن المتدنية التي تعد بقايا حيوانية في الطبيعة البشرية. أما الجوهر البشري، أي الجانب الإلهي المقدس، فهو الروح فقط. الروح تجاهد ساعية إلى النور، النور هو الروح القدس، ولكن بسبب الخطيئة الأولى فإن طريق الروح إلى النور مملوء بالعثرات المادية، وهي الجانب غير المقدس - البدن - واحتياجاته ورغباته وغرائزه. ما تهدف إليه التعاليم المسيحية، أن يحرر البشر أنفسهم من تلك المتطلبات الزائلة الشهوانية الفانية، وأن يعودوا إلى ميراثهم الروحي الذي أخذوه من الرب».

ظهرت على حافة الصخور العالية في تلك اللحظة قلعة «روميلي حصار» العثمانية الشهيرة ذات البرجين؛ كان أحد جوانبها الصخرية ينزل ممتداً حتى حافة المياه، وعلى الشاطئ، في شبه الدائرة التي تكونها جدران القلعة، كانت هناك مقبرة تركية صغيرة بشواهد حجرية محطمة.

قلت: قد يكون الأمر كذلك يا أب فيليكس، إلا أنني أشعر - وهو الشعور ذاته لدى أعداد كبيرة من أبناء جيلي - أن هناك خطأ ما في الفصل بين ما هو «جوهري» وما هو «غير جوهري»، أي الفصل بين الروح والجسد... باختصار لا أوافقك على إنكارك لأهمية الاحتياجات الجسدية الفيزيولوجية أو الغريزية، أو المصير المرتبط بالأرض والاحتياجات الدنيوية. ما أومن به، وما أرغب فيه يسعيان في اتجاه مختلف، فأنا أحلم بشكل للحياة، وأصارحك أنني لا أعرف ملامح هذا الشكل بوضوح - في ذلك الشكل من الحياة تجاهد الروح والبدن، لتحقيق عميق للذات، في ذلك النوع من الحياة الذي أنشده لا تغدو الروح عدوة للبدن، وليسا متناقضتين في مسعاهما، وبذلك يمكن للإنسان أن يحقق التوحد بين ذاته، وقدره، حتى يمكنه أن يقول عند وصوله إلى تلك القمة: «أنا هو قدري، وقدري هو أنا».

رد الأب فيليكس: «لقد كان ذلك هو الحلم الإغريقي، فإلى أين قاد البشر ذلك الحلم؟ قادهم إلى ألغاز أورفيوس وديونيس، ثم إلى فلسفة أفلاطون وبلوتينوس، وهكذا، حتى عاد بهم من جديد إلى يقين حتمي بتناقض الروح والجسد في مسعاهما.. إن الخلاص المسيحي يسعى إلى تحرير الروح من هيمنة الجسد، وهو معنى نستمده من إيماننا بتضحية المسيح بذاته على الصليب...» وهنا توقف بغتة عن مواصلة حديثه، والتفت إليّ وهو يغمز قائلاً: «أنا لست على الدوام من المبشرين... سامحني إن كنت قد تحدثت إليك بمعتقداتي وإيماني، التي تختلف عن معتقدك وإيمانك...».

قلت له مخففاً عنه الحرج الذي أحس به: «لا عليك، أنا بلا إيمان» رد الأب فيليكس: بلى، أعرف ذلك؛ نقص الإيمان، أو بمعنى أدق، عدم القدرة على الإيمان، تلك هي العلة في عصرنا الحالي، أو المرض المتفشي، إنك، مثل آخرين كثيرين، تعيشون على وهم عمره آلاف السنين، وهو أن الذكاء وحده يمكن أن يقود الإنسان في جهاده، إلا أن الذكاء لا يمكن أن يقود الإنسان إلى معرفة الروح، فالذات غارقة في تحقيق أهدافها المادية الدنيوية، الإيمان، الإيمان وحده هو الذي يمكن أن ينتشلنا من ذلك الغرق والاستغراق اللاهث وراء متطلبات البدن».

سألته: «الإيمان؟ أنت من جديد تذكر الكلمة على لسانك، هناك شيء لا أفهمه: لقد قلت: إن العقل لا يمكن أن يصل وحده إلى اليقين، وإلى الحياة الحق؛ وأن هناك حاجة إلى الإيمان بجانب العقل كما ذكرت، وأنا أوافقك تماماً على ذلك. ولكن كيف يمكن للمرء أن يتوصل إلى الإيمان إن لم يكن لديه إيمان؟ هل هناك وسيلة لتحقيق ذلك؛ أعني معرفة طريق إرادتنا؟

رد الأب فيليكس: «ياصديقي العزيز، الإرادة وحدها لا تكفي، الطريق متاح فقط برحمة الربّ. إلا أنه لا يتاح إلا لمن يصلي بقلبه ومن أعماقه حتى ينير الرب طريقه».

قلت سائلاً: «يصلي! ولكن حين يكون المرء قادراً على ذلك يا أب فيليكس فإنه

يكون لديه إيمان أصلاً، إنك تدور بي في حلقة مفرغة؛ لأنه إذا كان المرء يصلي، لا بد أن يكون مقتنعاً أولاً بوجود الإله الذي يصلي له، كيف وصل إلى هذا الاقتناع؟ هل من خلال عقله؟ ألا يشير ذلك إلى أنه يمكن الوصول إلى الإيمان من خلال العقل؟ وغير ذلك، هل تعني «الرحمة» أي شيء لمن يمر بتجربة إيمانية من هذا النوع؟».

هز القس كتفيه بأسف، بدا وكأنه يريد أن يقول: «إذا لم يكن المرء قادراً على معرفة الرب بنفسه، فمن الأفضل أن يترك نفسه لينقاد إلى تجارب الآخرين الذين يعرفون الربّ بقلوبهم».

* * *

رسونا في الإسكندرية بعد عدة أيام أخرى، وفي مساء اليوم نفسه كنت متوجهاً إلى فلسطين، انطلق القطار بنا من الإسكندرية في عصر ذلك اليوم عبر أرض دلتا النيل المنبسطة. عبرنا قنوات مائية كثيرة متفرعة من النيل تعلو صفحة مياهها مراكب شراعية. كانت المدن الصغيرة تظهر وتختفي، وتجمعات من منازل طينية لقرى صغيرة ذات مآذن منخفضة. وحقول قطن، وقصب السكر؛ وأشجار نخيل شاهقة؛ وقطعان جاموس أسود تعود وحدها بلا راع من البرك الطينية التي كانت تتمرغ بها طوال اليوم. على مسافات كان يظهر رجال في ثياب طويلة: بدوا كأنهم محلقون، كان الهواء خفيفاً ونظيفاً تحت سماء صافية زرقاء كالزجاج الشفاف. على ضفاف القنوات كانت نباتات البوص تتمايل في رشاقة تحت وقع النسيم، ونساء بملابس سوداء فضفاضة يملأن جراراً فخارية بالمياه: كان مشهدهن رائعاً، كن نحيفات طويلات؛ ذكرني مشيهن بأشجار طويلة السيقان تتمايل في طراوة إلا أنها شديدة في مواجهة الرياح. كانت للشابات الصغيرات منهن والنساء الخطوات نفسها: رشيقة وخفيفة الوقع. زادت العتمة وناءت بثقلها كتنفس كائن عملاق يهجع إلى الراحة. الرجال نحيفو القامة بوجه عام، يسيرون في جماعات عائدين من الحقول، بدت حركتهم متثاقلة، وتختفي بالتدريج مع اختفاء نور النهار: كانت كل خطوة تبدو ذات وجود مستقل بذاته، كل خطوة مكتملة بذاتها: بين دهر ودهر هناك تلك الخطوة. ربما كان إحساسي بالخفة

والنعومة راجعاً إلى أضواء الغروب المبهجة في أراضي دلتا النيل. وربما كان راجعاً إلى رؤية تلك المشاهد الجديدة عليّ - ولكن مهما يكن السبب، فقد شعرت فجأة في داخلي بكل وطأة أوروبا وثقلها: وطأة الهدف الإرادي في كل ما نفعله. فكرت: «ما أصعب اقترابنا من الواقع!. نحاول الإمساك به، ولكنه يستعصي على الإمساك، وحين يقهر الإنسان يجد نفسه منصاعاً إلى الاستسلام له!».

كانت خطوات الفلاحين المصريين قد اختفت شيئاً فشيئاً بين الظلام الذي كان يتزايد، مازالت تتأرجح في ذهني مثل ترنيمة لكل ما هو سامٍ رفيع.

وصلنا قناة السويس فاستدار بنا القطار بزاوية قائمة وواصلنا سيرنا فترة باتجاه الشمال بمحاذاة ضفة القناة التي بدت رمادية قاتمة. كانت القناة تبدو كنغمة مختلفة ممتدة تحت ضوء الليل الشحيح.

أحال ضوء القمر القناة إلى واقع كالحلم، بدت صفحة المياه مثل طريق واسع عريض، كشريط صاف لمعدن لامع، تحول المشهد بسرعة مدهشة من أرض خصبة خضراء بوادي النيل إلى سلاسل من كثبان رملية أحاطت بالقناة على جانبيها فبدت باهتة في مواضع وحادة وبارزة في مواضع أخرى.

بدت في السكون المخيم هياكل رافعات الرمال العملاقة من قاع القناة، ومن خلفها على الضفة الأخرى، ظهر شبح رجل يركب جملاً، ويحث السير في الظلام، لمحته بصعوبة، ثم اختفى في أعماق الظلام..

ما أعظمه من ممر مائي يتسم بالبساطة! يمتد من البحر الأحمر، إلى البحيرات المرة، ثم عبر الصحراء إلى البحر المتوسط، ممر جعل خفقات المحيط الهندي تصل إلى أرصفة موانئ أوروبا!.

توقفت الرحلة في مدينة القنطرة، وعبر الركاب القناة في صندل بحري. كان قطار فلسطين سيبدأ رحلته بعد ساعة. جلست أمام محطة القطار. كان الهواء رقيقاً،

والجو دافئاً وجافاً، والصحراء ممتدة إلى اليمين واليسار. انتشر دخان في الهواء، ومن آن إلى آخر كنت أسمع عواء، ربما كانت ذئاباً أو كلاباً. نزل بدوي من العبّارة وهو يحمل حملاً ثقيلاً من أخراج الجمال المصنوعة من أقمشة ملونة، سار باتجاه مجموعة تقف على مبعدة وبجوارهم مجموعة جاثمة من الجمال المرحولة والجاهزة للرحيل، كانوا ينتظرون، فقد ألقى بحمولته الثقيلة على ظهر أحد الجمال، وتبادل حديثاً سريعاً مع من كانوا ينتظرونه، وركبوا الجمال التي نهضت أولاً على قوائمها الخلفية، ثم انتصبت على قوائمها الأمامية، فمال الراكبون إلى الأمام بحدة ثم إلى الخلف، ثم انطلقوا وأقدام الجمال تبعث أصواتاً ناعمة من خطوها على الرمال، لحظات كان يمكن أن تتبع الألوان المتباينة للجمال المتأرجحة في عددها والملابس الفضفاضة للبدو ذات الخطوط البنية والبيضاء. تقدم باتجاهي عامل من عمال السكة الحديدية، كان يرتدي سروال العمال الأزرق ويبدو أن به عرجاً. أشعل لفافته من لفافتي، وسألني بلغة فرنسية ركيكة: «أنت ذاهب إلى القدس؟» وحين أجبته بالإيجاب، استطرد سائلاً: «أول مرة؟» هززت رأسي مرة أخرى، كان على وشك الاستمرار في الحديث إلا أنه استدار قائلاً: «هل رأيت القافلة القادمة من صحراء سيناء؟ لا، إذاً تعال معي لتراهم. مازال أمامك وقت».

سرنا في فراغ صامت صاعدين درباً ممهداً باتجاه التلال الرملية. نبح كلب في الظلام. وبينما كنا ماضين في طريقنا، نتعثر في النباتات الشوكية، وصلت إلى مسامعنا أصوات مشوشة ومتداخلة لكثير من الناس، واختلطت روائح حادة لحيوانات بهواء الصحراء الجاف. فجأة، ظهر شعاع ضوء ضيق من أسفل التل كأنه صادر من أعماق الأرض، ويرتفع تدريجياً كلما هبطنا منحدر التل، كان ضوء نار عظيمة مشتعلة في وادٍ ضيق بين تلين رمليين، والوادي مغطى بأشجار شوكية كثيفة حتى إنه يصعب أن ترى أرضه. تبينت بوضوح أصوات رجال يتكلمون، وسمعت أصوات تنفس الجمال، ظهر فجأة شبح رجل أمام النيران، كان يركض حتى منحدر التل، ثم يعود من جديد. بعد أن تقدمت خطوات أخرى، تبينت ما يحدث بوضوح، كانت هناك دائرة واسعة من الجمال الباركة وكوم عظيم من رحالها وأخراجها المتناثرة هنا وهناك؛ وبينهم أشباح الرجال. كانت رائحة

الحيوانات شديدة. أحياناً ما يحرك جمل جسمه فيتغير شكل شبحه في الظلام، ويرفع عنقه ويمده في الظلام مع صوت شخير، وكأنه يتنهد: هكذا سمعت أول مرة تنهدات الجمال. ثغت بعض الماعز بنعومة؛ ونبح كلب؛ أما خارج ذلك الوادي فقد كان الوجود مظلماً بلا نجمة واحدة في السماء.

كان الوقت قد حان، فعدت أدراجي إلى محطة القطار، سرت ببطء شديد في الممر الذي قدمت منه مندهشاً ومهتزاً من أعماقي، تجربة غامضة سكنت جانباً من قلبي، ولن تبرحه بعد ذلك أبداً.

* * *

سار القطار عبر صحراء سيناء. كنت مجهداً، إلا أن النوم جافاني من شدة برودة الصحراء واهتزازات القطار العنيفة الذي يمضي على قضبان ممدودة على رمال ناعمة غير متماسكة. جلس أمامي رجل بدوي في عباءة بنية فضفاضة، وكان هو الآخر يعاني شدة البرد فلف وجهه بغطاء رأسه. كان جالساً متربعاً، وعلى ركبتيه أراح سيفه المنحني ذا الغمد المزين بنقوش فضية. كان الوقت يقترب من الصباح، ويمكن تمييز الأشكال الخارجية لتلال الرمال، وتجمعات نباتات الصبار.

ما زلت أتذكر كيف انبثق نور الفجر رمادياً، أزاح بعض العتمة، حدد الأشكال وراح ببطء يرسم خطوطها الخارجية، ويدفع بالتدريج تلال الرمال التي كانت غارقة في الظلام إلى عالم المرئيات، ظهر تجمع من الخيام واندفع مسرعاً إلى الخلف. كان بقرب الخيام شباك صيد منشورة بين أعمدة لتجف، وكانت تتطاير مثل ستائر الضباب: شباك صيد في الصحراء – تتطاير مع هبوب رياح الصباح، مثل حجب الأحلام، شفافة، في لاواقعية الحلم، بين حلكة الظلام ونور النهار.

امتدت الصحراء إلى اليمين، وامتد البحر إلى اليسار. على الساحل كان راكب جمل يمضي وحده متهادياً، من الواضح أنه كان راكباً طوال الليل، فقد كان مستغرقاً في النوم على رحل الجمل، وكلاهما يهتز في حركة متناغمة: الرجل والجمل. ظهرت من جديد خيام بدوية سوداء، ونساء بدويات خارج الخيام يحملن جراراً

فخارية على رؤوسهن، في طريقهن لجلب الماء. من بين طيات نصف الضوء الذي راح يتزايد إلى ضوء، انبثق عالم شفاف وواضح، يتحرك بنبضات غير مرئية، معجزة على بساطتها إلا أنها لا تنتهي.

انسكب ضوء الشمس على الرمال بقوة متزايدة، وتحول نور الفجر الرمادي إلى لون ذهبي أحمر ناري. اخترقنا واحات العريش، وبدا نخيلها كأنه أعمدة كاتدرائيات ضخمة مشيدة من نخيل بسعفها المقوس.. لوحة تشكيلية رائعة من اللونين البني والأخضر، من النور والظل. كانت هناك امرأة تحمل جرة على رأسها تسير تحت النخيل، وتصعد أحد المنحدرات البسيطة، ترتدي عباءة طويلة ملونة بالأحمر والأزرق، بدت كأنها خارجة من ثنايا أسطورية.

اختفت تجمعات نخيل العريش بسرعة، كما ظهرت.. دخلنا في منطقة نورها كنور المحار والأصداف، وكان السكون يخيم خارج القطار، ولم أجد مثيلاً له في أي مكان زرته. كل الأشكال والمرئيات كانت خارج نطاق الأمس والغد - أشكال متفردة تدير الرؤوس، رمال ناعمة حولتها الرياح إلى آكام رخوة تومض بألوان برتقالية باهتة تحت أشعة الشمس الوليدة، مثل مخطوطات نفيسة قديمة، رقيقة، متماسكة، تنحني حافة أسطحها انحناءات حادة صارمة، وتهبط في رقة على جوانبها، بظلال ألوان مائية شفافة - أرجواني ليلكي وقرمزي قاتم في التجاويف السطحية والفراغات البنية، وسحب متلألئة، وتجمعات نباتات صبار متناثرة هنا وهناك، وأعشاب خشنة سميكة في مناطق أخرى. بدوٌ حفاة، وقافلة جمالٍ محملة بسعف نخيل آتية من مكان وماضية إلى مكان لا أعرفه. كنت مأخوذاً ومشدوهاً بالصحراء الواسعة.

توقفنا عدة مرات في محطات صغيرة، كل ما فيها لا يزيد على بضعة أكواخ مشيدة من الأخشاب وألواح الصفيح، وأولاد يلبسون أسمالاً بالية ممزقة يتجولون داخل القطار وخارجه يبيعون ثمار التين، والبيض المسلوق، وأرغفة خبز رقيقة طازجة. نهض البدوي الذي كان جالساً أمامي ببطء، وأزاح غطاء رأسه عن وجهه، وفتح نافذة القطار المجاورة له، كان وجهه نحيلاً أدكن حاد الملامح،

يشبه وجوه الصقور الحادة. اشترى فطيرة، ثم همَّ بالجلوس، وعندما وقعت عيناه عليّ، شطر الفطيرة نصفين، وقدّم لي نصفها دون أن ينطق بكلمة، حين لاحظ ترددي ودهشتي، ابتسم - لاحظت أن ابتسامته تليق بوجهه كما كانت لائقة عليه النظرات الصقرية الحادة - قال كلمة لم أفهم معناها في ذلك الوقت، ولكنني أعرف الآن أنها كانت «تفضَّلْ». أخذت نصف الفطيرة، وهززت رأسي شاكراً. مسافر آخر يرتدي ملابس أوروبية وطربوشاً أحمر - تدخل مترجماً: وبإنجليزية متعثرة قال: «يقول لك: أنت على سفر، وهو على سفر، وطريقكما واحد».

وعندما أفكر الآن في ذلك الحدث الصغير، يتبين لي أن كل الحب الذي أحببته للشخصية العربية بعد ذلك، لابد أنه قد تأثر تأثراً كبيراً بتلك الواقعة الصغيرة. كان لتلك اللفتة الكريمة من ذلك البدوي الذي شعر بالصداقة تجاه مسافر معه بالمصادفة على الرغم من حواجز اختلاف الأجناس، واقتسم معه خبزه، مما أشعرني بأنفاس الإنسانية الحرة الخالية من أي عاهات وعلل نفسية بشرية.

وصلنا إلى غزة القديمة بعد فترة قصيرة، كانت قلعة طينية تحيا حياتها المنسية على تل رملي بين نباتات صبار كثيفة، جمع رفيقي البدوي أكياسه وحيّاني بابتسامة أسى وهزة من رأسه، وغادر عربة القطار، مثيراً الغبار من خلفه بردائه الطويل الفضفاض الذي كان يكنس الأرض. كان هناك بدويان آخران يقفان على رصيف المحطة صافحاه، وقبلاه على خدّه.

وضع التاجر الذي يتحدث إنجليزية ركيكة كفه على ذراعي قائلاً: «هيا ننزل، أمامنا ربع ساعة قبل أن يسير القطار من جديد».

كانت هناك قافلة من الجمال الباركة خلف مبنى المحطة، كانت القافلة كما أخبرني مرافقي لبدو من شمال الحجاز، كانت لهم وجوه دكناء متربة عفوية ودودة. كان مرافقي البدوي بالقطار قد انضم إليهم، وبدا لي أنه شخصية مرموقة بين قومه، فقد تجمع حوله أفراد القافلة في دائرة عفوية يتحدثون معه. تحدث إليهم التاجر فاستداروا إلينا في مودة - فيما أحسستُ ببعض التكبر والتعالي،

إحساساً مني بتحضري عنهم. أحاطهم جوّ من الحرية، وراودتني رغبة عارمة في فهم حياتهم والإحاطة بها. كان الجو جافاً كأنه يخترق البدن، وأذاب تكبري ومشاعر التعالي الأولى، كانت هناك حالة من انعدام الإحساس بالزمن مما جعل كل المرئيات والموجودات والأصوات والروائح تكتسب قيماً خاصة بها. بدأت تشرق في ذهني فكرة أن من يحيون في الصحراء يستجيبون للحياة ويستشعرونها، ويتجاوبون معها بطريقة مغايرة تماماً، لأي بشر يحيون في مناطق أخرى؛ خمنت أنهم متحررون من أي مخاوف - وربما أيضاً من أي أحلام - يتصف بها سكان المناطق الباردة الغنية؛ ومتحررون بالتأكيد من عوائق ومحدوديات كثيرة؛ فهم يعتمدون بشكل أكبر على إدراكهم الخاص؛ واستقروا على نسق من القيم مغايرة لأي أنساق أخرى.

قد يكون إحساسي المسبق بالتغير والتحول الذي سيقع لحياتي القادمة هو الذي جعل مشهد البدو يأسرني. كان إحساساً بعالم تخلص من كل محدودية البشر وشوائبهم، وكان له أنساق تجعله متماسكاً من داخله، ومنفتحاً على الخارج في الآن نفسه: عالم يوشك أن يصبح عالمي أنا أيضاً.

لم أكن أعي بالطبع ما يخفيه المستقبل ويقدره لي، كان إحساسي يشبه إحساس من يدخل منزلاً غريباً عليه أول مرة، ويجد رائحة في مدخله، لا يستطيع تحديدها إلا أنها تخلق لديه إحساساً داخلياً بأحداث ستقع فيه، وستقع له أيضاً: وأنها إن كانت مبهجة، تبعث الجذل والنشوة في نفسك وقلبك - وتتذكر تلك اللحظة بعد ذلك بزمن طويل، حين تتحقق كل الأحداث التي أحسست بها دون تحديد، حينها تقول لنفسك: «أحسست بذلك منذ زمن طويل مضى، في اللحظات الأولى لدخولي البيت، عند مدخله».

(٢)

هبت دفقة من الرياح القوية، وهلة، اعتقد زيد أننا مقبلون على عاصفة رملية أخرى، لم تتحول الرياح إلى عاصفة إلا أن حدتها لم تخف، تتابعت هباتها القوية، ثم تجمعت، وتلاشى الفاصل الزمني بينها لتصبح ريحاً متواصلة حين كنا نهبط

إلى وادٍ رملي. كانت واحة من أشجار النخيل محتجبة وسط الوادي وراء ساتر ملأ الجو بدوامات الرمال التي تذروها الرياح، كانت الواحة مكونة من بيوت منفصلة يحيط كلاً منها سور من الطين.

كانت تلك المنطقة نوعاً من مناطق تجاويف الرياح: ففي كل يوم من مشرق الشمس حتى مغربها تظل الرياح تضرب ذلك الوادي الرملي بأجنحة قوية لا تكل، ثم تهدأ في الليل، وتهب في الصباح التالي كما كانت في اليوم السابق؛ لذا كانت أشجار النخيل لا تنمو أبداً إلى أطوالها الطبيعية تحت وطأة تلك الرياح الدائمة وتظل فروعها قريبة من سطح الرمال، وسعفها عريض ممتد، إلا أن النخيل في تلك الواحة مهدد بالدفن تحت الكثبان الرملية، بل إن الواحة جميعها مهددة بالدفن تحت الكثبان لو لم يقم أصحابها بزراعة أسيجة من أشجار الطرفاء، حول مواضع النخيل والبيوت، وأشجار الطرفاء طويلة السيقان وأشد مقاومة للكثبان الرملية، بجذورها القوية وفروعها اليانعة الخضراء على الدوام، يتكون حائط حي حول النخيل والمزروعات الأخرى، يقدم لها حماية غير آمنة.

ترجلنا وحططنا رحالنا أمام منزل أمير القرية، نوينا أن نستريح في ذلك الموضع لاتقاء قيظ الظهيرة، كان مكان صنع قهوة الغرباء والضيوف بسيطاً وغير مفروش يدل على فقر الواحة وأمامه وسادة من قش لجلوس الضيوف أمام موقد النار. ولكن، وكالمعتاد، فاق الكرم العربي أي فقر وتغلب عليه: مجرد أن جلسنا على وسادة القش، كانت النيران تئز في موقد القهوة؛ كما بعث رنين هاون طحن حبوب القهوة المحمصة روحاً من الحياة في المكان الصامت؛ ووضعت أمامنا قصعة عظيمة فيها كمٌّ كبير من التمر لسد جوع الضيوف المرتحلين.

دعانا مضيفنا - وهو رجل عجوز ضئيل الحجم له عين دامعة حولاء، يرتدي رداءً قطنياً بسيطاً وغطاء رأس - لنتناول وجبتنا قائلاً:

«عافاكم الله؛ والبيت بيتكم، كلوا باسم الله، هذا كل ما لدينا» - وأشار بيده إشارة

اعتذار، حركة بسيطة عفوية عبرت بصدق وبساطة عن رضاه بنصيبه من الحياة، نوع من التعبير الطبيعي الذي يميز من يحيون بالفطرة النقية، وأردف قائلاً: «لكن التمر ليس رديئاً، كلوا مما نستطيع أن نقدمه لكم».

كان التمر من أفضل الأنواع التي ذقتها في حياتي؛ وسعد مضيفنا حين رآنا مقبلين بشهية على تناول تمره، بدأ يحدثنا من جديد: «الرياح، الرياح تجعل حياتنا شاقة؛ إلا أنها إرادة الله. الرياح تدمر زراعاتنا. لم تكن الحال كذلك من قبل، وفي الأزمنة السابقة لم تكن هناك رياح كثيرة في هذه المنطقة، وكانت الواحة كبيرة وغنية، الآن تضاءلت؛ هجرها كثير من الشباب، مثل تلك الحياة القاسية لا يحتملها أي فرد. الرمال تحاصرنا وتزحف علينا يوماً بعد يوم. في القريب لن يبقى مكان للنخيل، إلا أننا لا نشكو كما تعرفون، فقد قال الرسول - ﷺ -: «قال الله في حديث قدسي: لا تلعنوا الدهر، فأنا الدهر...»[1].

لابد أنني بدأت بالكلام، فقد قطع الرجل العجوز حديثه، ونظر إليّ بانتباه وتركيز؛ وكأنه أدرك ما حدث، ابتسم ابتسامة أقرب لابتسامة النساء، وبدت غريبة على وجهه النحيل الجاف، ثم كرر بعذوبة كما لو كان يتحدث إلى نفسه: «فإن الله هو الدهر». كان في إيماءة رأسه التي صاحبت قوله فخار وتيه وقبول ورضا بما وهبه له الله، ولم أر قط حتى عند المحظوظين من الناس، وأكثرهم قبولاً بالواقع ورضا به مثل قبول ذلك العجوز، وبإشارة مبهمة غامضة من ذراعه التي رسمت دائرة في الفراغ - دائرة احتوت على كل شيء في حياته: الفقر، الجدران الدكناء المتهالكة، الرياح وأزيزها الدائم، زحف الرمال؛ التوق إلى السعادة، التسليم بما يفوق القدرة عليه ولا يمكن تغييره؛ القصعة المملوءة بالتمر، أشجار النخيل خلف أسوار أشجار الطرفاء؛ النار الموقدة، ضحكة فتاة شابة بالفناء الخلفي للدار: كل تلك الأشياء وحركة يده التي أحاطت بما يراه وما

---

١- ونص الحديث: عن أبي هريرة قال: قال رسول الله (ﷺ): «قال الله تعالى يؤذيني ابن آدم يسب الدهر، وأنا الدهر، بيدي الأمر، أقلّب الليل والنهار». رواه البخاري في كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: «يريدون أن يبدلوا كلام الله» ج٨/١٩٧، ومسلم في كتاب الألفاظ، باب النهي عن سب الدهر ج٤/١٧٦٣ رقم ٢٢٤٦ وأحمد في المسند ٢/ ٢٣٨ و ٢٧٢ .

لا يراه، كنت كمن يستمع إلى غناء روحي عميق لا يعرف العجز أمام المصاعب والحوائل ويغمره سلام النفس التي أسلمت نفسها للّه.

عاد بي ما أراه إلى زمن قديم مضى، إلى يوم خريفي بالقدس من عشرة أعوام مضت، حين حدثني رجل عجوز آخر عن التسليم للّه، كطريق وحيد يحقق به المرء صلة وثيقة باللّه، ومن ثم مع مصيره وقدره.

في خريف سنة ١٣٤٠ (١٩٢٢م) كنت أعيش مع خالي دوريان في منزله بمدينة القدس القديمة، وكانت الأمطار تهطل كل يوم تقريباً، وكنت أجلس بجوار نافذة تطل على فناء واسع خلف المنزل يملكه رجل عجوز عربي يطلقون عليه الحاج لأنه حج إلى مكّة المكرّمة؛ وكان يؤجر حميراً للركوب ولحمل البضائع، وكان الفناء والزريبة الملحقة به يشبهان نوعاً من الخان أو النُزل.

كانت أحمال الخضراوات والفواكه تصل كل يوم قبل الفجر محملة على الجمال من القرى المحيطة بالمدينة، ثم تجزأ وترسل على الحمير إلى محلات البيع المنتشرة في حارات القدس القديمة الضيقة. في ضوء النهار ترى الجمال وهي باركة تستريح في الفناء الخلفي؛ ولا يكف الرجال الذين يعتنون بها عن الصياح، إلا إذا أرغمتهم شدة الأمطار على الاحتماء بالزريبة. كان سائسو الجمال والحمير رجالاً فقراء يرتدون أسمالاً بالية، إلا أنهم كانوا يسلكون مسلك النبلاء حين يجلسون معاً على الأرض لتناول وجبة طعام من خبز القمح الرقيق مع قطعة جبن أو حبات من الزيتون، لم يسعني إلا الإعجاب بنبلهم وببساطتهم وهدوئهم النفسي العميق. كان الحاج يعرج في سيره ويستعين بعكاز - كان يعاني التهاب المفاصل، وركبتاه متورمتان - وكان بمنزلة الزعيم بينهم، فقد كانوا يطيعونه بلا نقاش. كان يجمعهم عدة مرات كل يوم للصلاة، وإذا لم تكن الأمطار غزيرة، كانوا يصلون في الساحة المكشوفة: ينتظم الرجال في صف واحد طويل ويقف هو أمامهم إماماً لهم. بدوا في نظري مثل جنود في تكامل حركتهم وتوحدها - كلهم ينحنون في اتجاه مكّة المكرّمة، ثم ينتصبون، ثم يسجدون ويلمسون الأرض بجباههم، مقتدين بإمامهم، الذي كان يقف بين السجدة والسجدة حافي القدمين

على سجادة صلاته، مغمض العينين وكفاه على ركبتيه، يحرك شفتيه بلا صوت، ويبدو عليه الاستغراق التام فيما يفعل: كان يصلي بكل جوارحه.

أصابتني الحيرة حين شاهدت صلاة تتضمن حركات آلية للبدن، فسألت الحاج ذات يوم - وكان يفهم بعض اللغة الإنجليزية -: «هل تعتقد حقاً أن اللّه ينتظر منك أن تظهر له إيمانك بتكرار الركوع والسجود؟ ألا يكون من الأفضل أن تنظر إلى داخلك وتصلي إلى ربك بقلبك وأنت ساكن؟ لماذا كل هذه الحركات بالجسد؟».

بمجرد أن انتهيت من تساؤلاتي أحسست بالندم، فقد أكون قد جرحت مشاعر الرجل الدينية، إلا أنه لم يبد على الحاج أي أثر لإهانة أو جرح، ابتسم كاشفاً عن فم يخلو من الأسنان ورد قائلاً:

«بأي وسيلة أخرى تعتقد أننا يمكن أن نعبد اللّه؟ ألم يخلق لنا الروح والجسد معاً؟ وبما أنه خلقنا جسداً وروحاً، ألا يجب علينا أن نصلي بالجسد والروح؟ اسمع، سأخبرك لماذا نصلي نحن المسلمين بهذه الطريقة. نتوجه إلى الكعبة، وهي أول بيت للّه في الأرض، ونعلم أن وجوه كل المسلمين في أي موضع كانوا من الأرض تتوجه إليه في أثناء الصلاة، فنشعر أننا جسد واحد، نتوجه إلى مركز واحد بفكرنا ووجداننا. نبدأ أولاً بالوقوف منتصبين، ونتلو بعض آيات القرآن الكريم؛ واضعين نصب أعيننا أنها كلام اللّه، أنزل للبشر لهدايتهم ونفعهم في الحياة الدنيا، ثم نقول «اللّه أكبر» مذكرين أنفسنا أنه لا يوجد من يستحق العبادة غير اللّه وحده؛ ثم نركع أمامه لأننا نجلّه فوق كل شيء، ونسبّح بعظمته وقدرته. ثم نسجد على الأرض وجباهنا على أديمها حتى نشعر أننا لسنا إلا تراباً، وأننا لا شيء أمامه وأنه خالقنا والحافظ لنا، ثم نرفع وجوهنا ونجلس، وندعوه أن يغفر لنا وأن ينزل رحمته وسكينته علينا، وأن يهدينا الصراط المستقيم وأن يهبنا الصحة والرزق، ثم نسجد من جديد على الأرض ونمس الأرض بجباهنا اعترافاً بعظمته وقدرته، ثم نجلس وندعوه أن يصلي على النبي محمد - ﷺ - الذي نقل رسالة اللّه إلينا، كما ندعوه أن يصلي على الأنبياء الذين سبقوا محمداً - ﷺ -؛ وأن يباركنا ويبارك كل من اهتدى بهديه؛ ثم ندعوه أن يرزقنا من خير الدنيا وحسناتها وأن يهبنا

حسنات الآخرة، ثم نختم صلاتنا بأن ندير رؤوسنا إلى اليمين ثم إلى اليسار، قائلين في كل اتجاه، السلام عليكم ورحمة الله ـ وهكذا نحيي كل من اتبعوا الحق، أينما كانوا. هكذا صلى نبينا عليه الصلاة والسلام، وهكذا علّم من آمنوا كيف يصلون في كل عصر وفي كل آن، فهم يسلمون أرواحهم وأبدانهم للّه ـ وذلك هو ما يعنيه الإسلام ـ فيكون البشر في علاقة سلام مع اللّه ومع ما قدّره لهم».

لم يستخدم الرجل العجوز الكلمات التي ذكرتها حرفياً، إلا أن ما ذكرته كان معناها، وهي المعاني التي تذكرتها من حديثه. أيقنت بعد ذلك بسنوات أن ذلك الشرح البسيط من الحاج قد فتح لي أول باب للإسلام؛ ولكن في ذلك الوقت، بدأت أشعر بتواضع لم آلفه من قبل كلما رأيت ـ وكنت أرى ذلك كثيراً ـ رجلاً يقف حافي القدمين على سجادة صلاته، أو على بعض القش، أو على أرض فضاء، وذراعاه معقودتان على صدره، ورأسه منحنٍ في خشوع، مستغرقاً بكل حواسه، غائباً عما يدور حوله، سواء كان في مسجد أو في رصيف جانبي لشارع مزدحم: رجل في سلام مع ذاته.

* * *

كان المنزل العربي المشيد من الحجر مبهجاً بالفعل كما ذكر لي خالي دوريان في رسالته. كان ينهض على حافة المدينة القديمة بالقرب من باب يافا، توحي غرفه الواسعة بأسقفها العالية أنها مترعة بذكريات حياة نبلاء كثيرين مروا عليها في عصور سابقة، وتجاوبت الجدران بصدى الحاضر الحي الذي يسري إليها من المحلات التجارية المجاورة ـ مشاهد وأصوات وروائح لم أعايشها أبداً من قبل.

كنت أرى مشارف المدينة القديمة من شرفة السطح، وأرى شبكة شوارعها المتعرجة وحاراتها المنحوتة في الصخر. على الجانب الآخر، وفي ساحتها الواسعة، يظهر الموضع الذي كان فيه هيكل سليمان؛ والمسجد الأقصى ـ وهو الأقدس بعد الكعبة ومسجد الرسول بالمدينة ـ ينهض على الحافة البعيدة، وفي تدرج نزولاً حتى وادي كدرون؛ خلف الوادي تتناثر تلال رقيقة القمم؛ وتناثرت على منحدراتها أشجار الزيتون. باتجاه الشرق كانت هناك بقعة خصيبة أخرى، فيها بساتين شديدة الخضرة تنحدر باتجاه الطريق، تحيطها أسيجة حجرية، هي

الحديقة الجثمانية[1]. ومن بين أشجار الزيتون والسرو، كانت ترتفع قباب الكنيسة الروسية المذهبة والمشيدة على شكل البصل الجاف.

ويبدو من فوق قمة جبل الزيتون نهر الأردن والبحر الميت، مثل مشهد يتأرجح بين الحلم والحقيقة، وكرجع الصدى، وبلون شفاف إلا أنه يموج بآلاف الألوان التي لا اسم لها، فوق قدرة الكلام على الوصف، بل فوق قدرة العقل على التخيل، تلال بعد تلال متماوجة التوزيع، وواضحة، وعِرْق شديد الزرقة يتماوج بينها هو نهر الأردن، ثم استدارة البحر الميت من خلفهما جميعاً - وإلى أبعد من ذلك،كان هناك عالم آخر يستقل بذاته وجماله، تلال منطقة موآب الترابية: سهوب ذات جمال أخاذ متعدد الأشكال والأوصاف يبعث في القلب ارتجافة نشوة.

كانت القدس بالنسبة إليّ عالماً جديداً تماماً، فعبق التاريخ ينضح من كل زاوية وحجر بالمدينة العتيقة. الشوارع التي شهدت نبوءات أشعيا، حجارة الشوارع التي سار عليها المسيح، الجدران التي كانت عتيقة أيضاً حين تردد منها صدى صوت خطى فرسان الإمبراطورية الرومانية التي غزت المدينة، الأقواس الحجرية على الطرقات التي تحمل على صدرها نقوشاً ونصوصاً إسلامية من عصر صلاح الدين، سماء زرقاء صافية اللون، بدت لمن هو مثلي ومن عاش وتربى في طقس وجو أقل وداً، مثل نداء ووعد. بيوت وشوارع وحارات تنبض بنبض خاص؛ وتملأ الناس حيوية خاصة ونبل حركة وإشارة. كان الناس - العرب بوجه خاص؛ لأنهم من خلقوا لدي الانطباع بأنهم أصحاب المدينة - يرتدون ملابس فضفاضة غنية بالألوان تذكرك بالملابس الجوخية التوراتية المنسدلة حتى الأرض، يرتدي كل منهم أردية مميزة له من فلاحين أو بدو (كان البدو يفدون إلى المدينة على الدوام للشراء أو البيع).

أمام منزل دوريان، وعلى بعد أربعين ياردة، نهضت حوائط قلعة داود ذات الجدران المنحدرة التي ظهر عليها آثار الزمن، كوّنت في الماضي جانباً من استحكامات المدينة مع أسوارها القديمة، ربما شيدت القلعة على الأساسات التي

١ـ الحديقة التي اعتقل فيها المسيح خارج القدس. (المترجم).

أرساها هيرود الروماني، ويعلوها برج مراقبة رفيع يشبه المئذنة (على الرغم من أنه لا علاقة لها بالملك داود، فإن اليهود اعتادوا إطلاق اسمه عليها، ويدّعون أن قصره الملكي كان بهذا الموضع من جبل الزيتون).

على جانب المدينة القديمة يوجد برج عريض، تمتد من أسفله بوابة تفضي إلى طريق رئيس، وقنطرة من حجر فوق خندق مائي. كانت القنطرة الحجرية ملتقى البدو الذين يفدون إلى المدينة. ذات يوم رأيت بدوياً يقف عليها دون حركة، بدا في وقفته المنتصبة ومن خلفه سماء فضية دكناء مثل شخص بعث من ثنايا الأساطير القديمة. كانت عظام وجنتيه ناتئة، وله لحية كثة قصيرة دكناء، تحمل ملامحه هماً واستغراقاً في أمر ما يشغله، كمن كان يتوقع شيئاً إلا أن ما يتوقعه غير قابل للتحقق. كان قفطانه الواسع ذو الخطوط البنية والبيضاء بالياً ورثاً، رأيت بعين خيالي أن ملابسه قد بليت بعد أن تعرض لمخاطر كبيرة جعلته دائم الفرار من موضع إلى موضع آخر. ربما كان واحداً من جماعة المقاتلين الذين صحبوا داود في شبابه وفي فراره من غيرة الملك طالوت؟ أتخيّل داود مختبئاً في هذه اللحظة في أحد كهوف تلال منطقة يهودا، وذلك الرجل الواقف على القنطرة، صديقه الشجاع والمخلص، جاء خلسة مع رفيق آخر إلى المدينة ليتسقطا أخبار ما يدبره طالوت من مكايد، ويتبينوا أكانت الأوضاع آمنة وتسمح بعودة داود أم لا، وأنه الآن ينتظر عودة رفاقه، مملوءاً بالهواجس: لم تكن الأنباء سارة، ولا يمكن لداود أن يعود...

تحرك البدوي فجأة نازلاً عن القنطرة، وتبخرت تخيلات اليقظة بابتعاده. تذكرت مجدداً أن ذلك البدوي من العرب، بينما كانت الشخصيات التي أتخيلها توراتية من العبرانيين. إلا أن دهشتي لم تستمر سوى هنيهة؛ فقد أدركت على الفور بوضوح يتفجرأحياناً داخلنا مثل البرق الوامض، أن داود وعصره، مثله مثل إبراهيم وعصره، كانا أقرب إلى الجذور العربية ومن ثم أقرب إلى بدو العرب المعاصرين منهم إلى اليهود المعاصرين الذين يدّعون أنهم من سلالتهم.

كثيراً ما كنت أجلس على عتبة قرب بوابة يافا أراقب الجموع الوافدة إلى المدينة القديمة والخارجة منها. فعند البوابة كان البشر يتلاحمون، ويتدافعون، العرب

واليهود، كل الأنماط والأشكال المختلفة لكليهما. كان الفلاحون أقوياء الأبدان بأغطية رؤوسهم البيضاء والبنية أو العمامات البرتقالية، وكان هناك البدو بوجوههم الحادة الواضحة الهزيلة، يرتدون عباءاتهم ويسيرون بثقة غريبة بأنفسهم، وغالباً ما تكون أكفهم على خواصرهم مباعدين بين أكواعهم كأنهم على ثقة بأن كل من يقابلهم سيفسح لهم الطريق. نساء الفلاحين لهن زي مميز أسود أو أزرق مزين بزركشة بيضاء على الصدر، يحملن في الأغلب سلالاً على رؤوسهن ويمشين مشية لدنة هينة. من الخلف تبدو من بلغت الستين كأنها شابة صغيرة السن. كذلك جمال أعينهن الذي لا يتأثر بعمر - إلا إذا أصبن بالرمد الحُبيبي، ذلك المرض اللعين المتوطن في بلاد شرق البحر المتوسط.

كان هناك أيضاً اليهود: يهود فلسطين يرتدون عباءات واسعة ويضعون الطرابيش على رؤوسهم، أما وجوههم فتماثل بشدة وجوه العرب؛ وأما يهود بولندا وروسيا فقد كان يبدو عليهم أنهم حملوا معهم كثيراً من ضيق حياتهم الماضية في أوروبا وكانوا يطلبون مساواتهم بيهود المغرب وتونس الفخورين بالبرنس المغربي الأبيض المميز للبلاد التي أتوا منها. وعلى الرغم من أنهم كانوا خارج نطاق التجانس البشري والبيئة التي من حولهم، فهم من أرسى نسق الحياة والسياسة اليهودية، وكانوا مسؤولين عن الاحتكاكات والصدام والنزاع بينهم وبين العرب.

ما الذي كان يعرفه الأوروبي العادي عن العرب في تلك الأيام؟ عملياً: لا شيء. حين هاجر اليهودي الأوروبي إلى فلسطين جاء مصحوباً بمفاهيم عاطفية مغلوطة؛ ولو كان لديه حسن نية وفطنة لأقرّ أنه لم يكن لديه فكرة عن الوجود العربي بها. أنا أيضاً قبل أن آتي إلى فلسطين، لم أعرف أبداً أنها أرض عربية تخص العرب. كنت أعرف فقط بشكل مبهم أن «بعض» العرب يعيشون فيها، إلا أنني تخيلت أنهم بعض قبائل مرتحلة تعيش في خيام وأنهم رعاة يسكنون واحات صحراوية وأغلب ما قرأته عن فلسطين في أعوامي السابقة كتبه صهاينة - يعرضون قضيتهم فقط - لم أكن أعرف أن مدن فلسطين مدن عربية يعيش فيها العرب - كانت النسبة السكانية سنة ١٣٤٠ (١٩٢٢م) تبلغ خمسة من العرب مقابل كل يهودي، ويعني ذلك بكل وضوح أنها بلد عربي.

عندما ذكرت هذا الأمر للسيد «أوسيشكين»، رئيس جمعية «رواد المجتمع الصهيوني» الذي التقيته في ذلك الوقت، كان يبدو لي أن الصهاينة لا يميلون إلى إعطاء أي أهمية إلى حقيقة الأغلبية العربية، ومعارضتها للظاهرة الصهيونية. ولذلك لم يبد على «أوسيشكين» أي ردة فعل لما قلته غير إظهار ازدرائه للعرب، وقال: «لا توجد حركة مقاومة عربية حقيقية في فلسطين ضدنا، لا توجد حركة مقاومة ذات جذور بين الناس. كل ما تراه وتظنه مقاومة ليس إلا صراخاً وصياحاً من بعض الساخطين المشاغبين، وسينهارون خلال بضعة أشهر أو بضعة أعوام على الأكثر».

كانت رؤيته بعيدة تماماً عن قناعتي. من البداية كان يتملكني اعتقاد أن فكرة إقامة مستعمرات يهودية في فلسطين ليست إلا فكرة مصطنعة، والأسوأ من ذلك، أنها تهدد بتحويل جميع التعقيدات والمشكلات المستعصية على الحل في المجتمعات الأوروبية، ونقلها إلى بلد كان سيظل أسعد حالاً لو لم يأتوا إليه. لم يكن اليهود يأتون إلى فلسطين كما يعود الغائب إلى منزله؛ بل كانوا يحاولون ويسعون أن يجعلوها منازلهم مخدوعين بالنموذج الأوروبي. باختصار، كانوا غرباء يقفون على الأبواب، ولذلك لم أجد أي غضاضة في إصرار العرب على مقاومة فكرة إقامة وطن قومي لليهود في قلب بلادهم.

كان وعد «بلفور» الذي صدر سنة ١٣٣٥ (١٩١٧م) واعداً اليهود «بوطن قومي» في فلسطين مناورة سياسية في غاية القسوة والوحشية، وتم إصداره لترسيخ السياسة التي اتبعتها كل القوى الاستعمارية، وهي سياسة «فرّق تَسُد». فيما يخص فلسطين، كان ذلك هو القرار الأقسى والأكثر إيلاماً، ففي سنة ١٣٣٤ (١٩١٦م) وعد البريطانيون شريف مكّة المكرّمة - وهو الشريف حسين - بدولة عربية مستقلة من البحر المتوسط إلى الخليج العربي مقابل تحالفه معهم ضد العثمانيين الأتراك. ثم حنثوا بوعدهم بعد ذلك بعام في اتفاقية أخرى أقاموها مع فرنسا تحمل اسم «سايكس - بيكو» (أطلقت فيها بريطانيا يد فرنسا في سوريا ولبنان) كما تضمنت الاتفاقية استثناء فلسطين من وعدهم للشريف حسين.

ومع أنني كنت يهودياً إلا أنني تبنيت موقفاً معادياً للصهيونية، وأدنت الموقف غير الأخلاقي للقوة العظمى التي تدفع بالمهاجرين اليهود من جميع أنحاء الأرض حتى يصبحوا أغلبية وينتزعوا الأرض والبلاد من أصحابها الشرعيين الذين يحيون فيها من أزمان سحيقة؛ لذلك كنت أميل إلى الوقوف في صف العرب في كل مناسبة تثار فيها المسألة اليهودية - العربية. وكان موقفي يصعب فهمه لكثير من اليهود الذين صادفتهم أو جمعتني بهم مناسبات مختلفة في تلك الأشهر، لم يفهموا ما الذي أراه في العرب الذين لا يرون فيهم إلا أناساً متخلفين همجاً، ولم تكن نظرتهم إليهم أفضل من نظرة الأوروبيين إلى الإفريقيين في وسط إفريقية. لم يهتموا بأي قدر بما يشغل فكر العرب، ولم يكلف أحد نفسه عناء تعلم اللغة العربية؛ تقبلوا جميعاً بلا أي قدر من التشكك أن فلسطين حق لهم، وأنها إرثهم التوراتي.

مازلت أتذكر مناقشة مختصرة مع الدكتور «حاييم وايزمان»، قائد الحركة الصهيونية بلا منازع، فقد أتى في واحدة من زياراته الدورية إلى فلسطين (كانت إقامته الدائمة على ما أظن في لندن)، والتقيته في منزل صديق يهودي. لم أملك إلا الإعجاب بالطاقة الفائقة لذلك الرجل - وهي طاقة ظهرت في حركات بدنه بخطواته الواسعة التي كان يقطع بها الغرفة جيئة وذهاباً، وقوة عقلية وذهنية بدت في جبهة عريضة، ونظرات نافذة - كان يتحدث عن المصاعب المالية التي تعوق تحقيق حلم الوطن القومي اليهودي في فلسطين، واستجابة اليهود الضعيفة في الخارج. تملكني انطباع أنه هو أيضاً، مثل أغلب الصهاينة، يميل إلى إلقاء المسؤولية الأخلاقية لكل ما يحدث بفلسطين على «العالم الخارجي». دفعني ذلك إلى استغلال فترة صمت في حديثه إلى مستمعين ينصتون وكأن على رؤوسهم الطير وسألته: «وماذا عن العرب؟».

بدا كما لو كنت قد ارتكبت خطأً جسيماً بتلك الملاحظة الشاذة، فقد أدار الدكتور «وايزمان» وجهه ببطء إليّ، ووضع القدح الذي كان يحمله بيده، وكرر سؤال: «ماذا عن العرب؟» وأكمل: «حسناً، كيف تتوقع بأي حال أن تكون فلسطين وطنك القومي وتلك المقاومة العنيفة من العرب تواجهنا، وعدا ذلك يشكلون أغلبية؟».

هزّ الزعيم الصهيوني كتفيه كإجابة لتساؤله ثم أردف بجفاء:
«نتوقع ألا يكونوا أغلبية بعد بضعة أعوام».

رددت قائلاً: «ربما، أنت تسعى في هذا الأمر على مدى أعوام طويلة ولابد أنك تعلم حقائق الموقف أفضل مني. ولكن بعيداً عن المشكلات السياسية التي قد تضعها المعارضة العربية أو لا تضعها في طريق تحقيق أهدافكم - ألم يؤرقك الجانب الأخلاقي من المشكلة في أي وقت؟ ألا تظن أنه من الخطأ من جانبكم طرد شعب عاش طول عمره في هذا البلد؟».

أجاب «وايزمان» رافعاً حاجبيه في تحفز: «ولكنها أرضنا، نحن لا نفعل أكثر من استرداد ما سلب منا بطريق الخطأ».

رددت: «ولكنك كنت بعيداً عن فلسطين على مدى ألفي عام تقريباً. قبلها كنت سيد هذا البلد، ليس كله بالطبع، لمدة تقل عن خمسمائة عام، ألا تعتقد أن العرب بإمكانهم بالمنطق ذاته المطالبة بإسبانيا - فهم على الأقل حكموا إسبانيا مدة سبعمئة عام، وخرجوا منها من خمسمئة عام فقط؟»

تحول الدكتور «وايزمان» إلى حالة من نفاذ الصبر الواضح، قال: «كلام فارغ. العرب غزوا إسبانيا فقط؛ لم تكن أبداً أرضهم، والصحيح والصواب في نهاية المطاف أن يطردهم الإسبان منها».

رددت على حجته قائلاً: «عفواً، يبدو الأمر وكأن هناك تجاوزاً في الرؤية التاريخية. فعلى الرغم من أي شيء، جاء العبرانيون أيضاً غزاة لفلسطين. قبلهم بعصور طويلة كانت قبائل سامية وغير سامية تسكن فلسطين - العموريون والفلسطينيون، والمؤابيون، والحثيون. واستمرت تلك القبائل في العيش في فلسطين حتى بعد غزو العبرانيين لها. وكذلك في عصر مملكتي يهودا وإسرائيل، واستمروا في العيش هنا بعد أن طرد الرومانيون أسلافنا اليهود من أرض فلسطين. وهم مازالوا يحيون على الأرض ذاتها حتى اليوم. حتى العرب

المسلمون الذين غزوا فلسطين وسورية في القرن السابع الميلادى كانوا أيضاً أقلية موازنة بسكان البلاد؛ كان السكان الذين يشكلون الأغلبية هم من نطلق عليهم اليوم عرب فلسطين وعرب سورية أي سكان البلاد الذين تعربوا، بعضهم تحول إلى الإسلام عبر القرون الماضية، وظل آخرون على ديانتهم المسيحية، وتزاوج من أسلموا مع إخوانهم في الدين أهل الجزيرة العربية. ولكن هل تنكر أن الكتلة الرئيسة للشعب الذي يعيش على أرض فلسطين، ويتحدث العربية، سواء كان مسلماً أو مسيحياً، هم الامتداد المباشر ونسل السكان الأصليين الذين كانوا على هذه الأرض من آلاف السنين؟ وكانوا أيضاً يعيشون هنا قبل وصول العبرانيين بقرون طويلة؟».

ابتسم الدكتور وايزمان في أدب رداً على حماسي وأدار الحوار في اتجاه آخر وموضوعات أخرى.

لم أشعر بسعادة تجاه ما تمخضت عنه تلك المواجهة. لم أتوقع أن تكون الخطة الصهيونية بهذا التهافت وافتقاد المنطق والحجة: أملت أن يبعث دفاعي عن القضية العربية بعض التشكك لدى قادة الخطة الصهيونية - عدم يقين قد يدفعهم إلى مراجعة أفكارهم ودوافعهم، وربما أدى عدم اليقين إلى استعداد أكبر لقبول وجود حق أخلاقي وراء المعارضة العربية.. إلا أن أياً من ذلك لم يحدث، بل على العكس، وجدت أني أقابل بحائط بارد من النظرات المتسائلة: نظرات استنكار لتهوري وجرأتي على التشكيك فيما لا يقبل الشك، وهو حق اليهود في أرض أسلافهم...

تعجبت، كيف يمكن لأناس تميزوا بذكاء مبدع وخلّاق مثل اليهود أن يفكروا في الصراع بوجهة نظر أحادية فقط؟ ألم يرد إلى أذهانهم أن مشكلة اليهود في فلسطين من الممكن أن تحل على المدى البعيد بتفاهم وتعاون ودي مع العرب؟ هل هم فاقدو البصر لدرجة ميؤوس منها لما يمكن أن تؤدي إليه سياستهم في المستقبل من آلام؟ معاناة، ومرارة، وكراهية ستتكون وتولد في نفوس العرب جزيرة يهودية صغيرة - حتى لو نجحوا مرحلياً - وسط بحر عربي معادٍ؟

وتعجبت أيضاً، كيف لأمة عانت مثل تلك المعاناة العسيرة، ووقعت عليها مظالم كثيرة في مسيرة هجراتها الطويلة المؤسفة، وتوقع الظلم الذي عانته، برؤية أحادية الجانب، على أمة أخرى، بريئة من الآلام والفظائع والويلات التي تعرض لها اليهود في أرجاء العالم. مثل تلك الظاهرة، كما أعرف، لم تكن الأولى في التاريخ، إلا أنها كانت مبعث حزني الشديد، لأنها تقع هذه المرة على مرأى مني.

* * *

لم يؤد المشهد السياسي في فلسطين إلى مجرد تعاطفي مع العرب، ولكن أدى أيضاً إلى إيقاظ اهتمامي الصحفي: أصبحت مراسلاً خاصاً لصحيفة «فرانكفورتر زيتونج» الألمانية، وكانت واحدة من أهم الصحف الأوروبية، إذ حدث ذلك أيضاً بالمصادفة، فذات مساء، كنت أعيد ترتيب المجلات والجرائد المتراكمة في حقائبي، ووجدت البطاقة الصحفية التي كنت أحملها في برلين بوصفي ممثلاً لوكالة أنباء يونايتد تليجرام، وحين هممت بتمزيقها، أمسك خالي دوريان بيدي وسأل مازحاً: «لا تمزقها! لو قدمت هذه البطاقة إلى المندوب السامي البريطاني، ستتلقى بعد عدة أيام دعوة للغداء في دار المعتمدية.. ألا تعلم أن الصحفيين كائنات مرغوب فيها في هذا البلد؟

وعلى الرغم من أنني مزقت البطاقة التي لم أشعر بجدواها، إلا أن مزحة دوريان أثارت في ذهني استجابة من نوع آخر، لم أكن بالطبع مهتماً بالحصول على دعوة غداء في دار المعتمدية - ولكن، لماذا لا أستغل فرصة وجودي في فلسطين في الوقت الذي لا تتاح فيه فرصة السفر إلى الشرق الأوسط إلا لقلة قليلة من صحفيي وسط أوروبا؟ لماذا لا أستعيد عملي بالصحافة - لا مع يونايتد تليجرام، بل مع إحدى الصحف اليومية الكبرى؟ فجأة، وكما اعتدت أن أتخذ قرارات كبرى، قررت في تلك اللحظة أن أقتحم الصحافة الحقيقية.

على الرغم من عملي مدة عام ليونايتد تليجرام، لم يكن لدي أي اتصال مباشر بأي صحيفة مهمة، وبما أنني لم أنشر أي شيء باسمي قبل ذلك، لم يكن اسمي معروفاً لأي صحيفة يومية. إلا أن ذلك لم يفتّ في عضدي، فكتبت مقالاً عن انطباعاتي كما رأيتها على أرض الواقع في فلسطين، وأرسلت نسخاً من ذلك

المقال إلى ما لا يقل عن عشر صحف ألمانية مصحوبة بعرض مني أن أكتب سلسلة من المقالات عن الشرق الأدنى وما يدور فيه.

كان ذلك في سنة ١٣٤٠ (١٩٢٢م)، وهو وقت الأزمة الاقتصادية الألمانية الكبرى. كانت الصحافة الألمانية تعاني بشدة من أجل الصمود في مواجهة الأزمة الاقتصادية، ولم يكن هناك إلا عدد قليل من الصحف التي تستطيع دفع راتب مراسل بالخارج بالعملة الصعبة، ولذلك لم يدهشني أن توالت عليّ ردود عشر من الصحف التي أرسلت إليها نسخاً من المقال بالرفض والاعتذار الرقيق. واحدة فقط من العشر صحف قبلت عرضي، وكان من الواضح أنهم قد أعجبوا بما كتبته، وعينوني مراسلاً خاصاً في الشرق الأدنى، واحتوى المغلف الذي أرسلوه على عقد لأوقعه وأعيد إرساله إليهم. كانت تلك الصحيفة الوحيدة التي قبلت عرضي هي «فرانكفورتر ذيتونج».

أصابني الذهول ليس فقط لنجاحي في خلق علاقة بصحيفة - وأي صحيفة! - ولكن من أول مرة حققت صفقة يحسدني عليها كثير من الصحفيين الكبار.

كان في العقد عقبة صغيرة، فبسبب الأزمة الاقتصادية الألمانية، ومعدل التضخم العالي، لم يكن بإمكان الصحيفة أن تدفع لي راتبي بالعملة الصعبة، وكان الراتب الذي عرضوه مع اعتذار رقيق بالمارك الألماني؛ وكنت أعرف - كما كانوا هم يعرفون - أن ذلك الراتب بالمارك الألماني لا يكفي لشراء طوابع البريد التي سأضعها على المغلفات لأرسل فيها مقالاتي. ولكن أن أكون مراسلاً خاصاً «لفرانكفورتر ذيتونج» كان تميزاً يفوق بمراحل العسر المالي المؤقت من عدم قدرتهم على الدفع بأي عملة أجنبية. بدأت في كتابة مقالات عن فلسطين، آملاً أن تسنح لي الفرصة بالسفر إلى جميع أرجاء الشرق الأدنى.

* * *

أصبح لي الآن أصدقاء كثيرون في فلسطين، من اليهود والعرب. وفي الحقيقة، نظر إليّ الصهاينة نظرات دهشة بسبب تعاطفي مع العرب الذي كان واضحاً في مراسلاتي التي أبعث بها إلى صحيفة «فرانكفورتر ذيتونج». كانوا في حيرة من أمري: هل «اشتراني» بعض العرب؟ (كان الصهاينة يؤمنون بأن شعب فلسطين

اعتاد شرح مواقفه بالمال) أم أنني من ذوي الأفكار الشاذة الذين يهوون الإثارة؟ ولكن، لم يكن جميع اليهود الذين كانوا بفلسطين في ذلك الوقت من الصهاينة. كان بعضهم قد قدم إلى فلسطين من دون دافع سياسي، ولكن بشغف ديني إلى الأرض المقدسة، وما تثيره الأحداث التوراتية في أنفسهم من حنين لرؤيتها.

انتمي صديقي الهولندي «چاكوب دي هان» إلى تلك الفئة الأخيرة، كان قصيراً، بديناً، ذا لحية شقراء، في بدايات الأربعينيات من عمره، قد درس القانون في واحدة من كبرى جامعات هولندا، وكان في ذلك الوقت مراسلاً خاصاً لجريدة «هاندلسبلاد» التي تصدر من «أمستردام» ولصحيفة «ديلي أكسبريس» اللندنية. كان ذا إيمان ديني قوي - مثله مثل يهود شرق أوروبا المتعصبين - إلا أنه لم يقبل المخطط الصهيوني، فهو يؤمن بأن عودة شعبه إلى أرض الميعاد لابد أن تنتظر حتى تتحقق عودة المسيح كما ورد في الكتاب المقدس.

قال لي في أكثر من مناسبة: «نحن اليهود طردنا من الأرض المقدسة، وتشتتنا في جميع أرجاء العالم؛ لأننا أخفقنا في أداء المهمة التي كلفنا الرب بها. لقد اختارنا لنبشر بكلمته، ولكن في ذروة عنادنا الأجوف اعتقدنا أنه اختارنا «كشعب مختار» من أجل خاطرنا نحن - وهكذا خنّا ما اختارنا لأدائه، لم يتبق لنا إلا أن نتوب ونطهر قلوبنا؛ وعندما نصبح جديرين بتلك الأمانة من جديد، وأن نكون حملة رسالته، فإنه سيرسل مسيحه ليقود عبيده إلى الأرض الموعودة...».

سألته: «ولكن ألا تشكل هذه الفكرة المسيحية أساساً للحركة الصهيونية أيضاً؟ أنت تعلم أنني لا أوافق عليها، ولكن أليست رغبة طبيعية لكل شعب أن يكون له وطن قومي خاص به؟».
نظر الدكتور دي هان إليّ بسخرية: «هل تعتقد أن التاريخ ليس إلا سلسلة من الحوادث؟ أنا لا أعتقد بذلك، لم يجعلنا الرب نفقد الأرض بلا غاية محددة ولم يشتتنا بلا هدف؛ إلا أن الصهاينة لا يريدون أن يقبلوا ذلك، ويعترفوا به صراحة بينهم وبين أنفسهم. إنهم يعانون أيضاً ذلك العمى الروحي الذي تسبب في انهيارنا. ولم تعلمهم الألفا عام من الشتات أي شيء. وبدلاً من السعي لفهم

الأسباب الدفينة لتعاستنا، فإنهم يسعون الآن لتعميقها، ببناء «وطن قومي» على أسس مستمدة من القوى الغربية السياسية؛ وفي عملية بناء وطن قومي، يرتكبون جريمة أكبر بحرمان شعب آخر من وطنه».

كانت آراء «چاكوب دي هان» السياسية سبباً في أن يكون مكروهاً بشدة من قِبل الصهاينة (وبالفعل، بعد مغادرتي فلسطين بفترة وجيزة، أصبت بصدمة عندما علمت أنه اغتيل بإطلاق الرصاص عليه من قِبل إرهابيين صهاينة). عندما تعارفنا، كانت علاقاته الاجتماعية محدودة بعدد قليل من اليهود الذين يؤمنون بوجهة نظر مماثلة لوجهة نظره، وبعض الأوروبيين، والعرب. وفيما يخص العرب فقد بدا لهم أن لآرائه وزنها وتأثيرها، ومن جانبهم كانوا يقدرونه ويدعونه كثيراً إلى بيوتهم، وفي الحقيقة، كانوا في تلك الفترة غير متحاملين على اليهود مثلما هم الآن. لم يحدث ذلك إلا بعد إعلان وعد بلفور - فبعد قرون من الجيرة الطيبة وحسن المعاشرة والوعي بالأصل المشترك، بدأ العرب بعد وعد بلفور ينظرون إلى اليهود كأعداء سياسيين. ولكن حتى في التغيرات السياسية التي واكبت بداية العشرينيات من القرن العشرين، كان العرب يفرقون بين ا لصهاينة واليهود الذين كانوا على علاقة طيبة بهم مثل الدكتور «دي هان».

* * *

حركت تلك الشهور المصيرية الأولى التي عشتها في بلد عربي قطاراً طويلاً من الانطباعات والانعكاسات؛ بعضها كان آمالاً ذات طبيعة شخصية لم أدر كنهها، ولم أتمكن من التعبير عنها، وكانت تتطلب مني إبرازها بوضوح إلى مجال عقلي الواعي.

لقد واجهت مسألة مغزى الحياة وجهاً لوجه، وكان ذلك جديداً تماماً على حياتي.

الأنفاس البشرية الدافئة تتدفق من مجرى دم أولئك الناس إلى أفكارهم وإيماءاتهم، بلا تمزقات روحية مؤلمة من عدم الاطمئنان والخوف والطمع والإحباط الذي جعل من الحياة الأوروبية حياة قبيحة وسيئة لا تعد بأي شيء.

أما مع العرب فقد وجدت لديهم ما كنت أبحث عنه بعقلي الباطن دون أن أحسه بشكل ظاهر: وجدت لديهم سهولة معنوية وفكرية في التعامل مع كل مشكلات الوجود - إحساس سامٍ مشترك، إذا جاز أن نطلق عليه ذلك. بمرور الوقت أحسست بضرورة فهم روح تلك الشعوب المسلمة: لم يكن ذلك بسبب أن ديانتهم جذبت اهتمامي (في ذلك الوقت لم أكن أعرف إلا القليل عن الإسلام)، ولكن لأني وجدت لديهم تلاحماً عضوياً بين الفكر والحواس، ذلك التلاحم الذي فقدناه نحن الأوروبيين. اعتقدت أنه من خلال فهم أقرب وأفضل لحياتهم يمكن أن أكتشف الحلقة المفقودة التي تسبب معاناة الغربيين - وهي تأكّل التكامل الداخلي للشخصية الأوروبية - وجذور تلك المعاناة. لقد اكتشفت كنه ذلك الشيء الذي جعلنا نحن أهل الغرب ننأى عن الحرية الحقة بشروطها الموضوعية التي يتمتع بها العرب، حتى في عصور انهيارهم الاجتماعي والسياسي، والتي يفترض أنها كانت تميزنا في عصور أسبق؟ - أو كيف يتسنى لنا أن ننتج تلك الفنون العظمى في الماضي، الكاتدرائيات القوطية في القرون الوسطى، والغنى الروحي والمعنوي الذي صاحب عصر النهضة، روعة «رامبراندت» في لوحاته، وروائع «باخ»، وهدوء وجلال «موتزارت»، الفخر في فنون مزارعينا، هدير «بيتهوڤن» وتطلعه وسعيه نحو الجوانب الغامضة من الوجود وقممه الموسيقية التي تدرك بصعوبة، وإن أدركتها يمكنك وقتها أن تصيح في سعادة: «أنا وقدري شيء واحد».

لأننا لم نعد ندرك طبيعتهم الحق، ولا نستخدم قوانا الروحية على الوجه الصحيح، لن ينهض بيننا «بيتهوفن» آخر، ولا «رامبراندت» آخر، بدلاً من ذلك، لم نجد إلا ما نراه الآن من أن هناك مساعي يائسة نحو «أشكال جديدة من التعبير» في الفن، والاجتماع، والسياسة، وذلك الصراع المرير بين الشعارات المتعارضة والمبادئ الشكلية، وكل منتجنا الآلات وناطحات السحاب التي لا يمكن أن تكون ذات جدوى في استعادة تكامل نفوسنا المحطمة... إلا أنه يتبقى سؤال - هل فقدت العظمة الروحية للماضي الأوروبي إلى الأبد؟ ألا يمكن استعادتها، أو بعض منها باكتشاف كنه الخطأ الذي ألم بنا؟!

ما كنت أشعر في البداية أنه لا يعدو أكثر من تعاطف مع الأهداف السياسية، وشكل الحياة العربية، والأمان المعنوي الذي أحسه بينهم، تحول بطريقة لا أدركها إلى ما يشبه المسألة الذاتية. زاد وعيي برغبتي الطاغية في معرفة كنه ذلك الشيء الذي يكمن في أسس الأمن المعنوي والنفسي، وجعل حياة العرب تختلف كلية عن حياة الأوروبيين. ارتبطت تلك الرغبة بشكل غامض في مشكلاتي الشخصية الدفينة. بدأت أبحث عن مداخل تتيح لي فهم أفضل للشخصية العربية، والأفكار التي شكلتهم وصاغتهم وجعلتهم يختلفون روحياً عن الأوروبيين. بدأت أقرأ كثيراً بتركيز في تاريخهم وثقافتهم ودينهم... وفي غمرة اهتمامي أحسست بأنني قد توصلت إلى اكتشاف ما يحرك قلوبهم، ويشغل فكرهم، ويحدد لهم اتجاههم، أحسست أيضاً بضرورة اكتشاف القوى الخفية التي تحركني أنا ذاتي، وتشكل دوافعي، وتشغل فكري، وتعدني أن تهديني إلى سبيل......

# الفصل الرابع

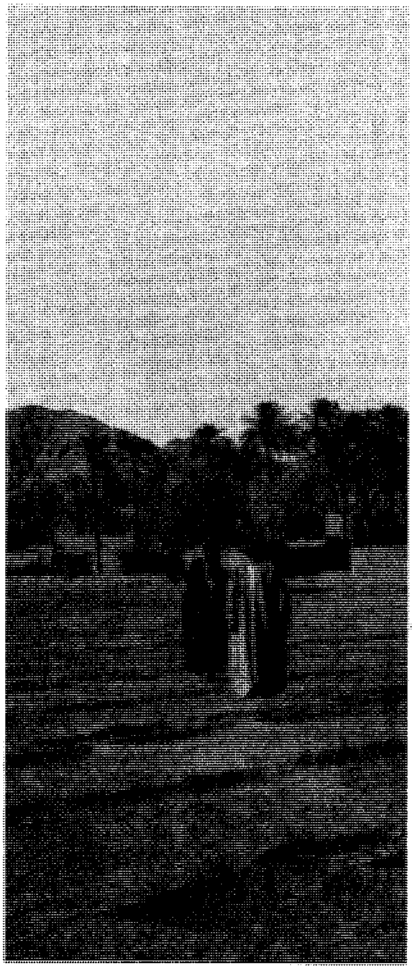

قرية قرب حائل ١٣٤٦ (١٩٢٨م)

## أصوات

مضينا راكبين، وزيد يغني. أصبحت الكثبان منخفضة، وواسعة. تنحسر الرمال من مكان إلى آخر كاشفة عن مساحات من الحصى وصخور البازلت الحادة. وأمامنا، باتجاه الجنوبِ البعيد تبدو مرتفعات جبال شمَّر. كلمات أغاني زيد تصلني بشكل مشوش، لأنني في حالة بين النوم واليقظة. لم يلتقط ذهني الكلمات بوضوح، بدت وكأنها تحتوي على مغزى عميق لا صلة له بمعناها الظاهر. لقد كانت واحدة من أغاني مسافري الصحراء على ظهور الجمال، أغانٍ تدفع الجمال إلى المحافظة على خطاها، وتدفعها إلى السير السريع. أغانٍ يغنيها رجال اعتادوا رحابة الصحراء واتساعها اللا محدود.

تبدو أغاني الصحراء ذات نغمة واحدة، وبمستوى صوتي رتيب، طويل الإيقاع قوي وأجش يأتي من أعلى الحلق، ويتلاشى في هواء الصحراء الجاف: تبدو كأنها تنفس الصحراء الصاعد من صوت البشر. مضينا راكبين، وزيد يغني، كما كان والده يغني، وكما غنى كل رجال قبيلته، والقبائل الأخرى التي سبقتهم، مرت آلاف الأعوام حتى تشكلت تلك الأغنيات بمعانيها المكثفة، وأنغامها الأحادية. وبعكس الموسيقى الغربية المتعددة الأصوات، والتي تعبر في الغالب عن مشاعر فردية، تبدو تلك الأغاني العربية كأنها رموز صوتية لمخزون معنوي لملايين البشر، وتنقل عواطفهم المكثفة. ولدت الأغاني منذ أزمان قديمة في بيئة الصحراء على إيقاع الرياح والعواصف، وهجرات القبائل، وأحاسيس الآفاق الواسعة والمسافات الكبيرة، ومن تأمل الحاضر الأبدي: ومثلها كل ما هو مهم في حياة البشر، ويظل على جوهره، حافظت تلك الأغاني على أصالتها دون أن تتغير على مدى العصور.

يصعب أن تجد مثل تلك الأغاني في الغرب، بسبب التعددية لا في الأصوات ولا في الموسيقى فحسب، بل في مشاعر البشر ورغباتهم. برودة الطقس، وغزارة المياه، وتتابع الفصول تعطي هذه العناصر تعددية شكلية لمظاهر الحياة تتباين في دلالاتها ومعانيها، ولذلك يشعر الرجل الغربي برغبات كثيرة ودافع قوي في القيام بأعمال دون الاكتراث بنتائجها. يجد أن عليه أن يبتدع ويبني ويتغلب حتى يرى ذاته تتحقق مرة بعد أخرى في تعقيدات الحياة المتغيرة. وينعكس ذلك على موسيقاه أيضاً، وغنائه الغربي الصاخب، والصوت الآتي من الصدى، والذي يوحي بطبيعة «فاوستية» تدفع الرجل الغربي إلى أحلام كثيرة، ورغبات متعددة، ليس الزمن إلا عدواً، يتطلعون إليه بتشكك وريبة؛ ولا يحمل الحاضر لهم أي معنى من معاني الخلود والأبدية والديمومة...

أما عرب الصحراء فلا يوجد في صحاريهم وبواديهم الواسعة الممتدة ما يغري بالحلم: الصحراء قاسية واضحة كالنهار، ولا تعرف لون المشاعر. الظاهر والباطن، الذاتي والعام، لاتناقض بينها عنده بقدر ما هي أوجه متباينة لحاضر لا يتغير؛ لا تهيمن على حياته مخاوف دفينة، وعندما يقوم بفعل فإنه يقوم به

لضرورة خارجية لا لرغبة داخلية ولا احتياجاً لتأمين ذاته؛ نتيجة لذلك لم يتقدم في الإنجاز المادي بنفس سرعة الرجل الغربي - إلا أنه احتفظ بنقاء روحه.

* * *

تساءلت في داخلي بحذر، إلى أي مدى يستطيع زيد وقومه أن يحافظوا على نقاء أرواحهم في مواجهة الخطر المتسلل إليهم، والذي يكاد يطبق عليهم بقسوة وشراسة؟

إننا نحيا في عصر لا يمكن فيه للشرق أن يظل على سلبيته في مواجهة تقدم الغرب، آلاف القوى: سياسية، واجتماعية، واقتصادية - تحاول اقتحام أبواب العالم الإسلامي، فهل سيخضع لغرب القرن العشرين، وإن خضع، ألن يفقد تقاليده وجذوره الروحية؟

(٢)

خلال السنوات التي قضيتها في الشرق الأوسط، متعاطفاً من سنة ١٣٤٠ (١٩٢٢م) إلى ١٣٤٤ (١٩٢٦م)، ثم مسلماً من بعد ذلك له أهداف مشتركة مع العالم الإسلامي، شهدت حصار الغرب للحياة الثقافية الإسلامية، وللاستقلال السياسي للعرب والمسلمين. وإذا حاولت الشعوب الإسلامية دفع تلك الهيمنة، يصف الرأي العام الأوروبي تلك المقاومة، ببراءة شديدة «إرهاب ضد الأجانب».

اعتادت أوروبا أزماناً طويلة التعامل مع كل ما يحدث في الشرق الأوسط بفجاجة ودون اكتراث، مع مراعاةٍ لمصالحها فقط. بينما أبدى الرأي العام الغربي خارج بريطانيا تعاطفاً تجاه الكفاح الأيرلندي للاستقلال عن بريطانيا، كما تعاطف الرأي العام الغربي (خارج ألمانيا وروسيا) مع أحلام بولندا في الاستقلال، إلا أن ذلك التعاطف الغربي لم يمتد ليشمل تطلعات المجتمعات الإسلامية. وحجة الغرب دائماً تنحصر في التمزق السياسي العربي، والتخلف الاقتصادي للشرق الأوسط. وكل تدخل غربي في شؤون الدول الإسلامية يوصف

ـ بنفاق ـ بأنه دفاع عن المصالح «المشروعة» للغرب، بل الأغرب أنه يتم تعليله بأنه لتأمين تقدم شعوب تلك البلاد ورقيها.

كان دارسو الشرق الأوسط على استعداد دائم لبلع ذلك الطعم من الادعاءات، متجاهلين أن كل تدخل مباشر أو غير مباشر من خارج البلاد لا يؤدي إلا إلى إعاقة تطور أي مجتمع إسلامي ونموه بعكس ما يدعون. لا يرى الدارسون إلا خطوط السكك الحديدية التي مدتها القوى الاستعمارية، ولكنهم لا يرون ما دمره المستعمر من الصناعات الوطنية؛ ويحصون كم حرقوا من الطاقة الكهربائية، ولا يرون ما يدمرونه من اعتزاز قومي وروح قومية. إنها الشعوب الغربية نفسها التي لم تقبل أبداً دخول بعثة للإمبراطورية النمساوية إلى منطقة البلقان، وقبلوا بتسامح شديد دخول بريطانيا إلى مصر، ودخول روسيا إلى وسط آسيا، ودخول فرنسا دول المغرب العربي، ودخول إيطاليا إلى ليبيا. لم يمر قطّ في أذهانهم أن أكثر العلل والآفات الاجتماعية والاقتصادية التي يعانيها الشرق الأوسط ليست إلا نتيجة مباشرة «للمصالح» الغربية، وعدا ذلك، يهدف التدخل الغربي بشكل أو بآخر إلى توسيع نطاق بؤر الاضطرابات الداخلية وزيادتها لتصعيب سيطرة الشعوب المعنية على معتقداتها.

* * *

تحققت من ذلك أول مرة وأنا في فلسطين سنة ١٣٤٠ (١٩٢٢م)، وتأكدت من السياسة المراوغة ذات الوجهين التي تتبعها الإدارة البريطانية فيما يخص الصراع العربي ـ الصهيوني، واتضح لي بكامل أبعاده في بدايات سنة ١٣٤١ (١٩٢٣م)، بعد أن قضيت عدة أشهر متجولاً في أنحاء فلسطين، كما ذهبت إلى مصر التي كانت في حالة غليان مستمر ضد «الوصاية» البريطانية عليها. كانت تلقي القنابل على مناطق يرتادها الجنود البريطانيون، وترد عليهم قوات الاحتلال بإجراءات في غاية القسوة والتعسف، من إعلان للأحكام العرفية العسكرية، إلى الاعتقالات السياسية، ونفي قادة المقاومة، وإغلاق الصحف ومصادرتها، إلا أن تلك الإجراءات القاسية كلها لم تنل من عزيمة

الشعب المصري، وتطلعه إلى الحرية، ونضاله من أجل تحقيقها. كان يسري في كل الأمة المصرية ما يمكن وصفه بموجة من النشيج العاطفي، لم يكن نشيج يأس: بل نشيج عزيمة من اكتشف جذور قواه الكامنة وتصميمه.

كان الباشوات فقط ـ وهم أصحاب الإقطاعيات الزراعية الكبيرة ـ متحالفين مع الحكم البريطاني، أما الأغلبية الساحقة من الشعب ـ بما فيهم الفلاحون الفقراء ـ إذ كان الفدان الواحد من الأرض الزراعية يعد أثمن ممتلكات الأسرة بكاملها، فقد دعموا جميعاً الحركة الساعية إلى الاستقلال.

تصاعد فى صباح أحد الأيام نداء باعة الصحف المتجولين في الشوارع: «القبض على قادة الوفد بأمر الحاكم العسكري» ـ وفي اليوم التالي كان قادة جدد قد حلوا محل من تم اعتقالهم، كانت الفجوة تمتلئ مرة بعد أخرى: تنامى شوق المصريين إلى الحرية، كما تنامت كراهيتهم للمحتل. ولم يكن لدى أوروبا إلا كلمة واحدة إزاء كل ما يجري: «كراهية العرب للأجانب».

كان مجيئي إلى مصر في ذلك الوقت لتوسيع مجال تغطيتي الصحفية مراسلاً لجريدة «فرانكفورتر ذيتونج». ولم تسمح أحوال خالي «دوريان» المالية بتمويل تلك الجولة، إلا أنه قدم لي مبلغاً مالياً صغيراً يكفي لتغطية مصاريف السفر من القدس إلى القاهرة بالقطار وما يعينني على المعيشة مدة أسبوعين.

وجدت مسكناً بسيطاً في القاهرة في حارة ضيقة يسكنها الفنانون البسطاء، وبعض أصحاب المحلات الصغيرة من اليونانيين. كانت صاحبة المنزل سيدة كئيبة، طويلة، ثقيلة الوطأة، دكناء البشرة، وكانت مخمورة من الصباح حتى المساء، وتتناوب عليها حالات مزاجية متباينة، وكانت ذات مزاج عاطفي سريع التقلب وعنيف، ويبدو أنها لم تحقق ذاتها أبداً من أي جانب من جوانب حياتها؛ إلا أنها كانت ودوداً تجاهي، وكنت أشعر بمشاعر طيبة في حضورها.

أوشكت الأموال القليلة التي كانت معي على النفاد بعد أسبوع أو نحو ذلك، لم

أرغب في أن أعود بتلك السرعة إلى فلسطين لأمكث في منزل خالي من جديد، فبدأت أبحث عن وسيلة لكسب العيش.

كان صديقي الذي تعرفته بالقدس، الدكتور «دي هان» قد زودني برسالة توصية إلى رجل أعمال هولندي في القاهرة، توجهت إليه، وطلبت نصحه بشأن إيجاد فرصة عمل. كان الرجل يتسم بشخصية لطيفة، واهتمامات ثقافية تتجاوز مجال عمله. علم من رسالة التوصية التي كتبها إليه «چاكوب دي هان» أنني مراسل لصحيفة «فرانكفورتر ذيتونج»؛ وعندما أطلعته بناء على طلبه على بعض مقالاتي الأخيرة، رفع حاجبيه في دهشة:

- «قل لي، كم يبلغ عمرك».
- «الثانية والعشرين».
- «قل لي أيضاً، من فضلك: من أعانك على كتابة هذه المقالات، هل عاونك دي هان؟»

ضحكت وأجبته: «كلا بالطبع، كتبتها بنفسي، دائماً أقوم بعملي بنفسي، ولكن لماذا تشك في ذلك؟».

هز رأسه وكأنما فاجأه سؤالي: «لأنها مدهشة.. كيف وصلت إلى هذا النضج حتى تكتب مثل هذه المادة الصحفية؟ وكيف تمكنت أن تعبر في نصف جملة عن معانٍ تبدو غامضة في ظاهرها؟».

راقني المديح الذي تضمنه رأيه، ورفع ذلك من معنوياتي وإحساسي بذاتي. وفي سياق حوارنا تبينت أن الرجل لا يملك عملاً لي، إلا أنه يعتقد أن بإمكانه أن يجد عملاً لي في شركة مصرية يتعامل معها.

كان المكتب الذي أرشدني إليه يقع في أحد أحياء القاهرة القديمة، ولا يبعد كثيراً عن مسكني: يقع في ممر بين مبنيين، كان أحدهما من المباني العريقة القديمة التي تحولت إلى مكاتب شركات وشقق رخيصة للإيجار. كان مدير العمل، وهو

مصري، أكبر مني عمراً أصلع الرأس، وكان في حاجة إلى موظف غير متفرغ يتولى مسؤولية مراسلاته باللغة الفرنسية؛ أقنعته أنني أستطيع أن أقوم بذلك مع أنه لا خبرة لي إطلاقاً بالأعمال التجارية. توصلنا إلى اتفاق بسرعة وسهولة، وهو أن أعمل ثلاث ساعات يومياً مقابل أجر بسيط إلا أنه كان يكفي لدفع إيجار المسكن والمعيشة على الخبز واللبن والزيتون».

كان حي الأضواء الحمراء في القاهرة يقع في المنطقة المحصورة بين مسكني ومكان عملي الجديد، حي بأكمله بحارات ضيقة متعرجة تقطنه المومسات.

تخلو تلك الحارات ويسودها صمت وسكون في فترة ما بعد الظهر وأنا في طريقي إلى العمل، أرى عبر النوافذ امرأة تتمطى في تراخٍ وكسل؛ ومن نافذة أخرى فتيات المنزل يرتشفن فناجين القهوة بصحبة رجال ملتحين، على وجوههم علامات الجدية، ويتحدثون في عبوس عن أشياء تبدو بعيدة عن إثارة البدن والمتع المحرمة.

وعندما يحل المساء، وفي طريق عودتي من العمل إلى مسكني، يستقيظ الحي أجمعه، وتدب فيه الحياة، يصدح بموسيقى العود العربي تصاحبه الطبول والدفوف وضحكات النساء. وعندما تسير تحت أعمدة الإنارة والفوانيس الملونة، تجد فجأة ذراعاً ناعمة تلتف في رقة حول رقبتك؛ ذراعاً بيضاء أو دكناء أو قمحية اللون - إلا أنها جميعاً على اختلاف ألوانها توسوس بصوت الأساور والسلاسل الذهبية والفضية، ورنات خلاخيل القدمين الفضية، وتفوح منهم رائحة المسك، ورائحة البشرة الدافئة. لابد أن تكون قوي العزيمة والإرادة حتى تظل بمنأى عن تلك الأحضان الدافئة، وتفر من نداءات متكررة: «ياحبيبي» و«سعادتك». لابد أن تشق طريقك بين أطراف بضة لامعة تغري بالنظر، وتدير الرأس بما تتضمنه من إيحاءات. ترى كل زائري مصر في تلك الأماكن، من مغاربة إلى جزائريين وسودانيين ونوبيين، وأبناء الجزيرة العربية وأرمينيا وسورية وإيران... رجال في ثياب حريرية طويلة يجلسون على أرائك بجوار حوائط المنازل، يشعرون بالبهجة، يضحكون ويداعبون فتيات الليل، أو يدخنون

النراجيل صامتين متفرجين. ليسوا جميعاً من «زبائن» المتعة: جاء كثير منهم لقضاء بعض الوقت في مكان غريب سمعوا عنه.

لابد أن تتنحى أحياناً بسرعة قبل أن يصطدم بك درويش من السودان يرتدي أسمالاً بالية، يغني أغاني المتسولين ووجهه مغيب، وذراعاه مفرودتان للأمام. سحب البخور تتصاعد من مباخر تتأرجح وتدور وتمس وجهك بروائح ذكية. تتصاعد أصوات الغناء الجماعي وتتخافت من أكثر من موضع، مع التكرار بدأت أفهم معاني بعض الألفاظ العربية.. وتسمع أحياناً أصواتاً مصاحبة للمتعة - الأصوات الحيوانية لتلك الفتيات وهن يمارسن المتعة المحرمة - في أزيائهن التي لا تخفي أبدانهن، وتراوح بين الأزرق الفاتح، والأصفر، والأحمر، والأخضر، والأبيض، والذهبي، جميعها من الحرير ونسيج التوللي، أو نسيج شفاف أو حرير دمشقي - كانت ضحكاتهن تبدو كأنها خطوات القطط على أحجار الطريق، ترتفع مجلجلة، وتتخافت، لتتصاعد ضحكات من أماكن أخرى.

كيف يمتلك المصريون تلك القدرة على الضحك: كيف يسايرون الأيام والزمن يوماً بعد يوم فوق شوارع القاهرة، منتصبي القامة بخطوات مرحة في قمصانهم الطويلة التي يسمونها «جلابية» المخططة عادة بكل ألوان الطيف - مرحين، بعقول حرة، حتى يعتقد المرء أن كل ذلك الفقر الطاحن وعدم الرضا والاضطرابات السياسية لا تؤخذ بجدية إلا بشكل نسبي، وتجد أن مرحهم الصاخب المتفجر يبدو دائماً على استعداد لترك مساحة إلى صفاء النفس، والهدوء الذي يصل إلى التراخي والكسل، لهذا السبب، يرى أغلب الأوروبيين (ومازالوا) أن العرب سطحيون، إلا أنني اكتشتف أن ذلك الحكم على العرب ينبع من ميل الغرب إلى المبالغة في وصف الانفعالات التي إن بدت لهم متجهمة وجادة ورزينة فإنها «عميقة»، وأن يصفوا «بالسطحية» أي سلوك فيه خفة ومرح. أدركت أن العرب قد ظلوا متحررين من تلك التوترات الداخلية والضغوط النفسية التي يتصف بها أبناء الغرب بصفة خاصة: فكيف لنا أن نطبق عليهم مقاييسنا الخاصة؟

لو بدا أنهم سطحيون، فربما يعود ذلك إلى تدفق مشاعرهم وانفعالاتهم

مباشرة إلى سلوكياتهم، وربما سيبدؤون تحت وطأة «التغريب» بالفقدان التدريجي لتلك التلقائية في تواصلهم مع الواقع: فمع أن التأثير الغربي يعمل في بعض المجالات والمناحي كحافز ومخصب للفكر العربي المعاصر، إلا أنه لابد أن يعمل على خلق المشكلات الخطيرة نفسها التي تهيمن على المشهد الروحي والسياسي في الغرب.

* * *

مقابل المنزل الذي كنت أقطن به في القاهرة، في تلك الحارة الضيقة أو الممر، كان هناك مسجد صغير ذو مئذنة قصيرة كنت أسمع منها الأذان للصلاة خمس مرات كل يوم. يظهر رجل بعمامة بيضاء في شرفة المئذنة، يرفع كفيه إلى جانبي وجهه، ثم يرفع صوته بالأذان: «اللّه أكبر، أشهد أن لا إله إلا اللّه، أشهد أن محمدا رسول اللّه»، في تحوله البطيء في شرفة المئذنة ليوجه النداء إلى الجهات الأصلية الأربع، يرتفع صوته متسلقاً الأعالي، ويتضخم ويتضاعف في الجو الصافي، يتماوج، يتقدم ويتراجع، جهيراً عميقاً، ناعماً وقوياً واسع المدى، إلا أنك تدرك أن تلك الصفات الجمالية الصوتية التي تميز الأذان إنما هي ناتجة من توهج إيماني، لا من نوع من الصنعة الفنية.

كان أذان المؤذنين الذي كنت أسمعه في الأيام التي قضيتها في القاهرة، هو ذاته الأذان الذي كنت أستمع إليه في القدس، وقدر لي أن أسمعه بعد ذلك في البلاد الإسلامية كلها، على الرغم من اختلاف اللغات واللهجات وأصوات الأداء: جعلني توحد الأذان أدرك في تلك الأيام عمق التوحد الإسلامي بين الشعوب الإسلامية كلها، وأدرك أن الاختلافات مصطنعة ولا معنى لها. تميز ذلك التوحد عقيدة واحدة، وتوحد أساليب التفكير، والتمييز بين الصواب والخطأ والحلال والحرام، وإدراك واحد لما يجب أن يكون عليه صلاح الحياة.

بدا أول مرة لي أنني أصادف مجتمعات لا تكون فيها الرابطة بين فرد وآخر عائدة إلى الانتماء لجنس واحد، ولا لاهتمامات مادية اقتصادية ومصالح مشتركة مبنية على المنفعة، بل تعود إلى ما هو أعمق من كل ذلك وأشد رسوخاً: إلى

الاشتراك في رؤية واحدة إلى الهدف من الوجود، رؤية تزيل جميع الحواجز التي يمكن أن تعزل فرداً عن فرد آخر من بني البشر.

* * *

عدت في صيف سنة ١٣٤١ (١٩٢٣م) إلى القدس، وقد أثْرَتني التجارب بفهم أفضل لطبيعة الحياة في الشرق الأوسط وما يتعلق به من جوانب ومشكلات سياسية، وتعرفت إلى عبد اللّه أمير شرق الأردن عن طريق صديقي الحميم «چاكوب دي هان»، ودعاني إلى زيارة بلده. كنت أول مرة أرى بلداً عربياً بدوياً بأجمعه. كانت العاصمة عمّان في ذلك الوقت - قد بنيت على حطام المستعمرة اليونانية القديمة التي أسسها بطليموس فيلادلفيوس وأسماها فيلادلفيا - مدينة صغيرة لايزيد عدد سكانها على ستة آلاف نسمة، تموج شوارعها بالبدو القادمين من الصحاري والبراري، كانت الخيول تعدو في شوارع عمّان، كان كل بدوي مسلحاً بخنجر في حزامه وبندقية على ظهره، وكانت العربات الشركسية[1] التي تجرها الثيران تجرجر نفسها بتثاقل فيما بين الازدحام الكبير في الأسواق الصغيرة التي تموج بالحركة وكأنك في مدينة أكبر من عمّان.

كان الأمير عبد اللّه في ذلك الوقت يعيش في معسكر من الخيام على تل يشرف على المدينة حيث لم تكن بها مبانٍ كافية وملائمة له. وكانت خيمته أكبر من باقي الخيام، وتتكون من مساحات تفصلها بعضها عن بعض حواجز من الأقمشة السميكة المزركشة، وتتميز ببساطتها، ففي أحد الأركان وُضع جلد دب أسود يستعمل فراشاً للنوم؛ وفي غرفة الاستقبال كان هناك زوج من رحال الجمل يستعملان متكأً لمن يجلس على البساط.

لم يكن في الخيمة أحد - باستثناء خادم أسمر يرتدي زياً مقصباً ويضع خنجراً مذهباً في حزامه - عند دخولنا إليها أنا والدكتور رضا توفيق بك كبير مستشاري الأمير عبد اللّه، كان رضا توفيق بك تركياً وأستاذاً جامعياً سابقاً ووزير تعليم

١- استوطن الشراكسة عمّان بعد هجرتهم من وطنهم شمال القوقاز بُعيد الغزو الروسي لبلادهم في القرن الثالث عشر الميلادي.

سابقاً أيضاً في تركيا على مدى ثلاثة أعوام قبل وصول كمال أتاتورك إلى الحكم. أخبرني الدكتور رضا أن الأمير عبد اللّه لن يتأخر كثيراً؛ إذ كان في اجتماع مع بعض زعماء قبائل البدو بسبب الهجوم الذي شنه أهل نجد على جنوب الأردن. وشرح لي الدكتور رضا طبيعة المشكلة قائلاً: «أولئك النجديون الوهابيون أدّوا دوراً في الإسلام لا يقل عن دور الإصلاحيين البيوريتانيين [1] في العالم المسيحي، فبقدر ما منعوا كل تقديس للأولياء والأسلاف الصالحين، ونهوا عن كل الخرافات الغيبية الغامضة التي تسللت إلى الإسلام عبر القرون؛ كانوا بالقدر نفسه أعداءً للعائلة الشريفة التي يتزعمها الشريف حسين ملك الحجاز، ووالد الأمير عبد اللّه، وطبقاً لما ذكره لي رضا توفيق بك، فإن وجهات النظر الدينية التي تبناها الوهابيون لا يمكن رفضها؛ لأنهم اقتربوا بالفعل من روح القرآن الكريم ومضمونه أكثر من أي اتجاهات أخرى كانت سائدة في العالم الإسلامي في ذلك الوقت، وأنها من الممكن أن تؤدي مع مضي الزمن إلى تنقية الفكر الإسلامي من كل ما علق به من شوائب. إلا أن حرصهم الشديد، أدى إلى نفور كثير من المسلمين مما تدعو إليه الحركة الوهابية؛ وكانت تلك العقبة موضع ترحيب من «بعض الجهات» التي تخشى عودة اتحاد الشعوب العربية إلى درجة الرعب.[2]

بعد فترة وجيزة دخل الأمير عبد اللّه ـ كان في نحو الأربعين من عمره، متوسط القامة، له لحية قصيرة شقراء، يخطو بنعومة لابساً خفاً من الجلد الأسود، وعباءة عربية فضفاضة من الحرير الأبيض الشفاف، فوق جلباب عربي أبيض. بادرني قائلاً: «أهلاً وسهلاً»، وكانت أول مرة توجه إليّ فيها تلك التحية العربية الحميمة.

كان في شخصية الأمير عبد اللّه جانب جذاب وآسر، روح دعابة قوية، تعبيرات دافئة وسرعة بديهة. لم يكن من الصعب اكتشاف سر شعبيته في تلك الأيام وحب شعبه له. وعلى الرغم من عدم تقبل كثير من العرب للدور الذي أدّاه في تنفيذ

---

١ـ البيوريتانيون: جماعة دينية مسيحية متشددة هاجرت من إنكلترا إلى المستعمرات في شمال شرق أمريكا تجنباً للاضطهاد.

٢ـ سبب معارضة بعض المسلمين لمبادئ دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب، رحمه الله، هو انتشار الحركات الصوفية بكثرة في أغلب بلدان العالم الإسلامي، وكانت حركة الشيخ محمد عبد الوهاب قد حاربت الحركات الصوفية، فناصبوها العداء ونشروا ضدها ادعاءات باطلة.

السياسة البريطانية في تمرد العائلة الشريفة في الجزيرة وشرق الأردن ضد الحكم التركي لمصلحة البريطانيين، مما عُدَّ خيانة مسلمين لمسلمين آخرين، إلا أنه اكتسب مكانة متميزة بسبب دوره الذي أداه للقضية العربية ضد الصهيونية؛ إلا أنه سيأتي يوم تؤدي فيه مواقفه المتغيرة مع التغيرات السياسية إلى جعل اسمه مكروهاً ومبغوضاً في أرجاء العالم العربي كله. كنا نحتسي القهوة في أقداحٍ صغيرة يدور بها الخادم الأسود، وتحدثنا - كان الدكتور رضا يتدخل أحياناً للترجمة، وقد كان يجيد الفرنسية إجادة تامة - عن المصاعب الإدارية في الدولة الوليدة، بسبب اعتياد كل فرد على حمل السلاح، كما لا ينصاع إلى أي قانون إلا قانون عشيرته.

قال الأمير: «لدى العربي كثير من حسن الفهم والإدراك؛ حتى البدو بدؤوا يدركون أن عليهم التخلي عن الفوضى إذا أرادوا أن يتحرروا من الهيمنة الأجنبية، وحالات الثأر بين القبائل التي لابد أنك سمعت عنها، تختفي الآن تدريجياً».

تناقشنا حول طبائع القبائل البدوية العنيدة التي اعتادت قتال بعضها بعضاً لأسباب بسيطة. كانت ثارات الدم تستمر على مدى أجيال، ويورث الثأر المستحق من الأب لابنه على مدى قرون، وتؤدي إلى مزيد من إراقة الدماء في سلسلة ثأر متبادل لا تنتهي وما يتمخض عنه من كراهية مريرة دائمة، مع أن السبب الأصلي الذي بدأ القتال لأجله يكون قد نسي. لم تكن هناك إلا وسيلة واحدة لوضع حد لتلك الشقاقات: وهي تزويج شاب من القبيلة التي لا ثأر لها من فتاة عذراء من القبيلة التي عليها الثأر، وتعد دماء العذرية رمزاً للدم المطلوب من القبيلة التي عليها الدم. كانت بعض القبائل قد أنهكت من سلسلة الثأر المتبادل المستمر من أجيال، واستنزفت قوى كل من القبيلتين المتحاربتين؛ في مثل هذه الحالة، كان على طرف ثالث أن يرتب هذا الزواج حتى تنهي سلسلة الانتقام المتبادل.

قال لي الأمير عبد الله: «لقد فعلت ما هو أفضل من ذلك، لقد كونت مجالس تعويض لثأر الدم مكونة من رجال أجلاء محل ثقة الجميع يدورون في أنحاء البلاد لترتيب خطوبة العروس الرمزي، والزواج بين القبائل المتحاربة، ولكن...»

وهنا ارتجف جفناه «دائماً أؤكد لأعضاء تلك المجالس أن يهتموا عند اختيارهم للعروس العذراء، حتى لا تنتقل الثارات لداخل قبيلة العريس إذا أسيء اختيار زوجة له...».

ظهر صبي في نحو الثانية عشرة من عمره من خلف أحد الحواجز، مضى خلال ضوء الخيمة المعتم قليلاً بخطوات سريعة وقفز في سرعة على ظهر جواد طافر يثب على قائمتيه خارج الخيمة وخادم يمسك لجامه: كان الابن الأكبر للأمير عبد اللّه، الأمير طلال بقامته النحيلة، انقض على الجواد وبريق في عينيه رأيت فيه وجوداً غير حالم جعل العرب يبدون أبعد ما يكونون، عن كل ما عرفته عنهم وأنا في أوروبا.

عندما لاحظ إعجابي الواضح بابنه، قال الأمير عبد اللّه: «إنه مثل أي صبي عربي آخر، يكبر وفكرة واحدة في رأسه: الحرية، إننا لا نعتقد أننا بلا أخطاء، إلا أننا نحب أن نرتكب أخطاءنا بأنفسنا، وبذلك نتعلم كيف نتجنب الوقوع فيها من جديد - تماماً كما تتعلم الشجرة كيف تنمو باستقامة؛ وذلك بقيامها بالنمو بنفسها، أو كما تشق المياه الغزيرة مجراها لتتدفق فيه.لا نريد أن يوجهنا أحد إلى الحكمة من قِبل شعوب لا توجد لديها أصلاً أي حكمة، ليس لديهم إلا القوة فقط والمدافع والأموال ولا يجيدون إلا خسارة أصدقائهم الذين كان يمكنهم الاحتفاظ بهم بسهولة...»[١].

* * *

لم يكن بإمكاني البقاء أمداً غير محدد في فلسطين دون مورد مالي؛ ومرة أخرى ساعدني «چاكوب دي هان». كان له اتصالات وعلاقات كثيرة عبر أوروبا كلها لكونه صحفياً معروفاً. وأدت توصيته بي لدى صحف كثيرة إلى تعاقدين مع صحيفتين ناشئتين، واحدة في هولندا، والأخرى في سويسرا، لكتابة سلسلة

١- لم يكن بإمكان أحد في ذلك الوقت سنة ١٣٤١ (١٩٢٣م) أن يتنبأ بالصراع المرير الذي سينشأ ويفسد العلاقة بين الأمير عبد الله وابنه الأمير طلال - كان الابن يكره خضوع والده التام لسياسات بريطانيا في العالم العربي، كما كره الأب أحاديث ابنه الوطنية وخطبه، كما لم يتنبأ أحد بأي أمارة تدل على « الاضطراب العقلي» للأمير طلال والذي اتُخذ ذريعة للإطاحة به من عرش الأردن سنة ١٣٨١ (١٩٥٢م).

مقالات أتلقى أجرها بالجيلدر الهولندي والفرنكات السويسرية. ولأنها صحف محلية غير واسعة الانتشار فلم يكن بإمكانهم دفع أجر مجزٍ؛ إلا أنه لامرئ بسيط العادات مثلي، بدا الأجر كافياً لتمويل جولتي التي أخطط لها عبر الشرق الأوسط.

قررت أن أبدأ بسورية؛ إلا أن السلطات الفرنسية التي كانت تحتل سورية وتواجه بعداء شديد من قِبل الشعب ، رفضت إعطاء تأشيرة دخول لشخص يحمل الجنسية النمساوية إذ كانت النمسا معادية لفرنسا في الحرب العالمية الأولى، ولم يكن هناك ما أستطيع عمله إزاء ذلك؛ فقررت التوجه إلى حيفا ومنها أسافر بحراً إلى إستنبول، وكانت ضمن الجولة التي أخطط لها.

وقعت لي كارثة جديدة فى رحلة القطار من القدس إلى حيفا، إذ فقدت معطفي الذي كانت به حافظة نقودي وجواز سفري. لم يبق معي إلا بعض قطع نقود معدنية كانت في جيب سروالي. واتضح أن سفري إلى إستنبول أصبح مستحيلاً أيضاً. لم يتبق أمامي إلا العودة إلى القدس بالسيارة العامة؛ وأن أدفع ثمن العودة عند وصولي إلى القدس مقترضاً إياه من خالي دوريان كالمعتاد. وفي حالة عودتي إلى القدس لابد أن أنتظر عدة أسابيع حتى أحصل على جواز سفر جديد من القنصلية النمساوية بالقاهرة (لم تكن هناك قنصلية للنمسا في ذلك الوقت في فلسطين)، ثم أنتظر وصول قطرات مالية أخرى من هولندا وسويسرا.

هكذا وجدت نفسي في الصباح أمام مكتب السيارات العامة على مشارف مدينة حيفا. وانتهيت من التفاوض حول أجر الركوب، وتبقت ساعة على انطلاق السيارة إلى القدس، ولإضاعة الوقت، رحت أتمشى جيئة وذهاباً على الطريق، تملؤني مشاعر الضيق من نفسي ومن القدر الذي أجبرني على تلك العودة المهينة ومن جولة انتهت قبل أن تبدأ. كان الانتظار يضايقني على الدوام وتشعرني فكرة عودتي إلى القدس مهزوماً وذليلاً بمرارة أشد، وزاد من إحساسي بالمرارة تشكيك دوريان الدائم في قدرتي على تحقيق خططي بتلك الأموال الضئيلة الهزيلة. فوق كل ذلك لن أتمكن من زيارة سورية، واللّه وحده يعلم أكانت ستتاح لي فرصة أخرى لزيارتها أم لا. لن أرى دمشق.. لماذا؟

سألت بمرارة، هل دمشق محرمة عليّ؟

هل هي فعلاً محرمة عليّ؟ كانت الإجابة سريعة ومنطقية ـ فلا جواز سفر، ولا مال. ولكن هل من المحتم أن يكون هناك جواز سفر ومال...؟
عندما وصلت إلى ذلك المدى من التفكير، توقفت فجأة عن السير.. من الممكن إذا كانت هناك عزيمة كافية وقدرة على التحمل أن أقطع الرحلة سيراً على الأقدام، وأن أقبل كرم ضيافة الفلاحين العرب، ويحتمل أن أتمكن من عبور الحدود خفية دون جواز سفر ولا تأشيرات دخول.

قبل أن أعي أبعاد الأمر تماماً، كان عقلي قد اتخذ القرار: سأتجه فوراً إلى دمشق.

في دقيقة أخبرت مشرفي السيارة العامة أنني غيرت رأيي، ولن أسافر إلى القدس. وفي بضع دقائق أخرى استبدلت بملابسي ملابس العمال الزرقاء والكوفية العربية (وهي أفضل حماية عربية للمرء من ضربة الشمس)؛ وقمت بشراء بعض المتطلبات الضرورية وضعتها في حقيبة ظهر صغيرة، وأنهيت إجراءات إعادة حقيبة سفري التي كانت معي إلى دوريان في القدس، وانطلقت مبتدئاً طريقي الطويل إلى دمشق.

كان من الصعب التمييز بين إحساسي الطاغي بالحرية الذي ملأني وإحساسي الطاغي بالسعادة التي اعترتني. كانت معي بعض العملات المعدنية في جيبي؛ وانطلقت إلى مهمة غير مشروعة قد تنتهي بي إلى السجن؛ ومشكلة عبور الحدود تبدو أمامي غير واضحة؛ راهنت على قدرتي العقلية وحدها: وبعث ذلك في نفسي قدراً كبيراً من السعادة.

* * *

سرت على طريق الجليل، بعد الظهر أشرفت على مرج ابن عامر الذي يقع إلى أسفل على يميني، ثم مررت بالناصرة، وقبل حلول الظلام وصلت إلى قرية عربية تحيط بها أشجار الفلفل والصبار. على باب أول منزل كان يجلس بعض الرجال والنساء.

توقفت وسألتهم هل كانت هذه القرية هي «الرانية»، وبعد أن ردوا بالإيجاب، وأوشكت على مواصلة سيري، نادتني امرأة منهن: «ياسيدي، ترتاح قليلاً؟» كما لو كانت تتنبأ بعطشي، مدت إبريقاً مملوءاً بالماء البارد تجاهي، شربت حتى الارتواء، سألني أحد الرجال ـ وكان من الواضح أنه زوج السيدة التي سقتني ـ «ألا تأكل معنا كسرة خبز، وتقضي ليلك عندنا؟».

لم يسألني أحد منهم من أكون، وإلى أين أمضي، أو ما عملي؟ وبقيت الليل عندهم ضيفاً.

إن تكن ضيفاً على العرب: فهو شيء ذائع الصيت ومعروف لأطفال مدارس أوروبا، فهذا يعني أن تدخل عندهم ساعات، وعلى مدى بقائك عندهم يعاملونك كما لو كانوا أشقاءك وشقيقاتك. نزولك ضيفاً على العرب ليس مجرد تقليد نبيل بأن يكونوا مضيافين بذلك السخاء: إنها حريتهم الدفينة، متحررون من مشاعر عدم الثقة، ويفتحون حياتهم بكل سهولة أمام ضيفهم. إنهم لا يحتاجون إلى جدران سميكة مثل تلك التي يقيمها أبناء الغرب بينهم وبين جيرانهم.

تناولت العشاء معهم، الرجال والنساء، جالسين متربعي الساقين على بساط حول قصعة كبيرة مملوءة بالخبز الجاف المهشم، وعليه لبن. كان أصحاب الدار يقطعون قطعاً من أرغفة خبز طرية رقيقة يدورونها ويغترفون بها مما بالقصعة دون أن تمس أصابعهم ثريد اللبن الذي بالقصعة. أما أنا، فقد أعطوني ملعقة؛ إلا أني رفضتها، وحاولت أن آكل مثلهم بنجاح مما أسعد مضيفي لمحاكاتي لهم في طريقتهم الطيبة في تناول الطعام.

تمددنا عند النوم جميعاً، نحو دستة من البشر في الغرفة نفسها ـ رحت أحملق في القواطع الخشبية بسقف الغرفة الذي تتدلى منه حبال بها فلفل مجفف وباذنجان، وكانت في الجدار فتحات، وُضعت فيها أواني طبخ نحاسية وفخارية، دارت عيناي باتجاه الرجال والنساء النائمين، وسألت نفسي، هل كان من الممكن أن أشعر بمثل تلك المشاعر لو كنت في موطني؟

في الأيام التالية، بدأت تلال الأردن البنية وظلالها الزرقاء الرمادية والبنفسجية في الاختفاء التدريجي كلما واصلت السير، لتحل محلها تلال الجليل الخضراء البهيجة. من آن إلى آخر تجد نبع ماء يشق مجرى لمياهه بين الأشجار، والحياة النباتية أصبحت أغزر وأكثف، أشجار الزيتون تنمو بكثافة، وتجمعات لأشجار صبار دكناء طويلة؛ كانت آخر أزهار الصيف مازالت تتناثر هنا وهناك على جوانب التلال.

سرت جزءاً من الطريق برفقة أصحاب قوافل الجمال، وسعدت بصحبتهم البسيطة؛ ارتوينا من الماء الذي أحمله معي، دخنّا لفائف التبغ معاً، ثم انفصلت عنهم عندما تفرعت مقاصد كل منا. قضيت ليالي في منازل العرب، وأكلت معهم من خبزهم، وسرت أياماً في منخفض الجليل الحار بجوار بحيرة الجليل، ثم في برودة الجو المحيطة ببحيرة الحولة التي كان سطح مياهها يشبه مرآة معدنية يعلوها ضباب فضي رقيق تشوبه حمرة خفيفة تحت أشعة الشمس الآفلة. بالقرب من شاطئ البحيرة كان يسكن الصيادون الفقراء في أكواخ من حصير مثبت على قوائم من أغصان الأشجار الجافة. كانوا في غاية الفقر، وعلى الرغم من ذلك بدا عليهم أنهم لا يريدون أكثر من تلك الأكواخ في العراء، وتلك الملابس البسيطة التي محيت ألوانها، والقليل من الدقيق لعمل الخبز، والسمك الذي يصطادونه: ودائماً يبدو عليهم أن لديهم ما يزيد على حاجتهم، حتى إنهم يصرون على استضافة الغريب ليشاركهم طعامهم القليل.

* * *

كانت أقصى نقطة بشمال فلسطين هي مستعمرة المطلة اليهودية، كنت أعلم أنها منطقة تفصل بين منطقتي الإدارة البريطانية لفلسطين والإدارة الفرنسية لسورية. وبناء على اتفاق بين الحكومتين كانت مستعمرة المطلة ومستعمرتان أخريان ستنضمان إلى فلسطين. في أثناء تلك الأسابيع قبل انتقال المستعمرات إلى السيطرة السياسية البريطانية، لم تكن المطلة تحت سيطرة أي من الحكومتين، ولذلك كان مكاناً مثالياً أتسلل منه إلى سورية. كانت أوراق الهوية الشخصية مهمة جداً كما فهمت بعد ذلك عند الانتقال عبر الطرق الرئيسة، وكانت السلطات

الفرنسية متشددة جداً؛ ومن المستحيل أن أمضي على طريق رئيس داخل الأراضي السورية دون أن توقفني الشرطة الفرنسية. كانت المطلة لا تزال رسمياً تحت الهيمنة الفرنسية، وكل فرد بالغ فيها يحمل أوراقاً ثبوتية من السلطات الفرنسية، وأصبح من الضرورة الحصول على مثل تلك الأوراق.

قمت ببعض التحريات في حذر فوصلت إلى منزل رجل من الممكن أن يتنازل عن أوراقه الثبوتية. كان رجلاً ضخماً في أواخر الثلاثينيات من عمره، وكان ذلك الوصف مذكوراً في الوثيقة التي يحملها. كانت الوثيقة في حالة يرثى لها وعليها بقع من الزيت. أخرجها من جيب سترته؛ ولأن الوثيقة كانت من دون صورة شخصية، بدا الأمر أكثر سهولة.

سألته: «كم تطلب ثمناً لها»؟

أجاب: «ثلاثة جنيهات».

أخرجت من جيبي كل العملات المعدنية التي أملكها وعددتها فوجدتها خمسة وخمسين قرشاً، وهو ما يزيد قليلاً على نصف الجنيه.

قلت له: «هذا كل ما أملك، وبما أنني لا بد أن أحتفظ بشيء لباقي رحلتي فلن أستطيع أن أعطيك أكثر من عشرين قرشاً (وكان ذلك واحداً من خمسة عشر مما طلبه).

بعد دقائق من المساومة، استقر الثمن على خمسة وثلاثين قرشاً، وأصبحت الوثيقة ملكي. كانت ورقة مطبوعة على عمودين: أحدهما بالفرنسية، والآخر بالعربية - أما بيانات حاملها فقد كانت مكتوبة بالحبر على السطور المنقطة. لم تهمني خانة «الصفات الجسمانية»، لأنها كالمعتاد في مثل تلك الوثائق كانت الأوصاف تذكر بغموض. ولكن العمر المسجل في الوثيقة كان تسعة وثلاثين عاماً - بينما كان عمري ثلاثة وعشرين عاماً؛ ويبدو على ملامحي عشرون عاماً فقط.

كان لابد لأكثر الضباط إهمالاً في عمله أن يلحظ فارق العمر بين ما هو مدون وما أنا عليه؛ لذلك كان من الضروري أن أغيِّر العمر المذكور في الوثيقة. إذا بدلت العمر في أحد العمودين فقط، فإن التغيير لن يكون صعباً، ولسوء الحظ كان العمر مسجلاً باللغتين. وعلى الرغم من حرصي الشديد في أثناء تغيير العمر، فإن ما أنجزته لا يمكن وصفه إلا بأنه أسوأ أنواع التزوير وأوضحها؛ وأي امرئ سيكتشف على الفور أن الأرقام قد تم تزويرها في العمودين، إلا أنه لم يكن بإمكاني القيام بأفضل من ذلك، وكان عليّ أن أعتمد على حسن الحظ، وعلى إهمال رجال الشرطة الفرنسية.

قادني صاحب الوثيقة في الصباح الباكر إلى ممر خلف القرية، وأشار إلى بعض الصخور التي تبعد نحو نصف ميل وقال: «هذه سورية». سلكت الممر، وعلى الرغم من أن الوقت مازال باكراً في الصباح، إلا أن الجو كان حاراً، كانت امرأة عجوز تجلس أسفل الصخور التي تقع سورية خلفها؛ نادتني العجوز بصوت مرتعش: «هل تعطي جرعة ماء لامرأة عجوز يابني؟»، ناولتها وعاء الماء المعلق بكتفي وكنت قد ملأته قبلها بالماء البارد، شربت حتى ارتوت، ثم أعادته إليّ قائلة: «باركك اللّه، وحماك وهداك إلي ما تسعى إليه».
رددت عليها: «شكراً لك يا أمي، لا أطلب أكثر من هذا».
مضيت في الطريق، وبعد فترة التفت خلفي باتجاهها، رأيت شفتي العجوز تتحركان كما لو كانت تدعو لي، وشعرت بارتفاع معنوياتي.

وصلت الصخور وتجاوزتها: الآن أصبحت في سورية. كان أمامي سهل واسع وأجرد، عند الأفق البعيد، شاهدت أشباح أشجار وأشياء تبدو وكأنها منازل؛ خمنت أنها مدينة بانياس. لم أرتح لذلك السهل الفضاء الخالي من أي شيء يسترني، لأنني كنت على منطقة الحدود، إلا أنه لم يكن هناك خيار آخر. أحسست كما يشعر المرء أحياناً في الحلم عندما يجد نفسه في شارع مزدحم وهو عارٍ تماماً.
كان النهار قد انتصف عندما وصلت إلى جدول ماء يقسم الوادي. وحين جلست وخلعت حذائي وجوربي، رأيت على مبعدة أربعة من الخيالة يتحركون باتجاهي، كانت بنادقهم على السروج أمامهم، بدا أنهم من رجال الشرطة الفرنسيين المشؤومين، واتضح أنهم كذلك. لم يكن هناك أي جدوى من محاولة الفرار؛ لذلك

أيقنت أن ما سيحدث لابد واقع، ولو ألقوا القبض عليّ الآن، فمن المتوقع أن أتلقى ضربات بمقابض البنادق، ثم أساق إلى المطلة خارج سورية.

خضت في جدول الماء وجلست على حافته الأخرى، وانهمكت في هدوء في تجفيف قدمي منتظراً اقتراب رجال الشرطة الفرنسيين. وصلوا أمامي على الحافة الأخرى، تطلعوا إليّ في ارتياب: فعلى الرغم من أنني كنت أرتدي زياً عربياً، فقد كان من الواضح أنني أوروبي:

سألني أحدهم في حدة: «من أين أتيت؟».

أجبته: «من المطلة».

عاود سؤالي: «إلى أين ذاهب؟».

أجبته: «إلى دمشق».

سألني: «لماذا؟!.

رددت في مرح: «رحلة ترفيه».

سألني: «معك أوراق تثبت شخصيتك؟».

أجبته: «بالطبع...».

أخرجت الوثيقة وكأني كنت أخرج معها قلبي الذي بلغ حنجرتي. فحص الشرطي الوثيقة، وتطلع إليها وعاد قلبي منزلقاً إلى موضعه وبدأ في الخفقان بارتياح من جديد: فقد رأيته يمسك الوثيقة مقلوبة، اتضح لي أنه لا يعرف القراءة... وكانت الأختام الحكومية الكبيرة الثلاثة كافية لإقناعه، أعاد تطبيق الوثيقة بتثاقل وأرجعها إليّ قائلاً: «نعم، الوثيقة سليمة، اذهب».

ألحت عليّ فكرة أن أصافحه بحرارة، إلا أنني وجدت من الأفضل أن تظل العلاقة رسمية تماماً. أدار الرجال خيولهم وانطلقوا مبتعدين، بينما واصلت سيري.

ضللت الطريق قبل وصولي إلى بانياس. فما كان موصوفاً في خريطتي بأنه «طريق صالح لسير العربات»، تبين أنه ليس إلا ممراً يصعب تمييزه في جميع مواضعه، اختفى الطريق تماماً في منطقة تلال صخرية تنتثر عليها صخور كثيرة، تجولت عبر تلك التلال ساعات، صاعداً وهابطاً، حتى صادفت بعد الظهر بعض العرب يقودون حميراً تحمل عنباً وجبناً في طريقهم إلى بانياس فسرت معهم ما تبقى من الطريق؛ أعطوني بعض عناقيد العنب؛ وافترقنا عند حديقة على مشارف المدينة. كان تيار من الماءالصافي يتدفق بسرعة في مجرى ضيق على جانب الطرق، استلقيت على بطني، وغمرت رأسي حتى أذني في الماء البارد، وشربت حتى ارتويت...

لم أنو البقاء في بانياس على الرغم من إجهادي الشديد، لأنها أول مدينة على الجانب السوري، ولا بد أن يكون فيها مركز شرطة لمراقبة الحدود. كانت مقابلتي رجال الشرطة قد تركت في نفسي أثراً طيباً فيما يخص الأفراد السوريين في تلك القوات، فقد افترضت أن أغلبهم لا يعرفون القراءة. أما أي مركز شرطة فلابد أن يضم ضابطاً، وهنا سيختلف الأمر، لذلك انطلقت في همة عبر شوارع ضيقة ومسالك جانبية، مبتعداً قدر الإمكان عن الشوارع الرئيسة الواسعة التي يحتمل أن يقع بها مركز الشرطة. في إحدى الحارات سمعت عزفاً على عود يصاحبه غناء جماعي لرجال على وقع تصفيق بالأيدي، استدرت عند زاوية الحارة تجاه الموسيقى ـ وتسمرت في موضعي: فأمامي تماماً، على مسافة لا تزيد على عشر خطوات كان هناك باب كبير مكتوب عليه بالفرنسية «مركز الشرطة» وعدد من رجال الشرطة السوريين بينهم ضابط، كانوا جالسين على مقاعد في شمس ما بعد الظهيرة الحانية يستمعون إلى عزف واحد منهم ويصاحبونه بالغناء الجماعي. كان قد فات أوان التراجع، فقد رأوني، بل إن الضابط ـ وكان سورياً ـ

ناداني: «أنت، تعال هنا» لم يكن بإمكاني إلا الطاعة. تقدمت على مهل، ثم اجتاحت عقلي فكرة سريعة. أخرجت آلة تصويري، وحييت الضابط بالفرنسية بأدب، وواصلت دون أن أعطيه فرصة لسؤال: «أتيت من المطلة في زيارة سريعة، ورأيت ألا أعود قبل أن ألتقط صورة تذكارية لكم فقد، أطربني غناؤكم وأشجاني».
والعرب يحبون التملق، كما يحبون التقاط صور لهم؛ وافق الضابط في سرور وطلب مني أن أرسل إليه الصور بعد طبعها (وقد فعلت وأرسلت إليه الصور مع تحياتي). لم يهتم بعد ذلك بسؤالي عن أي أوراق، بل إنه دعاني إلى قدح من الشاي وتمنى لي رحلة طيبة عندما كنت أغادرهم عائداً إلى المطلة كما زعمت له. عدت أمامهم من حيث أتيت، ثم سرت في دورة واسعة حول المدينة، وحثثت السير باتجاه دمشق.

* * *

بعد أسبوعين بالضبط من مغادرتي حيفا، وصلت إلى قرية كبيرة - أو مدينة صغيرة - هي مجدل شمس، كان يقطنها أغلبية من الدروز والمسيحيين اخترت منزلاً يبدو عليه يسر الحال، وطلبت من الشاب الذي فتح لي الباب أن يسمح لي بالمبيت عندهم، «ويأهلاً وسهلاً» المعتادة فتح الباب على مصراعيه، وخلال دقائق كنت فرداً من أفراد البيت.

بما أنني قد أصبحت في عمق سورية، ومتاح لي عدة طرق للوصول إلى دمشق، أوليت صاحب الدار الدرزي ثقتي، وطلبت منه النصح، وكنت على يقين أن العرب لا يخونون ضيوفهم، وضعت أمامه كل الحقائق، بما فيها أنني أسافر بوثيقة مزورة. قال لي: إنها مخاطرة كبيرة إن رحلت على الطرق الرئيسة؛ لأنه توجد دوريات تجوب الطرق من مجدل شمس حتى دمشق من رجال الأمن الفرنسيين، ثم قال: «سأرسل ولدي لمرافقتك» وأشار إلى الشاب الذي فتح لي الباب عند قدومي: «سيقودك ولدي من طريق الجبال حتى لا تسير على الطرق الرئيسة».
جلسنا بعد العشاء في شرفة أمامية مفتوحة، وتحدثنا عن المسار الذي سنسلكه في الصباح. كنت أفرد على ركبتي خريطتي المكتوبة بالألمانية لمنطقة فلسطين وسورية التي أحضرتها معي من القدس وأحاول أن أتبين عليها المسار الذي ذكره

مضيفي الدرزي. وبينما كنا منهمكين في ذلك ظهر فجأة من زاوية الطريق ضابط سوري بزي الشرطة حتى إنه لم يتيسر لي وقت لتطبيق الخريطة، عدا إخفائها. على الفور أدرك الضابط أنني غريب، فبعد أن مر من أمامنا وهو يهز رأسه محيياً مضيفي، استدار عائداً ببطء تجاهنا: سأل بالفرنسية بلطف: «من أنت»؟.

أعدت عليه القصة المختلقة من أنني من المطلة في رحلة ترفيه؛ وعندما طلب رؤية أوراقي الثبوتية، كان عليّ أن أطلعه عليها. تطلع إلى الوثيقة بتركيز وانتباه، زم شفتيه قائلاً في عبوس: «ما هذا الذي بيدك؟ وأشار إلى الخريطة الألمانية. قلت له: إنها شيء غير مهم؛ إلا أنه أصر على رؤيتها، وفضها بأصابع فيها اتهام بإحراز خريطة، تطلع إليها لثوان، ثم طواها بعناية وأعادها إلي مبتسماً، ثم قال بلغة ألمانية ركيكة: «لقد خدمت أثناء الحرب في الجيش التركي جنباً إلى جنب مع الألمان» ثم حيَّاني بالطريقة العسكرية، وعبست ملامحه من جديد ومضى منصرفاً. قال مضيفي: «لقد ظن أنك ألماني. إنه يحب الألمان ويكره الفرنسيين، لا تخف فلن يسبب لك ضراً».

انطلقت في الصباح التالي بصحبة الشاب الدرزي إلى أصعب مسيرة مررت بها في حياتي، سرت ما يزيد على إحدى عشرة ساعة، لم نسترح إلا لتناول الغداء، سرنا خلال تلال صخرية وفي باطن ممرات جبلية، وعبر مجارٍ مائية جافة، ثم صعوداً إلى تلال جديدة بين كتل صخرية عملاقة، وعلى حواف صخرية حادة، صعوداً وهبوطاً، حتى تهالكت، وأحسست أنني لن أستطيع أن أسير أكثر من ذلك. ولما وصلنا مدينة قطنا على مشارف دمشق، كنت قد تهالكت تماماً، كان حذائي قد بلي وتمزقت قدماي وتورمتا. أردت أن أتوقف لقضاء الليل، إلا أن مرافقي الشاب رفض بشدة وحسم؛ لأن المنطقة فيها كثير من رجال الأمن الفرنسيين، ولأن قطنا مدينة وليست قرية، ولن أجد مكاناً أبيت فيه دون أن ألفت الأنظار، كان البديل الوحيد هو ركوب إحدى سيارات الأجرة التي تجوب المسافة بين قطنا ودمشق.

أخبرونا في مكتب النقل المتهالك الواقع في الميدان الرئيس لمدينة قطنا، أنه عليّ أن أنتظر نصف ساعة حتى موعد رحيل السيارة التالية. ودعت مرافقي الشاب

الذي احتضنني مودعاً كما لو كنت شقيقه، وغادرني عائداً إلى قريته. جلست وحقيبة ظهري إلى جواري بمكتب السفر، غفوت تحت أشعة الشمس الغاربة - وأفقت على من يهز كتفي بطريقة خشنة ليوقظني! كان رجل أمن سوري. ألقى عليّ الأسئلة المعتادة، وتبعتها الإجابات المعتادة، إلا أن الرجل لم يبد عليه الاقتناع وقال لي:

«هيا إلى قسم الشرطة، وقل ما تريد للضابط المسؤول».

كنت مجهداً جداً حتى إنني لم أبال إن اكتشفوا حقيقة أمري.

كان الضابط في قسم الشرطة رقيباً فرنسياً ضخم الجثة، يرتدي سترة مفكوكة الأزرار، يجلس خلف مكتب عليه زجاجة خمر لم يبق منها إلا قليل منه، وإلى جوارها كوب متسخ.

كان ثملاً تماماً ويبدو عليه الغضب، تطلع إليّ بنظرات نارية قائلاً: «ماذا هناك؟».

أخبره رجل الأمن السوري بالعربية أنه وجد أنني رجل غريب أجلس في الميدان الرئيس، وأنه يشك في أمري؛ أخبرته بالفرنسية أنني لست غريباً، وأنني ملتزم القوانين.

صاح الرقيب الفرنسي: «ملتزم القوانين؟ لستم إلا أوغاداً متشردين تمضون جيئة وذهاباً لمضايقتنا. أين أوراقك؟» حين كنت أبحث في جيبي بأصابع متوترة لإخراج الوثيقة، دق المكتب بقبضته وتابع قائلاً: «لا تشغل بالك، اخرج من هنا» حين كنت أغلق الباب خلفي، لمحته يمد يده إلى الزجاجة ويتجرع ما بقي منها.

ما أجمل الراحة بعد العناء، بعد ذلك السير الطويل على الأقدام، ما أجمل الركوب، كلا، ليس ركوباً، بل انزلاقاً في سيارة تطوي الطريق المتسع العريض في سهل من البساتين الخضراء في الطريق إلى دمشق. تقع محطتي المنشودة هناك في الأفق

البعيد: بحر مترامي الأطراف من قمم الأشجار الخضراء، بينها بعض القباب اللامعة، ومآذن مساجد ترى بصعوبة تحت السماء. بعيداً إلى اليمين من الطريق، كان هناك تل وحيد أجرد، تلمع حافته تحت ضوء الشمس، وظلال ناعمة تزحف تحت سفحه. في السماء فوق التل، كانت تسبح غيمة مستطيلة، تلمع حوافها بأضواء الشمس الذهبية ومن خلفها زرقة عميقة للسماء؛ ومن بعيد وراء السهل الأخضر، ظهرت جبال رمادية اللون؛ إلى اليمين واليسار، وهواء منعش من كل اتجاه.

تتابعت المشاهد من بساتين فاكهة تحوطها أسوار طينية، إلى راكبي حمير وعربات تجرها حمير، ومجموعات من الجنود الفرنسيين. تحولت العتمة إلى لون الماء الأخضر. مرّ بالقرب من السيارة ضابط دورية فرنسي يقود دراجة نارية، يضع نظارات كبيرة لحماية عينيه من الهواء المندفع فبدا مثل السمكة. ثم أول بيوت المدينة، ثم: دمشق، موجة من الأصوات والضجيج بعد صمت السهل الواسع. كانت أول أضواء الليل تضيء بعض النوافذ والشوارع، أحسست بسعادة وبهجة لا أتذكر أني شعرت بمثلهما من قبل، إلا أن سعادتي لم تدم طويلاً، فقد توقفت السيارة عند نقطة تفتيش على مشارف المدينة.

سألت السائق: «ماذا هناك؟».

أجاب: «لا شيء، كل السيارات القادمة من خارج دمشق لابد أن تسجل وصولها في نقطة التفتيش..».

خرج رجل شرطة سوري من المبنى الذي يشرف على الطريق وسأل السائق: «من أين؟».
أجاب السائق: «من قطنا فقط».

قال الشرطي: «في.. هذه الحالة امض في طريقك» (كان ذلك يعد انتقالاً محلياً من مسافة قريبة لا تستحق التمحيص) بدل السائق وضع عصا القيادة التي زمجرت وأنّت، تحركنا وتنفست بارتياح من جديد. وفي تلك اللحظة صاح صوت من الشارع: «غطاء السيارة محلول» - أوقف السائق السيارة المتهالكة بعد أمتار قليلة

من نقطة التفتيش لفحص غطاء السيارة الذي تدلى على أحد الجوانب. وبينما كان منهمكاً في تثبيته، اقترب رجل الشرطة أكثر، نقل نظره إلى حقيبة الظهر التي كنت أضعها على أرض السيارة.

سألني في ارتياب: «من أنت؟».

وبدأت: «من المطلة...»، إلا أنه كان يهز رأسه في عدم تصديق كلما أوغلت في الرواية التي ذكرتها كثيراً قبل ذلك، ثم همس بشيء إلى السائق؛ لم أتبين منه إلا بضع كلمات هي: «جندي إنجليزي.. هارب» أول مرة أدرك أن الزي الأزرق والكوفية البنية بالعقال الذهبي وحقيبة الظهر بطرازها العسكري (وكنت قد اشتريتها من محل يبيع الأشياء القديمة بالقدس) تشبه جميعاً زي الجنود الأيرلنديين الذين جندتهم السلطات البريطانية للخدمة العسكرية في فلسطين، وتذكرت أن هناك اتفاقية بين السلطتين الفرنسية والبريطانية تنص على إعادة الفارين من الخدمة من أي منهما إلى الطرف الآخر...

حاولت بلغتي العربية الركيكة أن أشرح للشرطي أني لست فاراً من الخدمة؛ إلا أنه تجاهل كل ما أقول وصاح: «اشرح كل ذلك للمفتش».

وهكذا، أجبرت على التوجه إلى نقطة الشرطة، بينما اعتذر السائق بكلمات مبهمة عن عدم استطاعته انتظاري، وقاد السيارة مبتعداً حتى اختفى عن نظري.

لم يكن المفتش موجوداً بالنقطة عند دخولي إليها، كان على وشك الوصول في أي لحظة. أدخلوني غرفة خالية لا يوجد فيها إلا أريكة مستطيلة، وعدا باب الدخول إلى تلك الغرفة، كان بها بابان آخران فوق أحدهما مكتوب بالفرنسية: «حراس السجن»، وعلى الآخر كلمة واحدة: «السجن».

انتظرت في تلك الغرفة ذات المحتويات التي لا تسر، ما يزيد على نصف الساعة، وكلما مرت دقيقة يزيد يقيني أن رحلتي قد وصلت إلى نهايتها؛ لأن المفتش

سيكون أكثر وعياً من «الضابط»، ولو اكتشف أمري الآن، فلا بد أن أقضي أسابيع في السجن حتى موعد المحاكمة؛ ومن بعدها العقوبة المعروفة وهي ثلاثة أشهر في السجن؛ بعدها أسير على قدمي مصحوباً بشرطة راكبة - إلى حدود فلسطين؛ ثم يتوج كل ذلك بطردي من فلسطين لخرقي قوانين الجوازات. لم تكن العتمة في الغرفة التي كنت أنتظر بها تقاس بأي حال موازنة بالعتمة والإحباط اللذين كانا بداخلي في ذلك الوقت.

سمعت فجأة صوت محرك سيارة توقفت أمام المركز، وبعد لحظات دخل رجل يرتدي ملابس مدنية ويضع على رأسه طربوشاً أحمر، كان سريع الخطى، ويتبعه الشرطي الذي أحضرني وهو يتحدث إليه بحماس، كان من الواضح أن المفتش في عجلة من أمره.

لم أعرف بالضبط كيف وقع ما وقع، إلا أن ما فعلته في تلك اللحظة الحرجة كان نتاج ومضة نادرة للعبقرية الكامنة والتي تؤثر في مسار الأحداث في مواقف حرجة - وربما تؤدي عند رجال آخرين إلى تغيير مسار التاريخ - بقفزة واحدة اقتربت من المفتش، ودونما انتظار لأي سؤال منه، وجهت إليه سيل من الشكايات بالفرنسية من الإهانات الخرقاء التي قام بها رجل الشرطة الذي أخذني في حين أني مواطن بريء وهو يعتقد أني من الهاربين من الخدمة في الجيش البريطاني، وتسبب في تخلفي عن السيارة التي كنت أستقلها إلى المدينة. حاول المفتش أكثر من مرة أن يقاطعني، إلا أنني لم أتح له فرصة للكلام وحاصرته بسيل من الحديث المتواصل بلا توقف، خمنت أنه لم يدرك منه حتى عُشرِه، وربما لم يدرك إلا أسماء «المطلة» و«دمشق» التي رحت أكررها بعدد لا نهائي من المرات. كان من الواضح أنه متوتر ويعتريه الضيق لتأخره عن مهمة. كان لابد أن يقوم بها فوراً، إلا أنني لم أمكنه من الكلام، وواصلت من دون أن أتوقف حتى لالتقاط أنفاسي ووابل كلماتي لا ينقطع، في النهاية رفع يديه في يأس وصاح:

«توقف بحق الله. هل معك مستندات؟».

توجهت يدي بصورة آلية إلى جيب الصدر، وأنا مستمر في سيل الكلام، ودفعت

إليه وثيقتي المزورة. ويبدو أن الرجل المسكين كان يشعر أنه يوشك على الغرق، فقد رفع حافة الوثيقة المطلوبة دون أن يفضها، ولمح الخاتم الرسمي، وألقاها من جديد صائحاً:

«حسناً، حسناً، اذهب، فقط اذهب» - ولم أنتظر أن يكررها أكثر من ذلك.

* * *

كنت قد التقيت مدرساً دمشقياً في القدس قبل ذلك بعدة أشهر، ودعاني أن أكون ضيفه متى جئت إلى دمشق، وفور وصولي بدأت السؤال. عرض صبي صغير أن يرشدني واصطحبني يداً بيد ليدلني على المنزل.

دخلنا المدينة القديمة بعد منتصف الليل، حارات ضيقة، وزادت الشرفات الممتدة فوق الرؤوس من عتمة الشارع الضيق. كنت أرى على الضوء الأصفر المنبعث من محل فواكه أكواماً من البطيخ وسلال العنب. الناس كالأشباح: أسمع أحياناً أصواتاً حادة لنساء خلف النوافذ. قال الصبي مشيراً إلى منزل: «هنا». دققت الباب. أجاب شخص من الداخل، رفعت السقاطة ودخلت عبر ردهة معبدة. ميزت في الظلام أشجار فاكهة خضراء وحوضاً حجرياً تتوسطه نافورة ماء. نادى شخص من الدور العلوي: «تفضل ياسيدي»، صعدت درجات ضيقة على امتداد الجدار الخارجي، أفضى الدرج إلى شرفة علوية مفتوحة، وأفضت الشرفة إلى أذرع صديقي المفتوحة في ترحيب حار، كنت في غاية التهالك، تركت جسمي يتداعى بلا مقاومة على الفراش الذي خصني به، خشخشت أوراق الأشجار تحت وقع النسيم بالفناء الأمامي والحديقة الخلفية. ومن بعيد تناهت إلى سمعي أصوات مبهمة كثيرة: أصوات مدينة عربية كبرى توشك أن تنام.

* * *

تجولت في تلك الأيام الصيفية في الشوارع التجارية العتيقة الضيقة لدمشق، بإحساس رائع من الإثارة ناجم عن رؤية جديدة، وكلي أعين مفتوحة على جوانب لم ترد إلى وعيي من قبل وعلى رأسها عمق الجوانب الروحية عند أهل دمشق. كان

الإحساس بالأمن الداخلي لدى الأفراد ظاهراً من خلال تعاملاتهم بعضهم مع بعض، وفي حرارة التقائهم أو افتراقهم؛ في مشهد صديقين يسيران معاً وأيديهما متماسكة كالأطفال، والعائد لإحساسهم بعمق الصداقة التي تربطهم؛ كما تراه في سلوك أصحاب المحال التجارية بعضهم تجاه بعض، فلا توجد فيما بينهم مشاعر الخوف أو المنافسة أو الحسد أو الضغينة. قد يترك صاحب متجر متجره في حراسة جاره ومنافسه حين يضطره أي ظرف لترك متجره بعض الوقت. رأيت في مرات كثيرة بعض الزبائن يقفون أمام متجر خلا من صاحبه، وحين يبدو عليهم التردد إن كانوا ينتظرون عودة صاحبه أم ينصرفون إلى متجر آخر، أجد أن جاره ومنافسه يدخل بلا تردد مكان جاره الغائب ويبيع للزبائن ما يريدون، ليس من بضائعه، ولكن من بضاعة جاره الغائب، ويترك ثمن ما باعه على الطاولة، في أي مكان من أوروبا يجد المرء مثل تلك المعاملات التجارية الأمينة تجاه المنافسين؟

كانت بعض الشوارع التجارية مكتظة ببدو خشنين في أزيائهم الواسعة الطويلة الفضفاضة: إنهم يحملون معهم جميع أغراضهم اللازمة للحياة، ويعرفون طريقهم إلى ما يريدون، رجال طوال القامة، بنظرات حادة يقفون في جماعات ويجلسون أمام المحلات. لا يثرثرون كثيراً ـ كلمة واحدة، جملة قصيرة يلقيها أحدهم باهتمام، وتحل محل مجادلات ومحاورات طويلة. لا يعرف أولئك البدو لغو الحديث، ولا الكلام لمجرد الكلام، لأن ذلك علامة تأكّل روحي؛ ذكروني بوصف الجنة في آية من آيات القرآن الكريم تقول: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا﴾ . الصمت صفة من صفات البدو الجوهرية. يضمون أطراف عباءاتهم الواسعة المخططة بالأبيض والبني أو الأسود ويمضون أو يجلسون صامتين؛ يمرون بك في صمت، وينظرون نظرة مستطلعة مثل نظرة الطفل المستطلع، فخورين، ومتواضعين في حساسية عالية. عندما توجه إليهم الحديث بلغتهم، تضيء أعينهم بابتسامة مفاجئة. غير مستغرقين في ذواتهم ويسعدهم أن يشعر الآخرون بهم، نفوس عظيمة، متحفظون تماماً إلا أنهم منفتحو الفكر على كل شيء في العالم.

---

١ـ سورة الواقعة: آية ٢٥.

تدرك يوم الجمعة ـ عطلة المسلمين الأسبوعية ـ أن هناك تغيراً في وقع الحياة في دمشق ـ دوامات صغيرة من الفرح والسرور مع إجلال ومهابة دينية. فكرت في أيام الآحاد في أوروبا؛ في الشوارع الصامتة في المدن والمحال المغلقة؛ تذكرت كل تلك الأيام الخاوية والإحساس بالقهر الذي كانت تلك الأيام تجلبه.
لماذا هي كذلك؟

الآن بدأت أفهم وأدرك: الحياة اليومية لأغلب الناس في الغرب تشكل عبئاً ثقيلاً لا يحلهم منه إلا إجازة يوم الأحد، لم يعد الأحد يوم راحة بل يوم هروب ونسيان وهمي مصطنع من وطأة الواقع الذي يعيشونه، ويكون ثقله مضاعفاً وخطيراً..

أما عند العرب، فلا يبدو أن يوم الجمعة يوم هروب أو نسيان، ليس لأن ثمار الحياة تتساقط بسهولة في أحضانهم بلا جهد ولا مشقة، بل يعود السبب ببساطة إلى أن أعمالهم ـ حتى الشاق منها ـ لا تتعارض مع رغباتهم الشخصية. فالروتين غير موجود في حياتهم؛ على العكس من ذلك، هناك تواصل عميق ودفين بين العامل وما يعمله؛ لذلك تصبح الراحة ضرورية حين يشعر بالإجهاد. لقد رسَّخ الإسلام ذلك التناغم بين العامل وعمله كحالة تتسق مع التركيب والتكوين البشري، لذلك لا توجد راحة إجبارية يوم الجمعة. الحرفيون وأصحاب المحال الدمشقية يعملون يوم الجمعة عدة ساعات، ثم يغلقون أشغالهم لتأدية صلاة الجمعة وبعدها يلتقون بالأصدقاء على المقاهي، ثم يعودون إلى أعمالهم وصناعاتهم لساعات أخرى في سعادة واسترخاء نفسي، كل واحد وما يود. محلات قليلة تغلق يوم الجمعة، وباستثناء وقت صلاة الجمعة تجد الشوارع مملوءة بالناس مثل بقية أيام الأسبوع.

ذهبت مع صديقي ومضيفي إلى الجامع الأموي يوم الجمعة، الأعمدة الرخامية التي تعلوها قبة عظيمة كانت تلمع تحت ضوء الشمس الساقط من النوافذ. الجامع يفوح برائحة المسك، الأرض مغطاة بأبسطة حمراء وزرقاء. اصطف مئات المصلين في صفوف طويلة منتظمة خلف الإمام، ركعوا، سجدوا، مسوا الأرض

بجباههم، ثم نهضوا من جديد؛ كلهم في توحد مثل الجنود. كان المكان يسوده الصمت والناس وقوف، يسمع المرء صوت الإمام العجوز من أعماق صحن الجامع الواسع، يتلو آيات من القرآن الكريم؛ وحين يركع أو يسجد، يتبعه كل المصلين كرجل واحد، يركعون ويسجدون للّه.

أدركت في تلك اللحظة مدى قرب اللّه منهم وقربهم منه. بدا لي أن صلاتهم لا تنفصل عن حياتهم اليومية؛ بل كانت جزءاً منها ـ لا تعينهم صلاتهم على نسيان الحياة، بل تعمقها أكثر بذكرهم للّه.

قلت لصديقي ومضيفي ونحن ننصرف من الجامع بعد الصلاة: «ما أغرب ذلك وأعظمه! إنكم تشعرون أن اللّه قريب منكم، أتمنى أن يملؤني أنا أيضاً مثل ذلك الشعور».

رد صديقي: «ما الذي يمكن أن تحسه غير ذلك يا أخي؟ اللّه يقول في كتابه العزيز:

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾[1].

* * *

قضيت جل وقتي في دمشق أقرأ من الكتب كل ما له علاقة بالإسلام بدافع إدراكي الجديد. كانت لغتي العربية تسعفني في تبادل الحديث، إلا أنها كانت أضعف من أن تمكنني من قراءة القرآن الكريم، لذا لجأت إلى ترجمتين لمعاني القرآن الكريم ـ واحدة فرنسية والأخرى ألمانية ـ استعرتهما من مكتبة. أما ما عدا القرآن الكريم، فقد اعتمدت فيه على أعمال المستشرقين الأوروبيين، وعلى ما يشرحه لي صديقي.

ومهما كانت ضآلة ما عرفت، إلا أنه كان أشبه برفع ستار. بدأت في معرفة عالم من الأفكار كنت غافلاً عنه وجاهلاً به حتى ذلك الوقت.

---

١ـ سورة ق: آية ١٦.

لم يبد الإسلام لي ديناً بالمعنى المتعارف عليه بين الناس لكلمة دين، بل بدا لي أسلوباً للحياة؛ ليس نظاماً لاهوتياً بقدر ما هو سلوك فرد ومجتمع يرتكز على الوعي بوجود اللّه الواحد. لم أجد في أي آية من آيات القرآن الكريم أي إشارة إلى احتياج البشر إلى «الخلاص» الروحي. ولا يوجد ذكر «الخطيئة الأولى»، موروثة تقف حائلاً بين المرء وقدره الذي قدره الله له ـ ولا يبقى لابن آدم إلا عمله الذي سعى إليه، ولا توجد حاجة إلى الترهب والزهد لفتح أبواب خفية لتحقيق الخلاص: الخلاص حق مكفول لكل البشر بالولادة، والخطيئة لا تعني إلا ابتعاد الناس عن الفطرة التي خلقهم اللّه عليها. لم أجد أي أثر يدل على الثنائية في الطبيعة البشرية: فالبدن والروح يعملان في المنظور الإسلامي كوحدة واحدة متكاملة لا ينفصل أحدهما عن الآخر.

أدهشني في البداية اهتمام القرآن الكريم ليس بالجوانب الروحية فقط، بل بجوانب أخرى غير مهمة من الأمور الدنيوية؛ ولكن مع مرور الوقت بدأت أدرك أن البشر وحدة متكاملة من بدن وروح ـ وقد أكد الإسلام ذلك ـ لا يوجد وجه من أوجه الحياة يمكن أن نعده «مهمّشاً»، بل إن كل جوانب حياة البشر تأتي في صلب اهتمامات الدين. في كل المجالات، لم يدع القرآن الكريم المسلمين ينسون أن الحياة الدنيا ليست إلا مرحلة في طريق البشر نحو تحقيق وجود أسمى وأبقى، وأن الهدف النهائي ذو سمة روحية. ويرى أن الرخاء المادي لا ضرر منه إلا أنه ليس غاية في حد ذاته؛ لذلك لابد أن تقنن شهية الإنسان وشهواته ويتم السيطرة عليها بوعي أخلاقي من الفرد. وهذا الوعي لا يوجه إلى اللّه فقط، بل يوجه أيضاً إلى البشر فيما بينهم؛ لا من أجل الكمال الديني وحده، بل من أجل خلق حالة اجتماعية تؤدي إلى تطور روحي للمجتمع بأجمعه، حتى يتمكن المجتمع من أن يحيا حياة كاملة...

نظرت إلى كل تلك الجوانب الفكرية والأخلاقية بتقدير وإجلال، كان منهجه في تناول مشكلات الروح أعمق كثيراً من تلك التي وجدتها في التوراة، هذا عدا أنه لم يأت لبشر دون بشر ولا لأمة بذاتها دون أخرى، كما أن منهجه في مسألة البدن بعكس الإنجيل، منهج إيجابي لا يتجاهل البدن. الروح والبدن معاً يكونان البشر،

كتوأمين متلازمين سألت: ألا يمكن أن يكون ذلك المنهج هو السبب الكامن وراء الإحساس بالأمن والتوازن الفكري والنفسي الذي يميز العرب والمسلمين؟!

* * *

دعاني مضيفي ذات مساء لمصاحبته إلى الاحتفال في منزل أحد أصدقائه الأثرياء من أهل دمشق بمناسبة مولد ابن له.

سرنا عبر شوارع متعرجة في المدينة القديمة، كانت حارات ضيقة حتى إن الشرفات ذات الطراز العربي توشك أن تتلامس. كان الظلال والصمت يسودان المنازل المشيدة من الحجر؛ من آنٍ إلى آخر، كانت تقابلنا بعض نساء محجبات بحجب سوداء ويسرن بخطوات قصيرة سريعة، أو نلتقي برجل ملتحٍ يرتدي قفطاناً طويلاً، يظهر من منحنى الطريق ويختفي في بطء خلف منعطف يليه، الحي القديم مملوء بشوارع ضيقة تتكرر وتتقاطع بعضها مع بعض في كل الاتجاهات؛ توحي إليك دائماً أنها تقودك إلى كشف مذهل، إلا أنها تفضي إلى حارة ضيقة أخرى مماثلة لا تختلف عنها في شيء.

توقف صديقي في النهاية، أمام باب لا يتميز من غيره من الأبواب، كان الباب في منتصف سور من الطين المكسوّ بالجص وقال: «هاقد وصلنا»، ودق بقبضته الباب المغلق. فتح الباب، وأصدر صريراً، وجدنا أمامنا رجلاً طاعناً في السن يرحب بنا بفم خلا من الأسنان «أهلاً، أهلاً وسهلاً» مضينا عبر ردهة قصيرة دارت بنا مرتين بزاوية قائمة أفضت بنا في النهاية إلى فناء ذلك المنزل الذي لا يشي مظهره الخارجي بأكثر من سور طيني مدهون بالجص. كان الفناء واسعاً ومكشوفاً، أرضه مصممة وكأنها رقعة شطرنج هائلة الاتساع بمربعات من الرخام الأبيض والأسود. وفي المنطقة المنخفضة كان هناك حوض نافورة (بحرة) من الحجر ثمانيّ الأضلاع من منتصفها يخرج ماء النافورة (البحرة) موسوساً رقراقاً. في مربعات بين رخام الأرضية نمت أشجار الليمون والدفلى، تنشر أريج أزهارها عبر الفناء بأجمعه وإلى داخل المنزل، أما جدران المنزل التي تحيط بالفناء فقد غطتها من الأرض حتى قمتها نقوش من الرخام دقيقة الصنعة. رقيقة الجمال في أشكال هندسية عربية متداخلة لايقطعها إلا نوافذ الغرف التي تطل على الفناء ويؤطرها رخام عريض محزم بأشكال بديعة الصنعة. على أحد جوانب الفناء

كان هناك فراغ على ارتفاع ثلاث أقدام من الأرض ترتقي إليه بدرج عريض من الرخام وعلى جوانب هذا الفراغ - يسمى ليوان - صنعت أرائك مقصبة، بينما فرشت أرضه بأبسطة ثمينة. كانت حوائط الليوان مغطاة بمرايا ضخمة يصل ارتفاعها إلى خمس عشرة قدماً - كان الفناء بأشجاره ومربعات أرضه من الرخام الأبيض والأسود، ونقوش الرخام البارزة بالجدران، والنوافذ الرخامية والأبواب المنقوشة التي تفضي إلى داخل المنزل، والألوان الكثيرة لأزياء الضيوف الجالسين بالليوان والمجتمعين حول النافورة (البحرة) - تضاعف كله خلال مرايا الليوان: وحين تنظر إلى تلك المرايا والتي تقابلها مرايا أخرى على الحوائط المقابلة، ينعكس المشهد مرتين، أربع مرات، بل مئات المرات بلا نهاية؛ وبذلك يتحول إلى مشهد سحري من عقود رخامية لا نهاية لها، ونوافير بلا نهاية، وأعداد لا نهائية من الضيوف؛ وغابات من أشجار الليمون وأزهار نبات الدفلى - مكان يشبه الحلم، يتألق تحت سماء المساء التي مازالت وردية من آخر بقايا أشعة الشمس التي غربت.

مثل ذلك المنزل البسيط من الخارج، والمبهج الثري من الداخل كان جديداً تماماً على شخص مثلي؛ وبمرور الزمن أدركت أنه النمط والطراز للمسلمين التقليديين الميسوري الحال، ليس في سورية والعراق وحدهما، بل في إيران أيضاً. لم يهتم العرب ولا مسلمو إيران في العصور المبكرة للإسلام بالواجهات الخارجية: فالغرض من المنزل أن نحيا داخله ووظيفته محدودة بداخله. ويختلف ذلك كلياً عن التوجه العملي «النفعي» الذي يتبعه معماريو الغرب المحدثون. لقد سقط أهل الغرب في نوع من الرومانسية المعكوسة، وفي عدم ثقتهم بمشاعرهم الذاتية فإنهم يشيدون مناظر لا منازل؛ أما العرب والإيرانيون فإنهم يبنون منازل لا مناظر.

أجلسني صاحب الدار إلى يمينه على الأريكة، ودار خادم حافي القدمين بأقداح صغيرة من القهوة مصفوفة على صينية من نحاس عليها نقوش، اختلط الدخان المتصاعد من النراجيل برائحة ماء الورد بالليوان وارتفع في موجات تجاه الفوانيس الزجاجية التي كانت تضاء واحداً بعد آخر على امتداد الجدران وبين الخضرة الدكناء للأشجار.

كان جمع الضيوف ـ وكلهم رجال ـ في أزياء متباينة: رجال في قفاطين من الحرير الدمشقي أو الصيني الخالص بلون العاج، عليها جبة من الصوف بألوان خفيفة متداخلة، وعمامة ذات حواف مذهبة تحكم وضع الطربوش على الرأس؛ وبعضهم في ملابس أوروبية، إلا أنهم كانوا يجلسون متربعي الساقين على الأرائك، وبعض زعماء البدو بشكلهم المعتاد: عيون سوداء تلمع ببريق يشي بالعظمة، ولحى صغيرة حول وجوه نحيلة دكناء. ملابسهم الجديدة تصدر حفيفاً مع كل حركة ويحملون جميعاً سيوفاً في أغماد فضية. كان جميع الضيوف مسترخين في دعة واطمئنان عميق: أرستقراطية حقيقية. كان يحيط بالجميع جو طيب، طقس جاف وصافٍ ـ الجو نفسه الذي أحسسته على حافة الصحراء، يحيطهم في بساطة ولا يقتحمهم، بدوا مثل أصدقاء متباعدين، مثل زائرين مارين بمكان؛ حياتهم الحرة الخالية تنتظرهم في مكان آخر غير هذا.

دخلت فتاة راقصة من أحد الأبواب، صعدت الدرج حتى الليوان. كانت في مقتبل شبابها، ولا تتجاوز العشرين من عمرها، ذات جمال طاغٍ، ترتدي سروالاً فضفاضاً من الحرير الشفاف وله ثنيات، وزوج من الأخفاف الذهبية بقدميها، وصدرية موشاة بما يشبه اللؤلؤ، ولا تستر جسمها، كانت تتحرك بإحساس من العظمة يحسه من اعتاد أن يكون موضع إعجاب: سرت همسات الاستحسان والسرور بين الرجال عند رؤيتهم فتاة تنبض بالحيوية والشباب وبشرتها المشدودة في لون العاج.

رقصت بمصاحبة ضابط إيقاع دخل في أثرها، رقصة تقليدية تموج بالإيماءات البدنية الموحية وهو رقص يلقى إقبالاً في الشرق ـ رقص يثير كوامن الرغبات.

همس صديقي وهو ينظر باتجاهها: «ما أجملك! ما أروعك!» ثم ضرب بكفه على ركبتي بخفة وقال: «أليست كالكف الحانية على الجرح؟!» وكما ظهرت بسرعة، اختفت أيضاً بسرعة؛ لم يتبق منها إلا بريق خافت في أعين الرجال. احتل مكانها على البساط في الليوان أربعة موسيقيين ـ بعضهم من أفضل العازفين في سورية كما أخبرني أحد الضيوف. كان يحمل واحد منهم عوداً طويل العنق، وآخر كان يحمل طبلة، والثالث يحمل آلة القانون الوترية، وكان

الرابع يحمل طبلة نحاسية مصرية. بدؤوا في شد الأوتار ونقر الطبول برقة، كل منهم على آلته دون توافق، كل منهم يضبط آلته وإيقاعها قبل أن يبدأ العزف في إيقاع متناغم. جرّ صاحب القانون أصابعه على الأوتار؛ أما حامل الطبلة النحاسية فقد كان ينقر عليها بأصابعه ويتوقف برهة ثم يعاود النقر؛ وعازف العود راح يجرب أوتاره كأنه شارد الذهن في تتابع سريع، نغمات أوتار بدت كأنها تتوافق بالمصادفة مع إيقاع الطبلة ثم نغمات القانون وقبل أن تعي تماماً ما يحدث، يبدأ اللحن الجماعي يربط العازفين الأربعة معاً في لحن متناغم واحد. لحن! لا أستطيع أن أقول لحناً، فقد بدا لي أنني لا أستمع إلى أداء موسيقي بقدر ما أشاهد حدثاً مثيراً. فعدا النغمات الصادرة عن الآلات الوترية نما إيقاع جديد، يرتفع في دوامات حادة، ثم فجأة، يهبط ويتخافت - مثل إيقاع ارتفاع أداة معدنية وانخفاضها، أسرع ثم أبطأ، أرق ثم أشد: ثم في هدوء ودوام، تنويعات لا نهائية، نغم يشي بالدوام، صوت يرتجف في خمول، ينمو، ثم ينتشر بقوة، فيقتحم العقل، ثم فجأة وبعد أن يصل إلى قمة عالية من التناغم ينتهي ويسود صمت. أحسست أنني وقعت في هوى تلك الموسيقى. شدتني النغمات التي كانت أحادية، وإيقاعها يستدعي إلى ذهني رتابة وقوع الظواهر الأبدية وتكرارها في هذا الوجود، وتدق أبواب المشاعر الدفينة، وتستل منها خطوة بعد خطوة كل ما كان يموج داخلها دون أن نعيه... تُعري أمامنا أشياء كانت داخلنا على الدوام، وتجعلها واضحة حميمية، وحارة صادقة تدفع قلبك إلى الخفقان.

لقد اعتدت بالطبع الموسيقى الغربية التي تتدفق فيها كل انفعالات المؤدي في أداء فردي يعكس على المستمع حالته المزاجية، إلا أن تلك الموسيقى العربية تبدو كأنها تتدفق من مستوى ما في اللاوعي، من توتر واحد إلا أنه ليس إلا توتراً يمثل مشاعر شخصية لدى كل مستمتع على حدة...

بعد ثوانٍ من الصمت، تدفقت إيقاعات الطبلة النحاسية من جديد، ثم تبعتها كل الآلات معاً. نغمات راقصة رقيقة، لحن أنثوي أرق من سابقه؛ وراح المغنون يضبطون أصواتهم في إيقاع واحد، يحتضن كل صوت الآخر بدفء

ونعومة، ثم كأنها اتحدت معاً في دفقة واحدة، زادت بهجة وابتهاجاً؛ كانت الأصوات يلاحق بعضها بعضاً، ويتدفق بعضها حول بعض في موجات ناعمة تتصادم في البداية مرة بعد أخرى، مع إيقاع الطبلة النحاسية الذي يبدو كحاجزٍ تتصادم عنده الأصوات، إلا أن الأصوات تصاعدت فغلبت ذلك الحاجز وقهرته وسيرته طبقاً لإيقاعها وجرّته إلى إيقاع عام حلزوني متصاعد: أما الطبلة النحاسية التي قاومت في البداية فسرعان ما سقطت فريسة للطرب العام المتصاعد من الأصوات المنشدة التي اتحدت في نشوة بعضها مع بعض، وفقد لحن البداية المتماوج رقته النسائية، وراح يعدو بعنف متزايد، أسرع، وأعلى، وأكثر حدة، إلى غضب بارد من عاطفة واعية تخلصت من كل الكوابح، وتحولت إلى تصاعد متسلق إلى قمم غير مرئية من القوة والامتلاك، ومن تدفق النغمات الدائرة بعضها حول بعض، انبثق تناوب عظيم من اتساق النغمات ـ اندفاع عجلات مندفعة من ديمومة إلى ديمومة، دون قياس ولا حدود ولا هدف، مبهورة النفس، كالسير مقيد على حد سكين، عبر حاضر المرء الأبدي، إلى وعي بالحرية والقوة، فوق كل فكر. وفجأة، في منتصف تدفق حميم: توقف مباغت وصمت مطلق، قاس، أمين، ونقي.

استعاد المستمعون أنفاسهم مثل خشخشة أوراق الشجر، وهمسات مبهورة تسري: «اللّه، اللّه». كانوا مثل أطفال حكماء عقلاء يلعبون ألعاباً طالما حفظوها عن ظهر قلب إلا أنها مازالت تغريهم بلعبها، كان كل من بالفناء يبتسم في سرور وبهجة...

(٣)

ـ راكبين، سائرين، وزيد يغني: اللحن نفسه على الدوام، اللحن نفسه أحادي النغمة، روح العرب أحادية النغمة ـ لا بمعنى فقر الخيال والإبداع، فهم يحوزون على الكثير منه؛ إلا أن غريزته لا تمضي منطلقة مثل غريزة الرجل الغربي خلف فراغ ثلاثي الأبعاد ذي جوانب انفعالية متعددة، أما الموسيقى العربية فتعبر في كل مرة عن رغبة واحدة أو انفعال واحد يحمل تجربة عاطفية أو معنوية واحدة إلى أقصى ما يمكن أن تصل إليه تلك العاطفة المعنوية، وتدين الشخصية العربية

بقوتها لأحادية النغم هذه، برغبة حسية ترمي إلى تكثيف المشاعر في خط متصاعد مستمر، وتدين لها أيضاً بأخطائها. وهي خطأ: لأنه لابد من المرور بالتجارب الشعورية في فضاء الأبعاد الثلاثية المجسدة بعيداً عن المشاعر المجردة وحدها. كما تستمد منها قوتها: في الإيمان بإمكانية الصعود الخطّي المضطرد للمعارف الانفعالية التي يمكن في مجال العقل ألا تؤدي إلا لمعرفة اللّه. لقد نما التوحيد على أسس من ذلك الميل الفطري المميز فقط لأهل الصحراء، وظهر أول ما ظهر بين أتباع الأنبياء الأوائل واكتمل برسالة محمد ﷺ المظفرة. ومن خلفهم جميعاً تقف الصحراء الأم.

# الفصل الخامس

شارع في مكّة المكرّمة
١٣٤٥ (١٩٢٧م)

## روح وجسد

مرت الأيام، وقصرت الليالي،
ونحن نمضي راكبين باتجاه الجنوب
في سير حثيث، كانت الجمال
في أفضل حال - فقد شربت الناقتان
حتى الارتواء، وأكلتا كميات
وافرة من الكلأ، مازال أمامنا أربعة عشر يوماً
حتى نصل إلى مكّة المكرّمة،
وربما أكثر إن أمضينا وقتاً أطول
في حائل وفي المدينة المنورة من بعدها،
وهما تقعان على طريقنا إلى مكّة المكرّمة.

سيطرت عليّ حالة من الملل، حالة من التعجل لم أدر لها سبباً أو تفسيراً. فحتى تلك اللحظة كنت أستمتع بالترحال في استرخاء نفسي، من دون دوافع ملحة تدفعني إلى الوصول إلى مقصدي بسرعة؛ كانت الأيام والأسابيع التي أقضيها مرتحلاً تحقق إشباعاً محبباً إلى نفسي، ولم يكن مقصدي يشكل الأهمية نفسها أبداً.

بدأت الآن أشعر بما لم أشعر به خلال كل الأعوام التي قضيتها في الجزيرة العربية: تعجل بنفاد صبري للوصول إلى نهاية الطريق، أي نهاية؟ لرؤية مكّة المكرّمة؟ قضيت في مكة المكرمة قبل ذلك أوقاتاً طويلة، وأعرف حياتها اليومية بكل تفاصيلها، حتى إنها لم تعد تثير في نفسي أي إحساس بتوقع شيء جديد. أم أنه نوع جديد من الكشف أشعر به مقدماً؟ لابد أنه كذلك ـ فمكة دائماً كانت تجذبني بإحساس وتوقع داخلي أستشعرهما في نفسي، كما لو كان ذلك المركز الروحي للعالم الإسلامي، بتجمعاته البشرية القادمة من كل أرجاء الأرض، نوعاً من الوعد، بوابة مرور إلى عالم أرحب من الدنيا والعالم الذي عشته حتى اللحظة. لم يكن تعجلي ونفاد صبري يعني أنني سئمت ومللت الجزيرة العربية؛ كلا بالطبع، فأنا أعشق صحاريها، ومدنها، وشعبها وأسلوب حياته، كما أحببته على الدوام قبل ذلك: فمنذ الوهلة الأولى التي رأيت فيها أول مرة في صحراء سيناء من عشرة أعوام مضت، بدواً من الجزيرة العربية؛ سكن حبهم في قلبي، ولم يهن بعد ذلك أبداً، ثم أكدت الأعوام التالية انطباعاتي الأولى المبكرة: إلا أنه منذ تلك الليلة التي نزلت فيها البئر للاستحمام، نمت داخلي قناعة أن الجزيرة العربية قد وهبتني كل ما يمكن أن تهبه لي.

كنت شاباً، قوي البنية، وصحتي في أفضل حال، يمكنني ركوب الجمل ساعات طويلة من دون تعب أو إجهاد، يمكنني أن أرتحل ـ وقد فعلت ذلك على مدى أعوام ـ مثلما يرتحل بدو الصحراء، بلا خيمة، ومن دون وسائل الراحة التي لا يستغني عنها أهل نجد، ويرون أنها ضرورية في رحلات الصحراء الطويلة على الجمال. أشعر كأني في منزلي في رحلات الصحراء، اعتدت دون أن أشعر، عادات عرب نجد وتقاليدهم، فهل ذلك ما أردته؟ هل عشت كل ذلك الزمن في الجزيرة العربية

لأصبح عربياً فقط؟ أم أن ما فات كان تحضيراً وإعداداً لشيء أجهله وسيأتي في حينه؟

* * *

كان الملل الذي شعرت به يماثل الملل الذي أحسست به لدى عودتي إلى أوروبا بعدأول سفر لي إلى الشرق الأدنى: إحساس من أُجبر على التوقف قبل التوصل إلى كشف عظيم سيميط عن نفسه الحجب لو أتيح له مزيد من الوقت...

كانت الأشهر التي قضيتها في تركيا بعد أن غادرت سورية في خريف سنة ١٣٥١ (١٩٣٢م)، قد خففت من وطأة الانتقال من عالم العرب إلى أوروبا. لم يكن مصطفى كمال أتاتورك في تلك الأيام قد قام بانقلابه؛ وكانت تركيا لا تزال تحيا بكل تقاليدها الموروثة الأصيلة، وانتمائها حتى ذلك الوقت إلى العالم الإسلامي. كان نمط الإطار العام للحياة يمضي بالوتيرة الغريبة نفسها للحياة العربية: إلا أن إيقاع الحياة التركية الداخلي بدا أثقل وأشد وطأة وأقل شفافية، وأكثر تأثراً بالغرب من البلاد العربية.

عندما رحلت على طريق البر من إستنبول إلى صوفيا وبلجراد، لم يكن الانتقال فجائياً من الشرق إلى الغرب؛ فالأشكال والصور كانت تتغير تدريجياً خلال ذلك الانتقال، يتقهقر عنصر من عناصر الحياة ليحل محله عنصر مختلف بشكل مغاير ومختلف في بلد يليه، بدأت مآذن المساجد تقل أعدادها وتزداد بينها المسافات، بدأ قفطان الرجال الطويل يختفي تدريجياً ليحل محله كلما اتجهت غرباً قميص طويل من فوقه حزام لمزارعي شرق أوروبا، وحلّت الغابات الكثيفة في مناطق الصرب مكان الأشجار المتناثرة وبساتين الأناضول حتى وصلت إلى حدود إيطاليا: فجأة وجدت نفسي في أوروبا.

بدأت انطباعاتي عن تركيا تفقد حيويتها وأنا في القطار المتجه إلى مدينة «تريست» إلى «ڤيينا»؛ وما ظل راسخاً هو الثمانية عشر شهراً التي قضيتها في البلاد العربية. صدمني إدراكي أنني كنت أتطلع إلى المشاهد الأوروبية التي

اعتدتها بعيني من هو غريب عنها. بدا الناس في نظري في غاية القبح، وحركاتهم حادة خالية من الرقة، ولا علاقة مباشرة بين حركاتهم وما يريدونه ويشعرون به، أدركت فجأة أنه على الرغم من المظاهر التي تنبئ بأنهم يعرفون ما يريدون، ويدركون الهدف في مساعيهم، إلا أنهم لا يعون أنهم يحيون في عالم الادعاء والتظاهر.. اتضح لي أيضاً أن حياتي بين العرب غيَّرت منهجي ورؤيتي لما كنت أعده مهماً وضرورياً للحياة، تذكرت بشيء من الدهشة أن أوروبيين آخرين قد مروا بتجارب حياتية مع العرب وعايشوهم أزماناً طويلة؛ فكيف إذاً لم تعترهم دهشة الاكتشاف كما اعترتني؟ أم أن ذلك قد وقع لهم أيضاً؟ هل اهتز أحدهم من أعماقه كما حدث لي...؟

(لم أتوصل إلى إجابة عن تلك الأسئلة إلا بعد أعوام وأنا في الجزيرة العربية: وقد أجاب عن أسئلتي الدكتور «ڤان دير ميولن» سفير ألمانيا في جدة، وكان واسع الثقافة والمعارف، ويتعلق بإيمانه المسيحي باقتناع يندر وجوده بين الغربيين المعاصرين. على الرغم من أنه لم يكن مسلماً - إلا أنه اعترف لي أنه يحب الجزيرة العربية أكثر من أي مكان آخر عرفه، ولم يستثن من ذلك بلده الذي ينتمي إليه. وعندما أشرفت خدمته في الحجاز على نهايتها، ذكر لي مرة أخرى: «أعتقد أنه لا يوجد من يتصف بسلامة الحس، ويظل منيعاً ضد سحر الحياة العربية، أو ينتزع ذلك السحر من قلبه بعد أن يكون قد عايش العرب فترة من الزمن، وعندما يغادر المرء المنطقة العربية سيحمل داخله دائماً بيئة الصحراء، وينظر إليها من بعيد برغبة قوية وشَوْق - حتى لو كان يحيا في بلده الأغنى، والأجمل...»)

توقفت بضعة أسابيع في ڤيينا، واحتفلت بتصالحي مع أبي، الذي سامحني على عدم إكمالي دراستي الجامعية، ومغادرتي منزل الأسرة بتلك الطريقة الفجة. على أي حال، كنت مراسلاً لجريدة «فرانكفورتر ذيتونج».. وهو اسم يلقى التقدير والتبجيل في وسط أوروبا في ذلك الوقت، وهكذا حققت مصداقية في نظره فيما زعمت له قبل ذلك من أنني سأحقق ما أصبو إليه و«أصل إلى القمة».

رحلت بعد ذلك من «ڤيينا» مباشرة إلى «فرانكفورت» لأقدم نفسي شخصياً إلى

الصحيفة التي كنت أمثلها في الخارج على مدى عام. كنت في طريقي إليها وأنا أشد ثقة بنفسي، فالرسائل التي كنت أتلقاها من «فرانكفورت» أظهرت لي أن مقالاتي كانت تلقى كل التقدير والترحيب في الصحيفة. وبشعور من وصل بنفسه إلى المكان الذي كان فيه اسماً فقط خطوت داخل ذلك الصرح العريق العتيق في طرازه العمراني، أرسلت بطاقتي إلى رئيس تحرير الجريدة، وكان وقتها دكتور «هنريك سيمون» الذي كان مشهوراً في أرجاء العالم.

تطلع إليّ بدهشة عندما دخلت مكتبه، دون أن يتفوه بكلمة، حتى إنه نسي أن ينهض من مقعده؛ إلا أنه تمالك نفسه بسرعة، ونهض ليصافحني قائلاً: «اجلس، اجلس، كنت أنتظر وصولك». لكنه استمر بعد ذلك في التطلع إليّ في صمت حين بدأت أشعر بعدم الارتياح. قلت: «هل هناك خطأ ما يا دكتور سيمون؟».

رد بسرعة: «كلا، كلا، لا يوجد أي خطأ - أو على الأصح، كل شيء خطأ....» ثم ضحك وأردف قائلاً: «توقعت أنني سأقابل رجلاً في منتصف العمر بنظارات ذات إطار ذهبي - والآن أجد أمامي صبياً... أوه، اعذرني؛ كم عمرك على أي حال؟».

تذكرت فجأة ذلك الهولندي المرح الذي التقيته في القاهرة، وسألني السؤال ذاته من عام مضى؛ فضحكت وقلت: «أنا أربو على الثالثة والعشرين يا سيدي - كدت أتم الرابعة والعشرين»، ثم أضفت: «هل تجد أنني أصغر مما يجب للعمل في فرانكفورتر ذيتونج؟»

أجاب سيمون ببطء: «كلا، ليس لفرانكفورتر ذيتونج، ولكنه سن صغير بالنسبة إلى مقالاتك، لقد كنت أوقن أن الرجل الناضج وحده هو الذي بإمكانه أن يقهر ذاته، ويتجاهل شخصيته وآراءه الشخصية، كما فعلت أنت عند كتابة مقالاتك، إن ذلك - كما تعلم - هو سر الصحفي الناجح والناضج: أن يكتب بموضوعية عما يراه ويسمعه، ويفكر دون أن يخلط كل ذلك مباشرة بخبراته وآرائه الشخصية والذاتية.. من جهة أخرى، وهذا الأمر ورد إلى ذهني الآن، فالشاب الصغير هو الذي يكتب بذلك الحماس الذي وجدته في مقالاتك، وبذلك القدر من الإثارة

والتشويق...» ثم تنهد وأردف: «أتمنى ألا تتأكل تلك الروح، وألا تصبح من المتعالين، ولا من المنهكين مثل باقي الكتاب..»».

يبدو أن الدكتور «سيمون» قد وجد في صغر سني ما قوّى من اقتناعه أنني مراسل صحفي واعد ومبشر: وافق بحماس على عودتي إلى الشرق الأوسط بسرعة - وكلما كانت عودتي أسرع كان أفضل. أما من جهة التمويل، فلم يعد هناك عائق، فقد تم التغلب على التضخم المالي الألماني، وأدى ثبات قيمة العملة الألمانية إلى انتعاش اقتصادي، وأصبحت الصحيفة في وضع مالي يسمح بتمويل مراسليها في بلاد العالم.

قبل أن أرحل من جديد، كان لابد أن أنتهي أولاً من الكتاب الذي تعاقدت مع الجريدة على كتابته.

وعلى الرغم من نفاد صبري وتطلعي إلى العودة إلى الشرق الأوسط، إلا أن الشهور التي قضيتها بمدينة «فرانكفورت» كانت فائقة الروعة. لم تكن «فرانكفورتر ذيتونج» مجرد صحيفة كبرى؛ بل كانت أقرب إلى مركز أبحاث. كان يعمل بها بتفرغ كامل خمسة وأربعون محرراً متفرغاً، عدا نواب التحرير، ومساعدي تحرير الأخبار. كان العمل التحريري في الصحيفة شديد التخصص، كل منطقة من العالم لها متخصصوها، وكل موضوع سياسي أو اقتصادي عالمي أو محلي يسند إلى المختص به: كان ذلك نتاج تاريخ طويل من المصداقية التي جعلت من مقالات الصحيفة ومراسلاتها أقرب إلى التوثيق المعرفي أكثر منه انعكاساً يومياً للأحداث، لذلك اتخذها السياسيون والمؤرخون مصدراً موثوقاً يعتمدون على أخبارها وتحليلاتها بمصداقية ومرجعية يعتمد عليها. وكان من المعروف أن مكتب الصحيفة في برلين يزود بنسخ من الملفات والمذكرات التي يتم تسليمها إلى الحكومات الأخرى (نقل عن بسمارك أنه قال ذات مرة عن مدير مكتب الأخبار الخارجية في برلين التابع لصحيفة فرانفكورتر ذيتونج: « إن الدكتور شاتين هو سفير فرانفكوتر ذيتونج في بلاط برلين»). وأن أكون عضواً عاملاً في مثل تلك الصحيفة، كان مصدر فخر واعتزاز لشاب في مثل سني؛ وعلى الرغم من أن

مقالاتي عن الشرق الأوسط قد قوبلت باهتمام شديد من قبل جميع المحررين وغالباً ما كانت موضوع اجتماعات التحرير اليومية؛ إلا أن نصري الكامل تحقق في اليوم الذي كلفت فيه أن أكتب مقالاً افتتاحياً بالصحيفة عن مشكلة الشرق الأوسط.

* * *

كان من نتائج عملي في جريدة «فرانكفورتر ذيتونج» النضج المبكر لتفكيري الواعي، كما نتجت منه رؤية ذهنية أكثر وضوحاً من أي وقت مضى، فبدأت في مزج خبرتي بالشرق بعالم الغرب الذي أصبحت جزءاً منه من جديد. فمنذ عدة شهور مضت اكتشفت العلاقة بين الاطمئنان النفسي والعاطفي السائد في نفوس العرب وعقيدة الإسلام التي يؤمنون بها، كما بدأ يتبلور في ذهني أن نقص التكامل النفسي الداخلي للأوروبيين وحالة الفوضى اللاأخلاقية التي تسيطر عليهم قد تكون ناتجة من عدم وجود إيمان ديني، وقد تكونت الحضارة الأوروبية الحديثة في غيابه.

كان المجتمع الأوروبي الذي أراه يبحث عن إيمان روحي جديد بعد أن ابتعدوا عن طريق الإيمان بالله، وكان قليل من الأوروبيين من يدرك ذلك. أما الأغلبية فقد كانت تمضي بوعي أو بلا وعي في إطار فكري يتلخص في الآتي:

«إن السببية وتجارب العلم، والحسابات العقلية لم تتوصل بعد إلى إثبات علمي محدد عن أصل الحياة البشرية، ومصير البشر بعد الموت، ولابد أن نركز كل طاقاتنا في التطوير المادي وتطوير إمكانيات العقل البشري، وألا نخضع لمعوقات السمو الروحي والديني فوق عالم المادة والمسلمات الأخلاقية المعتمدة على فرضيات تتناقض مع البرهان العلمي». وهكذا، في الوقت الذي لم ينكر فيه المجتمع الغربي وجود الإله، إلا أنه لم يترك له مكاناً في أنساقه الفكرية. في الأعوام المبكرة من شبابي أصابني الإحباط وخيبة الأمل في العقيدة اليهودية التي أنتمي إليها، واتجه فكري إلى المسيحية بعد أن وجدت أن المفهوم المسيحي للإله يتميز من المفهوم التوراتي؛ لأنه لم يقصر اهتمامات الإله في مجموعة

معينة من الناس ترى أنها وحدها «شعب اللّه المختار»، ووجدت أن الإله في المسيحية يضفي أبوته على كل البشر، وعلى الرغم من ذلك كان هناك جانب من الفكر المسيحي قلل أيضاً من إمكانية تعميمه وصلاحيته لكل البشر: ألا وهو التفريق والتمييز بين الروح والبدن، أي بين عالم الروح وعالم الشؤون الدنيوية، وبسبب تنائي المسيحية المبكر عن كل المحاولات الإصلاحية التي تهدف إلى تأكيد أهمية المقاصد الدنيوية وأغراضها، فقد كفت من قرون طويلة في أن تكون دافعاً أخلاقياً للحضارة الغربية، وسادت فكرة أنه لا يجب النظر إلى الدين إلا كعامل ملطف، المقصود منه تقوية الإحساس الغامض بالأخلاق وتغذيته، وخصوصاً السلوكيات الجنسية ـ لدى الذكور والإناث. ساعدهم على ترسيخ ذلك الموقف التاريخي العتيق للكنيسة في التفريق بين «ما للرب للرب وما لقيصر لقيصر»، ونتج من ذلك الفصل ترك الجانب الاجتماعي والاقتصادي يعاني فراغاً دينياً، وما ترتب على ذلك من غياب الأخلاق في الممارسات السياسية المسيحية والمعاملات الاقتصادية مع باقي دول العالم، ومثَّل ذلك إخفاقاً في تحقيق ما هدفت إليه رسالة المسيح، أو أي دين آخر، فالهدف الجوهري لأي دين هو تعليم البشر، ليس فقط كيف يدركون ويشعرون، بل الأهم كيف يعيشون معيشة صحيحة ، وينظمون العلاقات المتبادلة بطريقة سوية لا غبن فيها. وإن إحساس الرجل الغربي أن الدين قد خذله، وجعله يفقد إيمانه الحقيقي بالمسيحية خلال القرون ردة فعل على ذلك، وبفقدانه لإيمانه فقد اقتناعه بأن الكون والوجود تعبير لقوة خلق واحدة وأن الوجود وحدة عضوية واحدة، وبفقدانه لتلك القناعة، عاش في خواء روحي وأخلاقي.

كان انحدار الغرب التدريجي بعيداً عن المسيحية مظهراً من مظاهر التمرد على نمط الحياة الذي فرضه «بولس» الرسول الذي أخفى في وقت مبكر من المسيحية كل تعاليم المسيح الحقيقية، فكيف يظل العالم الغربي مدعياً أنه عالم مسيحي؟ وكيف يأمل، بلا إيمان، أن يتغلب على الفوضى الأخلاقية المعاصرة التي تغمره؟

عالم يعاني جيشاناً وتقلبات عنيفة: هذا هو عالمنا الغربي، إراقة دماء، عنف ينتشر على نطاق واسع، تدمير قيم اجتماعية كثيرة وانهيارها، صدامات في

النظريات والمفاهيم والمناهج والمذاهب، صراعات وحروب مريرة لإيجاد سبل أخرى للحياة: جميعها علامات بارزة في حياة الغرب المعاصرة. ومن بين دخان مجازر الحرب العالمية الأولى، نشبت حروب أخرى صغيرة بأعداد لا تحصى، وثورات، وثورات مضادة، ومن بين الكوارث الاقتصادية التي جرفت كل شيء، تبين أن تركيز العالم الغربي على المادة، والتقدم التقني لا يحل، ولا يفضي إلى حلول للفوضى القائمة.

كان اقتناعي في شبابي المبكر أن الإنسان «لا يحيا بالخبز وحده» قد تبلور إلى اقتناع فكري بأن عبادة «التقدم» المادي ليس إلا بديلاً شبحياً للإيمان السابق القديم بالقيم المجردة، وأن الإيمان الزائف بالمادة يجعلهم يعتقدون أنهم سيقهرون جميع المصاعب التي تواجههم حالياً. كانت جميع النظم الاقتصادية التي خرجت من معطف المادة علاجاً مزيفاً ومخادعاً ولا تصلح لعلاج البؤس الروحي للغرب: كان بإمكانهم في أفضل الحالات شفاء بعض أعراضه، إلا أنه من المستحيل علاج سبب العلة.

* * *

قمت بزيارات كثيرة إلى برلين، حيث كان يقيم أغلب أصدقائي في الوقت الذي كنت أعمل فيه مع هيئة التحرير لصحيفة «فرانكفورتر زيتونج»، وفي واحدة من تلك الزيارات التقيت السيدة التي ستصبح زوجة لي بعد ذلك.

انجذبت إليها بشدة من اللحظة التي قدموني فيها إلى «إلزا» بمقهى «رومانسكي»، لا بسبب جمالها الرقيق ـ كانت ذات وجه دقيق، رقيقة الملامح، وعيناها حادتان ذات لون أزرق عميق الزرقة، وفم رقيق عطوف ـ بل لما يزيد على ذلك من حدس داخلي صادق وحسن تخمين وتوقع للأمور والناس والمواقف. كانت رسامة، لم تكن أعمالها من بين ذوي الأعمال الفنية، إلا أن تلك الأعمال كانت تحمل صفاءً شديداً مثل ما كانت تعبر به بفكرها وحديثها.

على الرغم من أنها كانت تكبرني بخمسة عشر عاماً ـ كانت في أواخر الثلاثينيات

من عمرها ـ إلا أن وجهها الرقيق، وبدنها النحيف في مرونة، كانا يعطيان انطباعاً لمن يراها أنها أصغر عمراً.

كانت خير تمثيل للجنس الإسكندنافي، كان لديها كل صفائهم، فهي سليلة إحدى أسر «هولشتاين» العريقة، وهي من أسر شمال ألمانيا العريقة، وتوازي في نبل المحتد الأسر البريطانية العريقة التي خدمت التاج البريطاني، إلا أن نمط حياتها الحر جعلها متحررة من تقاليد تلك الأسر، كانت أرملة وكان لها ابن يبلغ السادسة من عمره، قصرت كل حياتها عليه.

ويبدو أن الإعجاب كان متبادلاً من أول لقاء، فبعد تعارفنا الأول أصبحنا نلتقي بعد ذلك كثيراً، ولأنني كنت متخماً بانطباعاتي عن العالم العربي، فقد نقلت إليها تلك الانطباعات؛ وبعكس أغلب أصدقائي، أظهرت تفهماً غير عادي وتعاطفاً، حتى إنني عندما كتبت مقدمة لكتابي الذي أصف فيه رحلاتي إلى الشرق الأوسط، أحسست وأنا أكتب تلك المقدمة أنني أقدم نفسي إليها: كتبت في تلك المقدمة:

«عندما يرحل أوروبي إلى دولة أوروبية أخرى لم يرها من قبل، فإنه يمضي في بلد مختلف، وقد يلاحظ بعض الاختلافات والفروق في بعض الجوانب، وبغض النظر إن كنا ألماناً أو إنجليزاً، وبغض النظر إن كنا نزور فرنسا أو إيطاليا أو المجر، إلا أن الروح الأوروبية، روح الحضارة الغربية توحدنا جميعاً، فنحن نحيا داخل إطار محدد تماماً من التماثل، ويمكن أن يفهم بعضنا بعضاً كما لو كنا نتحدث لغة واحدة، ونطلق على تلك الظاهرة «البيئة الثقافية الواحدة» وهي ميزة بالطبع، إلا أنها تعد عيباً في الوقت نفسه؛ لأننا نجد أنفسنا أحياناً مغمورين في تلك الروح المشتركة كما لو كنا ملفوفين في ضمادات من القطن؛ وأن تلك الروح تهدهدنا كما يُهدهد الطفل قبل نومه، مما يبعث على خمول القلب، ويدفعنا إلى نسيان المسيرة التي خضناها في العصور الغابرة، تلك الأزمنة الخلاقة القديمة التي بزغت على أوروبا بعد واقع لم تكن فيه أوروبا شيئاً. أما الرجال الذين أخذوا على عاتقهم تلك المهمة الصعبة ـ سواء المكتشفون والمغامرون والفنانون المبدعون، فإنهم كانوا يبحثون جميعاً عن الينابيع الداخلية الدفينة في أعماقهم.

ونحن سلالتهم المعاصرة ونبحث أيضاً عن حياتنا، إلا أننا مليؤون بالمخاوف التي تدفعنا إلى تأمين حياتنا من دون أن نصل إلى أغوارها وأعماقها، ونشعر أن هناك خطيئة تكمن في مثل تلك الدوافع والمقاصد. لقد بدأ بعض الأوروبيين يشعرون الآن بالخطر العظيم المترتب على تجنب الخطر. في هذا الكتاب أصف رحلة إلى منطقة «اختلافها»، عن أوروبا كبير حتى إنه لايمكن تجاوزه ولا اجتيازه: وهو اختلاف يقترب بشكل ما من حد الخطر. والخطر ناجم عن تركنا أمان بيئتنا الموحدة، التي لا نجد فيها ما يثير ولا ما يدهش، ونخوض غرابة أخرى لعالم «آخر» مختلف. دعونا لا نخدع أنفسنا: ففي ذلك العالم «الآخر» قد نظهر بعض التفهم لهذا أو ذاك من الانطباعات عن أمور نراها أو تصادفنا هناك، إلا أنه لا يمكننا - بعكس ما يحدث في دولة غربية - أن نتفهم بوعي الصورة الكلية. ما يفصلنا عن ذلك العالم «الآخر» ليست المسافة الجغرافية وحدها. كيف نتواصل معهم؟ لا يكفي أن نتحدث لغتهم؛ وحتى نتفهم ما يشعرون به تجاه الحياة لابد للمرء أن يدخل بيئتهم بكامل وعيه وإرادته ويحيا في تجمعاتهم. هل هذا ممكن؟

بل - هل هو مرغوب فيه؟ قد تكون صفقة سيئة أن نستبدل بعاداتنا التي اعتدناها من أنساق فكرية فكراً غريباً غير معروف لنا.
ولكن هل نحن مستثنون في هذا العالم؟ لا أعتقد ذلك.

إن إحساسنا أننا مستثنون يرتكز أساساً على خطأ يكمن في طريقتنا الغربية في التفكير. فنحن نميل إلى التقليل من أهمية القيم الخلاقة لمن لا نعرفهم، كما نميل إلى السلوك العدواني تجاههم. بدأ الكثيرون منا يدرك أن المسافة الثقافية والفروق الحضارية يمكن التغلب عليها بوسائل أخرى غير الاغتصاب الفكري: وربما يمكن التغلب على ذلك التغاير الثقافي بتسليم حواسنا إليه.

ولأن ذلك العالم «الآخر» «يختلف تماماً عن كل ما ألفناه في بيئتنا، إلا أنه يفاجئك أحياناً إذا أعطيته الاهتمام والانتباه الكافيين، ويذكرك بأشياء معروفة منذ القدم، ومنسية منذ القدم أيضاً، إلا أن تلك الحقائق المنسية تصل إليك مع أنفاس الذكرى من خلف الهوة الفاصلة بين عالمك والعوالم غير المألوفة من

حولك. تسأل نفسك عن معنى الوجود: أن تألف غرابة العالم من حولك لتعيد الحياة لعالمك الخاص والواقع المنسي...»

ولأن «إلزا» قد فهمت ببداهتها المعهودة ما حاولت قوله، وإن لم يكن بوضوح كامل، مثل من يحاول تبين معالم شيء في الظلام، وإن لم أتمكن من إيضاح ما يعتمل في ذهني في تلك المقدمة المتلعثمة، إلا أنه كان لدي إحساس قوي أنها ـ هي وحدها ـ تستطيع أن تتفهم ما أسعى إليه، وأن تساعدني على البحث عنه.

(٢)

مر يوم آخر من أيام الرحيل، صمت داخلي يسيطر عليّ، وصمت الليل الخارجي يحوطني. الرياح تنزلق بنعومة فوق كثبان الرمال فتتموج الرمال الناعمة على منحدراتها. بدت هيئة زيد على ضوء دائرة النور المنبعثة من النار التي أشعلها، كان مشغولاً بآنيته وأدواته، الخروج مكومة بالقرب منا حيث حططنا الرحال، بجوارها رحال الجمال بسنّاداتها الخشبية العالية، وراءها بقليل، أنخنا ناقتينا بعد أن عقلناهما، منهكتين بعد مسيرة النهار الطويلة، عنقاهما ممتدان على الرمال؛ إلى أبعد منهما بقليل. تبدو الصحراء في غير وضوح تحت ضوء النجوم الشحيح، إلا أنها على الرغم من ذلك قريبة منك قرب خفقات قلبك.

صحاري العالم كثيرة، إلا أن هذه الصحراء هي التي يمكن أن تشكل وجدانك، في مشاقها ومصاعبها واتساعها، تنزع منك الصحراء رغبتك في فهم الصغائر، وتنزع عنك كل الأوهام التي تدفعها الطبيعة وتأسر بها ذهن البشر، وتدفعهم إلى تكوين تصورات خاصة من نسج الخيال. أما الصحراء فمكشوفة وواضحة ونقية ولا تعرف المصالحات. تمسح من قلب المرء رغبته في متع الحياة وتحولها إلى أشكال مزيفة، وبذلك تحرر المرء وتجعله يستسلم للحقائق المطلقة في جوهره لا في صوره، تلك الحقائق التي هي أبعد من كل بعيد إلا أنها أقرب من كل قريب.

منذ أن بدأ وعي البشر في التكون، كانت الصحراء مهد كل إيمانٍ بالخالق الواحد. حتى في المناطق المعتدلة الأطيب مناخاً والألطف طقساً، كان الإحساس

الغامض بوجوده ووحدانيته يهيمنان على ذهن البشر، ظهر ذلك في المفهوم الإغريقي القديم عن «مويرا» كقوة غير محددة أعظم من آلهة جبال أولومبس: إلا أن المفهوم لم يزد على أنه مشاعر مبهمة غير متبلورة إلى مفهوم متكامل، إحساس بالألوهية أكثر منه معرفة يقينية، حتى تفجرت المعرفة بيقين متوهج بين سكان الصحراء وفي قلب الصحراء. انبثق اليقين من عليقة متوهجة في صحراء (مدين) ومنها انبعث صوت الله إلى كليمه موسى؛ كما انبثق من صحراء جنوب فلسطين التي تلقى فيها المسيح رسالة «مملكة الرب»؛ وانبثق اليقين من غار «حراء»، بالقرب من مكّة المكرّمة، حين نزل أول وحي على محمد ﷺ، ابن الجزيرة العربية.

نزل عليه في ذلك الممر القاحل المقفر بين الجبال الصخرية، في ذلك الوادي الأجرد الذي أحرقته شمس الصحراء، نزل عليه ليصحح مفاهيم، ويقدم إجابة صريحة واضحة بالإقبال على الحياة بالروح والجسد: رسالة أعطت شكلاً ومضموناً وهدفاً لأمة كانت بلا شكل وقبائل شتى متفرقة، بذلك المفهوم انتشرت الرسالة في بضعة عقود مثل الوعد والوعيد حتى أقاصي الغرب على مشارف المحيط الأطلنطي وإلى الشرق حتى سور الصين العظيم، نزلت الرسالة لتظل قوة روحية عظيمة حتى اليوم بعد ثلاثة عشر قرناً.

* * *

أغفو وأستيقظ، أفكر فيما خلا من أيام إلا أنها لم تمت، أغفو من جديد وأحلم؛ ثم أستيقظ من جديد وأجلس، فيتدفق الحلم مختلطاً بذكريات في وعي مابين يقظة وغفوة.

كان الليل قد اقترب من نهايته، والنار خمدت؛ وزيد ملتحف بملحفته ويغط في النوم؛ وجملانا باركان بلا حركة مثل مرتفعين من الأرض، النجوم لم تختف بعد، ينتابك إحساس أنه مازال هناك وقت للنوم: إلا أن ضوءاً شاحباً وليداً ظهر في الأفق الشرقي، خطوط وعروق من الضوء الواهن خط فوق آخر، تختلط بعروق الظلام في شرق الأفق، إنها تباشير الفجر، وحان وقت الصلاة.

رأيت في زواية مائلة من صفحة السماء نجمة الصباح التي يسميها العرب «الزهرة»، أو النجم الأبرق، إن سألتهم عنها فسيقولون لك: إن «النجم الأبرق» أو «الزهرة» كان في سالف الزمان امرأة...

يقولون: إنه في سالف الزمان كان هناك ملاكان، هما هاروت وماروت، نسيا فضيلة التواضع التي ينبغي ألا ينساها الملائكة، وتباهيا بنقائهما الذي لا يمكن تلويثه، كانا يقولان: «نحن مخلوقان من النور؛ فوق الخطايا والذنوب والرغبات، بعكس أبناء البشر ضعفاء الإرادة، أبناء الأرحام المظلمة، إلا أنهما تناسيا أن نقاءهما لا ينبع من إرادتهما، وأنهما صالحان لأنهما خاليان من الرغبات والشهوات، ولم يطلب اللّه منهما أن يقاوما مالا يشعران. لم يرض تباهيهما وتكبرهما ربهما الذي خلقهما، فقال لهما: «اهبطا إلى الأرض واختبرا نقاءكما وقوة إرادتكما فيها». هبط الملاكان المتباهيان إلى الأرض وراحا يسعيان في مناكبها وهما في صورة بشرية بين أبناء البشر. في أول ليلة لهما على الأرض مرا بامرأة ذات جمال يخلب الألباب، حتى إن الناس كانوا يسمونها«المتألقة». عندما تطلع إليها الملاكان بعيون البشر ورغباتهم، أصابتهم حيرة وبلبلة، مثل أبناء البشر التهبت رغبتهما في إتيانها. قال كل منهما لها: «أشتهيك فاستجيبي»، إلا أن المرأة المتألقة قالت لهما: «هناك رجل أنتمي إليه، إن أردتماني حرراني منه أولاً» فذبحا الرجل، وبينما كان دم الرجل مازال يقطر من أيديهما، أتياها وأشبعا رغبتهما وجوعهما الذي كان مشتعلاً. ولكن بمجرد أن انطفأ وهج رغبتهما. بدأ الملاكان الأرضيان يعيان أن في أول ليلة لهما على الأرض اقترفا كبيرتين؛ القتل والزنا، وأن افتخارهما بنقائهما لم يكن له أي معنى ماداما خاليين من الرغبات.. قال اللّه لهما: «اختارا مابين العقاب في الحياة الدنيا أو العقاب في الآخرة»، في مرارة ندمهما اختار الملاكان عقوبة الحياة الدنيا: فحكم اللّه عليهما أن يعلقا في سلاسل ما بين السماء والأرض وأن يظلا معلقين حتى يوم الدين كتحذير للملائكة والبشر من أن كل فضيلة تدمر ذاتها إذا خلت من التواضع؛ لأن عيون البشر لا ترى الملائكة، حوَّل اللّه «المتألقة» إلى نجم في السماء ليراها البشر ويتذكروا القصة، ويتذكروا مصير هاروت وماروت.

ويعود الإطار العام للأسطورة إلى زمن أقدم من زمن ظهور الإسلام؛ ويبدو أنها مستمدة من أساطير قديمة نسجها الساميون حول آلهتهم «عشتار»، ثم نسجها الإغريق حول «أفروديت»، ونسبت الاثنتان، عشتار وأفروديت إلى الكوكب الذي نعرفه اليوم باسم الزهرة. أما القصة بالشكل الذي سمعتها به، قصة هاروت وماروت، فهي ليست إلا من نتاج الفكر الإسلامي، وهي تصوير لفكرة أن النقاء الخالص، أو الخلو من الذنوب والمعاصي، لا يحمل أي قيمة أخلاقية مادام ذلك النقاء موجوداً في غياب الدوافع والرغبات والشهوات: فالاختيار بين الصواب والخطأ يتطلب وجود منطق أخلاقي.

لم يدرك هاروت وماروت ذلك، فهما ملاكان، لم يتعرضا أبداً للإغراء والإغواء، ورأيا في نفسيهما تقيين نقيين أكثر من البشر، ولم يتحققا أو يدركا أن إنكار «مشروعية» الاحتياجات وإشباع رغبات البدن يتبعهما بشكل مباشر ويترتب عليه إنكار جميع القيم الأخلاقية في المقاصد البشرية: في الإحساس بالاحتياج، وفي وجود الإغراء والإغواء لإشباع ذلك الاحتياج ينشأ الصراع الذي يضع البشر في موضع الاختبار والاختيار الأخلاقي؛ أي أن البشر وجود وكينونة أخلاقية إلا أنهم وهبوا روحاً.

كان الإسلام وحده من بين الديانات السماوية كلها الذي رأى أن روح البشر أحد جوانب وجودهم، وأنها ليست مكوناً مستقلاً بذاته، ولا ينفصل النمو ولا السمو الروحي للمسلم عن أوجه وجوده الأخرى؛ أي وجوده الدنيوي.

لذلك عدّ الإسلام الرغبات الجسدية جزءاً متكاملاً من طبيعة خلق الإنسان، وأن تلك الرغبات ليست وليدة «الخطيئة الأولى»، وهو مفهوم يتناقض مع مفاهيم المسيحية، بل إن رغبات البدن مكون إيجابي، خلقها الله في البشر ليقبلوها ويمارسوها في أوجهها الصحيحة، ومن ثم، فمشكلة البشر ليست في كبت احتياجات الجسد، بل على الأصح، في كيفية توظيفها في شكل يتكامل مع متطلباته والتزاماته الروحية، وبطريقة تجعل من الحياة، حياة كاملة وصحيحة.

ويعلن الإسلام أن جذور المبدأ التوحيدي للوجود لدى البشر موجودة بالفطرة

البشرية، بعكس المفهوم المسيحي الذي يرى أن الإنسان يولد وهو يحمل ذنب «الخطيئة الأولى»، وبعكس التعاليم الهندوسية أيضاً التي ترى أن البشر بطبيعة خلقهم أدنياء ومذنبون، ولابد لهم أن يجاهدوا بكل عنت ومعاناة عبر سلسلة طويلة من التجسد وحلول الروح في كائنات مختلفة حتى تحقق هدفها النهائي في الوصول إلى الكمال، أما في القرآن الكريم، فيقول اللّه جل شأنه: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ ﴿٥﴾ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٦﴾﴾[1] والتقويم ليس إلا حالة من النقاء لايلوثها ولا يدنسها إلا السلوك السيّئ للإنسان.

(٣)

لاحت أمامنا بساتين نخيل «حائل»، وتجمعات بيوتها من بعيد، توقفنا عند مشارفها بجوار أنقاض برجٍ مراقبة قديم حتى نهيّئ أنفسنا لدخول المدينة؛ فالعادات العربية لا تهمل أبداً جوانب المظهر الجمالي للفرد، ويستدعي ذلك من المسافر والمرتحل أن يدخل أي مدينة يقصدها وهو في أبهى حلة، منتعشاً ونظيفاً وكأنه ركب ناقته الآن. استعملنا كل ما تبقى معنا من ماء لغسل أيدينا ووجوهنا، وتهذيب ما تشعث من لحانا، وأخرجنا من الأخراج أنصع ملابسنا بياضاً، أزلنا بفرشاة ما تراكم على العباءات من رمال خلال أسابيع السفر، وما علق من رمال بشرابات الأخراج ذات الألوان البهية، ووضعنا على الجمال أجمل الرِّحال؛ وهكذا، هيأنا أنفسنا للدخول إلى مدينة «حائل».

«حائل» مدينة عربية خالصة، دعنا نقل أكثر من بغداد، بل حتى من «المدينة المنورة»؛ فهي لا تحتوي على أي عنصر من شعوب غير عربية، نقية في عذرية اللبن الطازج ونقائه. لا تلمح زياً أجنبياً في أسواقها، ولا تجد في المتاجر إلا الأزياء والعباءات العربية، والكوفية والعقال، شوارعها أكثر نظافة من شوارع أي مدينة عربية، بل حتى أنظف من نجد المشهود بنظافتها الفائقة عن مدن الشرق. البيوت مشيدة من قوالب الطين المجفف، ولا تجد فيها حائطاً متهدماً باستثناء ركام أسوار المدينة التي تشهد على آثار الحرب الأخيرة بين الملك عبد العزيز وابن رشيد، والتي انتهت بضم الملك عبد العزيز حائل سنة ١٣٤٠ (١٩٢١م).

---

١- سورة التين: الآيات ٤، ٥، ٦.

كانت دقات مطارق صانعي النحاس المنهمكين في تشكيل أنواع الأواني تتصاعد، ومناشير النجارين تأكل الخشب في شراهة، والإسكافيون يدقون النعال والأخفاف، جمال محملة بحطب وقرب السمن تشق طريقها في الزحام؛ وجمال كثيرة أحضرها بدو الصحراء لبيعها، وراحت تملأ المكان بهديرها، أكوام من أخراج الجمال المزينة والمزركشة بألوان زاهية آتية من «الحسا» والأيدي الخبيرة تتفحص جودتها، والباعة الجائلون الذين يكونون مشهداً متكرراً في كل مدينة عربية، يتحركون في السوق جيئة وذهاباً، يعرضون ما يبيعون بأصوات عالية. هنا وهناك ترى صقور الصيد تتقافز فوق مصاطبها الخشبية ومقيدة إليها بحبال رفيعة من الجلد.. وإلى جوارها كلاب صيد من فصيلة (السلوقي) تتمطى في الشمس بأطرافها الطويلة. بدو نحاف الأبدان في عباءات فضفاضة، خدم في أزياء نظيفة وحراس الأمير ـ جميعهم تقريباً من جنوب الجزيرة، يختلطون بتجار من بغداد والبصرة والكويت وأبناء حائل. أبناء حائل أولئك ـ من الرجال فقط، فنادراً ما تظهر النساء بعباءاتهن السوداء التي تخفي الرأس والبدن ـ ينتمون إلى أجمل أجناس الأرض، فكل سمو الحركة وجمال المنظر لدى العرب يتجلى في أنقى صورة لأبناء قبائل شمّر، الذين قال عنهم شاعر جاهلي ما معناه: «في الشدائد رجال من صلب، وفي الخدور نساء من عفة».

وصلنا إلى قصر الأمير حيث قررنا أن نبقى يومين، وجدنا مضيفنا يعقد مجلسه في العراء أمام باب القصر، كان الأمير ابن مساعد ينتمي إلى آل جلوي من أسرة آل سعود، وكان شقيق زوجة الملك وواحداً من أقوى الحكام الذين عينهم الملك على الولايات، كما كان يسمى «أمير الشمال»؛ لأنه لم يكن حاكماً على مناطق جبل شمّر وحدها، جميع شمال منطقة نجد حتى مشارف سورية والعراق، وهي منطقة تساوي مساحتها مساحة فرنسا تقريباً.

كان الأمير (وكان صديقاً لي منذ زمن طويل) يجلس مع عدد من شيوخ قبائل العرب على مصاطب من الحجر أسفل جدار الحصن، وأمامه على الأرض جلس صف طويل من الرجال «الخويا»، مسلحين بالبنادق والسيوف المحدبة في أغمدة فضية، لا يتركونه طوال اليوم، لا لحمايته بالطبع، ولكن دلالة على النفوذ والهيبة؛

ويلي الرجال حملة الصقور التي تقف على أيديهم المغطاة بقفازات جلدية سميكة، يليهم الخدم «الخويا»، ثم البدو وجماعات من ساسة الجمال، حتى غلمان مرابط الجمال جميعهم متساوون على الرغم من اختلاف وظائفهم ومراكزهم. وكيف يكون الأمر غير ذلك في بلاد لا يوجه فيها الحديث لأي رجل مهم مهما يكن وضعه بلقب «سيدي» حيث لا سيادة إلا لله؟

كان الأمير يجلس مواجهاً البدو الذين جلسوا القرفصاء على الرمال في نصف دائرة واسعة، وقد جاؤوا ليحكم الأمير بينهم في خصومات ونزاعات مختلفة.

أنخنا الجمال خارج الدائرة، وتركناها في رعاية ساسة الجمال الذين أسرعوا إلينا، ترجلنا وتقدمنا باتجاه الأمير. نهض الأمير ونهض معه كل من كانوا يجلسون بجواره، وكذلك من كانوا أمامه على الأرض، ومد يده إليّ مصافحاً وهو يرحب بنا: «أهلاً وسهلاً، طال عمرك»، قبلت الأمير على قمة أنفه وجبهته، وقبلني هو على الخدين، وجذبني لأجلس بجواره. ووجد زيد لنفسه مكاناً بين الرجال «الخويا».

قدمني ابن مساعد إلى باقي ضيوفه؛ بعض الوجوه جديدة بالنسبة إليّ، وبعضها كان لي به سابق معرفة من أعوام مضت، ومنهم الشيخ غضبان بن رمال كبير مشايخ سنجار شمّر - أحد قدامى المحاربين الشجعان المرحين، وكنت أناديه «ياعمي» ولا يخمن من يراه بملبسه العادي أنه واحد من أقوى المشايخ في الشمال، وأنه وهب زوجته الشابة من الذهب والجواهر ما يتطلب - طبقاً للمتناقل من الأقوال - خادمتين لتسنداها عندما تخرج من الخيمة الضخمة القائمة على ستة عشر من أعمدة الخيام. غمز بعينه وهو يهم باحتضاني ثم همس في أذني: «ألم تتخذ زوجة جديدة بعد؟» وأجبته بابتسامة وهزة من كتفي.

ويبدو أن سؤاله قد تناهى إلى سمع الأمير ابن مساعد، فضحك عالياً وقال: «المسافر المتعب يحتاج إلى قهوة، لا لزوجة» ثم صاح بصوت أعلى: قهوة.
كرر الخدم الأقرب للأمير صائحين «قهوة؛ حتى وصل الأمر بالتتابع إلى آخر واحد بالصف على حافة المجلس، ثم بالتتابع إلى باب الحصن وتردد صدى الأمر

بداخله، في الحال ظهر خادم يحمل إبريق القهوة العربي التقليدي بيده اليسرى وعدد من الأقداح الصغيرة بيده اليمنى، ملأ القدح الأول للأمير، والثاني، لي، ثم قدم لباقي الضيوف طبقاً لمكانتهم. ويملأ الفنجان مرة أو مرتين، وعندما يُبدي الضيف أنه اكتفى، فإنه عند إعادة ملئه يناوله لمن يليه.

كان الأمير مشغوفاً بمعرفة أخبار مهمتي إلى حدود العراق، إلا أنه دارى رغبته بعض الأسئلة السريعة عما صادفني من مشاق في الطريق، واحتفظ برغبته في معرفة التفاصيل حتى نصبح على انفراد، ثم أكمل ما كان يفعله قبل وصولي من استماع إلى شكايات أصحاب الشكاوي والآتين إلى الاحتكام في خلافاتهم ونزاعاتهم.

مثل هذه المحكمة غير الرسمية لا يمكن تصورها في الغرب، فالأمير حاكم وقاضٍ يحظى باحترام مطلق، إلا أنه لا يوجد أي قدر من خنوع أو ذل في ذلك النوع من الاحترام، وكل من الشاكي والمشكو في حقه أو المدعي والمدعى عليه يثقون ثقة مطلقة بإنسانيته الحرة؛ ولا يبدو عليهم ما يشي بتردد أو خوف أو خشية، فأصواتهم قوية مرتفعة وواثقة، وجميعهم يوجهون الحديث إلى الأمير كما لو كان شقيقهم الأكبر، يوجهون إليه الحديث - كعادة البدو عن توجههم بالحديث حتى إلى الملك - باسمه الأول لا بألقابه الرسمية الملكية، ولا تجد أي قدر من التعالي أو التكبر في سلوك ابن مساعد. وجهه جميل بلحية قصيرة، متوسط القامة وبدنه يميل إلى الامتلاء، ويشي كل ما يبدو منه بانضباط النفس وبساطة التعامل. جميع صفات البساطة والتواضع تمضي مع قوة المكانة وقدر السلطة، يحكم في المشكلات التي يمكن حلها، أما المشكلات الأكثر تعقيداً التي تحتاج إلى دراية شرعية عميقة فيحيلها إلى قاضي المدينة.

ليس من السهل أن يتولى المرء السلطة العليا في منطقة بدوية واسعة، لأنه لابد أن تتوافر لديك دراية كاملة بقبائل المنطقة، وعلاقات القرابة والنسب والمصاهرة، ومعرفة بالشخصيات القيادية الفعالة في المنطقة، وفي مناطق الرعي المختلفة، كما لابد أن تكون ملماً بأحداث الماضي وأحداث الحاضر حتى تكون الأحكام دقيقة

وعادلة عند فض اشتباكات مشكلات البدو وشكاياتهم التي قد تكون شديدة التعقيد في بعض الأحيان، وتحتاج إلى حكمة ودراية ومعارف كافية. واللباقة لا تقل في أهميتها في تلك المجالس عن حدة الذكاء، ولابد للصفتين أن تعملا معاً بدقة وحساسية حتى لا تصدر أحكاماً ظالمة؛ لأنه بالقدر نفسه الذي لا ينسى به العرب معروفاً أسديته إليهم، لا يمكن أن ينسوا حكماً ظالماً صدر ضدهم أو يشعرون أنه لا يتسم بالعدل. والأحكام في الغالب، بل دائماً تقبل بروح طيبة حتى من أولئك الذين صدرت الأحكام ضدهم. ويتميز ابن مساعد بتوافر جميع تلك الصفات أكثر من أي نائب آخر للملك على مناطق المملكة المختلفة، فهو صريح، وهادئ، يخلو من النزعات والأهواء المتناقضة، إحساسه الغريزي بالصواب والخطأ يهديه عندما تتعطل لديه أسباب الاستدلال العقلي. صقلته الحياة بخبرات كثيرة وتجارب لا تحصى، ثم تمكن هو من تلابيب الحياة بعد أن خبر دروبها ومسالكها.

كان اثنان من البدو بثياب رثة يعرضان عليه في تلك اللحظة خصومتهما وعرض كل واحد ما عنده في حماسة وبكلمات منفعلة. والبدو بوجه عام يصعب التعامل معهم؛ فهناك دائماً جوانب من تكوينهم لا يمكن التنبؤ بها ـ حساسية مستثارة لا تعرف الحلول الوسط ـ هناك دائماً خيط رفيع يفصل بين النعيم والجحيم. رأيت كيف ينزع ابن مساعد غليانهم وفورانهم الانفعالي، وكيف يهدئهم بكلماته الرزينة الهادئة. قد تظن أنه قد يأمر أحدهم بالصمت ويطلب من الآخر أن يعرض ما يرى أنه حقه: كلا، لايفعل أياً من هذا، بل يترك الطرفين يتحدثان في الآن نفسه، ويتهم بعضهما بعضاً، لا يتدخل إلا من آن إلى آخر بكلمة صغيرة هنا وسؤال هناك ـ وينغمسان من جديد في محاجاتهم الانفعالية؛ ويصمت هو، ويتركهم يتجادلون، ثم يقاطعهم من جديد بإبداء ملاحظة سديدة في الوقت الملائم. مشهد يسلب اللب، توظيف عقل المحكم في صراع طرفين هما رجلان غاضبان: لا يعد بحثاً عن الحقيقة بالمعنى العدلي القانوني بقدر ما هو رفع الستار تدريجياً عما هو خافٍ، وعن واقع موضوعي. ويقترب الأمير من تحقيق ذلك بكرٍّ وفرٍّ، يستل الحقيقة كما لو كان يستلها بخيط رفيع غير مرئي، ببطء وصبر، دون أن يدرك ذلك أي من المدعي أوالمدعى عليه. حتى يتوقف

المتخاصمان فجأة، وينظر كل منهما إلى آخر في دهشة ويتحققان كلاهما أنهما قد توصلا إلى الحكم، وهو حكم عادل وواضح حتى إنه لا يحتاج إلى شرح أو تفسير، وعلى ذلك يقف أحدهما في تردد، ويفرد عباءته ويشدها، ويشد خصمه من كمه بطريقة ودودة: «تعال» - وينسحب الخصمان بعد أن تصالحا، تعتريهما بعض الحيرة إلا أنهما سعيدان ويتمتمان بالدعاء للأمير.

مشهد رائع وقطعة فنية فريدة لا مثيل لها، تبدو لي أنها من ذلك الجمع المثمر بين الادعاء والقضاء الذي لا تعرف عنه محاكم الغرب شيئاً، إلا أنه يمارس هنا على أكمل وجه في ميدان السوق الترابي أمام حصن أمير عربي....

يتراخى ابن مساعد مستنداً إلى الحائط الطيني للحصن، ليبدأ النظر في المشكلة التي تليها. قوي الملامح عابس الوجه في غير تجهم، ينظر من عينين عميقتي المحجرين بنظرات دافئة نافذة، وجه قادة حقيقيين من الرجال، يمثل السيادة في أعلى مستوياتها بين بني جنسه من رجال المنطقة بعلو حس داخلي دفين.

يشعر به بعض الحضور الآخرين. قال رجل يجلس أمامي على الأرض بعد أن رفع رأسه باتجاهي وابتسامة على وجهه - وهو بدوي من رجال قبيلة حرب؛ وأحد جنودِ الأمير : «ألا يشبه الأمير ذلك السلطان الذي قال عنه المتنبي:

قد زرته وسيوف الهند مغمدةٌ
وقد نظرت إليه والسيوف دمُ
فكان أحسن خلق الله كلهمُ
وكان أحسن ما في الأحسن الشيمُ

في الحالين أفضل الورى، وأفضل ما فيه حسن ذكاء وفطنة.

لم يبدِ في نظري أن هناك أيّ تعارض أو تناقض عندما سمعت بدوياً أمياً ينشد أبياتاً من الشعر لأحد كبار شعراء العرب الذي عاش في القرن العاشر - بالتأكيد لم يبد لي أن هناك أي تناقض مثلما أجد تناقضاً على سبيل المثال إذا سمعت

فلاحاً من باڤاريا في شمال أوروبا ينشد أبياتاً لـ «جوته» أو لأحد كبار الشعراء الإنجليز مثل وليام بلاك أو شيللي. فعلى الرغم من انتشار التعليم بالغرب، إلا أن الثقافة الغربية الرفيعة غير متاحة للأوروبي العادي أو الأمريكي ، بينما نجد أن شريحة عظمى من غير المتعلمين تعليماً عالياً، بل من الأميين المسلمين يشاركون بوعي في النهل من الإنجاز الثقافي الرفيع لماضيهم، مثلما استطاع ذلك البدوي الأمي أن يستدعي إلى ذاكرته أبياتاً ملائمة من شعر المتنبي ليصور بها موقفاً شهده، وتنطبق عليه الأبيات التي استلها من ذاكرته، كذلك تجد كثيرين من أهل إيران في أسمال بالية وغير متعلمين من سقائين وحمَّالين في أسواق، أو جنود في منطقة حدودية، ويحفظون في الذاكرة نصوصاً طويلة وأشعاراً لحافظ وچامي والفردوسي، وينسجون ما يحفظونه في استمتاع شديد مع جملهم التي يتحدثون بها في حواراتهم اليومية. وعلى الرغم من أن المسلمين المعاصرين قد فقدوا تلك القدرة الإبداعية الخلاقة التي جعلت من إرثهم الثقافي ذلك الإرث العظيم، إلا أنهم مازالوا على اتصال مباشر ووثيق بتلك المنابع السامية الرفيعة لأسلافهم.

* * *

مازلت أتذكر ذلك اليوم عندما توصلت إلى ذلك الاكتشاف في سوق دمشق في الحي القديم. كنت أتفحص وعاءً فخارياً من الطين، كان جميلاً ومتميزاً وفريداً، ومستديراً مثل كرة مسطحة قليلاً ذات أبعاد متناسقة ومتناغمة؛ تبرز من جداره الخارجي الذي يشبه استدارة وجنتي امرأة؛ يدان في انحناء خارجي بميل متقن يماثل تلك القوارير الإغريقية المشهورة. الوعاء واليدان صناعة يدوية؛ تستطيع أن تميز ذلك بسهولة حتى إنك تكاد تميز بصمة العامل الذي صنعها وهو عامل بسيط يعمل في تشكيل الطين، حول حافته الداخلية نقشت أشكال نباتية دقيقة. كان يعمل في سرعة وبراعة وحذق، وبلا تركيز كافٍ في اعتياد يومي متواتر، إلا أنه يخلق عملاً فنياً يحمل تلك الروعة في بساطتها، والتي تستدعي إلى الذاكرة عظمة الفن السلجوقي في سورية وأعمال السيراميك الفارسية التي تحظى بالإعجاب والتقدير في متاحف أوروبا؛ علماً أن أولئك العمال البسطاء لا يضعون في أذهانهم وهم يصنعونها أنهم يقومون بأعمال تشكيلية فنية إبداعية، كل ما يدور في أذهانهم أنهم يصنعون أواني للطهي أو للزينة ـ لا شيء غير أوانٍ للطهي،

ويمكن لأي فلاح أو بدوي أن يشتريها في أي يوم من أي سوق مقابل بضع قطع معدنية صغيرة....

أعرف أن الإغريق قد أبدعوا مثل تلك الإبداعات، أو أفضل منها وأكثر إتقاناً، وربما كانت أيضاً في أواني الطهي: هم أيضاً من سقائين وحمالي أسواق، وجنود وصانعي أوانٍ - ساهموا جميعاً في حضارة لم تكن تقوم بأعمالٍ فقط إبداعية لإرضاء الصفوة والنخبة، بل حضارة تشمل جميع الأفراد. وافتخارهم بجمال المصنوعات هو افتخار بحضارة راقية ذات نتاج راقٍ إلا أنه جزء من الممارسات اليومية.

عندما كنت أتفحص ذلك الإناء في سوق دمشق القديم طاف بذهني هاتف يبارك من سيأكلون من ذلك الإناء وجباتهم؛ أولئك الذين ينتسبون إلى إرث حضاري فاق في مضمونه الافتخار الخاوي...

(٤)

أفقت من استغراقي في أفكاري على صوت الأمير ابن مساعد: «ألا تسعدنا بتناول الغداء معي الآن يامحمد؟». رفعت رأسي متطلعاً، وتقهقرت ذكريات دمشق بسرعة لتستقر في موضعها من الماضي إلى حيث تنتمي، وعدت إلى حاضري الذي كنت أجلس فيه بجوار «أمير الشمال». كانت جلسة التحكيم قد انتهت؛ وانفض جميع المتشاكين واحداً تلو آخر. نهض ابن مساعد، ونهض معه ضيوفه وحرسه. وتفرق جميع الرجال ليفسحوا لنا طريقاً للمرور. وحين كنا نمر خلال البوابة، أحكموا انتظامهم خلفنا من جديد، وتبعونا إلى داخل فناء الحصن.

بعد فترة، كنت أنا، والأمير ابن مساعد، والشيخ غضبان بن رمال مجتمعين حول وجبة غداء مكونة من قصعة ضخمة من الأرز وعليها خروف كامل مشوي. بالقرب منا وقف اثنان من خدم الأمير، وزوج من الكلاب السلوقية.

وضع الشيخ غضبان يده على كتفي وقال: «لم تجب على سؤالي بعد ـ ألا توجد زوجة جديدة؟».

ضحكت من إصراره على هذا الأمر، وقلت: «عندي زوجة في المدينة المنورة كما تعلم، لماذا يتحتم عليّ أن أتزوج بأخرى؟».

رد بسرعة: «لماذا؟ حماني اللّه ـ زوجة واحدة ـ وأنت مازلت في شبابك؟ لماذا، عندما كنت في عمرك..»
قاطعه الأمير ابن مساعد: «قيل لي، إن أداءك لم يقل إلى الآن يا شيخ غضبان».

قال الشيخ غضبان: «لقد أصبحت حطاماً بالية، أطال اللّه عمرك يا أمير؛ ولكني أحتاج أحياناً إلى جسد غض ليدفئ عظام العجوز المسنة.. ولكن أخبرني...» استدار إليّ من جديد: «ماذا حدث لتلك الفتاة المطيرية التي تزوجتها منذ عامين؟ ماذا فعلت معها؟».

أجبت: «لماذا تسأل ـ لم أفعل شيئاً، أظن أن ذلك ما تريد معرفته».

ردد الشيخ العجوز: «لم تفعل شيئاً؟ هل كانت قبيحة إلى هذا الحد؟» أجبته: «كلا، بالعكس، كانت فائقة الجمال...»
سأل الأمير ابن مساعد: «ما الحكاية؟ أي بنت تتحدثان عنها؟ نوّرني يا محمد؟».

هكذا رحت «أنوِّر» الأمير بما حدث في ذلك الزواج الذي لم يؤد إلى شيء. كنت أعيش في المدينة المنورة وحيداً بلا زوجة، واعتاد بدوي من قبيلة مطير اسمه فهد على قضاء عدة ساعات معي يومياً لإعداد القهوة وتسليتي بحكايات طريفة عن رحلاته الاستكشافية مع «لورنس» في أثناء الحرب العظمى. وذات يوم قال لي: «لا يصلح للرجل أن يعيش بمفرده، دماؤك ستتجمد في عروقك، لابد أن تتزوج»، وحين سألته مازحاً عن العروس التي يرشحها للزواج مني، أجاب: «هذا أمر سهل. ابنة مطلق زوج أختي، وهي الآن في سن الزواج، وأنا، بصفتي خالها،

أستطيع أن أطمئنك أنها فائقة الجمال»، كنت مازلت أمزح حين قلت له: إن عليه أن يعرف أولاً هل كان أبوها موافقاً أم لا. وهكذا، في اليوم التالي أتى مطلق بنفسه لمقابلتي، وكان الحرج بادياً عليه بعد عدة أقداح من القهوة، وبعض الأحاديث المتفرقة، أخبرني في النهاية أن فهداً قد حدثه عن رغبتي في الزواج من ابنته، وقال: «يشرفني أن تكون زوج ابنتي، ولكن رقية مازالت طفلة ـ إنها في الحادية عشرة من عمرها...».

استشاط فهد غضباً حين أخبرته بزيارة مطلق، وما قاله لي. صاح في غضب: «إنه نذل ووغد. الوغد الكاذب. الفتاة في الخامسة عشرة، إنه لا يحبذ تزويجها من غير عربي، ولكنه يعلم صلتك الوثيقة بالملك عبد العزيز آل سعود، ولا يريد أن يضايقك برفضه المباشر؛ لذلك ادعى أنها طفلة، إنها ناضجة..»، وأردف: «مثل ثمر الرمان الذي يطلب من يقطفه».

التمعت عينا الشيخ غضبان عندما أتى ذكر وصف الفتاة، وعلّق قائلاً: «خمسة عشر عاماً، جميلة، وعذراء... وبعد ذلك تقول لي لا شيء، ماذا تريد أكثر من هذا؟».

أكملت قائلاً: «صبراً لأكمل لك باقي الحكاية.. أعترف لكم أن اهتمامي راح يتزايد، وربما ازداد بعد معارضة مطلق والد الفتاة. وهبت فهداً عشر هدايا ذهبية، وبذل كل جهده لإغراء أبويها أن يزوجاني إياها؛ وأرسلت بهدية مماثلة لأمها، شقيقة فهد. لم أعرف بالضبط ما حدث في منزلهم؛ كل ما عرفته أن فهداً وشقيقته بذلا كل ما يمكنهما من ضغوط على مطلق حتى يرضى بتزويجي ابنته...»

قال الأمير ابن مساعد: «يبدو أن هذا الفهد كان صديقاً ماكراً.. توقع هو وأخته عطاءً سخياً منك يا محمد، ماذا حدث بعد ذلك؟»

رويت لهم كيف حل يوم الزفاف بعد ذلك بعدة أيام في غياب العروس، التي طبقاً للعادات، يمثلها والدها وكيلاً شرعياً عنها، ويتم تأكيد موافقة العروس على توكيل أبيها بشهادة اثنين من الشهود. وتبع عقد القران حفل زفاف سخي مترف

وفخم، مع الهدايا المعتادة والهبات للعروس (التي لم أكن قد رأيتها حتى تلك اللحظة)، ولأبويها، ولبعض الأقارب المقربين - من ضمنهم بالطبع فهد الذي حظي بأكثر الهدايا قيمة، وفي المساء نفسه أحضرت العروس إلى بيتي بصحبة أمها وبعض النسوة المحجبات، بينما كانت النساء تغني أغاني الأعراس من فوق أسطح المنازل المجاورة على إيقاع الدفوف والطبول.

في الساعة المعينة دخلت الغرفة التي كانت بها العروس تنتظر هي وأمها. لم أميز الأم من الابنة، كلتاهما كانت مغطاة تماماً بملابس سوداء من الرأس حتى الأرض، وحتى أعرف من الأم ومن الابنة قلت: «يمكنك أن تنصرفي الآن»، فنهضت واحدة منهما وخرجت في صمت؛ هكذا عرفت أن التي بقيت هي زوجتي.

قال ابن رمال عندما توقفت عن الحديث عند هذا الموضع، بينما تطلع إليّ الأمير ابن مساعد: «وبعد يا بني، ماذا حدث، وماذا فعلت؟»

أكملت: «ثم.. ظلت البنت في موضعها، تلك الفتاة المسكينة، من الواضح أنها كانت تشعر بخوف شديد من تسليمها إلى رجل لا تعرفه. وعندما طلبت منها بأرق صوت استطعته أن تميط لثامها، لم تفعل إلا أن تحكم وضع عباءتها حول جسدها في خوف».

هتف الشيخ ابن رمال في حماس: «يفعلن ذلك دائماً، يظهرن الخوف في البداية في ليلة الزفاف، إلا أنهن بعد ذلك يصبحن مسرورات، أليس كذلك؟».

أكملت: «حسناً، ليس تماماً، كان عليّ أن أزيل عن وجهها اللثام بنفسي، وعندما فعلت، أذهلني أن أرى وجهها الجميل، وجه بيضاوي قمحي اللون، وعيون واسعة وضفائر شعر طويلة تدلت حتى الوسائد التي كانت تجلس عليها، إلا أن وجهها كان بالفعل وجه طفلة، لم يكن عمرها يزيد على أحد عشر عاماً، تماماً كما ذكر والدها.. دفع الجشع فهداً وأخته إلى تصوير الأمر لي على أنها في سن الزواج، بينما كان المسكين مطلق بريئاً من أي كذب أو ادعاء».

سأل الشيخ ابن رمال وعلى وجهه علامات عدم فهم ما كنت أرمي إليه: «وبعد؟ ما مشكلة أحد عشر ربيعاً؟ البنات يكبرن، أليس كذلك، بل إنهن يكبرن أسرع في بيت الزوجية...».

تحت إلحاحهم رحت أكمل الحكاية، أخبرتهم أنه مهما تكن وجهات نظر الشيخ غضبان، فإن صغر سن العروس لم يكن ميزة كبيرة لي، فلم أشعر نحوها إلا بالشفقة، فقد كانت ضحية خداع خالها الوضيع. عاملتها كما يعامل الأطفال، طمأنتها أنه لا يوجد ما تخشاه مني، إلا أنها لم تنطق بكلمة، وفضح ارتعاشها خوفها وجزعها. وجدت على أحد الأرفف قطعة من الحلوى ـ شيكولاتة ـ قدمتها إليها إلا أنها لم تكن رأت الشيكولاتة في حياتها، فرفضتها بهزة عنيفة من رأسها، حاولت أن أطمئنها بأن أقص عليها قصة مسلية من ألف ليلة وليلة، ولم يبد عليها أنها فهمت أي شيء مما كنت أقصه عليها. أخيراً تمتمت بأول كلمات لها: «رأسي يوجعني...» أحضرت بعض أقراص الإسبرين، ووضعتها في كفها، ومعها كوب ماء، إلا أن ذلك تسبب في مزيد من خوفها (علمت بعد ذلك أن بعض السيدات من معارفها أخبروها أن الرجال الغرباء القادمين من بلاد أجنبية يخدرون زوجاتهم في ليلة الزفاف حتى يغتصبوهن بسهولة)، بعد ساعتين أو نحو ذلك نجحت في إقناعها أنني لن أوذيها. في النهاية سقطت في نوم عميق مثل أي طفلة في سنها، وأعددت فراشاً لي على البساط في ركن الغرفة.

في الصباح أرسلت من يستدعي أمها، وطلبت منها أن تصطحب ابنتها معها. بدا على المرأة الغباء وعدم الفهم. فهي لم تسمع في حياتها عن رجل يرفض لقمة فتاة ـ عذراء في الحادية عشرة، وظنت أن هناك خللاً في عقلي.

وسأل الشيخ غضبان: «وماذا بعد ذلك؟».

أجبته: «لا شيء، طلقت الطفلة، وتركتها على حالها الذي أتتني به. لم تكن الصفقة سيئة لأسرتها، فقد احتفظوا بالفتاة والمهر الذي دفعته، وكذلك بالهدايا التي أهديتها إليهم ولأقاربهم. أما أنا، فلم أنل إلا شائعة انتشرت وذاعت أنني لا أملك

من الرجولة ما يكفي، وحاول بعض ذوي النيات الطيبة أن يقنعوني أن هناك من عمل لي عملاً من أعمال السحر ليعوقني عن ممارسة رجولتي، وأنني لن أستعيد رجولتي إلا إذا قمت بعمل سحري مضاد يبطل السحر الأول الذي أصابني باللعنة».

قال الأمير وهو يضحك: «عندما أتذكر زواجك بعد ذلك في المدينة المنورة، وإنجابك طفلاً، أتأكد أنك قمت بعمل سحري مضاد أقوى من الذي كان يؤثر فيك...».

(٥)

في وقت متأخر من الليل، عندما كنت أهم بالذهاب إلى فراشي، وجدت زيداً صامتاً أكثر من المعتاد. كان يقف بالباب، وكان من الواضح أن ذهنه شارد في أفكار أخذته بعيداً عن الحاضر واللحظة، كان ذقنه مرتكزاً على صدره وعيناه ثابتتين على النقوش الزرقاء والخضراء الطحلبية التي تزين بساطاً خرسانياً مفروشاً على الأرض.

سألته: «كيف تشعر الآن يا زيد بعد أن عدت إلى موطن شبابك بعد كل تلك الأعوام؟»
- كان قبل ذلك يرفض دخول مدينة حائل كلما كان هناك سبب لمجيئي إليها.

أجاب بتؤدة: «لا أدري يا عمي، أحد عشر عاماً.. مرت منذ كنت هنا آخر مرة، أنت تعرف أن قلبي لم يكن يطاوعني على المجيء قبل ذلك، وأرى أهل الجنوب يحكمون من بيت ابن رشيد. ولكن في الفترة الأخيرة رددت في نفسي، قول الله تعالى:
﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلۡمُلۡكِ تُؤۡتِي ٱلۡمُلۡكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلۡمُلۡكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُۖ بِيَدِكَ ٱلۡخَيۡرُۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴿٢٦﴾﴾[1]
لقد وهب الله الملك لابن رشيد إلا أنه لم يدرك كيف يستخدمه على الوجه الصحيح. كانوا كرماء مع الناس قساة على أهلهم وعشيرتهم، كانوا يتيهون بلا سبب؛

١- سورة آل عمران: الآية ٢٦.

وتسببوا في إراقة الدماء، ودفعوا الأخ لقتل أخيه، لذلك نزع اللّه عنهم الملك وأعاده إلى الملك عبد العزيز آل سعود، أظن أنه لا يجب أن أحزن عليهم أكثر من ذلك؛ لأن اللّه تعالى يقول:

﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢١٦﴾﴾[1]

كان هناك انطباع بالتسليم الجميل في صوت زيد، تقبل ما حدث والتسليم به. ذلك التسليم الذي يتصف به المسلمون إزاء حتمية أحداث الماضي، وهو التسليم بأن ما حدث كان لابد أن يحدث، وبالكيفية التي حدث بها، لا بغيرها، وهو ما يخطئ الغربيون في فهمه بأنه نوع من الجبرية القدرية الموروثة في الإسلام، والحقيقة أن تسليم المسلم خاص بالماضي الذي انتهى لا بالمستقبل؛ أي أنه ليس رفضاً للفعل أو تجنباً للعمل والسعي، وهو لا يخرج عن أن ما حدث بمشيئة اللّه.

أردف زيد: «عدا ذلك كله، لم يقسُ الملك عبد العزيز على شمّر، وهم يدركون ذلك، ألم يساندوه بعد ذلك بسيوفهم منذ ثلاثة أعوام عندما تمرد ... الدويش وحاول إثارة فتنة؟».

كانوا بالفعل قد نضوا سيوفهم تحت راية الملك عبد العزيز. بكل شهامة... لم يحملوا ضغينة ضد الملك عبد العزيز، ووقفوا معه ضد الدويش. وفي السنة العصيبة، ١٣٤٧ (١٩٢٩م)، عندما اهتزت دعائم مملكة الملك عبد العزيز تحت وقع الهجمات التي شنها تمرد البدو الكبير الذي قاده فيصل الدويش، نهضت جميع قبائل شمّر التي تعيش في منطقة نجد بعد أن نحّوا جانباً العداوة التي كانت بينهم وبين الملك ذات يوم، والتفوا حوله حتى حققوا النصر على المتمردين، كان ذلك التصالح مشهوداً، بعد أن كان الملك عبد العزيز قد دخل مدينة حائل بقوة السلاح، وبذلك استعاد سيطرة الجنوب على الشمال. كان التصالح مشهوداً وعظيماً، وخصوصاً أنه كان في ظل تنافس تاريخي أعمق من أي خلافات قبلية، وأعمق من أي تنافس على السلطة والقوة - بين قبائل شمّر وسكان جنوب نجد الذين ينتمي إليهم الملك عبد العزيز. وإلى حد كبير، كانت تلك

---

١- سورة البقرة: الآية ٢١٦.

الكراهية والنفور الفطريان بعيدين عن تنافس الجنوب والشمال والذي امتد بطول التاريخ العربي، والذي له ما يقابله في دول كثيرة أخرى: وفي الغالب نجد أن اختلافاً طفيفاً في نمط الحياة وأسلوبها تترتب عليه عداوات بين قبائل من المفترض أنها مرتبطة بعلاقات حميمية، عداوة قد تزيد من العداوة المترتبة على اختلافات عرقية بين أمم متجاورة.

باستثناء التنافس السياسي: كان هناك عنصر آخر أدّى دوره في إذكاء التنافس بين الشمال والجنوب. حدث ذلك في جنوب نجد، في محاور الرياض، من مئتي عام مضت، عندما ظهر المصلح المجدد محمد بن عبد الوهاب، وأثار ذلك قبائل كثيرة قاومت إصلاحاته - كانت قبائل مسلمة اسماً فقط - فقد دعا إلى ممارسة الدين بشكله النقي، كانت الحركة الإصلاحية قد بزغت من بيت آل سعود الذي لم يكن مشهوراً في ذلك الوقت، ودعم زعماء مدينة صغيرة، هي مدينة الدرعية، المصلح محمد بن عبد الوهاب بالدفاع المسلح مما دفع الحركة الإصلاحية إلى موقف قوي، وخلال بضعة عقود جمع حوله أغلب مناطق شبه الجزيرة، وعرفت باسم الحركة «الوهابية». وفي كل الحروب الوهابية والغزوات الإصلاحية التي قامت بها خلال المئة والخمسين عاماً الأخيرة، كان أهل الجنوب هم رافعو ألوية تنقية الدين، بينما سايرهم الشمال بنصف قلب، وبلا اقتناع كامل، وعلى الرغم من أن قبائل شمّر كانوا نظرياً تحت راية الوهابيين، إلا أن قلوبهم ظلت نائية عن الإصرار الإصلاحي لأهل الجنوب؛ ولأنهم كانوا يعيشون على الحدود القريبة من سورية والعراق، فقد كانوا مرتبطين بهما بعلاقات تجارية دائمة، واكتسب أهل شمّر على مر الزمن حساً تجارياً عالياً، واكتسبوا صفات المصالحة، وإبرام الصفقات، وترجيح كفة المصالح، وهو ما لا يعرفه ولا يتصف به أهل الجنوب، فأهل الجنوب لا يعرفون إلا الوضوح الكامل، وعلى مدى قرن ونصف القرن لم يشغلهم إلا رفع راية الجهاد بحماس، وفي تصميم رجال نذروا أنفسهم للإسلام، وحاولوا تخليص الدين مما علق به من البدع.

على الرغم من ذلك، لم يكن الوهابيون بالتأكيد طائفة مستقلة، فالطائفة الدينية تقتضي، وجود تعاليم مستقلة مقتصرة على أتباعها، ولم تكن لديهم تعاليم

خاصة ـ على العكس: سعت تلك الحركة إلى نبذ كل المدخلات الغريبة والإضافات التي تسللت إلى الفكر الإسلامي خلال قرون طويلة، ودعت إلى العودة إلى جوهر تعاليم الإسلام كما جاء بها الرسول ﷺ، وكان سعي الحركة إلى إجلاء وجه الدين وجوهره من كل ما شابه عبر القرون دون حلول وسطية ولا مساومة، سعياً عظيماً ومحاولة جليلة، وكان من الممكن أن تؤدي تلك الدعوة مع مرور الزمن إلى تحرير الإسلام تحريراً كلياً من كل ما شابه من مدخلات وخرافات أخفت وجهه الحقيقي.

وفي الحقيقة، كانت كل الحركات الإسلامية الإصلاحية في العصور الحديثة، بدءاً من حركة «أهل الحديث» في الهند، والحركة السنوسية في شمال إفريقية، وأفكار جمال الدين الأفغاني ودعوته، وأفكار محمد عبده المصري، كانت كلها حركات إصلاحية تستمد قوتها من قوة الدفع الروحية التي انطلقت في القرن الثامن عشر على يد محمد بن عبد الوهاب.

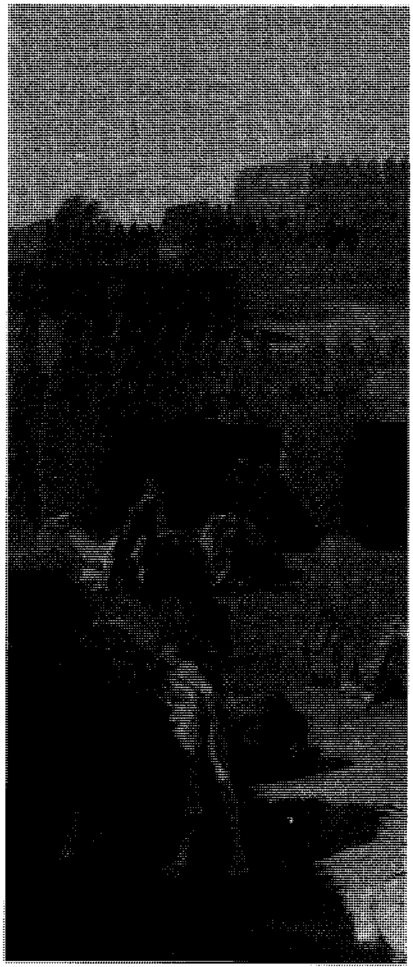
السوق في حائل ١٣٤٦ (١٩٢٨م)

# الفصل السادس

## أحلام

أن تكون ضيفاً على أمير عربي كبير يعني أنك تُعامل كصديق وضيف من كل من يتبعونه، من «رجاله»، وأصحاب المتاجر في عاصمته، بل حتى من قِبل بدو الصحراء في منطقة سلطته. ولا يبوح الضيف برغبة إلا وتتحقق له في الحال، طالما يمكن تحقيقها؛ من ساعة إلى أخرى يجد نفسه مشمولاً بدفء الكرم والترحاب والحب الذي يحيطه حتى لو كان في سوق المدينة الذي لا يقل دفئه عن المشاعر التي يلقاها في أروقة الحصن وردهاته وقاعاته.

(١)

لقيت المعاملة الكريمة ذاتها في جميع زياراتي السابقة إلى مدينة «حائل»، كما لقيتها في اليومين الذين قضيتهما هذه المرة ضيفاً على الأمير ابن مساعد أمير مدينة «حائل» والمنطقة الشمالية. إذا رغبت في تناول قهوة سمعت على الفور صوت رنين الهاون الذي تُطحن فيه حبوب البن المحمصة لإعداد قهوة طازجة. في الصباح، أحكي لزيد على مسمع من أحد خدم الأمير عن رحل جميل رأيته بالسوق، في المساء أجد الرحل أمامي. يتحفنا الأمير بهداياه كل يوم: قفطان طويل من صوف كشمير، كوفية مزركشة، جلد غنم بغدادي أبيض يوضع على رحل الناقة، خنجر نجدي معقوف بمقبض من الفضة.. وأنا.. المرتحل الذي لا يثقل نفسه بأحمال زائدة، لم أجد لدي ما أهديه للأمير ابن مساعد إلا خريطة مكبرة للجزيرة العربية بالإنجليزية، ترجمت عليها بمشقة أسماء المناطق بالعربية، وأسعدت الهدية الأمير ابن مساعد.

كان كرم الأمير ابن مساعد قريباً من كرم الملك عبد العزيز: وهو ما لا أستغربه بأي حال عندما أتذكر قرابتهما. لم يكونا فقط أبناء عمومة، بل إنهما اشتركا - منذ أن كان الملك عبد العزيز شاباً في مقتبل عمره وابن مساعد في صباه - في مجابهة المصاعب التي قابلتهما معاً، وواجها معاً تقلبات الأحوال والأحلام المبكرة عند بداية تكوين المملكة. وعدا كل ذلك فقد ترسخت عرا علاقتهما بزواج الملك عبد العزيز من الجوهرة، شقيقة ابن مساعد، وهي السيدة التي كان لها شأن عظيم في حياة الملك عبد العزيز أكثر من أي امرأة أخرى ممن تزوجهن قبلها أو بعدها.

وعلى الرغم من أن كثيراً من الناس حازوا على صداقة الملك عبد العزيز آل سعود، فإن قليلاً منهم من حظي بمعرفة تفاصيل حياته الشخصية، وربما كان من بين أشد أموره خصوصية وتميزاً، ذلك الجانب الخاص برجولته لم أعلم كم عدد النساء اللاتي تزوجهن الملك حتى إن المتابعين لشؤون الجزيرة العربية من الأجانب اعتقدوا أنه منغمس في الملذات والمتع الحسية، إلا أن قليلين ممن عرفوه عن قرب كانوا يعلمون أن كل زواج للملك عبد العزيز كان يجري لأسباب سياسية واجتماعية، إضافة إلى بحثه عن بديل من ذلك الحب الكبير في حياته والذي فقده وضاع منه بموت الجوهرة.

كانت السيدة الجوهرة، أم ولديه محمد وخالد، وهي حبه الكبير؛ وإلى الآن، بعد أن ماتت منذ ثلاثة عشر عاماً، لم يتحدث عنها الملك قط إلا اعترته غصة تبدو في صوته.

لا بد أنها كانت امرأة غير عادية ـ لا مجرد سيدة جميلة إلا أنها قد وهبت تلك الحكمة النسائية الغريزية النادرة. في الغالب لم يكن الملك عبد العزيز يترك نفسه للانغماس العميق في المشاعر العاطفية تجاه النساء، وعلى الرغم من أنه كانت له زوجات أخريات في أثناء حياتها، إلا أنه احتفظ لها بمشاعر كما لو كانت الزوجة الوحيدة له، واعتاد أن يكتب فيها قصائده، وذات مرة، في إحدى اللحظات التي انطلق معي فيها على سجيته، قال لي: «كلما كان العالم مظلماً من حولي لا أتبين منه طريقاً للخروج من المخاطر التي تحيط بي والمصاعب التي تواجهني، كنت أجلس معها فأجد العالم قد أضاء أمامي فجأة، وينكشف أمامي ما يجب عليّ أن أفعله».

إلا أن الجوهرة ماتت في وباء الأنفلونزا الكبير سنة ١٣٣٧ (١٩١٩م)، وأودى الوباء أيضاً بحياة ابن الملك عبد العزيز البكر، وأكثر من أحبهم من أبنائه وهو الأمير تركي، وتركت تلك الخسارة المضاعفة جرحاً لم يندمل أبداً في أعماقه.

لم يكن حبه موجهاً إلى زوجة وابن فقط: فقد أحب أباه حباً نادراً لا تراه إلا لدى قليلين من البشر. كان أبوه ـ عبد الرحمن ـ الذي عرفته في أعوامي المبكرة في الرياض، عطوفاً وتقياً، إلا أن الملك عبد العزيز بعد أن كوّن المملكة بمجهوده الشخصي، وأصبح ملك البلاد بلا منازع، كان يسلك مع أبيه مسلكاً شديد التواضع حتى إنه لم يكن يسمح لنفسه ولا لغيره أبداً أن يضع قدمه في غرفة من القصر إذا كان أبوه عبد الرحمن في غرفة تحتها؛ لأنه كما كان يقول: «كيف أسمح لنفسي أو لغيري أن يسير فوق رأس أبي؟».

لم يجلس أبداً في حضرة أبيه إلا إذا سمح له أبوه أن يجلس. مازلت أذكر المأزق الذي أوقعني فيه تواضع الملك تجاه أبيه في الرياض (أظن أن ذلك كان في

جمادى الآخرة سنة ١٣٤٦ (ديسمبر / كانون الأول ١٩٢٧م). كنت في ذلك الوقت في إحدى زياراتي المعتادة لوالد الملك في جناحه بالقصر الملكي؛ كنا جالسين على حشايا على الأرض، وكان والد الملك يحدثني في موضوع ديني محبب إلى قلبه. فجأة، دخل أحد أفراد الحاشية إلى الغرفة وأعلن: «الشيوخ قادمون»، في اللحظة التالية كان الملك عبد العزيز يقف بالباب. بالطبع، أردت النهوض وهممت به، إلا أن الرجل الكبير أمسك معصمي ومنعني من النهوض، كما لو كان يفهمني أنني ضيفه. وأصابني حرج شديد لا تعبر عنه الكلمات لبقائي جالساً؛ بينما كان الملك، بعد أن حيا أباه، واقفاً بالباب، كان من الواضح أنه ينتظر إذناً من أبيه لدخول الغرفة؛ ويبدو أنه قد اعتاد ذلك من أبيه، لأنه قد غمز لي بعينه وشبه ابتسامة على وجهه حتى يزيل عني الحرج. في الوقت ذاته، استمر العجوز في تفسيره وشرحه، كما لو لم تكن هناك أي مقاطعة لحديثه. وبعد بضع دقائق رفع بصره، وأومأ لابنه قائلاً: «ادخل يا بني واجلس». كان الملك في ذلك الوقت في السابعة أو الثامنة والأربعين من عمره.

بعد ذلك بعدة أشهر - وكنا بمكة في ذلك الوقت - جاءت الأخبار للملك بأن أباه قد توفاه اللّه في الرياض. لن أنسى ما حييت تلك النظرة المحدقة دون استيعاب أو فهم، ظل على ذلك بضع ثوانٍ متطلعاً إلى من أبلغه، ثم راحت من أمارات اليأس تغزو ملامحه ببطء، ذلك الوجه الذي اعتدنا أن نراه هادئاً جليلاً؛ ثم قفز من مجلسه وهو يصيح بصوت عالٍ: «مات أبي»، وبخطوات واسعة جرى خارج الغرفة جاراً عباءته على الأرض من خلفه؛ ثم ركض على السلالم والحرس يجرون من خلفه وهو لا يدري إلى أين يمضي، أو لماذا يمضي، ظل يصيح: «مات أبي، مات أبي»، وعلى مدى يومين بعد ذلك رفض أن يقابل أي إنسان، لم يتناول فيهما طعاماً ولا شراباً، وقضى النهار والليل في صلاة متصلة.

كم من الأبناء في منتصف أعمارهم، وكم من الملوك الذين كوّنوا ممالكهم بمجهودهم وقدراتهم قد حزنوا ذلك الحزن لوفاة الأب! مع أنه مات ميتة الشيخوخة الهادئة؟

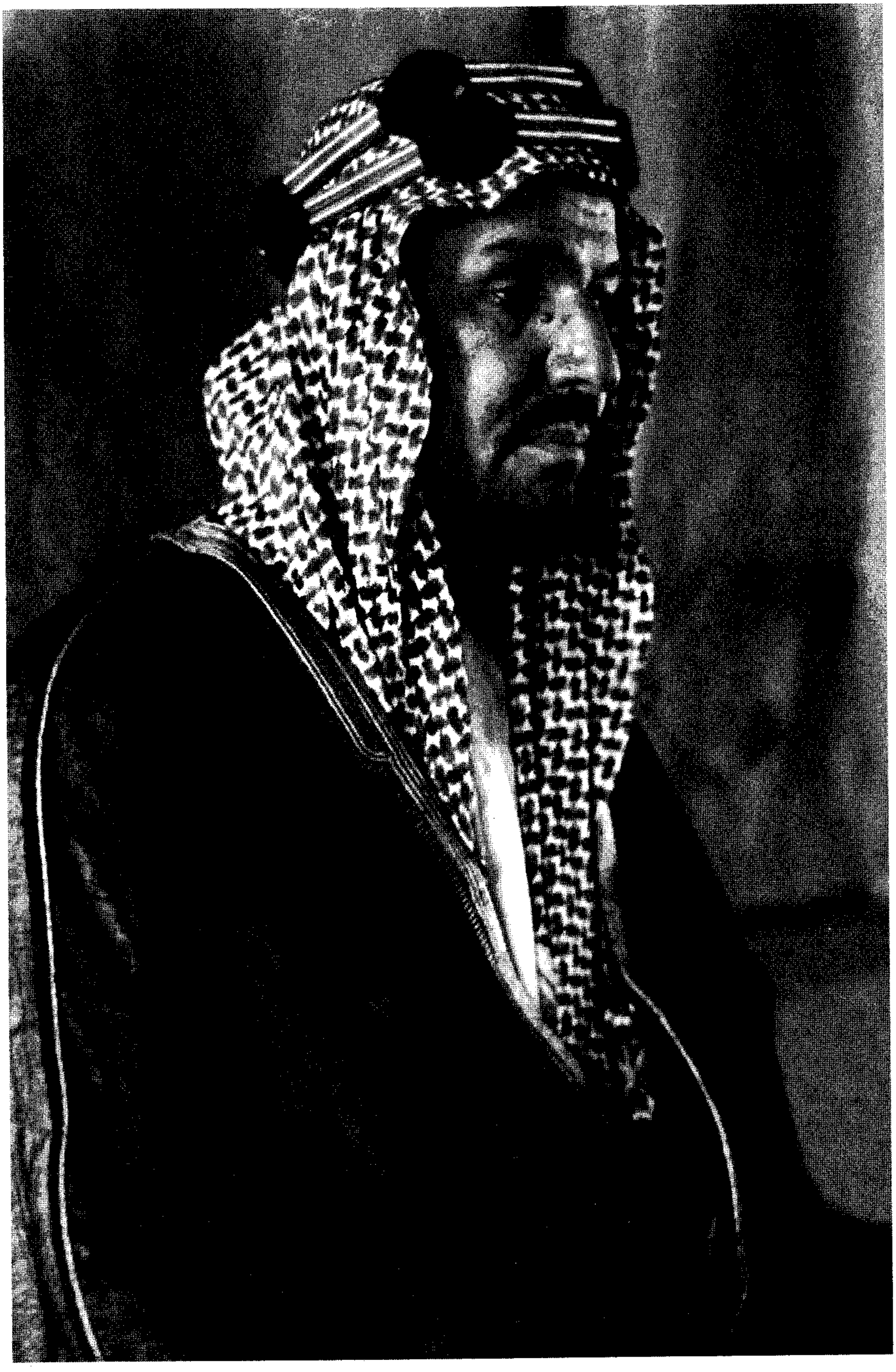

جلالة الملك عبد العزيز، رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

(٢)

بنى الملك عبد العزيز آل سعود مملكته الواسعة الأرجاء بمجهوده الشخصي. عندما كان طفلاً، كانت أسرته قد فقدت آخر مظاهر قوتها في مركز الجزيرة العربية على يدي من كانوا حلفاء وتابعين لهم في يوم من الأيام وهم عائلة ابن رشيد الذين حكموا منطقة حائل. كانت تلك الأيام مريرة على عبد العزيز. فقد شهد الفتى الفخور والمتحفظ أميراً من خارج أسرته يحكم مدينة الرياض، مدينة آبائه وأجداده وهو الأمير ابن رشيد، وأصبحت عائلة الملك عبد العزيز التي كانت تحكم ذات يوم الجزيرة كلها العربية على وجه التقريب معزولة عن الحكم على أيدي ابن رشيد الذي لم يعد يخشاهم. وفي نهاية المطاف أصبح ذلك عبئاً لا يطاق على أبيه عبد الرحمن المحب للسلام، فغادر الرياض هو عائلته، آملاً أن يقضي ما تبقى من عمره في بيت صديقه القديم حاكم الكويت، إلا أنه لم يكن يعلم ما تخبئه الأقدار؛ لأنه لم يكن يعلم ما يضمره ابنه عبد العزيز.

لم يعرف أحد من عائلة عبد العزيز ما يدور في خاطره إلا عمته، وهي الأخت الصغرى لأبيه. لم أعرف عنها الكثير، كل ما عرفته أن الملك كان يتحدث عنها بتأثر شديد كلما تحدث عن أيام شبابه المبكرة، كان يقول: «أحبتني ربما أكثر مما أحبت أبناءها، وحين كنا نجلس بمفردنا، كانت تجلسني في حجرها، وتحكي لي عن الأشياء العظيمة التي لابد لي أن أفعلها عندما أكبر، كانت تقول لي: لابد أن تستعيد عظمة بيت آل سعود، تخبرني بذلك مرة بعد مرة، وتبدو أقوالها لي كأنها مداعبة: ولكن أحب أن أؤكد لك يا عُزيِّز[١] أن استعادة مجد آل سعود ليس نهاية المطاف، إذ لا بد أيضاً أن تستعيد مجد الإسلام، الناس يحتاجون إلى من يقودهم على طريق الرسول الكريم ﷺ، وستكون أنت ذلك القائد، وظلت أقوالها حية في قلبي».

هل ظلت أقوالها بالفعل حية في قلبه؟
كان الملك عبد العزيز طوال حياته بأجمعها يحب الحديث عن الإسلام وكأنها رسالة أوكلت إليه، وحتى في الأيام الأخيرة، عندما بدا أن القوة الملكية تفوق في

---

١ـ اسم تدليل لعبد العزيز. (المترجم).

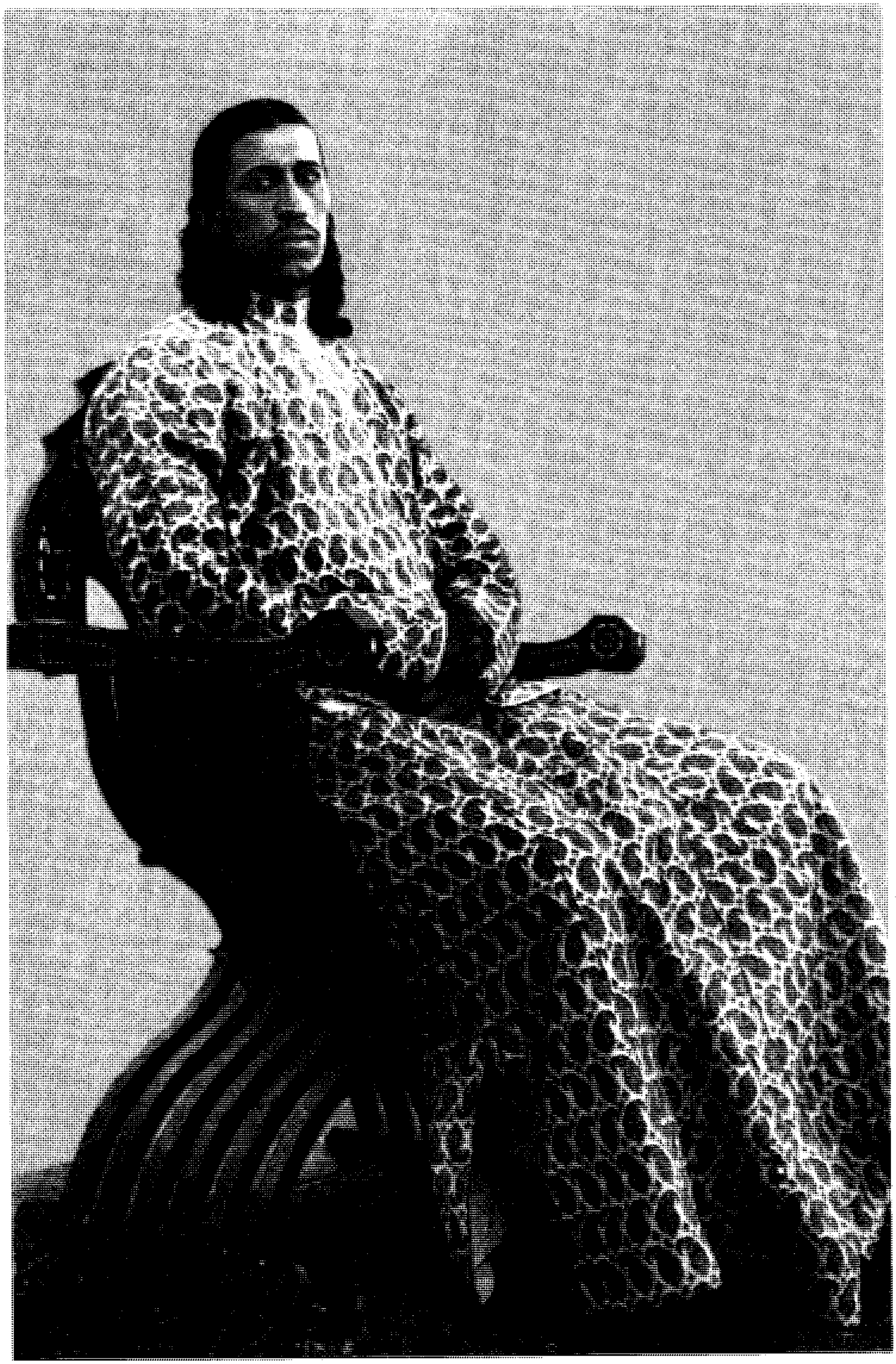

صاحب السمو الملكي الأمير سعود بن عبد العزيز ولي العهد
١٣٤٦ (١٩٢٨م)

الأهمية البطولات السابقة في سبيل المثاليات، نجحت فصاحته ودقة بيانه في إقناع كثير من الناس - وربما هو ذاته - أن تلك المثاليات الإسلامية هي أهدافه التي يسعى إلى تحقيقها.

كانت الأوقات التي يستعيد فيها ذكريات الطفولة والصبا غالباً ما تحدث خلال جلوسه مع المقربين من الأصدقاء في الرياض، وكان ذلك يحدث عادة بعد صلاة العشاء، فبمجرد أن ينتهي المصلون من أداء صلاة العشاء في مسجد القصر. نجتمع حول الملك في إحدى الغرف لنستمع على مدى ساعة إلى أحداث من سيرة الرسول ﷺ، أو تفسير لآيات القرآن الكريم. بعد ذلك يصطفي الملك اثنين أو ثلاثة من خلصائه ليجالسوه في جناحه الخاص.

أتذكر أنه ذات ليلة، عندما هممنا بمغادرة الغرفة التي كنا نجلس فيها بعد صلاة العشاء، أدهشني من جديد الطول الفارع للملك الذي فاق كثيراً كل من حوله. وأعتقد أنه قد لمح اهتمامي ودهشتي ونظرة الإعجاب التي لم أتمكن من إخفائها، فقد رأيته يبتسم ابتسامة هينة ساحرة لا يمكن وصفها، وأمسك بيدي وسألني: «لماذا تنظر إليّ هكذا يا محمد؟».

قلت له: «كنت أفكر، أطال اللّه عمرك، أنه لا يمكن أن يخطئ أحد في تمييز الملك وهو بين حشد من الناس، فرأس الملك يكون فوق كل الرؤوس في أي زحام».

ضحك الملك عبد العزيز، وهو مازال ممسكاً بيدي متقدماً ببطء عبر الردهة، وقال: «نعم، من المبهج أن أكون بهذا الطول. إلا أنه جاء عليّ وقت لم يكن فيه ذلك الطول إلا سبباً من أسباب المتاعب. كان ذلك منذ أعوام طويلة مضت حين كنت صبياً وكنت أعيش وقتها في قصر الشيخ مبارك حاكم الكويت. كنت نحيفاً جداً وطويلاً جداً، أكثر طولاً من أي صبي في مثل سني، وكان بقية الصبية في القلعة - أبناء عائلة الشيخ مبارك، بل حتى أبناء عائلتنا.. يتخذوني هدفاً لحديثهم، كأنني أعجوبة، وقد سبب لي ذلك ضيقاً شديداً، حتى ظننت أحياناً أنني غير طبيعي. كنت خجولاً من طول قامتي المفرط حتى إنني كنت

أحاول أن أخفض رأسي وعنقي بين كتفي لأقصر من قامتي عندما كنت أسير في أرجاء القصر أو في شوارع الكويت».

كنا قد وصلنا إلى جناح الملك. وكان ابنه الأكبر الأمير سعود ـ ولي العهد ـ بانتظار أبيه هناك. كان في مثل عمري، و على الرغم من أنه لم يكن في طول قامة أبيه إلا أنه كان أكثر تجهماً... ولكنه كان عطوفاً محبوباً من شعبه.

جلس الملك على وسادة من الوسائد المتناثرة على امتداد الغرفة وأشار إلينا بالجلوس، ثم أمر: «قهوة» فراح النداء يتردد عبر الممرات في تتابع سريع، نداء بعد آخر: «قهوة»، «قهوة»، حتى يصل إلى مطبخ إعداد قهوة الملك على بعد بضع غرف من مكاننا: في لحظات يظهر أحد أفراد الحاشية وخنجره الذهبي في خصره، ودلة القهوة النحاس في يد، وأقداح القهوة الصغيرة باليد الأخرى. يقدم القدح الأول إلى الملك ثم يوزع باقي الأقداح على الحاضرين بترتيب جلوسهم بعد الملك. في مثل تلك الجلسات غير الرسمية، يتحدث الملك عبد العزيز على سجيته عن كل ما وقع له أو صادفه ـ أو عن وقائع وأحداث وقعت في دول أخرى من العالم، عن اختراع جديد وصلت أخباره إلي مسامعه، عن شعوب وعادات وهيئات؛ وفوق كل ذلك، كان يتحدث عن خبراته وتجاربه الشخصية، ويشجع الحضور للمساهمة في الحديث أو الحوار الدائر. في ذلك المساء، بدأ الأمير سعود في إدارة دفة الحديث حين استدار إليّ ضاحكاً وهو يقول: «أحد من الناس، قال لي اليوم: إنه يشك في أمرك يا محمد. قال: إنه ليس متيقناً على الإطلاق إن كنت جاسوساً إنجليزياً يدعي الإسلام.. ولكن لا تنزعج: فقد أكدت له أنك مسلم قولاً وفعلاً».

لم أتمكن من إخفاء عبوسي، وأجبته: «هذا كرم كبير منك أيها الأمير، أطال اللّه عمرك، ولكن من أين لك بذلك اليقين؟ ألا يعلم اللّه وحده ما تخفي الصدور؟».

رد الأمير: «هذا حقيقي، إلا أنه لديّ بصيرة خاصة، فقد رأيت حلماً في الأسبوع الماضي وهبني تلك البصيرة فيما يخصك... كنت أقف في ذلك الحلم أمام مسجد وأنا أنظر إلى المئذنة، وفجأة ظهر رجل في شرفة المئذنة، كوَّر كفيه حول فمه

وراح يرفع الآذان: اللّه أكبر، اللّه أكبر، أشهد أن لا إله إلا اللّه ـ وعندما دققت النظر، وجدت أن المؤذن هو أنت. حين استيقظت، تأكدت على وجه اليقين ـ على الرغم من أنني لم أشك في ذلك قط ـ أنك مسلم حقيقي، فحلم يعلو فيه اسم اللّه لا يمكن أن يكون هراءً».

تأثرت بشدة بذلك التأكيد من ابن الملك، وبإيماءة الملك الراضية تصديقاً على كلام ابنه الأمير، ثم التقط الملك طرف الحديث وعلق قائلاً: «كثيراً ما ينير اللّه بالفعل قلوبنا خلال الأحلام لينبئنا أحياناً بما يمكن أن يواجهنا في الأيام القادمة، وأحياناً ينير لنا ما غمض أمامنا من حاضر، ألم يمر بك شيء مشابه يامحمد؟».

قلت: «بالفعل حدث لي ذلك يا إمام، منذ زمن طويل مضى، زمن يسبق كثيراً أي فكرة لي عن اعتناق الإسلام، وحتى قبل أن أضع قدمي في أي دولة إسلامية. كنت في ذلك الوقت قد بلغت التاسعة عشرة من عمري أو نحو ذلك، وكنت أعيش في منزل أسرتي بمدينة «ڤيينا»، وكنت شديد الولع بعلم حياة الإنسان الداخلية (كان ذلك أقرب تعريف للتحليل النفسي يمكنني أن أذكره للملك) لذلك حرصت على الاحتفاظ بأوراق وقلم بجوار فراشي حتى أتمكن من تدوين ما أتذكره من أحلام بمجرد تيقظي من النوم. وبتلك الوسيلة كنت أدون الأحلام ليس بدقة كاملة بالطبع، ولكن بطريقة تحفظها من النسيان بعد ذلك. في ذلك الحلم الذي رأيته، وجدت نفسي في «برلين» متنقلاً في قطار الأنفاق الذي يستعملونه هناك ـ كان القطار يمضي أحياناً في أنفاق تحت الأرض، وأحياناً فوق قناطر عالية فوق سطح الأرض.

ازدحمت العربة التي كنت فيها بحشد كبير من البشر، كانوا كثيرين، حتى إنه تعذر عليّ أن أجد مقعداً أجلس عليه، وجميعهم وقوف متلاصقون، من دون أن أجد حتى مسافة أو فرجة صغيرة للحركة؛ ولم يكن هناك ضوء إلا ضوءاً شاحباً خافتاً ينبعث من مصباح كهربائي ضعيف بالعربة. بعد فترة خرج القطار من النفق الذي كان فيه؛ إلا أنه لم يسر على واحدة من تلك القناطر العالية، فقد رأيته يسير في واد مهجور منعزل هائل الاتساع؛ إلا أنه واد من الطين غير ذي زرع، فانغرست عجلات القطار في ذلك الطين حتى إنه عجز عن السير إلى الأمام أو الخلف.

«نزل المسافرون كلهم، وأنا منهم، من العربة وبدأنا في التطلع حولنا. بدا الوادي من حولنا بلا نهاية، خاوياً وقاحلاً بلا نبتة عشب، ولا بيت ولا حتى حجر، أصابت الناس حيرة وارتباك، فقد أصبحنا جميعاً معزولين في ذلك المكان، فكيف نجد سبيلاً للعودة إلى حيث يحيا الناس؟ ظهر ضوء شفق فوق الوادي الهائل الاتساع، كما لو كان تباشير ضوء فجر.

«إلا أنني لم أجد بنفسي حيرة ولا ارتباكاً، فقد شققت طريقي مبتعداً عن ذلك التجمع البشري، ولدهشتي، وعلى مسافة عشر خطوات تقريباً، كانت هناك ناقة جاثمة على الأرض، برحلها ولجامها ـ بالطريقة ذاتها التي رأيت الجمال ترحل بها هنا يا إمام، وعلى الرَّحل كان يجلس رجل يضع عباءة مخططة باللونين، الأبيض والبني وأكمامها قصيرة. وكانت كوفيته تخفي وجهه حتى إنني لم أميز ملامحه. ملأني يقين أن تلك الناقة المباركة كانت بانتظاري، وأن راكبها الذي لم تصدر عنه حركة هو دليلي ومرشدي؛ وهكذا، من دون كلمة واحدة اعتليت ظهر الناقة خلفه مثلما يركب الرديف هنا في الجزيرة. في لحظة، نهضت الناقة وانطلقت في خطوات خفيفة واسعة سريعة، أحسست بسعادة لا يمكن أن أصفها بالكلمات تشيع داخلي. رحلنا بتلك الخطوات السريعة الخفيفة للناقة زمناً بدا لي كأنه ساعات، ثم أيام، ثم أشهر، حتى فقدت أي إحساس بالزمن؛ مع كل خطوة من خطوات الناقة كانت سعادتي تزداد وتتوهج، واستمر ذلك حتى شعرت كأنني أهيم في الهواء، في النهاية، بدأ الأفق على يميننا في التوهج كما يتوهج الأفق قبل شروق الشمس. إلا أنني رأيت في الأفق البعيد ضوءاً آخر: كان ذلك الضوء يأتي من خلف بوابة ضخمة قائمة على عمودين ـ كان نوراً أبيض مبهراً لا يشبه ضوء الشمس المشرقة التي كانت على يميننا، نوراً بلا حرارة يزداد تألقاً كلما اقتربنا منه ومن البوابة، وأشاع بين جوانحي سعادة تفوق أي سعادة يمكن للكلمات أن تصفها، وكلما اقتربنا من البوابة ونورها، أسمع صوتاً من مكان ما يعلن: «هذه آخر مدينة بالغرب، ثم استيقظت».

تعجب الملك عبد العزيز آل سعود قائلاً: «ياسبحان اللّه، ألم يَعْنِ لك ذلك الحلم أن اللّه سيهديك إلى نور الإسلام؟».

هززت رأسي بالنفي: «كلا، أطال اللّه عمرك، فكيف لي أن أعرف ذلك؟ لم يرد الإسلام على ذهني قبل ذلك، ولم ألتق حتى ذلك اليوم بأي مسلم.. بعد ذلك بسبعة أعوام، وكنت قد نسيت ذلك الحلم منذ زمن طويل، اعتنقت الإسلام. لم أتذكر ذلك الحلم إلا مؤخراً عندما وجدت الأوراق التي سجلت عليها الحلم في حينه، كنت قد سجلته وقتها كما رأيته بتفاصيله في منامي بمجرد أن استيقظت».

قال الملك: «هي نعمة أظهرها اللّه لك في الحلم يا بني! ألم تتبين ذلك بوضوح؟ ذلك الحشد من البشر وأنت بينهم، متجهون إلى وجهة ليس فيها إلا الضياع بلا مخرج، وتتنابهم حيرة: ألا يرمز أولئك الناس في حيرتهم إلى ما ذكرته سورة الفاتحة من القرآن الكريم في كلمة «الضالين»؟ وتلك الناقة وراكبها اللذان كانا ينتظرانك: ألا يقابل ذلك ما ذكرته السورة: «اهدنا الصراط المستقيم» والذي ذكرت بمواضع كثيرة من القرآن الكريم؟ وراكب الناقة الذي لم يتحدث إليك، ولم تتمكن من رؤية ملامح وجهه: من يمكن أن يكون ذلك الراكب غير الرسول ﷺ؟ لقد كان يحب أن يلبس جلباباً قصير الأكمام... ألم تذكر كتب السنة أن وجهه لا يظهر لغير المسلم في المنام؟! وذلك النور الباهر بلا حرارة الذي ظهر في الأفق: ماذا يمكن أن يكون غير وعد بنور الإيمان الذي يضيء دون أن يحرق؟ ولم تصل إلى ذلك النور في الحلم لأنك، كما قلت، لم تهتد إلى الإسلام إلا بعد ذلك بأعوام...»

قلت: «قد يكون الأمر كذلك يا طويل العمر... ولكن، ما المقصود بأقصى مدينة في الغرب والتي كانت البوابة في الأفق تؤدي إليها؟ فلم يقدني اهتدائي إلى الإسلام إلى الغرب: بل على العكس قادني بعيداً عن الغرب».

أطرق الملك عبد العزيز في صمت وراح يفكر، ثم رفع رأسه وتعلو وجهه تلك الابتسامة الحلوة التي أحبها، وقال: «ألا يعني ذلك يا محمد أن اهتداءك للإسلام قد يكون آخر من ستصل إليه في حياتك، وان الغرب سيندثر من حياتك؟».

بعد هنيهة تحدث الملك من جديد: «لا يعلم الغيب إلا اللّه. إلا أن اللّه يشاء في بعض الأحوال أن يهبنا رؤية، لمحة مما يمكن أن يحدث في المستقبل أنا نفسي قد رأيت

مثل تلك الرؤى مرتين أو ثلاث، وقد تحقق ما رأيته بالفعل. واحدة من تلك الرؤى جعلتني ما أنا عليه الآن.. كنت في السابعة عشرة من عمري في ذلك الحين، كنا نحيا منفيين في الكويت، إلا أنني لم أكن أحتمل أن يحكم ابن رشيد موطني. كنت ألح على أبي - رحمه الله - وأترجاه «فلنحارب يا أبي، لنطرد ابن رشيد من أرضنا، لا يوجد من هو أحق بعرش الرياض منك، إلا أن أبي كان يتغاضى عن طلباتي العاصفة وكأنها حماسات خيالية، ويذكرني أن ابن رشيد الآن أقوى حاكم في الجزيرة، وأنه يفرض سيطرته على مملكة تمتد من صحراء سورية في الشمال، حتى صحراء الربع الخالي في الجنوب، وأن كل البدو يخشونه ويخشون بطشه.

وفي ليلة رأيت رؤيا غريبة، رأيت نفسي على صهوة جواد في أرض جرداء تحت ظلام دامس، ورأيت محمد بن رشيد على صهوة جواد آخر، لم يكن أي منا مسلحاً، إلا أن ابن رشيد كان يحمل بيده مصباحاً منيراً ويرفعه عالياً، وعندما رآني أقترب منه، رأيت العداوة في نظراته واستدار بجواده ولكزه وانطلق به؛ إلا أنني طاردته، حتى قبضت على عباءته من كتفه، ثم أطبقت على ذراعه وانتزعت المصباح من يده - ونفخت فيه وأطفأته، وعندما استيقظت، تأكدت على وجه اليقين أن الله قد قدر لي أن أستعيد الحكم من بيت آل الرشيد...

* * *

في السنة التي رأى فيها عبد العزيز ذلك الحلم، وكان ذلك سنة ١٣١٤ (١٨٩٧م)، مات محمد بن رشيد. وبدا ذلك في نظر الملك عبد العزيز لحظة مواتية للهجوم، إلا أن أباه عبد الرحمن، لم يكن يميل إلى المخاطرة بالحياة الآمنة التي يحياها في الكويت، ويخرج للقيام بمهمة مشكوك في نتائجها. إلا أن إصرار الابن وحماسه غلبا تحفظ الأب، وفي النهاية استسلم الأب، وبمساعدة صديقه الشيخ مبارك حاكم الكويت، جمع بعض قبائل البدو التي مازالت على إخلاصها وولائها لعائلة آل سعود، وهاجموا قوات ابن رشيد بالطريقة التقليدية العربية، معركة بالخيالة وراكبي الجمال وحاملي الرايات والبيارق، وحسمت بسهولة وذلك لقوة جيش ابن رشيد موازنة بقوات الملك عبد العزيز المحدودة، وعاد بعدها أبوه إلى الكويت وقد أراحه ذلك أكثر مما سبب له من ضيق، وقد قرر ألا يعكر صفو شيخوخته

بمغامرات حربية جديدة إلا أن الابن لم يستسلم بالسهولة نفسها. كان دائماً ما يتذكر الرؤية التي رآها في المنام، والتي انتصر فيها على ابن رشيد؛ وعندما جدد الأب دعواه بحقه في عرش نجد، كانت تلك الرؤية هي ما حثت الشاب عبد العزيز على أن يأخذ على عاتقه تلك المهمة الخطيرة. ارتبط بعلاقة قوية مع مجموعة من الأصدقاء الشباب - كان من بينهم أبناء عمومته عبد الله بن جلوي وابن مساعد وجمعوا معهم بعض المغامرين من البدو، حتى بلغ عدد فصيلهم أربعين رجلاً.

انطلقوا خارجين من الكويت خلسة، من دون بيارق ولا طبول أو أهازيج حرب حماسية؛ وتجنبوا السير على طرق القوافل، يختبئون نهاراً ويسيرون ليلاً، حتى وصلوا مشارف الرياض، ونزلوا بوادٍ مهجور. في اليوم نفسه، انتقى عبد العزيز خمسة رفاق من الأربعين رجلاً، وخاطب الباقين قائلاً: «نحن الستة سنضع أرواحنا اليوم بين يدي اللّه. سنتوجه إلى الرياض لنغزوها أو لنفقدها إلى الأبد. إن سمعتم أصوات قتال تأتيكم من المدينة، انهضوا مسرعين لمعاونتنا؛ أما إذا لم يصلكم أي شيء حتى غروب شمس الغد، فاعلموا أنّا قد متنا، وليرحمنا اللّه. إن حدث ذلك، عليكم بالعودة سراً، وبأقصى سرعة إلى الكويت».

وانطلق الرجال الستة سيراً على الأقدام. عند حلول الظلام وصلوا مدينة الرياض ودخلوها من جانب مهدم من أسوارها كان قد هدمه محمد بن رشيد قبل ذلك بأعوام ليذل به أهلها كلما رأوا أسوار مدينتهم منهارة. ذهبوا وهم يخفون أسلحتهم تحت عباءاتهم رأساً إلى بيت الأمير. كان البيت مغلقاً فقد كان الأمير يخشى على حياته من أهل الرياض، وقد اعتاد أن يقضي لياليه في القلعة المقابلة للمنزل. دق عبد العزيز ورفاقه الباب؛ فتح لهم عبد، تغلبوا عليه في لمح البصر وأوثقوه وكمموا فمه؛ وقاموا بالأمر نفسه مع من كانوا بالمنزل - وكانوا في تلك الساعة بضعة خدم وامرأة. وتناول المغامرون الستة بعض التمر من خزين الأمير، وقضوا ليلتهم يقرؤون القرآن الكريم بالتناوب.

في الصباح، فتحت أبواب القلعة، وخرج الأمير من بابها، يحيط به الحراس والعبيد. صاح عبد العزيز: «يا ألله، بيدك روح الملك عبد العزيز» وهجم هو ورفاقه

الخمسة بسيوفهم المجردة من أغمادهما على عدوهم المأخوذ. قذف عبد اللّه بن جلوي حربته بقوة على الأمير، إلا أنه تنحى في الثانية الأخيرة فأخطأه الرمح ورشق في الجدار الطيني للقلعة[1] وعوده يتذبذب ويئز - مازال الرمح مرشوقاً بموضعه حتى اليوم - وتقهقر الأمير في خوف وفزع إلى داخل القلعة بينما طارده عبد اللّه بمفرده. وهاجم عبد العزيز والرجال الأربعة الذين معه حرس الأمير، الذين كانوا مأخوذين على الرغم من تفوقهم في العدد من هول المفاجأة التي أربكتهم. بعد لحظات ظهر الأمير على سطح القلعة وكان عبد اللّه بن جلوي يحاصره ويسد عليه مسالك الهرب، وراح يطلب الرحمة التي لم تكن مضمونة ولا مطلوبة في تلك اللحظات العصيبة؛ وظل يتقهقر حتى سور السطح فسقط عليه وتلقى طعنة سيف قاتلة من سيف ابن جلوي، وصاح عبد العزيز بأعلى صوته من أسفل، «هلموا يارجال الرياض، ها أنذا، عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود، حاكمكم الشرعي» فهرع أهل الرياض يحملون سلاحهم لنصرة رجل من خارج المدينة في هجوم صاعق وهم على جمالهم من أبواب المدينة، وتغلبوا على كل ما واجههم من مقاومة كالريح العاصف. خلال ساعة، كان عبد العزيز قد أصبح حاكم مدينة الرياض بلا منازع.

كان ذلك سنة ١٣١٩ (١٩٠١م)، كان عمره آنذاك واحداً وعشرين عاماً. أنهى مرحلة شبابه ودخل المرحلة الثانية من حياته، مرحلة الرجل الناضج، والحاكم.

خطوة بعد أخرى، ومنطقة بعد منطقة استعاد الملك عبد العزيز كل نجد من آل رشيد، ودفعهم إلى التقهقر والعودة إلى ديارهم في جبل شمّر، وإلى عاصمتهم في حائل. كان ذلك التمدد واسترداد الأرض يتم كأنه تحت تخطيط مجموعة من قادة وهيئة حربية متمرسة بالخرائط وتخطيط المعارك والاتصالات، وتوفير المؤن وتأمين الطرق، ووعي بمفاهيم الجغرافيا السياسية، على الرغم من أن الملك عبد العزيز لم تكن لديه القيادات المؤهلة ولم تقع عيناه على خريطة من قبل، كانت غزواته تتم في نطاقات حلزونية مركزها الثابت مدينة الرياض، لم يتخذ أبداً قراراً بالهجوم على مدينة أو منطقة إلا إذا كانت المناطق التي سبق غزوها مؤمنة

١- في الواقع إن رأس الحربة باقٍ إلى اليوم في باب المصمك، وليست في الجدار كما ذكر المؤلف.

تماماً وتحت سيطرة كاملة من قواته. في البداية اتجه إلى ما يلي الرياض من الشرق والشمال[١]، ثم مد نفوذه إلى المناطق الغربية من الرياض. كان زحفه إلى الشمال بطيئاً، فقد كان ابن رشيد مازال يمتلك قوات لا يستهان بها، كما كان مدعوماً من الأتراك الذين تحالفوا معهم من عقود سابقة. كما أعاق الملك عبد العزيز فقره: فلم تكن المنطقة الجنوبية من نجد تدر عليه ما يكفي من عوائد لتمويل قوات كبيرة من المقاتلين لمدى زمني طويل.

حدثني الملك عبد العزيز ذات مرة قائلاً: «في يوم من الأيام كنت فقيراً إلى درجة دفعتني إلى رهن سيوف مرصعة بأحجار كريمة كان قد أهداها إلي الشيخ مبارك حاكم الكويت، رهنتها لدى تاجر في الكويت، لم يكن بإمكاني أن أوفر قرشاً على رحل جملي، فوضعت بدلاً منه أكياساً فارغة من التي توضع تحت قرب الماء على الجمال».

كانت هناك مشكلة أخرى جعلت الأمر في غاية المشقة والعسر على الملك عبد العزيز: وهي مشكلة قبائل البدو.

فعلى الرغم من المدن والقرى الموجودة بالمنطقة المركزية فإن أغلب سكانها كانوا قبائل بدوية، وكان موقفهم الذي يتخذونه مع عبد العزيز أو ضده يحدد بشكل كبير نتيجة المعارك بينه وبين ابن رشيد.

كان البدو متقلبين ويبدلون مواقفهم بسهولة طبقاً لما يرونه من رجحان كفة طرف على آخر في أي لحظة، أو يوالون من يتوسمون أنه سيهبهم غنائم أكثر. وكان منهم فيصل الدويش، زعيم مطير، الذي كان انحيازه إلى أحد الجانبين يرجح كفته على الآخر. كان يذهب إلى حائل، ويمضي من عندهم محملاً بالهدايا والهبات؛ وفي أوقات أخرى يدير ظهره لابن رشيد، ويفد على الرياض، ويقسم يمين الولاء للملك عبد العزيز - لم يكن مخلصاً لأحد، كان شجاعاً وجشعاً ويتملكه طمع وتطلع هائل إلى القوة والسلطة، وكثيراً ما كانت مواقفه سبباً في ليالٍ كثيرة قضاها الملك عبد العزيز بعيون مسهدة يجافيها النوم.

١- الصحيح أن أول ما توجهت قوات الملك عبد العزيز كانت إلى جنوب الرياض وليس إلى الشرق والشمال.

بينما كان الملك عبد العزيز محاصراً بتلك المشكلات، واتته فكرة بدا الغرض منها في البداية وكأنه غرض سياسي، إلا أنها تطورت ونمت وتحولت إلى فكرة عظيمة تبين أنها من الممكن أن تغير وجه الجزيرة العربية: كانت الخطة تهدف إلى توطين القبائل المرتحلة المتنقلة. كان من الواضح أن مجرد توطين تلك القبائل في أماكن ثابتة لن يكون متاحاً لها اللعب على الجانبين المتحاربين. أما حياتهم قبائل مرتحلة فقد كانت تجعل من السهل عليهم في أي لحظة حل خيامهم في وقت قصير ويرحلون بقطعان أغنامهم وإبلهم جيئة وذهاباً، من جانب إلى جانب مضاد، والعودة متى غيروا رأيهم؛ أما إذا استقروا فإن لجوءهم إلى نقل ولائهم إلى جانب آخر سيهددهم بفقد ممتلكاتهم المستقرة من منازل وقطعان إبل وأغنام: ولا يوجد ما هو أعز وأغلى على البدوي من ممتلكاته.

جعل الملك عبد العزيز من مسألة استقرار البدو من أهم نقاط برنامجه. وقد دعم هذا الاتجاه ما تنص عليه تعاليم الإسلام، التي كانت تعلي من شأن المستقر على المرتحل. وأرسل الملك معلمين من المشايخ ليغرسوا تلك القيمة في نفوس البدو ويعلموهم تعاليم الإسلام الصحيحة، ولم يكن يتوقع نجاحاً كبيراً. كان تنظيم الإخوان - وهو الاسم الذي أطلقه البدو الذين أخذوا في الاستقرار على أنفسهم - قد بدأ يتخذ شكلاً، وكان أول شكل مستقر للإخوان هجرة - مطير، وهي قبيلة الدويش؛ أما المنطقة التي استقروا بها وهي منطقة الأرطاوية، فقد نمت خلال بضع سنوات وتحولت إلى مدينة بلغ عدد سكانها من البدو ثلاثين ألفاً، ثم تبعتهم قبائل أخرى من البدو في الاستقرار.

تحول الحماس الديني للإخوان وميلهم إلى خوض الحروب إلى قوة جديدة في يد الملك عبد العزيز، وبدأت حروبه من ذلك الوقت تكتسب شكلاً جديداً: اكتسبت وجه الحماس الديني الذي يخوض المعارك، لا من أجل مكاسب دنيوية، بل من أجل إعلاء شأن العقيدة. أما بالنسبة إلى الإخوان، فقد كانت الولادة الجديدة للإيمان تحتوي على الأقل على مضمون أشمل من المضمونات الشخصية الذاتية. كانوا يلتزمون العقيدة وتعاليمها بلا تهاون أو تحريف، ملتزمين التعاليم الإصلاحية للمصلح الديني محمد بن عبد الوهاب التي أعلنها في القرن الثامن عشر (كان

يستهدف منها استعادة الوجه الحقيقي للإسلام في نقائه الأول «ونبذ» كل البدع التي أدخلت إليه على مدى العصور)، كان الإخوان بلا أدنى شك يمتلئون حماساً يغذيه إحساس مبالغ فيه بأنهم يمثلون الوجه الصحيح والوحيد للإسلام؛ وما تاقوا إليه أكثر من أي شيء آخر لم يكن الحق المطلق بقدر ما كان تأسيس مجتمع جديد يتسم بالعدل، ويمكن أن يُسمَّى بحق مجتمعاً إسلامياً.

حقيقة، كانت مفاهيم أغلبهم مفاهيم بدائية، وكان حماسهم يتسم بالتعصب الزائد؛ ولو تم تعليمهم وإرشادهم بشكل أفضل مع إيمانهم الديني العميق لكان ذلك قد خلق منهم نواة أصيلة وحقيقية واجتماعية وروحية لبعث جديد لجميع الجزيرة العربية.

في سنة ١٣٣١ (١٩١٣م)، وبتلك القوة الضارية للإخوان تحت إمرة الملك، وجد الملك عبد العزيز أنه قد أصبح قوياً بما يمكنه لاستعادة منطقة «الأحساء» على الخليج العربي والتي كانت تابعة لنجد، إلا أن الأتراك كانوا قد احتلوها قبل ذلك بخمسين عاماً.

لم تكن محاربة الأتراك بالأمر الجديد على الملك عبد العزيز؛ فقد واجه قبل ذلك فصائل المدفعية التركية التي كانت تدعم ابن رشيد. إلا أن الهجوم على «الأحساء»، التي كانت تحت السيطرة التركية المباشرة، كان يحمل وجهاً مختلفاً: سيضعه مثل ذلك الهجوم في صدام مباشر مع قوة عظمى. لم يكن أمام الملك عبد العزيز خيارات أخرى. فإن لم يسترد منطقة «الأحساء» بموانئها، ستظل صلاته بالعالم الخارجي مقطوعة، ولن يتمكن من الحصول على احتياجاته الأساسية من السلاح والذخيرة وضرورات الحياة اللازمة لأي جيش. سوغت الحاجة مواجهة ذلك الخطر الكبير؛ ولكن المخاطرة كانت جسيمة، وخصوصاً، إذا ترتب عليها الانغماس في حروب مباشرة ضد الأتراك، وتردد الملك عبد العزيز كثيراً قبل أن يتخذ قرار مهاجمة «الأحساء» وعاصمتها مدينة «الهفوف». حتى اليوم مازال الملك مغرماً بإعادة سرد الظروف التي اتخذ في ظلها قرار مهاجمة الأتراك في «الأحساء» لانتزاعها منهم، ويروي الملك:

«كنا قد أصبحنا على مشارف الهفوف، من فوق التل الذي كنا عليه؛ كنت أرى أسوار القلعة الحصينة التي تشرف على مدينة الهفوف. كانت الحيرة تملأ قلبي في الموازنة بين المكاسب والمخاطر التي قد تنجم عن مهاجمة الهفوف. أحسست بالتعب؛ واشتقت الى الهدوء والأمان وإلى بيتي، ولكنني بعد هنيهة من التفكير اتخذت قرار الحرب الذي كنت متردداً في اختياره: سأهاجم الهفوف، وسيكتب اللّه النصر لي».

ثبت أن ثقته قد كانت في موضعها. فقد كان الهجوم جريئاً، اجتاح مقاتلوه القلعة؛ واستسلمت القوات التركية وسمح لهم الملك بالانسحاب بأسلحتهم ومعداتهم إلى الساحل، حيث رحلوا بالبحر إلى البصرة. إلا أن الحكومة العثمانية لم تكن لتسلم بانتزاع الهفوف منهم بهذه السهولة. اتخذت حكومة إستنبول العثمانية قراراً بتجهيز حملة عسكرية لمعاقبة الملك عبد العزيز واسترداد الهفوف. ولكن قبل تنفيذ القرار، انفجرت معارك الحرب العالمية، مما أجبر الأتراك على توظيف كل قواتهم العسكرية وتوجيهها إلى معارك أهم؛ وعندما انتهت الحرب، كانت الإمبراطورية العثمانية قد انهارت.

انحصر وجود قوات ابن رشيد في المناطق الشمالية المتاخمة لمناطق النفوذ البريطاني والفرنسي بسبب انقطاع الدعم التركي عنهم، ولم تظهر لهم بعد ذلك أي مقاومة فعالة. وبقيادة فيصل الدويش ـ الذي أصبح من أشجع أنصار الملك عبد العزيز ـ دخلت قوات الملك على مدينة «حائل» سنة ١٣٣٩ (١٩٢١م) ـ وفقد بيت آل الرشيد آخر مدينة كانت تحت سيطرتهم.

أما قمة توسعات الملك عبد العزيز فقد حدثت في ١٣٤٢ ـ ١٣٤٣ (١٩٢٤ ـ ١٩٢٥م)، عندما دخل الحجاز، بما فيها من مدن، مكة المكرمة والمدينة المنورة وجدة، وأخرج أسرة الشريف حسين التي كانت قد استولت على السلطة في الحجاز بعد ثورة الشريف حسين بدعم بريطاني ضد السلطة التركية سنة ١٣٣٤[١]

١ـ من المعلوم أن أسرة الأشراف ظلت تحكم الحجاز حتى مجيء الملك عبد العزيز، وأن بريطانيا دعمت الشريف حسين ضد الأتراك، لإخراجهم من الجزيرة العربية.

(١٩١٦م)، وبدخوله للأراضي المقدسة علا نجمه في العالم الخارجي، وكان قد بلغ في ذلك الوقت الخامسة والأربعين من عمره.

أشاع صعوده غير المسبوق إلى حيازة السلطة والقوة في بلد عربي إسلامي مستقل، في الوقت الذي كانت فيه أغلب الدول العربية والإسلامية ترزح تحت سيطرة الاستعمار الأوروبي، أملاً لدى الشعوب العربية والإسلامية بأنه أخيراً قد ظهر القائد العربي الذي سيخلص الأمة العربية كلها من نير العبودية والاحتلال الأجنبي؛ كما نظرت إليه شعوب الدول الإسلامية غير العربية نظرتها إلى من يعيد إحياء قوة الإسلام إلى كامل مجدها بتأسيسه دولة تعتمد في حكمها روح نصوص القرآن الكريم.

كان الملك عبد العزيز كريماً وعادلاً في حياته الشخصية، وفياً لأصدقائه ومؤيديه، كما كان كريماً إزاء أعدائه في نبل وشهامة، وهبه الله ذكاء فطرياً فاق كثيراً ذكاء أقرانه وأتباعه. لقد حقق بالفعل الأمن لكل شعبه في الأرجاء الشاسعة لبلاده لم يتحقق مثله في أي بلد عربي من عصر الخلفاء الراشدين المبكرين من ألف عام مضت.

وأرسل عدداً من الشباب إلى خارج البلاد لدراسة الطب والاتصالات اللاسلكية؛ واعتاد أن يتحدث ـ بكل ما يدل على إيمانه بذلك ـ عن عظمة الحياة الإسلامية.

كان بسيطاً، متواضعاً، ويعمل بدأب من دون كلل، كان متديناً بعمق، ويلتزم حرفياً جميع ما نصت عليه الشريعة الإسلامية.

كان يؤدي الصلوات الخمس بمنتهى الالتزام، ويقضي الساعات الطويلة في الليل في تعبد، ويحب الحديث عن مسؤولية الحاكم تجاه رعاياه، وكان غالباً مايذكر حديث الرسول ـ ﷺ ـ: «كلكم راعٍ، وكل راعٍ مسؤول عن رعيته»[١].

١ـ «عن عبد الله بن عمر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: ألا كلكم راعٍ وكلكم مسؤول عن رعيته..». رواه البخاري في كتاب الجمعة، باب الجمعة في القرى والمدن ج١/١٥، وفي كتاب الجنائز باب ٣٢، وكتاب الوصايا باب ٩. ومسلم في كتاب الإمارة، باب فضيلة الإمام العادل ج٣/١٤٥٩ رقم ١٨٢٩.

في أواخر سنة ١٣٤٦ (١٩٢٨م)، كان قائد حركة الاستقلال السوري الشهير، شكيب أرسلان يقوم بزيارة الملك. وقدمني الملك عبد العزيز إليه بهذه الكلمات: «هذا محمد أسد، ابننا. عاد لتوه من المنطقة الجنوبية. إنه يهوى الرحيل بين مناطق البدو».

أثار ذلك على الفور فضول الأمير شكيب أرسلان الذي لم يكن مجرد قائد سياسي، بل كان متعدد الاهتمامات، ودارساً رفيع المستوى، واسع الاطلاع والمعرفة، وأراد أن يعرف انطباعاتي عندما علم أنني أوروبي، واعتنقت الإسلام. وصفت له بعض جوانب تلك الرحلة إلى الجنوب، وخصوصاً ما لاحظته في وادي بيشة الذي لم يطأه أي أوروبي من قبل، وحكيت له عن الإمكانيات الهائلة المتوافرة بذلك الوادي، وثروته المائية وأرضه الخصبة التي تعد أساساً لمشروع واعد، واستدرت باتجاه الملك وقلت له: «أنا متأكد يا إمام، أن وادي بيشة من الممكن أن تحوله إلى مصدر للغلال يكفي كل منطقة الحجاز، إذا تم إعداده بطريقة علمية لزراعته».

استمع الملك باهتمام، فقد كان ما يستورد من قمح لمنطقة الحجاز يستنفد كثيراً من دخل المملكة، وكان عجز الموارد يشغل فكر الملك عبد العزيز.
سألني: «كم يستغرق تطوير وادي بيشة بهذه الطريقة؟».

ولأنني لست خبيراً، لم أتمكن من إعطاء إجابة دقيقة محددة؛ واقترحت عليه أن تقوم هيئة من خبراء أجانب بمسح المنطقة، وتقدم خططاً علمية مدروسة لتطويرها، وقلت له: إن ذلك قد يستغرق في الغالب من خمسة أعوام إلى عشرة حتى يحقق الوادي أقصى إنتاج من الغلال.

وعلى الرغم من أنني عرفت الملك سنوات طويلة معرفة جيدة وعميقة، غير أن جانباً من شخصيته ظل مستعصياً على فهمي لا أستطيع تفسيره، ولا يعني ذلك أنه كان غامضاً بأي حال؛ كان يتحدث عن نفسه بتلقائية، وغالباً ما كان ينسب خبراته إلى مصادرها التي استقاها منها: إلا أن شخصيته كانت متعددة الأوجه

حتى إنه كان من الصعب الإحاطة بجميع جوانبها، كما كان مظهره الخارجي البسيط يخفي خلفه قلباً مثل أعماق البحر.

كانت سلطته هائلة، إلا أنها لم تعتمد على القوة، بقدر ما اعتمدت على ما توحي به قوة شخصيته. مكنته روحه الديموقراطية الحقة من تبادل الحوار والتواصل مع البدو الذين كانوا يفدون عليه في ملابس بالية كما لو كان واحداً منهم. كان يسمح لهم بمناداته باسمه الأول مجرداً من أي ألقاب، عبد العزيز. من جهة أخرى كان لا يتسامح مع كبار موظفي الدولة عندما كان يشعر بخنوعهم ونفاقهم، فقد كان يكره النفاق ويزدريه. أتذكر واقعة حدثت بمكة في أثناء العشاء بالقصر الملكي، فقد أبدى واحد من أشراف مكّة المكرّمة اشمئزازه من «فجاجة البدو» التي رآها من بعض أهل نجد الذين كانوا يأكلون الأرز في قبضات كبيرة؛ وحتى يظهر رقيه راح يأكل الأرز بأطراف أصابعه - وفجأة انفجر صوت الملك قائلاً: «أنتم أيها المتأنقون تأكلون طعامكم بتأنق وحذر وبأطراف أصابعكم: هل السبب في ذلك تعودكم النبش بأصابعكم في القاذورات؟ نحن أهل نجد لا نخشى شيئاً من قبضاتنا: فهي نظيفة، ولذلك نأكل بعزيمة بملء القبضة».

أحياناً، عندما يكون مسترخياً تماماً، تبدو على فمه ابتسامة لاتقل في جاذبيتها عن جمال وجهه. وكنت على يقين من أن الموسيقى لو لم تكن محرمة، لكان قد وجد نفسه في الموسيقى وعبر عنها بالموسيقى؛ ولكن لأن الأمر كذلك، كان يظهر ميوله الموسيقية في قصائده التي يكتبها، وفي وصفه الحي لتجاربه وخبراته، وأغانيه عن الحب والحرب التي ذاع صيتها في نجد، وغناها الرجال على ظهور جمالهم خلال ترحالهم في الصحراء، وغنتها النساء في خدورهن. وأفصحت طبيعته تلك عن نفسها في نمط حياته اليومية المنتظم والمرن الذي كان يتلاءم مع إدارة الشؤون اليومية للمملكة.

كان مثل يوليوس قيصر، يمتلك قدرة عالية على متابعة أكثر من موضوع ومشكلة في آنٍ واحد دون أن يخلط بينها، أويشوب القصور متابعته أي منها، وهي موهبة مكنته من إدارة جميع شؤون المملكة بنفسه على الرغم من اتساع أرجائها

من دون أن يصيبه ذلك بأي تشوش أو إحساس بالإرهاق والإجهاد، ويجد بعد كل تلك الأعباء من الوقت ما يشبع فيه ميله وإقباله على نسائه. كانت حواسه على درجة عالية من الحدة، فقد كان يتمتع برؤية باطنية غريزية لم تخذله أبداً في إدراك دوافع كل من يتحدثون إليه. وحدث مراراً - وقد شهدت ذلك بنفسي - أنه كان يقرأ أفكار كثير من الناس قبل أن يتفوهوا بكلمة، كما كان يستشعر مشاعر الداخلين إليه تجاهه بمجرد تخطيهم عتبة بابه، وقد مكنه ذلك من إجهاض عدة محاولات تم الإعداد لها بعناية للاعتداء على حياته، كما مكنته القدرة نفسها من اتخاذ قرارات فورية عاجلة وموفقة في التطورات السياسية الطارئة.

كان الملك عبد العزيز باختصار يتميز بكثير من الصفات التي تخلَّق بها العظماء، إلا أنه لم يبذل جهداً إرادياً لإحراز العظمة، لم يكن بفطرته تلك انطوائياً، وكان يمتلك موهبة هائلة في فهم منطق الأمور بعقلانية.
كان شفيقاً وودوداً وعطوفاً ورقيق القلب والحاشية، ولم أشك لحظة واحدة في حبه العميق لأبناء شعبه.

(٣)

في الصباح المبكر لليوم الذي كنت سأغادر فيه مدينة «حائل»، استيقظت على صوت موسيقى عالية وصلت إلى مسامعي من نافذة غرفتي المفتوحة بسكن الأمير ابن مساعد: غناء، شقشقة مثل شقشقة الطيور، وجذب أوتار مختلفة، مثل مئة كمان وآلات نفخ متباينة يجربها العازفون قبل بدء عزف مقطوعة موسيقية، ثم كأصوات آلات مفككة متراخية الأوتار، ولأنها نغمات كثيرة غير منتظمة، بدت كلحن غامض، كأنه لحن وهمي في توحد أصواته ثم تفرقها.. لابد أنها فرقة موسيقية هائلة العدد، فالأصوات الصادرة كانت كثيرة وهائلة...

خطوت إلى النافذة ورحت أحدق في ضوء الفجر الوليد، إلى ما وراء ساحة السوق الخالية، وإلى ما وراء منازل المدينة الرمادية المبنية من الطين الجاف، وباتجاه سفوح التلال التي تنمو عليها أشجار الطرفاء وتجمعات النخيل - وأدركت مصدر الصوت: كانت موسيقى صادرة من آبار المياه وسط بساتين النخيل التي كانت

تبدأ عمل يوم جديد، مئات الآبار، كانت المياه ترفع في دلاء من الجلد باستخدام الجمال. والدلاء مربوطة إلى حبال، والحبال تمر على بكرة عند فوهة البئر وتنتهي بربطها إلى أحد الجمال، وكل بكرة تدور حول محور خشبي وتنبعث منها تلك الأصوات عند دورانها، تلك الأصوات التي تتفاوت من أصوات تشبه الغناء إلى أصوات صرير وصفير، وأصوات ترتفع وتنخفض حتى يتدلى الحبل إلى آخره في باطن البئر، وتتوقف البكرات عن الدوران؛ وتصدر صوتاً عالياً مثل الصياح قبل توقفها، ويتخافت صوت الصياح تدريجياً مع ارتخاء الحبال، لتحل محلها أصوات اندفاع المياه في الأحواض الخشبية بجوار آبار أخرى؛ ثم تستدير الجمال وتذهب ببطء مبتعدة عن البئر لجذب الدلاء من أعماق الآبار، فتصدر البكرات أصواتاً جديدة والحبال تجري فوقها حتى تصل الدلاء إلى حافة البئر. ولكثرة عدد الآبار، لم تتوقف الأصوات لحظة واحدة، تتوافق نغماتها أحياناً، وتختلف وتتباين في أحيان أخرى، بعضها يبدأ في ميلاد جديد، وأخرى تخفت حتى تموت. شلالات من الأنغام والأصوات تندفع معاً، ثم تتفرق، وينفصل بعضها عن بعض - أزيز، تحطم، رنين، غناء - ما أعظمها من فرقة موسيقية لم تؤلفها ولم تضع ألحانها مخيلة بشرية! لذلك تصل تقريباً إلى مستوى إبداع خلق الله وعظمته، التي يصعب فهم مكنونها.

# الفصل السابع

## في منتصف طريق

تركنا «حائل» وتوجهنا على الجمال قاصدين المدينة المنورة: كنا ثلاثة - فقد رافقنا أحد رجال ابن مساعد، وهو منصور العساف لإنجاز مهمة كلفه بها الأمير.

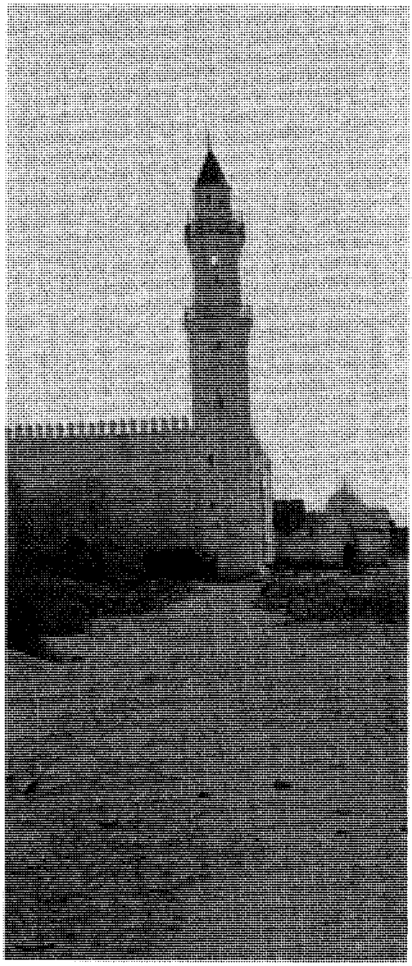

مسجد قباء ١٣٦٤ (١٩٢٨م)

## (١)

كان منصور وسيماً جداً، لو سار في شوارع أوروبا لأدار رؤوس النساء. كان فارع الطول، بوجه قوي الملامح متناسق القسمات، شديد الرجولة. بشرته بيضاء ناصعة قليلاً ـ وهي علامة على حسن المنشأ في عرف العرب ـ أدعج العينين حلو النظرة، يعلو عينيه حاجبان جميلان. لم يكن به شيء من رقة زيد وتحفظه، فقد كانت ملامح وجهه تنم على عواطف جياشة، وأضفت عليه هالة من الجدية لا تشبه ذلك الحزن الهادئ الذي يبدو على صديقي الشمّري. إلا أن منصوراً، كان مثل زيد، في سعة خبراته التي اكتسبها من تنقله بين أماكن كثيرة، ولذلك كانت صحبته ممتعة.

كانت طبيعة المنطقة مختلفة، تحولت إلى تربة يختلط فيها الرمادي بالأصفر بعكس صحراء النفود التي اجتزناها قبل الوصول إلى حائل. وضح لنا اختلاف الحياة البرية في تلك المنطقة وكانت غنية بها: سحالي رمادية تندفع بين أرجل الجمال في سرعة البرق، لتختبئ بين أعشاب شوكية، ثم تراقب عبورنا بعيون لامعة، جربوع صغير رمادي اللون له ذيل مثل العشب، ويشبه السنجاب، والذي يستطيب أهل نجد لحمه، وقد تذوقته وكان لحمه بالفعل من أطيب ما تذوقت من لحوم. كانت هناك أيضاً زواحف كثيرة ذات سيقان طويلة تشبه السحلية ولكنها أكبر منها حجماً، وتسمى الضب، وتحيا على أكل سيقان النباتات، وطعم لحمها يجمع بين طعمي الدجاج والسمك، وهناك أيضاً الخنافس السوداء[1] ذات الأرجل الأربعة والتي يصل حجمها إلى حجم بيضة الدجاجة الصغيرة، تُشاهد في الأغلب وهي تدحرج في صبر بعرة جمل؛ تدفعها بسيقانها الخلفية القوية، وتميل ببدنها على أرجلها الأمامية، تدحرج كنزها الثمين باتجاه جحرها، وأحياناً تكون خلفها حفرة فتنقلب على ظهرها، ثم تكافح حتى تعتدل بصعوبة بالغة، وتبدأ من جديد في دفع لقيتها الثمينة بضع بوصات أخرى لتقع وتنقلب من جديد، وتعاود العمل بلا كلل...

فجأة يقفز أرنب بري رمادي في قفزات طويلة سريعة خارجاً من بين أكمة أعشاب رمادية. ورأينا غزلاناً إلا أنها كانت أبعد من مرمى نيران بنادقنا،

---

١ـ تعرف عند أهل نجد باسم: أبو جعل.

واختفت في الظلال الرمادية الزرقاء بين التلال.
سألني منصور: «أخبرني يامحمد، كيف عَنَّ لك أن تأتي وتحيا مع العرب؟ وكيف اعتنقت الإسلام؟».

رد زيد: «سأخبرك كيف عَنَّ له ذلك»، صمت برهة ثم أجابه: «وقع في هوى العرب أولاً، ثم بعد ذلك في دينهم، أليس ذلك صحيحاً يا عمي؟».

قلت: «ماقاله زيد صحيح يامنصور، من أعوام طويلة، حين وصلت بلاد العرب، جذبني أسلوب العرب في الحياة، وعندما بدأت أراجع فكري بيني وبين نفسي، وأسأل نفسي عما أومن به، أوصلني ذلك إلى اعتناق الإسلام».

سألني منصور: «وهل توصلت فجأة يا محمد وفي مرة واحدة إلى أن الإسلام هو كلمة اللّه الحق؟».

أجبته: «لم يكن مرة واحدة، لم يحدث ذلك بتلك السرعة لسبب واحد، ففي ذلك الوقت لم أكن أومن أن اللّه قد تحدث مباشرة إلى بشر، كما كنت أعتقد أن الكتب التي يدعي البشر أنها من عند اللّه لم تكن إلا من وضع رجال حكماء...».

حدق فيّ منصور بعدم تصديق، وسأل متعجباً: «كيف يمكن أن يحدث ذلك يا محمد؟ ألم تؤمن حتى بالكتاب المقدس الذي جاء به موسى، أو إنجيل عيسى؟ لقد كنت أعتقد على الدوام أن شعوب الغرب تؤمن بتلك الكتب على الأقل».

أجبته: «بعضهم يؤمن يا منصور، وآخرون لا يؤمنون أنها من عند اللّه، وقد كنت واحداً منهم».

شرحت له كيف أن أعداداً كبيرة من أبناء الغرب قد كفوا عن الإيمان بأن الكتب المقدسة ـ كتبهم أو كتب غيرهم من الشعوب ـ هي كلمة اللّه الحق، ولا يرون فيها إلا تأريخاً بشرياً لتطلع البشر الديني وتطوره عبر العصور.

وواصلت: «إلا أن وجهة نظري تلك سرعان ما اهتزت أول ما عرفت مضمون الإسلام»، أضفت: «علمت ما علمته عن الإسلام عندما وجدت المسلمين يعيشون بطريقة مختلفة عما يراه الأوروبيون الطريقة المثلى للحياة؛ وكنت كلما عرفت شيئاً جديداً عن تعاليم الإسلام، أشعر أني اكتشف شيئاً كنت أعرفه داخلي من دون أن أدرك ذلك...».

هكذا، رحت أحكي لمنصور عن أول رحلة لي إلى الشرق الأوسط، وعن كيفية تكوّن أول انطباع لي عن العرب في صحراء سيناء؛ وما رأيته وشعرت به في فلسطين وفي مصر، وفي شرق الأردن وسورية؛ وكيف واتاني أول إحساس داخلي عميق في دمشق بأنني على وشك ولوج طريق لم أتوقعه للتوصل إلى الحق والحقيقة، وأن ذلك الطريق اتضح أمامي رويداً رويداً؛ وكيف رجعت، بعد زيارتي تركيا إلى أوروبا، وكيف اكتشفت أنه من الصعب جداً أن أحيا في عالم الغرب؛ لأنني، من جهة، كنت مشغوفاً بالتوصل إلى فهم أعمق لذلك الإحساس الغريب الذي انتابني عند أول معرفة لي بالعرب وثقافتهم، وكنت أسعى إلى فهم أفضل لما أريده من الحياة وما أتوقعه منها؛ ومن جهة أخرى، كنت قد وصلت إلى نقطة اتضح لي عندها أنني لا أستطيع التعرف إلى نفسي وذاتي في إطار من الأهداف التي تكوّن الفكر والمجتمع الغربي.

* * *

أرسلتني جريدة «فرانكفوتر ذيتونج» في ربيع سنة ١٣٤٢ (١٩٢٤م)، إلى ثاني مهمة لي بالشرق الأوسط. كنت قد انتهيت من الكتاب عن رحلتي السابقة إلى الشرق الأوسط (تم نشره بعد رحيلي من ألمانيا بعدة أشهر تحت عنوان: «رحلة غير حالمة إلى أرض الأحلام»، وعلى الرغم من معاداتي للصهيونية وميلي لشرح وجهة نظر العرب بالكتاب فقد أحدث بعض الاهتياج في الصحف الألمانية، إلا أن الكتاب لم يحقق مبيعات جيدة).

عبرت البحر الأبيض المتوسط مرة أخرى، وشاهدت من البحر سواحل مصر ونحن نقترب منها. وكانت رحلتي من بورسعيد إلى القاهرة بالقطار تشبه من يقلّب

صفحات كتاب سبقت له قراءته. بدأت فترة بعد الظهر بالحلول بين قناة السويس وبحيرة المنزلة، كان البط البري يسبح في مجموعات كبيرة بالبحيرة، وأشجار الطرفاء بفروعها المروحية تتماوج مع الرياح، كانت بعض القرى تظهر من آنٍ إلى آخر في السهل الممتد الذي كان رملياً عند بدايته لا تغطيه أي نباتات، ثم بدأت تظهر في الخلاء الجواميس السوداء وإلى جانبها الإبل أحياناً، تجر المحاريث بقوائمها الكسلى في تربة الربيع. عندما تحول بنا القطار إلى الغرب بعيداً عن قناة السويس، غطتنا الخضرة المصرية. شاهدت من جديد النساء المصريات الرشيقات الطويلات القامة وهن يعملن في الحقول، ويحملن أواني المياه الفخارية على رؤوسهن من دون أن يسندنها بأيديهن، فكرت في تلك المشاهد: «ليس في العالم بأجمعه - من أجمل سيارة إلى أعظم منشآة معمارية (جسر) إلى أكثر الكتب قيمة فكرية - ما يستطيع أن يسد مسد هذا الجمال الذي فقده الغرب، والذي هو مهدد بالضياع في الشرق - هذا الجمال الذي يمثل التوافق والانسجام بين النفس البشرية والعالم الذي يحيط بها...

كنت أسافر هذه المرة بالدرجة الأولى من القطار، لم يكن هناك إلا مسافران آخران في مقصورتي؛ رجل أعمال يوناني من الإسكندرية، كان قد اكتسب عادة الشرق في تبادل الأحاديث مع الأغراب في سهولة، وأشركني في مناقشة حامية راحٍ يوجه فيها سخريته وانتقاده لكل ما يراه، وكان المسافر الثاني عمدة مصرياً، والعمدة في مصر حاكم قرية، والذي - إذا حكمنا بالقفطان الحريري الغالي الذي يرتديه، وسلسلة ساعة ذهبية سميكة تتدلى من فتحة قفطانه - كان غنياً، إلا أنه بدا راضياً عن عدم تعلمه: في الحقيقة؛ وبمجرد أن اشترك في الحوار معنا، اعترف أنه لا يكتب ولا يقرأ، إلا أنه أظهر فطنة وشت بذكائه ودقة ملاحظاته، وكثيراً ما تصادم بحجة قوية مع اليوناني.

كنا نتحدث، كما أتذكر، عن بعض المبادئ الاجتماعية في الإسلام، والتي كانت تثير اهتمامي بشدة في ذلك الوقت، ولم يرض المسافر اليوناني بإعجابي الشديد بمبادئ العدل في الإسلام، ورد عليّ قائلاً بالفرنسية:

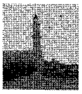

«إنه ليس عادلاً كما تظن يا صديقي العزيز»، ثم استدار إلى العمدة قائلاً: «أنتم أيها المسلمون تدّعون أن دينكم دين عدالة، فهل يمكنك أن تشرح لنا كيف يسمح الإسلام للرجال بالزواج من فتاة مسيحية أو يهودية في حينٍ لا يسمح لبناتكم وأخواتكم بالزواج من مسيحي أو يهودي؟ هل تسمي هذا عدلاً؟ هه..!!».

رد العمدة المهيب من دون أن يبدو عليه التردد لحظة واحدة: «سأشرح لك لماذا شرّع الإسلام ذلك، نحن - المسلمين - لا نؤمن بأن المسيح - عليه السلام - ابن اللّه، ونحن نؤمن أنه هو وموسى وإبراهيم وجميع الرسل المذكورين في الكتاب المقدس، هم رسل من عند اللّه، وقد أرسل كل منهم إلى البشر بالطريقة نفسها التي أرسل بها خاتم الرسل، محمداً - ﷺ - ولذلك إذا تزوجت فتاة مسيحية أو يهودية من رجل مسلم، فهي على يقين من أنه لن يوجد بأسرتها الجديدة من يتحدث بسوء عما تؤمن به، بينما من جهة أخرى، إذا تزوجت فتاة مسلمة من غير مسلم، فمن المؤكد أنها ستواجه ما يسيء إلى إيمانها وعقيدتها.. وربما من أبنائها أنفسهم: ألا يؤمن الأبناء عادة بما يؤمن به آباؤهم؟ هل تعتقد أنه من العدل أن نعرضها إلى ذلك الألم وتلك المهانة؟».

لم يجد اليوناني ما يرد به على هذا التساؤل إلا بهزة ضيق من كتفيه، أما أنا، فقد رأيت أن ذلك العمدة الأمي بتلك العقلانية التي اشتهر بها شعبه، قد مس جوهر تلك المشكلة المهمة وقلبها، ومرة ثانية، شعرت أن أبواباً جديدة للإسلام تنفتح أمامي، كما شعرت تماماً وأنا أتحدث إلى ذلك الحاج العجوز بمدينة القدس.

* * *

أصبح بإمكاني أن أعيش في القاهرة بمستوى لم يخطر لي على بال منذ أشهر قليلة مضت، بسبب التغيير المادي الذي طرأ على حياتي. لم أعد مضطراً إلى حساب القروش القليلة والتقتير في إنفاقها، ونسيت تلك الأيام التي قضيتها أول مرة جئت إلى القاهرة، والتي كان عليّ في أثنائها أن أعيشَ على الخبز وحده، والزيتون واللبن، إلا أنني ظللت مخلصاً لتقاليد الماضي، فبدلاً من الإقامة في أحد الأحياء الراقية بالقاهرة، استأجرت غرفة في منزل صديقتي القديمة، المرأة

البدينة التي سكنت عندها في أول زيارة إلى القاهرة، والتي استقبلتني بأحضان مفتوحة وقبلة على كل خد.

في اليوم الثالث بعد وصولي، وعند غروب الشمس، سمعت صوتاً قوياً لمدفع ينطلق من القلعة. وأضاءت حلقات من المصابيح في الشرفات العليا لمئذنتي مسجد القلعة، وتبعته مآذن القاهرة التي أضيئت شرفاتها العليا في استجابة لمئذنتي القلعة: تتشابه حلقات الضوء في كل مئذنة، سرت حركة غير عادية في شوارع القاهرة القديمة، إيقاع أسرع يشي باحتفالية، وصارت الضوضاء الصادرة عن الشوارع أعلى صوتاً، أرى وأسمع وأشعر بإيقاع حماسي مختلف في جميع الأنحاء.

كان سبب ذلك ظهور القمر الوليد، أي بداية شهر عربي جديد (يعتمد التقويم الإسلامي على الأشهر والأعوام القمرية)، وكان الشهر الجديد هو شهر رمضان، الذي يتمتع بقدسية خاصة لدى المسلمين. ففي هذا الشهر يحتفون بذكرى مرت عليها ثلاثة عشر قرناً، عندما نزل أول وحي على محمد - ﷺ - بالقرآن الكريم. وفي هذا الشهر يصوم المسلمون صياماً كلياً عن الطعام والشراب، رجالاً ونساءً باستثناء المرضى[1]، لا يأكلون ولا يشربون (ولا حتى يدخنون) من لحظة انبلاج ضوء الفجر حتى غروب الشمس مدة ثلاثين يوماً تقريباً. خلال تلك الأيام الثلاثين يمضي الناس في شوارع القاهرة بوميض خاص في عيونهم، كما لو كانوا قد رفعوا إلى مرتبة سامية. في الثلاثين ليلة تسمع صوت المدافع التي تعلن موعد تناول الإفطار أو الإمساك عن الأكل عند الفجر، وتسمع غناءً وصيحات فرح، بينما تشع المساجد والجوامع بالأضواء حتى الصباح. علمت أن هناك هدفين من شهر رمضان؛ الأول: هو الامتناع عن الطعام والشراب حتى يشعر كل امرئ ما يشعر به الفقير والجائع، ويغرس هذا المسؤولية الاجتماعية في الوعي البشري فرضاً دينياً.

والهدف الثاني: هو التعود على ضبط الذات والسيطرة على النفس، وهو أحد أوجه

---

١- ليس المرضى وحدهم بل أصحاب الرخص الشرعية وهي كثيرة.

الأخلاق الفردية، وتؤكد عليها كل تعاليم الإسلام (على سبيل المثال يمنع منعاً كلياً تناول كل ما هو ضار للبدن وكل ما يذهب الوعي، ويعدها الإسلام وسيلة لإخماد الوعي لتغييب الإحساس بالمسؤولية). من هذين الهدفين - أخوة البشر وضبط النفس والسيطرة على الشهوات - بدأت أميز الخطوط الأساسية في منهج الإسلام.

في سعيي إلى تكوين صورة متكاملة لما يعنيه الإسلام وما يهدف إليه، استفدت إفادة عظيمة من الشرح الذي قام به بعض أصدقائي القاهريين. كان من أبرز أولئك الأصدقاء الشيخ مصطفى المراغي، وكان واحداً من أبرز العلماء المسلمين في عصره، وأحد أبرز علماء جامعة الأزهر (وقد أصبح شيخاً للأزهر بعد ذلك بأعوام).

كان في منتصف الأربعينيات من عمره في ذلك الوقت، إلا أن قوته البدنية وتكوينه العضلي البارزين كانا يضفيان عليه حيوية ابن العشرين. وعلى الرغم من سعة اطلاعه وحديثه، إلا أن روح الدعابة كانت من أبرز صفاته. كان تلميذاً للمصلح المصري الكبير الشيخ محمد عبده، كما كان من حضور جلسات الثوري الإسلامي جمال الدين الأفغاني، وكان الشيخ المراغي ذاته من المفكرين الإسلاميين الراصدين والناقدين لأوجه الخلل، إذ يؤكد لي على الدوام أن المسلمين المعاصرين قد تداعوا وسقطوا دون أن يحققوا الهدف من إسلامهم. وأنه من الخطأ الفادح أن يقيسوا أهداف رسالة محمد ﷺ على ما هم عليه الآن من نمط حياة وأسلوب تفكير. قال: «بالضبط، كما نحكم قياساً لما نراه من جفاء بين اثنين من المسيحيين على رسالة المسيح بأنها لا تدعو إلى المحبة».
بهذا التحذير، أدخلني الشيخ المراغي إلى الجامع الأزهر.

وصلنا من شارع الموسكي، وهو من أكثر الشوارع ازدحاماً، وأقدم الأسواق في القاهرة، إلى ميدان جانبي صغير بعيد عن الشارع، ويشغل أحد جوانب ذلك الميدان واجهة عريضة من واجهات الجامع الأزهر، دخلنا من بوابة مزدوجة تفضي إلى صحن مغطى يؤدي إلى فناء واسع مكشوف للجامع، وهو مساحة

مربعة هائلة الاتساع محاطة بعقود قديمة ترتكز إلى أعمدة. كان الدارسون يرتدون الجبة الطويلة الدكناء ومن تحتها قفطان أبيض، يجلسون على حصر من القش، ويقرؤون بأصوات خافتة كتباً ومخطوطات يدوية.

كانت الدروس والمحاضرات تعقد في الجوانب المسقوفة. كل مدرس يجلس على فرش من الحصير تحت الأعمدة التي تمتد في صفوف طويلة، وأمام كل مدرس يجلس الطلاب في شبه نصف دائرة. ولا يرفع أي مدرس صوته أبداً، ولذلك كان على المتلقين جميعاً أن ينتبهوا ويركزوا كل حواسهم حتى لا تفوتهم كلمة، وقد يعتقد من يراهم أن مثل ذلك الاستغراق لابد أن ينتج منه علماء حقيقيون، إلا أن الشيخ المراغي سرعان ما أطاح بتصوراتي، فقد سألني:

«هل ترى أولئك المدرسين هناك؟ إنهم مثل أبقار الهند المقدسة، إنهم كمن يأكلون كل ورقة مطبوعة يجدونها في أي مكان وأي شارع... ويلتهمون كل الكتب التي كتبت من قرون مضت؛ إلاأنهم لا يهضمونها. لم يعودوا يفكرون؛ إنهم يقرؤون ويحفظون عن ظهر قلب ويعيدون ما قرؤوه ويرددونه كما هو، أجيالاً بعد أجيال».

قاطعته: «ولكن ياشيخ مصطفى، على الرغم من أي شيء، فالأزهر هو المركز الرئيس للدراسات الإسلامية، وأقدم جامعة في العالم، واسمه موجود في كل صفحة من صفحات التاريخ الإسلامي. ماذا عن المفكرين العظام، والمؤرخين، والفلاسفة، وعلماء الحساب الذين تعلموا وتخرجوا فيه خلال القرون العشرة الأخيرة؟».

أجاب بأسى: «لقد كفَّ عن تخريج أمثالهم منذ بضعة قرون مضت»، ثم أردف: «حسن، ربما كان ذلك غير دقيق تماماً؛ فمن حين إلى آخر كان يتخرج في الأزهر بعض المفكرين المستقلين حتى عصرنا الحالي: ولكن بوجه عام، أصابت الأزهر حالة من العقم مثل تلك التي يعانيها كل العالم الإسلامي، وخمدت قوة الأزهر المحركة. أما أولئك المفكرون الإسلاميون الذين ذكرتهم، فلم يحلموا أبداً في أثناء حياتهم أن أفكارهم ستظل تعاد وتكرر وتجترها أجيال بعد أجيال بدلاً من

تطويرها والإضافة عليها، كما لو كانت أفكاراً وحقائق لا يأتيها الباطل. التغيير إلى الأفضل يستوجب تشجيع التفكير الحر بدلاً من ترديد الأفكار السابقة».

أعانني تشخيص الشيخ المراغي الحاد واللاذع لحالة الأزهر أن أفهم أحد أهم أسباب الركود الفكري والثقافي الذي يخيم على أرجاء العالم الإسلامي. ألا يعكس ذلك الركود الفكري والثقافي الذي يبدو على أقدم جامعة إسلامية عقم المجتمع الإسلامي في الوقت الراهن؟! ألم يؤد ذلك الركود إلى التقاعس والتقبل السلبي لذلك الفقر الذي يعيش فيه المسلمون، وقبولهم الصامت لأخطاء اجتماعية كثيرة يتعرضون لها من دون اعتراض؟!

سألت، هل لي أن أتعجب، بعد أن فهمت تلك الأدلة الدامغة على انحطاط حال المسلمين، إن وجدت تلك الآراء السائدة عن الإسلام في الغرب؟

الآراء الشائعة في الغرب عن الإسلام فيما يأتي: «انحطاط حال المسلمين ناتج من الدين الإسلامي ذاته، ولا يمكن ان نعده عقيدة دينية مثل المسيحية واليهودية، وأنه أقرب إلى خليط غير مقدس من خيالات الصحراء، والحسية الشهوانية، والخرافات، والاتكالية والإيمان بالقدر، وهي قيم تحول بين المسلمين وإحراز أي تقدم اجتماعي راقٍ وفاضل؛ وبدلاً من تحرير البشر من عراقيل الغموض والظلام؛ كبلهم الإسلام أكثر؛ وبمجرد تحررهم من العقيدة الإسلامية، وتبني مفاهيم الغرب في أسلوب حياتهم وفكرهم، فإن ذلك سيكون أفضل لهم وللعالم كله...

إلا أن ما وجدته من مفاهيم وما توصلت إلى فهمه من مبادئ الإسلام وقيمه، أقنعني أن ما يردده الغرب ليس إلا مفهوماً مشوهاً للإسلام. فما وجدته في القرآن الكريم لم يكن «نظرة مادية» فقط للحياة، بل على العكس، وجدته يظهر وعياً شديداً بالخالق، عبّر عن نفسه بقبول كل ما خلقه اللّه: فهو متوازن ومنسجم يمازج بين العقل والاحتياجات البدنية، كما يوازن بين الاحتياجات الروحية للفرد ومتطلباته الاجتماعية. اتضح لي أن تخلف المسلمين لم يكن ناتجاً من الإسلام، ولكن لإخفاقهم في أن يحيوا كما أمرهم الإسلام، وفي التمسك بتعاليمه.

لقد كان الإسلام هو ما حمل المسلمين الأوائل إلى ذرا فكرية وثقافية سامية، عندما وجه كل طاقاتهم إلى تدبر أمور العقل والوعي المستنير وسيلة وحيدة لفهم طبيعة الخلق وقدر ة الخالق والوعي بمشيئته من خلقهم. لم يطلب منهم اعتناق عقيدة جامدة أو صعبة الإدراك والفهم؛ ففي الحقيقة، لم تكن توجد في رسالة النبي - ﷺ - أي عقيدة جامدة غير مفهومة.

وهكذا، كان العطش إلى المعرفة الذي ميّز المسلمين الأوائل يخلو من عسف العقيدة أو تعسفها الذي كان سائداً في أرجاء العالم، كانت المعرفة في أرجاء العالم تناضل نضالاً مريراً للوقوف على أقدامها ضد ما تمليه وتفرضه العقائد السائدة لديهم. على عكس ذلك، كانت المعرفة في الإسلام تنبثق مباشرة من مبادئ العقيدة ذاتها. لقد أعلن النبي العربي ﷺ: «طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة [١]» وبذلك رسّخ لدى المسلمين مفهوم أن اكتساب العلم هو السبيل للإيمان الكامل ومعرفة الخالق معرفة حقة. ولما تدبروا ما ذكره الرسول ﷺ: «خلق اللّه الداء كما خلق الدواء [٢]» تحققوا أن بحثهم عن الدواء ليس إلا تحقيقاً لإرادة اللّه: وبذلك كانت الأبحاث الطبية تستمد دافعها من إحساس المسلم أنها واجب ديني وفريضة واجبة. وقرؤوا ما ذكره القرآن الكريم:

﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا ۖ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ۖ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [٣]

وفي سعيهم إلى النفاذ إلى المعنى الذي تضمنته هذه الآية، درسوا الكائنات الحية والقوانين التي تحكم نموها وتطورها: وهكذا أسسوا مبادئ علم الأحياء. وأشار القرآن الكريم إلى تناسق دورات النجوم ومواقعها وأفلاك السماء دليلاً على عظمة إبداع الخالق: فدرسوا علوم الفلك والحساب بحماس في الوقت الذي كانت فيه

١- رواه ابن ماجه في المقدمة ١٧ من حديث أنس بن مالك قال: قال ﷺ: طلب العلم فريضة على كل مسلم. انظر شرح سنن ابن ماجه للسندي ٩٨/١، وصحيح سنن ابن ماجه للألباني ٤٤/١ رقم الحديث ١٨٣. وهو حديث صحيح.

٢- رواه الإمام أحمد في المسند ١٥٦/٣ رقم الحديث ١٢٦١٨ من حديث أنس قال ﷺ: إن الله عز وجل حيث خلق الداء خلق الدواء فتداووا.

٣- سورة الأنبياء: الآية ٣٠.

علوم الفلك مقصورة في الديانات الأخرى على تحديد أوقات العبادة فقط، كما نجد أن نظريات «كوبرنيكوس» التي توصلت إلى أن الأرض تدور حول نفسها، وأنها هي والكواكب تدور حول الشمس، وأعلنها في أوروبا في القرن السادس عشر (وقوبلت بمعارضة شديدة من متعصبي الكنيسة وكبار رجالها الذين وجدوا أن تلك النظريات تتصادم مع التعاليم الحرفية للإنجيل)، إلا أن التأسيس الفعلي لتلك النظريات كان قد تم وضعه قبل ذلك بستمئة عام في البلاد الإسلامية، لما توصل الفلكيون الإسلاميون إلى النتيجة ذاتها، وهي أن الأرض كروية وتدور حول محورها، وتوصلوا إلى حسابات دقيقة لخطوط الطول والعرض؛ وأدرك كثير منهم من دون أن يتهموا بالكفر والهرطقة، أن الأرض تدور حول الشمس، وبالحماس نفسه درسوا الكيمياء والفيزياء ووظائف الأعضاء، كما اقتحموا علوماً أخرى كثيرة، وجد عباقرة المسلمين أنها مهمة لبناء صرح حضاري دائم ومتجدد. وفي بناء ذلك الصرح، كانوا أكثر من مقتدين بتعليمات الرسول - ﷺ - في قوله: «من فتح باباً من أبواب العلم، فتح اللّه له باباً من أبواب الجنة». وقوله: «من سلك طريقاً يلتمس به علماً سهّل اللّه له طريقاً إلى الجنة». [١]

في ذلك العهد الخلاق من تاريخ الإسلام؛ أي القرون الخمسة الأولى بعد وفاة الرسول ﷺ - لم ير العلم عصراً أزهى من عصر الحضارة الإسلامية، ولم تنعم بيوت بالأمان مثلما نعمت بيوت المدن الإسلامية في ذلك العصر.

وتأثرت الحياة الاجتماعية بدورها بتعاليم الإسلام كما جاء بها القرآن الكريم. ففي الوقت الذي كانت فيه أوروبا المسيحية ترى أن الأوبئة ليست إلا لعنة من اللّه ونقمة وعقاباً لابد أن يتقبلوه ولا يحاولوا منعه أو الحد من آثاره، كان المسلمون يتبعون تعليمات الرسول ﷺ الذي علّمهم مواجهة الأوبئة بعزل المناطق الموبوءة والمدن المصابة. وفي الوقت الذي كان فيه حتى ملوك أوروبا المسيحية وأمراؤها يعدون الاستحمام نوعاً من الترف غير المستحب دينياً، كان أفقر منزل إسلامي في العصر ذاته يحتوي على الأقل على حمام واحد، بينما كانت الحمامات العامة الرائعة منتشرة في كل المدن الإسلامية (في القرن التاسع الميلادي، كان بمدينة

---

١- رواه البخاري في كتاب العلم، باب العلم قبل القول ج١/٢٥. وأحمد في المسند ٢/٢٥٢، و٣٢٥، و٤٠٧.

قرطبة في الأندلس ثلاثمئة حمام عام): وكان ذلك أيضاً استجابة لتعليمات الرسول ﷺ من أن: «النظافة من الإيمان». (١)

لم يعرّض الإسلام المسلمين لذلك الصراع النفسي الداخلي من أن الحياة الروحية تتعارض مع متع الحياة الدنيوية، فقد قال الرسول ﷺ: «اعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً، واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً» (٢)

وفّر الإسلام باختصار حافزاً قوياً إلى التقدم المعرفي والثقافي والحضاري الذي أبدع واحدة من أروع صفحات التاريخ الإنساني؛ وقد وفر ذلك الحافز بمواقف إيجابية عندما حدد في وضوح: نعم للعقل ولا لظلام الجهل، نعم للعمل والسعي ولا للتقاعس والنكوص، نعم للحياة ولا للرهبنة، ولذلك لم يكن عجيباً أن يكتسب الإسلام أتباعاً في طفرات هائلة بمجرد أن تجاوز حدود بلاد العرب؛ فقد وجدت الشعوب التي نشأت في أحضان مسيحية القديس «بولس» والقديس «أوغستين» مثل شعوب سورية وشمال إفريقية وإسبانيا القوطية من بعدهم، ديناً لا يقر عقيدة ومفهوم الخطيئة الأولى لـ (آدم) عليه السلام، وتؤكد كرامة الحياة البشرية الأرضية، ولذلك دخلوا في دين اللّه أفواجاً، ذلك الدين الذي حدد لهم أن الإنسان خليفة اللّه في الأرض.

جميع ذلك يفسر كيفية انتصار الإسلام وانتشاره الواسع والسريع في بداياته التاريخية، ويفنّد مزاعم من روّجوا أنه انتشر «بحد السيف». لم يكن المسلمون إذاً هم من خلقوا عظمة الإسلام: بل كان الإسلام من خلق عظمة المسلمين. وبمجرد أن تحول إيمانهم إلى عادة، وابتعد أن يكون منهجاً وأسلوباً للحياة، واتباعاً لتعاليمه، بوعي ودراية، ووعي لما يُؤمرون به، خبا وهج النبض الخلّاق في تلك الحضارة، وحل محلها تدريجياً التقاعس والعقم وتحلل الثقافة.

* * *

١- إشارة إلى حديث الرسول ﷺ: «إن الله نظيف يحب النظافة» الذي رواه الترمذي في باب الأدب ٤١.

٢- هذا الحديث ضعيف. انظر تخريجه في سلسلة الأحاديث الضعيفة للشيخ ناصر الدين الألباني ج١ ص٢٠-٢١. ويروى أيضاً لعلي بن أبي طالب ﷺ، وقيل: للحسن بن علي ﷺ.

كانت الرؤية التي توصلت إليها، والتقدم الذي أحرزته في تعلم اللغة العربية (كان أحد طلاب الأزهر يعلمني اللغة العربية في دروس يومية)، يجعلاني أشعر أنني تمكنت أخيراً مما يمثل المفتاح لعقلية المسلمين، ولم أعد على يقيني السابق «باستحالة أن يتفهم الأوروبي بوعي العقلية الإسلامية» كما ذكرت قبل ذلك في كتابي الذي صدر في «برلين» منذ شهور سابقة. أيقنت أنه لو تحرر المرء تماماً من عاداته التي نشأ عليها ومناهجها الفكرية، وتقبل مفهوم أنها ليست بالضرورة الأساليب الصحيحة في الحياة، لأمكن له أن يفهم ما يبدو غريباً في نظره عن عالم الإسلام.

وعلى الرغم من أنني وجدت في الإسلام ما يرضي الفكر والروح، كما يرضي البدن ويشبع الغرائز، إلا أنني لا أزال أرى أنه من الذكاء لأي امرئ ذي بصيرة ألا يحصر فكره في إطار منهج عقائدي لم يصل إليه بذاته باقتناع مطلق.

سألت صديقي الواسع المعارف الشيخ مصطفى المراغي في ذلك: «قل لي يا شيخ مصطفى: لماذا يجب على المرء حصر فكره في إطار تعاليم معينة وأوامر وتوصيات محددة؟ أليس من الأفضل للمرء أن يترك ذلك لبصيرته الداخلية، ويستلهم منها الأخلاق والمناهج السامية؟!».

أجاب: «سؤالك بالتحديد، يا أخي الشاب، هو لماذا يتحتم وجود عقيدة تؤكد أهمية التنظيم. والإجابة بسيطة، فقلة قليلة من البشر ـ الأنبياء فقط ـ لديهم القدرة على فهم صوت الفطرة الداخلي. أغلبنا يقع في شراك المتطلبات والاهتمامات الشخصية والرغبات الذاتية، فلو اتبع كل فرد هواه، سيتحول أي مجتمع إلى حالة من الفوضى الأخلاقية من دون الاتفاق على نمط أخلاقي موحد، وقد تسألني ألا يوجد استثناء لذلك التعميم، مثل المستنيرين الذين يشعرون بعدم حاجتهم إلى «التوجيه»؛ ولكني أسألك، ألا يدعي أغلب الناس أنهم باستثناء الآخرين على صواب فيما يرونه؟! وما الذي يمكن أن ينتج من ذلك؟».

* * *

كان قد مضى على وجودي في القاهرة ستة أسابيع حين أصابتني حمى الملاريا الراجعة، كانت قد أصابتني أول مرة في فلسطين في العام السابق. بدأت الحمى بصداع في الرأس ودوار وآلام في كل أعضاء الجسم؛ وعند حلول الليل كنت طريح الفراش لا أقدر على تحريك إصبع. راحت السيدة «ڤيتيللي» صاحبة المنزل الذي كنت أقطن به تشرف على رعايتي بحماس وكأنها تستمتع بعدم قدرتي على الحركة؛ إلا أن اهتمامها كان اهتماماً حقيقياً، كانت تعطيني لبناً لأشربه، وتضع الكمادات الباردة على رأسي لخفض درجة حرارة بدني المحموم، وعندما اقترحت عليها أنه ربما كان من الأفضل استدعاء طبيب، ردت في غضب وسخط:

«طبيب؟ بووه، ما الذي يعرفه أولئك الجزارون عن الملاريا؟ أنا أعرف عنها أكثر مما يعرفه أي طبيب. لقد مات زوجي الثاني بها في ألبانيا، كنا وقتها نسكن في مدينة «دوراتسو» في ألبانيا، وعشنا فيها أعواماً، وكان المسكين يعاني نوبات ألم أشد مما تعاني أنت الآن، إلا أنه ظل على ثقته بي حتى النهاية...».

كنت في حالة من الضعف والإعياء لا أتمكن معها من مناقشتها، وتركتها تسكب في جوفي كميات من النبيذ اليوناني المعتق الساخن ودواء الكينين، ولم يكن يُنتج بعد على شكل حبوب مغلفة بمادة سكرية، بل المسحوق ذاته الذي كان يسبب لي صدمة بمذاقه المر مثل العلقم، وكان ألم تجرعه أشد من آلام الملاريا، ولكن الغريب أنني وثقت بالسيدة «ڤيتيللي» على الرغم من إشارتها المشؤومة إلى «المرحوم زوجها الثاني».

في تلك الليلة، بينما كان بدني يلتهب بالحمى، سمعت فجأة موسيقى عذبة قوية آتية من الشارع: كان صوت آلة «البيانوللا». لم يكن صوت واحدة من تلك الآلات التي تصدر ألحانها بالطرق على أنابيب مفلجة، بل ذكرتني بالكلاڤيكورد[1] القديم الذي اندثر في أوروبا لهشاشته وقلة تنوعه. لقد رأيت آلات «البيانوللا» قبل ذلك في شوارع القاهرة: رجل يحمل صندوق الموسيقى على ظهره، وصبي يعاونه ويسير خلفه، يدير يد الصندوق؛ فتصدر الألحان فرادى، قصيرة وقوية، مثل سهام

١- آلة موسيقية وترية مزودة بلوحة مفاتيح، وتعد الأصل الذي تطور عنه البيانو.

تصيب أهدافها، مثل صوت تحطم زجاج على فترات متقطعة، لا تشعر المستمع بأنه يستمع إلى لحن متكامل، ولكنها تحدث لديه اهتزازات عصبية، ولكنها رقيقة، تشبه اللغز الذي يفرض عليك حل غموضه، إلا أنك لا تستطيع أن تنفذ إلى ما لا وجود له؛ فتتحول تلك النغمات إلى نوع من العذاب المضني والمرهق للأعصاب، وتكرار ألحانها في صمت الليل، مثل دوامات عاصفة لا مهرب منها ولا فكاك، كالإيقاعات الحركية لحلقة الذكر التي أقامها الدراويش وشاهدتها في مدينة «سكوتاري» ـ هل كان ذلك من شهور، أم كان من أعوام طويلة مضت؟ ـ لقد رأيت ذلك بعد أن مررت بمنطقة ينبت فيها الصبار بكثافة...

كانت من أغرب الغابات، تلك المدافن التركية في منطقة «سكوتاري»، والتي تقع مباشرة عبر البوسفور أمام مدينة إستنبول: مسالك وممرات بين نبات صبار شديد الكثافة، وتحته، أعداد لا نهائية من القبور، بعضها سقط شاهده وبعضها مازال قائماً بموضعه، وتعلوها حروف عربية تأكّل بعضها بفعل الزمن. كانت مدافن قديمة مهجورة من أزمان، ومن أجساد موتاها التي تحللت نبتت في المقابر أشجار هائلة ذات جذوع ضخمة يصل ارتفاعها إلى نحو ستين أو ثمانين قدماً، تنمو على الرغم من تفاوت الفصول في هدوء لم يترك للكآبة مكاناً. لم أشعر قط بمثل المشاعر التي انتابتني في ذلك المكان، فقد خيل إليّ أنهم ليسوا بموتى، إنما هم نيام، أو أنهم موتى عالم سمح لأحيائه أن يحيوا في سلام؛ موتى من بشر ماتوا دون عجلة...

بعد جولة قصيرة في أرجاء تلك المدافن، سرت في الشوارع الضيقة لمدينة «سكوتاري» المبنية فوق التلال، شوارع تصعد وتنحدر في اتجاهات متباينة، ووصلت إلى مسجد صغير لا تميزه إلا بعض النقوش العربية فوق بابه، كان الباب موارباً فولجته ـ وقفت في قاعة معتمة قليلاً في منتصفها بدت لي هيئة أناس يجلسون في حلقة دائرية على بساط حول رجل عجوز طاعن في السن. كانوا جميعاً يرتدون قفاطين طويلة، ويضعون على رؤوسهم قبعات بنية بلا حواف. كان الإمام العجوز يتلو سورة من القرآن الكريم في صوت رتيب، وإلى جوار الجدار جلست مجموعة من الموسيقيين: رقوق ودفوف وناي وقيثار وكمان.

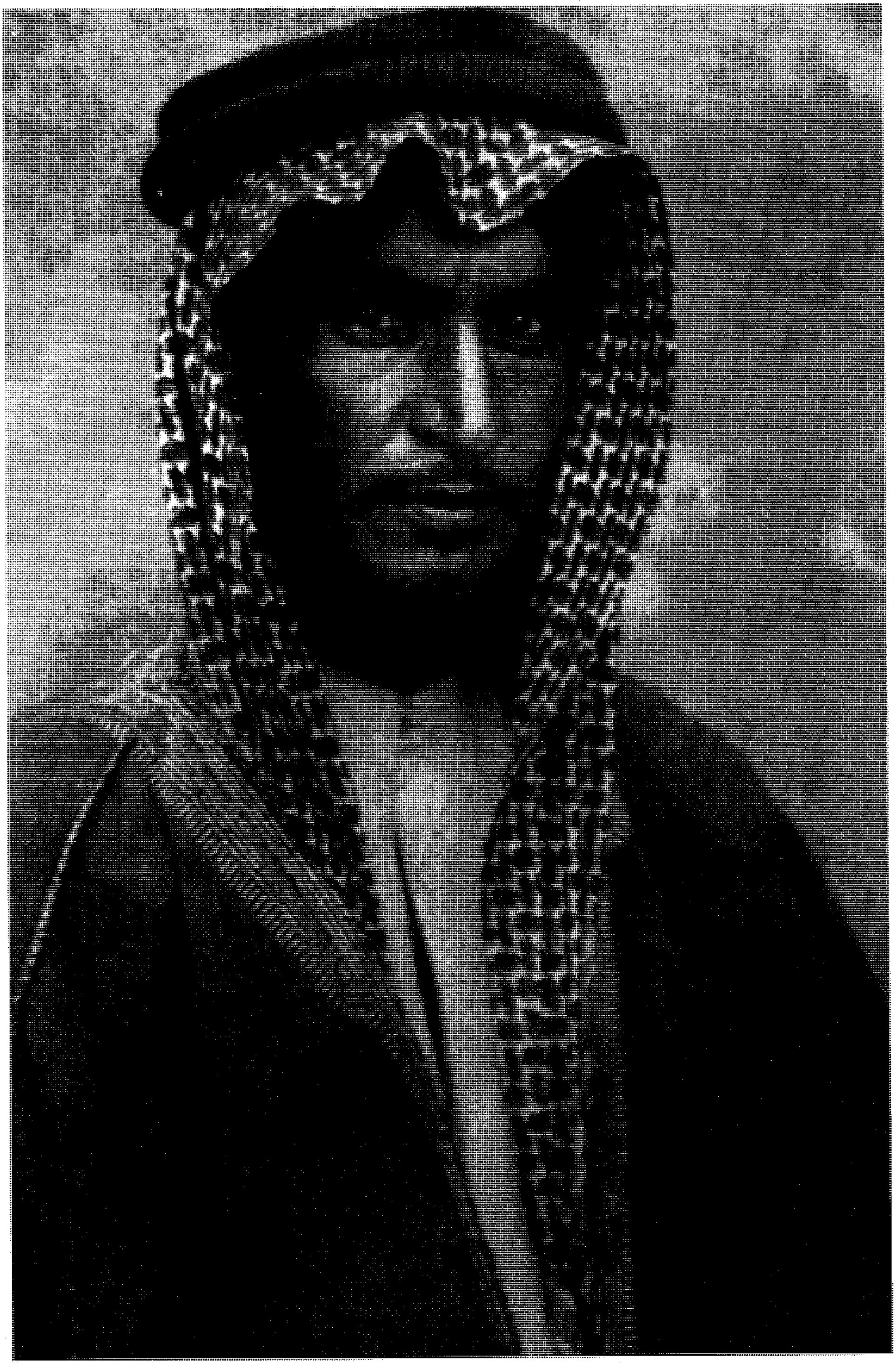

منصور العساف مرافق المؤلف في رحلته من حائل إلى المدينة المنورة ١٣٤٦ (١٩٢٨م)

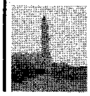

بدر إلى ذهني أنه تجمع الدراويش الذين سمعت عنهم قبل ذلك كثيراً؛ وهو نظام صوفي يسعى إلى الارتقاء عن الوجود المادي إلى حالة من النقاء الروحي الخالص، بأداء حركات إيقاعية رتيبة تزداد سرعة إيقاعها وتتصاعد حتى تصل بهم إلى حالة من الانفصال عن الواقع المادي للحياة، وتمكن صاحبها من تحقيق حالة من التواصل الروحي السامي، والذوبان في عصمة الخالق.

دام الصمت هنيهة بعد انتهاء الإمام من تلاوة القرآن الكريم، ثم قطع الصمت صوت مفاجئ للناي، وبعدها صاحبته باقي الأدوات في إيقاع رتيب متكرر، كالانتحاب، والعويل. ثم نهض الدراويش كما لو كانوا وحدة واحدة فنزعوا عنهم قفاطينهم ووقفوا بجلاليب بيضاء تصل إلى كواحلهم، وعليها أحزمة عند الخصور. كانوا يقفون في محيط واحد، فاستداروا نصف دورة ليقابل كل واحد منهم الآخر أزواجاً. كانوا يعقدون أذرعهم فوق صدورهم وينحنون انحناءة شديدة وهم يستديرون بجذوعهم في نصف دائرة (ذكرني ذلك بفرسان العصور الوسطى في أوروبا وهم ينحنون بالطريقة ذاتها أمام السيدات)، في اللحظة التالية، كان الدراويش يقذفون أذرعهم في الاتجاه المعاكس، الكف اليمنى ترتفع واليسرى تنزل إلى الجانب. وتخرج من حلوقهم مع كل نصف انحناءة واستدارة أصوات مثل غناء هامس: «هو» (يقصدون الله عز وجل) ومع الصوت الهامس الخارج من الشفاه يبدأ الدراويش في الاستدارة البطيئة حول جذوعهم، على نغمات من إيقاع الدفوف والناي التي كانت كأنها تأتي من مكان بعيد. ثم يطوحون رؤوسهم للخلف، مغمضين أعينهم، ويجتاح ملامحهم تقلص ناعم، ثم تتصاعد وتتسارع إيقاعات الحركة؛ وترتفع الجلابيب لتكون دائرة متسعة حول كل درويش مثل دوامات البحار؛ يبدو على وجوههم الانهماك والذوبان في عالم مختلف... تحولت الدائرة إلى دوامات، اجتاحهم الانهماك، وشفاههم تكرر بلا نهاية كلمة واحدة: هو... هو... هو؛ أبدانهم تدور وتدور، سحبتهم إيقاعات الموسيقى إلى عالم من الرتابة التكرارية الخالصة من صوت وحركة، رتابة متصاعدة، متسارعة، تشعر وأنت المراقب كأنها تسحبك معهم إلى داخل الدوامة المتصاعدة، على درج يعلو في التفاف حلزوني، أعلى فأعلى، لا يسبر علوه، ولا يمكن الوصول إلى نهايته...

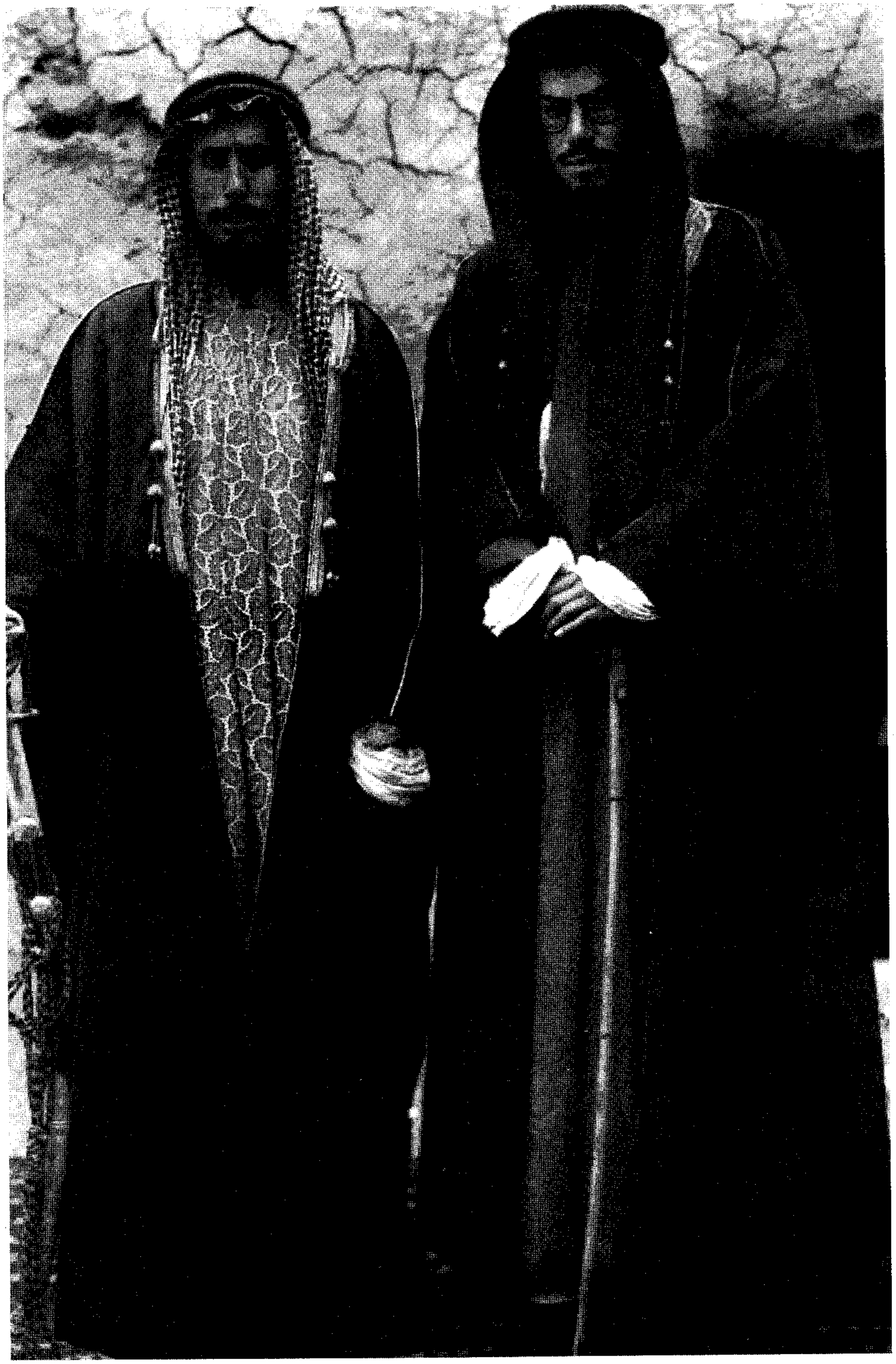

المؤلف مع ابن سبهان ١٣٤٦ (١٩٢٨م)

إلا أن أفكاري وصلت إلى نهاية عندما أحسست باليد الحانية للسيدة «ڤيتيللي» التي وضعت حداً لتلك الدوامات التي كانت تتصاعد في ذهني، وعادت بي من مدينة «سكوتاري» إلى برودة الغرفة الحجرية التي كنت أقطنها بالقاهرة.
كانت ا لسيدة «ڤيتيللي» على صواب على أي حال، وأعانتني على قهر نوبة حمى الملاريا الراجعة وتخطيها. إن لم يكن بسرعة، فعلى الأقل في المدى الزمني نفسه الذي كان سيتطلبه من أي طبيب محترف. خلال يومين شفيت من الحمى، وفي الثالث انتقلت من الفراش إلى مقعد مريح، كنت في حالة من الضعف والوهن لا تمكنني من الخروج من المنزل، وراح الوقت يمر ثقيلاً بطيئاً. زارني مرة أو مرتين طالب الأزهر الذي يدرسني اللغة العربية، وأحضر لي بعض الكتب لقراءتها.

شغلت فكري ذكرى حلقة الذكر التي قام بها الدراويش في مدينة «سكوتاري»، واتضحت في ذهني معاني لم تبد لي عندما شاهدت حلقة الذكر. كان ذلك الطقس الديني لتلك الجماعة ـ وهي واحدة من جماعات كثيرة شاهدتها في مختلف البلاد الإسلامية ـ لا يتفق مع صورة الإسلام التي كانت تتبلور في ذهني ببطء. طلبت من صديقي الأزهري أن يحضر لي بعض كتب المستشرقين التي تتناول موضوع الذكر؛ وتبين لي أن شكي كان في موضعه، وأن تلك الممارسات والطقوس دخيلة على الإسلام من جهات ومصادر غير إسلامية.

لقد شابت تأملات المتصوفة الإسلاميين وأفكارهم أفكار روحية هندية، وفي أحيان أخرى تأثيرات رهبنة مسيحية، مما أضفى على بعض ذلك التصوف مفاهيم وممارسات غريبة تماماً عن الرسالة التي جاء بها النبي ﷺ.

أكدت رسالة النبي ﷺ أن السببية العقلية هي السبيل الوحيد للإيمان الصحيح، بينما تُبعد التأملات الصوفية وما يترتب عليها عن ذلك المضمون. والإسلام قبل أي شيء مفهوم عقلاني لا عاطفي ولا انفعالي، والانفعالات مهما تكن جياشة، معرضة للاختلاف والتباين باختلاف رغبات الأفراد وتباين مخاوفهم بعكس السببية العقلية، كما أن الانفعالية غير معصومة بأي حال.

* * *

من تلك الجزئيات يا منصور راح جوهر الإسلام يتضح أمامي: لمحة من هنا، وومضة من هناك، ومن حوارات، ومن كتب، ومن ملاحظات مباشرة، راحت الصورة تتكامل ببطء في ذهني، ودون أن أعي أنها تتكون وتتكامل داخلي...».

(٢)

عندما حططنا رحالنا في الليل؛ انشغل زيد في إعداد الخبز، عجن طحين القمح الخشن بالماء وبعض الملح، وشكّله على هيئة أرغفة مستديرة بسمك بوصة، ثم حفر حفرة في الرمال، ملأها بأغصان جافة ثم أشعل فيها النار؛ وحين خمدت ألسنة اللهب، ولم يتبق إلا الجمرات الملتهبة، وضع الأرغفة عليها، وغطاها بأغصان جافة أشعل فيها النيران. بعد فترة أزاح الأغصان العلوية وقلب الأرغفة على الوجه الآخر، ثم أخرجها بعد ذلك، ودق عليها برقة لإزالة أي رمال عالقة بالخبز. أكلنا الخبز الطازج مع بعض الزبدة والتمر. لم أذق قط خبزاً أشهى من ذلك الخبز.

أشبعنا جوعنا، إلا أن فضول منصور لم يشبع. وعندما تمددنا بجوار النار، واصل إمطاري بأسئلته عن كيفية اعتناقي الإسلام، وبينما كنت أشرح له كيف حدث ذلك، أدهشني صعوبة سرد أحداث ذلك الطريق الطويل، وما صاحبه من أحداث وأفكار حتى وصلت إلى الإسلام، قلت:

«الإسلام يا منصور ، دخلني كما يدخل المتسلل إلى منزل ليلاً، دون صخب ولا جلبة؛ الفارق الوحيد بالاختلاف مع المتسلل، أنه دخل إلى عقلي ليبقى به إلى الأبد، غير أن الأمر استغرق أعواماً قبل أن أكتشف أنني قد آمنت من أعماقي بالإسلام...».

عاد فكري من جديد إلى أيام رحلتي الثانية إلى الشرق الأوسط ـ عندما كان التفكير في الإسلام يشغل ذهني، إلا أن الأمر بدا لي في ذلك الوقت أنه رحلة لاستكشاف ما أجهله من تلك المناطق. كل يوم كان يمر يضيف إليّ معارف جديدة؛ ويطرح أسئلة جديدة تنبع من داخلي لأجد إجاباتها تأتيني من الخارج.

جميعها أيقظت شيئاً ما كان نائماً في أعماقي؛ وكلما نمت معارفي عن الإسلام كنت أشعر مرة بعد أخرى، أن الحقائق الجوهرية التي كانت كامنة في أعماقي من دون أن أعي وجودها، بدأت تنكشف تدريجياً، ويتأكد تطابقها مع الإسلام.
في بدايات صيف سنة ١٣٤٢ (١٩٢٤م) انطلقت من القاهرة في جولة طويلة خططت لها أن تدوم عامين مررت بمناطق عريقة في تقاليدها تركت تأثيراً واضحاً في تفكيري. زرت بعدها شرق الأردن مرة أخرى، وقضيت بعض الأيام مع الأمير عبد اللّه، مستمتعاً بأصالة الطبيعة البدوية التي لم تكن قد تأثرت بعد بأنماط الحياة الغربية. وحصلت على تأشيرة فرنسية بجهود جريدة «فرانكفوتر ذيتونج»، ودخلت سورية مرة أخرى. جاءت دمشق ومضت، واحتضنتني الحياة الشرقية في بيروت بعض الوقت، ومنها توجهت إلى مدينة طرابلس التي كانت تتبع سورية في ذلك الوقت، كانت مدينة خارج نطاق الأحداث، وتحيا حياة سعيدة هادئة أقرب إلى النعاس. كانت القوارب الشراعية البسيطة ترسو في الميناء المفتوح، وأشرعتها اللاتينية تتماوج وتئن في وهن، وأبناء المدينة يقضون أوقاتهم بالجلوس على مقاعد منخفضة أمام المقاهي في مواجهة الميناء، يتناولون في استرخاء أقداح القهوة ذات الرائحة النفاذة، ويدخنون النراجيل في الأمسيات تحت أشعة الشمس في وقت الأصيل، لا تجد في أنحائها إلا الهدوء والسلام والرضا مع توفر الرزق؛ حتى المتسولون بدوا كأنهم يستمتعون في أوقات المغيب، كأنهم يقولون في سريرتهم: «ما أجمل أن تكون شحاذاً في طرابلس».

وصلت إلى مدينة حلب، ذكرتني شوارعها ومبانيها بمدينة القدس، مبانٍ حجرية قديمة كأنها نبتت من الأرض، ذات ممرات مظلمة مسقوفة، وميادين هادئة صامتة، ونوافذ منحوتة. أما قلب حلب فقد كان يختلف تماماً عن القدس. فالجو السائد في القدس يسوده صراع التيارات الدولية، وكانت تلك الصراعات مثل التقلص العضلي المؤلم الشديد التعقيد؛ يعكس هو الآخر تعقيدات المواقف الدولية، وولدت المعتقدات الدينية المتباينة سحابة من سموم الكراهية على ساكنيها. أما حلب.. على الرغم من أنها كانت خليطاً من البدو العرب والشرقيين مع مسحة تركية لقربها منها، فقد كانت متآلفة وهادئة وصافية، والمنازل الحجرية

بشرفاتها الخشبية تبدو حية حتى في صمتها. كان سوقها القديم يتميز بالصناعات اليدوية الشرقية الدقيقة، وأحواشها ذات العقود الحجرية المملوءة بصنوف البضائع، وتنافس مرح بين تجارها الخالين من أي أنواع الحسد والضغينة؛ الكل متمهل، ارتخاء وراحة تحتضن حتى الغريب، وتجعله يتمنى أن تكون حياته كلها بتلك الراحة والاسترخاء؛ عناصر كثيرة تجتمع في حلب تتدفق معاً لتؤلف لحناً قوياً رائعاً.

توجهت بالسيارة من حلب إلى مدينة دير الزور، وهي مدينة صغيرة بأقصى شمال سورية، ونويت أن أتوجه منها إلى بغداد عبر طريق التجارة القديم المجاور لنهر الفرات؛ وفي تلك الرحلة قابلت «زيداً» أول مرة.

على عكس طريق دمشق ـ بغداد الذي كانت السيارات قد اعتادت سلوكه، كان الطريق المجاور لنهر الفرات من دير الزور حتى بغداد غير مطروق من السيارات؛ وفي الحقيقة كانت سيارة واحدة قد سلكت ذلك الطريق من قبل وصولي بعدة أشهر، وكان قائد السيارة الأرمني الذي اتفقت معه لم يخرج خارج دير الزور بالسيارة قبل ذلك، إلا أن الثقة كانت تملؤه بأنه يستطيع القيادة عبر الطريق القديم حتى بغداد، خصوصاً إذا استفسر ممن يعرفون الطريق عن بعض المعلومات التي تنقصه، فذهبنا إلى الشارع التجاري لتقصي تلك المعلومات.

كان الشارع التجاري يمتد من بداية مدينة دير الزور حتى نهايتها، وكان يعد شكلاً غير رسمي من أشكال التقسيم يفصل ما بين الجزء الحضري السوري وبين القسم البدوي، ومع أن المدينة بأجمعها كانت أقرب إلى الطابع البدوي. في أحد المحلات الحديثة، كانت توجد البطاقات التذكارية بطباعة بدائية، وفيما يليه تجد بعض البدو واقفين يتناقشون في أحوال سقوط الأمطار على الصحراء، وعن النزاع الذي نشب بين قبيلة بشر «عنزة» السورية، وقبائل «شمّر» العراقية؛ وراح أحدهم يحكي عن الغارة التي شنّها زعيم بدو نجد، «فيصل الدويش»، على جنوب العراق، كما ورد على لسانهم اسم رجل الجزيرة العربية العظيم، عبد العزيز آل سعود.

كانت المتاجر تعرض بنادق قديمة ذات مواسير طويلة ومقابض مزينة بالفضة - ذات طراز قديم لم يعد أحد يشتريها الآن؛ لأن البنادق الحديثة الآلية أصبحت أكثر فعالية - ومحلات أخرى تعرض أزياء رسمية مستعملة من أرجاء القارات الثلاث، ورحال جمال من نجد، وإطارات سيارات ماركة «جوديير»، ومصابيح عواصف من «لايبزج»، وعباءات بدوية منسوجة من «الصوف». لم تبد البضائع الغربية دخيلة بين الأنواع والأصناف الأخرى؛ كانت فوائدها العملية تعطيها شرعية وجودها. كان البدو بوعيهم العملي يعتادون بسرعة تلك السلع الجديدة وكأنها من إبداعهم، لم أكن أدرك تماماً حتى ذلك الوقت ما يمكن أن تسببه «الحداثة» الغربية لأولئك الناس البسطاء الأميين...

في الوقت الذي انشغل فيه قائد السيارة الأرمني بالتقصي عن حال الطريق إلى بغداد من بعض البدو، أحسست بمن يجذب كم قميصي: استدرت. وجدت أمامي رجلاً عربياً حسن الوجه تبدو عليه أمارات الجد والحزم، في بداية الثلاثينيات من عمره، قال بصوت خشن بطيء:

«بإذنك يا أفندي، سمعت أنك مسافر إلى بغداد بالسيارة وأنك تجهل الطريق، ومسالكه، دعني أذهب معك؛ قد أكون ذا فائدة لك».
«أنا زيد بن غانم، من قوات «عقيل» العاملة في العراق».

لم ألحظ إلا في تلك اللحظة لون القفطان الكاكي الذي يرتديه والنجمة سباعية الأضلاع التي يثبتها على عقاله الأسود، وهي رمز قوات الصحراء العراقية، كانت تلك القوات التي يطلق عليها العرب اسم «عقيل»، قد أسسها الاستعمار التركي: وهي قوات من المتطوعين ينتقون من بين أهل وسط الجزيرة العربية المتمرسين بالصحاري وركوب الجمال.

أخبرني «زيد» أنه قدم إلى دير الزور بصحبة أحد ضباط تلك القوات في مهمة إدارية تتعلق بالحدود السورية العراقية، وبينما عاد الضابط إلى العراق، بقي «زيد» لبعض الأمور الشخصية، وهو الآن يفضل السفر معي إلى العراق بدلاً من

سلوك الطريق التقليدي الذي يستلزم العودة إلى دمشق أولاً، ومنها إلى العراق، واعترف لي أنه لم يسلك الطريق الذي ننوي السير فيه قبل ذلك بمحاذاة نهر الفرات، وقال: إنه يعرف، كما أعرف أنا، سبب انحناءات الطريق، فإن النهر لن يكون ملاصقاً للطريق عبر المسافة كلها - و«لكن»، أضاف «زيد»، «الصحراء هي الصحراء، والشمس والنجوم هي الشمس والنجوم في أي مكان، وإن شاء الله نستطيع أن نجد طريقنا إلى بغداد». أسعدتني ثقته الجادة بنفسه، ووافقت بكل سرور أن يصحبنا في ذلك السفر.

غادرنا دير الزور في الصباح التالي، وفتحت صحراء «الحماد» الكبرى أحضانها لعجلات سيارتنا التي كانت من طراز «تي - فورد»: سهول لا تنتهي من الحصى الصغيرة، تستوي أحياناً كالأسفلت، وتمتد أحياناً في تموجات تمتد من الأفق إلى الأفق المقابل. أحياناً يبدو نهر الفرات قريباً إلى اليسار، وتبدو مياهه بلون الطمي، بضفاف منخفضة، كبحيرة هادئة، حتى تلمح قطعة طافية من الأخشاب أو قارب فوق سطح مياهه يكشف سرعة تدفقه وجريانه. نهر عريض له عظمة الملوك، تجري مياهه في صمت؛ لم يكن صاخباً؛ ولا أهوج، وبلا أمواج تهدر، يمضي منساباً في شريط عريض، متحرر من أي قيد، يختار مساره ومجراه عبر منحنيات واسعة في صحراء مترامية، يشق طريقه تيهاً وفخاراً، فالصحراء التي يمضي فيها لم تكن تقل عنه قوة.

جلس زيد، مرافقنا الجديد بجوار السائق ضاماً ركبتيه إلى صدره، التمع في قدميه حذاء جديد من الجلد الطبيعي المغربي كان قد اشتراه في اليوم السابق من سوق دير الزور.

كنا نلتقي أحياناً براكبي جمال يظهرون فجأة من حيث لا تدري في قلب الصحراء، يتوقفون بجمالهم لحظات، ويتأملون السيارة في دهشة، ثم يحثون إبلهم على مواصلة السير، كانوا من رعاة الإبل، أحالت الشمس بشرتهم إلى لون برونزي. كنا نتوقف فترات قصيرة بمفردنا في استراحات الطريق المهدمة ولا يوجد غيرها في صحراء لا نعرف مداها، اختفى نهر الفرات خلف الأفق. الرياح

تهب بقوة على رمال الصحراء، مساحات شاسعة من الحصى تتناثر بينها تجمعات عشبية ونباتات شوكية، إلى اليمين سلاسل من التلال المنخفضة، عارية من أي نباتات ذات صدوع، تظهر فجأة لتخفي وراءها الصحراء الواسعة، يسأل المرء عما يوجد وراء تلك التلال؟ وعلى الرغم من إدراكك أن ما خلفها ليس إلا تلالاً أخرى ومساحات من الحصى الممتدة تحت حرارة الشمس، إلا أن السؤال يظل معلقاً بلا إجابة؟ وهدوء ما بعد الظهر لا يقطعه إلا صوت المحرك وصوت احتكاك إطارات السيارة بحصى الأرض. هل سقطت حافة العالم في هذا المكان، وشكلت تلك الهاوية البدائية؟

أدرك السائق بعد الظهر أنه نسي تزويد مبرد المحرك بالماء عند آخر استراحة توقفنا بها. كان النهر غير ظاهر وبعيد ولا نعلم موضعه من مكاننا؛ كل ما كان حولنا حتى الأفق المتموج البعيد لا يظهر إلا فراغاً، سهل جيري أبيض شديد الحرارة؛ تجري فوقه رياح شديدة السخونة، تأتي من المجهول، وتمضي إلى المجهول، بلا بداية ولا نهاية، بصوت مكتوم يأتي من الأبدية ذاتها.

قال السائق في لامبالاة شرقية (وهي صفة سائدة كنت أعجب لها أحياناً - إلا في ذلك الوقت): «على أي حال سنصل إلى استراحة آتية»، ولكن بدا لي «مع ذلك» أننا لن نستطيع الوصول إليها. كانت الشمس لافحة، وصوت غليان الماء في المبرد كأنما هو في غلاية شاي. التقينا ببعض البدو من الرعاة. ماء؟ لا، لا يوجد إلا على مسيرة خمس عشرة ساعة بالجمال. سألهم السائق الأرمني في تعجب: «وماذا تشربون؟»، ضحكوا قائلين: «نشرب حليب النوق». لابد أنهم ضحكوا في أعماقهم من أولئك المجانين الذين يركبون تلك الآلة الشيطانية السريعة، يسألون عن ماء - بينما يعرف أي طفل بدوي أنه لا يوجد أي ماء في تلك الأنحاء. تطور غير سار: أن نبقى محاصرين في تلك الصحراء بمحرك معطل، من دون ماء، ولا طعام، وننتظر حتى تمر سيارة أخرى - ربما غداً أو بعد غد - أو ربما بعد شهر...

بدأ السائق يفقد ابتسامة اللامبالاة بمرور الوقت. أوقف السيارة وحل غطاء المبرد؛ اندفع بخار ماء كثيف صدر عنه أزيز وصفير من شدة اندفاعه، كان معي

بعض ماء الشرب في قنينتي ضحيت بها من أجل محرك السيارة. أضاف الأرمني قليلاً من الزيت على الماء، وحملتنا السيارة الشجاعة مسافة أخرى.

قال الأرمني المتفائل: «أعتقد أننا يمكن أن نجد ماءً في تلك الجهة إلى اليمين، تلك التلال تبدو خضراء - وحيث ينمو العشب في هذا الوقت من العام، لابد أن هناك ماء، ومادام هناك ماء، لماذا لا نسير باتجاهه؟

للمنطق دائماً سحر لا يمكن مقاومته؛ وعلى الرغم من أن منطق الأرمني كان أعرج، إلا أنه انحرف بالسيارة عن مسارنا وقاد عدة أميال باتجاه التلال البعيدة التي أشار إليها: لم نجد ماءً... كانت التلال مغطاة بحجارة متناثرة خضراء اللون.

بدأ صوت الفحيح والهسيس الصادر من المحرك يزداد من جديد، وبدأت مكابس المحرك تصدر أصواتاً خشنة منذرة بتحطمه من الداخل، كان الدخان الرمادي قد بدأ يتصاعد من فتحة في غطاء السيارة الأمامي، بعد دقائق أخرى لابد أن يتحطم شيء ما: تحطم عامود الحركة أو شيء غيره، كنا في ذلك الوقت قد انحرفنا بعيداً تماماً عن طريق القوافل الذي كنا عليه؛ وإن حدث أي انهيار للمحرك الآن، سنبقى هنا بلا أمل. أفرغنا كل ما معنا من زيت في مبرد الموتور، أصبح السائق في حالة هستيرية وهو يبحث عن الماء، يقود تارة إلى اليمين، وتارة إلى اليسار، وأحياناً في دوائر ومنحنيات؛ إلا أن الماء رفض أن يظهر، حتى قنينة الخمر «الكونياك» التي أفرغتها في حسرة في المبرد لم تؤثر بأي حال باستثناء أنه غلفنا في سحابة من بخار الكحول جعلت «زيد» (الذي لم يعرف الكحول في حياته) على وشك القيء من شدة الغثيان الذي أحس به. كانت المحاولة الأخيرة هي ما جعل «زيد» يتخلى عن جموده وتعطل فكره. بحركة غاضبة جذب الكوفية إلى أسفل فوق عينيه، ومال بجذعه فوق حافة السيارة الساخنة وبدأ يحدق في أرجاء السهل الصحراوي الذي كنا به، يحدق بتركيز أولئك الذين نشؤوا وتربوا في الخلاء واعتادوا الاعتماد على حواسهم الحادة. انتظرنا في ترقب وتحفز، من دون أمل كبير فقد أخبرنا من قبل، أنه لم يمر في تلك المنطقة في حياته. إلا أنه أشار بيده تجاه الشمال وقال: «هناك». كانت الكلمة التي نطقها بمنزلة أمر لا راد له؛ أطاع

السائق الأمر في الحال، كما لو كان قد أراحه أن يتولى إحدى مسؤولية البحث. بأنين شديد صادر من المحرك اتجهنا إلى الشمال. فجأة رفع «زيد» بدنه كمن يهم بالنهوض، ووضع كفه على ذراع السائق، وأمره بالتوقف. جلس لحظات ورأسه منحنٍ إلى الأمام مثلما يتشمم كلب الصيد؛ وبدت حول شفتيه المزمومتين ارتعاشةً طفيفة لا تدركها إلا العين الفاحصة.

ثم قال فجأة: «كلا، سِرْ في هذا الاتجاه» وأشار إلى الشمال الشرقي، ثم أردف بحزم: «بسرعة»، ومرة أخرى أطاع السائق الأمر من دون كلمة، وبعد دقيقتين صاح من جديد: «قف»، وقفز بخفة من السيارة، جامعاً عباءته الطويلة بين يديه وجرى إلى الأمام في خط مستقيم، ثم توقف، واستدار وكرر ذلك عدة مرات كأنه يبحث عن شيء أو يستمع إلى صوت داخلي - نسيت المحرك والورطة التي نعانيها وأصبحت أسير مشهد رجل يستجمع كل حواسه، ما ظهر منها وما بطن، ويندمج مع عناصر الطبيعة، وفجأة تحرك في خطوات واسعة في البداية، ثم اختفى بين تلين، وبعد فترة ظهر رأسه ولوح بيديه قائلاً: «ماء».

جرينا باتجاهه - وكان الماء هناك: في حفرة محمية من الشمس بصخور معلقة فوقها التمع سطح بركة صغيرة من الماء، بقايا أمطار الشتاء الماضي، كانت صفراء بنية فيها عوالق طينية، إلا أنه ماء، ماء حقيقي. بعض غرائز أهل الصحراء غير المفهومة لدى رجل صحراء نجد كشفت عن موضعه... وبينما انهمكت أنا والسائق الأرمني في الاغتراف من سطح المياه وإفراغها في صفائح الوقود الفارغة، ونقله إلى المحرك الذي أضناه نقص الماء، تمشى «زيد» مبتسماً ابتسامة البطل الصامت بجوار السيارة جيئة وذهاباً.

* * *

وصلنا في ظهر اليوم الثالث إلى أول قرية عراقية - قرية «عانة» على نهر الفرات، وقدنا السيارة ساعات بين بساتين النخيل التي تحيط بها أسوار طينية. على طول المسافة التي قطعناها كانت تنتشر قوات «عقيل»، وكان أغلبهم كما أخبرنا «زيد» من أبناء قبيلته، ينتشرون بخيولهم بين ظلال أشجار النخيل تنعكس عليهم بقع الشمس

والضوء الأخضر المنعكس من قمم الأشجار، فبدوا في عظمة الملوك وكبريائهم. حيّا «زيد» بعضهم ونحن نمر بهم، وكانت جوانب كوفيته السوداء تخفق في الهواء، وتضرب على جانبي وجهه. وعلى الرغم من اعتياده قسوة الصحراء وحرارتها، إلا أنه كان فائق الحساسية، فعندما كنا نمر على طريق القرى الترابية كان يلف كوفيته، ويغطي بها فمه لتجنب تنفس الغبار المثار، وهو الغبار الذي لم نأبه له نحن - أبناء المدن - المنعمون ، وعندما أصبحت السيارة في منطقة حصى لا يثير غباراً، أزاح كوفيته، إلى الخلف في حركة ناعمة تشبه حركات الفتيات المدللات، وبدأ في الغناء فجأة وبلا أي تمهيد، كما لو كان جبلاً ينزل فجأة على وادٍ. كان ينشد قصيدة نجدية من قصائد الشعر الغنائي - نغمات طويلة صعوداً وهبوطاً والإيقاع لا يتغير، يتدفق مثلما تتدفق رياح الصحراء، قادمة من مجهول وماضية إلى مجهول.

طلب من السائق أن يتوقف في القرية التالية، قفز من السيارة وشكرني على السماح له بمرافقتنا، علق بندقيته على ظهره، واختفى بين النخيل، وظلت بالسيارة رائحة لا اسم لها - رائحة إنسانية مكتملة بذاتها، ذكرى نابضة ببراءة الروح التي طال نسيانها والمستعصية على النسيان في الآن نفسه. في ذلك اليوم في قرية «عانة» ظننت أنني لن أرى «زيداً» بعد ذلك أبداً؛ إلا أن ظني لم يكن صحيحاً...

* * *

وصلت إلى «هيت» في اليوم التالي، وهي مدينة صغيرة تقع على نهر الفرات، في نقطة التقاء الطريق الصحراوي القادم من دمشق إلى بغداد بالطريق الذي سلكناه. و«هيت» تلك المدينة التي تشبه الحصن القديم، كانت تتوج بأسوارها وأبراجها قمة تل. لم تبد بها أي حياة فقد كانت منازلها الخارجية كأنها حوائط نبتت من الأرض؛ بلا نوافذ، باستثناء فتحات ضيقة مثل فتحات الرماية في الحصون. ومن منتصف المدينة ارتفعت مئذنة مسجد تعلو بيوتها.

توقفت لقضاء الليل في استراحة قريبة من النهر، وبينما كان العشاء يعد لي أنا وسائق السيارة، ذهبت للاغتسال في البئر الموجودة بالفناء، حيث جلست القرفصاء لأغتسل، مد شخص يده وتناول الإبريق ذا الفوهة الطويلة، وراح

يسكب لي الماء لأغتسل. تطلعت إليه فرأيت رجلاً متين البنيان ذا بشرة دكناء، ويضع على رأسه غطاء رأس من الفراء؛ ساعدني على الاغتسال من دون أن أطلب منه. كان من الواضح أنه ليس عربياً، وعندما سألته من هو، أجاب بلغة عربية تشوبها لكنة: «أنا من التتار، من أذربيجان».

كانت له عينان رقيقتان، ويرتدي زياً عسكرياً رثاً، تبادلنا الحديث، بالعربية أحياناً، وببعض الكلمات الفارسية حيناً آخر، وكنت قد تعلمتها من طالب إيراني كان يدرس بالأزهر في القاهرة. علمت أن اسمه إبراهيم، وأنه قضى أغلب عمره - وكان يناهز الأربعين - على الطرق الإيرانية؛ عمل أعواماً في قيادة عربات نقل البضائع من «تبرين» إلى «طهران»، ومن «مشهد» إلى «بيرچند»، ومن «طهران» إلى «أصفهان» و«شيراز». وذات يوم امتلك مجموعة من الخيول، وخدم جندياً في قوات الخيالة، وحارساً شخصياً لزعيم محلي تركماني، وسائس خيول في استراحة بأصفهان، وفي الوقت الذي التقيته قد جاء إلى العراق يسوق البغال في قافلة حجاج إيرانيين إلى مدينة «كربلاء»، وتشاجر مع قائد القافلة، ففقد عمله في بلد أجنبي، وأصبح عاطلاً عن العمل.

تمددت في تلك الليلة لأنام على أريكة خشبية في الفناء المملوء بالنخيل. كان الجو حاراً مشبعاً برطوبة خانقة، وأسراب البعوض تتطاير من حولي، وقد انتفخت بالدماء التي امتصتها. ألقت بعض المصابيح ضوءاً هزيلاً لم يبدد ظلمة الليل. كانت بعض الخيول مربوطة إلى أحد الجدران وربما كانت لصاحب الخان، وكان إبراهيم التتاري يمسد واحداً من تلك الخيول، بطريقة تظهر ولعه وحبه للخيل؛ كانت أصابعه تمسد معرفة الحصان كما يمسد المحب شعر محبوبته.

طرأت على ذهني فكرة جديدة. لقد كنت في طريقي إلى إيران، وربما أقضي بها شهوراً طويلة متنقلاً على ظهور الخيل، فلماذا لا أستعين بهذا الرجل؟ بالتأكيد سأكون في حاجة إلى رجل يعرف مسالك إيران وطرقها، ويعرف خاناتها، كما يعرف المرء منزله.

وعندما أخبرته في الصباح أنني أفكر في ضمه إليّ خادماً، أوشك على البكاء من شدة امتنانه، وقال لي بالفارسية: «ياحضرة، لن تندم على ذلك أبداً...».

* * *

كان الوقت ظهراً في خامس يوم بعد مغادرتي دير الزور عندما ظهر لنا أول مشهد لمزارع النخيل الشاسعة التي تحيط ببغداد، وبين تجمعات قمم النخيل لمعت قبة مسجد ومئذنته العالية. كانت هناك على جانبي الطريق مدافن قديمة بشواهد قبور محطمة ومتداعية، ويعلوها التراب الذي ظهر كحجاب بين قماش فضي في ضوء شمس الظهيرة - كحاجز فضي غامض بين عالم الأموات المنقضي والحاضر الحالي الحي. مضينا إلى قلب أشجار النخيل ميلاً بعد ميل لا نجد إلا أعداداً هائلة من جذوع النخيل الصاعدة إلى السماء ومحملة في نهايتها بعذوق البلح حتى انتهت فجأة على حافة نهر دجلة. لم يكن نهر دجلة يشبه الفرات بأي حال؛ كانت مياهه طينية خضراء ثقيلة متماوجة موازنة بالتدفق المهيب الجليل لنهر الفرات. عبرنا نهر دجلة على معبر متأرجح متهالك، وهبطت علينا حرارة الخليج الخانقة.

لم يتبق من بغداد شيء من عظمتها وروعتها التاريخية القديمة، فقد دمر هجوم المغول في القرون الوسطى المدينة بأجمعها فلم يبق منها شيء يذكر بعظمة هارون الرشيد. لم يبق إلا مدينة موحشة كئيبة عشوائية - ربما كانت مباني مؤقتة. كانت المدينة قد بدأت في التغير والحراك، فهناك مبانٍ حديثة عالية؛ برزت ببطء من سبات الإدارة التركية الخاملة، وأخذت العاصمة العربية تظهر إلى الوجود ببطء.

كانت الحرارة الشديدة تضع بصماتها حتى على حركة البشر المتثاقلة. فالناس يسيرون ببطء متناهٍ في الشوارع وكأن دماءهم ثقيلة، بلا مرح، ومن دون مهابة وجلال. وجوههم عابسة لا تحمل وداً، وتعلوها كوفيات مخططة بالأبيض والأسود؛ وإن رأيت مصادفة وجهاً حسن المحيا وتحمل ملامحه اعتداداً واعتزازاً بالذات فلابد أن تجد أن كوفيته مخططة بالأحمر والأبيض مما يعني أنه لا ينتمي إلى بغداد، ربما كان من الشمال أو من سورية أو من الجزيرة العربية.

تبدو على وجوه أهل بغداد كراهية عميقة للقوى الأجنبية التي حرمتهم من حريتهم، كان تطلعهم إلى الحرية يسيطر على تفكيرهم. قد يتغير ذلك العبوس الذي يعلو وجوههم عندما يلتقون بأهلهم في الحارات الضيقة وفي المنازل المحاطة بالأسوار، ولو تفحصت تلك الوجوه، لوجدت أنها لا تخلو من سحر وجاذبية. وربما يضحكون أحياناً مثلما يفعل العرب الآخرون. نساؤهم تسير بالطرقات في ملاءات زاهية الألوان؛ أثواب غالية ترتديها نساء منقبات بألوان من الأسود والأحمر، أو الأزرق الفضي وأحمر «بوردو» القاني، مجموعات من الملاءات الزاهية تتهادى في الطرقات من دون أن يصدر عنهن صوت لوقع أقدامهن.

* * *

بعد عدة أسابيع من وصولي إلى بغداد، كنت أتجول في السوق الكبير للمدينة، فسمعت صيحة من أحد طرقات السوق المسقوفة، وتردد صداها في شوارع السوق. من إحدى زوايا الشارع اندفع رجل هاربٌ، ثم تلاه آخر، ثم ثالث؛ وبدأ الناس يتراكضون كأنما يطاردهم خوف يعلمون سببه ولا أعلمه. ثم سمعت وقع حوافر خيول؛ وظهر راكب حصان يركض به في خوف والناس يفسحون له الطريق وهم هاربون ثم مزيد من الراكضين آتين كلهم من جهة واحدة يحملون ما اشتروه في فوضى عارمة، وراحوا جميعاً يندفعون في اتجاه واحد. راح أصحاب المحلات يغلقون أبوابها في عجلة، ويضعون العوارض الخشبية على الأبواب، لا أحد يتحدث إلى أحد، جميعهم يهربون في صمت، لا تسمع من آن إلى آخر إلا صرخات من يسقطون أرضاً في أثناء فرارهم؛ أو صراخ طفل مفزوع..

ماذا حدث؟ لا إجابة، الوجوه شاحبة في كل مكان، اندفعت عربة بنصف ما كانت تحمله من بضائع بخيولها من دون سائق في حارات السوق الضيقة. من مكان لا أراه سمعت صوت تساقط أكوام من الأواني الفخارية، وميزت صوت تدحرج بعضها على الأرض.

ساد صمت ثقيل باستثناء تلك الأصوات المتناثرة وعدو الناس ولهاثهم، مثل ذلك

الذي يحدث أحياناً في بدايات الزلازل، لم يكن يقطع الصمت إلا صوت احتكاك الأقدام العارية بالأرض؛ أو صرخة امرأة أو بكاء طفل، ثم بعض راكبي الخيل الفارين، فزع، فرار، وصمت، فوضى مجنونة في تقاطعات شوارع السوق المسقوفة.

انحشرت في أحد تلك الحشود عند أحد التقاطعات، لا أستطيع أن أتقدم أو أتراجع، وفي الحقيقة، لا أعرف إلى أين يجب أن أمضي في تلك اللحظة أحسست بيد تقبض على ذراعي؛ التفت فوجدت «زيداً»، جذبني باتجاهه خلف حاجز من البراميل بين بابي محلين وهمس قائلاً: «لا تتحرك».

أزّ صوت حاد - طلقة بندقية؟ مستحيل...

جاء خليط من أصوات بشرية من بعيد، من أعماق السوق الداخلية، مرة أخرى أزّ صوت طلقة نارية لا يمكن أن تخطئه أذن، هذه المرة كانت طلقة بندقية...

أتى صوت واهن لطرقعات على الأرض من بعيد، كصوت حبات البازلاء الجافة حين تتساقط على الأرض. اقترب الصوت ببطء وازداد علواً، ذلك الصوت المريب، المنطلق في دفقات؛ تعرفت عليه أخيراً: كان صوت مدفع رشاش.

كانت بغداد تعلن التمرد مرة أخرى. في اليوم السابع والعشرين من شهر شوال سنة ١٣٤٢ التاسع والعشرين من مايو سنة ١٩٢٤م، كان البرلمان العراقي قد أقر معاهدة تتعارض مع رغبة الشعب العراقي، معاهدة صداقة وتحالف مع بريطانيا العظمى؛ والآن يحاول الشعب اليائس أن يدافع عن نفسه ضد صداقة القوة الأوروبية العظمى...

علمت بعد ذلك أن القوات البريطانية أغلقت كل منافذ السوق من الخارج لإجهاض خروج مظاهرات معادية، وأن كثيرين لقوا مصرعهم في ذلك اليوم نتيجة لإطلاق القوات البريطانية النار بطريقة عشوائية بالسوق، ولو لم يظهر «زيد» في اللحظة المناسبة، ربما كنت قد عدوت عن جهل في اتجاه المدافع الرشاشة.

كان ذلك اليوم هو بداية صداقتنا الحق، كانت حكمة «زيد» ورجولته تجذباني بقوة إليه، وكان من الواضح أنه أيضاً قد مال إلى شاب أوروبي لم يجد لديه ما يسيء للعرب.

أخبرني «زيد» قصة حياته البسيطة، فقد نشأ في خدمة الأسرة الحاكمة في مدينة حائل مثل أبيه من قبله، وكانت تلك الأسرة الحاكمة من قبائل «شمّر» وهي أسرة ابن رشيد؛ وحكى لي كيف غادر موطنه مع كثيرين من أبناء قبائل «شمّر» في أثناء دخول الملك عبد العزيز مدينة حائل سنة ١٣٤٠ (١٩٢١م) واعتقال آخر حاكم من أسرة ابن رشيد، غادر «زيد» بلاده يبحث عن مستقبل له. وها هوذا، يضع على عقاله النجمة السباعية العراقية، ويتوق شوقاً إلى موطنه.

التقينا كثيراً خلال الأسابيع التي قضيتها في العراق، وظللنا على اتصال في الأعوام التي تلت ذلك. كنت أكتب إليه أحياناً، ومرة أو مرتين أرسلت إليه هدية بسيطة كنت قد أشتريها من أحد المتاجر الإيرانية أو الأفغانية؛ وفي كل مرة يرد برسالة ركيكة الخط يذكرني فيها بأيام العراق وأيام السفر بالسيارة بموازة نهر الفرات، أو زيارة الأسود المجنحة بين أنقاض مدينة بابل.

وأخيراً، حين جئت إلى الجزيرة العربية سنة ١٣٤٥ (١٩٢٧م)، أرسلت إليه في العراق طالباً منه أن يلحق بي، وقد فعل ذلك في العام التالي، ومنذ ذلك الوقت أصبح مرافقاً لي، كان مرافقاً أكثر منه خادماً.

* * *

كانت السيارات نادرة في إيران في أوائل القرن العشرين، وكان عدد محدود منها معروضاً للإيجار بين المدن الرئيسة. ولو أراد مسافر أن يخرج عن نطاق ثلاثة طرق رئيسة أو أربعة، كان لابد له أن يعتمد على العربات التي تجرها الخيول، وحتى عربات الخيول لم يكن بمقدورها أن تمضي إلى كل مكان، فقد كانت هناك مناطق كثيرة في إيران لا توجد فيها طرق من أي نوع. وكان لا بد لامرئ مثلي،

يتوق إلى الاختلاط بالناس ومعرفتهم في أماكن معيشتهم من التنقل على ظهور الخيل. ولذلك، وخلال آخر أسبوع لي في بغداد، وبمعاونة إبراهيم التتاري، كنت أتوجه كل صباح إلى سوق الخيل خارج المدينة. وبعد مفاوضات دامت أياماً، اشتريت جواداً لي وبغلاً لإبراهيم. كان جوادي بني اللون من سلالة من جنوب إيران، بينما كان البغل - وهو حيوان عنيد له عضلات من فولاذ - رمادي اللون من تركيا؛ كان بإمكانه أن يحمل بسهولة بالإضافة إلى راكبه، الحقائب والأمتعة التي تحتوي على ضرورات الحياة كلها.

امتطى إبراهيم جوادي وجر البغل من مقوده وانطلق ذات صباح قاصداً مدينة «خانقين»، وهي آخر مدينة عراقية على الحدود الإيرانية، ونهاية خط السكة الحديدية الواصل من بغداد إلى «خانقين»؛ وتبعته بعد يومين بالقطار.

غادرنا «خانقين» تاركين العالم العربي خلفنا. نهضت أمامنا تلال صفراء اللون، تقف كالخفراء أمام جبال شاهقة العلو؛ جبال الهضبة الإيرانية، عالم جديد بانتظاري.

كانت نقطة العبور على الحدود مبنى صغيراً وحيداً يعلوه علم باهت بألوان خضراء وبيضاء وحمراء ورسم رمزي لأسد يحمل في يده سيفاً تحت شمس ساطعة. كان موظفو نقطة العبور يرتدون زياً رسمياً موحداً بادي الاتساخ والإهمال، ويضعون في أقدامهم خفوفاً بيضاء، كانوا سود الشعر بيض البشرة، قاموا بفحص أمتعتي القليلة بطريقة ودود، ولكنها متحفظة، ثم وجه أحدهم حديثه إليّ قائلاً: «كل شيء مضبوط «جناب العالي» نتشرف بوجودك في صحارينا، هل تتفضل بتناول كوب من الشاي معنا؟».

كنت مندهشاً من عبارات الترحيب الغريبة، وورد إلى ذهني مدى الاختلاف بين العربية والفارسية على الرغم من احتواء الفارسية على كثير من المفردات العربية. تبدو الفارسية ذات نغم جميل، وتبدو مفرداتها الناعمة الجميلة الرقيقة بمقاطعها الصوتية وكأنها لغة «غربية» بعكس الأصوات الحارة للغة العربية.

لم نكن المسافرين الوحيدين، كانت هناك عربات مثقلة بالأحمال من المنسوجات، يجر كل منها أربعة من الأحصنة، وكانت هناك قافلة من البغال على مقربة. كان رجال القافلة يطهون طعاماً على نار أشعلوها. بدا أنهم تخلوا عن فكرة استكمال السفر في الحال، على الرغم من أن الوقت كان في الساعات الأولى بعد انتصاف النهار، قررت أن نفعل الشيء نفسه ولا أتذكر السبب. قضينا الليل في العراء فوق أغطيتنا التي فرشناها على الأرض.

بدأت العربات والقافلة فجراً في التحرك باتجاه الجبال العارية، ركبنا وسرنا معهم، كان الطريق صاعداً باطّراد، سبقنا القافلة والعربات البطيئة، توغلنا أعمق في مناطق الأكراد الجبلية، أرض الرعاة الشقر طوال القامة.

رأيت أول راعٍ منهم عند أحد منحنيات الطريق، كان يخرج من كوخ منخفض مصنوعٍ من أغصان الأشجار الجافة، وقدم لنا دون أن ينبس ببنت شفة وعاءً خشبياً مملوءاً بلبن دسم. كان يافعاً في السابعة عشرة من عمره تقريباً، حافي القدمين، في ملابس رثة، قذر الوجه واليدين وآثار غطاء الرأس بادية على شعره العاري. وعندما كنت أشرب اللبن البارد المضاف إليه قليل من الملح، رأيت من فوق حافة الوعاء العيون الزرقاء التي كانت مصوبة إلى وجهي في تأمل، كان في عينيه بريق لامع مثل ذلك الذي نجده في عيون الحيوانات المولودة الآن، نعاس بدائي، لم يكسر أصالته شيء بعد...

وصلنا إلى قرية كردية من الخيام فيما بعد الظهيرة وتقع بين سفوح التلال. كانت تشبه خيام بدو العراق وسورية: غطاء خشن مصنوع من شعر الماعز مفرود على بعض الدعامات الخشبية والجوانب من القش المجدول. كان تيار الماء يتدفق قريباً من الخيام؛ وتجمعت على حوافه طيور بيضاء؛ وحطت على صخرة في الماء مجموعة من طيور اللقلق تنقر أجنحتها في متعة. كان رجل يرتدي سترة زرقاء يتجه في خطوات حثيثة إلى الخيام. وكانت امرأة تحمل إناءً فخارياً على كتفها تدنو من الماء، ترتدي ثوباً أحمر فضفاضاً طويلاً، كانت سيقانها الطويلة بادية من تحت ملابسها؛ سيقان طويلة ومشدودة مثل أوتار الكمان، ركعت بجوار حافة الماء على

ركبتيها ومالت على الماء تملأ جرتها؛ ومال غطاء رأسها الأحمر، ومس طرفه سطح الماء وكأنه تيار من الدماء ينسكب في مجرى النهر. بعد ذلك بفترة جلست على حافة الماء بصحبة رجل عجوز أربع فتيات في شرخ الشباب جميعهن ذوات سحر خاص، طبيعيات بلا افتعال نتيجة حياتهن الحرة بين أحضان الطبيعة: كان جمالهن لافتاً إلا أنه عفيف وطاهر، فخار واعتداد لا يخفينه ولكنك تدركه من الخجل والتواضع اللذين يغلبان عليه. كانت أجملهن ذات اسم موسيقي هو: «توتو» (وتنطق مقاطعه، كما تنطق بالفرنسية)، كانت جبهتها مغطاة حتى حاجبها الرقيق بوشاح أحمر، وجفناها مصبوغين، من تحت الوشاح تدلت من أذنيها سلاسل فضية رقيقة؛ في كل لفتة من رأسها كانت السلاسل تصدر صوتاً معدنياً رقيقاً.

استمتعنا جميعاً بالحوار الذي تبادلناه على الرغم من لغتي الفارسية الضعيفة (للأكراد لغة خاصة بهم، ويفهم أغلبهم الفارسية فلغتهم مشتقة منها)، كن نساء بدائيات لم يذهبن أبداً إلى خارج نطاق قبيلتهن؛ وكن يفهمن بسهولة ما أريد قوله، وغالباً ما كن يجدن الكلمة التي أتعثر في نطقها. سألتهن عن حياتهن وما يقمن به من أعمال، أجبن عن سؤالي بأنهن يطحنَّ الغلال بالرحى؛ ويخبزْنَ الخبز على جمرات الحطب؛ ويحلبن الماعز، ويخضضن اللبن في قرب جلدية حتى يتحول إلى زبد؛ ويغزلْن بمغازل يدوية خيوطاً من صوف الأغنام، وينسجن الأبسطة والسجاجيد في أنماط قديمة قدم جنسهن ذاته، ويحملن ويلدن الأطفال؛ ويهبن أزواجهن الراحة والحب....

حياة لا تتغير: اليوم مثل الأمس والغد... عند أولئك الرعاة لا وجود للزمن، باستثناء كر الأيام والليالي والفصول. فالليل جُعِل مظلماً للنوم؛ والنهار مضيء لقضاء حاجات الحياة وضروراتها؛ والشتاء يعرف باشتداد برودة الجو وندرة الكلأ والعشب على سفوح الجبال، فينتقلون بقطعانهم وخيامهم إلى السهول الأكثر دفئاً، إلى ما بين النهرين بالقرب من نهر دجلة، وعندما يعود الدفء تدريجياً معلناً قدوم الصيف برطوبته وهوائه اللافح، يعودون إلى الجبال، إما إلى ذات الموضع، وإمّا إلى موضع غيره في نطاق منطقة القبيلة.

سألت الرجل العجوز: «ألم ترغب قط في الحياة في منزل من الحجر؟» كان الرجل لم ينطق بكلمة طوال فترة حديثنا مع النساء، وكان يستمع مبتسماً إلى الحوار، وطرحت عليه سؤالاً آخر: «ألم ترغب قط أن يكون لك حقل تملكه؟».

هز الرجل العجوز رأسه ببطء وقال: «كلا... إذا توقفت المياه بلا حركة في بركة، فإنها تفسد وتتعكر وتتعفن؛ أما حين تكون متحركة ومتدفقة فإنها تظل نظيفة ونقية....».

* * *

انسحبت ذكريات كردستان إلى الماضي بمرور الزمن. على مدى ثمانية عشر شهراً تجولت في إيران، طولاً وعرضاً، وتعرفت خلال تلك المدة على أمة جمعت داخلها حكمة ثلاثين قرناً من الزمن، وغضب أمة يماثل غضب الأطفال لا يمكن التنبؤ بموعد وقوعه؛ أمة قد تنظر بتكاسل وبرود إلى ما يحدث لها وما يقع حولها - وفي لحظة أخرى تجدها تنتفض في هبة عنيفة غاضبة. استمتعت بالجو الحضاري في المدن الكبرى؛ وخضت بين الرياح العاصفة في السهوب الواسعة؛ قضيت ليالي في قلاع حكام المقاطعات، وتحت أمري أعداد كبيرة من الخدم، كما قضيت ليالي في خانات واستراحات مهدمة خربة تظل متيقظاً بها طوال الليل لقتل العقارب كي لا تلدغك. ساهمت وشاركت في كل أشكال الحياة في إيران، من موائد عليها خراف مشوية حين كنت ضيفاً على قبائل «بختياري» و«كاشجاي»، وموائد أخرى عليها ديوك تركية محشوة بالمشمش لكبار التجار؛ حضرت احتفالات محرم والمسيرات الدموية، واستمعت إلى القصائد الرقيقة للشاعر الإيراني العظيم «حافظ» المغناة على العود.

تمشيت بين أشجار الحور في «أصفهان» وأعجبتني مداخل القصور العظيمة، وواجهاتها الرائعة، كما أعجبتني روعة صقل قباب مسجدها الكبير. أصبحت اللغة الفارسية سلسة على لساني كاللغة العربية. خضت حوارات كثيرة مع المتعلمين في المدن، ومع الجنود ورجال القبائل، ومع التجار في الأسواق، ومع أعضاء في الوزارة وكبار رجال الدين، مع الدراويش الجائلين وكبار الحشاشين في

الاستراحات المنتشرة على الطرق. عشت في المدن والقرى وعبرت الصحاري وخضت المستنقعات المالحة، ونسيت نفسي كلياً، وفقدت الإحساس بالزمن في تلك البلاد العجيبة صاحبة الحضارة القديمة، والتي تخلفت عن مواكبة الحضارات الحديثة. تعرفت الشعب الإيراني وأنماط حياته وأفكاره وكأنني قد ولدت بينهم، كانت تلك البلاد وتلك الحياة مملوءة بالتعقيدات، مثل جوهرة ثمينة قديمة خبا توهجها، لكنها لم تنل مكانة قريبة من القلب تماثل ما أحسسته نحو العرب.

رحت أجوب جبال أفغانستان وسهوبها الواسعة على مدى ما يزيد على ستة أشهر، في عالم لا يحمل فيه الرجال بنادقهم لمجرد الزينة، بل يجب أن تحرص على كل كلمة وكل خطوة وإلا وجدت طلقة رصاص تأتي مفردة تجاهك. أحياناً كنا نضطر أنا و«إبراهيم» التتاري ومن يرافقنا للدفاع عن أنفسنا عند هجوم عصابات قطاع الطرق، التي كانت أفغانستان تغص بهم في ذلك الوقت؛ ولكن إن حدث وكان اليوم يوم جمعة، توقفت العصابات عن أي نشاط لها، فالسرقة والقتل حرام في اليوم المخصص لصلاة الجمعة.

نجوت من الموت بأعجوبة بالقرب من مدينة «قندهار»، لأنني نظرت مباشرة إلى وجه امرأة ريفية جميلة تعمل في أحد الحقول؛ ووجدت بين المغول في قرى مرتفعات «هندكوش» أناساً ينحدرون من سلالة القائد المحارب «چنكيز خان»، كما لم يكن من العيب أن أنام على الأرض في كوخ إلى جوار زوجة مضيفي الشابة وشقيقته. على مدى أسابيع كنت ضيفاً على «أمان الله خان»، ملك أفغانستان في «كابل»؛ وتناقشت على مدى ليالٍ طويلة مع علمائه حول تعاليم القرآن الكريم؛ وفي ليالٍ أخرى تناقشت مع «الباتان خان» في خيامهم السوداء وقلت لهم: إن الأفضل لهم أن يطوفوا في المناطق القبلية المتحاربة ليحثوهم على الإقلاع عن تلك الحروب.

كان اليقين ينمو داخلي بأنني أقترب من إجابات نهائية عن أسئلتي في كل يوم من أيام العامين الذين قضيتهما في إيران وأفغانستان .

* * *

قلت: «هكذا كنت أقترب من الإسلام يا «منصور»، بفهمي لحياة المسلمين كنت أقترب يومياً من فهم أفضل للإسلام، كان الإسلام دائماً مسيطراً على ذهني....».
قال «زيد» وهو يدقق النظر إلى ظلمة السماء: «حان وقت صلاة العشاء».

انتظمنا لأداء الصلاة الأخيرة لذلك اليوم، اتجهنا ثلاثتنا نحو مكّة المكرّمة: وقف «زيد» و«منصور» جنباً إلى جنب وتقدمت لأؤمهم (فقد ذكر الرسول ﷺ أن صلاة اثنين أو أكثر هي صلاة جماعة) [1]. رفعت كفيّ وبدأت: الله أكبر، ثم تلوت سورة الفاتحة من القرآن الكريم، ثم تبعتها بسورة الإخلاص حتى أتممنا الصلاة.

هناك بعض الأشياء تجعل الرجال يتقاربون بعضهم من بعض مثل صلاة الجماعة. ويصدق ذلك على الديانات كلها، إلا أنه أكثر صحة فيما يخص الإسلام الذي يرتكز على إيمان حقيقي، إذ إنه لا وساطة بين المخلوق وخالقه، وغياب كل أشكال الكهانة والإكليروس المؤسسي الديني، يجعل كل مسلم يوقن أنه يشارك بإيجابية في عمل جماعي من أجل العبادة، وأنه لا يحضر فقط لمشاهدة وسطاء يقومون بالنيابة عنه بأداء طقوس العبادة، لذلك يؤدي جميع المسلمين صلاة الجماعة، ولأنه لا توجد أسرار ولا طقوس مقدسة في الإسلام، فإن كل مسلم بالغ وراشد بإمكانه القيام بأي وظيفة دينية، كأن يؤم المصلين في صلاة الجماعة، ويقوم بإجراءات عقود الزواج، أو بالصلاة على الميت قبل دفنه، لا توجد حاجة في الإسلام إلى ترسيم وظائف وتخصصات دينية لعبادة اللّه: أما المعلمون الدينيون ومرشدو المسلمين، فهم أناس بسطاء يستمتعون بالسمعة الطيبة التي تدل على أنهم على دراية واسعة بأمور الدين وأحكام التشريع (أحياناً يستحقون السمعة الطيبة، وبعضهم لا يستحقونها).

(٣)

استيقظت عند الفجر: كانت جفوني مثقلة بالنعاس، هب على وجهي نسيم ناعم، له همهمة رقيقة تفصل بين خفوت الليل والنهار الوليد.

---

١ـ هذا الحديث خرّجه النسائي في صحيحه، كتاب الإمامة، باب الجماعة إذا كانوا اثنين. صحيح سنن ابن ماجة للألباني في ١/١٨٢. وورد معناه في صحيح البخاري، كتاب الصلاة، باب اثنان فمافوقهما جماعة، ومسند أحمد ٥/٢٥٤ و٢٦٩ وسنن ابن ماجة ١/٣٠٨.

نهضت لأغسل آثار النعاس المتبقي في جفوني، كانت المياه الباردة كلمسة من براري بعيدة، جبال تكسوها أشجار قاتمة الخضرة، وتيارات مائية تتحرك وتتدفق وتظل نقية... جلست وأملت رأسي إلى الخلف حتى يظل وجهي مبللاً بالماء لأطول وقت، هبت نسمات على وجهي المبلل، رتبت عليه بذكريات طيبة لأيام باردة، لأيام الشتاء الطويلة الماضية... جبال ومياه مندفعة... والتزلق على الجليد وبياضه الناصع، والبياض الناصع لذلك اليوم من أعوام مضت عندما ركبت جوادي على جليد الجبال الإيرانية الناصع البياض من دون أن أميز طريقاً أسير على هداه، أتقدم ببطء إلى الأمام، كل خطوة من خطوات الجواد تغوص في باطن الجليد والخطوة التالية أشد جهداً من سابقتها...

استرحنا في ظهر ذلك اليوم كما أتذكره، في قرية تقطنها مجموعة غريبة تشبه الغجر، كانت القرية عشراً أو اثنتي عشرة حفرة في الأرض تغطي كل منها قبة منخفضة من الأعشاب والطين، مما أضفى على تلك المستوطنة الفريدة المنعزلة ـ كانت في جنوب إيران، في مقاطعة كرمان ـ مظهر مدينة الظلام المقامة تحت الأرض. بدوا مثل مخلوقات سفلية كما في القصص الخيالية، أناس يزحفون صاعدين من تحت الأرض من فتحات مظلمة ليتأملوا غرباء يندر وجودهم في تلك المنطقة. على قمة واحدة من تلك القباب جلست امرأة شابة تمشط شعرها الأسود المجعد الأشعث؛ استدار وجهها الحنطي وعيناها شبه مغمضتين باتجاه شمس منتصف النهار الشاحبة، وانطلقت من حنجرتها أغنية بصوت خافت بإحدى اللغات المحلية، أحاطت معصماها بأساور معدنية راحت توسوس مع حركات يديها وهي تمشط شعرها، كان معصماها دقيقين وقويين مثل أقدام الحيوانات البرية في الغابات البدائية.

شربت شاياً وعرقاً لأبعث الدفء في أطرافي المخدرة من البرد، ـ كثيراً من العرق ـ أنا والحارس الذي يصحبنا، وحين اعتليت صهوة جوادي، كنت مخموراً تماماً، انطلقت به في عدو سريع، بدا العالم كله مبسوطاً أمامي في رحابة لا تنتهي، وبدا شفافاً في عيني كما لم يبد من قبل؛ رأيت نمطه الداخلي الخافي، وأحسست بنبضه الدفين في تلك الأصقاع البيضاء الخالية، واندهشت من خفاء جميع ذلك عني منذ

دقيقة مضت؛ وأيقنت أن كل الأسئلة على ما يبدو بلا إجابة ماثلة أمامنا في انتظار أن ندركها بينما نحن ـ الحمقى المساكين ـ نطرح الأسئلة، وننتظر أن تفتح الأسرار الإلهية نفسها لنا: بينما تنتظر تلك الأسرار أن نفتح نحن أنفسنا لها...

فتحت الأرض المستوية نفسها أمامنا، همزت جوادي، وطرت مثل شبح في ضوء بللوري ناصع الشفافية، والجليد والبرد يتناثران تحت حوافر الجواد، ويتدفقان حولي كسيل من الشرارات المتطايرة، وأرعدت حوافر جوادي بصوت مدوي فوق جليد الأنهار المتجمدة...

أعتقد أنه كان ذلك الوقت الذي أدركت فيه، على الرغم من أنني لم أكن أعي ذلك تماماً، انفتاح باب النعمة الإلهية أمامي ـ تلك النعمة التي حدثني عنها الأب «فيلكس» منذ زمن طويل مضى عندما كنت منطلقاً إلى رحلة كان مقدراً لها أن تغير حياتي كلها؛ انكشاف النعمة الإلهية التي تحدد لك بوضوح أنك الشخص المنتظر...

مر أكثر من عام بين انطلاقي المجنون على جوادي فوق الجليد والبرد قبل أن أعتنق الإسلام، ولكن حتى في ذلك الوقت قبل إسلامي، كنت أنطلق دون أن أعي ذلك، في خط مستقيم كمسار السهم المنطلق، باتجاه مكّة المكرّمة.

* * *

جفَّ وجهي المبتل، وتراجعت في مخيلتي ذكرى ذلك اليوم من أيام شتاء إيران الذي انقضى منذ ما يربو على سبعة أعوام، تراجع ذلك اليوم وتقهقهر إلا أنه لم يختفِ، فذلك الماضي قطعة من هذا الحاضر.

تيار هواء بارد، تنفس صباح يولد يجعل الأعشاب الشوكية ترتجف، والنجوم تبدأ في الخفوت والذبول. انهض يا «زيد»، انهض يا «منصور»، انهضا.. فلنزوّد النار بالحطب، ونعد قهوتنا، ثم نضع الرحال على الجمال، ونركب إلى يوم آخر، عبر الصحراء التي تتلقانا بأذرع مفتوحة.

# الفصل الثامن

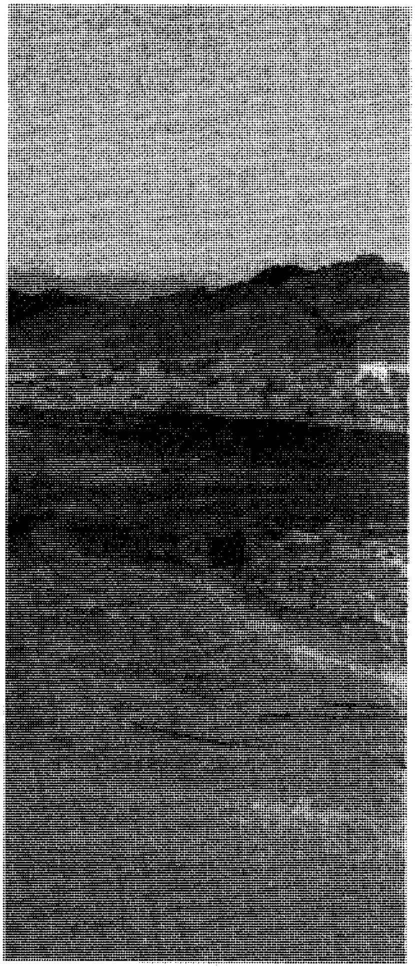
خارج المدينة المنورة ١٣٤٥ (١٩٢٧م)

## جِنّ

كانت الشمس توشك على المغيب عندما ظهرت أمامنا فجأة أفعى سوداء تتلوى معترضة طريقنا: كانت سميكة مثل ذراع طفل وطولها نحو ياردة. توقفت وأدارت رأسها نحونا. في ردة فعل آلية انزلقت من فوق رحل ناقتي وحللت بندقيتي من علاّقتها، جثوت على ركبتي وصوبت - في اللحظة نفسها - سمعت صوت «منصور» من خلفي يصيح:

«لا تطلق النار - لا تطلق..» - إلا أنني كنت قد ضغطت على الزناد وانطلقت الرصاصة؛ فتلوت الحية لثوانٍ، والتف بدنها، وماتت.

ظـهـر إلى جـواري ـ وأنـا مـازلت جـاثيـاً ـ وجـه «منصور» يـحمل عـلامـات الضيـق والاعتراض على ما فعلت، وقال: «كان عليك ألاّ تقتلها...، على كل حال ليس في أثناء غروب الشمس، فهذا هو الوقت الذي يخرج فيه الجن من تحت الأرض، وغالباً ما يكون على شكل حية...».

ضحكت وقلت له: «لا أظن يا «منصور» أنك تصدق حكايات العجائز عن الجن الذي يتخذ شكل الحيات والأفاعي».

رد منصور: «طبعاً أومن بوجود الجن، أليس الجن مذكوراً في كتاب اللّه؟ أما الشكل الذي يتخذونه فأنا لا أدري... سمعت أنهم يتخذون أشكالاً غريبة لا يتوقعها أحد...».

فكرت: ربما تكون محقاً يا «منصور»، ألا يمكن أن نفترض وجود مخلوقات لا تدركها حواسنا؟ ألا يعد إنكار ذلك نوعاً من التكبر الفكري يدفع الإنسان المعاصر إلى رفض احتمال وجود أشكال أخرى للحياة باستثناء ما ندركه وما يمكن قياسه؟ إن وجود الجن، مهما تكن طبيعتهم، لا يمكن إثباته بوسائل علمية. كذلك لا يمكن للعلم أن يثبت عدم وجود حيوات أخرى تختلف قوانينها البيولوجية اختلافاً كلياً عن قوانينا، وأنها حيوات فوق قدرة حواسنا على إدراك وجودها إلا في ظروف استثنائية وخاصة.

ألا يمكن أن تكون هذه الاستثناءات حالات تتقاطع فيها تلك الحيوات تحت ظروف استثنائية وخاصة مع حياتنا، ويطلق على ذلك ظواهر غير طبيعية، وأطلق عليها القدماء أسماءً مثل أشباح، أو عفاريت، أو غيرها من ظواهر ميتافيزيقية «ما وراء الطبيعة» الخارجة والخارقة لما نعرفه عن قوانين طبيعية؟

ركبت ناقتي من جديد ورأسي مشغول بتلك الأسئلة، وابتسامة تشكك تعلو وجهي من امرئ مثلي جعله نمط تنشئته أكثر جموداً من أناس عاشوا على الدوام ملتصقين بالطبيعة. استدار «زيد» على رحله ووجه حديثه إليّ برزانته التي أعهدها:

«منصور» على حق يا عمي، كان عليك ألا تقتل الأفعى، ذات مرة، من سنين طويلة مضت - عندما هجرت (حائل) أطلقت النار على أفعى مثل تلك الأفعى في طريقي إلى العراق، وكان ذلك أيضاً في وقت الغروب، وعندما توقفنا لصلاة المغرب، شعرت فجأة بثقل في ساقيّ وكأنهما مربوطتان إلى أثقال من رصاص، وإحساس حارق في رأسي، ثم دوَّى في رأسي هدير مثل هدير شلالات المياه المنحدرة، واشتعل إحساس حارق في أطرافي كأنما أمسكت بها ألسنة لهب، لم أستطع أن أتماسك لأظل واقفاً، فسقطت على الأرض مثلما يسقط الكيس الفارغ، وأصبحت في ظلام دامس لا أرى شيئاً من حولي. لا أدري كم لبثت في ذلك الظلام، ولكنني أتذكر أنني استطعت في النهاية أن أقف على قدمي فوجدت رجلاً غريباً يقف إلى يميني وآخر إلى يساري، قاداني إلى قاعة واسعة شحيحة الضوء مملوءة برجال يروحون جيئة وذهاباً، ويتحدثون بعضهم إلى بعض. بعد فترة تبينت أنهما فريقان، كأنهم أمام هيئة محكمة، وجلس عجوز ضئيل الحجم إلى منصة عالية في أقصى القاعة؛ بدا كأنه قاض أو رئيس، أو ما شابه ذلك، وفي الحال تبينت أنني المتهم.

قال صوت: لقد قتله قبل مغيب الشمس تماماً ببندقيته فهو مذنب، وقال صوت آخر من الفريق المضاد: «ولكنه لم يكن يعلم من يقتل، ونطق اسم اللّه عندما جذب زناد بندقيته، ولكن فريق الاتهام صاح: لم ينطق باسم اللّه، ورد الفريق المدافع في صوت واحد كأنهم جوقة إنشاد: «سمّى، سمّى، سمّى باسم اللّه - واستمر ذلك فترة، اتهام ودفاع، حتى كسب فريق الدفاع في النهاية، واتخذ القاضي في صدر القاعة قراره ونطق بحكمه: «لم يكن يعلم هوية القتيل، كما أنه نطق باسم اللّه فعلاً، أعيدوه إلى هناك»».

«وصحبني الرجلان اللذان أحضراني إلى تلك القاعة وهما مسلحان، وأعاداني إلى الظلام الدامس الذي كنت فيه، وأرقداني على الأرض كما كنت، فتحت عيني فوجدت نفسي ممدداً بين كيسين من أكياس الحبوب التي كانت مكومة على الجانبين ومفرود عليهما قماش خيمة ليحميني من حرارة ا لشمس، بدا من درجة الضوء أننا اقتربنا من منتصف النهار، وأن رفاقي قد حطوا رحالهم، ورأيت نوقنا

على مبعدة ترعى في منحدر تل. أردت أن أرفع يدي، إلا أن أطرافي وبدني كانت كلها في غاية الوهن، وعندما مال أحد رفاقي بوجهه نحوي مستطلعاً حالي، قلت له بصوت واهن: «قهوة» فقد كنت أسمع بالقرب مني صوت هاون طحن حبوب القهوة. قفز رفيقي صائحاً: «لقد نطق، لقد نطق، استعاد وعيه» - وأحضروا لي قهوة طازجة ساخنة. سألتهم: «هل فقدت الوعي طوال الليل؟» ردوا متعجبين: «طوال الليل؟ أربعة أيام بلياليها وأنت لا تتحرك، كنا نحملك كما يُحمل كيس الحبوب على أحد الجمال، وننزلك من جديد عند حلول الظلام؛ وكنا نفكر في دفنك هنا في هذا الموضع، ولكن الحمد والشكر للّه الذي يهب الحياة ويأخذها، الحي الذي لا يموت...».

«وهكذا كما ترى يا عمي، لا تقتل أفعى عند غروب الشمس».
على الرغم من أن نصف وعيي ظل مبتسماً من قصة «زيد»، ظل النصف الآخر يشعر بأطياف القوى غير المرئية في عتمة المساء المقترب، إحساس بأصوات تتزاحم، إلا أنها كانت من الرقة حتى إنه يصعب على الأذن التقاطها، وإحساس بالعداوة في الفراغ جعل إحساساً واهياً بالندم يغلب عليّ لقتلي الأفعى عند غروب الشمس.

(٢)

توقفنا بعد ظهر اليوم الثالث لمغادرتنا مدينة «حائل» لإرواء جمالنا من آبار «عرجا»، في وادٍ دائري محصور بين تلال منخفضة. كانت البئران كبيرتين ومملوءتين بالماء العذب في منتصف الوادي؛ كل بئر منهما ملك مشاع لقبيلة؛ الغربية ملك لقبيلة «حرب»، والشرقية ملك لقبيلة «مطير»، وكانت الأرض من حولهما جرداء منبسطة خالية من أي نبات، فكل يوم وعند منتصف النهار ترد إلى البئرين مئات الجمال قادمة من مراعٍ بعيدة لترتوي، وتدهس كل نبتة تهم بالبزوغ.

كان الوادي عند وصولنا مملوءاً بالحيوانات، وقطعان جديدة تظهر من بين التلال التي تصهرها الشمس. حول البئرين كان هناك تزاحم وتدافع، فليس من السهل

سقاية جميع تلك الحيوانات، كان الرعاة يسحبون الماء من البئرين في دلاء من الجلد مربوطة بحبال طويلة، ويصاحبون عملهم بالغناء الرتيب لضبط إيقاع العمل من رفع الدلاء وإفراغها وإدلائها من جديد إلى قاع البئرين: كانت الدلاء كبيرة جداً، وعندما تمتلئ بالماء تصبح ثقيلة حتى إنها تتطلب جهداً كبيراً لرفعها من أعماق البئر.

سمعت الرجال من بئر «مطير» القريبة ينشدون للجمال:

ارتووا لا تتركوا ماء

البئر ملأى بالنعم ولا قاع لها

كان نصف الرجال ينشدون المقطع الأول بينما يرد عليهم النصف الثاني بالمقطع الأخير، ويكررون كل مقطع عدة مرات في إيقاع سريع حتى يظهر الدلو على حافة البئر؛ ثم تتولى النساء إفراغ الدلاء في أحواض السقي. أعداد من الجمال تتزاحم مندفعة إلى الأمام، تهدر وتعلو أصواتها، تهتز في نشوة، وتتزاحم حول أحواض الماء، بينما يهدئ الرجال من إثارتها صائحين، «هوو... ري... هوو... وي» كلها تدفع أعناقها الطويلة المرنة فوق أعناق رفاقها لتروي عطشها، تدافع وتزاحم لجمال بألوان بنية غامقة وفاتحة، وجمال صفراء وأخرى في لون العسل، تملأ المكان برائحتها.

في الوقت الذي تملأ فيه الدلاء من جديد، يسحبها الرجال إلى أعلى، منشدين نشيداً آخر:

لا شيء يروي عطش الجمال

إلا نعمة اللّه وكد الرجال

ويتكرر مشهد اندفاع الماء في الأحواض، شرب الجمال للماء ونداء الرعاة والإنشاد المتكرر.

رفع أحد الرجال المسنين، وكان يقف بجوار حافة البئر، يده ملوحاً باتجاهنا وصاح: «حياكم اللّه يا مسافرون، تفضلوا»، بينما نزع بعض الرجال أنفسهم من زحام البئر واندفعوا باتجاهنا. أخذ أحدهم زمام ناقتي وأناخها حتى أترجل، وبسرعة أفسحوا طريقاً لنوقنا، وسكبت النساء الماء في الحوض، كانت لنا الأولوية في السقاية.

قال «زيد»: «أليس عجيباً أن نشهد الآن سلاماً بين «حرب» و«مطير» بعدما كانتا متحاربتين؟» (مرت ثلاثة أعوام فقط على إخماد تمرد قبائل «مطير» ضد الملك، بينما كانت قبائل «حرب» من أشد مؤيدي الملك ومؤازريه). أكمل «زيد» قائلاً: «هل تذكر يا عمي آخر مرة كنا فيها هنا؟ وكيف تجنبنا المرور بآبار «عرجا» وسرنا في دائرة واسعة حولها ليلاً؛ لأننا لم نكن ندري أعدو أم صديق عندها؟».

كان «زيد» يشير إلى تمرد البدو الكبير في سنة ١٣٤٧ (١٩٢٨ ـ ١٩٢٩م)، وكانت أزمة هزت أركان مملكة «الملك عبد العزيز» حتى جذورها، وكنت مشاركاً في تلك الأحداث فترة من الزمن.

* * *

كان السلام يسود أرجاء المملكة العربية السعودية، في بداية سنة ١٣٤٥ (١٩٢٧م)، وكان نضال «الملك عبد العزيز» للسيطرة على زمام المملكة قد حقق أهدافه. فلا يوجد منافس له في حكم منطقة «نجد». وخضعت «حائل»، ومنطقة قبائل «شمّر»، ثم خضعت له منطقة «الحجاز» بعد أن أخرج منها أسرة الشريف حسين سنة ١٣٤٣ (١٩٢٥م). ومن بين قادة الملك العسكريين البارزين كان هناك «فيصل الدويش» المشكوك في مراميه، والذي كان يسبب قلقاً للملك في الأعوام المبكرة لتكوين المملكة. كان «الدويش» متميزاً وظاهراً في خدمة الملك وفي إظهار ولائه مرة بعد أخرى: في سنة ١٣٤٠ (١٩٢١م) قام بالإغارة على

«حائل» بأمر من الملك؛ وفي سنة ١٣٤٢ (١٩٢٤م) قام بغارة جريئة على العراق لقطع الإمداد البريطاني عن أسرة الشريف حسين في الحجاز. وفي سنة ١٣٤٣ (١٩٢٥م) استولى على «المدينة المنورة»[1] وأدّى دوراً حاسماً في فتح «جدة». وفي صيف ١٣٤٥ (١٩٢٧م)، كان يتيه بأكاليل الغار بين أتباعه من «الإخوان» في «الأرطاوية»، التي لا تبعد كثيراً عن حدود العراق.

شهدت تلك المنطقة على مدى أعوام طويلة هجمات بدوية كثيرة بسبب هجرات البدو المستمرة بحثاً عن الكلأ والماء؛ ولكن طبقاً لاتفاقيات متعاقبة بين الملك عبد العزيز وبريطانيا التي كانت مسؤولة عن العراق - والتي نصت على ألا توضع أي عوائق أمام هجرة القبائل التي لا مفر منها، وعلى عدم إقامة أي تحصينات من أي نوع على جانبي الحدود بين «نجد» و«العراق». في صيف سنة ١٣٤٥ (١٩٢٧م) شيدت «العراق» حصناً دفاعياً عند الآبار الحدودية في منطقة «البصية»، وأعلنت رسمياً عزمها على بناء حصون أخرى على طول الحدود، وسبّب ذلك حالة من القلق والتوتر بين قبائل شمال «نجد»؛ إذ كان ذلك يشكل تهديداً لوجودهم، لأنه يحرمهم من آبار الماء التي لا غنى عنها، والتي يعتمدون عليها اعتماداً كلياً، واحتج الملك «عبد العزيز» على ذلك الخرق الصريح للاتفاقيات المبرمة، ولم يتلق - بعد شهور- إلا إجابة مراوغة من المندوب البريطاني على العراق.

قال «فيصل الدويش» لنفسه - وهو رجل كان عملياً في طبعه: «ربما يجد الملك أنه من غير الملائم محاربة البريطانيين، ولكن لديّ الشجاعة للقيام بذلك»، وفي بداية جمادى الأولى سنة ١٣٤٦ أواخر (أكتوبر ١٩٢٧م)، انطلق على رأس قواته المسماة «بالإخوان»، وهاجم حصن «البصية» ودمره، ولم يترك فيه عراقياً واحداً.

حلّقت الطائرات البريطانية فوق الموقع، وقامت بالاستطلاع فقط، وعادت من دون أن تسقط قنبلة واحدة. كان من السهل عليهم أن يقضوا على قوات

---

١- لم يكن الدويش هو الذي استولى على المدينة بل حاصرها، والذي دخلها حقيقة الأمير محمد بن عبد العزيز رحمه الله.

«الدويش» (وهو ما كانت تتيحه لهم نصوص الاتفاقيات الموقعة مع «الملك عبد العزيز») ثم تتم تسوية المشكلات بعد ذلك بالطرق الدبلوماسية. ولكن، هل كانت الحكومة البريطانية في العراق تريد فعلاً التوصل إلى حلول سريعة سلمية للنزاع؟

توافد المرسلون من قبائل شمال «نجد» على «الملك عبد العزيز» ليدفعوه إلى القيام بحملة عسكرية ضد العراق، ورفض «الملك عبد العزيز» بحزم كل تلك المطالب، وأعلن أن «الدويش» جائر، وأصدر أوامره إلى أمير «حائل» ليشدد المراقبة على منطقة الحدود، وقطع المخصصات المالية التي كان يعطيها لقوات «الإخوان» كما قطعها عن القبائل التي كانت تحت سيطرة «الدويش»؛ أما «الدويش» فقد اختفى «في الأرطاوية» بانتظار حكم الملك عليه. وتم إبلا غ الحكومة العراقية رسمياً بالإجراءات التي اتخذها «الملك عبد العزيز» وأبلغوهم أن «الدويش» سيلقى جزاءه، وفي الوقت نفسه طلب «الملك عبد العزيز» من العراق أن تلتزم تماماً نصوص الاتفاقيات الموقعة.

كان من الممكن أن ينتهي ذلك النزاع الجديد بسهولة، ولكن عندما وصلت الأمور إلى ما وصلت إليه، أرسل المندوب السامي البريطاني في العراق رسالة إلى «الملك عبد العزيز» يعلمه فيها أنه سيرسل سرباً جوياً لمهاجمة قوات «الإخوان» التابعة لـ«الدويش» (الذي كان قد عاد إلى موطن قبيلته) حتى يجبرها على طاعة ملكها. ولعدم وجود مبرقة في الرياض، أرسل «الملك عبد العزيز» رسولاً عاجلاً إلى «البحرين»، وأرسل برقية من «البحرين» إلى بغداد، يحتج فيها على تلك الإجراءات العسكرية التي تنويها قوات «بريطانيا»، ويذكرهم بالاتفاقيات التي تمنع كل طرف من اختراق الحدود لمعاقبة الخارجين على القانون لدى الطرف الآخر. وأكد أنه لا يحتاج «المساعدة» البريطانية لتقوية سلطته ونفوذه ضد قوات الدويش، وفي آخر البرقية حذر البريطانيين من أن أي غارات جوية على «نجد» سيترتب عليها آثار خطيرة من استثارة غضب «الإخوان»، الذين كانوا غاضبين أصلاً نتيجة إقامة تحصينات على الحدود من جانب العراق.

لم يلق إنذار الملك آذاناً صاغية. ففي بداية شعبان سنة ١٣٤٦ (نهاية شهر يناير ١٩٢٨م) ـ بعد ثلاثة أشهر من حادثة «البصية» ـ قام سرب طيران إنجليزي بقصف منطقة نجد، وأثار حالة من الفزع بين بدو قبائل «مطير» ولقي رجال ونساء وأطفال وحيوانات مصرعهم من دون تمييز. وقامت جماعات «الإخوان» في الشمال بإعداد حملة للانتقام من العراق؛ وكان «للملك عبد العزيز» فضل كبير في إثنائهم عن القيام بأي أعمال انتقامية، فلم تقع إلا مناوشات بسيطة على الحدود.

* * *

استُدعي «فيصل الدويش» للقدوم إلى الرياض، إلا أنه رفض الحضور، وعلّل ما فعله بأنه كان لمصلحة الملك، وضاعفت أسباب شخصية أخرى من إحساسه بالاستياء. فقد رأى أنه خدم الملك بتفانٍ وإخلاص، ومع ذلك لم يعين إلا أميراً على «الأرطاوية» ـ التي كانت على الرغم من عدد سكانها الكبير، لا تعدو أن تكون قرية كبيرة ـ وأن قيادته للقوات أدّت دوراً حاسماً في الاستيلاء على مدينة «حائل» ـ وعيَّن الملك الأمير «ابن مساعد»، وهو ابن عم الملك أميراً عليها. وفي حملة «الحجاز» قام بفرض حصار على المدينة شهوراً طويلة حتى استسلم من فيها، ولم يعينه الملك أميراً عليها، كان تطلعه إلى السلطة سبباً في عدم هدوئه أو استقراره، فقال لنفسه:

«الملك عبد العزيز» ينتمي إلى قبيلة «عنزة»[1] وأنا أنتمي إلى قبيلة «مطير». ونحن متساويان في عراقة الأصل. فلماذا أعترف أنا بعلو «الملك عبد العزيز» وزعامته؟ مثل ذلك التفكير كان لعنة في تاريخ العرب: فلم يكن أي منهم يعترف أن غيره من الممكن أن يكون أفضل منه.

نسي زعماء «الإخوان» واحداً بعد آخر فضل «الملك عبد العزيز» عليهم، ومن بين أولئك الزعماء «سلطان بن بجاد» شيخ قبيلة «عتيبة» القوية وأمير «الغطغط» التي كانت من أقوى مراكز «الإخوان» في «نجد»: كان «سلطان» قد انتصر على قوات «الشريف حسين» في موقعة «تربة» سنة ١٣٣٧ (١٩١٩م)، وغزا الطائف ومكّة المكرّمة سنة ١٣٤٣ (١٩٢٥م)، فلماذا يرضى أن يكون أميراً فقط على «الغطغط»؟ لماذا لم يعينه الملك أميراً على مكّة المكرّمة؟ أو لماذا لم يعينه على الأقل، أميراً على الطائف؟

---

١ـ الصحيح أن الملك عبد العزيز ينتسب إلى قبيلة بني حنيفة التي تسكن العارض في الوادي المسمى باسمها.

كان مثل «فيصل الدويش»، يرى أنه منقوص الحقوق، وكان صهراً لـ«الدويش»، فتبنيا موقفاً موحداً ضد «الملك عبد العزيز».

في خريف سنة ١٣٤٦ (١٩٢٨م) دعا «الملك عبد العزيز» لعقد اجتماع لزعماء القبائل وعلماء الدين في الرياض لفض تلك النزاعات، حضره كل زعماء القبائل تقريباً باستثناء «ابن بجاد» و«الدويش». وإمعاناً في ذلك روَّجا بعض الإشاعات عن «الملك عبد العزيز»؛ لأنه عقد اتفاقيات مع الكفار ـ الإنجليز ـ وأدخل إلى أرض العرب آلات شيطانية مثل السيارات والهاتف، وأجهزة البرق والطائرات! وأعلن العلماء المجتمعون في الرياض بالإجماع أن مثل تلك المخترعات لا يسمح الدين بها فقط، بل يحث على طلبها؛ لأنها تزيد من قوة المسلمين ومعرفتهم ؛ وأن النبي ﷺ في صدر الإسلام كانت لديه صلاحية عقد المعاهدات مع غير المسلمين، إذا كانت تلك الاتفاقيات والمعاهدات توفر الأمن والسلام والحرية للمسلمين.

استمر المتمردون في ادعاءاتهم، ووجدوا آذاناً صاغية من بعض البسطاء من «الإخوان»، ممن كانوا محدودي الوعي والإدراك بدرجة لا تمكنهم من الحكم على سياسات «الملك عبد العزيز»، لذلك كان من السهل إقناعهم أنها تتم بتأثير من الشيطان. أصبحت براري «نجد» مثل خلية نحل، مبعوثون غامضون ينتقلون على جمال سريعة من مكان إلى آخر، ومن قبيلة إلى أخرى، واجتماعات سرية لزعماء قبائل تعقد عند آبار بعيدة غير مأهولة. وأخيراً، انفجر تمرد قبائل «مطير» و«عتيبة» وبعض القبائل الأخرى التي انضمت إليهم.

كان الملك صبوراً، وحاول أن يكون متفهماً. فأرسل الرسل إلى زعماء قبائل المتمردين، ودعاهم إلى التفاهم الودي العاقل؛ ولكن بلا طائل، وأصبح شمال الجزيرة العربية ووسطها مسرحاً لأعمال السلب والنهب، وانعدم الأمن الذي كان يسود «نجد»، وحلت محله الفوضى، واجتاحت عصابات «الإخوان» جميع أنحاء «نجد» من الاتجاهات كلها، يهاجمون القرى والقوافل والقبائل التي ظلت على ولائها للملك.

وبعد صدامات محلية كثيرة بين المتمردين والقبائل الموالية للملك، خاضت قوات الملك معركة حاسمة في سهول «السبلة»، في قلب «نجد»، في ربيع سنة ١٣٤٧ (١٩٢٩م)، وكان الملك على رأس قوة كبيرة؛ لقتال قبائل «مطير» و«عتيبة» وبعض القبائل المتحالفة معهما، وانتصر الملك في تلك المعركة. استسلم «ابن بجاد» بلا شروط، وعادوا به إلى الرياض مكبلاً بالأغلال. أما «الدويش» فقد أصيب بجروح خطيرة، وقيل: إنه على شفا الموت. وأرسل الملك عبد العزيز، الأرق قلباً من بين الزعماء العرب كلهم، طبيبه الخاص ليشرف على علاج الدويش - وشخّص ذلك الطبيب، وهو طبيب سوري شاب، أن إصابة الدويش إصابة خطيرة في الكبد، ولن تمهل «الدويش» أكثر من أسبوع؛ وعلى ذلك قرر الملك: «سندعه يموت في هدوء، لقد نال جزاءه من الله» وأمر أن يرسل عدوه المصاب إلى أهله في الأرطاوية.

إلا أن «الدويش» كان أبعد ما يكون عن الموت، لم تكن إصابته بتلك الخطورة التي ظنها الطبيب الشاب؛ وشفي تماماً خلال أسابيع وهرب من «الأرطاوية»، وهو مصمم أكثر من أي وقت مضى على الانتقام.

* * *

كان هروب «الدويش» سبباً في إحياء دوافع المتمردين، وأشيع أنه موجود بنفسه في مكان قريب من حدود الكويت لجمع قبائل جديدة من حوله، بالإضافة إلى قوة قبائل «مطير» التي لم تتأثر بشدة بعد الهزيمة السابقة.

وكان أول من انضم إليه قبيلة «العجمان»، وهي قبيلة صغيرة إلا أنها اشتهرت ببأس رجالها في الحروب، وتعيش في منطقة «الأحساء» على الخليج العربي؛ كان شيخهم ابن «حثلين» خالاً لـ «فيصل الدويش»، وعدا ذلك، لم يكن الود موصولاً بين «الملك عبد العزيز» وشيخ العجمان. فمن أعوام سابقة قاموا بقتل شقيق الملك الصغير، «سعد»، وخوفاً من انتقام الملك، هاجروا إلى الكويت، ثم عفا عنهم «الملك عبد العزيز» بعد ذلك، وسمح لهم بالعودة إلى أرض آبائهم، إلا أن البغضاء ظلت حية في القلوب، ثم اشتعلت على هيئة عداوة بعد أن اغتيل زعيم العجمان وبعض

أتباعه في معسكر أحد أقارب «الملك عبد العزيز»، وهو الابن الأكبر لأمير الأحساء، في أثناء التفاوض للتوصل إلى تسوية.

وكان تحالف قبائل «مطير» وقبيلة العجمان بمنزلة الشرارة التي اندلعت بين قبائل «عتيبة» في قلب «نجد» فأحيت تمردها من جديد، وتجمعوا تحت زعامة زعيم آخر بعد القبض على «بجاد» في المعركة السابقة، وأعلنوا تمردهم وعصيانهم، وأجبروا الملك على تحويل قواته من شمال «نجد» إلى وسطها. كان القتال مريراً، ولكن مع الوقت كانت كفة «الملك عبد العزيز» ترجح، فقد راح يحقق الانتصارات على قبائل «عتيبة»، قبيلة بعد أخرى، حتى عرضوا الاستسلام. وفي قرية تقع بين الرياض ومكة المكرّمة، أعلن زعيمهم الاستسلام، وأعلن ولاءه للملك - ومرة أخرى عفا الملك عنهم، آملاً في التفرغ لـ «الدويش» وباقي المتمردين في الشمال. وبمجرد عودة الملك إلى الرياض تراجعت قبائل «عتيبة» عن ولائها للمرة الثانية، وجددوا أعمالهم العدوانية، وأصبح الملك يخوض حرباً ضد عتيبة للمرة الثالثة لإنهاء تمردهم إلى الأبد. وللمرة الثالثة هُزمت «عتيبة» وتشتت شملهم، ودمر قواعد «الإخوان» في «الغطغط» تدميراً كاملاً، وكانت «الغطغط» أكبر من الرياض، واستقرت سلطة الملك من جديد على وسط «نجد».

استمرت الحروب في الشمال، وكان «فيصل الدويش» وحلفاؤه قد عززوا مواقعهم بالقرب من الحدود، وقام «ابن مساعد» أمير «حائل» بمهاجمتهم مرة بعد أخرى بالنيابة عن الملك. ومرتين تم الإعلان على الملأ أن «الدويش» قد قتل؛ وكان يثبت بعدها أنها شائعة، وهكذا عاش عنيداً صعب المراس. فقد سقط ابنه الأكبر وسبعمئة من مقاتليه صرعى الحرب؛ إلا أنه لم يتخل عن القتال، وطرح السؤال نفسه: من أين يتلقى «الدويش» الدعم المالي الذي لا غنى عنه للاستمرار في الحرب كل ذلك الوقت؟ ومن أين يحصل على أسلحته وذخيرته؟

كانت هناك تقارير غامضة وغير محددة، تفيد أن المتمردين الذين انتقدوا «الملك عبد العزيز» «بمرارة» لعقده معاهدة مع «الكفار»، يتعاملون مع البريطانيين ويتحالفون معهم ضد «الملك عبد العزيز». وكانت هناك شائعات مضمونها أن

«الدويش» يذهب كثيراً إلى الكويت: فهل يقوم بذلك فعلاً؟ ومن دون معرفة السلطات البريطانية؟ ألا يمكن أن تكون الاضطرابات المثارة في مملكة «الملك عبد العزيز» تخدم مصالحهم وأغراضهم أَجَلَّ خدمة؟

* * *

كنت في الرياض ذات مساء من صيف سنة ١٣٤٧ (١٩٢٩م)، أويت إلى فراشي مبكراً، وقبل أن أستغرق في النوم، رحت أتصفح كتاباً قديماً عن القبائل العمانية وأصولها، ووجدت «زيداً» يحضر إلى غرفتي فجأة قائلاً:
«هناك رسول من الشيوخ، يريدك أن تذهب إلى القصر».

ارتديت ملابسي على عجل، وتوجهت إلى القلعة، كان «الملك عبد العزيز» ينتظرني في جناحه الخاص، متربعاً على ديوان وأكوام من الصحف العربية من حوله، وإحدى صحف القاهرة بين يديه، رد على تحيتي بإيجاز من دون أن يقطع قراءته، وأشار إليّ أن أجلس إلى جانبه. بعد فترة رفع بصره، ونظر إلى الخادم الذي كان يقف بباب الغرفة، وأشار له بيده ليتركنا بمفردنا، وبمجرد أن أغلق الخادم الباب، وضع الملك الصحيفة جانباً وراح ينظر إليّ هنيهة من خلف زجاج نظارته اللامع، كما لو كان لم يرني منذ فترة طويلة (مع أنني قضيت معه بضع ساعات في الصباح). سألني: «أمشغول بالكتابة؟». قلت: «كلا يا طويل العمر، لم أكتب حرفاً من بضعة أسابيع».

قال: «كانت مقالات مثيرة تلك التي كتبتها عن مشكلاتنا الحدودية مع العراق»، كان يشير إلى بعض المقالات التي أرسلتها إلى جريدتي في أوروبا من شهرين؛ ونشرت مقالات منها في صحيفة بالقاهرة، وأعانت تلك المقالات على توضيح حقائق مهمة، ولأنني على دراية كبيرة بالملك، كنت أدرك أنه لا يتحدث عشوائياً، وأن لديه شيئاً محدداً يهدف إليه، ولذلك ظللت صامتاً، منتظراً أن يكمل حديثه، فقال:

«ربما تود أن تكتب المزيد عما يحدث في «نجد» - عن ذلك التمرد وما وراءه». كان

هناك بعض الانفعال الطفيف في صوته وهو يكمل: عائلة الشريف «حسين» تكرهني، وأبناء «الحسين» الذين يحكمون بغداد وشرق الأردن سيظلون على كراهيتهم لي، فهم لن ينسوا أبداً أنني انتزعت الحجاز منهم، يودون أن تنهار مملكتي حتى يتمكنوا من العودة إليها... أما أصدقاؤهم، الذين يتظاهرون أنهم أصدقائي أيضاً، فقد لا يحبون أيضاً أن تبقى مملكتي مستقرة... إنهم لم يبنوا تلك الحصون بلا سبب، يريدون إشعال حرب، ويدفعونني بعيداً عن الحدود الشمالية...».
كنت أتخيل صوراً شبحية من خلف كلمات «الملك عبد العزيز» - مد خطوط سكك حديدية، على الرغم من أنها مازالت مخططات، إلا أنها قد تصبح واقعاً في الغد؛ وهو مشروع بريطانيا لمد خط سكة حديدية بين حيفا والبصرة. كانت الشائعات عن تلك الخطة معروفة منذ سنين. كان البريطانيون يخططون لتأمين «الطريق البري إلى الهند»؛ وكان ذلك سبباً في فرض وصايتهم على فلسطين وشرق الأردن والعراق. لم يكن مد خط سكة حديدية من البحر الأبيض المتوسط إلى الخليج العربي مجرد إضافة جديدة لخطوط الإمبراطورية، بل كان يوفر حماية كبيرة لخط أنابيب النفط الذي سيمتد من العراق عبر الصحراء السورية حتى مدينة حيفا. ومن جهة أخرى، كان خط حيفا - البصرة لابد أن يمر بولايات «الملك عبد العزين» الشمالية، ولم يكن الملك ليقبل أبداً ذلك الاقتراح البريطاني. ألا يمكن أن يكون بناء تلك الحصون على خط الحدود الفاصل بين العراق ونجد والذي يخرق الاتفاقيات المبرمة، المرحلة الأولى من مخطط دقيق لإحداث اضطرابات في تلك المنطقة المهمة «لتسويغ» إقامة منطقة عازلة شبه مستقلة، وتكون أكثر ميلاً إلى البريطانيين؟ من الممكن أن يحقق لهم فيصل «الدويش» مثل ذلك الهدف، مثله مثل عائلة الشريف، هذا إن لم يكن أفضل منهم في تحقيق مآرب بريطانيا. لقد كان من أهل «نجد» المراد فصل شمالها، وله أتباع أقوياء بين الإخوان، وكان ادعاؤه الديني مجرد ستار يدركه بسهولة من يعرف ماضيه؛ كل ما يريده «الدويش» السلطة وحدها، لم يكن هناك شك، أنه لو حارب من دون مساعدة جهات مجهولة، لم يكن ليصمد أمام «الملك عبد العزين»، ولكن هل كان بمفرده فعلاً؟

أكمل الملك حديثه بعد هنيهة صمت: «لقد كنت أفكر، كما يفكر الجميع، في موضوع إمدادات السلاح والذخيرة المتوافرة باستمرار للدويش، بالإضافة إلى الكثير من

المال المتوافر لديه، جاءتني تقارير بذلك، وقد كنت أسأل، هل كنت تود أن تكتب عن هذه الأمور ـ أقصد تلك المصادر الغامضة التي تمد الدويش بالسلاح والمال، لدي شكوكي الشخصية حول تلك المصادر؛ وربما ما هو أكثر من شكوك، إلا أنني أفضّل أن تكتشف بنفسك ما تود اكتشافه، فقد أكون على خطأ».

هذا هو الأمر إذاً، مع أن الملك كان يتكلم بطريقة عرضية، وبنغمة الحوار المعتاد، إلا أنه من الواضح أنه كان يزن كل كلمة قبل أن يقولها. نظرت إليه بتركيز، وإذا ابتسامة تعلو وجهه بعدما كان في منتهى الجدية منذ لحظة، وضع كفه على ركبتي وهزها قائلاً: «أريدك يا بني أن تعرف بنفسك، من أين حصل الدويش على السلاح والذخيرة والمال الذي يبذله في سخاء وبلا حساب. لا يوجد لدي شك عن الجهة التي تموله، ولكني أحب أن يخبر واحد مثلك غير متورط في النزاع، العالم بالحقيقة الخافية وراء تمرد الدويش.. أظن أنك تقدر على التوصل إلى تلك الحقيقة».

كان «الملك عبد العزيز» يعي تمام الوعي ما يفعله. فهو يعلم على الدوام أنني أحبه. وعلى الرغم من أنني لم أتفق مع سياساته، كما لم أخف أبداً عدم موافقتي تلك، إلا أنه لم يحجب أبداً ثقته بي، وغالباً ما كان يسألني الرأي، وأعتقد أن ذلك يرجع إلى يقينه بأنني لا أنتظر أي مكسب شخصي، وأنني لن أقبل وظيفة بحكومته إذا ما عرضها عليّ، فقد كنت أفضل أن أبقى حراً. وهكذا، في تلك الليلة التاريخية من صيف ١٣٤٧ (١٩٢٩م)، اقترح عليّ بهدوء أن أنطلق لاكتشاف سر الخديعة السياسية الكامنة خلف تمرد «الإخوان»؛ وهي مهمة تنطوي على مخاطرة شخصية، وتتطلب بذل جهود كبيرة.

كان «الشيوخ» يعلمون أنني لن أخذله، ففضلاً عن حبي لشخصه ولبلده، فإن المهمة التي أوكلها إليّ تبدو واعدة وحافلة بكثير من المغامرات المثيرة، ما عدا ما يمكن أن أحققه من «سبق صحفي». قلت له:
«على عيني ورأسي أمرك يا طويل العمر، سأفعل بالتأكيد ما بوسعي».

قال: «لا يوجد لدي شك في ذلك يا محمد؛ وأتوقع أن تحتفظ بأمر هذه المهمة سراً. فقد تنطوي على مخاطر، وماذا عن زوجتك؟».

كانت الزوجة فتاة من الرياض تزوجتها في العام السابق. ولكني طمأنت الملك فيما يخصها قائلاً: «إنها لن تبكي يا إمام، اليوم فقط كنت أفكر في طلاقها، يبدو أننا لا يناسب بعضنا بعضاً».
سألني: «وماذا عن باقي ناسك، أقربائك وأهلك؟».

قلت: «لا يوجد من سيعلن الحداد علي، إن حدث لي مكروه، باستثناء «زيد»، ولكنه سيصحبني على أي حال، وما يقع لي سيقع له بكل تأكيد».

قال: خير إن شاء اللّه، قبل أن أنسى: ستحتاج إلى بعض المال لتلك المهمة» - ودفع يده تحت وسادة خلفه، وأخرج كيساً وضعه في كفي؛ من وزن الكيس خمنت على الفور أنها عملات ذهبية. فكرت بيني وبين نفسي: «كم كان على يقين، حتى قبل أن يحدثني، أنني سأوافق»...

* * *

عندما عدت إلى بيتي، ناديت «زيداً» الذي كان مستيقظاً بانتظار عودتي، سألته: «لو طلبت منك يازيد أن تصحبني في مهمة تنطوي على مخاطر هل تفعل؟».

أجاب زيد: «هل تظن يا عمي أنني أدعك تذهب وحدك، مهما كانت المخاطر؟ ولكن إلى أين سنذهب؟».
قلت له: «سنذهب لاكتشاف من أين يحصل الدويش على أسلحته، وأمواله. والملك يصر ألا يعلم أحد بهذه المهمة حتى نتمها، لذلك يجب أن نحتاط».

لم يهتم «زيد» بتأكيد احتفاظه بالسر، ودخل مباشرة إلى الجوانب العملية وسألني: «لا يمكن بالطبع أن نسأل الدويش أو رجاله؛ فكيف سنعرف ذلك؟»
كان ذهني يقلب الأمر في طريق عودتي من القصر، بدا لي أن أفضل بداية يجب

أن تكون من إحدى المدن وسط نجد، حيث يوجد الكثير من التجار الذين لهم علاقات تجارية بكل من العراق والكويت. وأخيراً، استقر رأيي على مدينة «شقراء»، حاضرة منطقة الوشم، وهي على مسير ثلاثة أيام من الرياض، وهناك أيضاً يمكن أن يساعدني صديقي عبد الرحمن السبيعي.

شهد اليوم التالي إعدادنا لبدء تلك المهمة، ولتجنب لفت الأنظار، حذرت «زيداً» من أخذ أي شيء من مخازن الملك، كما كنا نفعل قبل أي ارتحال، وأن يشتري كل ما نحتاج إليه من ا لسوق، وعند حلول المساء، كان «زيد» قد اشترى كل ما نحتاج إليه من مواد غذائية: عشرين رطلاً من الأرز، وعشرين رطلاً من الدقيق، عكة سمن، تمر، بن، وملح، كما اشترى أيضاً قربتين جديدتين للماء، ودلواً من الجلد، وحبلاً طويلاً مجدولاً من شعر الماعز يكفي لإدلائه في أعمق الآبار، وأعددنا أنفسنا بالأسلحة الملائمة وذخيرة كافية. ووضعنا في الأخراج غيارين من الملابس لكل منا؛ وارتدى كل منا عباءة ثقيلة لنستعين بها مع الأغطية لاتقاء برد الليل في الصحراء. كانت نوقنا في أحسن حال بعد أن قضت أسابيع في الرعي والراحة؛ وكانت الناقة التي وهبتها لزيد من أجود نوق السباق العماني - بينما كانت ناقتي «شمالية» النسب، فقد كانت ملكاً لأمير من آل رشيد على مدينة حائل، وأهداها لي الملك عبد العزيز.

خرجنا من الرياض بعد حلول الليل، وعند الفجر وصلنا وادي حنيفة، وهو مجرى مائي قديم وجاف يقع بين سفوح التلال - وكان موقعاً لمعركة حاسمة جرت أحداثها منذ ثلاثة عشر قرناً بين قوات المسلمين في عهد أبي بكر رضي الله عنه، خليفة الرسول ﷺ وأول خليفة إسلامي، وقوات مسيلمة الكذاب الذي عادى المسلمين سنوات طويلة. كانت تلك المعركة هي الانتصار النهائي للمسلمين في قلب الجزيرة العربية، وسقط فيها كثير من صحابة الرسول ﷺ شهداء، ومازالت قبورهم واضحة إلى اليوم في المنحدرات الصخرية للوادي.

مررنا على أطلال مدينة «العيينة»، قبل منتصف النهار، وكانت ذات يوم مدينة تزدهر بعدد كبير من سكانها، وتمتد بطول وادي حنيفة. بين صفوف أشجار

الطرفاء كانت هناك بقايا ذلك الماضي: جدران منازل متداعية، وأعمدة مسجد ذات صدوع، بقايا منازل كانت تشي بالفخامة هنا وهناك، كلها تنم على مستوى رفيع من الفن المعماري موازنة بالمنازل الطينية البسيطة التي نراها اليوم في نجد. ويقال: إنه حتى مئتي عام مضت، كان كل وادي حنيفة من «الدرعية» (وهي العاصمة القديمة لعائلة آل سعود) حتى العيينة - وهي مسافة تربو على خمسة عشر ميلاً - كانت كلها مدينة واحدة؛ حتى إنه حين ولد ابن لأمير «الدرعية»، نقلت النساء نبأ ولادته عبر أسطح المنازل، في دقائق قليلة حتى نهاية «العيينة». أما قصة هجر سكان مدينة «العيينة» لها، فهي قصة غامضة مملوءة بالأساطير التي يصعب تمييز الصحيح منها. المحتمل أنها هُجرت في أثناء حكم أول أمير سعودي عندما رفض أن ينضم تحت لواء المصلح محمد بن عبد الوهاب؛ وأما القصة التي يحكيها الوهابيون فتذهب إلى أن ما حدث للمدينة كان غضباً من اللّه، فقد نضبت آبار العيينة لها في ليلة واحدة، مما أجبر سكانها على هجرها.

طالعتنا من بعيد في ظهر اليوم الثالث أبراج حصن مدينة «شقراء» التي كنا نقصدها، وظهرت قمم النخيل عالية فوق المنازل. مضينا بين بساتين النخيل في شوارع خالية، تذكرنا أن اليوم جمعة، وأن أهل المدينة الآن في المسجد لأداء صلاة الجمعة. من آنٍ إلى آخر كنا نرى إحدى النساء بعباءة سوداء تغطيها من رأسها حتى قدميها، تندهش لوهلة لوجود غرباء، ثم تسحب نقابها فوق وجهها بسرعة وخجل وارتباك. أطفال يلعبون ويلهون في أماكن متفرقة من ظلال المنازل؛ وحرارة شديدة تجثم بوطأتها حتى هامات النخيل.

توجهنا مباشرة إلى منزل صديقي عبد الرحمن السبيعي، وكان في ذلك الوقت مسؤول بيت المال للولاية. ترجلنا أمام الباب المفتوح لمنزله، ونادى «زيد» من الفناء: «ياولد»، وعندما ظهر الخادم من داخل البيت مسرعاً، قال زيد: «لديكم ضيوف».

بينما كان «زيد» مشغولاً بحط الأحمال عن الجمال بمساعدة الخادم في فناءالبيت، تصرفت كأنني في بيتي، وأشعل خادم آخر النيران تحت إبريق القهوة. وبمجرد أن

ارتشفت أول رشفة ارتفعت أصوات من الفناء - أصوات أسئلة وإجابات: لقد عاد صاحب المنزل. من فوق درج السلم، وقبل أن أراه كان صوته يرتفع مرحباً، ثم أطلَّ من الباب وذراعاه مفتوحتان في ترحيب: «كان رجلاً رقيقاً قصير القامة واللحية، له عينان ودودتان في وجه بشوش. على الرغم من حرارة الجو كان يرتدي معطفاً طويلاً من الفرو تحت العباءة. كان ذلك المعطف أحد أهم مقتنياته، لا يكل أبداً من إعلام من لم يعلم تاريخ ذلك المعطف الذي كان ذات يوم من ممتلكات ملك الحجاز السابق، الشريف حسين، وقد كان من نصيب عبد الرحمن عندما شارك في دخول مكّة المكرّمة سنة ١٣٤٣ (١٩٢٤م)، ولا أذكر أنني رأيته من دون ذلك المعطف قط. احتضنني بحرارة، وشب على أطراف أصابعه ليتمكن من تقبيلي على الخدين، وترحيبه بنا لا ينقطع: «أهلاً وسهلاً ومرحباً، أهلاً بك في بيتي المتواضع يا أخي، مباركة الساعة التي ساقتك إلى هنا».

تلا الترحيب الأسئلة التقليدية: من أين، وإلى أين، وحال الملك، والأمطار، وإن كنت سمعت أي أخبار عن سقوط أمطار، كان من المعتاد تبادل كل الأخبار العربية مشافهة. قلت له: إن «عنيزة» في قلب «نجد» هي مقصدي، لم يكن ذلك دقيقاً تماماً إلا أنه لا يبعد كثيراً عن الحقيقة.

كان عبد الرحمن في أعوام سابقة، يعمل بالتجارة بين «نجد» والعراق، وكان معروفاً لتجار البصرة والكويت. ولم يكن من الصعب دفعه إلى الحديث عن تلك الأماكن وعن الذين قدموا مؤخراً منها (خمنت أن وجود فيصل «الدويش» بالقرب من الكويت، يعني أن الكويت أو البصرة مصدر إمداداته) عرفت من عبد الرحمن أن أحد أبناء عائلة البسام المشهورة في عنيزة - وهو أحد معارفي القدامى - قد مر بالكويت وهو عائد من البصرة، وأنه تجنب المرور بأماكن المتمردين تجنباً للمخاطر، لذلك عاد عن طريق البحرين إلى نجد، وهو في «شقراء» في الوقت الحالي، وأنه سيرسل في طلبه لو أردت لقاءه: وطبقاً لعادة عربية متأصلة كان الواصل حديثاً إلى مكان، يزار ولا يزور، بعد فترة قصيرة، كان عبد الله البسام قد انضم إلينا في مجلس القهوة في بيت عبد الرحمن.

لم يكن عبد اللّه على الرغم من انتمائه إلى أكبر عائلة تجارية في نجد، ميسور الحال. كانت حياته مملوءة بأيام رخاء وأيام عسر - والعسر أغلب - لم تقتصر خبرته في الحياة على منطقة نجد، بل شملت القاهرة، وبغداد، والبصرة، والكويت، والبحرين وبومباي. يعرف كل من له شأن في تلك البلاد ولديه معلومات عن كل ما يجري في البلاد العربية، أخبرته أن إحدى الشركات الألمانية كلفتني بالبحث عن وكيل مناسب لتصدر إليه معدات زراعية في البصرة أو الكويت، ولأن الشركة تعرض عليّ عمولة كبيرة، فأنا مهتم بالتوصل إلى أنسب التجار في المدينتين لتنفيذ ذلك العرض. ذكر البسام عدة أسماء، ثم أضاف:

«أنا متأكد من أن تجار الكويت سيهتمون بالمشروع، إنهم دائماً يستوردون سلعاً من الخارج، ومن الواضح أن التجارة منتعشة جداً هذه الأيام، حتى إن إرساليات كثيرة من الريالات الفضية الجديدة تصل كل يوم مباشرة من دار سكّ العملة في «تريست»».

أصابني ذكره للريالات الفضية الجديدة بهزة داخلية. فهذا النوع من الريالات الجديدة، مع ريالات «ماريا تريزا» الذهبية، يشكلان معاً، بالإضافة إلى العملات العربية الأخرى، العملات الرئيسة في الجزيرة العربية. لقد سكت تلك الريالات في مدينة «تريست» وبيعت بقيمة ما تحتويه من فضة، عدا عمولة بسيطة، تسك لمختلف الحكومات وللتجار الذين لهم تجارة كبيرة مع البلاد، ولا يقبلون إلا عملات فضية وذهبية، فلم يكن البدو يقبلون التعامل بالعملات الورقية، كانت العملة المفضلة ريالات «ماريا تريزا» الذهبية، والواضح أن استيراد كميات كبيرة من تلك العملات من قِبل تجار كويتيين، يدل على أن تعاملات كبيرة تتم الآن بينهم وبين البدو.

سألت البسام: «لماذا يستورد التجار الكويتيون ريالات جديدة الآن بالذات؟» رد وفي لهجته شيء من الحيرة: «لا أدري، إنهم يتحدثون عن شراء لحوم الإبل من البدو بالقرب من الكويت لبيعها إلى العراق وأسعارها مرتفعة هذه الأيام؛ على الرغم من أنني لا أدري كيف يتوقعون أن يجدوا جمالاً الآن في الصحراء قرب الكويت مع تلك

الاضطرابات الواقعة.. هذا ما يحيرني». ثم أضاف ضاحكاً: «أعتقد أن شراء جمال للركوب من العراق وبيعها للدويش ورجاله أكثر ربحاً لهم، ولكن الدويش بالطبع ليس لديه المال لدفع ثمنها».

هل هذا صحيح حقاً؟
سحبت «زيد» إلى جانب الغرفة في تلك الليلة قبل أن آوي إلى فراشي في الغرفة التي خصصها مضيفنا لنا، وقلت له: «سنذهب إلى الكويت».

قال: «لن يكون الأمر سهلاً يا عمي»، إلا أن بريق عينيه كان أكثر صراحة من قوله، فقد وشت عيناه لا بحبه فقط للمواقف الصعبة، بل بإقباله على الخطير منها. كان من العبث أن نسافر إلى الكويت عبر الأراضي التي يسيطر عليها رجال الملك، لأنه سيتبقى بعدها مئة ميل تفصلنا عن حدود الكويت، وتسيطر عليها قبائل «مطير»، وقبيلة العجمان. كان من الممكن السفر إلى الكويت بالبحر عن طريق البحرين، إلا أن ذلك يتطلب تصريحاً من السلطات البريطانية، وبذلك نعرض كل تحركاتنا للرصد والمتابعة. من الصعب سفرنا عن طريق الجوف ثم عبر الصحراء السورية ثم العراقية حتى الكويت؛ لأننا سنمر على مئات نقاط التفتيش والتحري بسورية والعراق. لم يتبق إلا الطريق البري المباشر إلى الكويت الذي يمر خلال المناطق المعادية، فكيف نخترق تلك المئة ميل، وندخل إلى الكويت من دون أن يكتشف أحد أمرنا؟ كان من الصعب التوصل إلى إجابة، ولذلك تركت إجابة السؤال للمستقبل، واضعاً ثقتي في حظي الحسن والفرص الملائمة التي لا أعرفها الآن.

أراد عبد الرحمن السبيعي أن يستبقيني في ضيافته بضعة أيام، ادعيت له أن أمامي أعمالاً تجارية مهمة. تركنا نغادر في الصباح، بعد أن أضاف إلى مخزوننا من المؤن كمية من لحم الجمال المجفف[1] ـ وكانت إضافة شهية إلى طعامنا المحصور في أصناف بسيطة، وأصر أن أزوره في طريق العودة، ولم أجد ما أجيب به إلا: «إن شاء الله».

* * *

١ـ المعروف بالقديد.

من شقراء ارتحلنا على مدى أربعة أيام باتجاه الشمال الشرقي من دون أن يقابلنا أحد. مرة واحدة استوقفتنا قوات موالية للملك من بدو العوازم التي تكوّن جانباً من قوات الأمير ابن مساعد؛ ولكن الخطاب المفتوح من الملك جعلهم يعاملوننا أفضل معاملة، وواصلنا طريقنا بعد إجراءات الضيافة المعتادة.
وصلنا قبل فجر اليوم الخامس إلى منطقة لا تمتد إليها سلطات الملك عبد العزيز، من الآن أصبح من المحال الارتحال نهاراً، وأماننا أصبح في السير ليلاً وخلسة.

حططنا رحالنا في ممر مناسب لا يبعد كثيراً عن طريق وادي الرمة، وهو مجرى مائي جاف قديم كان يجري من شمال الجزيرة حتى الخليج العربي وهو مملوء بأشجار الطرفاء والأعشاب، وهذا ما كان يوفر لنا غطاءً ملائماً للاختفاء بينها في أثناء النهار. عقلنا ناقتينا جيداً، وأطعمناهما جريش الشعير ونوى التمر - حتى لا نطلقهما للرعي - واسترخينا في انتظار حلول الظلام. لم نجرؤ على إشعال نار حتى لا يكشف دخانها موضعنا، واكتفينا بوجبة من التمر والماء. تبين لنا أن حرصنا كان ذا فائدة عظيمة في ذلك اليوم، عندما تناهى إلى سمعنا صوت بدو يهتفون، أمسكنا بأفواه الجمال حتى لا تزوم أو تقرقر، وضغطنا أنفسنا إلى جدار الممر الصخري وبنادقنا جاهزة في أيدينا. علا صوت الغناء مقترباً؛ ميزنا منه كلمات: لا إله إلا الله، لا إله إلا اللّه، وهو الهتاف الذي أحله «الإخوان» محل أناشيد وأغاني الارتحال. لم يكن هناك أدنى شك أنهم من قوات الإخوان، وفي هذه المنطقة لا يمكن إلا أن يكونوا من «الإخوان» المتشددين. بعد فترة ظهروا على حافة رابية، تعلو قليلاً حافة الممر، كانوا جماعة مكونة من ثمانية أو عشرة راكبين يتقدمون ببطء في صف واحد، أشكالهم محددة بوضوح. كان كل منهم يضع غطاء أبيض على رأسه فوق كوفية مخططة باللونين الأبيض والأحمر، وعلى صدورهم حزامان عريضان يتقاطعان فوق الصدر، ومع كل منهم بندقية معلقة على رحل الجمل من خلفهم. موكب كئيب يتأرجح إلى الأمام والخلف، على إيقاع خطو الجمال، وعلى وقع إنشاد اسم الجلالة العظيم الذي يساء استعماله: لا إله إلا اللّه... كان مشهداً يوحي بالقوة إلا أنه في الوقت نفسه محبطاً ومحزناً. كانوا رجالاً يعني الإيمان لديهم أشياء أكبر من الحياة، اعتقدوا أنهم يحاربون من أجل الدين الخالص لإعلاء كلمة اللّه، لا يعلمون أن حماسهم قد أسيء استخدامه لتحقيق تطلعات قائدهم الذي يسعى إلى تحقيق السلطة والنفوذ....

كانوا من الناحية البعيدة من الممر التي لا تكشفنا، لو كانوا بالجهة الأخرى لرأونا بمنتهى الوضوح، كما نراهم الآن من بين الأعشاب. وعندما اختفوا عن أنظارنا والإنشاد الديني مازال على شفاههم، تنفسنا الصعداء في ارتياح. همس زيد: «إنهم مثل الجن». أجبته: «نعم، هم مثل الجن الذي لا يعرف المرح في الحياة، ولا خوف الموت... شجعان وأقوياء، لا ينكر أحد ذلك ـ ولكن أحلامهم كلها تدور حول الدم والموت والجنة...».
بدأ «زيد» يغني أغنية حب سورية: راداً على الإنشاد الديني الإخواني المتجهم، «أيتها العذراء ذات البشرة الخمرية...» وبمجرد أن ساد الظلام، بدأنا السير في الخفاء باتجاه الكويت البعيدة النائمة.

* * *

تعجب «زيد» مندهشاً: «انظر هناك يا عمي، هناك نار». كانت ناراً صغيرة لبدوي حط رحاله؛ قد يكون راعياً بمفرده؟ ولكن أي راع هذا الذي يجرؤ على إشعال النار هنا إلا إذا كان من المتمردين؟ من الأفضل اكتشاف الأمر، لو كان رجلاً بمفرده لأمكن التغلب عليه بسهولة، والاستفادة مما لديه من معلومات قيمة عن تحركات «الإخوان» وأماكن وجودهم في تلك المنطقة.

كانت منطقة رملية، ولم يصدر عن خطوات الجمال أي صوت حين كنا نقترب بحذر من النار، على ضوء النار ميزنا شكل بدوي بمفرده يجلس القرفصاء. كان يبدو كأنه يحدّق باتجاهنا في الظلام، ثم حين تأكد له أن هناك قادمين، نهض بلا تعجل، مربعاً ذراعاه على صدره ليظهر لنا أنه غير مسلح، وانتظر بهدوء من دون أي حركة تشي بخوف.

صاح «زيد» بحدة: «من أنت؟»، وصوب بندقيته باتجاه البدوي ذي الملابس البالية.

ابتسم البدوي ببطء ورد بصوت عميق رنان: «أنا صلبي....»
اتضح الآن سبب هدوئه، فهو ينتمي إلى قبيلة غريبة تشبه الغجر (على الأصح

مجموعة قبائل) لم تكن أبداً طرفاً في أي حرب من الحروب التي لا تنقطع بين بدو الجزيرة العربية؛ لم يعادوا أحداً، فلم يهاجمهم أحد قط.

والصلبة يلقون تقديراً من بدو الصحراء لكونهم بيطريين مهرة في مداواة الحيوانات المريضة، وفي صناعة الرِّحال والسروج، وأعمال الحدادة والمعادن، وعلى الرغم من أن البدو يحتقرون الصناعات اليدوية، حتى إنهم لا يمارسونها، إلا أنهم لايستغنون عنها، ولذلك يملأ الصلبة ذلك الفراغ، وهم عدا ذلك رعاة ممتازون، وفوق كل شيء، صيادون مهرة لا يضارعون. وقدرتهم على اقتفاء الأثر أسطورية، ولا يضاهيهم في ذلك إلا بدو «بني مرّة» على حافة الربع الخالي الشمالية [١].

أحسست بالارتياح عندما وجدت أن الرجل صلبي، قلت له صراحة: إننا من رجال «الملك عبد العزيز» ـ لم يشكل ذلك خطراً على ضوء معرفتي أن الصلبة يكنون احتراماً شديداً للسلطة، وأمرته أن يطفئ ناره، ففعل، ثم جلسنا على الأرض وخضنا في حوار طويل.

لم يخبرنا في الكثير عن أماكن قوات الدويش، لأنهم كما قال: «في حركة دائبة، مثل الجن، ولا يمكثون في مكان واحد فترة طويلة»، طمأنني على الأقل بأنه لا توجد في الوقت الحالي تجمعات كبيرة للإخوان على مقربة منا، على الرغم من وجود جماعات صغيرة تعبر الصحراء باستمرار خلال كل الاتجاهات. فجأة، واتتني فكرة، ألا يمكننا الاستفادة من خبرات الصلبي ليقودنا إلى الكويت؟

سألته: «هل ذهبت قبل ذلك إلى الكويت؟»

ضحك الصلبي قائلاً: «مرات كثيرة، لقد بعت هناك جلود غزلان، وسمناً وصوف جمال، عدا ذلك، عدت منها من عشرة أيام فقط».
قلت: «إذاً يمكنك أن تقودنا إلى الكويت؟ ـ أقصد أن تسير بنا في طرق لا يسلكها الإخوان؟»

---

١ـ للمؤلف آراء حول هذه الفئة الاجتماعية لا تتفق والواقع، ولهذا صرفنا النظر عن ترجمتها.

لحظات راح الصلبي يفكر، ثم أجاب بعد فترة بتردد: «ذلك ممكن، ولكنه خطر كبير عليّ، إذا قبضوا عليّ بصحبتكم، ممكن، على الرغم من، لكن... قد يكلفك ذلك كثيراً».

سألته: «كم؟».

قال: «حسناً...»، تبينت ارتجافة الطمع في صوته - «حسناً ياسيدي، إذا أعطيتني مئة ريال قد أستطيع أن أقودك آمناً إلى الكويت بطريقة لا يراك بها أحد إلا طيور السماء». كانت المئة ريال تساوي عشرة جنيهات ذهبية[1]، وهو مبلغ بسيط في مهمة كمهمتنا؛ وربما لم يمسك الصلبي في حياته مبلغاً بمثل تلك القيمة.

قلت له: «موافق، سأعطيك مئة ريال - عشرين الآن والباقي بعد وصولنا إلى الكويت».

لم يتوقع دليلنا المنتظر أن يجاب طلبه على الفور، وربما أحس بالندم لأنه لم يطلب ثمناً أغلى، لأنه، بعد أن فكر قليلاً، أضاف: «ولكن، ماذا عن الناقة؟ إذا قدتكم إلى الكويت ثم عدت، ستكون ناقتي المسكينة قد هلكت تماماً، وليس لدي غيرها..

لم أرغب في إطالة المفاوضات، أجبته على الفور: «سأشتري ناقتك، وستركبها أنت حتى الكويت، وهناك سأهبها لك هدية - ولكنك ستقودنا في العودة أيضاً».

كان ذلك أكثر مما يتمنى ويشتهي - نهض في خفة وابتهاج، واختفى في الظلام، ثم ظهر بعد دقائق، يسحب ناقة عجوزاً إلا أنها بدت قوية بعد بعض المحاجاة والمساومات استقر السعر عند مئة وخمسين ريالاً للناقة، يتقاضى منها خمسين الآن، ويتقاضى باقي ثمنها مع باقي المكافأة في الكويت.

---

١- كانت المئة ريال تساوي أيضاً خمسين جنيهاً إسترلينياً حسب أسعار ذلك الوقت.

أخرج «زيد» كيس النقود من أحد أخراج ناقته، وبدأ في عد قطع العملات في حجر الصلبي. من طيات ملابسه أخرج قطعة قماش كان يصرّ فيها نقوده؛ وبينما كان يضيف ريالاتي إلى ما معه، لفت نظري بريق قطع العملة الجديدة التي كانت معه. أمرته قائلاً وأنا أضع كفي على يده: «توقف، دعني أر تلك العملات الجديدة التي معك».

في حركة مترددة، كما لو كان يخشى أن نسرق ماله، وضع الصلبي قطع العملة في كفي، كانت حوافها حادة مثل العملات المسكوكة حديثاً، ولم تنعم حوافها بعد بسبب قلّة التداول، أشعلت عود ثقاب وفحصتها بعناية، كانت بالفعل ريالات «ماريا تيريزا»، جديدة كأنها قد خرجت الآن من دار سك العملة، ووجدت خمس قطع أو ستاً أخرى بالحداثة نفسها.

سألته: «من أين حصلت على هذه الريالات؟».

أجاب في حماس: «لقد كسبتها بشرف، أقسم لك ياسيدي.. لم أسرق هذه النقود. أعطاهما لي مطيري من أسابيع بالقرب من الكويت، لقد اشترى مني رحل جمل لأن رحله كان باليا...».

سألته: «مطيري؟ هل أنت متأكد؟».

أجاب: «متأكد ياسيدي، ليقتلني اللّه إن كنت كاذباً.. كان من رجال الدويش، واحداً من المتمردين الذين يقاتلون أمير حائل مؤخراً، هل ارتكبت جرماً إذا أخذت منه مالاً مقابل الرحل؟ لم أكن أقدر أن أرفض البيع، وأنا متأكد من أن الشيوخ، أطال اللّه عمرهم، سيتفهمون ذلك...». طمأنته أن الملك لن يغضب عليه، فهدأ فزعه. واستجوبته من جديد، وعلمت أن أفراداً آخرين من الصلبة تلقوا ريالات جديدة من أتباع «الدويش» مقابل سلع وخدمات....

أثبت الصلبي أنه دليل لا يضارع. على مدى ثلاث ليال قادنا في مسارات التفافية

خلال المناطق التي يسيطر عليها المتمردون، قادنا عبر مناطق مقفرة حتى إن «زيداً» الذي يعرف تلك المنطقة جيداً، لم يرها من قبل. قضينا أوقات النهار متخفين بلا حركة. ذات مرة قادنا إلى حفرة ماء، لا يعرفها حتى بدو المنطقة كما أخبرنا؛ روت مياهها البنية الراكدة ظمأ نوقنا كما أعدنا ملء قربنا. رأينا مرتين فقط بعض جماعات «الإخوان» عن بعد، إلا أنهم لم يرونا.

بدت في الأفق مدينة الكويت بعد ظهر الصباح الرابع، لم نحاول دخولها من جهة الجنوب الغربي الذي قدمنا منه كما يفعل القادمون من نجد، ودخلناها من الغرب على طريق القادم من البصرة، حتى يعتقد من يرانا أننا تجار قادمون من العراق.

ذهبنا لدى دخولنا مدينة الكويت إلى مجمع سكني ملك لتجار من معارف «زيد» منذ أن كان في قوات «عقيل» العراقية، واسترحنا من عناء السفر كأننا كنا في بيوتنا.
كانت الحرارة المشبعة بالرطوبة تخيم في شوارع الكويت الرملية وفي البيوت المشيدة من قوالب الطين الجاف؛ ولاعتيادي على السهوب المفتوحة في نجد، وجدت نفسي غارقاً في العرق. إلا أنه لم يكن هناك وقت نضيعه في الراحة. تركنا الصلبي يحرس الجمال مع تعليمات مشددة ألا يخبر أي أحد بالجهة التي أتينا منها، وتوجهت وزيداً إلى السوق لنقوم بتحرياتنا الأولية.

لم أكن على دراية بالكويت ولم أرد أن أشغل زيداً بوجودي معه، جلست في مقهى مدة ساعة، أحتسي القهوة وأدخن النارجيلة، حتى عاد زيد، كان من الواضح من علامات الانتصار البادية على وجهه أنه توصل إلى معلومات مهمة. بادرني قائلاً: «هيا نتحدث في الخارج يا عمي، من السهل أن نتحدث في السوق حتى لا يسمعنا أحد، لقد عدت إليك بشيء مهم». ومن تحت عباءته أخرج عقالين وكوفيتين عراقيتين من الصوف البني السميك. أردف زيد: «هذه تجعلنا عراقيين» تأكد «زيد» باستفساراته الخفية أن أحد زملائه القدامى، وهو رفيق منذ أيام التهريب عبر الخليج - يعيش الآن بالكويت، ومازال يعمل بالتهريب. قال: «لو بحثنا عمن يخبرنا بأدق أسرار تجارة السلاح في الكويت فلن «نجد» أفضل من بندر. إنه شمّري مثلي، وأحد أولئك الحمقى العنيدين الذين لايمكن أن يرضوا

بالخضوع لحكم الملك عبد العزيز. ويجب ألا نخبره أننا نعمل مع الشيوخ، ومن الأفضل أن نخبره من أين أتينا؛ لأن بندراً ليس غبياً، إنه ذكي جداً، لقد خدعني كثيراً فيما مضى، ويجب ألاّ أثق به مرة أخرى».

سألنا عنه حتى وصلنا إلى منزله في حارة ضيقة مجاورة للسوق. كان طويلاً نحيلاً في الأربعين من عمره، عيناه نصف مغلقتين، تعلو وجهه ملامح من يعاني عسر هضم؛ إلا أن ملامحه اكتست بسعادة حقيقية عندما رأى زيداً، وبسبب لون بشرتي الأبيض قدمني «زيد» إليه على أني تاجر تركي مستقر في بغداد، وأعمل في تصدير الخيول من البصرة إلى بومباي.

أضاف زيد: «لم تعد تجارة الخيول مربحة هذه الأيام، وخصوصاً بعد أن حصر تجار عنيزة وبريدة هذه التجارة فيما بينهم».
أجاب بندر: «هذا صحيح، لم يكتف أولئك الجنوبيون التابعون للملك عبد العزيز آل سعود بالاستيلاء على بلدنا؛ ويسعون الآن للاستيلاء على أرزاقنا أيضاً...».

سأله زيد: «وماذا عن تجارة البنادق يابندر، لابد أنها تجارة رائجة هنا، مع وجود عدد من المطران والعجمان خارجين على طاعة « الملك عبد العزيز آل سعود » - هه؟».

أجاب بندر: «كان هناك عمل كثير»، وهز كتفيه مردفاً: حتى أشهر مضت كنت أكسب الكثير من المال بشراء البنادق من شرق الأردن، ثم أبيعها لرجال الدويش. ولكن، كل ذلك انتهى الآن، انتهى تماماً. لا تستطيع أن تبيع بندقية واحدة الآن».

سأله زيد: «كيف ذلك؟ «الدويش» يحتاج الآن إلى بنادق أكثر من أي وقت مضى».

أجاب بندر: «هذا صحيح، بالفعل يحتاج، إلا أنه يحصل عليها بثمن لا نستطيع لا أنا ولا أنت أن نوفره له... إنه يحصل عليها في صناديق قادمة من عبر البحار - بنادق إنجليزية - جديدة تقريباً - مقابل عشرة ريالات للبندقية مع مئتي طلقة رصاص».

سأل «زيد» في دهشة: «تبارك اللّه، عشرة ريالات للبندقية ومعها مئتا طلقة، ولكن هذا مستحيل...!».

بدا الأمر مستحيلاً بالفعل، فقد كانت البندقية في ذلك الوقت من طراز «لي - إنفيلد» بثلاثين إلى خمسة وثلاثين ريالاً، من دون طلقات؛ ولو وضعنا في الحسبان أن الثمن في الكويت قد يكون أقل من نجد، فإن فارق السعر الكبير يستعصي على الفهم.
ابتسم بندر في استياء وقال: «يبدو أن «الدويش» لديه أصدقاء أقوياء.. أقوياء جداً.. بعض الناس يقولون: إنه سيصبح ذات يوم أميراً مستقلاً في شمال نجد».

قلت: «ما قلته يابندر جيد وجميل، والدويش سيستقل فعلاً عن الملك عبد العزيز، إلا أنه لا يملك مالاً، ومن دون المال لم يكن للإسكندر ذاته بناء مملكة».
انفجر بندر ضاحكاً: «المال؟ الدويش لديه الكثير من المال - ريالات جديدة، تأتيه في صناديق، مثلما تأتي البنادق في صناديق من عبر البحار».

سألت: «صناديق ريالات؟ هذا غريب جداً، من أين يحصل بدوي على صناديق ريالات جديدة؟».

أجاب بندر: «لا أعلم من أين، إلا أنني متأكد أن بعض رجاله يتسلمون يومياً كميات من الريالات الجديدة تصلهم من مختلف تجار المدينة. لماذا؟ بالأمس فقط رأيت فرحان بن مشهور في الميناء يشرف على إنزال تلك الصناديق من أحد المراكب».

كانت هذه الأنباء - وأنا أعرف فرحان جيداً، كان الابن الأكبر لشقيق ذلك الأمير السوري البدوي نوري الشعلان، الذي حارب ذات مرة إلى جوار لورانس ضد القوات التركية. قابلت فرحان أول مرة في دمشق سنة ١٣٤٢ (١٩٢٤م)، وكان سيّئ السمعة لوجوده الدائم في أماكن الترفيه المشبوهة. بعد فترة، طرد هو وعمه من دمشق مع بعض أبناء قبيلته، وهي قبيلة «الرولة»، وذهبوا إلى «نجد» وتحول

فرحان فجأة إلى «تقي» و«ورع»، وانضم إلى حركة الإخوان. قابلته بعد ذلك مرة ثانية في مدينة حائل، وكان في ذلك الوقت يضع على رأسه عمامة بيضاء كبيرة دلالة على إيمانه وتقواه، وهي العمامة التي يضعها الإخوان، وكان ينعم بكرم الملك قبل تمرد الإخوان؛ وعندما ذكرته ونحن في حائل بلقائنا السابق في دمشق، غيّر الموضوع بسرعة، وتجاهل سؤالي. كان أحمق ومتطلعاً كما كان من قبل، ورأى في تمرد الدويش فرصة مواتية لكي يستقل بإمارة الجوف، وهي واحات تقع إلى شمال صحراء النفود الكبرى ـ في الجزيرة العربية كما في أي مكان آخر، كان المتمردون يتبعون العادة السيئة نفسها في تقسيم جلد الأسد قبل اصطياده.

سألت بندراً: «أي أن فرحان هنا بالكويت الآن؟».

أجاب: «نعم، إنه يحضر إلى الكويت كثيراً، مثله مثل الدويش، ويدخل ويخرج كما يشاء من قصر شيخ الكويت، يقولون: إن هناك وداً كبيراً بينه وبين الشيخ».

سألته: «ولكن ألا يعترض البريطانيون على دخول الدويش وفرحان إلى الكويت؟ لقد أعلنوا من أشهر أنهم لن يسمحوا للدويش وأعوانه بدخول الكويت».

ضحك بندر من جديد: «فعلاً قالوا ذلك، ولكني أخبرتك: للدويش أصدقاء أقوياء.. لا أعرف هل كان هنا بالكويت الآن أم لا؛ ولكن فرحان موجود هنا الآن. فهو يذهب كل مساء إلى الجامع الكبير لصلاة المغرب ـ تستطيع أن تراه بعينيك إن كنت لا تصدقني».
وبالفعل رأيناه.

عملنا بما أشار به بندر، توجهنا أنا وزيد قبيل المساء إلى الجامع الكبير، انحشرنا وسط جماعة من البدو، ومن الواضح أنهم من بدو «نجد»، وكانوا متوجهين إلى الجامع، كان في مقدمتهم رجل في الثلاثينيات من عمره، وكان أقصر قليلاً من

البدو المحيطين به ومن يتبعونه، كان بهي الطلعة، وتزين وجهه لحية قصيرة. تعرفت إليه في الحال. ولا أدرى إلى اليوم هل كان قد تعرف إليّ أم لا؛ فقد التقت عيوننا لحظة، ومسحتني نظرته بسرعة وأثر المفاجأة بادٍ على وجهه، كأنه يحاول أن يستدعي من ذاكرته صورة باهتة لأحداث قديمة، ثم استدار مبتعداً؛ وبعد لحظة اختفى هو وأتباعه بين الجموع المتجهة إلى المسجد الجامع.

قررنا ألا تطول إقامتنا السرية في الكويت بلا سبب، غير انتظار أن نرى الدويش أيضاً.

وأكدت صحة المعلومات التي حصلنا عليها من بندر، معلومات أخرى جمعها «زيد» من معارفه بمدينة الكويت.. اتضح أن الإمدادات الغامضة للدويش من بنادق «لي - إنفيلد» والتي يموه أمرها على أنها «مشتراة» - تشير بوضوح إلى الوسطاء من تجار الكويت المشهورين بتجارة السلاح؛ وكذلك الأموال الكثيرة من ريالات «ماريا تيريزا» التي يتم تداولها مؤخراً في أسواق الكويت من الممكن أن نقتفي أثرها وصولاً إلى فيصل الدويش ورجاله؛ ولأنه لن يتاح لنا التوصل إلى أرصدته المالية ولا التوصل إلى أي مستندات، إلا أنه أصبح لدينا براهين على صحة شكوك الملك التي أخبرني بها.

أتممت مهمتي؛ وفي الليلة التالية، اتخذنا طريقنا خلسة إلى خارج الكويت كما أتينا. وفي أثناء تحرياتنا بالسوق، علم الصلبي أنه لا توجد الآن قوات للمتمردين جنوب الكويت، واتجهنا جنوباً إلى إمارة الأحساء، التي كانت تحت سيطرة الملك الكاملة، وبعد ليلتين من السير السريع، قابلنا بالقرب من الساحل فصيلة من بدو بني هاجر الذين أرسلهم أمير الأحساء لاستطلاع آخر مواقع للمتمردين؛ ودخلنا بصحبتهم إلى نطاق الأراضي الخاضعة لسلطة الملك. وبمجرد أن أصبحنا آمنين في مملكة الملك عبد العزيز آل سعود، افترقنا عن دليلنا الصلبي الذي تلقى مكافأته برضا وسعادة، واتجه بعيداً باتجاه الغرب على ناقة «أهديتها» إليه، بينما واصلنا طريقنا إلى الرياض.

* * *

أثبتت سلسلة المقالات التي كتبتها أن المتمردين مدعومون من قوة أوروبية عظمى، وأشرت في تلك المقالات إلى أن الهدف الأساسي لتلك المؤامرة هو دفع حدود مملكة «الملك عبد العزيز آل سعود» إلى الجنوب، لفصل المنطقة الشمالية وتحويلها إلى إمارة «مستقلة» تفصل بين السعودية والعراق، مما يمكّن البريطانيين من مد خط سكك حديدية عبر تلك الولاية المستقلة يصل بين البصرة وحيفا. وعدا ذلك، كان تمرد الدويش يوفر أسباب وجود اضطرابات مستمرة تنهك مملكة «الملك عبد العزيز آل سعود»، وتجعله في وضع لا يسمح له برفض الطلبات البريطانية، كما فعل قبل ذلك، عندما رفض منح البريطانيين ميزات خاصة؛ أولها استئجار ميناء رابغ الواقع شمال جدة لإقامة قاعدة بحرية، والثاني: السيطرة على خط سكة حديد دمشق ـ المدينة المنورة؛ الذي يمتد على الأراضي السعودية. وكانت هزيمة «الملك عبد العزيز» تحقق للبريطانيين الهدفين معاً.

أثارت المقالات ردود أفعال واسعة في أوروبا وفي العالم العربي (خصوصاً من خلال الصحف المصرية)؛ وربما كان الكشف المبكر لأبعاد ذلك المخطط سبباً في إجهاضه، على أي حال طوى النسيان خط سكة حديد حيفا ـ البصرة على الرغم من المبالغ الطائلة التي صرفت على الدراسات الأولية، ولم يسمع شيء عن ذلك المخطط بعد ذلك أبداً.

ما حدث بعد ذلك أصبح وقائع تاريخية: في صيف سنة ١٣٤٧ (١٩٢٩م) احتج «الملك عبد العزيز» على سماح البريطانيين للدويش بحرية شراء الأسلحة والذخيرة من الكويت. ولأنه لم يكن يملك دليلاً موثقاً على أن قوة أجنبية هي التي تبيع السلاح للدويش، فقد كان احتجاجه منصباً على السماح له بشراء أسلحة. ردت السلطات البريطانية على ذلك بأن تجار الكويت هم من يبيعون السلاح للمتمردين، وأنها ليست لها سلطة عليهم ولا تستطيع أن توقف ذلك بعد أن وقعوا اتفاقية جدة سنة ١٣٤٥ (١٩٢٧م)، والتي تقضي برفع الحظر عن مبيعات السلاح إلى الجزيرة العربية. وإذا أراد «الملك عبد العزيز» ـ كما جاء بردهم ـ أن يشتري سلاحاً من تجار الكويت فليفعل...

وعندما اعترض «الملك عبد العزيز» محتجاً بأن الاتفاقية ذاتها تقضي أن يمنع الطرفان أي أنشطة في أرض كل منهما تهدد سلامة الطرف الآخر وأمنه، تلقى رداً بأن الكويت لا تعد «أرضاً بريطانية» ولا تقع تحت الحماية البريطانية، إذ إن الكويت «مشيخة» مستقلة ولا تربط بريطانيا بها إلا علاقات تعاهدية.. وهكذا استمر التمرد، في أواخر خريف ١٣٤٧ (١٩٢٩م)، تولى «الملك عبد العزيز» بنفسه قيادة المعارك، وصمم هذه المرة على مطاردة «الدويش» حتى الكويت لو اضطر إلى ذلك، وإذا ظلت تلك الحدود مفتوحة للدويش، كما كانت مفتوحة له على الدوام - قاعدة ينطلق منها، ومفتوحة للمتمردين كمهاجرين. وأمام ذلك الموقف الصلب من «الملك عبد العزيز» الذي أصر في الوقت نفسه على استمرار الاتصال بالسلطات البريطانية، تأكدت السلطات البريطانية أنه من الخطر الاستمرار في تلك المؤامرة، وأرسلت السلطات البريطانية طائرات وعربات مصفحة لمنع «الدويش» من التقهقر إلى الكويت. ووجد «الدويش» أنه خسر قضيته؛لأنه لن يتمكن من الصمود أمام الملك في معركة مفتوحة؛ فبدأ في التفاوض. كانت شروط الملك محددة وواضحة: أن تستسلم القبائل المتمردة؛ وأن يسلموا سلاحهم وخيلهم وجمالهم؛ وأنه سيبقي على حياة الدويش، وأن يقيم في الرياض ولا يغادرها.

كان الدويش يتسم بالنشاط والحيوية والحركة الدائبة، ووجد أنه لا يستطيع ولن يحتمل أن يظل حبيس الرياض ومقيد الحرية. فرفض الشروط وقاتل حتى آخر خندق ضد قوات الملك الأقوى كثيراً من قوته، وتم سحق المتمردين، وهرب الدويش وبعض قادة التمرد إلى العراق، وكان منهم فرحان بن مشهور ونايف بن حثلين، زعيم العجمان.

وطلب «الملك عبد العزيز» من السلطات العراقية طرد الدويش من بلادهم. ولبعض الوقت بدا أن الملك فيصلاً، ملك العراق، سيرفض طلب «الملك عبد العزيز» محتجاً بالتقاليد العربية العريقة التي تقضي بإيواء اللاجئ واستضافته؛ إلا أنه خضع. وفي بداية سنة ١٣٤٨ (١٩٣٠م) تم تسليم «الدويش» الذي كان مريضاً جداً إلى قوات الملك وأرسل إلى الرياض.. وبعد

بضعة أسابيع اتضح أنه مريض فعلاً هذه المرة، فأمر «الملك عبد العزيز» بكرمه المعهود بإعادته إلى أهله في الأرطاوية، وفيها، وصلت حياته العاصفة إلى نهايتها.

ومن جديد، ساد السلام في أرجاء مملكة الملك عبد العزيز آل سعود.

* * *

عاد السلام من جديد ليحل حول آبار «عرجا»، صاح البدوي المطيري العجوز، بينما كان رجاله يعاونوننا على سقي جمالنا «أطال اللّه أعماركم، شاركونا في الخير». كان من الواضح أن الأحقاد والضغائن والعداوات التي كانت سائدة في الماضي القريب قد نسيت ومحيت تماماً، كأنها لم تقع قط.

والبدو لهم طبائع غريبة: فهم سريعو الاشتعال والغضب في نوبات لا سيطرة عليها حتى بالتخيل، كما أنهم سريعو الهدوء ويعودون بسهولة إلى إيقاع الحياة الهادىء العادي فيغلب عليهم التواضع والطيبة: دائماً الجنة والجحيم متلازمتان. سحبوا الماء لنوقنا بالدلاء الكبيرة، وأنشد رعاة مطير معاً:
ارتووا لا تتركوا ماءً
البئر مملوءة بالخير ولا قاع لها.

(٣)

وصلنا إلى سهل المدينة المنورة في الليلة الخامسة من مغادرتنا حائل أنا، وزيد، ومنصور، ورأينا هيئة جبل أحُد المعتمة. كانت الجمال تتحرك بخطى متهالكة منهكة؛ فقد قطعنا مسافة كبيرة من الصباح الباكر حتى وقت متأخر من تلك الليلة. كنا صامتين، وعلى ضوء القمر ظهرت مشارف المدينة المنورة، بجدران المنازل ذات الشرفات، ومئذنة مسجد الرسول ﷺ.

وصلنا إلى البوابة الشمالية التي يطلق عليها البدو اسم بوابة الشام. أجفلت الجمال لما رأت هيئة الأبراج الدفاعية فوق البوابة، واستعملنا عصينا لإجبارها على المرور من تحتها.

أصبحنا الآن من جديد في مدينة الرسول ﷺ، عدت إلى بيتي بعد تجوال طويل في الصحاري: أصبحت المدينة المنورة بيتي من أعوام طويلة، يسود شوارعها هدوء عميق. ومن آن إلى آخر ينهض كلب في تكاسل حتى لا تطأه أقدام الجمال. رجل يسير بمحاذاتنا يغني؛ تأرجح صوته في نغمة رقيقة حتى تلاشى في حارة جانبية دخلها، فوق رؤوسنا تتعلق شرفات ونوافذ سوداء ناتئة وصامتة، والجو الذي يغمره ضوء القمر الدافيء مثل الحليب الطازج...

وصلت بيتي.

تركنا «منصوراً» قاصداً بعض أصدقائه في المدينة المنورة، أنخنا أنا وزيد راحلتينا أمام باب البيت. وعقلهما «زيد» وهو صامت، وبدأ في إنزال الأخراج من فوق ظهورهما. دققت الباب، بعد لحظات سمعت وقع أقدام وأصواتاً من الداخل، سطع ضوء المصباح من شُرَّاعة الباب، سحبت مزاليج من مواضعها، وصاحت خادمتي السودانية العجوز مندهشة في سعادة حين وقع بصرها عليّ:

«عاد سيدي»....

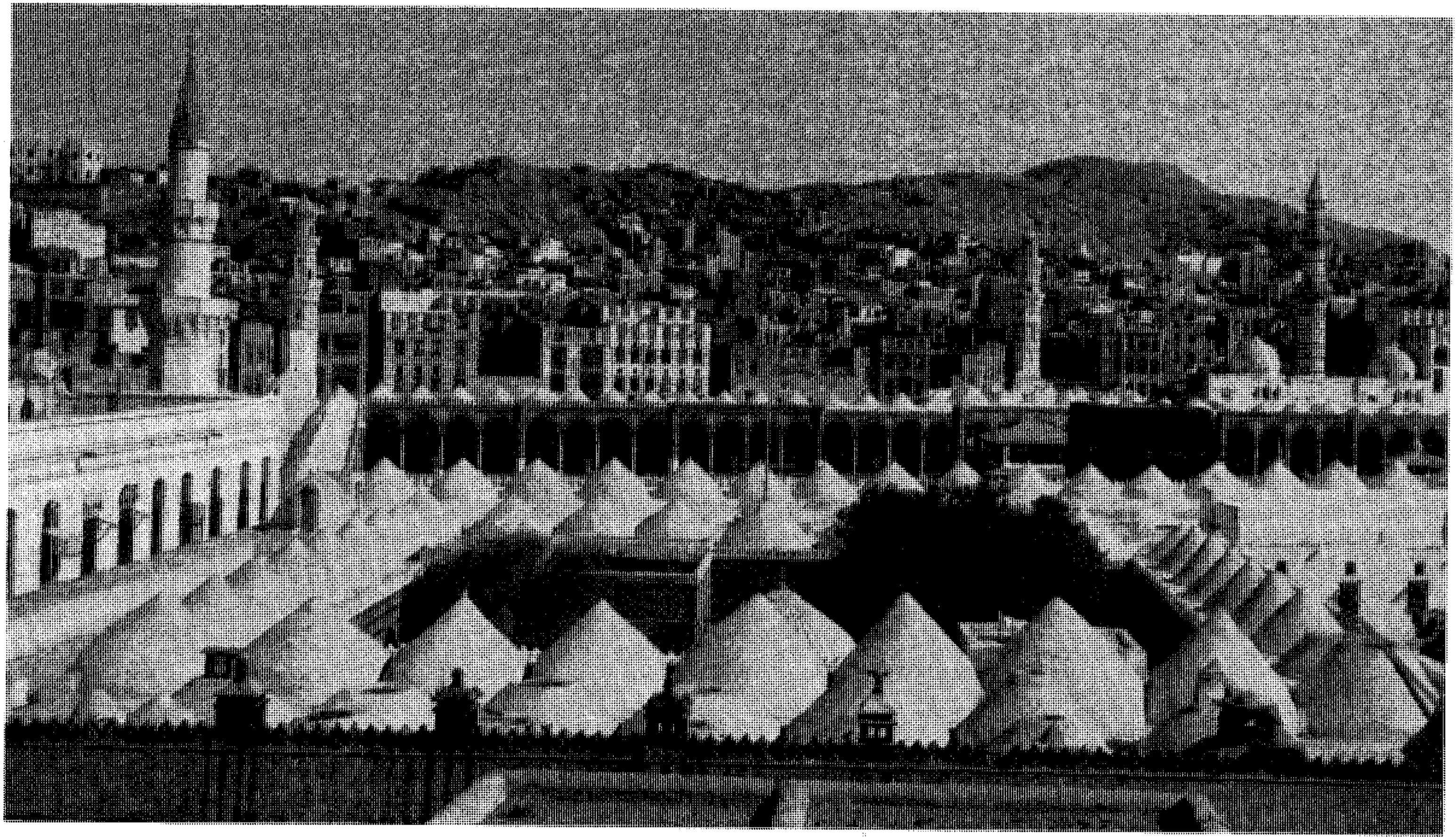

جانب من المسجد الحرام في مكّة المكرّمة ١٣٤٥ (١٩٢٧م)

# الفصل التاسع

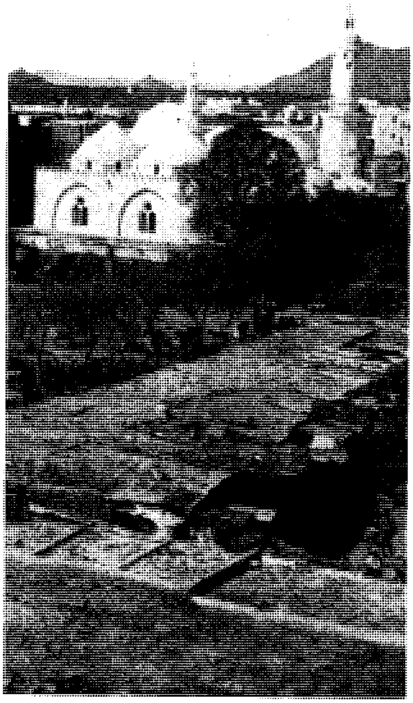

جانب من المدينة المنورة
١٣٤٥ (١٩٢٧م)

## رسالة فارسية

كان الوقت عصراً، وكنت جالساً
مع صديق في بستان نخيل
يقع بجوار البوابة الجنوبية للمدينة. نسجت
أعراش النخيل نسيجاً من مساحات
رمادية وخضراء في خلفية البستان،
مما جعله يبدو بلا نهاية.
كانت أشجار النخيل
صغيرة ومنخفضة؛ وأشعة الشمس تتراقص
على جذوعها وعلى الأقواس المدببة لعروشها.
كان يشوب لونها الأخضر أتربة
تهب في هذا الوقت من كل عام،
بينما كان البساط السميك من حشائش البرسيم
تحت النخيل ذا لون أخضر لامع لا تشوبه
شائبة.

(١)

تقف قريباً مني باتجاه الأمام أسوار المدينة، قديمة، رمادية، مشيدة من الأحجار والطوب (اللبن)، أبراجه تبرز إلى الخارج في مواضع متباينة منه. من خلف برج السور المواجه له بدت أشجار نخيل بستان آخر، ولكنه يقع داخل سور المدينة. نوافذ المنازل بنية اللون وشرفات تبرز هنا وهناك، بعضها شيد مرتكزاً على السور، وأصبح جزءاً منه. وعلى بعد، تبدو المآذن الخمس لمسجد الرسول ﷺ، عالية ورشيقة، وتبدو من بينها القبة العظيمة الخضراء التي تخفي وتغطي الحجرات الصغيرة لرسول الله ﷺ - الذي كان بيته في حياته ومدفنه بعد مماته - إلى أبعد من ذلك، خلف المدينة تبدو الصخور الجرداء لجبل أحُد: يبدو كستارة خلفية للمآذن البيضاء لمسجد الرسول ﷺ، وتيجان أعراش النخيل، وكثير من منازل المدينة المنورة.

بدت شمس العصر مبهرة الضياء، مثل زجاج صافٍ خلف سحب بيضاء متلألئة تسبح المدينة أجمعها في ضوء يراوح بين الأزرق والذهبي يتقاطع مع خضرة أعراش النخيل. رياح عالية تلهو بالسحب العالية، سحب، عادة تكون خادعة. لا يمكنك أن تحدد في المدينة بيقين: «السماء مملوءة بالسحب، لابد أن تمطر»: فحتى مع تكاثف السحب وثقلها كأنها حبلى بعاصفة قادمة، غالباً ما تأتي ريح مزمجرة معاكسة، وتفرق السحب، وتشتت جمعها؛ وتتحول أوجه من كانوا يتوقعون المطر في أسف صامت، يتمتمون: «لا حول ولا قوة إلا بالله»، بينما تتألق السماء مجدداً بزرقة صافية لا ترحم.

ودَّعت صاحبي، وسرت باتجاه بوابة المدينة. مر رجل بجواري يقود حمارين محملين بحشائش خضراء بينما امتطى ثالثاً، رفع يده محيياً وقال: «السلام عليكم»، رددت سلامه بالكلمات ذاتها. امرأة بدوية شابة قادمة في مواجهتي، رداؤها فضفاض طويل يلامس الأرض من خلفها ونصف وجهها الأسفل مغطى بلثام، عيناها متألقتان شديدتا السواد حتى إن إنسانَيْ عينَيْها وحدقتَيْها اندمجتا في لون واحد، مترددة الخطوة، بادية التوتر كعجماء البراري في عنفوان حيويته.

دخلت المدينة المنورة وعبرت ميدان المناخة الواسع الكبير إلى شوارع المدينة، تحت القوس الضخم للباب المصري، جلس صرافو العملات يرنّون بقطع العملات الفضية والذهبية، دخلت السوق الذي لا يزيد عرضه على اثنتي عشرة قدماً، إلا أنه يزدحم بمحلات تموج بالحيوية وتنبض بالحياة.

ينادي الباعة معلنين عن بضائعهم بأغانٍ جميلة، أغطية رؤوس، شيلان من الحرير، وأردية من صوف كشمير تجذب عيون المارة، علاّقات مدلاة عليها أشغال فضية تتزين بها نساء البدو، أساور، خلاخيل، عقود، أقراط.

يضع بائعو العطور صناديق ملأى بالحناء، وأكياساً صغيرة حمراء لتلوين الجفون، زجاجات مختلفة ألوانها من زيوت وعطور، أكواماً من توابل، تجار من نجد يبيعون ملابس بدوية ورحال جمال، رحالاً ملونة بالأحمر والأزرق من شرق الجزيرة. بائع جائل يدور جيئة و ذهاباً، ينادي بأعلى صوته معلناً عن سجّاد إيراني وعباءات من وبر الجمل يحملها على كتفه، بيده وعاء شاي نحاسي، فيضان من بشر في الاتجاهين، أناس من المدينة المنورة ومن أنحاء الجزيرة العربية ومن جميع البلاد، كان موسم الحج قد انتهى منذ زمن قصير، أناس من صحاري السنغال ومن قرغيزستان، من جزر الهند الشرقية والمحيط الأطلسي، من إستراخان ومن زنجبار، وعلى الرغم من كثرة الناس وضيق الطريق، لا يوجد تسرع أهوج، لا تدافع ولا تزاحم، في المدينة المنورة لا يركب الزمن أجنحة التعجل.

وعلى الرغم من التباين في أجناس البشر وألوانهم وأزيائهم، إلا أنه لا يثير العجب في شوارع المدينة المنورة، ولا يظهر التباين إلا للعين التي تحاول تحليل ما تراه. كل من يسكن المدينة المنورة، دائماً كان أم مؤقتاً، يتكيف بسرعة في مجتمع المزاج الواحد والسلوك الواحد، بل يتعدى ذلك إلى وحدة التعبير على الوجوه، جميعهم واقعون في حب الرسول الكريم، المدينة مدينته وهم ضيوف عليها.

لا زالت ذكراه حية بعد ثلاثة عشر قرناً، له وحده يعود فضل تحويل قرى متناثرة كانت تسمى يثرب إلى مدينة يحبها جميع المسلمين حتى اليوم، كما لم يحب أحداً مدينة مثلها في جميع أنحاء العالم. ليس لها اسم خاص بها، على مدى يزيد على ألف وثلاثمئة عام يطلق عليها المسلمون مدينة النبي ﷺ. وعلى مدى يزيد على ألف وثلاثمئة عام، يتجمع الحب هنا، حتى إن كل ألوان البشر وتعبيرات وجوههم وحركتهم تكتسب نوعاً من التماثل الأسري الواحد، كل اختلاف في الشكل والمظهر يدخل في تحول فرعي حتى يصبح تجانساً واحداً.

هذه هي السعادة التي يشعر بها المرء دوماً هنا، هذا التوحد المتجانس، وعلى الرغم من أن حياة المدينة المنورة اليوم بعيدة عما كان يهدف إليه الرسول ﷺ؛ وعلى الرغم من ضعف الوعي الروحي في أيامنا عن أيام الرسول ﷺ؛ هنا وفي جميع أرجاء العالم الإسلامي، إلا أن رباطاً معنوياً لا يمكن وصفه يتصل بذلك الماضي الروحي العظيم مازال حياً حتى الآن. لم تنل مدينة من الحب من أجل إنسان عاش بها، ولم يحدث أن مات إنسان من ألف وثلاثمئة عام، ونال مثل هذا الحب لذاته وشخصه، مثلما نال الرسول ﷺ الذي يرقد تحت القبة الخضراء الكبرى. لم يدع أبداً أنه أي شيء آخر عدا أنه من البشر الفانين، ولم ينسب إليه المسلمون أبداً أي قداسة غير بشرية أو ألوهية مثلما فعل أتباع أنبياء آخرون من قبله بعد موت أولئك الأنبياء. وأكد القرآن الكريم ذلك وشدّد عليه، وأكد بشرية محمد:

﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾﴾ (١).

لقد أكد القرآن الكريم في أكثر من موضع على بشرية محمد ﷺ، وأنه من خلق الله مثل جميع البشر:

﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٨﴾﴾ (٢).

---

١ـ سورة آل عمران: آية ١٤٤.

٢ـ سورة الأعراف: آية ١٨٨.

أكد القرآن الكريم، وأكد الرسول ﷺ أنه بشر مثلهم، وعاش كأي رجل، ينعم بالمسرات ويعاني المرض الذي يعانيه البشر، لذلك أحاطه من كانوا حوله ومن عاشوا معه بحبهم، وتجاوز ذلك الحب حياته، وامتد في قلوب أتباعه من المسلمين.

لقد عاش في المدينة المنورة، وينطق بحبه كل حجر من أحجارها العتيقة، وتستطيع أن تلمس ذلك الحب بيديك، إلا أنك لا تستطيع أن تعبر عنه بأي كلمات، مهما كانت بلاغتها.

(٢)

كنت أسير في السوق باتجاه مسجد الرسول ﷺ، حيَّاني كثير من معارفي القدامى عند مروري بهم، أومئ إلى هذا أو إلى ذاك من أصحاب المتاجر، استجبت لصديقي الزغيبي عندما جرني من يدي إلى متجره الصغير الذي يبيع فيه ملابس بدوية.

سألني: «متى عدت يا محمد، ومن أين أتيت؟ مرت أشهر مذ كنت هنا آخر مرة».

قلت له: «كنت في حائل والنفود».

سألني: «هل ستبقى هذه المرة بعض الوقت؟».

أجبته: «كلا يا أخي، سأسافر إلى مكّة المكرّمة إن شاء اللّه بعد غد».

نادى الزغيبي على صبي المقهى المقابل، في الحال كانت أقداح القهوة تصدر رنينها المألوف وهو يضعها أمامنا.

سألني الزغيبي: «ولكن لماذا تذهب يا محمد إلى مكّة المكرّمة الآن... وقد انتهى موسم الحج؟».

قلت: «ليست رغبة في الحج، لقد حججت خمس مرات، لدي شعور أنني لن أبقى طويلاً في الجزيرة العربية، وأرغب في رؤية أنحاء المدينة المنورة التي بدأت حياتي بها في هذه البلاد...»، ثم أضفت ضاحكاً: «حسناً يا أخي.. سأخبرك بالحقيقة، أنا لا أدري بدقة لماذا تسيطر عليّ فكرة الذهاب إلى مكّة المكرّمة؛ وأشعر أنه لابد لي أن أذهب..».

هز الزغيبي رأسه علامة على عدم الرضا: «تترك هذه البلاد وتغادر إخوتك؟ كيف واتتك القدرة على هذا القول؟».

مرت هيئة شخص مألوف لي وهو يمضي مسرعاً بخطوات حثيثة: كان زيد، وكان من الواضح أنه يبحث عن شخص ما، ناديته: «إلى أين يازيد؟».

التفت وعاد بوجه جاد قائلاً: «أنت من أبحث عنه يا عمي، وجدت كمّاً من الرسائل المرسلة إليك في مكتب البريد، وكانوا على وشك إرجاعها إلى مرسليها، ها هي ذي أحضرتها إليك، السلام عليك يا شيخ الزغيبي».

جلست متربعاً أمام متجر الزغيبي، تصفحت مغلفات الرسائل: عدة رسائل من أصدقاء في مكّة المكرّمة؛ ورسالة من رئيس تحرير جريدة «نيو زيورخ ذيتونج» السويسرية، التي أعمل مراسلاً لها، وخطاب من الهند، يطلبون مني الحضور للتعرف إلى أكبر مجتمع إسلامي في العالم؛ وبضع رسائل من دول مختلفة في الشرق الأوسط؛ ورسالة عليها خاتم بريد طهران.. كانت من صديقي علي آغا الإيراني، وكان لم يراسلني منذ عام مضى: فتحت رسالته وتطلعت إلى صفحاتها المملوءة بأسطر علي آغا بطريقة «الشيكسته»[1]، كتب علي آغا:

«إلى أحب أصدقائي، أخي، وضوء قلوبنا، المحترم جداً أسد آغا، أطال اللّه عمره وحمى خطاه، آمين.

---

١ـ نوع من الخطوط الفارسية تكتب به الموضوعات غير المهمة.

عليكم سلام اللّه ورحمته وبركاته دائماً وأبداً، نحن نصلي للّه أن يفيء عليكم بموفور الصحة والسعادة، ونعلم أنه يسعدكم أن تعرفوا أننا أيضاً في كامل الصحة، والحمد للّه.

لم نكتب إليكم منذ فترة طويلة بسبب عثرات الحياة التي صادفتنا في الأشهر الماضية، توفى اللّه والدي ـ رحمة اللّه عليه ـ منذ عام مضى، وأنا أكبر الأبناء، وانشغلت بعض الوقت بشؤون الأسرة بعد وفاة الوالد. وقضت مشيئة اللّه لعبده الذي لا يستحق فضله أن ينعم عليه بنعم لم يكن يتوقعها، فأنعمت عليّ الحكومة بفضل اللّه برتبة مقدم، كما نأمل أن يجمعني الزواج بفتاة جميلة وفاضلة، هي ابنة عمي الثانية شيرين، وبذلك تصل أيام عدم الاستقرار إلى نهايتها.

كما هو معلوم لقلبكم الصديق، لم نخل من ارتكاب معاصٍ وذنوب وأخطاء في ماضينا، ولكن ألم يقل الشاعر حافظ:

ياالله، يامن أوجدت ألواح الخشب في قلب لجة البحر

ألم يكن بمشيئتك أن تجعل البحر يابساً.

هكذا، سيستقر علي آغا في نهاية الأمر، ويصبح زوجاً محترماً. لم يكن محترماً عندما التقيته أول مرة، كان ذلك منذ أكثر من سبعة أعوام مضت، في مدينة «بام» التي «أُقصي» إليها.

وعلى الرغم من أنه كان في السادسة والعشرين من عمره في ذلك الوقت، إلا أن ماضيه كان حافلاً بالإثارة والحركة والنشاط، شارك في الاضطرابات السياسية التي سبقت وصول رضا خان إلى السلطة، كان يمكن له أن يؤدّي دوراً مهماً في طهران لو لم ينغمس في حياة اللهو والعبث، وكان وجوده في ذلك الوقت في مدينة «بام» النائية غير المؤثرة في الأحداث في جنوب إيران، بوازع من أبيه الذي كان واسع النفوذ، على أمل أن ينصلح حال ابنه إذا ابتعد

عن متع طهران ومسراتها وملذاتها. إلا أن علي آغا وجد في «بام» ما يعوضه مما افتقده في طهران، وجد النساء، والخمر، ومخدر الأفيون الذي كان يتعاطاه بكثرة.

في ذلك الوقت من سنة ١٣٤٣ (١٩٢٥م)، كان علي آغا قائد الحامية المحلية في مدينة «بام» برتبة ملازم. كنت حينها أستعدّ لعبور صحراء «داشيلوت»، وتوجهت إليه بخطاب توصية من حاكم ولاية «كرمان» - وكان بدوره قد تلقى خطاب توصية من رضا خان، رئيس الوزراء الديكتاتور.

كان في ذلك الوقت في بستان من أشجار البرتقال، والدفلى، والنخيل وتسقط من بين أغصانها العالية بقع من أشعة الشمس، كان يرتدي قميصاً خفيفاً، ويجلس على بساط مفروش على الحشائش، وعليه بقايا طعام، ونصف زجاجة من الخمر، اعتذر علي آغا عن العرق قائلاً: «من الصعب أن تجد نبيذاً في هذه الحفرة الملعونة»، وأجبرني على مشاركته ذلك العرق المحلّي، وهو مشروب مرعب يذهب إلى الرأس فوراً مثل لطمة قوية، طاف بصره بسرعة بأعين لماحة على صفحة الخطاب الموجه إليه من كرمان، ثم وضعه جانباً وقال: «حتى إن لم تأت بتوصية، فسأصحبك بنفسي لعبور تلك الصحراء. أنت ضيفي، لن أتركك تسافر وحدك عبر صحراء البالوشي» (كانت صحراء داشيلوت في منطقة البالوش).

نهض شبح كان حتى تلك اللحظة جالساً في بقعة مختفية في ظل شجرة: كانت امرأة شابة ترتدي رداءً حريرياً أزرق فاتح اللون يصل إلى ركبتيها، ومن تحته سروال أبيض بلوشي واسع. كانت ذات وجه مليح يبدو كأن نيراناً تندلع داخل ملامحه، ولها شفتان ممتلئتان، وعينان جميلتان غامضتا النظرة بشكل محير؛ وجفونها مخضبة بالحناء.

همس علي آغا بالفرنسية: «إنها كفيفة، ومغنية رائعة».
أعجبني عطفه الشديد، وحنوه البالغ، والاحترام الفائق الذي يعامل به الفتاة،

وعلى والرغم من أنها مغنية تنتمي إلى تصنيف يضعها في مصاف الغانيات؛ إلا أنه كان يعاملها معاملة سيدات مجتمع طهران الراقي.

جلسنا ثلاثتنا على البساط، وبينما انشغل علي آغا بمجمرة النار وغليونه المحشو بالأفيون، تحدثت إلى الفتاة البلوشية. وعلى الرغم من أنها كفيفة، إلا أنها كانت تضحك من أعماقها ضحك من تسكن قلبه السعادة؛ كانت لها تعليقات جسورة ومضحكة ومخجلة من تلك التي لا تخجل منها المتحررات.

وعندما انتهى علي آغا من تدخين غليونه، تناول يدها برقة وقال:

«هذا الغريب النمساوي الذي معنا الآن، يحب بالتأكيد أن يستمع إلى واحدة من أغانيك؛ لم يسمع في حياته أغنية بلوشية».

بدا على الوجه الذي يتطلع إلى مكان غير محدد سعادة حالمة، تناولت العود الذي مده علي آغا إليها، وراحت تجرب الأوتار وتضبط نغماتها. غنت بصوت عميق أبح أغنية رعاة بلوشية، بدت الأغنية كأنها صدى للحياة ذاتها من شفتيها الدافئتين...

عدت من أفكاري إلى متابعة قراءة فقرات رسالة علي آغا:

«أسأل أكنت مازلت تتذكر تلك الأيام يا أخي وصديقي المحترم، وكيف سافرنا معاً عبر صحراء داشيلوت، وكيف كان علينا أن نقاتل دفاعاً عن أنفسنا ضد العصابات البلوشية..؟

هل أتذكر؟ ضحكت في سريرتي من سؤال علي آغا الساذج، رأيت في أعماق ذاكرتي صحراء داشيلوت الخالية، أو «الصحراء الخاوية» التي تنشر خواءها اللانهائي من بلوخستان إلى قلب إيران، كنت أنوي عبور تلك الصحراء للوصول إلى «سييستان»، أقصى حدود شرق إيران، ومنها أواصل رحيلي إلى أفغانستان؛ وعندما كنت قادماً من «كرمان»، لم يكن يوجد مسار آخر.

توقفت أنا وعلي والحراس البلوشيون، عند واحة خضراء على حافة الصحراء لنكتري جمالاً، ونشتري مؤناً لطريق طويل أمامنا. كنا ننزل في محطة البرق «الهند أوربية».

كان مدير المحطة رجلاً طويلاً حاد النظرات، لم يرفع بصره عني وكأني صيد ثمين.

همس لي علي آغا: «خذ حذرك من هذا الرجل، إنه من رجال العصابات أنا أعرفه جيداً، وهو يعلم ذلك، كان لصاً كبيراً إلى بضعة أعوام مضت، أما الآن فإنه يملك مالاً كثيراً، وأصبح محترماً في ظاهره، مازال يكسب أموالاً كثيرة من بيع الأسلحة لزملائه القدامى من رجال العصابات، وأنتظر اللحظة الملائمة لأقبض عليه متلبساً. إلا أنه ذكي ومن الصعب إثبات شيء ضده. منذ أن عرف أنك نمساوي سال لعابه، في أثناء الحرب العالمية كان النمساويون والألمان يحاولون إثارة القبائل ضد الإنجليز؛ وكان معهم حقائب مملوءة بالعملات الذهبية، وصاحبنا هذا يعتقد أنك تحمل واحدة من تلك الحقائب».

وأفادنا ذكاء مدير المحطة إفادة جمة، تمكن من العثور لنا على جملين من أفضل جمال الركوب، وقضينا ما تبقى من اليوم في شراء قرب الماء، وحبال من وبر الجمال، وأرز، وسمن، وأغراض أخرى لازمة لرحلة عبور الصحراء.

تحركنا في عصر اليوم التالي، سبقنا علي آغا بصحبة أربعة من الحرس لتهيئة مكان نحط فيه رحالنا في أثناء الليل، وسرعان ما تلاشت جمالهم واختفت في الأفق البعيد، أما أنا وإبراهيم والحارس الخامس فقد تبعناهم على مهل.

تأرجحنا على الجمال (كانت أول مرة أركب فيها جملاً) الرشيقة الأطراف، سرنا في البداية عبر كثبان رملية صفراء لا تنمو فيها إلا أعشاب قليلة، ثم دخلنا في صحراء مكشوفة، وادٍ صامتٍ أجرد لا تبدو له نهاية، مسطح تماماً وخال من أي نتوء أو برون، بدا كأنه هو الذي ينطبق على الأفق، لا حجر، ولا صخرة، ولا نبتة

عشب. لا صوت لحيوان، ولا صوت لطير أو حتى خنفساء يكسر ذلك الموت القاحل. حتى الريح ضاع زخمها، كانت تسعى من دون صوت، كما يهبط حجر من حافة هاوية.. لم يكن ذلك ما يطلق عليه صمت الموت، بل كان مالم يولد بعد، ذلك الذي لم تدب فيه حياة: الصمت الذي سبق في الوجود الكلمة الأولى.

انبعث صوت وحطم الصمت، تصاعد صوت بشري مفاجئ، مرح، مبتهج، صعد في الهواء الساكن وظل معلقاً في الفراغ حيث صعد، يبدو كأنك لا تسمعه فقط، بل تراه، صوت وحيد، لا يشوبه ولا يتداخل معه أي صوت في ذلك السكون البدائي الأول، ثم تدفق عبر سهوب الصحراء. كان صوت الحارس البلوشي. كان يغني أغنية من أغاني ارتحالاتهم القبلية القديمة، جزء من ملحمة شبه مغناة، تتابع سريع لكلمات ساخنة وناعمة لم أفهم منها كلمة. جرى صوته على نغمات متباينة، في مستوى صوتي واحد، باستمرارية متدفقة ظلت تنمو حتى وصلت إلى قمة عالية، كأنها كانت تحتضن في غضونها لحناً مضيئاً في ترددية صوتية ثنائية متماوجة من أعماق الحلق، كشف تكرار النغمة المتماوجة وتغايرها عن ثروة صوتية غير متوقعة من ذلك الحارس بنغماته الصوتية الطويلة، ممتدة وغير محدودة مثل الأرض التي ولد عليها...

كان ذلك الموضع من الصحراء الذي كنا نمضي فيه في ذلك الوقت يطلق عليه «صحراء أجراس أحمد»، فمنذ سنين طويلة، ضلت قافلة كان يقودها رجل اسمه أحمد طريقها في ذلك الموضع، ومات جميع من كانوا بالقافلة، الحيوانات والبشر؛ وحتى اليوم، يقال: إن أصوات الأجراس التي كانت معلقة برقاب حيوانات القافلة تدوي أحياناً في تلك المنطقة، وتسمع أصواتها القوافل المارة بالمكان - أصوات شبحية حزينة تغوي الغافلين فيضلوا الطريق، ويلقوا حتفهم في الصحراء القاحلة.

وصلنا بعد غروب الشمس مباشرة إلى الموضع الذي اختاره علي آغا والحراس لإقامة خيمتنا وسط منطقة تنمو فيها أعشاب الكاهور، وهي آخر أعشاب نراها على مدى الأيام التي سنقطع فيها الصحراء، أشعلنا ناراً من أعشاب جافة،

وصنعوا الشاي الذي لا مفر منه، بينما كان علي يدخن من غليونه. أطعمنا الجمال شعيراً مجروشاً وأنخناها في دائرة من حولنا، وعيّن علي آغا ثلاثة من الحراس على قمم التلال من حولنا للحراسة. كانت المنطقة التي كنا نخيم فيها مسرحاً لعمليات شياطين الصحراء الجسورين، وهم عصابات الإغارة من البلوش الجنوبيين.

كان علي آغا قد انتهى من تدخين غليونه، واحتساء شايه، وبدأ يشرب الخمر بمفرده، فلم أشعر برغبة في مشاركته في الشراب، عندما دوت فجأة طلقة رصاص حطمت جدار صمت الليل، دوت طلقة ثانية إلا أنها كانت من إحدى نقاط حراستنا رداً على الأولى أعقبتها صرخة آتية من الظلام. ألقى إبراهيم، الذي كان حاضرالبديهة، الرمال على النار بسرعة ليطفئها. ثم توالى إطلاق الرصاص من جميع الاتجاهات.

كان حراسنا غير ظاهرين، إلا أن أصوات ندائهم بعضهم لبعض كانت مسموعة، لم نعرف عدد المهاجمين، فقد كانوا صامتين، ولم يظهر من جهتهم إلا وميض الطلقات من آن إلى آخر؛ مرة أو مرتين ميزت على البعد شبحاً بزي أبيض سرعان ما كان يختفي، أزت طلقات فوق رؤوسنا، إلا أنها لم تصب أياً منا. بالتدريج قل إطلاق النار وتباعد، ثم طلقات أخيرة ابتلع الظلام صوتها؛ واختفى المهاجمون - الذين لم يتوقعوا يقظتنا - بالسرعة نفسها التي أتوا بها.

نادى علي على الحراس المحيطين بنا في نقاط الحراسة، وعقدنا اجتماعاً قصيراً. وقررنا مغادرة المكان فوراً لاحتمال عودة المهاجمين بأعداد كبيرة.

كانت الليلة مظلمة بلون القار، فقد كانت السحب كثيفة ومنخفضة، وتحجب نور القمر والنجوم. وكما هو معروف من الأفضل السفر ليلاً في الصحراء في موسم الصيف؛ ولكن في ظروف عادية لم نكن لنخاطر بالمسير في تلك العتمة خشية أن نضل الطريق. في الماضي، اعتاد ملوك إيران السابقون وضع أعمدة إرشادية ترشد القوافل، ولكن مثل أشياءكثيرة، اختفت تلك الأعمدة، وعلى أي حال لم تعد

لها الأهمية نفسها، فأعمدة أسلاك البرق التي مدها البريطانيون في بداية القرن من الهند عبر صحراء داشيلوت إلى كرمان، كانت تؤدي الغرض نفسه، بل كانت وسيلة إرشاد جيدة، ولكن في مثل تلك الليلة، لم تكن أعمدة البرق ظاهرة في ذلك الظلام الدامس.

اكتشفنا أننا فقدنا أثر أعمدة أسلاك البرق فأصابنا الفزع، وبعد نصف ساعة، قال الحارس الذي كان يسير بناقته في المقدمة لعلي آغا:

«حضرت، لم أعد أرى الأسلاك...».

صمتنا من الفزع لحظات.. فآبار الماء موجودة فقط على مسار أعمدة البرق، وعلى مسافات كبيرة بعضها من بعض، فإن ضللنا الطريق فمن المقدر أننا سنموت عطشاً مثل قافلة أحمد الأسطورية.

تحدث علي آغا بطريقة لم أعهدها منه، من المؤكد أن الأفيون والخمر كانا وراء ذلك.. فقد أخرج مسدسه من جرابه وصرخ في الحارس:

«أين الأسلاك، لماذا لم تنتبه يابن الكلب؟ آه.. أنا أعرف.. أنت متواطئ مع العصابات، وتضللنا حتى نتوه ونموت عطشاً، وبذلك نكون ضحية سهلة».

كان ذلك التوبيخ والتأنيب غير عادلين بكل تأكيد، فالبلوشي لا يمكن أن يخون من أكل معه خبزاً وملحاً. كان من الواضح أن الحراس يؤلمهم ذلك الاتهام لزميلهم، وأكدوا لنا براءتهم، إلا أن علي آغا انفجر من جديد:

«اخرسوا.. عليكم بالعثور على الأسلاك فوراً، وإلا سأقتلكم واحداً بعد الآخر، أحرق الله آباءكم».

لم أتبين وجوههم في الظلام، ولكني كنت أعرف كيف يشعر البلوشي تجاه الإهانة؛

لم يهتموا حتى بالإجابة ولا بالرد. ثم فجأة فصل أحدهم نفسه عن تجمعنا ـ وكان هو الحارس الذي فقد أثر أسلاك البرق ـ وضرب جمله بسوطه واختفى في الظلام.

صاح علي آغا: «إلى أين تذهب؟» ولم يتلق إلا كلمات غير واضحة لثوان، على وقع أقدام جمله المسموعة على حصى الأرض، ثم غاص الصوت في ظلام الليل، ولم يعد له وجود.

على الرغم من اقتناعي التام منذ دقيقة مضت ببراءة البلوشي مما نسبه علي آغا إليه، إلا أن الشكوك راودتني: لقد ذهب الآن إلى رجال العصابات، كان علي آغا على حق، بعد فترة.. سمعت علي آغا يسحب ذراع أمان مسدسه وفعلت مثله، أما إبراهيم فما زال يخلع بندقيته المعلقة، جلسنا بلا حركة على ظهور الجمال. زمجر أحد الجمال بنعومة لما اصطدم مقبض بندقية الحارس برجله. مرت دقائق طويلة، كنت أسمع فيها صوت تنفس الرجال. ثم فجأة، جاءت صيحة من مسافة بعيدة، بالنسبة إلي لم تبد إلا «أوو وو وا»، إلا أن البلوشيين كانوا يفهمون مغزى تلك الصيحة، إذ كور أحدهم كفيه حول فمه، وصاح بحماس باتجاه الصوت بكلمات باللغة البراهوية. من جديد جاء ذلك الصوت البعيد. استدار أحد الحراس إلى علي آغا، وقال بالفارسية: «الأسلاك ياحضرت، لقد وجد الأسلاك». انداح التوتر، وتبعنا مصدر الصوت ونحن نشعر بارتياح، وراح يوجهنا بصوته من آن إلى آخر وعندما وصلنا إليه، شب على رجله، وأشار في الظلام: «هذا هو سلك البرق».

وبالفعل، بعد عدة لحظات كدنا نصطدم بعمود أسلاك البرق. ما فعله علي آغا في تلك اللحظة كان من السلوكيات المميزة له. فقد أمسك بالحارس من حزامه، وجذبه باتجاهه، ومال على رجله، وقبله على وجنتيه وهو يقول: «إنه أنا لا أنت، أنا ابن الكلب، سامحني يا أخي».

عرفت بعد ذلك أن الحارس ابن البراري سار في منحنيات متعرجة حتى سمع من مسافة نصف ميل صوت طنين الريح وهي تصطدم بالسلك فعرف مكانه، وهو

طنين لم أتمكن من سماعه وأنا تحت السلك مباشرة، كان من الأصوات التي لا تسمعها أذناي الأوربيتان. تقدمنا ببطء وحذر، في الليلة الظلماء، من عمود برق إلى آخر يطويه الظلام، أحد الحراس يسبقنا وينادي علينا في كل مرة يصل فيها إلى عمود تالٍ. لقد وجدنا طريقنا وصممنا على ألا نفقده مرة أخرى.

* * *

أفقت من ذكرياتي، وعدت إلى رسالة علي آغا أكمل قراءتها:
«بترقيتي إلى رتبة مقدم، أصبح شخصي المتواضع في هيئة الجنرالات؛ وذلك يلائمني يا أخي وصديقي الحبيب، أكثر من حياة الحاميات في مدينة إقليميةً.
وأنا متأكد أنها كذلك يا علي، كان علي آغا مشغوفاً بحياة العاصمة، ومكايدها - وخصوصاً السياسية منها، وبالفعل راح يصف لي في رسالته الأحوال السياسية في طهران، والمنافسات والمشاحنات التي لا تنتهي خلف الكواليس. ومناورات معقدة تقوم بها قوى أجنبية تهدف منها إلى إبقاء إيران في حالة من عدم الاستقرار تجعل من المستحيل على تلك الأمة الموهوبة أن تقف على أقدامها من جديد:

«نتعرض الآن لضغوط شركة نفط بريطانية من أجل تمديد امتياز النفط، وبذلك تطيل من أمد عبوديتنا، السوق يموج بالإشاعات، واللّه وحده يعلم إلى أين يؤدي كل ذلك؟».

كان البازار - السوق - يؤدّي دائماً دوراً كبيراً في الحياة السياسية للدول الشرقية؛ ويصدق ذلك على وجه الخصوص على بازار طهران، فهو قلب إيران النابض الذي ينبض بإصرار رافضاً الفساد والانحدار الذي تتعرض له البلاد. من بين سطور علي آغا بدا لي ذلك البازار كأنه مدينة بذاته، بدا لي كأنه قائم أمام عيني ينبض بالحياة، وكأنني أراه بالأمس:

البازار في طهران شبكة ضخمة من القاعات والصالات والممرات المغطاة والمسقوفة بأقواس مدببة. على الطريق الرئيس، وبعد بضعة متاجر صغيرة

معتمة مملوءة بسلع رخيصة، توجد باحات مسقوفة ملأى بأغلى أنواع الحرير الأوروبي والآسيوي؛ ثم محلات حياكة الملابس وواجهات العرض الزجاجية الملأى بالحليّ الفضية الدقيقة الصنع، ثم تتناوب محلات الأقمشة الملونة من بخارى والهند مع محلات السجاد الفارسية ـ بسط عليها رسومات حملات الصيد وأشكال لفرسان على صهوات جيادهم، وأسود وفهود، وببغاوات، وظباء ووعول برية؛ عقود من الزجاج واللؤلؤ وقداحات وآلات حياكة؛ جانب معتم للمظلات يليه جانب آخر لملابس من جلود الأغنام المدبوغة والمزخرفة من خراسان، معروضة في تلك القاعات الهائلة الطول، والتي تعتمد على عرض كميات هائلة أكثر من اعتمادها على حسن التنسيق والعرض.

في الحارات المتشعبة والملأى بالبضائع والسلع المتباينة من مصنوعات يدوية وسلع تجارية، تجد أن المحلات مرتبة تبعاً لنوع التجارة والحرفة.

تجد في مكان صفاً طويلاً من السروجية وصانعي الأشغال الجلدية، واللون الأحمر هو الغالب على دباغة الجلود التي تفوح رائحتها النفاذة في المكان بأجمعه، يليهم الحائكون: ومن كل كوة ـ أغلب المحلات كوى مرتفعة لا تزيد مساحة كل منها على ثلاث ياردات أو أربع ويسودها ضجيج آلات الحياكة وهي تعمل، وخارجها أردية طويلة معلقة ومعروضة للبيع، جميع المحلات تعرض الأردية ذاتها، حتى تعتقد أنك لم تقطع أي مسافة، وتشعر أنك تراوح مكانك لتكرر أشكال الأردية المعلقة، وينتابك الانطباع نفسه في أماكن متباينة من البازار؛ إلا أن غزارة التماثل في كل موضع لا تمت بصلة إلى التجانس؛ فتسكر الغريب وتملؤه بإعجاب قلق. حتى لو زرت البازار للمرة المئة، لوجدت دائماً أن الحال ثابت كما هو لا يتبدل ولا يتغير ـ إلا أن ذلك الثبات يماثل أمواج المحيط التي تغير أشكالها، ولكن مادتها التي تتكون منها ثابتة لا تتغير.

بازار أشغال النحاس: معزوفة من أصوات أجراس برونزية تأتي من أصوات طرق النحاس؛ أشكال متباينة من مشغولات البرونز والنحاس، يحولون الألواح المعدنية التي لا شكل لها ولا جمال فيها إلى آنية وأحواض وصوانٍ وكؤوس،

أصوات الطرق المتغيرة النغمات خلال بازار المعادن - كل صانع يستجيب لإيقاع الصناع من حوله - حتى إنه لايبدو أن هناك نغماً نشازاً على الأذن: مئات العاملين يطرقون مصنوعات متباينة في مختلف المحلات - إلا أن اللحن واحد.. في عمق يربو على أنه موسيقى، تبدو الرغبة الاجتماعية في التجانس التي تظهر القيمة الخافية للروح الإيرانية.

بازار العطارين: ردهات وممرات صامتة من أقماع السكر، وأكياس الأرز، وأكوام اللوز والفستق، وعين الجمل، وجوزة الطيب، براميل مملوءة بثمار المشمش المجففة والزنجبيل، صوانٍ نحاسية ملأى بالقرفة، والكاري، والفلفل الأسود، والزعفران، وبذور الخشخاش، وآنية ملأى بالكراوية والفانيليا، والكمون، والقرنفل وأعشاب غريبة لا حصر لها، وجذور نباتية تملأ المكان بروائح قوية. ومن فوق حافة الموازين النحاسية اللامعة، يتربع صاحب المتجر، مثل بوذا، بساقيه المتربعتين، ينادي بين الفينة والفينة على المارة عارضاً بضاعته.

جميع الأحاديث تدور بهمس في هذا المكان: لا يمكن لامرئ أن يصدر صوتاً في مكان يتدفق فيه السكر برقة من الأكياس إلى ميزان، كما لا يمكن لامرئ أن يكون صاخباً في مكان يوزن فيه الزعتر واليانسون... إنه سلوك يتوافق مع رقة المادة، وهو السلوك ذاته الذي يمكّن الإيرانيين من نسج تلك الأبسطة الفنية من ألوان لا نهائية لخيوط الصوف - خيطاً بخيط، جزءاً من بوصة بجوار جزء من بوصة - حتى تتم اللوحة، وتكتمل في جمال زاهٍ، ولذلك ليس مصادفة أن تكون الأبسطة الإيرانية فريدة وثمينة في جميع أرجاء العالم: فأين يجد المرء مثل ذلك الاستغراق الصامت، والتفكير المبدع، والتجميع الكامل لحواس المرء فيما يفعله؟ في أي مكان آخر تجد مثل تلك العيون التي لا يعني لها مرور الوقت شيئاً أمام صبرها ومثابرتها على ما تفعل؟

يجلس ناسخو الأشكال المنمنمة الدقيقة في كوى كهفية، أكبر قليلاً من الكوى الأخرى، يقلدون منمنمات قديمة في مخطوطات يدوية موغلة في القدم، وتحولت إلى مِزقٍ بفعل الزمن، يقلدون رسومات بديعة وخطوطاً وألواناً تأسر الألباب

الجوانب الجميلة من الحياة، جماعات صيد، حب وسعادة وأسى، يعملون بفُرَشٍ دقيقة ورقيقة؛ الألوان لا تخلط في أوعية ميتة، بل تخلط في كف الرسام الحية، وتوزع في نقاط على أصابع الكف اليسرى.

على صفحات جديدة بيضاء يمارس الرسامون منهم، نقطةً بعد أخرى، وخطاً بعد آخر، وظلاً بعد ظِل، تجري الألوان جنباً إلى جنب على خلفية ذهبية، فتبرز المنسوجات الجديدة والمتألقة، أشجار البرتقال الباهتة في الحديقة الملكية في الرسوم القديمة، تنتعش من جديد، وتينع وتزدهر في النسخ الجديدة في ربيع جديد؛ والنساء الناعمات الرقيقات في أردية الحرير والفراء يظهرن من جديد إيماءات الغرام وإشارات الحب على النسخ الجديدة، وتشرق الشمس من جديد على لعبة البولو التي يمارسها الفرسان بألوان زاهية جديدة.. خطاً بعد خط، بقعة لونية بعد أخرى ـ وظلاً بعد ظل، يتبع الناسخون الصامتون خُطا المغامرات الإبداعية الخلاقة لفنانين ماتوا منذ زمان بعيد، كانوا يمتلئون حباً لما يفعلون ويغمرهم سحره، يجعلك الحب والتفاني البادي عليهم تنسى عدم كمال النسخ المقلدة...

يمر الوقت، والناسخون منحنون منكبون على أعمالهم، لا يعبؤون بالزمن. يمر الوقت؛ وفي طرقات البازار القريبة تخترق السلع الغربية الحديثة بصبر ودأب المحلات الموجودة، مصباح كيروسين من شيكاغو، ملابس قطنية مطبوعة من مانشستر، غلاية شاي من تشيكوسلوفاكيا، جميعها تتقدم منتصرة: إلا أن الناسخين يجلسون متربعي الساقين على وسائد قماش مهترئة، ينقبون بأعين رقيقة، وأنامل دقيقة، في إبداعات قديمة، ويضفون على رحلات الصيد الملكي ومحبوباتهم بعثاً جديداً يوماً بعد آخر... الناس في البازار لا حصر لهم؛ رجال يرتدون الملابس الأوروبية، وآخرون يرتدون العباءة العربية الطويلة فوق الملابس الأوروبية، ورجال محافظون يرتدون القفاطين وعمائم الحرير، مزارعون وفنانون في سترات زرقاء.

دراويش ـ وهم متسولو إيران الأرستقراطيون يرتدون جلابيب بيضاء واسعة،

وأحياناً يضعون على ظهورهم جلود فهود، أقوياء الأبدان، وشعورهم طويلة، نساء الطبقة المتوسطة يرتدين بحسب إمكاناتهن – ملابس حريرية أو قطنية، غير أن اللون في جميع الأحوال أسود، مع النقاب الطهراني التقليدي القصير المرخى بعيداً عن الوجه؛ أما الفقيرات فيرتدين أزياء ذات ألوان صارخة من القطن. وأما الملالي الكبار (رجال الدين) فيركبون جحوشاً فارهة أو بغالاً ويستديرون بنظراتهم العدائية الصامتة كأنها تتساءل: «ما الذي تفعله هنا؟ هل أنت من الذين يعملون على دمار بلادنا؟».

أدت المؤامرات والدسائس الغربية بشعب إيران إلى أن يتشكك في كل ما هو غربي، ولا يوجد إيراني واحد يتوقع أن يأتي أي خير لبلاده من أولئك الفرنجة، إلا أن علي آغا لم يكن متشائماً بلا سبب، «أكملت قراءة الرسالة:

«إيران بلد عتيق ـ إلا أنه ليس على استعداد للموت، كنا على الدوام مقهورين. اجتاحت بلادنا أمم أخرى مضت كلها في حال سبيلها وظلت إيران حية، في فقر وقهر، في جهل وظلام، إلا أننا مازلنا أحياء، ويعود ذلك إلى أننا نمضي في سبيلنا الخاص بنا. حاول العالم الخارجي أن يرغمنا مراراً على انتهاج وسائل أخرى للحياة، إلا أنهم دائماً كانوا يخفقون. نحن لا نجابه القوى الخارجية بالعنف، ولذلك نبدو للآخرين كأننا استسلمنا، إلا أننا من قبيلة الموريون ـ وهي تلك النملة الدقيقة الصغيرة التي تحيا أسفل الجدران، ربما تكون قد رأيت يا نور قلبي كيف تتهاوى المنازل ذات الجدران القوية فجأة بلا سبب واضح يعلل انهيارها، ما السبب؟ لا شيء إلا ذلك النمل الدقيق الذي يظل على مدى أعوام ينخر بصبر ممرات وحفراً في قواعد البناء يتقدم في كل مرة مقدار شعرة، ببطء، وصبر، ودأب، في جميع الاتجاهات، حتى تفقد الجدران توازنها في النهاية وتنهار. نحن – الإيرانيين – مثل ذلك النمل، لا نواجه القوى الأجنبية والغربية بعنف وضجيج لاطائل من ورائه، بل نتركهم يظهرون أسوأ ما لديهم، ونحفر نحن في صبر ممراتنا وكهوفنا، حتى يأتي اليوم الذي ينهار فيه ما شيدوه...

هل رأيت ما يحدث عندما تقذف حجراً في الماء؟ يغطس الحجر، وتظهر حلقات متتابعة على سطح الماء، وتنتشر تدريجيا، ثم تتلاشى، ويسكن سطح الماء كما كان. نحن – الإيرانيين – مثل ذلك الماء. الشاه – أطال الله عمره – يحمل أعباءً ثقيلة، فالإنجليز من جانب، والروس من جانب آخر. ولكن لا يوجد لدينا شك في أنه بفضل الله، سيجد طريقه لإنقاذ إيران.

لم تكن ثقة علي آغا الضمنية في رضا شاه في غير محلها، كان رضا شاه من أهم الشخصيات الحيوية التي قابلتها في دولة إسلامية، وكذلك من بين كل من قابلت من ملوك، ولا يمكن موازنته إلا بـ «الملك عبد العزيز آل سعود». وقصة صعود رضا شاه ووصوله إلى حكم البلاد تشبه القصص الخيالية، ولا يمكن أن تتحقق إلا في دول الشرق فقط، عندما تؤدي الشجاعة الشخصية والإرادة القوية دوراً رئيساً، حتى إنها يمكن أن ترفع امرأ من غياهب المجهول إلى سدة السلطة والقوة والسيادة. عندما عرفته في أول إقامة لي في طهران في صيف سنة ١٣٤٢ (١٩٢٤م)، كان رئيساً للوزراء ودكتاتور إيران بلا منازع.

لم يكن الشعب الإيراني قد تغلب على صدمته في ظهور رضا شاه المفاجئ، وصعوده السريع إلى السلطة حتى وصل إلى السيطرة على دفة إدارة البلاد، مازلت أذكر دهشة موظف إيراني يعمل بالسفارة الألمانية في طهران وهو يقول لي: «هل تعلم أنه منذ عشر سنوات فقط كان رئيس وزرائنا يقف حارساً أمام باب هذه السفارة؟ وأنني كنت أعطيه أحياناً رسائل من السفارة لتسليمها إلى وزارة الخارجية، وأزجره قائلاً: «اسرع يا ابن الكلب، لاتتلكأ في البازار وأنت في الطريق..»».

بالفعل، لم تكن قد مضت سنوات طويلة منذ أن كان الجندي رضا يقف حارساً أمام مباني السفارات والمباني العامة في طهران، أتخيله واقفاً في زيه الرسمي الذي يمثل فرقة (القوزاق)[1]، يميل على بندقيته وهو يحملق في الأنشطة التي

١ـ هي فرقة عسكرية كانت تتميز بنوع من الألبسة الموحدة الشكل ويعرفون بهذا، هو نسبة إلى الكازاخستاينين الذي دائماً ما يتخذون شكلاً موحداً في اللبس لكل فئة مثل العسكر والفرق الغنائية والإنشادية وغيرها.

تدور من حوله في الشوارع، يراقب الإيرانيين وهم يمضون جيئة وذهاباً مثل أشباح في حلم، وأراه جالساً في برودة الليالي بجوار مجاري الأنهار، كما كان يفعل زملاؤه الجنود. كان يسمع صوت الآلات الكاتبة التي تأتي من خلفه من داخل البنك الإنجليزي الذي يتولى حراسة بابه، واندفاع الناس المسرعين، وذلك الحفيف المتسارع للحياة الذي جلبه الأوربيون في ذلك المبنى في طهران بواجهته الزرقاء الخزفية، ربما مرت في ذهنه أول مرة في حياته أسئلة:

«هل يجب أن تكون الأمور في طهران هكذا...؟ هل تعمل الشعوب الأخرى وتجاهد، بينما تجري حياتنا إلى الخلف مثل حلم؟» لم ينل رضا أي قدر من التعليم، ولم يذهب إلى أي مدرسة، ربما كانت تلك اللحظات هي التي انتابته فيها رغبة التغيير، راودته في تلك الأثناء أهداف عظيمة، وإحساس بالاكتشاف ورغبة في الثورة تضيء في ذهنه، وتسعى صامتة للتعبير عما يعتمل في نفسه.

ربما وقف في أوقات أخرى حارساً خارج باب حديقة سفارة أوروبية لدولة عظمى، تتحرك أشجارها المعتنى بها مع الرياح، ويخشخش حصى الممرات تحت وقع أقدام الخدم الإيرانيين العاملين بالسفارة في زيهم الأبيض الموحد. في ذلك المبنى المقام وسط الحديقة تسكن قوة غامضة؛ تبعث الرهبة في قلب كل إيراني يتخطى أعتابها، وتجعله يصلح من هيئته ويعتني بحسن مظهره قبل ولوجها. أحياناً تصل العربات التي تجرها الخيول، وينزل منها كبار المسؤولين الإيرانيين من الساسة. كان الجندي رضا يعرفهم شكلاً: فهذا الرجل كان وزير الخارجية، وذاك وزير المالية. كان يبدو الخوف دائماً على وجوههم مخلوطاً بالتوتر والتوقع، ملامحهم مشدودة عند دخولهم من تلك البوابة، وكان يتشوق إلى رؤية التعبير الذي يعلو وجوههم وهم يغادرون مبنى السفارة، أحياناً يرى البشاشة والسرور كأنهم قد كانوا قد أُنعم عليهم بخير وفضل عميم؛ وأحياناً يخرجون شاحبين مهمومين، كما لو صدر عليهم حكم بالإعدام، وأن أولئك الناس الغامضين داخل السفارة قد أصدروا الحكم. ويتعجب الجندي رضا سائلاً: «هل يجب أن تكون الأمور كذلك..؟»
ويحدث أحياناً أن يخرج موظف إيراني مهرولاً من مبنى السفارة التي يحرسها

رضا، ويدفع برسالة إلى يده قائلاً: «خذ هذه الرسالة واذهب بها إلى فلان أو غيره من الجهات، لابد أن توصلها بسرعة يا ابن الكلب، وإلا غَضِب السفير»، اعتاد رضا أن يوجه إليه الخطاب بتلك الطريقة، فرؤساؤه من الضباط لم يبدوا أي قدر من الحساسية تجاه المسميات فيما يوجه إليهم من حديث. من المحتمل، بل من المؤكد أن تكون الصفات مثل ابن الكلب تصيبه بطعنة في كرامته، كان يدرك أنه ليس ابن كلب، بل ابن أمة عظيمة أنجبت عظماء مثل رستم، وداريوس، وأنوشروان، وكسرى، وشاه عباس، ونادر شاه. ولكن، ما الذي يعرفه أولئك «الذين بداخل السفارة» عن ذلك؟ ما الذي يدركونه عن القوى التي تتحرك مثل تيار صامت مظلم داخل صدر جندي يبلغ من العمر أربعين عاماً، وتوشك أحياناً على تفجير ضلوعه، وتجعله يعض أنامله في يأس من لا يملك قوة لتغيير ذلك كله: «آه لو كان بيدي...» وكثيراً ما كانت رغبة تأكيد الذات التي تشغل صدور الإيرانيين تلهبهم فيهبون في ثورة عنيفة غير متوقعة، كما كانت تحدث لـ «رضا» الجندي، وتجعل إدراكه أصفى، ورؤيته أوضح، للتناقضات التي تمر بها بلاده...

كانت الحرب العالمية قد انتهت، وانسحبت القوات الروسية التي كانت تحتل شمال إيران بعد الثورة البلشفية في روسيا؛ وبعدها بفترة وجيزة فجر الشيوعيون الإيرانيون اضطرابات في ولاية چيلان الإيرانية الواقعة على بحر قزوين، وقاد ذلك التمرد الشيوعي «كوشوك خان» وهو من أصحاب النفوذ، ودعمته قوات نظامية روسية في البر والبحر، وأرسلت الحكومة الإيرانية قوات من الجيش لتقضي على ذلك التمرد، إلا أن القوات الإيرانية السيئة التنظيم والتسليح كانت تنال هزيمة بعد أخرى؛ ولم تثبت الفرقة التي كان يخدم بها رضا - وكان قد بلغ الخمسين من عمره في ذلك الوقت - إنها أفضل من غيرها من قوات الجيش الإيراني.

بمجرد أن أدارت فرقته ظهرها وبدأت في الفرار بعد صدام سيّئ الحظ مع الأعداء، لم يستطع رضا أن يمنع نفسه من التعبير عن مشاعره الدفينة، ولا أن يكبتها أكثر من ذلك، فقد خطا خارج صفوف القوات المنهارة الهاربة، وصاح بأعلى صوته حتى يسمعه الجميع: «لماذا تفرون أيها الإيرانيون - أنتم إيرانيون». لابد أنه شعر في ذلك الوقت بما أحسه «تشارلز» الثاني عشر ملك السويد عندما سقط مصاباً في معركة

«بولتافا»، ورأى قواته تهرب في فزع، ونادى عليهم بصوت يائس: «لماذا تفرون أيها السويديون ـ أنتم سويديون». ولكن الفارق أن الملك «تشارلز» كان ينزف من جروح كثيرة، ولم يكن هناك ما يملكه إلا صوته، بينما كان الجندي رضا غير مصاب وبيده مسدسه «الموزر» محشواً بالطلقات ـ كان صوته قوياً ومهدداً وهو يحذر رفاقه: «من يهرب فسأطلق عليه النار، سأرديه برصاصي حتى لو كان شقيقي».

كان ذلك الانفجار جديداً على الجنود الإيرانيين، وحل محل الفوضى التي تسودهم، دهشة، وأصبحوا يتوقون إلى معرفة: ماذا بذهن ذلك الرجل..؟ بعض الضباط احتجوا وبينوا عدم وجود أي أمل أمامهم، حتى إن واحداً منهم سخر قائلاً: هل تقودنا أنت إلى النصر؟

ربما كان رضا قد أفرغ الشحنات الانفعالية المتراكمة في نفسه منذ أعوام طويلة، وأضاءت فجأة جميع آماله الصامتة الخرساء، لقد رأى طرف حبل سحري يتدلى أمامه فجأة؛ فأمسك بطرف الحبل، ولم يفلته بعد ذلك أبداً.

رد على الضابط قائلاً: قبلت أن أقودكم إلى النصر، ثم استدار إلى الجنود وسألهم: «هل تقبلوني قائداً لكم؟»».

لا توجد أمة يتأصل فيها نموذج البطل بعمق كما هو بين الإيرانيين؛ بدا لهم ذلك الرجل بطلاً، نسي الجنود فزعهم وفرارهم، وهتفوا هادرين «أنت قائدنا»، ورد رضا: وهو كذلك، سأقودكم، وسأقتل كل من يحاول الهرب، غير أن أحداً بعد ذلك لم يفكر في الفرار، تخلصوا من كل ما يعوقهم، وثبّتوا حراب بندقياتهم في مكانها: وتحت قيادة رضا التفت الفرقة، وأسرت سرية روسية في مفاجأة عسكرية، وجذب ذلك قوات إيرانية أخرى لتنضم تحت زعامة رضا، وقهروا العدو وطاردوه ـ بعد ساعات كانت المعركة قد حسمت لمصلحة الإيرانيين.
وصلت بعد عدة أيام، برقية من طهران بترقية رضا إلى رتبة نقيب، وبذلك أصبح بإمكانه أن يلحق باسمه لقب «خان».

أمسك رضاخان بطرف الحبل السحري الذي ظهر أمامه وبدأ في تسلقه. أصبح اسمه فجأة من الأسماء المعروفة والمشهورة. وفي ترقيات سريعة متتالية أصبح مقدماً ثم عقيداً ثم قائد لواء. وفي سنة ١٣٣٩ (١٩٢١م)، قام بتدبير انقلاب عسكري هو وصحفي شاب اسمه ضياء الدين، وثلاثة ضباط آخرين، وقبضوا على مجلس الوزراء الفاسد، ولكونه قائد لواء، فقد أجبر الشاه أحمد، الضعيف الشخصية، على تعيين مجلس وزراء جديد: أصبح فيه ضياء الدين رئيساً للوزراء، ورضا خان وزيراً للحربية. لم يكن يقرأ ولا يكتب، إلا أنه كان مثل الجن والشياطين في سعيه إلى السلطة، وأصبح «النموذج» للجيش والشعب، الذين رأوا فيه بطلاً إيرانياً لم يروا مثله من دهور.

تتغير المشاهد بسرعة على المسرح السياسي الإيراني، فقد اختفى فجأة ضياء الدين من المسرح، ليظهر منفياً في أوروبا. وأصبح رضا خان رئيساً للوزراء. بعد ذلك انطلقت إشاعات في طهران أن رضا خان، وضياء الدين، والشقيق الأصغر للشاه، وكان ولياً للعهد، تآمروا للإطاحة بالشاه عن العرش؛ ودار الهمس - ولا يعلم أحد حتى اليوم مدى صحة ذلك - أن رضا خان، قد خان أصدقاءه في آخر لحظة، وخاف أن يغامر بمركزه في تلك المؤامرة المشكوك في نتائجها، وأخبر الشاه بتفاصيل المؤامرة. وبغض النظر هل كان ذلك صحيحاً أم لا، نصح رضا خان الذي أصبح رئيساً للوزراء، الملك شاه أحمد أن يقوم برحلة ترفيهية إلى أوروبا، وصحبه في موكب عظيم بالسيارات حتى حدود العراق، ويقال: إنه قال للشاه على الحدود: «لو عدتم جلالتكم في أي لحظة إلى إيران، يمكنك حينها أن تقول: إن رضا خان لم يفهم شيئاً في هذا العالم».

لم يعد يقبل أن يشاركه أحد السلطة؛ كان في الحقيقة المتصرف الفعلي في كل شؤون إيران، كان مثل ذئب جائع، وألقى بنفسه جاعلاً إمكانياته الشخصية كلها في خضم العمل، كان لابد أن يصلح جميع أحوال إيران من القمة إلى القاع. أصبحت الإدارة التي كانت مفككة إدارة مركزية، أما النظام الزراعي القديم الذي كان يسند زراعة الولايات إلى من يدفع أعلى ثمن، فقد ألغاه، وألغى أن يكون المحافظون من المرزبانات، وأصبح يعينهم من قِبله. وأما الجيش، وهو ابن

الدكتاتور المدلل فقد أعاد تنظيمه على النمط الغربي، ثم بدأ في شن حملات على زعماء القبائل العنيدين الذين كانوا يعدون أنفسهم ملوكاً صغاراً، وكانوا غالباً ما يرفضون الأوامر التي تصدر من طهران؛ وتعامل بقسوة مع تنظيمات العصابات التي كانت تبث الرعب في الأقاليم، وتم تنظيم الإدارة المالية للدولة بمعاونة مستشار أمريكي؛ وبدأت الضرائب والجمارك تدر عوائد منتظمة، واستعاد النظام بعد الفوضى العارمة.

وكأنه يقتفي أثر خطا كمال أتاتورك في تركيا الذي قاد الحركة الكمالية، بزغت فكرة الجمهورية في إيران، كانت شائعة في البداية، ثم مطلباً من مطالب الطليعة المثقفة من الشعب، وأخيراً هدفاً مباشراً بعد ذلك. ولكن يبدو أن رضا خان قد أخطأ في ذلك التوجه، ولم يحالفه التوفيق. لقد أساء تقدير ذلك الأمر، فخرجت مظاهرات قوية غاضبة من الجماهير الإيرانية.

لم تكن تلك المعارضة الشعبية للجمهورية ترجع إلى أي حب للبيت الحاكم، فلم يكن هناك إيراني واحد يكن أي عاطفة حب لعائلة «كاچار» التي تعود إلى أصول تركية، وكان الشعب يعدها أسرة «أجنبية»، وهي أسرة الشاه أحمد. كانت المعارضة لسبب مختلف تماماً، وهو خوف الشعب الإيراني من أن يفقدوا دينهم مثل الأتراك الذين فقدوا دينهم بعد أن أعلن كمال أتاتورك نظام الدولة العلماني. وتحت تأثير القادة الدينيين - وربما لخوفهم من إعجاب رضا خان الواضح بأتاتورك - أحس الإيرانيون أن الإسلام مهدد، وكان الإسلام القوة المسيطرة على الشعب الإيراني بأجمعه.

وقعت أحداث شغب كثيرة واضطرابات بين أبناء الحضر، وخصوصاً في مدينة طهران، وخرجت الحشود الغاضبة بالعصي والحجارة، وتجمعت أمام قصر الإدارة الذي يقع فيه مكتب رضا خان، وهتفوا لاعنين رضا خان، ومهددين الدكتاتور الذي تحول إلى نصف إله. ونصحه معاونوه ألا يغادر المبنى قبل انفضاض الحشود الغاضبة؛ إلا أنه دفعهم جانباً، وغادر المبنى في عربة مغلقة تجرها الخيول. وبمجرد أن خرجت العربة من البوابة الخارجية، قبضت الحشود الثائرة على أعنة الجياد وأوقفوا العربة، وحطم بعض الثائرين بابها - وصاحت الحشود: «جروه إلى

الخارج، اخرجوه إلى الطريق»، إلا أنه بدأ الخروج بنفسه، ووجهه يستعر بالغضب، وبدأ بضرب القريبين منه على أكتافهم ورؤوسهم بعصا قيادة الخيل وهو يصيح في غضب: «ابعدوا يا أبناء الكلاب، كيف تجاسرتم على ذلك، أنا رضا خان، ارجعوا إلى نسائكم»، وصمتت الحشود التي كانت تهدد بالويل والثبور وبقتل الطاغية من دقائق قليلة، وتحت وطأة جسارته وشجاعته ونظراته النارية؛ تقهقروا قليلاً، ثم ذابوا واحداً بعد آخر، واختفوا في الشوارع الجانبية.

مرة أخرى تحدث قائد عظيم إلى شعبه بغضب، وارتاع الشعب وفزع. ربما كانت مشاعر رضا خان باحتقاره للشعب قد بدأت في تلك اللحظات، وغطى شعوره ذاك على حبه شعبه إلى الأبد.

على الرغم من نجاح رضا خان في إبراز هيمنته وقوة شكيمته، إلا أن النظام الجمهوري لم يتحقق. كانت الزوابع التي أثيرت حول تلك الخطة تثبت أن القوة وحدها لا يمكن أن تقود «حركة إصلاحية» في مواجهة مقاومة شعبية. لا يعود ذلك إلى أن الإيرانيين يعارضون الإصلاح، بل إن الشعب شعر غريزياً أن تطبيق نظام دستوري غربي مستورد من خارج البلاد، يعني القضاء على آمالهم في التوصل إلى نظام سليم، نابع من ثقافتهم وعقيدتهم الإسلامية.

لم يفهم رضا خان ذلك، لا في ذلك الوقت، ولا بعد ذلك أبداً، فانعزل عن شعبه، وتلاشى حب الشعب له، وحلت محله بالتدريج الكراهية والخوف. بدأ الشعب يتساءل: ما الذي فعله ذلك البطل لبلده؟ راحوا يعددون إنجازات رضا خان: إعادة تنظيم الجيش؟ ولكن كان ثمن ذلك باهظاً، فقد أضاف أعباءً ساحقة من فرض ضرائب باهظة على شعب فقير يعاني الفاقة وشظف العيش؛ قضى على تمرد القبائل؟ إلا أنه قضى أيضاً على أبطال الشعب؛ أقام المباني الشاهقة الجديدة في طهران؟ إلا أن البؤس والفاقة قد ازدادا بين المزارعين والفلاحين في الأقاليم، بدأ الناس يتذكرون أن رضا خان كان إلى سنين قليلة مضت جندياً معدماً، وأصبح الآن أغنى رجل في إيران، ومالك لمساحات من الأرض لا حصر لها، فما «الإصلاحات» التي يتحدث عنها؟

هل تعد المباني الشاهقة الفخمة الجديدة وما تحتويه من مكاتب في مدينة طهران والفنادق الفخمة التي ارتفعت هنا وهناك بتوجيه من الدكتاتور تمثل أي قيمة في تحسين أحوال جموع الشعب الفقيرة؟

* * *

عرفت رضا خان في المرحلة التي كان فيها رئيساً للوزراء، ومهما كانت صحة الشائعات التي كانت تتردد عن طموحاته وتطلعاته وأنانيته، إلا أنني تبينت عظمة ذلك الرجل من اللحظة الأولى التي استقبلني فيها في مكتبه في وزارة الحربية، ربما كان ذلك المكتب أبسط مكتب دخلته في أي مكان، وفي أي عصر، يشغله رئيس وزراء؛ كان هناك مكتب، وأريكة مغطاة بقماش أسود، ومقعدان، ورف للكتب، وبساط جميل إلا أنه غير ثمين؛ نهض الرجل عند دخولي، وجدته طويلاً، في منتصف الخمسينيات من عمره، يرتدي ملابس عسكرية كاكية اللون من دون أي رتب أو نياشين أو شارات.

قدمني إليه سفير ألمانيا، الكونت «ڤون ديرشولنبرج» (ممثلاً لصحيفة ألمانية) ومع أنه كان أول حوار سياسي رسمي بيننا، إلا أنني ميزت الحيوية العنيدة التي يتصف بها رضا خان، تطلع إليّ بعينين بنيتين حادتي النظرات من تحت حاجبين كثيفين شاب شعرهما، عيون فارسية تحتجب خلف جفون ثقيلة، فتبدو النظرة كأنها خليط من السوداوية والحزن والقسوة والتشدد، كانت هناك خطوط تشي بالمرارة حول أنفه وفمه، إلا أن الملامح المشدودة على عظام الوجه الثقيلة أفشت قوة إرادة غير عادية جعلت شفتيه مزموتين فبدا توتر الفكين، وحين تستمع إلى صوته الخافت - صوت رجل تعود على قول ما له أهمية وقيمة، ويزن كل كلمة قبل أن ينطق بها - يستولي عليك انطباع بأنك تستمع إلى رجل أمضى ثلاثين عاماً في الجيش مع اعتزاز شديد بالذات يكمن خلف صوته، وتجد من الصعب أن تصدق أنه منذ ستة أعوام فقط كان رضا خان رقيباً بالجيش، ومنذ ثلاثة أعوام فقط تعلم القراءة والكتابة.

لابد أنه شعر باهتمامي الشديد بشخصه، وربما شعر باهتمامي الشديد بشؤون

الشعب الإيراني، فقد أصر أن تلك المقابلة يجب ألا تكون الأولى والأخيرة، ودعاني أنا و«شولينبرج» لتناول الشاي في الأسبوع التالي في مقره الصيفي في منطقة «شيمران»، وهو منتجع يموج بالأشجار الخضراء على بعد بضعة أميال خارج طهران.

اتفقت مع «شولنبرج» أن أمر عليه أولاً (كان مثل باقي السفراء يقضي الصيف في منطقة شيمران)، ثم نتوجه معاً إلى منزل رئيس الوزراء هناك. وحدث أنني لم أستطع المرور عليه في الوقت المحدد، فقد اشتريت عربة صيد خفيفة ذات أربع عجلات يجرها جوادان فارهان نشيطان، أما مدى نشاطهما فقد اتضح لي تماماً خارج طهران ببضعة أميال، فقد طافت بهما رغبة شريرة جعلتهما يرفضان في عناد البغال أن يمضيا إلى الأمام خطوة واحدة، وأصرا على الاستدارة والعودة إلى طهران. بذلت كل جهدي على مدى عشرين دقيقة لدفعهما إلى السير إلى «شيمران» ولكن بلا طائل، في النهاية جعلت إبراهيم يعود بهما إلى طهران، وانطلقت على أقدامي باحثاً عن وسيلة انتقال أخرى. سرت نحو ميلين، ووصلت إلى قرية وجدت فيها عربة خفيفة واكتريتها، وعندما وصلت إلى منزل السفير الألماني كنت قد تأخرت ساعة ونصف الساعة عن الموعد المتفق عليه. وجدت «شولينبرج» يروح جيئة وذهاباً في مكتبه مثل نمر غاضب متحفز، واختفت تماماً رقته ودماثته كلها، فبحسه الدبلوماسي المجبول على الطبيعة البروسية الصارمة النظام، كان ذلك الخرق للالتزام يصل بالنسبة إليه إلى مرتبة الكفر والإلحاد. أول ما وقع بصره عليّ انفجر في ثورة غضب عاتية:

«لا يمكن لك أن تفعل ذلك، لا يمكن أن تفعله مع رئيس وزارة... هل نسيت أن رضا خان دكتاتور، وأنه مثل أي دكتاتور، شديد الحساسية بكرامته؟».

كانت إجابتي الوحيدة: «يبدو أن خيولي نسيت تلك النقطة المهمة ياكونت «شولينبرج»، حتى لو كان إمبراطور الصين، كان من المستحيل أن أصل في الموعد». وحكيت له ما حدث.

عند ذلك، بدأ الكونت يستعيد حس الدعابة، وانفجر ضاحكاً:
«بحق اللّه لم يصادفني مثل ذلك الموقف أبداً، هيا بنا ـ وآمل ألا يصفق الخادم الباب في وجوهنا...».

إلا أن الخادم لم يصفق الباب في وجوهنا، عندما وصلنا قصر رضا خان كانت حفلة الشاي قد انتهت من زمن، وانفض جميع المدعوين، إلاأنه لم يبد على الدكتاتور أنه قد تضايق بأي حال من خرقي لقواعد البروتوكول.

وعندما سمع مني سبب تأخري، سأل: «حسناً، أحب أن أرى خيولك، إنهم ينتمون على ما أعتقد إلى الحزب المعارض، لا أدري إن كان من الملائم أن نضعها رهن الاعتقال أم لا؟».

ويبدو أن تخلفي عن الموعد المحدد كان في مصلحتي فقد كان سبباً في تأسيس علاقة شخصية غير رسمية بين رئيس وزراء إيران القوي وصحفي صغير السن مثلي، وأتاحت لي تلك العلاقة بعد ذلك أن أتجول بحرية في جميع أنحاء إيران، وهي حرية غير متيسرة لأي أجنبي.

* * *

لم تشر رسالة علي آغا إلى رضا خان في الأيام المبكرة، ذلك الرجل الذي كان يحيا ببساطة لا يصدقها أحد، ويغلب عليه حب إيران، كانت رسالته تشير إلى رضا شاه بهلوي؛ الذي صعد إلى عرش الطاووس سنة ١٣٤٣ (١٩٢٥م)؛ وتشير إلى ملك نحّى جانباً مظاهر التواضع، ويسعى الآن إلى اقتفاء أثر كمال أتاتورك في بناء دولة ذات وجه حضاري غربي في بلاده الشرقية العتيقة...

وصلت إلى نهاية الرسالة:
«على الرغم من أنك الآن ياصديقي المحبوب في مدينة الرسول الكريم ﷺ المباركة، إلا أنني آمل ألا تكون قد نسيت صديقك الذي لا يساوي شيئاً، وألا تنسى بلده أيضاً».

للّه درُّك يا علي آغا، ياصديق أيامي في إيران ـ أو «نور قلبي» كما تقولها أنت،

لقد جعلتني رسالتك أغرق في غضون الذكريات: أنا الذي أصبحت مسكوناً بحب بلاد فارس بعد أن عرفتها عن قرب، تلك البلاد العريقة، الجوهرة التي ضاع بريقها بين ذهب عتيق ورخام مشروخ وركام تراب وظلال باهتة لحضارات أصيلة، ظلال جميع الأيام والليالي لبلدك العابسة المكفهرة، وعيون أبناء شعبك الحالمة بحياة أفضل...

مازلت أذكر مدينة «كرمنشاه»، أول مدينة إيرانية أراها بعد أن عبرت جبال كردستان. مدينة مكتومة الصوت وخانعة يغلفها جو غريب، شاحب، معتم، - ولن أقول رثة وبالية. لاشك أن فقر المدن الشرقية يكمن قريباً من السطح، فهو مرئي بوضوح أكثر من أي مدينة أوروبية - إلا أنني كنت قد اعتدت ذلك - إنه ليس فقراً بالمعنى الاقتصادي على الرغم من أنه بادٍ بكل مظاهره، مع أن «كرمنشاه» كانت تعد من المدن ذات الرخاء في إيران. ما أقصده الفقر النفسي والمعنوي، ذلك النوع من الاكتئاب والإحباط الذي يبدو على الناس، شيء ما على صلة مباشرة ووثيقة بهم، ولا علاقة له بالأحوال الاقتصادية.

يتميز الشعب كله بعيون واسعة سوداء تحت حواجب كثة، تتلامس عند جذر الأنف، وجفون ثقيلة كالحجاب. أغلب الرجال نحيفون (لم أر رجلاً ممتلئاً أو سميناً في إيران)؛ لا يضحكون بصوت مرتفع أبداً، في تبسمهم الصامت يكمن شبح سخرية وتجاهل، وتبدو كأنها تخفي وتبطن أكثر مما تظهر. لا حيوية في حركة ملامح الوجه، لا إيماءات بالرأس تدل على المشاركة والتفاهم، لا تجد إلا حركات محددة ومقننة، كانوا كمن يضعون أقنعة على وجوههم.

وكما في بلاد الشرق كلها، تتركز الحياة في الأسواق، وتظهر الأسواق في عين الغريب خليطاً من الألوان البنية، والبني المذهب، والأحمر، وأوانٍ نحاسية لامعة هنا وهناك، وخزف أزرق فوق واجهات بعض المحلات على أشكال وهيئات لفرسان بعيون سوداء وتنانين مجنحة. لو دققت البصر، وأمعنت النظر لوجدت في السوق جميع الألوان التي عرفها البشر، إلا أن أياً من تلك الألوان المتباينة لا يمكن أن يستقل بذاته في تلك الظلال الموحدة تحت أسقف تغطي شوارع الأسواق

وتجعلها غارقة في عتمة ناعسة. كانت قمم أسقف شوارع السوق مفتوحة على مسافات متساوية بفتحات صغيرة تسمح بدخول ضوء النهار، ومن خلالها تسقط أشعة الشمس على شكل أعمدة رفيعة، لا يبدو أن المارة يخترقونها، بل تبدو كأنها تخترق المارة.

الناس في البازار مهذبون صامتون كالأشباح. وإذا نوّه أحد التجار ببضاعته فإنه يفعل ذلك بصوت منخفض؛ لا ينادون بأصوات عالية، أو كلمات منغمة كما يفعل العرب في أسواقهم.

نسيج الحياة هنا من نفوس هادئة، الناس لا يتزاحمون ولا يدفع بعضهم بعضاً، كانوا مهذبين ـ ذلك النوع من التهذيب الذي يبدو كأنه ينحني أمامك من فرط تأدب، إلا أنه في الواقع يوقفك على بعد ذراع.

يغلب عليهم العبوس، ولا يبادرون بفتح حوار مع غريب، وإذا تحدثوا فإن شفاههم هي التي تتكلم، أما أرواحهم فإنها هناك في خلفية بعيدة، تنتظر، وتزن الأمور وتوازنها، منفصلة عن الواقع المعيش...

على مقهى جلس عمال على حشايا من القش، كانوا خليطاً من فناني النسخ وعمال، وسائقي شاحنات، مجتمعين حول قصعة معدنية ملأى بالجمرات الملتهبة ونرجيلتين طويلتين من الخزف، كانت رائحة الحشيش تعبق بالمكان. يدخنون في صمت؛ كلّ في دوره يجذب أنفاساً عميقة، ثم يمرر القصبة إلى من يليه، ثم أدركت مالم أدركه من قبل، أن كثيرين، كثيرين جداً، من يدخنون الحشيش، بعضهم في العلن، وآخرون خفية، أصحاب المتاجر داخل خاناتهم الصغيرة، والمتسكعون تحت أقواس بوابات الخانات الكبيرة؛ طارقو النحاس داخل محلاتهم في أوقات راحتهم؛ يدخنون الحشيش تعلو وجوههم ملامح الانسحاب من الواقع، ونظراتهم تحملق في فراغ لا تعرف مداه...
كانت أزهار الخشخاش ببراعمها الممتلئة تباع في جميع أنحاء البازار، وهناك طريقة أخرى تناسب الأطفال، فقد كان الأطفال يأكلون بذوره في مداخل البيوت،

وفي الأركان الخالية، يقسم طفلان أو ثلاثة ما معهم من بذور بأناة وتؤدة بينهم وبين الكبار، من دون أنانية الأطفال، بلا مرح وحيوية.

ولكن كيف يمكن أن يكونوا غير ذلك؟ لقد أعطوهم منذ صغرهم شراب بذور الأفيون عندما يبكون، حتى يناموا. وعندما كبروا وبدؤوا يجوبون الطرقات والشوارع، كانت صفات الهدوء والطيبة والوداعة قد بهتت وتلاشت.

أدركت بعد ذلك السر فيما شدني وهز أعماقي عندما شاهدت أول مرة العيون الحزينة التعسة للإيرانيين، كانت العيون الحزينة تعبر عن القدر المأساوي لذلك الشعب. أدركت أن الأفيون ينتمي إليهم كما تنتمي الابتسامة الحزينة إلى تعاستهم الداخلية، والأفيون ينتمي إلى فقرهم الشديد وإملاقهم، ولا يبدو عيباً ولا نقيصة، بل ربما كان ذا فائدة لهم، وعوناً لهم، عوناً ضد ماذا؟ إنها أرض العجائب التي لا تكف عن طرح أسئلة كثيرة....

* * *

توقف فكري طويلاً عند انطباعاتي عن مدينة «كرمنشاه»، أول مدينة إيرانية أتوقف فيها، وظلت انطباعاتي متغايرة الشكل إلا أن مادتها لم تتغير على مدى عام ونصف قضيتها في (إيران). كان السائد والدائم في أنحاء إيران كلها تلك التعاسة والاكتئاب والانقباض التي تراها على الوجوه. تلاحظها في القرى وفي المدن، في حياة الناس اليومية، وفي المناسبات والأعياد والاحتفالات الدينية. كانت مشاعرهم الدينية تختلف عن المشاعر الدينية للعرب، فهي تحمل صبغة قوية من الحزن والحداد؛ لأنهم مازالوا يبكون أحداثاً مأساوية وقعت منذ ثلاثة عشر قرناً مضت، يبكون استشهاد الإمام علي ﵁، ابن عم الرسول ﷺ وزوج ابنته، ويبكون استشهاد ولدي علي، الحسن والحسين - ويبدو ذلك عندهم أهم مما يدعو إليه الإسلام، وعما يدفع البشر إليه، ويحثهم على انتهاجه في الحياة الدنيا....

ترى في أمسيات مدن إيران وقراها، مجموعةً من الرجال والنساء يشكلون حلقة كبيرة حول درويش متجول، داعية ديني يلبس ملابس بيضاء، وجلد فهد معلق على ظهره، يمسك بيدٍ عصا طويلة، وبالأخرى وعاءً من ثمرة جوز الهند مفرغة

يجمع فيها الصدقات، يلقي إنشاداً نصف مغنًّى، نصف مرتل، عن صراع الخلافة بعد وفاة الرسول ﷺ في القرن الأول الهجري (السابع الميلادي)، قصة حزينة مأساوية دامية، مكونة من إيمان ودم وموت ، تجري بشكل ما في حكايتها كالآتي[١]:

استمعوا إليّ أيها الناس، استمعوا لما حدث لمن اختارهم اللّه، وكيف سال دم نسل الرسول ﷺ على الأرض.

كان هناك نبي أحبه اللّه وحباه بالهداية إلى مدينة المعرفة؛ وكان باب تلك المدينة أنقى أتباعه وأخلصهم وأشجعهم وأحكمهم، وزوج ابنته، أسد اللّه وخليفته الشرعي، إلا أن أشقياء البشر وأشرارهم اغتصبوا حق أسد اللّه وجعلوه آخر خليفة للرسول؛ وبعد موت أول مغتصب، تلاه واحد مثله من محبي الشر؛ وتلاه ثالث بعده.

وتحققت إرادة اللّه فقط بعد موت المغتصب الثالث، وتبوأ أسد اللّه مقعده الشرعي قائداً للمؤمنين.

إلا أن أعداء علي، وأعداء اللّه كانوا كثيرين؛ وفي يوم كان ساجداً بين يدي ربه، فاغتالوه بالسيف، اهتزت أركان الأرض من بشاعة الفعل الكافر، وناحت الجبال، وذرفت حجارة الأرض الدموع.

فلتحل لعنة اللّه على الأشرار، ويحل عليهم عذاب اللّه الأبدي.

استولى شخص جديد على الخلافة، وأنكر حق أبناء أسد اللّه، الحسن والحسين، ابني فاطمة المباركة. قتلوا الحسن بقسوة بدس السم له؛ ولما هب الحسين للدفاع عن الحق، أزهقوا روحه الطاهرة في كربلاء عندما كان منحنياً على بركة ماء ليروي ظمأه بعد المعركة.

---

١. من الواضح أن هذه الحكايات نابعة من اعتقاد الشيعة بأن الخلفاء الراشدين رضوان اللّه عليهم قد ظلموا علياً رضي الله عنه، واغتصبوا حقه بالخلافة.

فلتحل لعنة اللّه على الأشرار، ولترو دموع الملائكة ثرى كربلاء المباركة. اجتث رأس الحسين ـ الذي كان يقبله الرسول ﷺ [1] ـ بقسوة، وعاد بدنه من دون رأس إلى الخيمة التي كان أولاده يبكونه فيها، وينتظرون عودته.

منذ ذلك اليوم يدعو المؤمنون اللّه أن ينزل لعنته على المعتدين، منذ ذلك اليوم يبكون موت علي والحسن والحسين؛ وأنتم أيضاً يا مؤمنون، ارفعوا أصواتكم بالعويل والنواح على مصرعهم ـ اللّه يغفر ذنوب من يبكون نسل الرسول ﷺ...

وتدفع المرثية النساء إلى نهنهة البكاء، بينما تنسال دموع صامتة على لحى الرجال...

مثل تلك «المناحات» تمثل فعلاً صرخة عميقة مستمدة من صورة تاريخية لتلك الأحداث المبكرة الدامية التي أحدثت شرخاً لم يمكن جبره، وانقساماً لم يمكن تخطيه في عالم المسلمين، انقسم المسلمون إلى سُنّة، وهم الأغلبية ويؤمنون أن مبدأ اختيار الخليفة كان صحيحاً، والشيعة الذين يصرون على أن الرسول ﷺ اختار علياً رضي الله عنه، زوج ابنته، وارثاً شرعياً وخليفة له، وفي الحقيقة، توفي الرسول ﷺ دون أن يسمي أي خليفة له قبل وفاته، فاختار المسلمون أقدم رفيق مخلص له خليفة، وهو أبو بكر رضي الله عنه وتلاه عمر رضي الله عنه ثم تلاه عثمان رضي الله عنه، ولم يبايع المسلمون علياً، رضي الله عنه، للخلافة إلا بعد وفاة عثمان رضي الله عنه.
لم تكن هناك شائبة في أي من الخلفاء الذين سبقوا علياً، رضي الله عنه، وكنت أعرف ذلك في أثناء وجودي في إيران وقبل إسلامي. كانوا بالفعل الأنبل والأعظم في التاريخ الإسلامي بعد الرسول ﷺ، وكانوا في حياته أخلص الصحابة وأقربهم؛ لم يكونوا بالتأكيد «مغتصبين» للخلافة، واختارهم المسلمون بإرادة حرة زرعها فيهم الإسلام. لم يسعوا إلى السلطة، وأدى رفض علي رضي الله عنه [1]، وأتباعه القبول باختيار عموم المسلمين للخلفاء إلى نشوب الصراع على السلطة بعد ذلك، وإلى

---

١ـ إشارة إلى هذا الحديث الذي رواه أبو هريرة قال: أبصر الأقرع بن حابس النبي ﷺ وهو يقبل الحسن، وقال ابن عمر الحسن أو الحسين. رواه الترمذي في صحيحه ٢/١٧٨، رقم الحديث ١٥٦٠.

مصرع علي، رضي الله عنه، كما أدى إلى تحول الخلافة في عصر الخليفة الخامس معاوية، من شكل الانتخاب الديموقراطي للخليفة، إلى مُلْكٌ يتوارثه الأبناء، ثم أدى بعد ذلك إلى مصرع الحسين في كربلاء.

بلى، كنت أعرف كل ذلك قبل وصولي إلى إيران؛ إلا أنني صدمت بعد وصولي إلي هناك من حجم ا لمشاعر الذي تثيره تلك الأحداث التي وقعت منذ ثلاثة عشر قرناً، بين أبناء الشعب الإيراني، كلما ذكر اسم علي، رضي الله عنه، أو الحسن أو الحسين.

بدأت أسأل: هل السوداوية الدفينة في الإيرانيين ومشاعرهم المأساوية هي التي دفعتهم إلى تبني المذهب الشيعي؟ أم أن حجم المأساة التي وقعت للشيعة هي التي أدت إلى صياغة الإيرانين تلك الصياغة المأساوية؟

بدأت الإجابة المذهلة تتكون في ذهني على مراحل، وعلى مدى شهور، ففي منتصف القرن السابع الميلادي، قهرت جيوش عمر رضي الله عنه الإمبراطورية الساسانية في بلاد فارس، ودخل الإسلام إلى تلك البلاد، كانت العقيدة الزرادشتية الفارسية قد تقلصت وانكمشت إلى مجرد مبادئ إصلاحية متصلبة، ولم تصمد أمام الفكر الديني الجديد المملوء بالحيوية، والقادم من الجزيرة العربية. في الوقت الذي دخل فيه الفتح العربي بلاد فارس، كانت إيران تمر بمرحلة اختمار اجتماعي وفكري تشي بميلاد قومي جديد. وحطّم الفتح العربي الأمل في إعادة الخلق القومي الفارسي؛ وتوقف الامتداد القومي التاريخي لفارس، بعد أن تبنوا ثقافة الإسلام وفكره وأخلاقه التي جاءت مع الفاتحين.

مثّل دخول الإسلام إلى إيران، كما مثّل إلى بلاد كثيرة أخر، طفرة اجتماعية تقدمية كبيرة، فقد دمر الإسلام النظام الطبقي، وخلق مجتمعاً جديداً مبنياً على الحرية

---

١ـ لم يرفض علي رضي الله عنه القبول باختيار المسلمين الخلفاء الثلاثة من قبله،بل الثابت تاريخياً أنه كان عضواً ووزير صدق لهم، وقد سمى بعض أولاده بأسماء أبي بكر وعمر، وزوج الخليفة عمر رضي الله عنه ابنته أم كلثوم سبط الرسول صلى الله عليه وسلم وعبارة المؤلف فضلاً عن كونها خاطئة فلم تلتزم الأدب الواجب مع الإمام علي رضي الله عنه.

والمساواة، وفتح قنوات جديدة لانطلاق الفكر والطاقات المبدعة التي ظلت جامدة ومكبوتة عصوراً طويلة، إلا أن أهل بلاد فارس لم ينسوا أنهم أبناء داريوس، وإكسيركسس، ولم ينسوا مشاعرهم القومية، ولم ينسوا الرابط العضوي بين ماضيهم وحاضرهم، والذي تفجر فجأة في مواجهة فكر جديد. كان شعب فارس يجد نفسه في الثنائية المعقدة بين الزرادشتية وبين عقيدة وحدة الوجود الممثلة في العناصر الأربعة - الهواء، والماء، والنار، والتربة، ووجدت تلك الثنائية الدينية نفسها في مواجهة ديانة توحيدية لا تهادن، ولا تصالح، وتتطلع إلى المطلق. كان الانتقال حاداً ومؤلماً، لم يسمح للإيرانيين بوضع وعيهم القومي القوي والدفين في مرتبة تابعة للمفهوم الإسلامي الذي يتجاوز القوميات، ويعلو فوقها. وعلى الرغم من تسارعهم إلى اعتناق الإسلام وقبولهم الإرادي بالديانة الجديدة، إلا أنهم وازنوا في لا وعيهم بين انتصار الإسلام والهزيمة القومية الفارسية؛ وكان إحساسهم بأنهم هزموا مؤلماً بكل ما يحتويه من غموض، وأدى إلى تقويض إحساسهم القومي بالثقة بالنفس على مدى قرون تالية. وبعكس أمم كثيرة دخلها الإسلام وأدى اعتناقهم له إلى خلق نبضات قوية إيجابية دافعة للتطور، كان أول رد فعل إيراني - وقد دام بعد ذلك طويلاً - إحساساً شديداً بالهوان، وكبحاً للاستياء في أعماقهم.

كان عليهم كبح استيائهم وتخفيف وطأته في أعماق اللاوعي؛ لأن الإسلام أصبح العقيدة السائدة في إيران. وفي مواجهتهم النفسية لكراهيتهم للعرب لغزوهم بلادهم، لجأ الإيرانيون بلا وعي منهم إلى ما يطلق عليه علماء التحليل النفسي «المغالاة» أو «المبالغة المضادة»، بدؤوا يعدون الدين الذي دخل بلادهم على أيدي الغزاة العرب ديناً خاصاً بهم، وهم أصحابه. قاموا بذلك بلا وعي من خلال تحويل وعي العرب المسلمين العقلي بوحدانية الله الذي لا غموض فيه إلى نقيضه، غموض خيالي، وعواطف انقباضية غائمة.
تحول الإيمان الذي يمثل للعرب واقعية وإحساساً بالحاضر الزمني ومصدراً للحرية وراحة النفس، إلى تشوّق للغيبيات والغموض والرمز.

كما تحول الفكر الإسلامي الذي يؤكد وجود الله الذي لا تدركه الأبصار إلى مبادئ غامضة (كان لها سوابق في فارس قبل الإسلام) عن التجلي المادي لله، وخصوصاً

فيمن ماتوا ممن اختارهم الله، والذين نقلوا الاختيار الإلهي بالوراثة إلى أبنائهم وذريتهم من بعدهم. بمثل ذلك الميل، مثّل اعتناق الإيرانيين لأفكار الشيعة قناة واسعة رحبة ناسبت ذلك التكوين النفسي، فلا يوجد شك في أن تبجيل الشيعة بما يقرب من التأليه لـ (علي)، رضي الله عنه، ونسله تخفي في غضونها تجسيد الإله واستمرار تجسيده في نسله - وهي فكرة دخيلة تماماً على الإسلام، وغريبة على محتواه، (...).

لم يكن مصادفة أن يموت الرسول ﷺ دون أن يسمي خليفة له، وقد رفض بالفعل تسمية خليفة له حين سُئل في ذلك قبل فترة قصيرة من وفاته. لقد أراد أن يؤسس بذلك الموقف: أولاً، أن الجانب الروحي من الدين والنبوة لا يمكن «توريثه». وثانياً: أن قيادة الأمة لابد أن تنتج عن انتقاء حر يقوم به المسلمون أنفسهم، لا أن تكون «بأمر» من الرسول ﷺ أو «بترسيم» منه (وقد كان تسميته لخليفة يتضمن ذلك كله - إلاأنه لم يفعل) لقد ألغى عامداً فكرة أن تكون قيادة الأمة قيادة نبوية وراثية. إلا أن ذلك ما هدفت إليه عقيدة الشيعة الذين قصروا حق الخلافة النبوية (في تناقض واضح مع روح الإسلام)، بل احتفظ بذلك الحق الخلافي النبوي «لنسل الرسول» ﷺ فقط، أي قصره على ابن عم الرسول ﷺ وزوج ابنته، علي رضي الله عنه، ونسله من بعده.

لقد جاء ذلك متلائماً تماماً مع الميول النفسية الغامضة للفرس، فقد انضموا إرادياً إلى معسكر أولئك الذين ادعوا أن جوهر روح محمد ﷺ انتقلت إلى علي، رضي الله عنه، وإلى نسله، لم يكتف الفرس بإشباع روح الغموض والألغاز فيهم: بل كان هناك دافع لا إرادي آخر لاختيارهم تلك المبادئ واعتناقها. فإن كان عليّ، رضي الله عنه، هو الوارث والخليفة الشرعي للرسول ﷺ، فإن الخلفاء الثلاثة رضوان الله عليهم الذين سبقوا علياً، رضي الله عنه، لا بد أن يصنفوا مغتصبين للخلافة، وكان منهم عمر رضي الله عنه، وهو عمر ذاته الذي غزا فارس، ووفر ذلك سبباً لتحويل الكره القومي لمن غزا الإمبراطورية الساسانية إلى كره عقائدي وديني، تلك العقيدة التي أصبحت خاصة بفارس: أصبح عمر هو من نزع حق علي وأبنائه الحسن والحسين وحرمهم من حقهم الإلهي في خلافة الرسول ﷺ، وأن عمر بفعله ذاك لم ينصع لإرادة الله، بل عاداه؛ وأنهم لدعم إرادة الله ومشيئته، لابد من دعم حزب علي... ومن داخل عداء قومي، ولدت شريعة دينية مغايرة.

كان تعظيم الفرس وتمجيدهم للعقيدة الشيعية تعبيراً عن احتجاج صامت على غزو العرب (إيران)[١]. أدركت الآن لماذا يلعن الشيعة عمر ﷺ بكراهية تفوق في مرارتها تلك اللعنات التي توجه إلى «المغتصبين» الآخرين لخلافة علي - (أبو بكر)، وعثمان -: فمن المفروض من وجهة نظر العقيدة الشيعية أن يكون أبو بكر، الخليفة الأول، المعتدي الرئيس، والمغتصب الأول، إلا أن عمر هو من غزا فارس.

كان ذلك هو السبب الكامن وراء التشدد المبالغ فيه في تبجيل علي في إيران. أصبح ذلك التبجيل الذي يصل إلى حد القداسة رمزاً للانتقام الفارسي من العرب المسلمين (مع أن الإسلام ينهى بشدة عن تقديس البشر بما فيهم محمد ﷺ). ومع أن التشيع بوجه عام لم يبدأ، ولم ينبت في بدايته في إيران، فهناك شيعة آخرون في بلاد إسلامية أخرى، إلا أن مشاعر الشيعة خارج إيران ليست حادة مثلما هي في إيران، وتسيطر كلياً على مشاعرهم وخيالهم. وعندما يخرج الإيرانيون مشاعرهم الدفينة، ويعبرون عنها بالحداد والنواح على مصرع علي، والحسن والحسين، فإنهم لا ينوحون فقط على مصرع علي وأبنائه، بل يبكون أنفسهم وضياع عظمتهم القومية التي زالت إلى الأبد...[٢]

* * *

الإيرانيون شعب سوداوي ومكتئب بالفعل، وانعكست كآبتهم على براريهم وأرضهم، - تلك الأصقاع الممتدة التي تبدو بلا نهاية، وعلى ممراتهم الجبلية وطرقهم الممتدة بين المدن، وعلى قراهم المنتشرة في مساحات واسعة مبنية من الطين، وعلى مشهد قطعان الأغنام التي تساق في المساء في موجات بنية رمادية إلى الآبار. وعلى حياة المدن التي تنسل كتساقط القطرات الشحيحة البطيئة على الدوام، من دون تقدم صناعي أو معرفي بالمرح؛ كل شيء يبدو مغلفاً في أحلام محجبة، وكل وجه تعلوه إمارات انتظار كسولة ومتراخية. لا تسمع أبداً أي موسيقى في الشوارع. وإذا علا صوت أحد التتاريين بالغناء في حظيرة استراحة على طريق ناءٍ، فإنه غناء يخرق الأذن بغرابة. لا يغني علناً إلا المنشدون من الدراويش، وهم بدورهم لا ينشدون إلا تلك

---

١- لم يكن فتح إيران معتمداً على بعد قومي كما يذكر المؤلف، بل هو فتح إسلامي كان الهدف منه كما هو معلوم إخراج الناس من عبادة الأشخاص إلى عبادة الواحد الديان.

٢- هذه الآراء التي أوردها المؤلف حول الشعب الإيراني وعقيدته، وجهات نظر قد لا يتفق معه الآخرون.

الأناشيد القديمة عن علي والحسن والحسين ﷺ، أناشيد مغلفة بالموت والدموع، وتمضي بشدة في رؤوس المستمعين، رعب مخلوط بحزن، إلا أنه حزن محبب ومرغوب فيه، يغلف الشعب كله.

ترى في أمسيات الصيف في طهران، الرجال والنساء جالسين بلا حركة حول مجاري المياه في الشوارع تحت ظلال أشجار الدردار الضخمة. يجلسون محملقين في المياه الجارية، لا يوجه أحدهم الحديث إلى الآخر، يستمعون فقط إلى صوت خرير الماء في صمت لا يقطعه إلا حفيف أوراق الأشجار عند هبوب النسيم، كلما رأيتهم تذكرت مزمار داود:

«على ضفاف نهر بابل، جلسنا وبكينا...».

يجلسون على ضفاف الماء مثل طيور ضخمة خرساء، شاردي الذهن في الصمت المصاحب لخرير الماء، أفكارهم منسحبة إلى بُعدٍ مقصور عليهم. وحدهم، وخاص بهم وحدهم... ماذا ينتظرون؟.. ولأي هدف؟

وأنشد داود: «علقنا قيثاراتنا على أشجار الصفصاف».

(٣)

«انهض يا زيد، هيا بنا» - وضعت رسالة عليٍ آغا في جيبي، ونهضت مودعاً الزغيبي الذي هز رأسه قائلاً: «لا يا أخي، اترك زيداً معي، ما دمت تبخل عليّ بحكاية ما صادفك في الأشهر الماضية، دعه يقص علي ما صادفكم، أم تظن أن أصدقاءك لم يعودوا يهتمون بما يحدث لك؟».

# الفصل العاشر

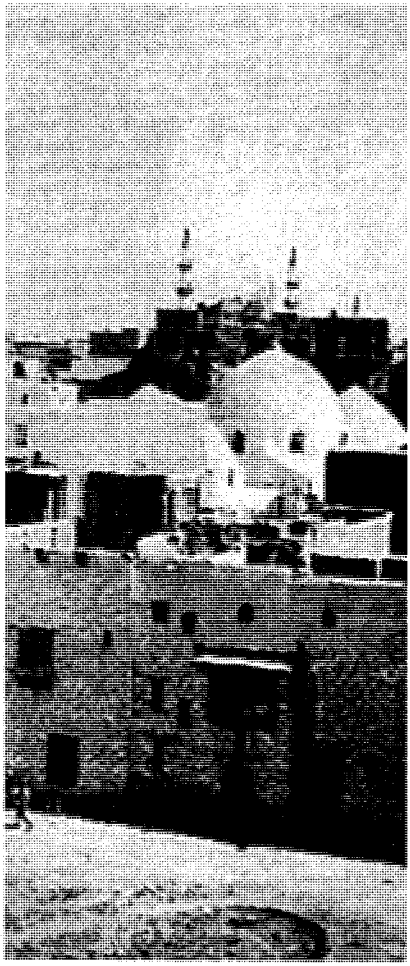

أحد أحياء المدينة المنورة
١٣٤٥ (١٩٢٧م)

## دجال

سرت خلال حارات ضيقة متعرجة
في أقدم حي من أحياء المدينة المنورة:
بيوته من الحجر، وله نوافذ كستنائية اللون،
وشرفات معلقة،
تضيق الممرات حتى تتحوّل إلى ما يشبه
الدهاليز الضيقة،
يزداد ضيقها في بعض المواضع
حتى لا تسمح لمرور شخصين متقابلين،
وجدت نفسي أمام واجهة مكتبة حجرية بناها
باحث تركي منذ مئة عام.
كان الصمت العميق يسود
الفناء الخارجي الذي يلي البوابة.

عبرت أرض الفناء الممهدة بأحجار متساوية الحجم وتتوسطه شجرة ساكنة دون حراك، ودخلت قاعة مسقوفة تحيط بجوانبها من الداخل خزائن كتب بواجهات زجاجية، تصطف خلفها آلاف المخطوطات اليدوية، تضم أندر أنواع المخطوطات في العالم الإسلامي، كتباً ومخطوطات قديمة أفرزتها عظمة الحضارة الإسلامية، عظمة انقضت وابتعدت مثل رياح الأمس.

عندما كنت أنظر إلى الكتب والمخطوطات ذات الأغلفة الجلدية، كان اختلاف الحال بين مسلمي الأمس واليوم يوجعني كلكمة مؤلمة...

سمعت صوتاً أخرجني من شرودي: «ماذا يشغلك يا بني؟ ولمَ نظرة المرارة تلك المرسومة على وجهك؟».

استدرت باتجاه الصوت - رأيت المتحدث جالساً على بساط بين نافذتين، على ركبته مجلد ضخم، كان صديقي القديم، الشيخ عبد اللّه بن بليهد. كانت عيناه النافذتان تحييانى بنظرة دافئة وأنا أقبل جبهته، وأجلس إلى جواره. كان ابن بليهد من أعظم علماء نجد، وعلى الرغم من تشدد السلفيين، إلا أنه كان واحداً من أعظم العقول التي عرفتها في البلاد الإسلامية. كانت صداقتنا عوناً كبيراً لي على حياتي بالجزيرة العربية، وأضفت كثيراً من البهجة والسعادة على حياتي، وكانت كلمته مسموعة في مملكة الملك عبد العزيز آل سعود أكثر من أي إنسان آخر، باستثناء الملك بالطبع. أغلق المجلد الذي كان يقرؤه وأدناني منه، وهو يتطلع إليّ سائلاً في صمت.

قلت له: «كنت أفكر ياشيخ في المدى الذي ابتعدنا فيه عن هذا حتى وصلنا إلى حاضرنا البائس، وهوان المنزلة التي نحن عليها»، قلت ذلك وأنا أشير إلى الكتب. أجاب الشيخ: «نحن لا نحصد يا بني إلا مازرعناه. كنا عظماء ذات يوم: الإسلام هو ما جعلنا عظماء. كنا حملة رسالة، وبقدر ما أخلصنا في حمل تلك الرسالة، كانت قلوبنا ملهمة، وعقولنا مستنيرة؛ ولكن بمجرد أن نسينا الغرض الذي كلفنا اللّه به من حمل الرسالة، سقطنا... لقد ابتعدنا كثيراً عن هذا» وأشار بدوره إلى

الكتب، «لأننا ابتعدنا كثيراً عما علمنا إياه الرسول عليه الصلاة والسلام منذ ثلاثة عشر قرناً مضت».

بعد فترة صمت وتأمل سألني: «كيف يمضي عملك؟»، كان يعلم أنني كنت مشغولاً بدراسات مرتبطة بالتاريخ الإسلامي المبكر.

قلت له: «أعترف لك ياشيخ أنها لا تمضي على الوجه الذي أبتغيه. لا أجد راحة في أعماقي، ولا أدري سبباً لذلك، عدت من جديد إلى التجوال في الصحراء».

نظر إليّ ابن بليهد بعيون باسمة ـ تلك العيون الحكيمة التي تنفذ إلى أعماق الأمور، ثم مسد لحيته المصبوغة بالحناء بأصابعه، وقال:

«إن لعقلك عليك حقاً، كما أن لبدنك عليك حقاً... تزوج».

كنت أدرك بالطبع أن الزواج يعد في نجد حلاً لأي نوع من أنواع الحيرة، لذلك لم أستطع أن أمنع ضحكة عالية خرجت مني: «ولكنك ياشيخ تعرف أني تزوجت من عامين، ورزقت بولد هذا العام».

هز الرجل العجوز كتفيه وقال: «إذا كان قلب الرجل مستريحاً مع زوجه، فإنه يقضي في بيته أغلب وقته، وأنت لا تمكث في البيت... وعدا ذلك لن يضر المرء أن يتخذ لنفسه زوجة ثانية» (كان هو ذاته له ثلاث زوجات، وقيل لي إن أصغرهن، التي تزوجها من شهرين تبلغ السادسة عشرة، مع أنه تجاوز السبعين).

استأنفت الحديث سائلاً: «كما تقول ربما لا يضر المرء أن يتخذ لنفسه زوجة ثانية: ولكن ماذا عن الأولى؟ ألن يضرها ذلك؟».

رد قائلاً: «يا بني، لو كانت المرأة تستحوذ على قلب زوجها كله، لن يفكر ولن

يحتاج إلى الزواج بأخرى. أما إن لم يكن جماع قلبه معها ـ هل يفيدها أن تحتفظ بنصف قلبه ونصف مشاعره؟».

لم أجد بالطبع إجابة أرد بها على ذلك. فالإسلام يوصي بالتأكيد بالزواج بواحدة، إلا أنه يسمح بالزواج بأربع زوجات في أحوال استثنائية، وقد يسأل امرؤ لماذا لم يمنح الإسلام الحق نفسه للمرأة أيضاً؛ إلا أن الإجابة بسيطة: فبغض النظر عن حقيقة الحب والعواطف التي دخلت حياة البشر على مدى تطور الجنس البشري، فإن السبب «البيولوجي» الكامن وراء الرغبة الجنسية في كلا الجنسين هو التناسل: وبينما يكون بقدرة الأنثى أن تحمل طفلاً في المرة الواحدة من رجل واحد فقط، وتحمل الطفل في أحشائها مدة تسعة أشهر قبل أن يصبح لديها القدرة على حمل طفل آخر، نجد أن طبيعة خلق الرجل مختلفة حتى إنه من الممكن أن يهب طفلاً في كل مرة يضاجع فيها امرأة. وهكذا، نجد أن طبيعة الخلق لن تضيف شيئاً إذا وهبت المرأة غريزة تعدد الأزواج، نجد أن غريزة التعدد لدى الرجل من وجهة نظر التناسل مسوّغة ومشروعة. ومن الواضح أن العنصر البيولوجي المرتبط بالمتعة البدنية واحد ـ ولا يوجد اختلاف على أنه أهم عنصر في شؤون الحب، أي عنصر أساسي، وهو المحدد في شؤون مؤسسة الزواج الاجتماعية. ومع الحكمة التي تأخذ في الحسبان الطبيعة البشرية، فقد أخذ التشريع الإسلامي في حسبانه الوظيفة الاجتماعية البيولوجية للزواج (والذي يشمل بالطبع العناية بالنسل)، لذلك سمح للرجل بالزواج من أكثر من امرأة، بينما لم يسمح للمرأة بالزواج من أكثر من رجل، وبما أن الجوانب العاطفية لا يمكن قياسها فإنها خارج نطاق التشريع، ولذا تركت لتقويم أطراف العلاقة الزوجية، أي أنه إذا كان هناك حب عميق ومتبادل، فإن مسألة الزواج بأخرى غير واردة؛ وعندما لا يجد الرجل أنه يحب زوجه من كل قلبه ومشاعره، ولا يريد أن يفقدها لأسباب العناية بالنسل، فبإمكانه الزواج من أخرى، مع موافقة الزوجة الأولى بمشاركة امرأة أخرى لها في زوجها، وإن لم توافق على ذلك، فمن حقها الحصول على الطلاق، ويكون لها حرية الزواج مرة أخرى من رجل آخر. والزواج في الإسلام ليس مقدساً، بل هو تعاقد مدني، وحق الطلاق متاح دائماً لطرفي العلاقة. ومشاعر العار التي

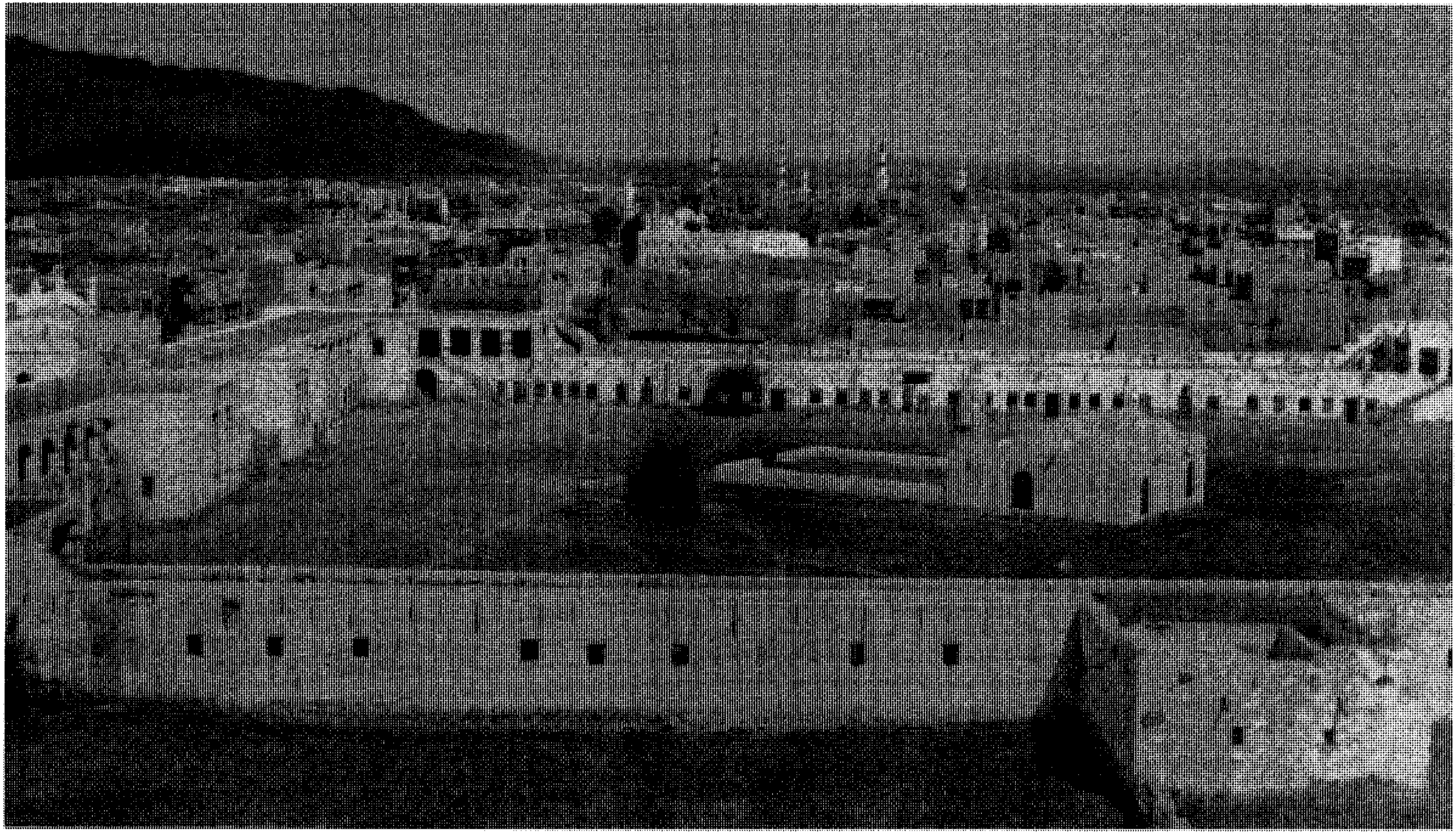

المدينة المنورة ١٣٤٥ (١٩٢٧م)

تصاحب الطلاق بدرجة أو أخرى في المجتمعات غير الإسلامية غير موجودة في الإسلام (مع استثناء المسلمين الهنود، الذين تأثروا في هذا الشأن على مدى قرون بمجتمع هندوسي يحرم الطلاق تحريماً مطلقاً).

وفي الوقت الذي تتيح فيه الشريعة الإسلامية لكل من الرجال والنساء حرية الزواج والطلاق، فإن الزنا يعد من أشنع الكبائر وأبشعها، فمع تلك الحقوق، لا يوجد تسويغ عاطفي ولا حسي لمقترف كبيرة الزنا. وقد كان لتخلف المسلمين على مدى قرون طويلة أثره في التخلف الاجتماعي الذي جعل من الصعب على المرأة أن تطالب بحقها في الطلاق بالحرية التي قصدها التشريع، لذلك، لا يلام الإسلام في عزلة المرأة على مدى قرون في مجتمعات إسلامية كثيرة، بقدر ما تلام العادات الاجتماعية المختلفة، ولا نجد في القرآن الكريم ولا في حياة الرسول ـ ﷺ ـ أي محاذير على ممارسة المرأة لحقها في طلب الطلاق، إلا أن تلك الشوائب الاجتماعية تسربت إلى حياة المسلمين من المجتمع البيزنطي.

* * *

قطع الشيخ ابن بليهد استغراقي في التفكير بفهم العارف للنفس البشرية قائلاً: «لا حاجة بك إلى اتخاذ قرار متسرع، وستتخذ ذلك القرار يا بني، عندما يجب عليك اتخاذه، وتشعر بالحاجة إليه».

(٢)

ساد الصمت أرجاء المكتبة؛ كنت والشيخ ابن بليهد بمفردنا في الغرفة المسقوفة، سمعنا صوت المؤذن يؤذن لصلاة المغرب من مسجد صغير قريب من المكتبة؛ وبعد لحظة ارتفع الآذان من المآذن الخمس لمسجد الرسول ﷺ التي لا نراها من موضعنا، وترتفع في فخار حول القبة الخضراء للمسجد.

بدأ مؤذن واحدة من المآذن الخمس في ترديد: اللّه أكبر في صوت عميق شجيّ.. وقبل أن ينهي تكبيراته الأولى بدأ المؤذن في المئذنة القريبة منا في الأذان بنغمة صوتية أعلى قليلاً من الأول... اللّه أكبر، اللّه أكبر، وبينما كان مؤذن المئذنة الثالثة يرتفع صوته بالتكبير بتباطؤ، كان الأول قد انتهى من التكبير، وبدأ ـ

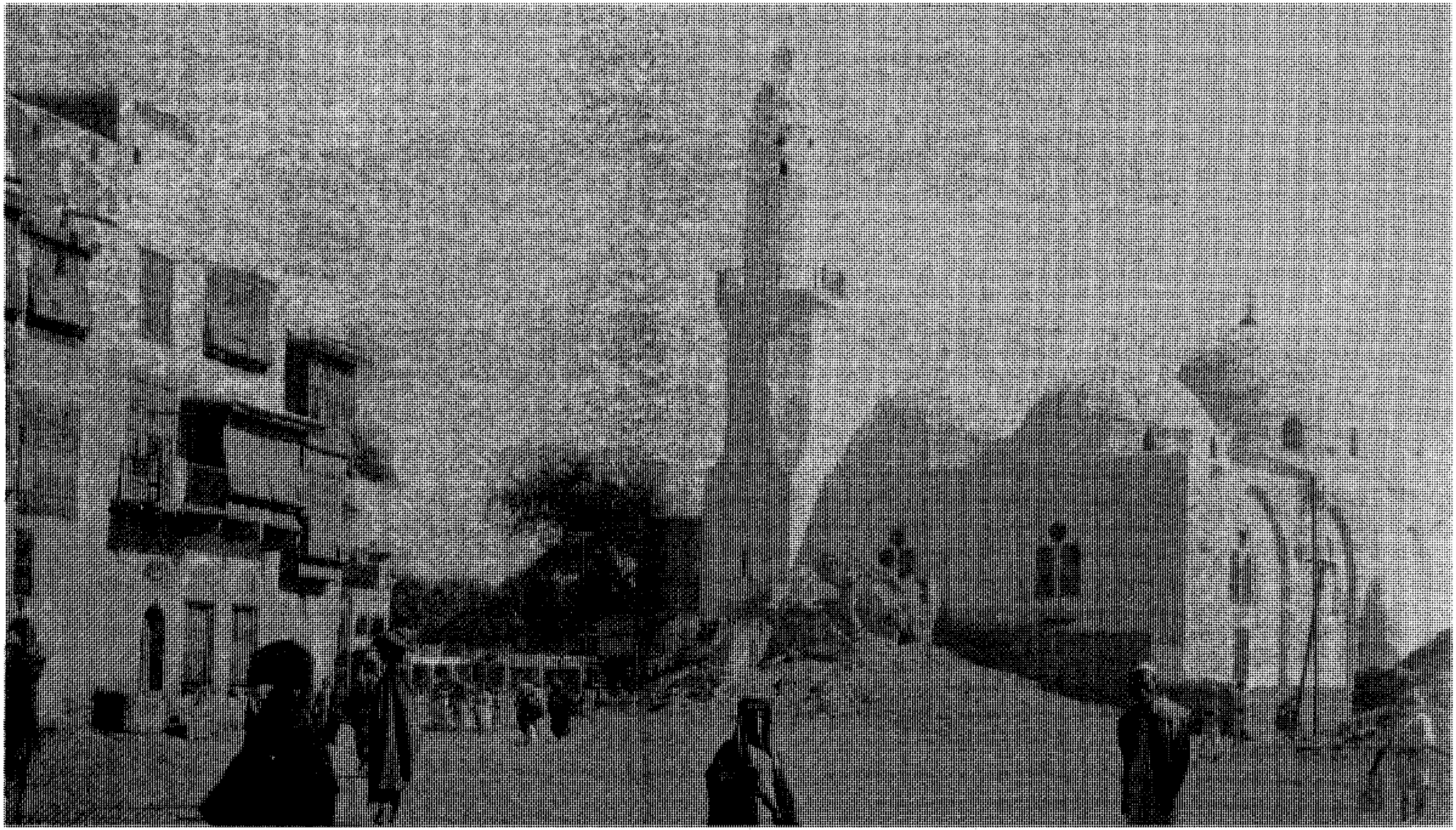

مسجد الغمامة ١٣٤٥ (١٩٢٧م)

والآن تصاحبه التكبيرات الأولى من المئذنة الرابعة والخامسة ـ النداء الثاني: أشهد أن لا إله إلا اللّه ـ بينما كانت أصوات المؤذنين من المئذنة الثانية ثم الثالثة تنزلق على أجنحة صوتية ناعمة.. أشهد أن محمداً رسول اللّه. بالطريقة نفسها كان كل نداء يتكرر مرتين من كل من المؤذنين الخمسة، واستمر الأذان يتتابع وتتداخل أصواته، حي على الصلاة، حي على الصلاة، حي على الفلاح، بدا كل صوت وكأنه يوقظ النداء الذي يليه ثم تجتمع معاً بعد ذلك، ليتلاشى، ويرتفع من جديد عند موضع آخر لمؤذن آخر، وهكذا حتى نهاية الأذان: اللّه أكبر، اللّه أكبر، لا إله إلا اللّه.

ذلك التمازج الصوتي الفريد بين مؤذني المآذن وافتراقهم وتوحدهم من المآذن المختلفة يشكل أصواتاً إنسانية فريدة. عند الأذان يخفق قلبي ويقفز إلى حلقي في حب مثير لهذه المدينة، وأصوات مؤذنيها، بدأت أدرك أن كل تجوالي لم يكن له إلا هدف واحد، وهو أن أصل وأحقق المعنى من ذلك الأذان...

قال الشيخ ابن بليهد: «هيا بنا إلى المسجد لنصلي المغرب».

* * *

بقي مسجد الرسول ﷺ على وضعه الحالي منذ منتصف القرن التاسع عشر، إلا أن بعضاً منه يعود إلى عصور أقدم ـ لعصر المماليك، وأجزاء أخرى أقدم من ذلك.

كانت ساحة المسجد التي تحتوي على قبر الرسول ﷺ، تشغل المساحة نفسها التي شيدها عليها خليفة المسلمين الثالث، عثمان رضي الله عنه، في القرن السابع الميلادي. وفوق تلك المساحة تنهض القبة الكبيرة الخضراء، مزخرفة من الداخل وعليها آيات قرآنية، وتحمل السقف صفوف كثيرة من أعمدة الرخام، وتقسّم الساحة الداخلية تقسيماً متناغماً ومتناسقاً. وتغطي الأرض الرخامية بُسُط نفيسة، وفوق المحاريب الثلاثة مصابيح زيتية من البرونز، وكل محراب على شكل تجويف حائطي باتجاه مكّة المكرّمة: واحد منها للإمام الذي يؤم المصلين في صلاة الجماعة، ومئات المصابيح معلقة في سلاسل نحاسية طويلة، وهي

مصابيح من البللور الزجاجي، في داخل كل منها مصباح زيتي يضاء بزيت الزيتون، وتنشر في الليل ضوءاً رقيقاً على صفوف المصلين. في أثناء النهار يمتلئ المسجد بنور أقرب إلى الأخضر فيبدو كأنه قاع بحيرة؛ ويبدو المصلون بأقدامهم العارية كأنهم يصلون في ماء، ويأتي صوت الإمام من أول ساحة المسجد خافتاً بلا صدى.

أما قبر الرسول ﷺ فهو غير مرئي، وتخفيه ستائر سميكة محاطة بأسوار برونزية أقامها في القرن الخامس عشر الميلادي السلطان المملوكي المصري قايتباي. وفي الحقيقة، لا توجد مقبرة بالمعنى المفهوم للكلمة. فقد دُفن النبي ﷺ في قبر في باطن الأرض في الغرفة نفسها في المنزل البسيط الذي عاش ومات فيه. في أزمنة لاحقة تم بناء سور بلا باب حول المنزل، وبذلك تم عزل المنزل عن العالم الخارجي. كان المنزل في حياة الرسول ﷺ ملاصقاً للمسجد؛ وعلى مر العصور، تم توسيع المسجد حتى شمل المنزل والمدفن معاً.

تغطي الباحة الداخلية للمسجد صفوف الأبسطة؛ وصفوف من البشر يقرؤون القرآن الكريم، أو يتحاورون، وبعضهم صامت في انتظار إقامة صلاة المغرب. كان ابن بليهد مستغرقاً تماماً في صلاة صامتة.

ارتفع صوت قارئ بالقرب من المحراب، يتلو آيات القرآن الكريم كما يحدث دائماً قبل صلاة المغرب. كان يتلو في ذلك اليوم سورة «العلق»، وهي أول ما نزل على محمد ﷺ من قرآن - والتي تبدأ بآيات: «اقرأ باسم ربك الذي خلق» بتلك الكلمات نزل وحي اللّه أول مرة على محمد ﷺ في غار حراء بالقرب من مكّة المكرّمة.

كان محمد ﷺ يتعبد وحيداً، كما اعتاد أن يفعل، وعندما ظهر له الوحي فجأة. أمره قائلاً: «اقرأ». كان محمد ﷺ شأنه شأن أهل عصره وموطنه، لم يتعلم أبداً القراءة، وفضلاً عن ذلك، لم يعرف ما الذي يريده الوحي أن يقرأ، أجابه في روع: «ما أنا بقارئ». حينئذ، ضمه الوحي ضمة قوية شعر محمد ﷺ معها أنه فقد قواه؛ ثم أطلقه الوحي وأعاد عليه الأمر: «اقرأ»، ومرة ثانية يجيبه محمد ﷺ: «ما

أنا بقارئ»، فضمه الوحي ضمة أخرى حتى خارت قواه، وظن أنه ملاقٍ حتفه؛ ثم أطلقه، ومرة ثالثة يأتيه الأمر كالرعد: «اقرأ»، وعندما أجابه محمد ﷺ للمرة الثالثة في روع: «ما أنا بقارئ»، قال الوحي:

﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝٥﴾

وهكذا، بإشارة ضمنية من القرآن الكريم إلى وعي البشر وفكرهم ومعرفتهم، بدأ نزول القرآن الكريم على محمد ﷺ، واستمر نزوله على مدى ثلاثة وعشرين عاماً، حتى توفي الرسول ﷺ في المدينة المنورة في سن الثالثة والستين.

إن قصة تجربته الأولى مع تجلي الوحي له، تذكّر المرء بشكل ما، بمغالبة يعقوب ملاك الرب كما جاءت في سفر التكوين من التوراة. بينما قاوم يعقوب الملاك، واشتبك معه في صراع، أسلم محمد ﷺ نفسه لضم الوحي له في خشية ورهبة وفزع حتى «خارت قواه»، ولم يتبق فيه قدرة إلا على سماع صوت لا يستطيع معه أن يحدد أكان الصوت يأتي من خارجه أم من داخله، لم يكن يعلم أن عليه منذ تلك اللحظات أن يكون ممتلئاً وفارغاً في الوقت نفسه؛ فالبشر تملؤهم الاحتياجات والرغبات البشرية والوعي بحياتهم وذواتهم، وفي الوقت نفسه خالية متلقية لتعاليم الرسالة من الوحي. لقد تجلى أمامه كتاب الحقيقة الأزلية غير المرئي ـ الحقيقة التي تضفي وحدها قيمة ومعنى على كل شيء مُدرك وكل حدث في الوجود؛ طلب منه الوحي أن «يقرأ» ما يدركه البشر، وما لايمكن أن يعرفوه بأنفسهم.

ارتاع محمد ﷺ من المضامين العظيمة التي تضمنتها تلك الرؤية في أول آيات

١ـ سورة العلق: ١-٥. ومعنى الحديث رواه البخاري في كتاب بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ ج١/٣، ومسلم في كتاب الإيمان، باب بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ ج١/١٣٩ حديث رقم ٢٥٢، وأحمد في المسند٣/ ٣٢٥ و٣٧٧، و٢٣٦ و٢٣٣.

نزلت عليه، كان مثله مثل موسى عليه السلام أمام الأيكة المحترقة في الصحراء، يشعر أنه دون ما يُطلب منه، وأنه لا يستحق وضع النبوة السامي، ويرتعد أمام فكرة أن اللّه اختاره هو من دون غيره من البشر. وقيل: إنه عاد مرتجفاً إلى مكّة المكرّمة، ودخل بيته وهو ينادي زوجه خديجة، رضي اللّه عنها، قائلاً وهو يرتعد: «زمليني، زمليني»، كان يرتعد مثل غصن شجرة في مهب الريح، فدثرته بدثار، حتى سكن روعه، ثم أخبرها بما وقع له، وقال: «أنا خائف»، إلاأن خديجة، رضي اللّه عنها، بوضوح رؤيتها الذي لا ينتج إلا من حب، أدركت على الفور أنه خائف من عظم المسؤولية التي ألقيت على عاتقه؛ وقالت له مطمئنة لخوفه: «أبشر، فواللّه لا يخزيك اللّه أبداً، وواللّه إنك لتصل الرحم، وتصدق الحديث، وتؤدي الأمانة، وتحمل الكل، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق» ثم انطلقت به إلى ورقة، وهو ابن عم لخديجة كان يدين بالمسيحية؛ وكان يقرأ الكتاب المقدس بالعبرية؛ كان ورقة بن نوفل في ذلك الوقت رجلاً مسناً، وكان بصره قد كف. قالت خديجة رضي اللّه عنها لورقة: «اسمع من ابن أخيك»، وعندما أعاد عليه محمد ﷺ ما وقع له، رفع ورقة ذراعيه في روع وخشية وقال له: «هذا الناموس الذي أنزل على موسى بن عمران، ليتني فيها جذع! ليتني أكون حياً لأساعدك حين يخرجك قومك!»، سأله محمد ﷺ في دهشة! «أمخرجيّ هم؟»، قال ورقة: «نعم، إنه لم يجئ رجل قط بما جئت به إلا عُودي»[١].

وبالفعل، عاداه قومه على مدى ثلاثة عشر عاماً، حتى هاجر من مكّة المكرّمة إلى المدينة المنورة، فقد كان أهل مكّة المكرّمة غلاظاً قساة القلوب.

* * *

وعلى أي حال، هل من العسير أن نتخيل قسوة القلب التي أظهرها أهل مكّة المكرّمة عندما أنبأهم محمد ﷺ بدعوته أول مرة؟ كانوا مجردين من أي دوافع روحية، ولا يعرفون إلا النوازع المادية والحسية: لم يؤمنوا إلا بأن الحياة الجيدة

١ـ انظر التخريج نفسه في الصفحة السابقة.

لا تتحقق إلا بكسب المال والمزيد من المال. لمثل أولئك الناس تبدو فكرة تسليم أنفسهم بلا مساومة إلى دعوة أخلاقية ودينية ـ فكلمة إسلام تعني حرفياً الاستسلام والتسليم بإرادة اللّه ـ دعوة مستحيلة لا يمكن قبولها. عدا ذلك، كانت دعوة محمد ﷺ تهديداً مباشراً للنظام القائم ولتقاليد القبائل، وترتيب السلطة، وكان ذلك عزيزاً على أهل مكّة المكرّمة. وعندما بدأ بالدعوة إلى التوحيد، وأعلن أن عبادة الأصنام إثم عظيم، لم يروا في ذلك تهجماً على معتقداتهم الموروثة عن أجدادهم وأسلافهم فقط، بل رأوا فيها محاولة لتدمير نظامهم الاجتماعي. على وجه الخصوص، لم يعجبهم، ولم يرضهم تدخل الإسلام في شؤونهم «الدنيوية» التي رأوا أنها خارج نطاق الدين والعبادات ـ مثل الشؤون الاقتصادية، والمساواة بين البشر، والسلوك الاجتماعي العام ـ وكان تدخل الدين الجديد في تلك الجوانب لا يتفق مع مصالحهم المادية، ونسق حياتهم كما يعيشونه، ومصالح قبائلهم. كانت العقيدة جانباً شخصياً ـ مسألة موقف فردي أكثر من أن تكون سلوكاً اجتماعياً.

كان ما يرونه على النقيض تماماً لما دعا إليه النبي العربي ﷺ من إيمان. فقد شملت دعوته الممارسات والمؤسسات والسلوكيات الاجتماعية، وكانت تصيبه الدهشة عندما يقولون له: إن الدين ليس إلا وعياً شخصياً فقط، ولا دخل له بالسلوك الاجتماعي. كان ذلك الجانب من دعوته مكروهاً لهم أكثر من أي جانب آخر. ولو لم تتدخل العقيدة التي يدعو إليها محمد ﷺ في الجوانب الاجتماعية، لربما كانت عداوتهم ورفضهم للدعوة أقل حدة.

تضايقوا بلا شك من الدعوة إلى الإسلام، لأن مضامينه الدينية تناقض معتقداتهم الوثنية؛ إلا أنه كان من الممكن لهم أن يؤمنوا بها بعد القليل من المقاومة والتذمر ـ تماماً كما استسلموا وتواءموا مع الدعوات الفردية لاعتناق المسيحية قبل ذلك ـ لو اتبع الرسول ﷺ نمط التبشير المسيحي وجمع نفسه فقط لدعوة الناس إلى عبادة اللّه، وإلى الصلاة له من أجل خلاص نفوسهم، وأن يسلكوا سلوكاً حسناً في أمورهم الشخصية. إلا أنه لم يتبع النمط المسيحي، ولم

تقتصر دعوته على الإيمان بالله، ولا القيم والمعنويات الفردية. فكيف يجرؤ؟ ألم يأمره ربه أن يقول في صلاته: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي ٱلْءَاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿٢٠١﴾﴾ [١]، لقد سبقت «آتنا في الدنيا حسنة» ثم تبعتها «وفي الآخرة حسنة»، وذلك لأن الحاضر يسبق المستقبل، وثانياً، لأن الإنسان مكون من مركبات تتطلب الإشباع البدني الدنيوي قبل أن يكون لديه قدرة على التطلع إلى نداء الروحانيات وخير الآخرة. لم تكن دعوة محمد ﷺ تدعو إلى جوانب روحية منفصلة ومستقلة عن حياة البشر المادية الدنيوية: كانت الدعوة ترتكز كلياً على مفهوم: أن الروح والبدن ليسا إلا وجهين للوجود البشري. لم تقتصر دعوة محمد ﷺ على الاهتمام بالجانب الروحي وحده لدى أفراد منفصلين، وكانت دعوته تهدف إلى منهج اجتماعي يضمن لكل فرد من أفراد المجتمع الإسلامي أكبر قدر من الإشباع البدني والمادي، وبذلك يوفر له أسباب النمو والتطور الروحي.

بدأ يدعو الناس إلى أن أعمالهم جزء من الإيمان: فالله لا يأمر البشر بالإيمان فقط، ولكن يأمرهم أيضاً بالعمل الطيب، ودعا بقوة إلى مساندة الضعيف إذا تعرض لظلم ممن هو أقوى منه، ودعا إلى مالم يسمع به أهل مكّة المكرّمة من قبل من أن المرأة والرجل متساويان أمام الله، وأنهما مكلفان بالتساوي؛ ومضى إلى ماهو أبعد من ذلك حين أعلن - وهو ما أرعب كفار مكّة المكرّمة - أن للمرأة حقوقاً، لا بانتسابها إلى الرجل كأم أو أخت أو زوجة أو ابنة، بل ككيان إنساني مستقل بذمته المالية، أي أن تكون لها ملكيتها الخاصة، وأن تقوم بالأعمال المالية والتجارية بنفسها ولنفسها، وأن تكون مسؤولة عن نفسها في أمور زواجها، وأدان الميسر والخمور وحرمهما؛ لأنهما كما ذكر القرآن الكريم:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾﴾ [٢]

ونهى الإسلام عن استعباد البشر بعضهم بعضاً؛ ونهى عن الربا، والاحتكار والمتاجرة باحتياجات الناس الأساسية - وهو ما يسمى في عالمنا المعاصر

---

١- سورة البقرة: آية ٢٠١.

٢- سورة المائدة: آية ٩٠.

«المضاربة»؛ كما نهى عن الحكم بصحة السلوكيات أو خطئها متأثرين بمنزلة الفرد من قبيلة أو أمة، ودعا إلى أن الشرعية الوحيدة ـ المقبولة أخلاقياً ـ تهدف إلى مصلحة الجماعة التي تسبق مصلحة الفرد، وأنها لا تتحقق إلا بحرية البشر وقبولهم المشترك والواعي للهدف من الحياة المعتمد على مقاييس أخلاقية، لذلك أصر النبي على إعادة النظر إلى كل المفاهيم الاجتماعية التي كانت حتى ذلك الوقت منيعة وفوق أي مراجعة، وهكذا، كما نقول في عصرنا: «أدخل الدين في السياسة»، وقد كان ذلك توجهاً ثورياً في ذلك الوقت.

كان مشركو مكّة المكرّمة، شأنهم شأن البشر في كل مكان وزمان، على اقتناع تام بأن ما نشؤوا عليه من نظم اجتماعية، وعادات فكرية وسلوكيات، هي الأفضل؛ لذلك كان طبيعياً أن يرفضوا تدخل الدين الجديد في نمط العلاقات القائمة، أي رفضوا أن يكون الوعي والإيمان بوحدانية اللّه مرتبطين بتغيير اجتماعي جذري، فاتهموا دعوته بأنها غير أخلاقية، وتحريضية، و«تناقض كل أعراف الملكية السائدة». وعندما تأكد لهم أنه ليس مجرد حالم، بل يعرف كيف يلهم الناس، لجؤوا إلى مواجهته بالعنف، وراحوا يؤذونه وأتباعه ما وجدوا إلى ذلك سبيلاً...

تحدى جميع الأنبياء بطريقة أو بأخرى، «القيم الراسخة» التي كانت سائدة في عصورهم، لذلك نجد أنهم قد سُخِر منهم جميعاً، واضطُهدوا من أقوامهم - وآخرهم وخاتمهم محمد ﷺ، مازال يُسخر منه في الغرب حتى اليوم.

(٣)

أحاط البدو بالشيخ ابن بليهد بمجرد الانتهاء من صلاة المغرب، كانوا من بدو نجد وأبناء المدن الراغبين في الاستفادة من علمه وحكمته؛ بينما كان يحب أن يستمع إلى تجارب الناس وما يواجهونه من مشكلات، وما يرونه في أسفارهم البعيدة. لم يكن السفر إلى مناطق بعيدة بمستغرب على أهل نجد؛ بل كان عادة من عاداتهم، حتى إنهم يطلقون على أنفسهم «أهل الرحال» أي أهل رحال الجمال - ورحل الجمل لكثيرين منهم مألوف أكثر من الفراش - ولابد أن رحل الجمل كان أكثر ألفة لذلك الشاب الحربي الذي كان قد انتهى من حكاية ما صادفه في العراق، وقد رأى أول

مرة «الفرنجة» من الأوروبيين (ويدينون بذلك الاسم إلى الفرانك الذين عرفهم العرب في أثناء الحروب الصليبية).

سأله الشاب: «قل لي يا شيخ. لماذا يضع الفرنجة قبعات على رؤوسهم، وتظلل أعينهم؟ كيف يمكن أن يروا السماء؟».

أجاب الشيخ وهو يغمز لي بعينه: «لأنها آخر ما يودون رؤيته، ربما يخشون أن تذكرهم السماء بالله، وهم لا يريدون أن يتذكروه خلال أيام الأسبوع، ويتذكرونه في آخره فقط».

ضحكنا جميعاً، إلا أن البدوي الشاب كان مصراً على بحثه عن المعرفة فسأل من جديد: «ولماذا يكون الله كريماً معهم كل هذا الكرم، ويهبهم كل هذه الثروات، ويضن بها على المؤمنين؟».

رد الشيخ ابن بليهد: «آه، الأمر سهل يا بني، إنهم يعبدون الذهب، ولذلك فإلههم جيبهم. ولكن صديقي هذا – ووضع يده على ركبتي – يعلم عنهم أكثر مما أعلم فقد أتى من بينهم: وأخرجه الله جلت قدرته من ذلك الظلام إلى نور الإسلام».

التفت إليّ البدوي المشغوف بالمعرفة، وسألني: «هل ذلك صحيح يا أخي، هل كنت من الفرنجة؟» وعندما هززت رأسي بالإيجاب، وجدته يهمس قائلاً: «تبارك الله، تبارك الله الذي يهدي من يشاء.. قل لي يا أخي، لماذا لا يهتم الفرنجة بذكر الله؟».

أجبته: «تلك قصة طويلة، لا يمكن شرحها بكلمات قليلة، كل ما أستطيع أن أقوله لك بإيجاز أن عالم «الفرنجة» أصبح عالم «الدجال»، المخادع، المبهر، هل سمعت حديث النبي ﷺ عن أنه في آخر الزمان سيتبع أكثر الناس الدجال، معتقدين أنه الله؟»[١]. وبينما كان يتطلع إليّ والسؤال على وجهه، رويت له، بعد أن رأيت علامات

١ـ إشارة إلى حديث الدجال الذي رواه البخاري في كتاب التوحيد باب قوله تعالى: ولتصنع على عيني ١٧٢/٨، ومسلم في كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب ذكر الدجال وصفته وما معه ج٤/٢٢٤٧ـ ٢٢٥٠ ـ الأحاديث ١٠٠ –١١٠. وروته كذلك أكثر كتب الحديث.

الاستحسان على وجه الشيخ ابن بليهد، إخبار النبي ﷺ عن ظهور ذلك المخلوق الغامض، «الدجال»، والذي سيأتي بعين واحدة، ولكنه وهب قوى خاصة اختصه اللّه بها، حتى إنه سيرى بعينه الواحدة كل ما يحدث وما يجري مهما بعد موضعه، ويسمع بأذنيه أي حديث مهما بعد في أركان الأرض القصية؛ ويكون بإمكانه الطيران والتحليق حول الأرض، وسيكشف عن كنوز من الذهب والفضة من تحت أعماق الأرض، وسيسقط الفيء ويجعل النبات ينمو سريعاً بأمر منه، سيميت ويحيي حتى إن كل ضعيفي الإيمان سيعتقدون أنه اللّه، وسيسجدون أمامه ويعبدونه. لن يعرفه إلا المؤمنون أقوياء الإيمان، وسيتمكنون من قراءة ما كتب على جبهته بحروف من نار: «كافر باللّه»، سيعرف أولئك فقط أنه مخادع، وقد جاء ليختبر قوة إيمانهم باللّه.

بينما كان البدوي الشاب ينظر إليّ بعيون متسعة من الدهشة وهو يتمتم: «أعوذ باللّه»، استدرت إلى الشيخ ابن بليهد قائلاً: «أليس ذلك رمزاً ياشيخ، ووصفاً ينطبق على الحضارة الغربية والتقنية المعاصرة؟ إنها «ذات عين واحدة»، أي لا تنظر إلا إلى جانب واحد من الحياة - وهو التقدم المادي - ولا تعي جانبها الروحي. وبمعاونة مخترعاتها العلمية العجيبة يمكن أن يُسمع ويُرى ما في آخر الأرض بما يفوق قدرته المباشرة على الرؤية والسمع، ويغطي مساحات شاسعة من الأرض في زمن بسيط وسرعة كبيرة. وبمعارف الحضارة الغربية المعاصرة «تسقط الأمطار، وتنمو النباتات أسرع من معدلاتها العادية»، كما تكشف عن الثروات في باطن الأرض.

وعقاقيرها الطبية تشفي من أشرف على الهلاك، بينما تدمر الحروب والجوانب العلمية المرعبة الحياة على الأرض، وبلغ تقدمها المادي قوة تشكل إغراءً وبريقاً حتى إن ضعيف الإيمان يعتقد أنها القوة الحقيقية في الوجود أو أنها اللّه؛ إلا أن من ظلوا على إيمانهم بخالقهم يعرفون بوضوح أنهم إن عبدوا «الدجال» فإنهم في الوقت ذاته ينكرون وجود اللّه الخالق الواحد...».

صاح الشيخ ابن بليهد: «أصبت يا محمد، أصبت» قال ذلك وهو يدق براحة يده

على ركبتي في حماس: «لم ترد إلى ذهني مثل تلك الرؤية للدجال؛ إلا أنك محق، فبدلاً من أن يوقن البشر أن تقدمهم وتقدم العلوم هبة من اللّه، راحوا يعتقدون بشكل متزايد في حماقة، أن ذلك التقدم غاية في ذاته، وأنه يستحق العبادة.

* * *

فعلاً - فكرت بيني وبين نفسي - سخر الإنسان الغربي نفسه لعبادة «الدجال». وفقد من زمن طويل كل براءة وفطرة، وكل تكامل داخلي مع الطبيعة، أصبحت الحياة لغزاً أمامه، أصبح متشككاً، وبذلك عزل نفسه عن مجتمعه من البشر، وأصبح يعيش في عزلة داخلية. وحتى لا يفنى في تلك الوحدة، فإنه يسعى إلى قهر الحياة والتغلب عليها بوسائل خارجة عن فطرته. لم تعد حقيقة أنه حي تهبه أماناً داخلياً: لابد أن يصارع على الدوام من أجل مزيد من الحياة، بمعاناة وكد، من لحظة إلى لحظة من أجل مزيد من الحياة كأنها غاية في ذاتها. ولأنه فقد كل تكيف روحي لما فوق المادة، قرر أن يحيا بلا بعد روحي، ودفعه ذلك إلى اختراع وسائل آلية ميكانيكية تكون حليفة له؛ ونما عنده الميل المحموم اليائس إلى التقنية والتمكن من قوانينها ووسائلها. راح يخترع كل يوم آلات جديدة، ويضفي على كل منها بعض روحه، ويدعها تقاتل بدلاً منه ليستمر وجوده زمناً أطول. إنهم يفعلون ذلك؛ إلا أن ذلك يخلق له على الدوام احتياجات، ومخاطر جديدة، ومخاوف أكثر تدفعه إلى اختراع وابتداع حلفاء جدد مصنوعة، في عطش لا يرتوى أبداً. لقد فقد جانبه الروحي في العجلات الدائرة للآلات المنتجة: وفقدت الآلات الهدف منها - أن تكون حامية ومخصبة للحياة الإنسانية - وتحولت إلى آلهة بذاتها، آلهة مفترسة من الصلب. ويبدو أن مبشري ذلك الإله الذي لا يرتوي لا يعون أن سرعة تطور التقنية الحديثة ليست فقط نتيجة للنمو العقلي، بل نتيجة لليأس الروحي، وأن تلك المنجزات العظمى التي يعتقد أنه يقهر بها الطبيعة ليست في حقيقتها إلا ميلاً دفاعياً، فخلف واجهاتها البراقة يكمن الخوف من المجهول.

أخفقت الحضارة الغربية في تحقيق توازن متآلف بين حاجات الإنسان الدنيوية وتطلعاته الروحية. ألغى الغرب القيم الروحية الأخلاقية السابقة من دون أن يكون قادراً على تقديم أي نسق أخلاقي أو روحي آخر، وأخضع كل شيء للسببية العقلية. وعلى الرغم من كل التقدم في مجال التعليم، لم تقدر الحضارة الغربية

علـى كـبـح مـيـل الإنسـان الأحـمـق إلى السـقـوط فـريسـة للشعـارات والنظريـات الاقتصـاديـة، مـهـمـا كـانت عبثيتها التي يعتقد الدهمـاويون[1] الأذكيـاء أنهـا ملائمة. وتبنت الحضـارة الغربية مفهوم تقنية الفنون الرفيعة وتنظيمهـا - إلا أن أمم الغرب تظهر على الدوام عجزهـا عن السيطرة على القوى التي أطلق علمـاؤهم عقـالهـا، ووصلوا إلى مرحلة أصبحت فيها القوة العلمية المطلقة، مـاضية يداً بيد مع الفوضى العالمية المتزايدة. ومع غياب أي قيم دينية وروحية، أصبح المواطن الغربي غير مستفيد أخلاقياً وروحياً من نور المعرفة الهائل الذي يطرحه العلم، ولذلك ينطبق عليهم مـا ذكره القرآن الكريم:

﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿١٨﴾﴾[2].

إلا أنهم في عمى عجرفة، يعتقدون عن اقتنـاع أن حضـارتهم هي التي ستنير العـالم، وتحقق له السعـادة... في القرنين الثـامن والتـاسع عشر، فكروا في ترويج الدين المسيحي في جميع أنحـاء العـالم؛ إلا أن حمـاسهم الديني قد فتر، حتى إنهم أصبحوا بعد ذلك يعدون الدين موسيقى خلفية ملطفة في حياة البشر، يسمح له بملازمة الحياة لا التأثير فيها في سعيه للحياة «الحق» - وبدؤوا يروجون بدلاً من الدين، التعاليم المـادية لنمط «الحياة الغربية»، وهو الإيمـان بـأن كل المشكلات البشرية يمكن حلهـا في المصـانع والمعامل، وعلى مكاتب المحللين الاقتصـاديين والإحصـائيين، وبذلك كله تتحقق نبوءة «الدجـال»...

(٤)

سـاد الصمت فترة طويلة، ثم تحدث الشيخ من جديد: «هل كـان تحققك من معرفة الدجـال هو مـا دفعك إلى اعتنـاق الإسلام يا بنـيّ؟».

قلت: «بشكل مـا كـان كذلك على مـا أظن؛ إلا أن ذلك كـان الخطوة الأخيرة»، قـال:

---

١- الدهمـاوي: هو المهيج أو الخطيب الشعبي الذي يستغل الاستياء الاجتمـاعي لاكتساب نفوذ سياسي.

٢- سورة البقرة: الآيتان ١٧، ١٨

«نعم، الخطوة الأخيرة: لقد أخبرتني ذات مرة بقصة إيمانك بالإسلام، ولكن متى وكيف أشرق في ذهنك أول مرة أن الإسلام هو هدفك ومبتغاك؟».
قلت: «متى؟ دعني أتذكر... أظن أن ذلك كان في يوم شتوي في أفغانستان حين فقد جوادي حدوته، وبحثت عن حذّاء في قرية تبعد عن الطريق الذي كنا نسير عليه؛ في تلك القرية قال لي رجل: «... أنت مسلم، لكنك لا تعلم ذلك...» كان ذلك قبل إسلامي بثمانية أشهر.

* * *

كنت في طريقي من مدينة «هراة» إلى مدينة «كابل»، كنا على جيادنا، أنا، وإبراهيم التتاري، وأحد الجنود الأفغان، كنا نقطع وقتها سهول منطقة هندو - كوش وممراتها المغطاة بالجليد في وسط أفغانستان. كان الجو شديد البرودة، والثلوج تغطي الجهات كلها، وتنهض في الاتجاهات كلها جبال شاهقة الارتفاع، جبال سوداء، وأخرى بيضاء من تراكم الجليد عليها.

كنت في ذلك اليوم أشعر بالأسى والسعادة في آن واحد. شعرت بالأسى لانفصال الناس الذين عشت بينهم، بأستار وحجب سميكة دكناء عن نور العقل والقوة والنماء الذي يمكن أن يوفره لهم إيمانهم بالإسلام؛ وكنت سعيداً لاقترابي من نور ذلك الإيمان، الذي رأيته قريباً مني ومن فكري، وأراه، كما أرى تلك الجبال السوداء والبيضاء - قريباً جداً حتى أكاد أمسكه بيدي.

بدأ الجواد يعرج وظهر صوت رنين عند حافره: كانت حدوة أحد حوافره توشك على السقوط ولم تعد مثبتة إلا بمسمارين فقط.

سألت مرافقنا الأفغاني: «هل توجد قرية قريبة يمكن أن نجد بها حذّاءً؟» أجاب:«قرية ده - زانجي على مسافة فرسخ من هنا، فيها حذاء، وحكيم الهراري له حصن فيه».
وهكذا، توجهنا إلى ده - زانجي فوق ثلج ناصع البياض، سرنا ببطء حتى لا يتأذى الجواد.
كان الحكيم رجلاً شاباً قصير القامة ذا وجه مرح، كان ودوداً، وأسعده أن يكون

لديه ضيف أجنبي، فقد كان يشعر بالوحدة في حصنه المتواضع. وعلى الرغم من ارتباطه بعلاقة قرابة وثيقة مع الملك أمان الله، ملك أفغانستان في ذلك الوقت، إلا أنه كان من أكثر من قابلت تواضعاً في أفغانستان جميعها. وأصر على استضافتي يومين.

جلسنا في مساء اليوم الثاني حول غداء فخم وافر كالمعتاد، وبعد الغداء، قام رجل من القرية بالترفيه عنا بأغانٍ محلية غناها بمصاحبة عزف على عود بثلاثة أوتار، غنى بلغة الباشتو - وهي لغة لم أفهم منها شيئاً - إلا أن بعض الكلمات الفارسية كانت تنتثر بين كلمات الأغاني بحيوية، وكانت أرض الغرفة دافئة مغطاة بالأبسطة وتيار برد ثلجي يأتي من النافذة. غنى على ما أذكر عن معركة داود وجالوت - عن الإيمان عندما يواجه قوة غاشمة - وعلى الرغم من عدم تمكني من متابعة كلمات الأغنية، إلا أن مفهومها كان واضحاً في ذهني، بدأت الأغنية هادئة متواضعة، ثم ازداد وقعها في صعود انفعالي عنيف حتى وصلت إلى صيحة النهاية العالية المنتصرة.

علق الحاكم - في نهاية الأغنية - قائلاً: «كان داود صغيراً، إلا أن إيمانه كان كبيراً»، فلم أتمالك نفسي، وقلت باندفاع: «وأنتم كثيرون وإيمانكم قليل». نظر إلي مضيفي مندهشاً، خجلت مما قلت من دون أن أتمالك نفسي، وبدأت بسرعة في توضيح ما قلت، واتخذ تفسيري شكل أسئلة متتابعة كسيل جارف، قلت: «كيف حدث أنكم – معشر المسلمين – فقدتم الثقة بأنفسكم، تلك الثقة التي مكنتكم من نشر عقيدتكم في أقل من مئة عام، من الجزيرة العربية باتجاه الغرب حتى المحيط الأطلسي، وإلى الشرق حتى أعماق الصين، والآن مستسلمون بسهولة وضعف إلى أفكار الغرب وعاداته؟ أضاء أجدادكم العالم بالعلوم والمعارف والفنون بينما كانت أوروبا تائهة في بربرية وجهل، لماذا لا تستجمعون قواكم وشجاعتكم لاستعادة إيمانكم الفعال؟ وكيف يصبح أتاتورك، ذلك المتنكر التافه الذي ينكر كل قيمة للإسلام، رمزاً لكم في الإحياء والنهوض والإصلاح؟».

ظل مضيفي صامتاً دون أن ينبس ببنت شفة. كان الثلج قد بدأ في التساقط

خارجاً، وشعرت مرة أخرى بموجة مختلطة من الأسى مع تلك السعادة الداخلية مثل تلك التي شعرت بها ونحن نقترب من ده - زانچي. أحسست بالعظمة التي كانت عليها تلك الأمة، وبالخزي الذي يغلف ورثتها المعاصرين.

أردفت مكملاً سيل أسئلتي: «قل لي، كيف دفن علماؤكم الدينيون الإيمان الذي أتى به نبيكم بصفائه ونقائه، تحت ركام من المناقشات العقيمة لتوافه الأمور؟ وكيف حدث أن نبلاءكم وكبار مُلّاك أراضيكم يغرقون في الملذات بينما يغرق أغلبية المسلمين في الفقر والصمت - مع أن نبيكم علّمكم أن: «لا يؤمن أحدكم إن شبع وجاره جائع [1]؟» هل يمكن أن تفسر لي كيف دفعتم النساء إلى هامش الحياة - مع أن النساء في عصر الرسولﷺ والصحابة ساهمن في شؤون حياة أزواجهن؟ وكيف أصبحت أغلبيتكم جاهلة وأمية وأقليتكم من يعرفون القراءة والكتابة؟ على الرغم من أن نبيكم ﷺ قال: «طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة»[2].

كان ضيفي مازال يحملق فيّ دون كلمة، وبدأت أعتقد أن انفجاري ربما سبب له ضيقاً. كان الرجل صاحب العود والذي لايعرف الفارسية ينظر مشدوهاً لذلك الأجنبي الذي يتحدث بتلك الحدة وذلك الحماس إلى الحاكم. في النهاية جذب الحاكم ثوبه الأصفر الواسع، وأحكمه حول جسمه، كما لو كان يشعر بالبرد؛ ثم همس: «ولكن... أنت مسلم».

ضحكت وأجبته: «كلا، لست مسلماً، ولكني رأيت الجوانب العظيمة في رسالة الإسلام مما يجعلني أشعر بالغضب وأنا أراكم تضيعونه... سامحني إن تحدثت بحدة، أنا لست عدواً على أي حال».

إلا أن مضيفي هز رأسه: «كلا، أنت كما قلت لك: أنت مسلم، إلا أنك لاتعلم ذلك.. لماذا

١- هذا الحديث معناه في مسند الإمام أحمد ١/ ٥٥:«لا يشبع الرجل دون جاره».

٢- هذا الحديث رواه ابن ماجه في سننه ج١/ ٩٨ عن أنس بن مالك قال ﷺ: طلب العلم فريضة على كل مسلم. وانظر صحيح سنن ابن ماجه للألباني ١/ ٤٤ رقم الحديث ١٨٣. وهو حديث صحيح.

لا تعلن الآن وهنا «أشهد أن لا إله إلا اللّه، وأن محمداً رسول اللّه - وتصبح مسلماً بالفعل بدلاً من أن تكون مسلماً في قلبك فقط؟ قلها يا أخي، قلها الآن، وسأذهب معك غداً إلى كابل وأصحبك إلى الأمير، سيستقبلك بأذرع وأحضان مفتوحة كواحد منا، وسيهبك بيوتاً وبساتين وماشية، سنحبك جميعاً، قلها يا أخي...».

قلت له: «لو قلتها في أي وقت، فسأقولها عندما يستقر فكري عليها، ويستريح لها، لا من أجل منازل الأمير وبساتينه».

استمر إصرار الحاكم: «ولكنك تعرف عن الإسلام أكثر مما يعرف أي واحد منا، فما الذي لم تعرفه أو تفهمه بعد؟».

قلت له: «الأمر ليس مسألة فهم، بل أن أكون مقتنعاً: أن أقتنع أن القرآن الكريم هو كلمة اللّه، وأنه ليس ابتداعاً ذكياً لعقلية بشرية عظيمة».

ولم تمح كلمات صديقي الأفغاني من ذهني على مدى شهور طويلة بعدها. من كابل توجهت إلى أفغانستان على مدى أسابيع، عبر مدينة «غزنة» القديمة، والتي انطلق منها منذ ألف عام مضت الفاتح العظيم محمود في فتوحاته إلى الهند، ثم عبر «قندهار» التي تميز أهلها بأنهم أصلب وأشد المقاتلين؛ ثم عبر صحراء أفغانستان الجنوبية الغربية، ثم عدت إلى مدينة «هراة»، نقطة بداية جولتي الأفغانية.

كان ذلك سنة ١٣٤٤ (١٩٢٦م)، وقرب نهاية الشتاء غادرت «هرات» في طريقي عبر رحلة طويلة للعودة إلى موطني في أوروبا، ركبت القطار من حدود أفغانستان إلى مدينة «مارف» في تركستان السوفييتية، إلى سمرقند وبخارى وطشقند، ثم عبرت أصقاع تركمان إلى جبال الأورال ثم إلى موسكو.

كان انطباعي الأول (والذي استمر بعد ذلك) عن روسيا السوفييتية في محطة قطار (مارف) في تركستان السوفييتية كبيراً، كان في المحطة ملصق كبير ضخم

يصور أحد أفراد «البروليتاريا»[1] الشباب يرتدون زي العمال الأزرق، ويركل رجلاً مسناً بلحية بيضاء يرتدي ثوباً فضفاضاً، ويخرجه من بين سحب السماء، ومكتوب تحت الملصق:

«هكذا أطاح عمال الاتحاد السوفييتي بالله في سماواته» والتوقيع «اتحاد بوزبوزينكي» (وتعني اتحاد الملاحدة) في اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفييتية».

كانت الدعاية الرسمية الملحدة تفرض نفسها في كل مكان، في المباني العامة وفي الشوارع، وكانت الأماكن المثالية المفضلة لتلك الملصقات بجوار دور العبادة، وفي تركستان كانت المساجد الإسلامية هي المستهدفة. ففي حين لم تكن صلاة الجماعة ممنوعة بقرار رسمي، إلا أن السلطات كانت تقوم بكل ما من شأنه إعاقة الناس عن الصلاة. وقيل لي في أكثر من مناسبة ، وخصوصاً في بخارى وطشقند، إن جواسيس السلطة يسجلون أسماء كل من يتوجه إلى أي مسجد لأداء الصلاة، وجمعت السلطات نسخ القرآن الكريم وأخفوها وألقوها في الزرائب وفرقوها. وكانت الوسيلة المفضلة لشباب الملاحدة إلقاء رؤوس خنازير في ساحات المساجد.

عبرت حدود بولندا بمشاعر عميقة من الارتياح بعد أسابيع قضيتها في عبور المناطق الآسيوية والأوروبية لروسيا السوفييتية. توجهت رأساً إلى فرانكفورت وفيها مقر الصحيفة الذي أصبح أكثر ألفة لي. عرفت أن اسمي أصبح من الأسماء المعروفة في فترة سفري الأخيرة، وأنني أصبحت واحداً من أشهر مراسلي صحف وسط أوروبا.

بعض مقالاتي، خاصة تلك المقالات التي تناولت التركيبة النفسية الشديدة التعقيد للإيرانيين، جذبت اهتمام كثير من المستشرقين البارزين، ولقيت ما يفوق الاعتراف بأهميتها، وتلقيت دعوة لإلقاء سلسلة محاضرات في أكاديمية

---

١ـ الطبقة العاملة (المترجم).

الجغرافيا السياسية في برلين - وقيل لي: إنه لم يحدث من قبل أن رجلاً في مثل عمري (لم أكن قد تجاوزت بعد السادسة والعشرين) قد حقق ذلك التميز. وأعيد نشر مقالاتي الأخرى في صحف كثيرة بالاتفاق مع «فرانكفورتر ذيتونج»؛ حتى إن واحدة من تلك المقالات نشرت في ثلاثين مطبوعة مختلفة. وبوجه عام، كانت جولتي الإيرانية مثمرة جداً....

* * *

تزوجت إلزا في أثناء وجودي في أوروبا، لم تضعف حبنا الفترة التي ابتعدتها عن أوروبا على مدى عامين، وجدت أن حبنا قد ازداد أكثر، واستطعت انتزاع مشكلة فارق العمر بيننا من فكرها.

احتجّت في البداية قائلة: «كيف يمكن أن نتزوج؟ إنك لم تكمل السادسة والعشرين، وأنا تخطيت الأربعين، فكّر في هذا: وعندما تكون في الثلاثين، سأكون أنا في الخامسة والأربعين، وعندما تكون في الأربعين، سأكون عجوزاً شمطاء...».

ضحكت وقلت لها: «لا يهم، لا أتخيل أي مستقبل من دونك».

وافقت في النهاية.

لم أكن مبالغاً عندما قلت لها: إنني لا أتخيل أي مستقبل من دونها. كان جمالها وعطفها ونقاؤها الغريزي يجعلها تبدو لي شديدة الجاذبية حتى إنني لم أكن أرى أي امرأة غيرها؛ وكان حسن فهمها لما أريد من الحياة يضيء آمالي وتطلعاتي ويجعلها أشد صلابة، وأقرب إلى التحقيق.

قالت لي في إحدى المناسبات، وكانت بعد أسبوع تقريباً من زواجنا: «ما أغربك من دون الناس كلهم، تستنكر الغموض وترفضه في كل دين.. مع أنك أنت نفسك غامض، تصل وتتواصل مع الحياة من حولك بأطراف أناملك، وترى في الأمور اليومية العادية أنماطاً من الغموض والتعقيد بينما تبدو للناس الآخرين أموراً

عادية... ولكن في اللحظة التي تتحدث فيها عن الدين، تتحول إلى عقلاني تماماً.
الأمر عكس ذلك عند الناس كلهم...»».

غير أن إلزا لم تكن مندهشة بالفعل، فقد كانت تعلم ما أبحث عنه عندما كنت أحدثها عن الإسلام، ومع أنها لم تشعر بإلحاح البحث نفسه كما كنت أشعره، إلا أن حبها لي جعلها تشاركني في اهتماماتي كلها.

كثيراً ما كنا نقرأ القرآن الكريم معاً، ونتناقش حول ما ورد فيه من أفكار؛ وأصبحت إلزا تتأثر مثلي يوماً بعد آخر بالتكامل الداخلي بين تعاليمه الروحية وإرشاداته الدنيوية. لم يطلب اللّه من البشر، كما جاء في القرآن الكريم، طاعته بغباء، طاعة عمياء بلا عقل أو فهم أو إدراك، بل كان القرآن الكريم يوجه الخطاب دائماً إلى العقل والفهم والإدراك. لم يتناءَ اللّه بذاته عن مصير البشر، بل يقول لهم: إنه أقرب إليهم من حبل الوريد، كما لم يفصل بين الإيمان به وسلوك البشر الاجتماعي، وفوق كل ذلك، لم يقر مبدأ أن الحياة صراع بين المادة و الجسد والروح، كما لم يقر أن منهج الطريق إلى النور يستلزم تحرير الروح من أعباء مطالب البدن (الخلاص في المفهوم المسيحي) وأدان النبي ﷺ كل شكل من أشكال رفض الحياة أو رفض رغبات البدن أو إماتتها أو كبتها عندما قال: «لا رهبانية في الإسلام».[1]

لم يعترف برغبات البدن غريزةً إيجابية فقط، بل تعامل مع البدن فضيلةً أخلاقية مُسَلّماً بها، ونعمةً من نعم اللّه التي أنعم بها على البشر. وعلَّم المسلمين أن يتمتعوا بحياتهم وفق ما أحل اللّه لهم، بل إنهم مأمورون بذلك.
كانت صور نهائية متكاملة للإسلام تتبلور في ذهني، كان يدهشني في أوقات كثيرة، وهو يتكون داخلي بما يشبه الارتشاح العقلي والفكري، أي أنها تتم من دون وعي وإرادة مني، كانت الأفكار تتجمع ويضمها ذهني بعضها إلى بعض في عملية

١ـ الحديث رواه الإمام أحمد في المسند ج٦/٢٢٦، ونصه:« إن الرهبانية لم تكتب علينا». وانظر أيضاً المسند ٣/٨٢ و٢٦٦.

«تنظيم ومنهجة» لكل الشذرات من المعلومات التي عرفتها عن الإسلام خلال الأعوام الأربعة الأخيرة. رأيت في ذهني عملاً عمرانياً متكاملاً تتضح معالمه رويداً رويداً، بكل ما يحتويه من عناصر الاكتمال وتناغم الأجزاء والمكونات مع الكل المتكامل في توازن لا يخل جزء منه بآخر، توازن مقتصد بلا خلل ويشعرالمرء أن منظور الإسلام ومسلماته كلها «في موضعها الملائم والصحيح من الوجود».
لقد وقف رجل منذ ثلاثة عشر قرناً وقال: «لست إلا بشراً فانياً؛ كلفني خالق الوجود أن أحمل رسالته إليكم حتى تحيوا في صلاح يتفق مع منهج خلقه، أمرني أن أذكركم بوجوده، وهو القادر، العليم، وأن أقدم لكم منهجاً للدنيا والآخرة. إن قبلتم تذكيري لكم ورسالتي إليكم فاتبعوني».

كان ذلك هو جوهر رسالة محمد ﷺ.

كان المنهج الاجتماعي الذي قدمه على قدر من البساطة يتناسب مع عظمته. بدأ ذلك المنهج من المقدمة الموضوعية بأن البشر مخلوقات اجتماعية وذات احتياجات بيولوجية عضوية، وأن اللّه خلقهم كي يعيشوا في جماعات وشعوب وقبائل ويشبعوا احتياجاتهم البدنية والمعنوية والفكرية، فهم باختصار يعتمدون بعضهم على بعض، وأن رقي الفرد الروحي (الهدف من الأديان كلها) يتوقف على مدى ما يتلقاه من عون وتشجيع وحماية من حوله من أفراد المجتمع ـ الذين يتوقعون منه أن يقوم بالدور نفسه تجاههم. هذا التكافل الاجتماعي البشري المتبادل بين أفراد المجتمع كان السبب الأساسي في عدم انفصال الإسلام عن الجوانب الاقتصادية والسياسية. كان المفهوم الإسلامي يعتمد بشكل أساسي على تكافل وتساند أفراد المجتمع، ولذلك كان لا بد لتنظيم علاقات أفراد المجتمع من أن يرتكز على عدم وجود أي عراقيل في حياة الفرد مع وجود كثير من المساندة لتطوير شخصية الفرد، كان هذا هو مفهوم الإسلام الأساسي لوظيفة المجتمع؛ لذلك كانت رسالة محمد ﷺ التي ثابر على نشرها على مدى ثلاثة وعشرين عاماً، لا تنحصر فقط في الجانب الديني الروحي الخاص بالعبادة وحدها، بل في تأسيس مجتمع تسوده العدالة. تضمن المنهج الإطار السياسي العام لما يجب أن يكون عليه المجتمع الإسلامي ـ الإطار العام فقط؛ لأن تفاصيل

الاحتياجات السياسية مرتبطة بالظروف التاريخية، ولذلك فإن تفاصيلها متروكة لظروف المجتمع، كما تضمن حقوق الفرد على المجتمع وواجبات المجتمع على ضوء التطور التاريخي لنمو المجتمعات. تضمن التشريع الإسلامي جميع نواحي الحياة، الروحية والبدنية، وحقوق الفرد وحق الجماعة على الفرد؛ ومشكلات البدن والروح والفكر، والمشكلات الجنسية والاقتصادية، مضت جميعها جنباً إلى جنب مع مشكلات الإيمان والعبادة، واحتلت جميع الجوانب مواضعها في تعليمات النبي ﷺ. لم يعد أي جانب من جوانب حياة البشر غير مهم أو تافهاً ولم تشمله مبادئ التشريع - لم يستثن التشريع أي أمر «دنيوي» مثل التجارة، والوراثة، وحقوق الملكية.

جميع مواد التشريع الإسلامي وضعت لفائدة أعضاء المجتمع الإسلامي، من دون تمييز بالولادة، أو الجنس، أو الانتماء القبلي، أو المرتبة الاجتماعية. لم يخص النبي ﷺ نفسه بأي امتيازات شخصية أو لذريته. ولم تعد هناك امتيازات خاصة لمرتبة اجتماعية عليا، أو مثالب تقع على مرتبة دنيا؛ واختفى من الإسلام تماماً مفهوم الطبقة الاجتماعية. جميع الحقوق والواجبات والفرص المتاحة تنطبق بالتساوي على أفراد المجتمع من المسلمين. لا احتياج لكاهن وسيط بين الإنسان وخالقه؛ لأن الله:

﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ لَا تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٞ وَلَا نَوۡمٞۚ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ مَن ذَا ٱلَّذِي يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيۡءٖ مِّنۡ عِلۡمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَۚ وَسِعَ كُرۡسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفۡظُهُمَاۚ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ ﴿٢٥٥﴾﴾[1]

لم يعترف الإسلام بغير طاعة الله ورسوله ثم الولاء للمجتمع الإسلامي الملتزم شريعة تأسيس مجتمع إسلامي طبقاً لما أمر الله به؛ ونسخ ذلك الولاء والطاعة لأمة سواء بالحق أم بغيره. ولترسيخ مبدأ أن الطاعة لله، أعلن النبي ﷺ أكثر من مرة: ليس منا من دعا إلى عصبية، وليس منا من حارب في سبيل عصبية، وليس منا من مات في سبيل عصبية.

---

١- سورة البقرة: آية ٢٥٥.

كانت جميع المؤسسات والتوجهات السياسية المبنية على معتقد ديني محصورة في الفهم الضيق للقبيلة أو الدولة. وحتى الملوك - الآلهة في مصر القديمة لم يتجاوز فكرهم وادي النيل وسكانه، وفي الدولة الدينية المبكرة لليهود العبرانيين، إذ كان من المفترض أن الحاكمية للّه، فإن الرب هناك كان رب أبناء إسرائيل فقط. أما في الفكر الإسلامي فإن الأمر عكس ذلك تماماً، لا وجود للانتماء إلى قبيلة، ولا يوجد وضع خاص لسلالة معينة بينها. المبدأ الأساسي في الإسلام إقامة مجتمع إسلامي لا يعرف الولاء التقليدي لقبيلة ولا لجنس بذاته. وبهذا الخصوص، نجد أن الإسلام والمسيحية لهما توجه واحد، وهو إقامة مجتمع من البشر تربطهم عقيدة واحدة بغض النظر عن انتماءاتهم القبلية أو القومية. إلا أن المسيحية قد قيدت نفسها بتوجه ديني فقط، وحثت من آمنوا بها على أن «يعطوا ما لقيصر لقيصر»، وبذلك اقتصرت دعوتها على الجانب الديني والروحي فقط. أما الإسلام فقد قدّم بوضوح بناءً سياسياً يعد فيه الإيمان باللّه المنبع الذي تستمد منه سلوكيات المؤمنين والأساس الوحيد لجميع المؤسسات الاجتماعية، محققاً للبشر ما لم تحققه لهم المسيحية - وقد خط الإسلام فصلاً ختامياً في التطور الإنساني: لقد خلق مجتمعاً إنسانياً مفتوحاً أمام المؤمنين بالإسلام موازنة بما سبقه من ديانات، قصرت الدين على جنس بعينه، أو ديانات قصرت الدين على منطقة بعينها.

لقد أوجدت رسالة الإسلام حضارة لا مكان فيها لجنس على آخر، لا مكان فيه «لامتيازات خاصة» ولا تقسيم طبقياً، لا كهنوت وتسلط هيئات دينية، ولا كهانة، ولاحقوق متوارثة للنبلاء؛ وفي الحقيقة لم ينطو على أي امتيازات بالوراثة على الإطلاق. كان الهدف خلق مجتمع يدين للّه بالإسلام، ويحكم نفسه بديموقراطية واختيار للحاكم. كانت أهم صفة بارزة لحضارة الإسلام - وهي الصفة التي انفردت بها عن الحضارات البشرية السابقة أو اللاحقة - أنها منبثقة من إرادة حرة لشعوبها. لم تكن مثل حضارات أخرى سابقة وليدة قهر وضغط وإكراه أو تصارع إرادات أو الصراع على مصالح، ولكنها كانت جزءاً وكُلاً من رغبة حقيقية أصيلة لدى جميع المسلمين، مستمدة من إيمانهم باللّه، وما حثهم عليه من إعمال فكر وعمل. لقد كان تعاقداً اجتماعياً أصيلاً: لا مجرد كلام أجوف يدافع به جيل تالٍ عن امتيازات خاصة بهم، وتعود بالنفع عليهم، ولكنه مصدر حقيقي وتاريخ للحضارة الإسلامية.

يقول القرآن الكريم:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١١﴾﴾[1].

لقد أدركت أن ذلك «الفوز العظيم» - العقد الاجتماعي الوحيد المسجل تاريخياً - تحقّقَ فقط على مدى زمني قصير جداً، أو على الأصح أنه على مدى زمني قصير تحقق العقد على نطاق واسع. فبعد أقل من مئة عام من وفاة الرسول ﷺ بدأ الشكل النقي الأصيل للإسلام يدب فيه الفساد، وفي القرون التالية بدأ المنهج القويم يزاح إلى الخلفية. وبدأت الصراعات القبلية والعرقية من أجل الهيمنة والسلطة تحل محل العقد الاجتماعي الإسلامي المبني على رجال ونساء أحرار، وترتب على ذلك صراع الانتماء العائلي والقبلي، والتفصيل القبلي والاضطهاد، وتقهقر الدين حتى أصبح وسيلة للسلطة والقوة، لقد تحول إلى «صراع المصالح» المعروف على مدى التاريخ. قد حاول المفكرون الإسلاميون أن يحفظوا نقاء العقيدة، إلا أن من أتوا بعدهم كانوا أقل قدرة من سابقيهم، وتقاعسوا عن الاجتهاد، ولاكوا أفكار من سبقوهم واجتروها، وتوقفوا عن التفكير المبدع، والاجتهاد الخلاق، واكتفوا بترديد أفكار من سبقوهم من أجيال حاولت الاجتهاد، وتناسوا أن الاجتهادات رهينة بزمنها، ولا تصلح لغيرها من أزمان، وأنها غير معصومة، تحتاج إلى تجديد مستمر. كانت القوة الدافعة الأولى للإسلام، كافية لوضعه في قمة سامية من الرقي الحضاري والفكري - في العلوم والآداب والفنون، وهذا ما دفع المؤرخين إلى وصفها بالعصر الذهبي للإسلام؛ إلا أن تلك القوة الدافعة قد ماتت لنقص الغذاء الروحي الدافع لها، وركدت الحضارة الإسلامية عصراً بعد عصر لافتقاد القوة الخلاقة المبدعة.

* * *

لم يكن لدي أي أوهام عن الحالة المعاصرة للعالم الإسلامي. بينت الأعوام الأربعة التي قضيتها في مجتمعات إسلامية أن الإسلام مازال حياً، وأن الأمة الإسلامية متمسكة به بقبول صامت لمنهجه ومبادئه وتعاليمه، إلا أن المسلمين كانوا

---

١- سورة التوبة: الآية ١١١.

كالمشلولين، غير قادرين على تحويل إيمانهم إلى أفعال مثمرة لا مجرد أقوال. إلا أن ما شغلني أكثر من إخفاق المسلمين المعاصرين في تحقيق منهج الإسلام، الإمكانيات المتضمنة في المنهج ذاته. كان يكفيني أن أعرف أنه خلال مدى زمني قصير، اقتصر على بداية التاريخ الإسلامي، كانت هناك محاولة ناجحة لتطبيق هذا المنهج؛ وما أمكن تحقيقه في وقت ما، يمكن تحقيقه لاحقاً. ما كان يهمني، كما فكرت في داخلي، أن المسلمين شردوا عن التعليمات الأصيلة للدين وركنوا إلى التراخي والكسل والجهل، ما الذي حدث وجعلهم يبتعدون عن المثاليات التي علمهم إياها الرسول العربي ﷺ منذ ثلاثة عشر قرناً مضت - مادامت تلك المثاليات لا تزال متاحة لهم إن أرادوا الاستماع إلى ما تحمله من رسالة سامية؟

بدا لي كما فكرت، أننا نحن في عصرنا الحالي نحتاج إلى تعاليم تلك الرسالة أكثر من هؤلاء الذين عاشوا في عصر محمد ﷺ. لقد عاشوا في بيئات وظروف أبسط كثيراً مما نعيش فيه الآن، ولذلك كانت مشكلاتهم وصعابهم أقل بكثير من مشكلاتنا ومصاعبنا. العالم الذي كنت أحيا فيه - كله - كان يتخبط لغياب أي رؤية عامة لما هو خير وما هو شر فيما يخص الإيمان والجانب الروحي للبشر، وبالمثل غياب رؤية عامة للجانب الاجتماعي والاقتصادي. لم أومن أن ما يحتاج إليه الفرد هو «خلاص الروح» بالمفهوم المسيحي، بقدر ما آمنت أن المجتمع المعاصر هو الذي يحتاج إلى الخلاص. لقد أحسست بيقين تام أكثر من أي وقت مضى أن مجتمعنا المعاصر يحتاج إلى أسس فكرية عقائدية توفر شكلاً من أشكال التعاقد الاجتماعي بين أفراده، وأنه يحتاج إلى إيمان يجعله يدرك خواء التقدم المادي من أجل التقدم لذاته، وفي الوقت نفسه يعطي للحياة نصيبها؛ وأن ذلك سيدلنا ويرشدنا إلى كيفية تحقيق التوازن بين احتياجاتنا الروحية والبدنية: وأن ذلك سينقذنا من كارثة محققة نتجه إليها بأقصى سرعة.

* * *

لن أبالغ إن قلت: إن تلك الفترة من حياتي شغلت فكري مشكلة الإسلام كما لم يشغل ذهني شيء آخر من قبل. كنت في ذلك الوقت قد تجاوزت مرحلة الاستغراق الفكري، وتجاوزت مرحلة الاهتمام العقلي والذهني بدين وثقافة غريبين: لقد تحول إلى

بحث محموم عن الحقيقة، ولاستغراقي في البحث عن الحقيقة، تحولت المغامرات الممتعة التي مررت بها في آخر عامين إلى أفكار وذكريات باهتة بلا معنى. حتى إنه أصبح من الصعب عليّ أن أركز فكري لكتابة الكتاب الجديد الذي كلفني رئيس تحرير صحيفة «فرانكفورتر ذيتونج» بكتابته.

في البداية، لاحظ الدكتور سيمون، بتسامح، نفوري من المضي في كتابة مادة الكتاب. ورأى أنني عائد من رحلة طويلة أستحق معها بعض الراحة؛ ثم وجد أن زواجي أيضاً يستدعي التوقف فترة عن الكتابة. ولكن عندما امتدت راحة السفر، وامتدت إجازة الزواج أكثر مما اعتقد دكتور سيمون أنه كافٍ لي، ذكر لي أنه قد آن الأوان لأعود إلى أرض الواقع.

كان الرجل في حقيقة الأمر، في غاية التفهم والتقدير لظروفي؛ إلا أنه لم يبد لي كذلك في حينه. كان سؤاله المتكرر والملح عن مدى التقدم في إنجاز الكتاب يأتي بآثار عكسية لما يريده هو، وأحسست أنه يضغط عليّ بلا مسوغ؛ وفقدت كل رغبة في إنجاز ذلك الكتاب. كنت أكثر اهتماماً بما أسعى للكشف عنه أكثر من اهتمامي بوصف ما رأيت.

علّق الدكتور سيمون في النهاية على ذلك في سخط قائلاً: «لا أظن أنك ستكتب هذا الكتاب أبداً. إن ما تعانيه هو رعب الحرية» وبشيء من الاستفزاز أجبته:

«ربما كان مرضي أكثر خطورة مما تعتقد، ربما أعاني خوف الكتابة».

رد بحدة: «حسناً، إذا كان هذا ما تعانيه، فهل تعتقد أن «فرانكفورتر ذيتونج» هي المكان الملائم لك؟».

وأدت الكلمة إلى رد، وأدى الرد إلى استفزاز، حتى تحول الأمر إلى شجار، في اليوم نفسه استقلت من العمل في صحيفة «فرانكفورتر ذيتونج» وبعدها بأسبوع رحلت أنا وإلزا إلى برلين.

لم أكن أنوي بالطبع هجر الصحافة، لأنها، بغض النظر عن الحياة الجيدة التي توفرها لي، والمتعة التي أشعر بها في الكتابة، كانت الوسيلة الوحيدة التي يمكن أن أعود من خلالها إلى المجتمع الإسلامي، وقد أردت العودة إلى ذلك العالم بأي ثمن. وبالسمعة الجيدة التي حققتها في الأعوام الأربعة الأخيرة، لم يكن من الصعب الاتفاق مع صحف أخرى. وتوصلت إلى اتفاق سريع مع ثلاث صحف وهي: صحيفة «نيو زيوريخ ذيتونج» التي تصدر من زيوريخ، وصحيفة «تليجرام» التي تصدر من أمستردام، وصحيفة «كولون ذيتونج» التي تصدر من كولونيا. أصبحت مقالاتي عن الشرق الأوسط تُنشر في ثلاث صحف - لا تصل إلى مستوى فرانكفورتر ذيتونج - إلا أنها من أهم الصحف الأوروبية.

استقر بنا المقام مؤقتاً أنا وإلزا في برلين، ونويت أن أكمل سلسلة محاضراتي التي كنت ألقيها في أكاديمية الجغرافيا السياسية، كما نويت أن أواصل دراستي للإسلام.

وسعد أصدقاء الثقافة والفكر بعودتي من جديد إلى برلين، إلا أنني وجدت أنه من الصعب استعادة علاقتنا القديمة كما كانت عليه في الوقت الذي سافرت فيه إلى الشرق الأوسط. شعرت ببعض الغربة عنهم؛ لم نعد نتحدث في المنطلقات الفكرية نفسها. على وجه الخصوص، لم أجد أحداً من أولئك الأصدقاء يمكنني أن أحدثه عن انشغالي بالإسلام، وأتوقع منه أن يأخذ الأمر بجدية، ويتفهم ما يهمني. لقد هزوا رؤوسهم جميعاً في دهشة، وتعجبوا عندما حاولت أن أشرح لهم أن للإسلام مفهوماً فكرياً واجتماعياً يمكن أن يوازن بجميع النظريات والمعتقدات الأخرى. وعلى الرغم من تفهمهم أحياناً لمعقولية بعض ما يذهب إليه الإسلام إلا أن أغلبهم كان يرى أن الأديان القديمة أصبحت شيئاً من الماضي، وأن عصرنا يحتاج إلى منهج «إنساني» جديد.

ولكن، حتى من كانوا لا يرفضون الأديان رفضاً كلياً، كانوا يميلون بلا سبب إلى تبني المفهوم الغربي الشائع الذي يرى أن الإسلام يهتم أساساً بالشؤون الدنيوية، وتنقصه الروحانيات التي يتوقع أي امرئ أن يجدها في أي دين.

ما أدهشني بالفعل، أن أكتشف أن ذلك الجانب من الإسلام هو ما جذبني إليه من أول لحظة، وهو عدم فصل الإسلام بين الوجود المادي والوجود الروحي للبشر، وتأكيد السببية العقلية سبيلاً للإيمان، وهو الجانب ذاته الذي يعترض عليه مفكرو أوروبا الذين يتبنون السببية العقلية منهجاً للحياة، ولا يتخلون عن ذلك المنهج العقلاني إلا عندما يرد ذكر الإسلام.

لم أجد أي فارق بين الأقلية المهتمة بالأديان والأغلبية التي ترى أن الدين أصبح من المفاهيم البالية التي عفا عليها الزمن.

أدركت، مع الوقت، مكمن الخطأ في منهج كل منهما. أدركت أن مفاهيم من تربوا في أحضان الأفكار المسيحية في أوروبا، بما تتضمنه من تأكيد قوى ما وراء الطبيعة التي يجب أن توجد بشكل أصيل في أي دين - تبنوا مفهوماً عقلياً يسود بينهم جميعاً، وينتقص من الجوانب الروحية. كان ذلك مقصوراً على المؤمنين بالمسيحية. فمع طول تعود أوروبا نسق الفكر المسيحي، تعلّم حتى «اللاأدريين»[1] أن ينظروا إلى أي دين آخر من خلال عدسات مسيحية، فيعدون أي فكر ديني «صالحاً» لأن يكون ديناً، إذا غلفته مسحة غامضة خارقة للطبيعة تبدو خافية وفوق قدرة العقل البشري على استيعابها. ومن منظورهم، لم يفِ الإسلام بتلك المتطلبات؛ فقد أكد الإسلام تكامل الجسد والروح في الحياة البشرية تكاملاً فريداً. إن نظرة الإسلام إلى الوجود تختلف عن الرؤية المسيحية التي ترتكز إليها جميع المفاهيم الغربية، وإن قبلت مالا مفر من قبوله فسيؤدي بك ذلك إلى مناقشة صلاحية ما يليه.

كنت أوقن بأنني في طريقي إلى الإسلام، وجعلني تردد اللحظة الأخيرة أؤجل الخطوة النهائية التي لا مفر منها. كانت فكرة اعتناق الإسلام تمثل لي عبور قنطرة فوق هاوية تفصل بين عالمين مختلفين تماماً؛ قنطرة طويلة حتى إن المرء عليه أن يصل إلى نقطة اللاعودة أولاً قبل أن يتمكن من تبين الطرف الآخر

---
١- جماعة يعتقدون أن وجود اللّه أمر لا سبيل إلى معرفته.

للقنطرة. كنت أعي تماماً أنني لو اعتنقت الإسلام لاضطررت إلى خلع نفسي نهائياً من العالم الذي ولدت ونشأت فيه. لم تكن هناك حلول أخرى، فلم يكن من الممكن لامرئ مثلي أن يتبع دعوة محمد ﷺ ويظل بعدها محتفظاً بروابطه الداخلية مع مجتمع يتصف بثنائية المفاهيم المتعارضة والمتناقضة. كان سؤالي الأخير الذي كنت متردداً أمامه هو: هل الإسلام رسالة من عند اللّه، أم أنه حصيلة حكمة رجل عظيم، إلا أنه غير مفهوم...؟

* * *

كنت ذات يوم - في ربيع الأول سنة ١٣٤٥ (سبتمبر/أيلول ١٩٢٦م) - أنا وإلزا ننتقل بقطار الأنفاق في برلين عائدين إلى بيتنا. كنا في عربة الدرجة الأولى التي يستقلها الأغنياء وميسورو الحال. وقع نظري بطريقة عفوية على الرجل الذي كان يجلس مواجهاً لي، كان يرتدي ملابس أنيقة غالية الثمن، كان من الواضح أنه من رجال الأعمال الناجحين، وكان يضع حقيبة أوراق ومستندات غالية الثمن على ركبتيه، كما كان يضع في أحد أصابعه خاتماً ماسياً ثميناً. طاف بذهني بصورة آلية أن ذلك الرجل بما هو عليه من مظاهر ثراء يتماشى ويتناسب مظهره مع حالة الرخاء والانتعاش التي كانت سائدة في وسط أوروبا في ذلك الوقت. كان رخاءً واضحاً للعيان بعد أعوام من سوء الأحوال الاقتصادية، وارتفاع معدلات الكساد والتضخم، ثم انقلب الحال رأساً على عقب، وحلت فترة الرخاء التي كان حسن المظهر أحد دلائلها، وأصبحت الغالبية ترتدي أفخم الثياب، وتتناول أغلى المأكولات. لم يكن الرجل الذي كان يجلس مواجهاً لي استثناءً للحال. وعندما طاف بصري بوجهه، لم أجد أي أثر لسعادة، كان يبدو عليه القلق، لم يكن قلقاً فقط، بل تبدو عليه التعاسة، ونظراته تحملق إلى وجهة غير محددة وزاويتا فمه متقلصتان كأنه يعاني ألماً - إلا أنه ألم غير عضوي - وحتى لا أبدو صفيقاً حولت بصري عن وجهه، ونظرت إلى من كان بجواره، كانت سيدة أنيقة، تظهر أيضاً على وجهها علامات التعاسة، كأنها تتمثل في عقلها تجربة ما غير سارة، أو تمر بتجارب سيئة وحياة تعسة تسبب لها آلاماً داخلية؛ إلا أنها كانت ترسم على شفتيها ابتسامة جامدة ربما اعتادتها.

بدأت أتطلع حولي إلى الوجوه في العربة التي كنا بها، كانت جميعها وجوهاً تنتمي إلى طبقة تنعم بملبس ومأكل جيدين، إنها كانت تشي بتعاسة داخلية عميقة ومعاناة واضحة على الملامح، تعاسة عميقة حتى إن أصحابها لم يدركوا ذلك.

كانت ظاهرة غريبة، لم أر من قبل كل هذا الكم من الوجوه البائسة، أو ربما أني لم أكن أدقق كثيراً في وجوه من حولي في أوروبا. كان انطباعي من القوة حتى إنني همست به إلى إلزا، فراحت هي الأخرى تتفحص خفية الوجوه التي تحيط بنا بخبرة الفنانة الرسامة التي لها دراية بتفحص ملامح الوجوه قبل رسمها بالفرشاة. استدارت إليّ مندهشة، وقالت: «أنت على حق، يبدو عليهم كأنهم يعانون عذاب الجحيم.. لا أدري أكانوا يعون معاناتهم أم لا...؟».

كنت أوقن بأنهم غير واعين، وإلا ما استمروا في إهدار حياتهم على هذا المنوال، من دون أي تماسك داخلي، ومن دون أي هدف أسمى من مجرد «تحسين مستوى معيشتهم»، ومن دون أمل يزيد على الاستحواذ المادي، الذي من الممكن أن يحقق لهم مزيداً من القوة والسطوة...

عدنا إلى البيت ومازلنا نفكر بما رأيناه، تطلعت بالصدفة إلى مكتبي، كانت عليه نسخة مفتوحة من القرآن الكريم، كنت أقرأ فيه قبل خروجنا. وبصورة آلية، التقطت المصحف لأعيده إلى مكانه، وعندما هممت بإغلاقه، سقط بصري على الصفحة التي كانت مفتوحة أمامي، وقرأت:

﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ﴿١﴾ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ﴿٢﴾ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ ﴿٥﴾ لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ ﴿٦﴾ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ ﴿٧﴾ ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨﴾﴾[1].

وقفت لحظات مشدوهاً وأنا أحبس أنفاسي، وأحسست أن يديَّ ترتجفان، فناولته لإلزا وقلت لها: اقرئي هذا، ألا تجيب هذه السورة على ما رأيناه في قطار الأنفاق؟

---

١- سورة التكاثر: الآيات ١-٨.

لقد كان القرآن الكريم يتضمن الإجابة، إجابة حاسمة قضت على شكوكي كلها وأطاحت بها بلا رجعة. أيقينت يقيناً تاماً أن القرآن الكريم الذي أمسكه بين يديّ من عند اللّه: ومع أنه أمام الناس منذ ثلاثة عشر قرناً مضت، إلا أنه تنبأ بما سيأتي من عصر آلي معقد، تمتطيه الأشباح كعصرنا.

لقد اتصف البشر بالطمع في جميع العصور، إلا أنه لم يصل إلى الدرجة التي أصبح عليها في عصرنا، حتى إنه تحول إلى هاجس يعمي الأبصار عن رؤية أي شيء آخر عداه. تطلع ورغبة لا يقاومان للاستحواذ على المزيد، الحصول على المزيد اليوم أكثر مما حصلنا عليه أمس، والحصول في الغد على أكثر مما حصلنا عليه اليوم، عفريت يركب أعناق البشر، ويجلد قلوبهم، ويدفعهم إلى الركض نحو أهداف تومض وتبرق من بعيد، وبمجرد أن يحصلوا عليها يكتشفون أنها هباء، وأن هناك أهدافاً أخرى أشد بريقاً، لاتزال نائية في الآفاق البعيدة إلا أنها أكثر إغراءً فيركضون من جديد ليكتشفوا أنها أيضاً لا قيمة لها بمجرد تحققها. جوع لا يشبع لتحقيق مكاسب لا تنتهي، وينخر في روح الإنسان:

﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ ﴿٥﴾ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ﴿٦﴾﴾[١].

أيقنت بأن تلك الآيات لم تكن نتاج حكمة رجل عاش منذ ثلاثة عشر قرناً في الجزيرة العربية النائية عن أوروبا. لم يكن بمقدوره مهما أوتي من حكمة أن يتنبأ بهذا العذاب النفسي والمعنوي والتعاسة والجحيم التي ستصيب أبناء القرن العشرين.

كان الصوت الصادر من القرآن الكريم أعظم بكثير من صوت محمد ﷺ...

(٥)

حل الظلام على باحة مسجد الرسول ﷺ، لم يبدده إلا ضوء المصابيح الزيتية المدلاة بسلاسل طويلة بين الأعمدة الرخامية الحاملة لعقود المسجد. كان الشيخ

---

١. سورة التكاثر: الآيتان ٥–٦.

عبد اللّه بن بليهد جالساً ورأسه يتدلى بين كتفيه إلى صدره وعيناه مغمضتان. يظن من لا يعرفه أنه غارق في النعاس؛ ولكني أعرف أنه كان يستمع إلى حكايتي وتفاصيل قصة إسلامي باستغراق عميق، يوائمها بما يعرف من تجارب البشر وخبرات حياتهم ومحتوى قلوبهم. بعد فترة طويلة رفع رأسه وفتح عينيه، سألني: «ماذا فعلت بعد ذلك؟».

قلت: «فعلت ما يجب عليّ أن أفعله ياشيخ، كان لي صديق مسلم هندي بحثت عنه حتى عثرت عليه، وكان رئيساً لرابطة المسلمين في برلين، قلت له إنه استقر رأيي على اعتناق الإسلام، مدّ لي يده اليمنى، ووضعت كفي على كفه، وفي حضور اثنين من الشهود، أعلنت:

أشهد أن لا إله إلا اللّه، وأشهد أن محمداً رسول اللّه[1].

وبعد ذلك بعدة أسابيع أسلمت زوجتي أيضاً.

سألني: «وماذا قال الناس عن ذلك؟».

قلت: «لم يعجبهم ذلك بطبيعة الحال، وعندما أرسلت إلى أبي رسالة وأعلمته بإسلامي، لم يرد على رسالتي، وبعد ذلك بعدة أشهر أرسلت إليّ شقيقتي رسالة قالت فيها: إن أبي يعدّني ميتاً... ثم أرسلت إليه برسالة ثانية قلت له فيها: إن إسلامي لم يغير موقفي منه، ولم يقلل من حبي له، بل على العكس أملى عليّ الإسلام أن أبر والدي أكثر من أي مخلوق آخر.. ولم أتلق رداً على تلك الرسالة أيضاً.

قال ابن بليهد: «لا بد أن أباك متمسك جداً بدينه...»

١ـ يعد إعلان الإسلام هذا شرطاً ضرورياً لأن تصبح مسلماً. وفي الإسلام نجد أن صفتي «رسول» و«نبي» صفات متبادلة، وتطلق على كبار الأنبياء الذين حملوا رسالة جديدة للبشر، مثل محمد وعيسى، وموسى، وإبراهيم عليهم الصلاة والسلام.

قلت: «كلا ياشيخ، ليس متمسكاً بدينه كما تظن، وهذا هو الجانب الغريب. لقد عدّني مرتداً، لا عن دينه (لم أر منه أي تمسك بدين) ولكن عن المجتمع الذي نشأنا بين ظهرانيه وثقافة ذلك المجتمع وفكره».

سألني: «ألم تره أبداً منذ ذلك الحين؟».

قلت له: «كلا، بعد فترة قصيرة من إسلامنا أنا وزوجي رحلنا عن أوروبا، لم نحتمل أن نبقى بها أكثر من ذلك، ولم أعد إلى هناك من ذلك الحين»[١].

---

١ـ استعدت علاقتي بأبي سنة ١٣٥٤ (١٩٣٥م)، بعد أن تفهم أبي في النهاية الأسباب التي حملتني على اعتناق الإسلام. وعلى الرغم من أننا لم نلتق أبداً، إلا أن المراسلات استمرت متبادلة بيننا حتى سنة ١٣٦١ (١٩٤٢م)، عندما تم ترحيله هو وشقيقتي من مدينة ڤيينا على أيدي النازيين ثم مات في أحد معسكرات الاعتقال.

# الفصل الحادي عشر

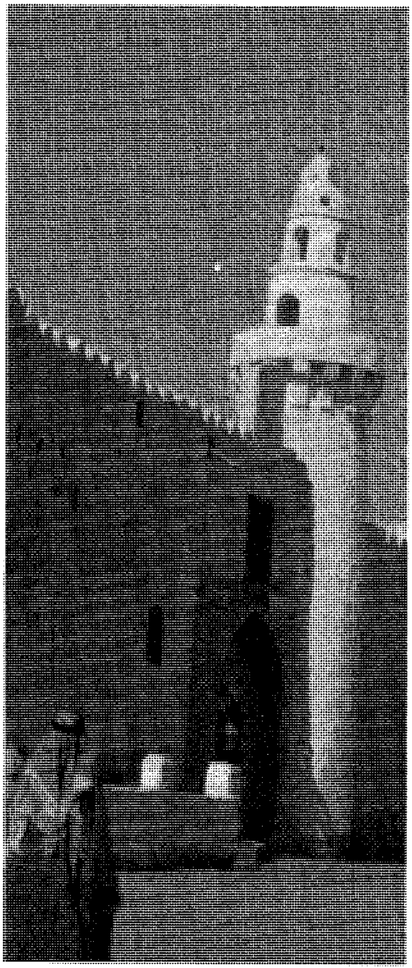

باب الشام في المدينة المنورة
١٣٤٥ (١٩٢٧م)

## جهاد

بينما كنت أغادر مسجد الرسول ﷺ،
أمسكتْ يد بيدي:
ولما استدرت مستطلعاً،
رأيت العينين الطيبتين لسيدي
محمد الزواوي السنوسي.
قال بسعادة: «ما أسعدني وأنا أراك
بعد هذه الشهور الطويلة،
بارك الله خطواتك في مدينة الرسول ﷺ
المباركة...».

(١)

سرنا يداً بيد على الطريق المعبد بالحجارة، والذي يفضي من مسجد الرسول ﷺ إلى السوق، كان يرتدي البرنس الأبيض الذي يرتديه أهل شمال إفريقية، وكان من الشخصيات المعروفة في المدينة المنورة، فقد عاش بها أعواماً طويلة؛ توقفنا أكثر من مرة فقد كان من يقابلنا يصافحه بحرارة وإجلال، لم يكن ذلك يعود إلى كبر سنه البالغ سبعين عاماً، بل يعود إلى أنه أحد قادة أبطال ليبيا الذين يحاربون في سبيل استقلال بلادهم.

قال ونحن سائرون: «أود أن أخبرك يا بني أن سيد أحمد موجود هنا في المدينة المنورة، صحته ليست على ما يرام، سيسعده أن يراك. إلى متى ستبقى في المدينة المنورة هذه المرة؟».

أجبته: «حتى بعد غد، لن أغادر المدينة المنورة بالطبع قبل أن أزور سيد أحمد، والأفضل أن أزوره الآن».

لم أحب أحداً في الجزيرة مثلما أحببت سيد أحمد، لم يدانه أحد في تضحياته التي ضحاها بجهده وبكل ما يملك لتحقيق هدف غير شخصي، وهو تحقيق استقلال وطنه».

كان عالماً ومقاتلاً، قصر حياته على إحياء مجتمع إسلامي مترابط، يناضل من أجل استقلاله السياسي، وكان على يقين بأنه لا يمكن تحقيق أي من الهدفين بمعزل عن الآخر.

مازلت أذكر أول لقاء لنا منذ سنين طويلة في مكّة المكرّمة...

إلى شمال مكّة المكرّمة يقع جبل «أبو قبيس» الذي دارت حوله أساطير كثيرة في الموروث الثقافي، وفوق قمته يوجد مسجد أبيض بمئذنتين قصيرتين، ومن هذا المسجد يمكنك أن ترى منظر وادي مكّة المكرّمة الرائع والكعبة في قاعه، تحيط

به منازل ملونة متدرجة في ارتفاعها على سفوح الجبال من جميع الجوانب. وإلى أسفل قليلاً من قمة جبل أبي قبيس، كان هناك تجمع لمبانٍ حجرية معلقة على حافة صخرية، مثل تجمع أعشاش (أوكار) الصقور، كان ذلك التجمع هو مركز الإخوة السنوسية.

كان في ذلك الوقت منفياً، ولا سبيل إلى عودته إلى ليبيا بعد ثلاثين عاماً من القتال ضد الاستعمار الإيطالي لبلاده، وبعد سبعة أعوام في رحلات مكوكية من البحر الأسود حتى اليمن، وكان اسمه مشهوراً في العالم ا لإسلامي، فقد كان سيد أحمد هو السنوسي الكبير. لم يضارعه أحد في تأريق مضاجع المستعمرين في شمال إفريقية، لا عبد القادر الجزائري في القرن التاسع عشر ضد الاستعمار الفرنسي، ولا عبد الكريم الخطابي في المغرب ضد الاستعمار الفرنسي أيضاً. وعلى الرغم من أنها أسماء لا ينساها المسلمون، إلا أن أهدافهما كانت سياسية في المقام الأول تسعى إلى تحقيق الاستقلال. بعكس منهج سيد أحمد الذي كان ينطوي على إحياء ديني إسلامي يتحقق من خلاله الاستقلال والنهضة الإسلامية الجديدة.

قدمني إليه في مكّة المكرّمة في ذلك الوقت حاجي عجوز سالم زعيم مسلمي جاوة، والذي كان يقود هو الآخر حركة نضال مسلمي إندونيسيا من أجل الاستقلال، وكان قد حضر إلى مكّة المكرّمة ليؤدي فريضة الحج. وعندما علم سيد أحمد أنني اعتنقت الإسلام حديثاً، مد إليّ يده مصافحاً وقال في ود:

«مرحباً بك بين إخوتك، يا أخي الأصغر...».

كانت ملامحه تحمل أمارات التعب والإجهاد، وتبدو المعاناة محفورة على جبهته فوق عينيه، كان بلحية قصيرة شيباء، وفم تحيط به تجاعيد الآلام المرتسمة على ملامحه، كان تعباً، جفناه مرتخيان في إجهاد على عينيه فبدتا ناعستين؛ كان صوتاً هيناً إلا أنه مملوء بالأسى. لكن وجهه كان يشتعل في أحيان أخرى بالحماس، فتستعيد العينان بريقهما، ويرتفع صوته قوياً مجلجلاً، ومن أثناء البرنس الأبيض يرتفع ذراعه في حماس كجناح صقر يهم بالطيران.

كان صاحب فكرة ورسالة لو كتب لها التحقق، ربما أحيت نهضة إسلامية جديدة، وفي متاعب شيخوخته ومرضه وانهيار نتاج عمره، لم يفقد بطل شمال إفريقية بريقه.

لم يكن يملك حق اليأس، وكان على يقين بأن التطلع إلى إحياء العقيدة الإسلامية وتحقيق الاستقلال السياسي - واللذين نشأت من أجلهما الحركة السنوسية - لا يمكن محوهما من قلوب المسلمين.

* * *

كان جد سيد أحمد، وهو العالم الإسلامي الجزائري محمد بن علي السنوسي (ويعود اللقب إلى قبيلة بني سنوس)، قد آمن بفكرة الأخوة الإسلامية في النصف الأول من القرن التاسع عشر، وأنها إن تحققت فستمهد الطريق لإحياء وحدة إسلامية جديدة. وبعد أعوام من التجوال والدراسة بين عدة بلاد عربية أقام محمد بن علي أول زاوية سنوسية على جبل أبي قبيس في مكّة المكرّمة، وسرعان ما التف حوله كثيرون من بدو الحجاز. ولم يبق بمكة، وعاد إلى شمال إفريقية، واستقر في جغبوب، وهي واحات تقع بين ولاية فزان في ليبيا ومصر، ومن جغبوب انتشرت رسالته مثل انتشار النار في جميع أنحاء ليبيا وما جاورها. وعندما توفي محمد بن علي سنة ١٢٧٦ (١٨٥٩م) كان السنوسي (وأصبح اسم كل كبير للحركة) قد مد رسالته على منطقة واسعة تمتد من سواحل البحر المتوسط حتى المنطقة الاستوائية في إفريقية وحتى منطقة قبائل الطوارق في الصحراء الجزائرية.

ولا ينطبق مصطلح «دولة»، على المنطقة التي انتشرت فيها رسالته، ولا على محتوى الرسالة التي آمن بها ومضمونها، فالسنوسي الأول الكبير لم يهدف أبداً إلى تأسيس حكم خاص به أو لنسله من بعده: كل ما هدف إليه هيئة أُسست ملائمة لإعادة الإحياء والنهضة الإسلاميين في جميع جوانبهما الاجتماعية والسياسية والاقتصادية. ولتحقيق ذلك الهدف، لم يسع إلى ما يعكر أو يثير التنظيم القبلي القائم، كما لم يتحد الحاكم المعين على ليبيا من قِبل الدولة

العثمانية التي كانت ليبيا تابعة لها، بل قصر جهوده على تعليم البدو في خيامهم مبادئ الإسلام، ويزرع فيهم الوعي بأخوة المسلمين التي حض عليها القرآن الكريم، والتي اختفت خلال القرون الماضية بسبب النزاعات والصراعات القبلية. ومن خلال الزوايا الكثيرة التي انتشرت في شمال إفريقية، حمل السنوسيون رسالتهم إلى أبعد القبائل، وحققوا خلال عقود قليلة تحولاً إعجازياً بين العرب والبربر على حد سواء.

قَلَّت المشكلات المزمنة بين القبائل تدريجياً، واختفت المشاحنات، وتحول من كانوا محاربين صحراويين جموحين إلى إخوة متعاونين بروح لم تعرف بينهم من قبل. كان أبناؤهم يتلقون التعليم في الزاوية - يشمل تعاليم الإسلام كما يشمل الفنون اليدوية والمشغولات التي كانت القبائل تزدري العمل بها - كما قاموا بحفر كثير من الآبار الكبيرة والجيدة في مناطق غير مأهولة على مدى قرون، وبإرشادهم ظهرت إلى الوجود مجتمعات إسلامية منتعشة وواعدة في مناطق كثيرة من الصحراء، كما شجعوا أعمال التجارة، وساعد السلام الذي أرسوا أسسه بين القبائل على تأمين طرق التجارة، مما جعل الانتقال آمناً على الطرق التي كانت تخشى القوافل المرور بها لتجنب الاعتداء عليها وسلبها ونهبها. كان نفوذ الحركة السنوسية حافزاً على التغيير، بينما رفع التزامها الديني من المستوى الروحي والأخلاقي في المجتمعات الجديدة. على وجه التقريب ارتضت جميع القبائل بالزعامة الروحية للسنوسي الكبير؛ بل إن السلطات التركية العثمانية التي كانت تحكم مدن الساحل الليبي وجدت أن سلطة الحركة على القبائل تسهل الأمور في تعاملهم مع القبائل التي كانت تثير المشكلات من قبل.

وفي الوقت الذي ركزت فيه الحركة مجهودها في ترقية شعوب الداخل ونموهم وتعليمهم، تحول نفوذها مع الزمن إلى شكل لايختلف كثيراً عن نفوذ الحكومات، ذلك النفوذ وتلك القوة اعتمدا على قدرة الحركة على تحويل البدو البسطاء وقبائل شمال إفريقية (الطوارق) من شكل ديني لا يعرف إلا القشور، إلى بدو أكثر وعياً بروح الإسلام الحق، وتنمية الوعي بروح الاستقلال، والسعي إلى الحرية والكرامة الإنسانية والأخوة الإسلامية.

ولم تظهر في العالم الإسلامي بعد العصر الذهبي للإسلام حركة إسلامية واسعة النطاق تمهد الطريق إلى وحدة إسلامية تماثل الحركة السنوسية.

إلا أن ذلك العهد المسالم لنشر الدعوة والوعي في الربع الأخير من القرن التاسع عشر قد انهارا، عندما راحت القوات الفرنسية تزحف جنوباً من الجزائر باتجاه إفريقية الاستوائية، محتلين جزءاً بعد جزء من مناطق كانت مستقلة تحت النفوذ الروحي للحركة السنوسية. ووجد ابن مؤسس الحركة، محمد المهدي، وخليفة أبيه بعد موته، نفسه مجبراً على تجريد السيف الذي لم يغمد بعد ذلك أبداً. وكان ذلك النضال الطويل جهاداً إسلامياً حقيقياً - فقد كانت حرباً للدفاع عن النفس والعقيدة، كما جاء في القرآن الكريم في تعريف الجهاد:

﴿وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿١٩٠﴾ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلْقَتْلِ ۚ وَلَا تُقَٰتِلُوهُمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَٰتِلُوكُمْ فِيهِ ۖ فَإِن قَٰتَلُوكُمْ فَٱقْتُلُوهُمْ ۗ كَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩١﴾ فَإِنِ ٱنتَهَوْاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٩٢﴾﴾ (١).

ولم يتوقف الفرنسيون عند ذلك، فقد حملوا رايتهم بألوانها الثلاثة على حراب بنادقهم إلى عمق البلاد الإسلامية.

ولما توفي محمد المهدي سنة ١٣٢٠ (١٩٠٢م)، تولى ابن شقيقه، سيد أحمد، قيادة الحركة السنوسية. كان قبل توليه، وهو بالتاسعة عشرة من العمر، وبعد توليه، يخوض غمار الحروب ضد انتهاكات القوات الفرنسية في المناطق التي تُعرف الآن بإفريقية الاستوائية الفرنسية، وعندما غزا الإيطاليون طرابلس وبرقة سنة ١٣٢٩ (١٩١١م)، أصبح لزاماً عليه أن يقاتل على جبهتين، إلا أن ذلك جعله يحول جهد الحركة إلى العدو الجديد الذي احتل شمال ليبيا. حاربهم في البداية بمساعدة الأتراك، ولما انسحب الأتراك من ليبيا في الحرب العالمية، وجد نفسه

---

١- سورة البقرة: الآيات ١٩٠، ١٩١، ١٩٢.

وحيداً في تلك الحرب. وشن سيد أحمد والمجاهدون السنوسيون غاراتهم على الغزاة بنجاح على الرغم من تفوق الإيطاليين الكاسح في العدد والسلاح، وتقلص نفوذهم حتى لم يتجاوز بعض المدن الساحلية.

كان البريطانيون قد ثبتوا أقدامهم في مصر، ولم يكن في مصلحتهم تمدد إيطاليا في شمال إفريقية، كما لم يكونوا على عداء مع الحركة السنوسية، لذلك كان موقفهم المحايد في مصلحة الحركة، فقد كانت إمدادات المجاهدين السنوسيين تصل إليهم من مصر، وكان شعب مصر يتعاطف مع الحركة ويؤيدها. وكان يمكن للحركة أن تنجح في طرد الإيطاليين من برقة نهائياً مع توفر حياد بريطانيا.

في سنة ١٣٣٣ (١٩١٥م)، دخلت تركيا الحرب العالمية متحالفة مع ألمانيا، وطلب السلطان العثماني خليفة المسلمين من الحركة السنوسية أن يقفوا إلى جانب الأتراك لمهاجمة القوات البريطانية في مصر، وكان البريطانيون قد طلبوا من سيد أحمد أن يظل على الحياد مقابل اعترافهم السياسي بشرعية الحركة السنوسية في ليبيا، وأن يتخلوا له عن بعض الواحات المصرية في الصحراء الغربية.

لو أن سيد أحمد قد قبل ذلك العرض، لاتبع ما يمليه عليه التفكير المنطقي، فهو لا يدين بشيء للأتراك الذين انسحبوا أمام الإيطاليين من ليبيا، وتركوه يقاتلهم وحده، في الوقت الذي لم يُقدم فيه البريطانيون على أي عمل عدائي ضد الحركة السنوسية، بل على العكس، أغمضوا عيونهم عن الإمدادات التي تنقل إليهم من مصر ـ وكانت المصدر الوحيد للحركة، وفوق كل ذلك، كان الجهاد مع برلين التي تحالفت معها تركيا لا يحقق ما يذكره القرآن الكريم عن الجهاد؛ فتركيا المسلمة في ذلك الوقت لم تكن في حالة دفاع عن النفس، وتحالفت مع قوة غير إسلامية في حرب عدوانية.

وهكذا، كانت القضايا الدينية والسياسية تلزمه اتجاهاً واحداً لا بديل له، وهو أن يظل بعيداً عن حرب ليست حربه. كان كثير من قادة الحركة السنوسية ـ ومنهم صديقي سيدي محمد الزواوي ـ ينصحون سيد أحمد أن يظل على الحياد في الحرب

الدائرة بين تركيا وبريطانيا، إلا أن فروسيته «الدون كيشوتية» تجاه خليفة الإسلام غلبت منطق العقل ودفعته إلى اتخاذ القرار الخطأ؛ وهاجم الإنجليز في صحراء مصر الغربية.

كان صراع الضمير أكثر مأساوية في حالة سيد أحمد، فلم يكن هناك مكسب أو خسارة شخصية، بل كانت الخسارة للحركة التي حملت قضية كبرى قصر سيد أحمد حياته من أجلها وحياة جيله وجيلين من قبله. وبمعرفتي الوثيقة به،لم يكن لدي شك أن دوافعه لهذا القرار الخاطئ لم يكن لها دوافع شخصية، بل كانت من وجهة نظره رغبة في الحفاظ على وحدة مسلمي العالم، إلا أنه من وجهة نظر سياسية، كان قراره أسوأ قرار اتخذه في حياته بأجمعها. فبدخوله الحرب ضد البريطانيين، ضحى، دون أن يعي ذلك في حينه، بمستقبل الحركة السنوسية.

وجد نفسه، منذ ذلك الحين، مجبراً على القتال في ثلاث جبهات؛ في الشمال ضد الإيطاليين، وفي الجنوب الغربي ضد الفرنسيين، وفي الشرق ضد البريطانيين.

حقق في البداية بعض النجاح، كان البريطانيون يعانون تقدم القوات التركية والألمانية باتجاه قناة السويس من فلسطين، فأخلوا الواحات في الصحراء الغربية لتركيز قواتهم في منطقة قناة السويس، فاحتلها على الفور سيد أحمد، وهرعت قواته التي كان يقودها محمد الزواوي (الذي عارض بحكمة وقوة ذلك القرار) واخترقوا الصحراء الغربية حتى مشارف القاهرة.

تغير مسار الحرب العالمية؛ وتوقف التقدم السريع للقوات الألمانية والتركية نحو قناة السويس من شبه جزيرة سيناء، وتحول هجومهم إلى تقهقر، ثم بدأت بريطانيا هجوماً مضاداً على السنوسيين في الصحراء الغربية، وأعادوا احتلالهم للواحات الحدودية وآبار المياه، وقطعت المصدر الوحيد لإمدادات المجاهدين من مصر، كانت المؤن الداخلية والسلاح والذخيرة لا تكفي ولا تفي بحاجات سكان مشتبكين في معارك حياة أو موت ضد إيطاليا؛ كما لم تقدم الغواصات الألمانية والنمساوية التي كانت تقوم بعمليات إنزال سرية إلا معونات رمزية.

السنوسي الكبير ١٣٤٥ (١٩٢٧م)

في سنة ١٣٣٥ (١٩١٧م) وأمام ذلك الوضع الحرج أقنعه مستشاروه أن يذهب إلى إستنبول سراً في غواصة، ومن هناك يرتب لدعم أكثر فعالية، وعهد قبل أن يسافر بقيادة الحركة في منطقة طبرق إلى ابن عمه، سيد محمد إدريس[1]، الذي كان أكثر ميلاً إلى المهادنة والتصالح مع الإنجليز والإيطاليين، ووافق البريطانيون - الذين لم يحبوا منذ البداية أن يدخلوا في صراع مع السنوسيين لا فائدة لهم من ورائه - على الصلح؛ وضغطوا على إيطاليا لقبول التصالح.

اعترف به الإيطاليون بعد فترة «أميراً على السنوسيين» واحتفظ باستقلال شكلي في ولاية برقة حتى سنة ١٣٤٠ (١٩٢٢)، عندما رجع الإيطاليون عن اعترافهم بالسنوسيين ليسيطروا على ليبيا، وغادر سيد إدريس محتجاً إلى مصر في بداية سنة ١٣٤١ (١٩٢٣م)، بعد أن عهد بقيادة السنوسيين إلى زميل من أهل الثقة هو عمر المختار، ووقع خرق الإيطاليين للاتفاق سريعاً، واشتعلت الحرب في فزان من جديد.

واجه سيد أحمد في تركيا خذلاناً بعد خذلان. كانت نيته أن يعود إلى فزان بمجرد أن يحقق الغرض الذي جاء من أجله؛ إلا أن ما جاء من أجله لم يتحقق أبداً.

فبمجرد أن وصل إلى إستنبول، واجه مكايد كثيرة أرجأت عودته من أسبوع إلى أسبوع، ومن شهر إلى شهر، وكان من الواضح أن دوائر صنع القرار المحيطة بالسلطان العثماني لا تريد للحركة السنوسية النجاح. كان الأتراك يخشون أن يأتي يوم يصحو فيه العرب ويستعيدون زعامة العالم الإسلامي، وكان انتصار السنوسيين من عوامل التعجيل بتلك الصحوة، التي قد يحتل فيها السنوسي الكبير موضع الخليفة العثماني، ومع أنه لم يكن لديه ذلك الطموح، إلا أن ذلك لم يقض على شكوك الباب العالي. وعلى الرغم من أنه عومل باحترام شديد في تركيا قائداً للمجاهدين السنوسيين، إلا أنه أصبح بصورة غير رسمية محجوزاً في تركيا. وانهارت الدولة العثمانية سنة ١٣٣٦ (١٩١٨م)، وتلا انهيارها احتلال الحلفاء لإستنبول، وكان ذلك علامة على موت آماله التي عقدها على تركيا، وفي الوقت نفسه أُغلقت أمامه احتمالات العودة إلى برقة.

---

١- أصبح ملكاً على ليبيا سنة ١٣٧١ (١٩٥٢م).

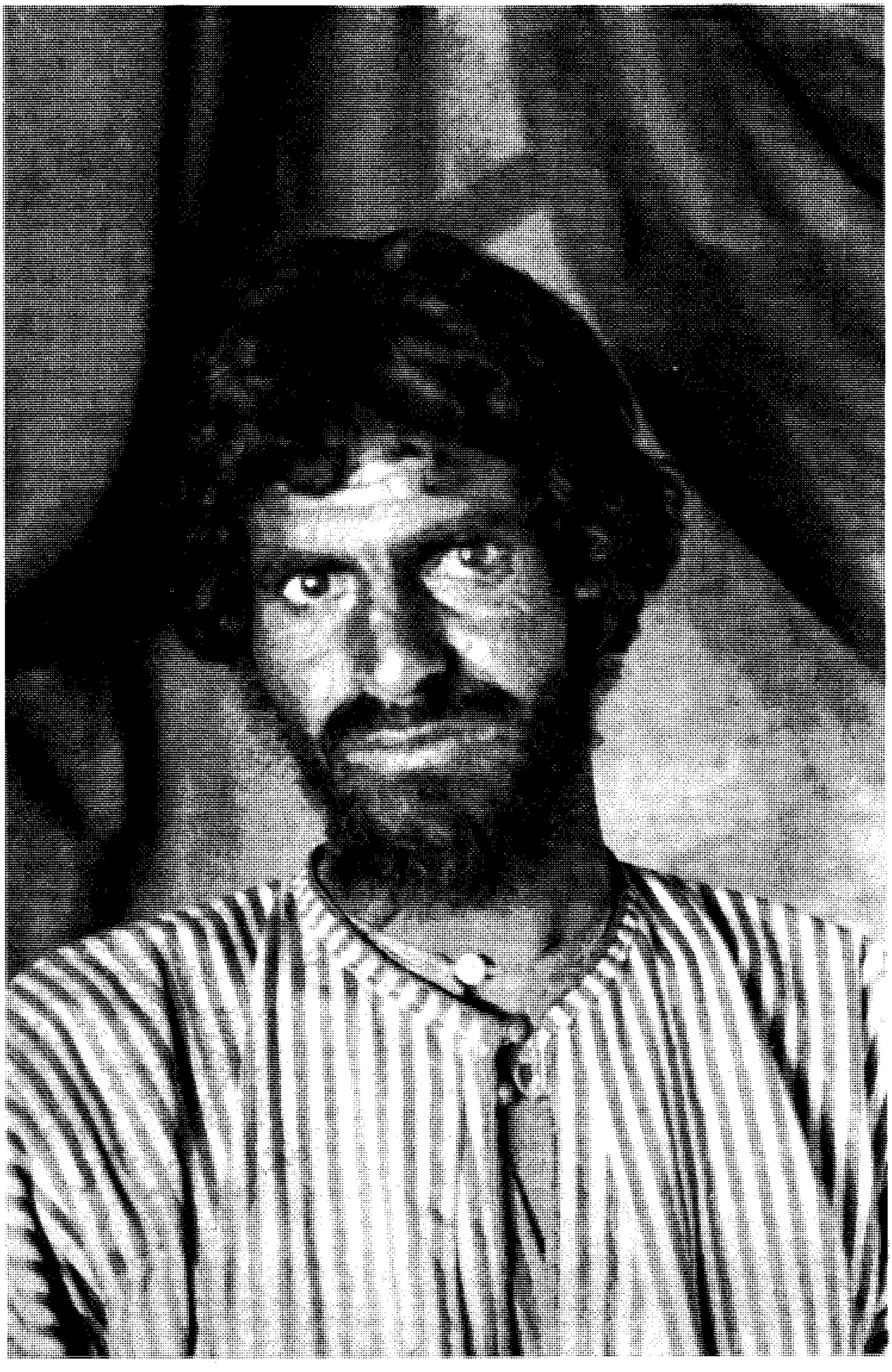

الصلبي

كان إلحاح العمل من أجل قضية وحدة المسلمين لا يترك لسيد أحمد أي فرصة للعيش بلا نشاط. فبينما كانت قوات الحلفاء تنزل في إستنبول، عبر البوسفور إلى آسيا الصغرى، انضمّ إلى كمال أتاتورك - الذي كان يعرف في ذلك الوقت باسم مصطفى كمال - الذي بدأ فوراً بتنظيم المقاومة التركية داخل الأناضول.

ولابد أن نتذكر أن النضال البطولي لكمال أتاتورك في البداية كان تحت رايات الإسلام، وأن الحماس والحمية الإسلامية للدفاع عن الدين الإسلامي هما وحدهما اللذان وهبا الأمة التركية في ذلك الوقت المظلم القوة للقتال ضد قوة الطغيان اليوناني المدعوم من قبل الحلفاء.

وضع سيد أحمد ثقله الروحي في خدمة القضية التركية، فكان ينتقل في أرجاء الأناضول مناشداً مسلمي تركيا لدعم «المدافع عن الإسلام» مصطفى كمال. كانت جهوده ووزن اسمه إضافة كبيرة أدت إلى نجاح الحركة الكمالية بين فلاحي الأناضول المسلمين البسطاء الذين لم تكن تعني لهم الشعارات القومية أي شيء بقدر ما كان يعني لهم الإسلام كل شيء حتى التضحية بأرواحهم في سبيله.

يرتكب «السنوسي الكبير» مرة أخرى خطأ جديداً في حكمه على الأمور فيما يخص الشعب التركي المسلم الذي قاده حماسه الديني إلى تحقيق النصر، وفيما يخص نوايا قائدهم الذي بمجرد أن تحقق له النصر، كشف عن هدف رئيس يختلف عن الأهداف التي ترك شعبه يتوقعها. فبدلاً من أن يجعل الإسلام منطلقاً لرغبته في التغيير، تخلى أتاتورك عن الدين الإسلامي الذي أعلن أنه غير ضروري. كان بإمكانه أن يوظف حماس شعبه الديني لإنجاز التقدم من دون أن يعزله عما يشكل ثقافته الروحية الإسلامية، وجعل منه أمة عظيمة.

انسحب سيد أحمد من جميع الأنشطة السياسية نهائياً في تركيا بخيبة أمل مريرة من إصلاحات أتاتورك المعادية للإسلام، وغادرها أخيراً سنة ١٣٤١ (١٩٢٣م) إلى

دمشق. ومن هناك، على الرغم من معارضته لسياسات أتاتورك الداخلية، حاول أن يخدم قضية وحدة المسلمين بإغراء سورية بالاتحاد مع تركيا. وراقبت حكومة الانتداب الفرنسية على سورية ما يفعله بعدم ارتياح، وبنهاية سنة ١٣٤٢ (١٩٢٤م)، عرف أصدقاؤه أن القبض عليه من السلطات الفرنسية أصبح وشيكاً، فهرب في سيارة من دمشق عبر صحراء سورية حتى مشارف نجد، ومنها وصل إلى مكّة المكرّمة، واستقبله الملك عبد العزيز آل سعود بترحاب.

(٢)

سألت الزواوي: «كيف حال المجاهدين ياسيدي محمد؟» سألته لأني لم أكن أعرف شيئاً عن أحوال برقة منذ عام.

أظلم وجه سيدي محمد الزواوي المستدير ذو اللحية البيضاء وقال: «الأنباء ليست جيدة يا بني، انتهى القتال منذ شهور. لقد انكسر المجاهدون؛ أطلقوا آخر رصاصة، لا توجد إلا رحمه اللّه تحمي شعبنا التعس من انتقام المحتلين...».

سألته: و«سيد إدريس؟».

أجابني وهو يتنهد: «سيد إدريس؟ سيد إدريس مازال بمصر، ينتظر بلا حول ولا قوة - ينتظر ماذا؟ إنه رجل جيد.. باركه اللّه، إلا أنه ليس مقاتلاً، إنه يحيا مع كتبه، ولكن السيف لا يستقر في يده ولا يناسبها...».

قلت: «ولكن عمر المختار - بالتأكيد لم يستسلم للأعداء؟ هل فر إلى مصر؟».

توقف سيدي محمد عن السير، والتفت إليّ محملقاً في دهشة: «عمر؟ إنك حتى لم تعرف بهذا؟».

سألته: «أعرف ماذا؟».
قال برقة: «يا بني، سيد عمر يرحمه اللّه، توفي منذ عام».

مات عمر المختار؟... أسد برقة، الذي لم تعقه سنواته السبعون عن القتال من أجل حرية بلده: مات... لقد كان على مدى عشرة أعوام روحاً ورمزاً لشعب يقاوم من أجل هدف ميؤوس منه - ضد القوات الإيطالية التي تفوقهم عدداً بعشرات المرات ومسلحين بأحدث الأسلحة، من سيارات مصفحة، إلى طائرات حربية ومدفعية - بينما لا يملك عمر والمجاهدون نصف الجائعين إلا البنادق وبعض الخيل التي يستخدمونها في شن هجمات فدائية في بلدهم الذي تحول إلى معتقل كبير...

لم أصدق أن ذلك كان صوتي وأنا أقول له: «على مدى العام ونصف العام الأخيرين منذ أن عدت من برقة قبل عام ونصف كنت أعرف أنه ورجاله ميتون. كم حاولت حينها إقناعه بالانسحاب إلى مصر مع من تبقى معه من المجاهدين ليحتفظ بحياته من أجل شعبه.. وكان بكل هدوء يرفض محاولات إقناعه، وهو يوقن أن الموت ولا شيء غير الموت ينتظره في طبرق؛ والآن، بعد مئة معركة، حل به الموت الذي طال توقعه... ولكن قل لي... متى سقط؟».

هز محمد الزواوي رأسه في أسى، كنا حينها نخرج من شارع السوق الضيق إلى ميدان المناخة الواسع المظلم، وقال:
«لم يسقط في معركة. لقد جرح ووقع أسيراً، ثم قتله الإيطاليون... شنقوه مثلما يشنق أي لصٍ عادي...»».
تعجبت سائلاً: «وكيف جرؤوا على ذلك؟ لا يجرؤ جراتسياني ذاته أن يقوم بذلك العمل الهمجي».

أجاب بابتسامة مريرة: «ولكنه فعل، كان الجنرال جراتسياني ذاته هو من أمر بشنق عمر المختار. كان سيدي عمر ورجاله في عمق منطقة يسيطر عليها الإيطاليون، كان في تلك المنطقة قبر سيدي رافع من الصحابة فذهبوا لزيارة قبره والترحم عليه، وعلم الإيطاليون بوجوده، وحاصروا الوادي بقوات كبيرة. لم يكن هناك أي طريق للهرب، ودافع سيدي عمر والمجاهدون عن أنفسهم حتى لم يبق معه إلا اثنان من المجاهدين. وفي النهاية أصابت جواده رصاصة، وسقط من على صهوته سقطة شديدة قاسية، إلا أن الأسد العجوز استمر يطلق رصاص

بندقيته حتى أصابته طلقة في يده؛ فاستمر في إطلاق النار بيده الأخرى حتى نفذت ذخيرته، فأسروه، وكبلوه، وساقوه إلى سولوق، وهناك مثل أمام الجنرال جراتسياني الذي سأله: «ما قولك لو أن الحكومة الإيطالية بعطف منها ورحمة دعتك تعيش، هل تعد أن تعيش ما تبقى لك من عمر في هدوء وسلام؟

إلا أن سيدي عمر أجابه: لن أتوقف عن حربكم حتى تغادروا بلدي، أو حتى تغادر روحي بدني. وأقسم لك بالله الذي يعلم ما تخفي الصدور لو لم تكن يداي مقيدتين في هذه اللحظة لضربتك بيدي الخاليتين وأنا عجوز ومصاب كما أنا... وضحك الجنرال جراتسياني، وأصدر أمره بشنقه في ساحة سوق بلدة سولوق؛ وشنقوه، ثم ساقوا آلافاً من المسلمين بالقوة رجالاً ونساءً من معسكرات التجميع التي كانوا بها وأجبروهم على مشاهدة قائدهم وهو معلق في حبل المشنقة[1]».

(٣)

كانت يدي لا تزال بيد سيدي محمد الزواوي ونحن نقترب من الزاوية السنوسية. كان الظلام مخيماً على الميدان الواسع، وابتعدنا عن ضوضاء السوق الذي أصبح خلفنا، لم نكن نسمع إلا صوت الرمال تحت صنادلنا. كانت جمال نقل البضائع باركة في مجموعات متفرقة ونرى أشباحها في الظلام، ومنازل بعيدة في الطرف البعيد من الميدان تبدو بغير وضوح أمام خلفية من سماء ملبدة بالغيم. ذكرتني هيئة البيوت بحافة غابة بعيدة - كانت مثل غابات أشجار الصنوبر في هضبة طبرق حيث التقيت للمرة الأولى والأخيرة سيدي عمر المختار؛ وراحت ذكرى تلك الرحلة التي لم تثمر عن شيء تتراكم داخلي برائحتها المأساوية من ظلام ومخاطر وموت، ورأيت بين سيل الذكريات وجه سيدي عمر المكفهر وهو ينحني على لهب نار صغيرة، وأتذكر صوته الأجش: «لابد أن نقاتل في سبيل ديننا وحريتنا حتى نطرد الغزاة أو نموت... لا يوجد خيار آخر...»».

* * *

١- وقع هذا العمل «الفروسي» الإيطالي في ٣ جمادى الأولى سنة ١٣٥٠ (١٦ سبتمبر عام ١٩٣١م).

كانت مهمة غريبة تلك التي ساقتني إلى طبرق في رمضان من سنة ١٣٤٩ أواخر (يناير عام ١٩٣١م) قبل المهمة ببضعة أشهر. في خريف سنة ١٣٤٨ (١٩٣٠م) على وجه الدقة - وصل السنوسي الكبير إلى المدينة المنورة. قضيت ساعات معه بصحبة محمد الزواوي، نناقش الوضع الميؤوس منه للمجاهدين الذين كانوا يناضلون في برقة تحت قيادة عمر المختار. تبين أنهم إن لم يتلقوا مساعدة عاجلة وفعالة من خارج ليبيا، لن يتمكنوا من الصمود.

كان الموقف إجمالاً في برقة كالآتي: جميع المدن الساحلية، وبعض المراكز شمال الجبل الأخضر تحت سيطرة الإيطاليين، وكانوا يسيّرون دوريات بين تلك المراكز مكونة من عربات مصفحة، وأعداد كبيرة من الخيالة، وأغلبهم من الجنود الأريتريين، وتدعمهم أسراب طائرات مقاتلة تشن الغارات على مناطق المجاهدين. لم يكن البدو (وهم الكتلة الرئيسة من مجاهدي عمر المختار) يتحركون من أي مكان من دون أن يتم رصد تحركهم فوراً، وتهاجمهم الطائرات من الجو. حدث كثيراً أن طائرات الاستطلاع كانت ترصد وجود تجمع القبائل وتبلغ أقرب نقطة حصينة باللاسلكي عن أماكن وجودهم، في الوقت الذي تمنعهم الطائرات من التفرق بمدافعها الرشاشة حتى تصل المدرعات، وتسير مباشرة باتجاه الخيام بما فيها من بدو، وتقتل بلا تمييز كل ما يمكن قتله من رجال ونساء وأطفال وإبل وماشية، ومن يبقى على قيد الحياة كان يساق إلى الشمال إلى معسكرات اعتقال هائلة محاطة بأسوار شائكة أقامها الإيطاليون على الساحل.

كانوا قد ساقوا إلى تلك المعسكرات في ذلك الوقت، بالقرب من نهاية سنة ١٣٤٨ (١٩٣٠م)، نحو ثمانين ألف بدوي ومئات الآلاف من الإبل والماشية والأغنام، ولا يوجد بتلك المعسكرات ما يكفي لإطعام ربع هذا العدد؛ فراحت المجاعة تحصد أرواحهم بشكل مخيف. عدا ذلك كان الإيطاليون يقيمون سوراً عازلاً من الأسلاك الشائكة يفصل ليبيا عن مصر يمتد من الساحل حتى واحة جغبوب لمنع المجاهدين من الحصول على إمدادات من مصر. كانت قبيلة المغاربة تقاتل بشراسة واستبسال تحت زعامة قائد «الأطاوش» ذراع عمر المختار الأيمن، في غرب منطقة الساحل من طبرق، بينما كان الإيطاليون قد اكتسحوا مناطق باقي القبائل بتفوقهم في العدد

والتسليح. وفي عمق الجنوب كانت قبيلة زواوية تحت زعامة (أبو كريم) البالغ من العمر تسعين عاماً لاتزال تقاوم في يأس بعد أن أزاحهم الإيطاليون عن موطنهم في واحة چالو. أما في الوسط، فكان الجوع والأمراض تحصد البدو حصداً.

لم تتجاوز القوات التي يوظفها عمر المختار في أي وقت ألف رجل، ولم يكن ذلك لنقص في الرجال، بل لأن نمط حرب الإغارات المفاجئة الذي كان عمر المختار يقوم به يتطلب سرعة الحركة لمجموعات صغيرة ضارية تظهر فجأة من حيث لا يشعر بها أحد لتهاجم قافلة إيطالية متحركة أو نقطة ثابتة حصينة لتستولي منها على السلاح، وتختفي فجأة كما ظهرت فجأة في غابات أشجار الصنوبر أو في أودية خفية بين جبال منطقة طبرق. لم يكن من الممكن لتلك العصابات الصغيرة العدد مهما كانت شجاعتها وإصرارها على الشهادة أن تحقق نصراً حاسماً على عدو يمتلك إمدادات ومصادر سلاح غير محددة من رجال وعتاد. وكان السؤال المطروح كيف ندعم المجاهدين لتمكينهم ليس فقط من إحداث خسائر للغزاة، بل لاسترداد المواقع التي تمركز فيها العدو واحتلها، ثم التمسك بتلك المواقع عند أي هجوم مضاد لاستردادها.

كان دعم المجاهدين السنوسيين يعتمد على عدة عناصر: تدفق مستمر لإمدادات الغذاء من مصر، لأن المجاهدين يعانون نقص الغذاء معاناة شديدة؛ وأسلحة قادرة على الصمود أمام الطائرات المغيرة والعربات المدرعة - كانوا يحتاجون إلى أسلحة مضادة للمدرعات ومدافع رشاشة ثقيلة، وأفراد مدربين تدريباً جيداً وقادرين على استخدام تلك الأسلحة وتدريب المجاهدين على استعمالها؛ وأخيراً، إيجاد نظام اتصال لاسلكي بين مختلف مجموعات المجاهدين في هضبة طبرق وبين مسؤولي الإمداد والتموين من خلال الحدود المصرية..

رحنا نجتمع على مدى أسبوع تقريباً كل ليلة، أنا، والسنوسي الكبير سيدي محمد، لمناقشة ما يمكن عمله. كان رأي سيدي محمد أن الإمدادات غير المنتظمة للمجاهدين لن تجدي. كان يؤمن أن واحة الكفرة، في جنوب صحراء ليبيا، والتي كانت مركز قيادة الحركة السنوسية في أيام سيدي أحمد لابد أن تصبح من جديد

النقطة المركزية لقيادة أعمال المقاومة الحربية القادمة؛ لأن الكفرة لا تزال بعيدة عن أيدي الإيطاليين. وقد تكون أفضل لقوافل الإمداد (على الرغم من طول الطريق وصعوبته) في الانتقال بينها وبين واحتي الفرافرة والبحرية في مصر، وبذلك يكون هناك ضمان أفضل لوصول الإمدادات بطريقة منتظمة، كما أنه من الممكن أن تكون الكفرة مكاناً صالحاً لإيواء آلاف البدو الذين يلجؤون إلى مصر ويعيشون في معسكرات بها، وبذلك يتوافر مصدر للمقاتلين لتدريبهم على أعمال الحرب تحت قيادة عمر المختار في الشمال. فإذا تم تحصين الكفرة فإنها من الممكن أن تصمد أمام هجوم الطائرات المغيرة، ويصبح القصف بالقنابل من ارتفاعات عالية غير مؤثر في تجمعات حصينة منتشرة في منطقة واسعة.

وقال السنوسي الكبير: إنه إذا كان ممكناً إعادة تنظيم خطط النضال فإنه سيعود بنفسه إلى الكفرة لقيادة العمليات الجديدة من هناك. وقد أصررت على أنه، لكي تنجح مثل تلك الخطة، من المحتم على سيد أحمد أن يعيد تأسيس علاقات جيدة مع البريطانيين الذين هاجمهم بلا داع سنة ١٣٣٣ (١٩١٥م). وكان تحسين العلاقات لا يبدو مستحيلاً، فلم يكن البريطانيون سعداء بنوايا إيطاليا التوسعية، وخصوصاً بعد أن أعلن «موسوليني» للعالم أجمع نواياه في إعادة «إحياء الإمبراطورية الرومانية» على سواحل البحر المتوسط، وكانت عينه على مصر بوجه خاص.

كان اهتمامي بالحركة السنوسية لا يعود إلى إعجاب شخصي ببطولتهم الفائقة، وشجاعتهم في قضيتهم العادلة؛ ما كان يهمني أكثر من ذلك هو الأثر الذي سيتركه الانتصار السنوسي، إن تحقق، في العالم العربي كله. ومثلي مثل كل المسلمين، وكانت الحركة السنوسية في ذلك الوقت تحارب معركة الخندق الأخير من أجل البقاء.

ولمعرفة سيد أحمد بمشاعري تجاه القضية السنوسية، استدار ونظر نظرة مباشرة إلى عيني وقال:

«هل تذهب إلى طبرق باسمنا وتتعرف بنفسك ما يجب عمله لمساعدة المجاهدين؟ ربما كان بإمكانك أن ترى ا لأشياء أوضح مما تراه أعيننا».

نظرت إليه، وهززت رأسي بالموافقة، دون كلمة، وعلى الرغم من ثقتي، إلا أن ما طلبه مني جعلني أحبس أنفاسي. كان الإقدام على مغامرة بهذه الجسامة يجعلني لا أجد الكلمات المناسبة؛ ما أثارني هو احتمال أن أقوم بشيء للحركة التي ضحى رجال كثيرون بأنفسهم في سبيلها. مد سيد أحمد يده إلى رف فوق رأسه وتناول مصحفاً ملفوفاً في قماش حريري. وضع كتاب اللّه على ركبتيه، وتناول يدي اليمنى بين كفيه، ووضعها على القرآن الكريم، وقال: «اقسم يا محمد، باللّه الذي يعلم ما تخفي الصدور، أنك ستظل مخلصاً للمجاهدين..». أقسمت؛ ولم أكن على يقين من أن أبرّ بقسم أقسمته في حياتي مثلما كنت على يقين من التزامي المطلق بهذا القسم.

* * *

كانت المهمة التي أسندها إليّ سيد أحمد تتطلب سرية مطلقة. ولأن علاقتي بالسنوسي الكبير معروفة، وتحت بصر البعثات الأجنبية في جدة، لم يكن من المستحب أن أسافر إلى مصر بشكل واضح وظاهر، وأتعرض لاحتمال مراقبتي، وإجهاض مهمتي. كان كشفي لخفايا استمرار تمرد فيصل الدويش والجهات التي تمول تمرده لا يدعم موقفي مع البريطانيين، ولابد أنهم سيراقبونني بكل صرامة لو علموا بوصولي إلى مصر. لذلك قررت أن أذهب إلى مصر خفية من دون أن يشعر بي أحد. قررت أن أعبر البحر الأحمر في أحد المراكب الشراعية العربية، وأنزل خفية على أحد السواحل المهجورة جنوب مصر من دون أوراق أو جواز سفر أو تأشيرة دخول. وفي مصر أتنقل في هيئة رجل حجازي، وفي مصر كثير من أهل مكّة المكرّمة والمدينة المنورة الذين يذهبون إلى هناك لأغراض التجارة أو البحث عمن ينوون أداء فريضة الحج. وقد كان ذلك من المشاهد المألوفة في ريف مصر ومدنها - ولأنني أتحدث اللهجة الحجازية بإتقان مطلق، كان بإمكاني أن أنتقل بحرية في مصر بصفتي أحد أبناء المدينتين المقدستين.

تطلب الإعداد للسفر بضعة أسابيع، وشمل تبادل الرسائل سراً مع سيدي عمر المختار في طبرق، ومع المراكز السنوسية في مصر، وبدأت السفر في شعبان سنة ١٣٤٩ (الأسبوع الأول من يناير عام ١٩٣١م)، بصحبة زيد من ميناء ينبع بالحجاز من مكان غير مطروق على الشاطئ. اخترنا ليلة بلا قمر، وكان سيرنا

على ممشى غير ممهد بصنادلنا غير يسير ومضنياً، فقد تعثرت وسقطت على الأرض، وفي سقطتي ضرب مقبض المسدس الذي كنت أخفيه تحت قفطاني الحجازي ضلوعي، وأحيا بذلك في ذهني جوانب خطورة مهمتي التي كنت مقدماً عليها.

ها أنذا أمضي إلى موعد مع ربان مركب عليه أن يأخذني في مركبه عبر البحر الأحمر، وينزلني خفية على شواطئ مصر، لم آخذ معي أي وثائق تفضح شخصيتي، فإذا قبض عليّ في مصر، لن يكون من السهل أن أثبت لهم من أنا. وعلى الرغم من ذلك فإن خطر البقاء عدة أسابيع في السجون المصرية لا يوازن بالمخاطر الأخرى التي قد أتعرض لها. كان عليّ أن أشق طريقي عبر الصحراء الغربية لمصر، متجنباً عيون الجواسيس الذين يعملون لمصلحة إيطاليا لرصد المتسللين عبر الصحراء الغربية المتاخمة لليبيا، وقد تصادفنا دوريات من العربات المصفحة المجنزرة في أعماق بلد لا يتحدث فيه إلا السلاح.

لماذا أفعل ذلك؟

على الرغم من أن اقتحام المخاطر لم يكن جديداً عليّ، فإنني لم أسع إلى المخاطر لمجرد الإثارة. وعندما كنت أقتحم المخاطر فإن ذلك كان دائماً استجابة لاحتياج ملح، يرتبط بوعي أو بلا وعي بنمط حياتي كما اخترته. فكيف ينطبق ذلك على المهمة التي أنا في سبيلي إليها؟ هل هناك أي احتمال أن ما أفعله قد يحول دفة الأمور لمصلحة المجاهدين؟ أردت أن أصدق ذلك: إلا أنني كنت على يقين في أعماقي بأنني خرجت إلى مهمة لا طائل من ورائها. إذاً لماذا بحق الله أغامر بحياتي كما لم أغامر بها من قبل ومن دون أمل من وراء تلك المغامرة؟ إلا أن الإجابة كانت حاضرة حتى قبل أن يكتمل السؤال في لا وعيي.

عندما اعتنقت الإسلام، وقبلته منهجاً لحياتي، اعتقدت أن كل أسئلتي وسعيي إلى البحث قد رست على نهاية. ولكن تدريجياً، وببطء، بدأت أعي أن مجرد إسلامي لم يكن النهاية: لقد وجدت أن قبولي لمنهج الحياة كان يعني، لي على الأقل،

الارتباط الكامل بمن لهم إيمانك نفسه - لا بالإحساس والمشاعر فقط، ولكن بالعمل على ما فيه مصلحة المجتمع الذي أنتمي إلى إيمانه. بالنسبة إلي، كان الإسلام طريقاً؛ إلا أنه لم يكن نهاية - وكان مجاهدو عمر المختار يقاتلون ببأس، ويبذلون دماءهم من أجل الحرية ليسيروا على الطريق نفسه الذي اخترته، طريق الإسلام، كما فعل صحابة الرسول ﷺ منذ ثلاثة عشر قرناً، وأن أكون نافعاً لهم مهما يكن يقيني من عدم جدوى المهمة ونتائجها، كان يبدو لي فريضة كالصلاة...

ها نحن أولاء وصلنا إلى الشاطئ، كان هناك قارب بمجدافين تؤرجحه الأمواج، راسياً على حصى الشاطئ بانتظارنا لينقلنا إلى المركب الشراعي الذي كان بانتظارنا في عمق المياه بعيداً في الظلام، وعندما نهض الرجل الممسك بالمجدافين ونحن نقترب، قلت:

«أخي زيداً، هل تعرف أننا ذاهبون إلى مغامرة أخطر كثيراً من المهمة التي قمنا بها لكشف سر استمرار تمرد فيصل الدويش والإخوان؟ ألا تتطلع إلى الحياة الآمنة بالمدينة ولقاء الأصدقاء؟».

أجاب زيد: «طريقك طريقي يا عمي، ألم تقل لي بنفسك أن المياه الراكدة تأسن؟! هيا بنا - حتى تجري المياه وتظل نقية...».

كان المركب واحداً من تلك المراكب الشراعية الكبيرة التي تسمى «الدهو» وهناك كثير منها بين السواحل والموانئ العربية: مصنوع من الخشب، وتنبعث منها رائحة الأسماك وأعشاب البحر، ولها مؤخرة عالية مرتفعة عن سطح الماء، وصاريتان على الطراز اللاتيني، وبينهما قمرة واسعة منخفضة السقف، كان ربان المركب رجلاً عجوزاً من مسقط، له عينان ضيقتان مثل خرزتين تطلان من تحت عمامة هائلة ملونة، نظراته تشي بكثرة المخاطر التي واجهها في حياته والمغامرات الكثيرة التي صادفها؛ ولم يبد أن خنجره الكبير المعقوف ذي المقبض الفضي المثبت في حزامه قد وضع لمجرد الزينة.

قال ـ ونحن نصعد إلى سطح المركب: «مرحباً، يا مرحباً يا أصدقائي، هذه ساعة سعد».

سألت نفسي: كم مرة من قبل رحب بالحجاج الفقراء الذين ينقلهم من مصر من دون تفكير في راحتهم، وينزلهم على سواحل الحجاز! وكم مرة وجه عبارات الترحيب ذاتها إلى تجار الرقيق الذين يخالفون الشريعة الإسلامية، ويأسرون الأثيوبيين الفقراء التعساء لبيعهم في أسواق الرقيق في اليمن!

عزيت نفسي عن ذلك بأن الخبرات التي اكتسبها ربان المركب، مهما كانت أسبابها ودوافعها قد تكون مفيدة لنا؛ فهو يعرف طريقه في البحر الأحمر بخبرة لا توجد إلا لدى قليل من البحارة، ويمكننا الاعتماد عليه في إنزالنا في مكان آمن على سواحل مصر.

* * *

نزلنا من جديد بعد أربع ليال قضيناها على ظهر الدهو، إلى قارب المجاديف بموضع على الساحل المصري شمال ميناء القصير جنوب مصر. لدهشتنا رفض الربان أن يقبل أجراً «لأنه» كما قال مكشراً «قبض ثمن النقل من رؤسائه». و«اللّه معكم».

كما توقعت، لم يكن من الصعب أن نتخفى في القصير، التي اعتاد أهلها رؤية أهل الحجاز بملابسهم المميزة. ركبنا في الصباح التالي سيارة عامة متهالكة متوجهة إلى أسيوط على نهر النيل، وانحشرْتُ بين سيدة بدينة جداً كانت تحمل في حجرها سَلّةً ملأى بالدجاج ورجل فلاح عجوز، بمجرد أن رآنا راح على الفور يروي ذكريات حجه الذي أداه منذ عشرة أعوام، ومن القصير بدأنا أنا وزيد أول خطوات رحلتنا الإفريقية.

كنت أعتقد على الدوام أن المتخفي يشعر أنه محط الأفكار المتشككة من جانب كل من يرونه، وأن الناس سرعان ما تكشف حقيقته، إلا أنني لم أشعر بذلك، فخلال السنين التي قضيتها في الجزيرة العربية ذبت في حياة أهلها حتى صرت بالفعل واحداً منهم؛ وعلى الرغم من أنني لم أشارك أهل مكّة المكرّمة ولا المدينة المنورة

شؤون التجارة، إلا أنني لم أشعر بانفعال وأنا أقوم بدور متعهد الحجاج في مناقشات مطولة مع ركاب آخرين عن فضائل الحج، كما تقمص زيد الدور نفسه بانغماس كامل، وقضينا الساعات الأولى من رحلتنا في مناقشات ممتعة.

ركبنا القطار من أسيوط حتى مدينة صغيرة هي (بني سويف)، وذهبنا مباشرة إلى منزل حلقة اتصالنا بالسنوسيين، وهو إسماعيل الدهبي، وهو رجل قصير بدين ذو ملامح مرحة، يتحدث لهجة أهل صعيد مصر. كان تاجر ملابس متوسط الحال، ولم يكن من المشهورين في البلد؛ إلا أن ولاءه للحركة السنوسية كان شديداً وخصوصاً لسيد أحمد. وعلى الرغم من وصولنا إلى بيته في ساعة متأخرة، إلا أنه أيقظ الخادم ليعد لنا وجبة طعام، وفي ذلك الوقت، أعاد علينا سرد الترتيبات التي أعدها لرحلتنا.

بمجرد أن تلقى رسالة سيد أحمد، اتصل بشخصية معروفة في العائلة المالكة في مصر من المؤيدين للحركة السنوسية، وتحمس ذلك الأمير جداً للمهمة التي أقوم بها؛ وأمر بوضع الأموال اللازمة تحت تصرفي، وإعداد الجمال واثنين من الأدلاء الأكفاء لقيادتنا حتى طبرق. في تلك اللحظة، أخبرنا مضيفنا أنهم بانتظارنا في أحد بساتين النخيل خارج مدينة بني سويف.
تخلصت أنا وزيد من الزي الحجازي، الذي قد يثير الشكوك في الصحراء الغربية ولبسنا سراويلات قطنية وقمصاناً على نمط ما يلبسه أهل شمال إفريقية وبرانس صوفية كالتي يرتدونها في غرب مصر وشمال ليبيا. وأحضر لنا من قبو منزله بندقيتين من صناعة إيطالية: «حتى يكون من السهل علينا الحصول على ذخيرة لهما من المجاهدين». في الليلة التالية قادنا مضيفنا إلى خارج البلد. كان دليلانا من قبائل بدو (أولاد علي) الذين يعيشون غرب مصر وشمال ليبيا. وكانت الحركة السنوسية تضم كثيراً منهم؛ كان أولهما واسمه عبد الله، شديد الحيوية وشارك في العام السابق في معارك منطقة طبرق بين المجاهدين والجيش الإيطالي، وزودنا بمعلومات كثيرة عما يمكن أن يواجهنا هناك. والآخر، الذي نسيت اسمه، كان نحيلاً معتل المزاج نادراً ما يتحدث إلا أنه كان من الثقات. كان معهم أربعة جمال بدت أنها قوية وسريعة من فصائل جمال البشارية، وتم

اختيارها بعناية، وعليها رحال لا تختلف عن تلك التي ألفتها في الجزيرة العربية. ولما كان علينا أن نتحرك طوال الوقت وبسرعة، لم يكن هناك وقت لإعداد وجبات مطهوّة؛ لذلك كان تموييننا بسيطاً: كيس من التمر، وكيس أصغر من البسكويت المحلى المخبوز برقائق تمر، وقِرَب ماء على ثلاثة من الجمال.

احتضننا إسماعيل مودعاً قبل منتصف الليل بقليل، وهو يدعو اللّه أن يشملنا برعايته، كان متأثراً بعمق. وبقيادة عبد اللّه غادرنا بستان النخيل، وسرعان ما كنا تحت ضوء قمر ساطع، نجري بالجمال في إيقاع سريع فوق سهل صحراوي حصوي باتجاه الشمال الغربي.

ابتعدنا عن طريق القوافل المعتادة حتى لا نلتقي بدوريات حرس الحدود المصرية، إلا أن السير إلى الشمال لم يكن يشكل خطراً.

قطعنا في الليلة الأولى نحو ثلاثين ميلاً، وتوقفنا في النهار بين تجمعات لأشجار الطرفاء والأعشاب، في الليالي التالية قطعنا الطريق بمعدلات أكبر، وفي فجر اليوم الرابع وصلنا إلى حافة المنخفض الكبير حيث الواحات البحرية.

توارينا خلف صخور ضخمة على حافة المنخفض - كانت الواحات تجمعات سكنية متباعدة يُشكل كل تجمع إحدى القرى، كانت القرية الرئيسة هي قرية الباويطي - نزل عبد اللّه منحدراً من الحافة الصخرية إلى المنخفض الذي تنمو فيه أشجار النخيل بغزارة ليقابل حلقة الاتصال بالواحات، ويقيم بقرية الباويطي. كنا نعرف أنه لن يعود إلا بعد حلول الليل، ولذلك تمددنا لننام في ظل الصخور العملاقة: راحة ممتعة بعد ليلة باردة من الركوب الطويل، لم أتمكن من النوم عميقاً فقد شغلت ذهني أفكار كثيرة.
أعدت في ذهني مراحل خطتنا، بدا لي أنه لن يكون صعباً المحافظة على طريق دائم ومنتظم بين بني سويف والواحات البحرية بقوافل يتم الإعداد لها بعناية. وعلى الرغم من أن مكتب مراقبة الحدود كان بقرية الباويطي (وكنا نرى مبانيه البيضاء ونحن على الحافة الصخرية التي تعلو المنخفض)، كما يمكن أن ننشئ

محطة اتصال لا سلكية سرية في إحدى تلك القرى المنعزلة جنوب الواحات البحرية. وأكد لي عبد اللّه ذلك بعد أن عاد هو والحلاق العجوز الذي كان حلقة اتصالنا بالباويطي. لم تكن الواحات البحرية تحت سيطرة محكمة ولا رقابة دقيقة، والأهم من ذلك أن جميع أهل الواحات كانوا يؤيدون الحركة السنوسية.

بعد أربع ليال أخرى من السير المتواصل، خلال أودية حصوية، وفوالق صخرية كثيرة، ثم كثبان رملية مسطحة؛ تجاوزنا واحات «سترة» غير المأهولة ببحيرتها المالحة التي يحيط بها نبات البوص والنخيل الكثيف، ثم عبر قوس «آرج» بصخوره الجيرية المتعرجة الرائعة التكوينات، والتي كان ضوء القمر يخلق منها أشباحاً مخيفة كأننا في العالم الآخر؛ وعند نهاية الليلة الخامسة، بان لنا أول ملامح واحة سيوة..

كان من أعز أمنياتي منذ زمن طويل أن أزور تلك الواحات النائية التي كان بها معبد آمون صاحب النبوءات الشهيرة في العالم القديم؛ ولم تتحقق رغبتي قبل ذلك. وها هي ذي الآن تبدو أمامي على ضوء الفجر المتزايد: امتداد هائل لأشجار النخيل لا أرى نهايته، تحيط بتل مرتفع تقع عليه بيوت أهل الواحة. كانت البيوت تبدو كأنها مقامة في كهوف صخرية تنهض طابقاً فوق طابق على منحدر التل، وتصعد باتجاه مئذنة مخروطية تحتل أعلى التل. كان تجمعاً غريباً للمساكن مثل تلك التي تراها في الأحلام.. أمسكَتْ بتلابيبي رغبةٌ ملحة أن أطوف بنواحيها الغامضة وأن أتجول عبر شوارعها التي شهدت عصور الفراعنة، وأن أشاهد حطام المعبد الذي استمع فيه «كروسوس» ملك ليديا إلى نبوءة كهنة المعبد بموته، وعلم فيه الإسكندر الأكبر بأنه سيقهر العالم كله. ولكن بقي شغفي مرة أخرى من دون تحقق، فعلى الرغم من قربها مني إلا أنها ستظل مغلقة دوني. مكان مثل هذا معزول عن العالم الخارجي يلاحظ فيه أي وجه غريب بمنتهى السهولة، وسيكون من الحماقة أن أفعل ذلك، كانت الواحة تكاد تقع على الحدود الليبية كانت تحت الرقابة الصارمة للإدارة الإيطالية عن طريق ناقلي الأخبار الذين تجندهم السلطات الإيطالية. أقنعت نفسي في أسى أنه ليس من نصيبي أن أزور سيوة هذه المرة، وصرفتها عن ذهني.

لففنا حول الواحة في نصف دائرة من جنوبها، ثم أنخنا الجمال في فج بين الصخور ينمو فيه نخيل بري. ومن دون أن يرتاح عبد اللّه، لأنه لم يكن لدينا النية للتوقف طويلاً في منطقة الحدود إلا للضرورة، ذهب للقاء حلقة الاتصال وطلب منه أن يلتقينا فور عبورنا الحدود. بعد بضع ساعات عاد ومعه دليلان آخران وأربعة جمال أخرى قوية. كان الأدلة من بدو برصة في الجبل الأخضر، ومن رجال عمر المختار، وأرسلهم بنفسه ليقودونا عبر المفصل بين واحات جغبوب التي يحتلها الإيطاليون وواحات چالو، حتى هضبة طبرق، حيث كنت سألتقي عمر المختار.

ودعنا عبد اللّه وصديقه اللذين استدارا عائدين إلى قريتهما بمصر؛ وبقيادة المجاهدين، خليل وعبد الرحمن، بدأنا رحلة الأسبوع في صحراء بلا ماء تصعد بالتدريج حتى هضبة الجبل الأخضر. كانت أصعب رحلة صحراء عرفتها في حياتي. وعلى الرغم من عدم وجود مخاطر كبيرة من اكتشاف الدوريات الإيطالية لنا، إلا أننا لجأنا إلى الاختفاء والكمون نهاراً والسير ليلاً، وكانت ضرورة الابتعاد عن خط الآبار التي تفصلها مساحات شاسعة تجعل من الرحلة عذاباً مهلكاً ويحيلها إلى ما يشبه الكابوس. لم نتمكن إلا مرة واحدة من سقي جمالنا وإعادة ملء قرب مياهنا من بئر منعزلة نائية في وادي المرا؛ وأثبت ذلك قلة حيلتنا. وصلنا البئر متأخرين عما خططنا له، كان نور الفجر قد بدأ ينبلج عندما كنا نسحب أول دلو لسقي الجمال، وعندما انتهينا كانت حافة الشمس قد بزغت فوق الأرض، وكان يفصلنا عن المنخفض الصخري الذي نوينا أن نختفي فيه نهاراً ساعتان من السير السريع بالجمال. ولكن بمجرد أن عاودنا السير سمعنا صوتاً مشؤوماً لمحرك طائرة يشق صمت الصحراء: بعد دقائق كانت طائرة ذات محرك واحد تحوم فوقنا، راحت تنخفض في دوائر. لم يكن يوجد مكان للاختباء ولا للاحتماء فقفزنا من على ظهور الجمال وانتشرنا متفرقين، في تلك اللحظة فتح الطيار نيران رشاشاته، صحت: «انبطحوا، انبطحوا على الأرض، ولا تتحركوا، تظاهروا بالموت». إلا أن خليلاً الذي اعتاد تلك المواجهات لم «يتظاهر بالموت»، فقد تمدد على ظهره ورأسه على حجر، وثبت البندقية على ركبته، وبدأ بإطلاق النار على الطائرة الهابطة في اتجاهنا.. لم يكن يطلق النار عشوائياً، بل

كان يصوب قبل كل طلقة، كأنه في تدريب على الرماية. كانت بطولة فائقة من خليل، اتجهت إليه الطائرة مباشرة في هبوط انقضاضي، وأثارت زوبعة من الرمل المنطلق منها. ولابد أن إحدى طلقات خليل قد أصابت الطائرة، فقد ارتجت فجأة، وتوجهت مقدمتها إلى السماء، وطارت على ارتفاع عالٍ كان من الواضح أن قائدها قد قرر أن أربعة رجال لا يمكن أن يكونوا هدفاً يستحق المخاطرة بالطائرة. حام مرة أو مرتين فوقنا، ثم اختفى في اتجاه الشرق، باتجاه واحة جغبوب.

قال خليل بهدوء ونحن نعيد تجمعنا: «الإيطاليون أولاد كلب جبناء، يعشقون قتل البشر، ولكن لا يحبون أن تتعرض بشرتهم لخدش».

لم يصب أحد منا بأذى، إلا أن جمل عبد الرحمن مات برصاصة. نقلنا قِرب الماء التي كانت معلقة بالجمل الميت إلى جمل زيد، وركب عبد الرحمن رديفاً لزيد.

بعد ذلك بثلاث ليال وصلنا إلى غابات أشجار الصنوبر في الجبل الأخضر، وأبدلنا ونحن نشعر بامتنان جمالنا المجهدة بخيول كانت بانتظارنا في منطقة نائية في حراسة مجموعة من المجاهدين، من تلك اللحظة أصبحت الصحراء خلفنا؛ وسرنا عبر هضبة متدرجة في الارتفاع يقطعها عدد لا نهائي من مجاري المياه الجافة ومملوءة بأشجار الصنوبر المتناثرة التي تتجمع في بعض المناطق بكثافة لا يمكن اختراقها. تلك المنطقة البرية التي لا مسالك فيها والواقعة في قلب المنطقة التي تحتلها إيطاليا وهي أرض الصيد بالنسبة إلى المجاهدين.

* * *

حملتنا أربع ليال أخرى من السير إلى «وادي التعبان» - وكان اسماً على مسمى، فقد وصلناه ونحن في غاية التعب والإجهاد، كنا سنلتقي في ذلك الوادي بعمر المختار، كان مكاناً خفياً في منطقة أشجار كثيفة، ربطنا خيولنا إلى نتوء صخري، وانتظرنا وصول أسد الجبل الأخضر. كانت ليلة باردة لم تظهر في سمائها نجوم ويسودها صمت عميق.

كان أمامنا بضعة ساعات قبل وصول سيدي عمر المختار، ولأن الليلة كانت مظلمة ظلاماً دامساً، رأى البدويان من قبائل برصة أن نتخلص من ماء القرب، ونعيد ملأها بماء جديد نقي من بئر «بوصفية» الواقع على بعد عدة أميال إلى الشرق، وكانت توجد نقطة إيطالية حصينة تبعد نصف ميل فقط من بئر «بوصفية».

قال خليل: «لن يجازف أولئك الملاعين بترك تحصيناتهم في ليلة مظلمة». وهكذا، انطلق خليل بصحبة زيد على ظهور الخيل ومعهما قربتا ماء فارغتان بعد أن لفوا ثياباً قديمة على حوافر الجياد حتى لا يصدر عنها صوت على الأرض الصخرية. اختفيا في الظلام بينما تلاصقنا أنا وعبد الرحمن طلباً للدفء بجوار صخرة منخفضة. كان من الخطر الشديد إشعال أي نار.

بعد ساعة أو نحو ذلك، طقطقت بعض أفرع أشجار الصنوبر؛ وصدر صوت خفيف لصندل على الصخور. تيقظ صديقي في الحال، ووقف منتبهاً وبندقيته في يديه وتقدم في الظلام. وصدر صوت مثل صوت ابن آوى من بين الأحراش الكثيفة، كور عبد الرحمن كفيه حول فمه بصوت مماثل فظهر أمامنا شبحان لرجلين كانا على أقدامهما ويحملان بندقيتين. وعندما اقتربا قال أحدهما: «طريق اللّه»، ورد عبد الرحمن: «لا حول ولا قوة إلا باللّه»، وكان من الواضح أنها كلمة السر المتفق عليها.

كان عبد الرحمن يعرف أحد القادمين، لأنه أمسك بيديه الاثنتين معاً، وهزهما في شوق، كان الاثنان يرتديان الجردة الليبية إلا أن ملابسهما كانت رثة - قدمني إليهما عبد الرحمن، وشد المجاهدان على يدي بحرارة وأنا أصافحهما. قال أحدهما: «اللّه معك، سيدي عمر قادم».

وقفنا نتنصت في الظلام، بعد عشر دقائق أخرى طقطقت أشجار الصنوبر وظهرت أشباح ثلاثة رجال آخرين، ظهر كل واحد منهم من جهة مختلفة وبنادقهم في وضع استعداد، وحين تيقنوا من صحة شخصياتنا، انتشروا من جديد بين أشجار

الصنوبر في اتجاهات مختلفة، كانت إجراءات وقائية للحفاظ على سلامة زعيمهم: ثم رأيته قادماً راكباً جواده وحوافره ملفوفة أيضاً بأقمشة قديمة وعلى كل جانب، يسير رجلان وآخران من خلفه، وحين وصل إلى الصخور التي كنا ننتظر عندها، ساعده أحد الرجال على الترجل من على ظهر جواده، لاحظت أنه يسير بصعوبة (عرفت بعد ذلك أنه أصيب في اشتباك مع العدو قبل عشرة أيام)، على ضوء القمر الذي بدأ في الظهور بدأت أراه بوضوح؛ كان رجلاً متوسط القامة، قوي البنية، تحيط بوجهه لحية بيضاء قصيرة، وخطوط عميقة في وجهه، كانت عيناه عميقتي المحجرين، ومن التغضنات التي حولهما يمكنك أن تخمن أنهما في ظروف مغايرة من الممكن أن ينفرجا في ضحك من القلب. أما في تلك اللحظة، فلم يكن بهما إلا ظلمة ومعاناة وشجاعة فائقة، خطوت إلى الأمام للقائه وأحسست بقبضته القوية.

قال: «مرحباً يا بني»، كانت عيناه وهو يقول ذلك تمسحاني بدقة واستحسان، كانت عيني رجل أصبحت المخاطر خبزه اليومي.

فرد أحد الرجال بطانية على الأرض جلس عليها سيدي عمر بثقل من إصابته. انحنى عبد الرحمن وقبل يده، وبعد أن أستأذنه، انشغل بإشعال نار صغيرة تحت جانب الصخرة. وعلى الضوء الشاحب للنار الصغيرة راح سيدي عمر يقرأ رسالة سيدي أحمد التي أرسلها معي. قرأها بعناية، ثم طواها، ووضعها على رأسه لحظات - وهي علامة احترام وإخلاص لم أر مثيلاً لها في الجزيرة العربية - ثم استدار إليّ مبتسماً، وقال: «سيدي أحمد - أطال اللّه عمره - يقول عنك كلاماً طيباً. يقول: إنك مستعد لمعاونتنا، ولكني لا أعلم من أين تأتي المساعدة، ماعدا معونة اللّه، القادر، الكريم. لقد وصلنا إلى نهاية النفق».

قلت: «ولكن الخطة التي يعرضها سيد أحمد، ألا يمكن أن تشكل بداية جديدة؟ إذا كان من الممكن ترتيب إمدادات منتظمة للكُفْرة وتصبح قاعدة عمليات للأيام القادمة، ألا يمكن بذلك السيطرة على الإيطاليين؟».
لم أر في حياتي ابتسامة مرة كتلك الابتسامة التي لا أمل فيها على وجه عمر

المختار ولا كلماته التي رد بها عليّ قائلاً: «كَفْرة؟...ضاعت الكفرة. احتلها الإيطاليون منذ أسبوعين...»».

أذهلتني تلك الأنباء. لقد رحنا أنا وسيد أحمد نضع الخطط على مدى الشهور الماضية، وكانت كلها تعتمد على أن تكون الكفرة مركز المقاومة المنيع. بضياع الكفرة لم يتبق تحت أيدي السنوسيين إلا هضبة الجبل الأخضر ـ لا شيء متاح أمام تضييق الخناق المتواصل الذي يقوم به الإيطاليون، ويضيع موقع بعد موقع، خنق بطيء مستمر، إلا أنه لا يتوقف...

سألت: «كيف سقطت الكفرة؟»».

بإشارة واهية من يده أشار عمر المختار إلى أحد الرجال بالتقدم، وقال: «هذا الرجل يحكي لك كيف سقطت... إنه واحد من الأقلاّء الذين استطاعوا النجاة من الكفرة، ووصل بالأمس فقط».
جلس الرجل متربعاً أمامي وجذب أطراف برنسه البالي حول بدنه. تحدث ببطء من دون ارتجاف في صوته، إلا أن وجهه النحيل كان ينقل علامات الرعب الذي شهده، قال: «جاء الإيطاليون إلى الكفرة في ثلاثة أرتال من السيارات المدرعة والمدفعية الثقيلة من ثلاثة اتجاهات مختلفة. وجاءت الطائرات على ارتفاع منخفض وقصفت المنازل والمساجد وبساتين النخيل. لم يكن في الواحة إلا بضع مئات من الرجال القادرين على حمل السلاح؛ وكان باقي السكان من النساء والأطفال والعجائز. دافعنا من بيت إلى بيت، إلا أنهم كانوا يفوقوننا عدداً وعدة، ولم تبق إلا قرية الحواري التي تركوها. كانت بنادقنا عديمة الجدوى في مواجهة عرباتهم المصفحة، أرعبونا، قليل منا استطاع الهرب. وهربت أنا إلى بستان نخيل، واختبأت في مكان غير ظاهر، وانتظرت فرصة أعبر فيها من بين قواتهم؛ طوال الليل كنت أسمع صرخات النساء والجنود يغتصبونهن. في اليوم التالي أتت أمرأة عجوز إلى مخبئي، وأحضرت لي خبزاً وماءً، وقالت إن الجنرال الإيطالي أحضر الأحياء وجمعهم أمام مقبرة سيدي محمد المهدي؛ ومزق أمام أعينهم القرآن الكريم إلى مزق، وألقاها على الأرض، وداس عليها بحذائه، وصاح:

«دعوا نبيكم البدوي يساعدكم الآن، إذا استطاع»، ثم أمر بقطع أشجار النخيل وتدمير الآبار وحرق كتب مكتبة سيد أحمد. وفي اليوم التالي أمر بأخذ الرجال الكبار وعلماء الدين في طائرة.. ثم قذفوهم من ارتفاع كبير.. طوال الليلة الثانية كنت أسمع بكاء النساء وصراخهن وضحكات الجنود الإيطاليين وطلقات رصاصهم.. استطعت في النهاية أن أزحف إلى الصحراء مستتراً بالظلام ووجدت جملاً شارداً قدته مبتعداً عن الكفرة...».

عندما انتهى الرجل من حكايته المرعبة، أدناني سيدي عمر منه بلطف، ومال عليّ قائلاً: «هكذا يا بني، لقد اقتربنا كما ترى من نهاية وقتنا».

وكإجابة عن تساؤل بدا في عيني من دون أن أقوله، قال: «نحن نقاتل لأننا لابد أن نقاتل في سبيل ديننا، وفي سبيل حريتنا حتى نجلي الغاصب أو نموت دون ذلك، ليس أمامنا اختيار آخر، إنا للّه وإنا إليه لراجعون، لقد أرسلنا النساء والأطفال إلى مصر، حتى لا ننشغل بهم وبأمنهم حتى يأذن اللّه بموتنا».

ارتفع صوت كان مكتوماً في البداية، ثم أصبح عالياً ومقترباً في السماء، بحركة تلقائية سريعة ألقى أحد الرجال برمال على النار فأطفأها، كانت طائرة لم تظهر إلا بشكل غامض على صفحة السماء، مرت من فوقنا متجهة إلى الشرق، ثم اختفى صوت محركها تدريجياً.
قلت له: «ولكن ياسيدي عمر، أليس من الأفضل لك وللمجاهدين الانسحاب إلى مصر والطريق مازال مفتوحاً؟ من مصر يمكنك جمع اللاجئين من طبرق وتكوين جيش أفضل تنظيماً. لابد أن يتوقف النضال من هنا فترة حتى يستعيد المجاهدون قواهم.. البريطانيون في مصر لا يسعدهم وجود إيطالي قوي إلى جوارهم؛ وقد يغمضون أعينهم عن إعداد قواتك في مصر وخصوصاً إن أقنعتهم أنك لا تعاديهم...».

قال: «لا يا بني، لقد فات أوان ذلك، ما تتحدث عنه كان يمكن ترتيبه من خمسة أعوام أو عشرة أو ستة عشر عاماً مضت، قبل أن يقرر سيد أحمد أطال اللّه عمره أن يهاجم البريطانيين لمساعدة الأتراك الذين تخلوا عنا بعد ذلك، الآن فات الأوان. لن

يحرك البريطانيون إصبعاً لجعل مهمتنا أسهل؛ وقرر الإيطاليون أن يحاربونا حتى النهاية لسحق أي احتمال للمقاومة في المستقبل، وإن ذهبت الآن مع المجاهدين إلى مصر، فلن نتمكن أبداً من العودة، فكيف نخذل أبناء شعبنا ونتركهم بلا قيادة لقمة سائغة ليبيدهم أعداء اللّه؟».

سألته: «وماذا عن سيد إدريس؟ هل يشاركك الرأي ياسيدي عمر؟».

قال: «سيد إدريس رجل جيد، ابن جيد لأب عظيم. إلا أن اللّه لم يمنحه القلب القادر على مواصلة الجهاد...».
كان في صوت عمر المختار همٌّ ثقيل، ولكن بلا قنوط، وهو يشرح لي المسار الطويل الذي لا بد من سلوكه من أجل الحرية، كان يدرك أنه لم يبق أمامه إلا الموت، إلا أن ذلك لم يحمل له أي جزع ولا خوف، لم يكن بالطبع يسعى إليه؛ إلا أنه أيضاً لم يحاول أن يتفاداه.

كنت على يقين بأنه حتى لو عرف نوع الموت الذي ينتظره، فإنه لن يتفاداه أو يتجنبه. بدا واعياً بجميع خلجات نفسه وأن كل إنسان يحمل مصيره داخله، أينما حل، وكيفما فعل.
سمعت بعض الأصوات صادرة من جهة الأعشاب، كانت خافتة حتى إن المرء لا يعيها في الأحوال العادية، إلا أن الحال الذي كنا فيه لم يكن عادياً. ميزت أصوات واهية توقفت فجأة، وبدأت من جديد بعد لحظات، وتباعدت الأعشاب وظهر من بينها زيد وخليل بصحبة اثنين من الحراس، وكانت الخيول محملة بقرب الماء المنتفخة، وعندما رأى خليل، عمر المختار، اندفع لتقبيل يده، واستقرت عينا سيدي عمر برضا على وجه زيد؛ وضع يده على كتف زيد، وقال: «مرحباً بك يا أخي من موطن آبائي. من أي عرب أنت؟» - أخبره زيد أنه ينتمي إلى قبائل شمّر، أومأ عمر مبتسماً: «إذن أنت من قبيلة حاتم الطائي، أكرم رجل عرفه العرب...»[1].

وضع أحد رجال عمر بعض التمر على قطعة قماش أمامنا؛ ودعانا إلى تناول تلك

الوجبة البسيطة. أكلنا بعض التمر، ونهض المقاتل العجوز وقال: «حان وقت ذهابي يا إخواني، نحن قريبون من النقطة الإيطالية الحصينة في «بوصفية» فقد أوشك الليل على الانحسار».

ركبنا وسرنا خلف سيدي عمر بينما تبعنا الباقون سيراً على الأقدام، وبمجرد أن خرجنا من الأخدود، وجدت أن مرافقي سيدي عمر كانوا أكثر كثيراً مما كنت أتوقع: واحداً بعد آخر راحوا يظهرون من خلف الصخور والأشجار وينضمون إلينا، بينما كانت هناك جماعات منفردة بعيداً إلى اليمين وإلى اليسار. عدا ثلاثين رجلاً من خلفنا يتحركون في سكون وفي خفة الهنود الحمر.

قبل الفجر وصلنا إلى مركز القوة الرئيسة لعمر المختار، وكانت قواته في ذلك الوقت تربو على مئتي رجل، كان مركزهم في أخدود عميق ضيق، ونيران صغيرة مشتعلة هنا وهناك تخفيها الصخور ولا تظهر من الخارج. كان بعض الرجال نائمين على الأرض؛ وآخرون يبدون كأشباح في ضوء الليل الشحيح مشغولين بمهام مختلفة - ينظفون السلاح، يجلبون ماءً، يطهون طعاماً، أو يعتنون بالجياد التي كانت مربوطة إلى أشجار هنا وهناك. يرتدون أسمالاً بالية، لم أر منهم من يرتدي برنساً كاملاً. كان بعضهم يضع ضمادات في أماكن مختلفة من أجسامهم مما دل على اشتباك وقع حديثاً مع العدو.

وجدت لدهشتي امرأتين في المعسكر، واحدة مسنة، والأخرى شابة، كانتا جالستين بالقرب من نار صغيرة، يصلحان سرجاً مقطوعاً بمخرز كبير.

قال سيدي عمر وهو يرى دهشتي الصامتة: «الأختان ترافقانا حيثما ذهبنا، رفضتا الحياة في أمان في مصر مع النساء والأطفال الذين رحلوا، أم وابنتها، جميع رجالهما ماتوا في النضال».

---

١- مقاتل وشاعر من عهد ما قبل الإسلام، اشتهر بالكرم، وأصبح اسمه رمزاً لتلك الفضيلة التي يوليها العرب اهتماماً فائقاً. وكانت قبيلة شمّر التي ينتمي إليها زيد أحد فروع قبيلة طيء.

بحثنا على مدى يومين وليلة ـ انتقل في أثنائها المعسكر إلى مكان آخر في غابات الجبل الأخضر ـ أنا وسيدي عمر جميع احتمالات ترتيب إمدادات منتظمة للمجاهدين، فقد كانت المعونات التي تصل من مصر بسيطة وغير منتظمة.

فمنذ أن توصل سيد إدريس المقيم بمصر إلى تفاهم مع البريطانيين، أصبحوا يتسامحون مع النشاط السنوسي عبر الحدود مادام بسيطاً، ولم يهتموا بمجموعات المقاتلين الصغيرة التي تخترق الحدود حتى مدينة السلوم الساحلية المصرية ليبيعوا غنائم الحرب ـ وأغلبها بغال إيطالية ـ ويستبدلون أغذية بها هم في أمس الحاجة إليها.
كانت تلك المهام في غاية الخطورة بالنسبة إلى المجاهدين، ولم يكونوا قادرين على القيام بها كثيراً، وخصوصاً بعد أن أنجز الإيطاليون قسماً كبيراً من حائط الأسلاك الشائكة الذي يفصل ليبيا عن مصر. وافقني سيدي عمر على أن البديل الوحيد هو أن يكون طريق إمدادات عبر الواحات البحرية والفرافرة وسيوة في مصر، إلا أنه تشكك في إمكانية أن يظل هذا المسار خافياً عن أعين الإيطاليين.

(ثبت بعد ذلك أن مخاوف عمر كانت في محلها. فبعد ذلك بأشهر وصلت قافلة إمدادات إلى المجاهدين، إلا أن الإيطاليين رصدوها وهي تعبر من الفجوة الأمنية بين واحتي جغبوب وجالو، فأقاموا نقطة حصينة في المسافة بين الواحتين في بير طرفاوي، كما زادوا من دوريات الطائرات، مما جعل من تكرار تلك المهمة مستحيلاً).

كان عليّ أن أفكر بالعودة، لم أكن متحمساً للعودة من المسار الذي قدمت منه، فقد كان طويلاً ومهلكاً، وسألت سيدي عمر هل هناك طريق أقصر، وأخبرني أن هناك طريقاً أقصر، إلا أنه شديد الخطورة: من خلال حائط السلك الشائك الذي أقامه الإيطاليون، ثم إلى السلوم، وكان هناك جماعة من المجاهدين سيذهبون في ذلك المسار لإحضار طحين من السلوم، وقال لي: إن شئت يمكنك الذهاب معهم. وقررت أن أذهب معهم وودعت أنا وزيد الشيخ عمر المختار الذي لن أراه بعد ذلك أبداً: فقد أسره الإيطاليون بعد ذلك بثمانية أشهر وشنقوه.

* * *

وصلنا إلى الحدود بالقرب من النقطة التي قررنا أن نخترق حائط الأسلاك منها، بعد أسبوع من السير - ليلاً فقط - على أرض وعرة، وعبر غابات الصنوبر على الحافة الشرقية للجبل الأخضر، لم نختر ذلك الموضع عشوائياً؛ فعلى الرغم من أن حائط الأسلاك كان ممتداً إلى أغلب مناطق الحدود، إلا أنه لم يكن قد اكتمل تماماً في بعض مواضعه، في بعض المناطق، ومنها المنطقة التي اخترناها، كانت هناك طبقة واحدة يبلغ عرضها أربعة أقدام وارتفاعها ثمانية أقدام، بينما في مناطق أخرى كان هناك ثلاثة أسوار متتالية معلقة في أعمدة خرسانية ذات قواعد أسمنتية قوية. وكانت النقطة التي اخترناها تبعد نصف ميل فقط عن نقطة إيطالية حصينة مكونة من سيارات مصفحة؛ كان الخيار بين هذه النقطة أو نقطة أخرى لا توجد حراسة قريبة منها إلا أنها مكونة من ثلاثة صفوف من الأسلاك الشائكة القوية.

كانت الترتيبات قد أعدت لنلتقي بجماعة من مؤيدي الحركة السنوسية عبر الحدود ينتظروننا بحيوانات ركوب، لذلك لم يكن ضرورياً أن تُعرّض الخيل للخطر، فأعدناها مع من عاد من المجاهدين، بينما اقتربت المجموعة من الأسلاك الشائكة على الأقدام قبل منتصف الليل. كان الظلام هو الحماية الوحيدة لنا بعد أن قطع الإيطاليون أي أشجار وأعشاب طويلة على الحدود.
نشرنا حراسة على بعد بضع مئات من الياردات إلى الشمال والجنوب، وتقدم ستة رجال ومعهم قصافات أسلاك، وقفازات جلدية سميكة حصلوا عليها من غارات سابقة على الإيطاليين العاملين بالسور. زحف المجاهدون على بطونهم؛ وغطينا تقدمهم ببنادقنا الملقمة. كانت لحظة عصيبة أرهَفْتُ فيها سمعي لأوهى صوت، لم أسمع إلا صوت احتكاك الحصى تحت الزاحفين نحو الأسلاك وصيحة طائر مر من فوقنا، ثم بدأ صرير المناشير التي راحت تعمل في الأسلاك - وبدت في سمعي كأنها أصوات انفجارات - ثم تبعها صوت قصافات الأسلاك، ونشر وقطع، إلى أعمق وأعمق في لفات السلك المتراكمة بعرض أربعة أقدام. انطلقت صيحة أخرى لطائر عبر الظلام؛ إلا أن الصوت هذه المرة كان من أحد رجال الحراسة كإشارة تنبيه معلنة عن خطر قادم، في اللحظة نفسها ميزنا صوت محرك يقترب. وظهر من بعيد نور كاشف مائل في الهواء. مثل رجل واحد انبطحنا أرضاً، ماعدا جماعة الأسلاك التي راحت تعمل بسرعة يائسة وتخلوا عن الحذر، وراحوا يعملون بكل

قوة وسرعة يدقون بمقابض البنادق ويقصون بالمقصات والقصافات كأنما مسهم جن. بعد بضع ثوانٍ انطلقت رصاصة من حارسنا الشمالي. كان طاقم السيارة المدرعة قد كشفه عندما سقط نورهم الكاشف عليه، ثم سمعنا الصوت الكئيب للمدرعة يتقدم نحونا، وسقط النور الكاشف علينا وتلته زخة من المدفع الرشاش، ومرت الطلقات فوق رؤوسنا وهي تئز وتدوي، وأطلقنا نيران بنادقنا عليهم ونحن منبطحون على الأرض.

صاح أحد المجاهدين: «النور الكاشف، النور الكاشف، صوبوا على النور» - ثم انطفأ النور الكاشف بعد أن حطمته إصابة محكمة فتوقفت السيارة المدرعة عن تقدمها، إلا أن مدفعها استمر في الإطلاق بعشوائية. في تلك اللحظة سمعنا صوتاً من رجال الأسلاك يعلن أنهم أنجزوا المهمة، حشرنا أنفسنا واحداً بعد آخر في الفتحة الضيقة وملابسنا وأجسامنا تحتك بشوك الأسلاك، وسمعنا أصوات ركض حراسنا وهم يلحقون بنا. لم يغادر الإيطاليون المدرعات فهم لا يشتبكون في معركة مفتوحة، لذا ظلوا في مكانهم، بعد لحظات كنا على أرض مصرية، واصلنا العدو تلاحقنا الطلقات من الجانب الآخر من الحدود. أضاء نور الفجر ونحن على أرض مصرية بعيداً عن الخطر. من بين عشرين رجلاً - وهم عدد جماعتنا - كان هناك خمسة مفقودون، من المؤكد أنهم ماتوا، كما أصيب أربعة إلا أن إصابتهم كانت غير خطيرة.

قال أحد المجاهدين المصابين: «كان اللّه رحيماً بنا، أحياناً نفقد نصف الرجال عند عبور الأسلاك. ولكن لن يموت من لم يشأ له اللّه الموت... ألا يقول اللّه في كتابه العزيز:

﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾﴾[1].

في الأسبوعين التاليين، رحلنا مروراً بمرسى مطروح إلى الإسكندرية، ثم إلى صعيد مصر، ومن الصعيد إلى ساحل البحر الأحمر بالدهو إلى ميناء ينبع، ثم وجدنا أنفسنا أنا وزيد من جديد في المدينة المنورة. استغرقت المهمة بأكملها شهرين، ولم يلحظ أحد غيابنا عن الحجاز.

* * *

١- سورة آل عمران: الآية ١٦٩.

عندما كنت أقترب بصحبة محمد الزواوي من الزاوية السنوسية المتواضعة في المدينـة المنـورة، كـان صدى أصـوات الموت والـيـأس يدوّي في ذهـنـي. تـخـتـلـط الأصوات برائحة أشجار الصنوبر، وقلبي ينقبض من صوت رصاص طائر فوق رأسي، وألم تساؤل يائس؛ ثم اختفت ذكريات هضبة طبرق، وظل الألم يستحوذ على نفسي.

(٤)

مرة أخرى أقف أمام السنوسي الكبير، تطلعت إلى وجه المقاتل المتعب؛ قبَّلْتُ مرة أخرى اليد التي أمسكت بالسيف كل هذا الزمن الطويل، حتى إنها لم تعد تقدر على حمله أكثر من هذا.

قال لي: «بارك اللّه فيك يا بني وسلّمك من كل سوء... مر أكثر من عام منذ أن التقينا آخر مرة؛ وكان ذلك العام يحمل معه نهاية آمالنا، ولكن الحمد للّه مهما كانت مشيئته...».

كان عاماً مؤسفاً بالفعل لسيد أحمد: أصبحت التجاعيد حول فمه عميقة، وصار صوته ضعيفاً. لقد انكسر الصقر العجوز، كان يجلس متداعياً على البساط، يرتدي برنساً أبيض محبوكاً اتقاءً للبرد، يحملق دون أن يتكلم إلى أبعاد بلا نهاية.

همس: «لو كنا أنقذنا عمر المختار، لو كنا أغريناه بالفرار إلى مصر عندما كانت الفرصة سانحة...»

واسيته قائلاً: «لم يكن بمقدور أحد إنقاذ سيدي عمر، لم يكن يريد أن ينجو. كان يفضل الموت إذا لم ينتصر، كنت على يقين من ذلك حتى آخر لحظة غادرته فيها ياسيدي أحمد».

أومأ سيد أحمد بشدة: «نعم، أنا أيضاً كنت أعرف ذلك، أعرف ذلك.. إلا أنني عرفته متأخراً جداً. أفكر أحياناً أنني أخطأت في ذهابي إلى إسطنبول لمتابعة القضية من هناك، سبعة عشر عاماً مرت... ألم يكن ذلك بداية الموت، لا لعمر وحده، بل لكل السنوسية؟».

لم أجد إجابة مناسبة أرد بها، وخصوصاً أنني آمنت على الدوام أن قرار سيد أحمد بشن حرب لم تكن ضرورية ضد البريطانيين، كان أكبر خطأ ارتكبه في حياته بأجمعها.

أضاف سيد أحمد: «لكن، كيف كان يمكن أن أفعل العكس عندما طلب مني خليفة المسلمين أن أعاونه؟ هل كنت مصيباً، أم كنت أحمق؟ ولكن مَنْ، غير اللّه، يمكن أن يقرر أكان المرء مصيباً أم مخطئاً، خصوصاً إذا اتبع نداء ضميره؟».

سألت في نفسي:

من يستطيع حقاً أن يقرر؟

كان رأس السنوسي الكبير يتأرجح ببطء من جانب إلى جانب في حيرة مؤلمة، وكانت عيناه محجوبتين خلف جفونه المنسدلة؛ وبيقين مفاجئ أدركت أنهما لن يلتمعا ببريق أمل بعد ذلك أبداً[1].

١ـ توفي سيد أحمد بالمدينة في السنة التالية ١٣٥٢ (١٩٣٣م)

المؤلف ١٣٥١ (١٩٣٢م)

# الفصل الثاني عشر

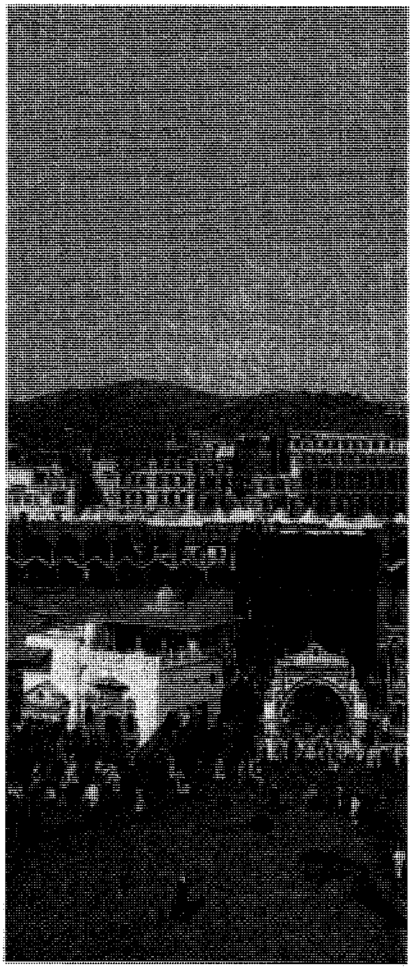
مكّة المكرّمة ١٣٤٥ (١٩٢٧م)

## نهاية الطريق

تركنا المدينة المنورة في وقت متأخر من الليل، سالكين الطريق «الشرقي» الذي سار عليه النبي ﷺ في آخر حج له إلى مكّة المكرّمة، قبل وفاته بعدة أشهر.
بقينا راكبين طوال الليل وقسطاً من الفجر الذي بدأ ينبلج. بعد وقفة قصيرة لأداء صلاة الفجر أكملنا سيرنا في ضوء النهار الوليد، كان نور اليوم الجديد رمادياً ينفذ من سماء ملبدة بالغيوم، بعدالظهر بدأ المطر يهطل، وسرعان ما ابتللنا حتى التصقت ملابسنا بأبداننا، عثرنا على تجمع صغير للبدو بعيداً على يسار الطريق، قررنا أن نلجأ إلى إحدى خيامهم حتى انتهاء المطر.

كان تجمعاً صغيراً لبدو ينتمون إلى قبيلة حرب، استقبلونا بترحاب: «أطال اللّه أعماركم، مرحباً بكم»، فردت بطانيتي على جلد ماعز كان مفروشاً بخيمة الشيخ، بينما راحت زوجته - لم تكن متحجبة الوجه كعادة بدويات تلك المنطقة - ترحب بنا هي الأخرى. بعد ليل قضيته على ظهر البعير، غلبني النوم بسرعة على صوت تساقط المطر على سقف الخيمة.

استيقظت بعد عدة ساعات على صوت المطر الذي كان ينهمر، كان الظلام يحيط بي - كلا، لم يكن ظلام ليل، كان ظلام الخيمة؛ التي امتلأت برائحة الصوف المبتل. فردت ذراعي متمطياً فاصطدمت يدي برحل جمل كان خلف رأسي على الأرض. كانت نعومة خشب الرحل تغري باللمس، جرت أصابعي أعلى رمانة الرحل ونزلت حتى وصلت إلى أمعاء الجمال الجافة التي تربط أجزاء الرحل معاً، كانت حوافها حادة ولها صلابة الحديد، لم يكن بالخيمة أحد غيري.

نهضت بعد فترة وتوجهت إلى فتحة الخيمة، كانت قطرات المطر تحفر في الرمال، حفراً لا تعد ولا تحصى، تظهر في لحظة وتختفي في أخرى. كانت قطرات المطر ترش سطح صخور الجرانيت المجاورة إلى اليمين. لم أر أحداً على مرمى بصري، في هذا الوقت من اليوم يخرج الرجال للرعي؛ كانت الخيام الأخرى تقع إلى أسفل قليلاً من الوادي بجوار شجرة أكاسيا ويبدو عليها الصمت المطبق. خرَجَت من إحدى الخيم نفثة من دخان صعدت في الهواء - لقد بدأ الاستعداد لإعداد وجبة العشاء؛ كانت نفثة دخان ضعيفة واهية لا تصمد أمام يوم مطير، زَحفَت إلى جانب، حاولت الثبات بلا جدوى، كانت تبدو مثل شعر امرأة يتطاير في الهواء، بدت التلال المنخفضة ومرتفعات الرمال الصغيرة كأنها تتمايل خلف قطرات المطر المنهمر؛ كان الجو عبقاً بروائح الماء وشجر الأكاسيا والصوف المبتل.

قلَّ تساقط المطر تدريجياً حتى توقف، وبدأت السحب تتلاشى تحت أشعة شمس المساء، سرت باتجاه صخرة جرانيت عملاقة، كان فيها فجوة بحجم قصعة كبيرة تتسع لخروف كامل فوق أرز مطهي؛ كانت الفجوة ملأى بالماء، وعندما وضعت ذراعي فيها وصل الماء إلى كوعي، كان دافئاً ويدغدغ يدي؛ ولما حركت

ذراعي داخله، أحسست كأن جلدي يرتوي. خرجت امرأة من إحدى الخيام تحمل إناء نحاسياً ضخماً على رأسها، كانت ذاهبة لملئه من تجمعات ماء الصخور، ذراعاها ممتدان إلى الجانبين لأعلى، وتمسك بأصابعها أطراف ثوبها الأحمر الواسع الفضفاض، فبدت كأن لها جناحين، تمايلت برقة وهي تقترب، كما يتمايل الماء الساقط من أعلى الصخور، كانت في جمال الماء... من مسافة سمعت أصوات الإبل العائدة من الرعي: ظهرت في مجموعات من خلف تل صخري، تتأرجح على وقع خطوات مرنة، يسوقها الرعاة بأصوات حادة قصيرة: «غررر، غررررر.....» ثم يدعونها لتبرك؛ فتهتز أسنمتها البنية في حركات رجراجة متماوجة، ومع هبوط الليل عقلوا سيقانها الأمامية، ثم توجه الرجال إلى الخيام، كلٌّ إلى خيمته.

أقبل الليل بظلامه الرقيق، وبرودته المنعشة، أضاءت نار مشتعلة أمام كل خيمة، كانت تصل إلى مسامعي أصوات أواني الطعام وهي تتصادم وتحتك بعضها ببعض، وضحكات النساء التي تتداخل معها نداءات الرجال أحياناً، ثغت الماعز والأغنام التي رجعت بعد الجمال، وينبح كلب أحياناً، كما تنبح الكلاب عادة في كل الليالي، في خيام البدو في الجزيرة العربية. لم أر زيداً؛ ربما لا يزال نائما في إحدى الخيام، سرت ببطء باتجاه الجمال الباركة، كانت قد حفرت بثقلها في الرمال فبركت في ارتياح، كان بعضها يجتر ما أكله بينما مدت جمال أخرى أعناقها على الرمال.

هدر بعضها وأنا أمر أمامها مداعباً سنامها الدهني. رأيت حواراً صغيراً يلتصق بأمه بشدة؛ كان مذعوراً من مداعباتي فقفز واقفاً، بينما أدارت أمه رأسها باتجاهي وهدرت بفم واسع مفتوح. أمسكت برقبة الحوار بسرعة ودفنت وجهي في صوف ظهره: سكن في الحال، وهدأ، زال خوفه. كان دفء جسم الحيوان الصغير يخترق وجهي وصدري؛ تحت راحة يدي أحسست بدمه يتدفق في شريان رقبته؛ أحسست أنه يسري في شراييني، ويبعث فيّ إحساساً طاغياً في الالتحام بالحياة، فغلبتني رغبة طاغية ذُبت فيها ذوباناً تاماً.

(٢)

ركبنا وكانت كل خطوة تقطعها الجمال تدنيني من نهاية الطريق، سرنا أربعة أيام في سهول مشمسة؛ كنا ننام الليل تحت صفحة نجوم السماء على الرمال، ونستيقظ في برودة الفجر؛ كنت أقترب ببطء من نهاية طريقي.

لم يكن لي طريق آخر غير هذا الطريق؛ ومع أني لم أتعرف إليه على مدى سنوات بداية عمري، إلا أن مكّة المكرّمة كانت دائماً هي هدفي واتجاهي. كانت تناديني منذ زمن طويل قبل أن يعي عقلي أنها تناديني، كانت تعلن بصوت قوي: «مملكتي في الحياة الدنيا كما هي في الحياة الآخرة؛ فمملكتي للجسم كما هي للروح، تتسع لما يفكر به الإنسان وما يحسه ببدنه وما يفعله - تجارته وصلاته، فراش نومه وعلاقته بالآخرين؛ مملكتي لا تعرف حداً ولا نهاية»، وعندما أيقنت بذلك على مدى الأعوام، أدركت إلى أين أنتمي، كانت أخوة الإسلام بانتظاري منذ مولدي؛ واعتنقت الإسلام، وتحققت آمالي في الانتماء، لأكون جزءاً من كل واحد.

من الغريب أن أول تجربة لي بين المسلمين، كانت تجربة أخوة.... ففي الأيام الأولى من يناير/ كانون الثاني سنة ١٣٤٥ (١٩٢٧م)، تركت أوروبا من جديد، بصحبة زوجتي إلزا وابنها الصغير هذه المرة، متجهين إلى الشرق الأوسط؛ أدركت أن رحيلي تلك المرة عن أوروبا سيكون الأخير وإلى الأبد.

مضت بنا السفينة على مدى أيام في البحر الأبيض المتوسط، في أيام مشرقة في السماء وعلى سطح البحر، نرى أحياناً سواحل بعيدة، ودخان سفن أخرى تمضي إلى جهات مختلفة. اختفت أوروبا بعيداً خلفنا، ونسيتها على وجه التقريب.

كنت أنزل أحياناً من قمرتي الفخمة العلوية وأجوس في الأدوار السفلى الرخيصة بأسرّتها الحديدية المثبتة إلى الجدران، وكان أغلب ركاب الأدوار السفلى من الصينيين، وبعض مواطني الشرق الأوسط من الحرفيين والتجار العائدين إلى بلادهم بعد أعوام من العمل المضني في أوروبا. وكانت هناك مجموعة صغيرة من عرب اليمن ركبوا من «مارسيليا»، كانوا عائدين إلى بلادهم، وكانت ضوضاء

إلزا وابنها ١٣٤٥ (١٩٢٧م)

الموانئ الأوروبية وروائحها مازالت عالقة بهم؛ كانوا تحت تأثير الأعوام التي قضوها في تزويد مراجل السفن بالفحم في سفن أمريكية وإنجليزية وألمانية؛ يحكون عن المدن الغريبة: نيويورك، بوينس آيرس، وهامبورج.

تطلعوا ذات يوم إلى بريق المجهول، فرحلوا من ميناء عدن عمال سفن؛ غادروا عالمهم الذي يعرفونه، واعتقدوا أنهم يُنَمّون أنفسهم باحتضان غرابة العالم غير المفهوم لهم، سرعان ما تصل السفينة إلى عدن، وتتراجع ذكرياتهم عن العالم الغريب، وتصبح ماضياً. يستعيدون وضع العمامة أو الكوفية بدلاً عن القبعة، يحتفظون بالأمس ذكرى، ويعودون إلى قراهم في أعماق الجبال في اليمن.

ولكن أيعود هؤلاء كحالهم الذي خرجوا عليه أم يعودون بشراً مختلفين؟ أقبض الغرب على أرواحهم أم مسح مشاعرهم؟ تحولت مشكلتهم في ذهني إلى مشكلة أكبر ذات مضمون أشمل.

لم يصل العالم الإسلامي والعالم الغربي إلى درجة الاحتكاك التي أصبحا عليها اليوم، وكان الاحتكاك يتضمن صراعاً ظاهراً وخافياً. وتحت وطأة ثقافة الفكر الغربي، ترتجف أرواح كثير من المسلمين والمسلمات. لقد سقطوا تحت وطأة مفهوم متناقض مع مفاهيمهم، يتضمن أنه لكي يحققوا مستوى أفضل من العيش، لابد أن يحسنوا مستوى إدراكهم، فسقطوا في وثنية التقدم التي سقط فيها الغرب حين قُلّص دور الدين إلى نغمة خافتة مصاحبة؛ وبذلك تقزموا ولم ينموا: فكل محاكاة معادية للإبداع، لابد أن تجعل البشر أقزاماً...

لا أرفض أن يتعلم المسلمون من الغرب، وخصوصاً العلوم والتقنية، فاكتساب العلم ليس تقليداً ولا محاكاة. والعلم ليس شرقياً ولا غربياً، جميع المكتشفات العلمية ليست إلا حلقات في سلسلة لا تنتهي من المساعي العقلية للجنس البشري كله. كل عالم يُكْمِل ما أنجزه الآخرون، إن كانوا من أمته أو من أمم أخرى؛ عملية متواصلة من البناء من عصر إلى آخر، ومن حضارة إلى أخرى، حتى إنه لا يجوز أن ننسب منجزات علمية معينة ملكاً مقصوراً على عصر بعينه دون آخر يليه.

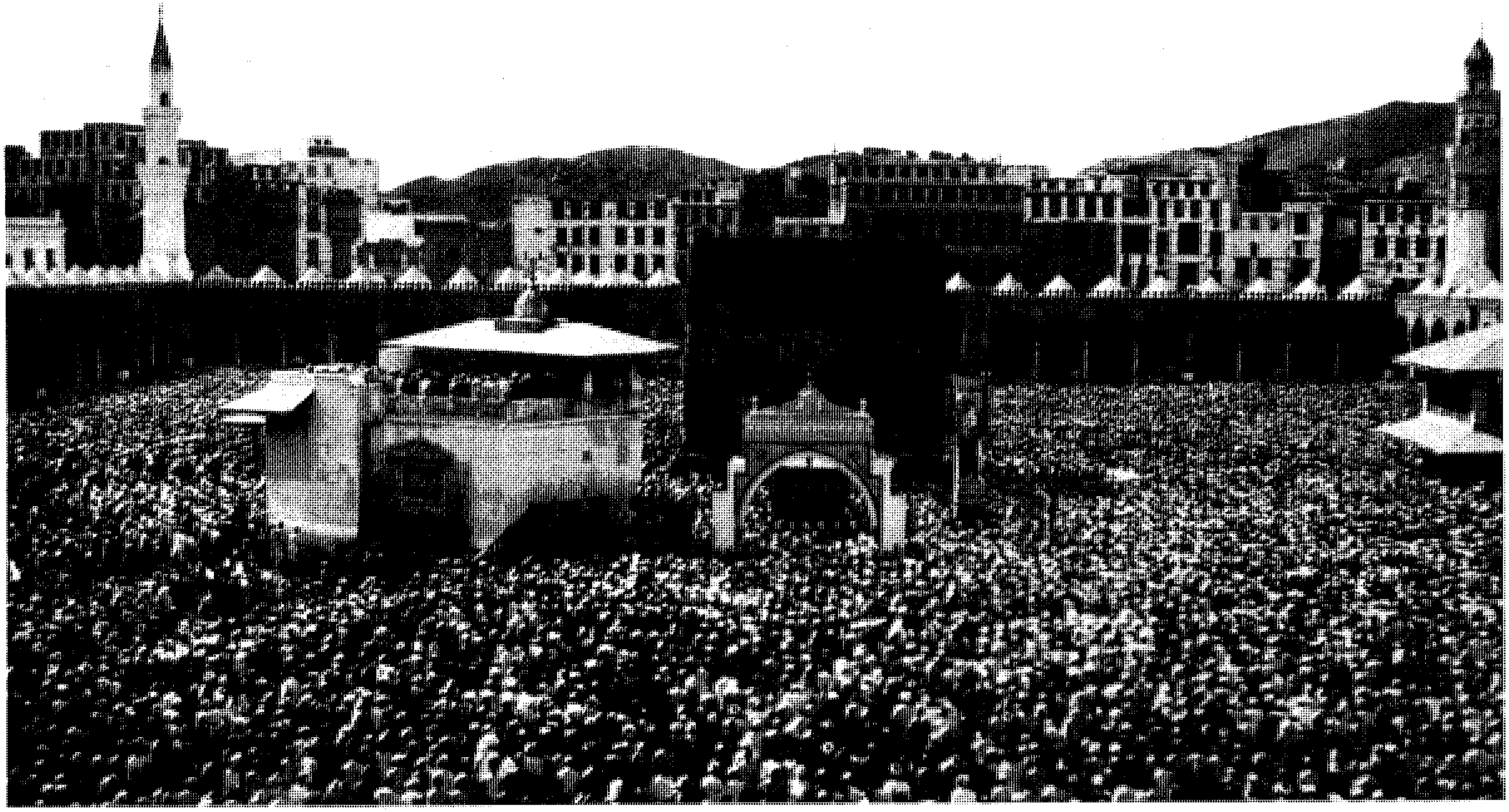

الحجاج في بيت الله الحرام، في الجمعة الأخيرة قبيل الحج ١٣٤٥ (١٩٢٧م)

في كل عصر، توجد أمة أنشط من غيرها من الأمم، تضيف إلى الموجود من المعارف؛ ولكن على المدى البعيد يصبح ما أضافته علماً مشتركاً ومشروعاً لجميع البشر، ويحق لهم أن يزيدوا عليه. ففي عصر مضى كانت الأمة الإسلامية أكثر نشاطاً وحيوية من غيرها من الأمم، ونقلت إلى أوروبا كثيراً من المخترعات التي كانت رائدة في حينها، بل نقلت إلى أوروبا ما هو أهم كثيراً من المخترعات، وهو «المنهج العلمي» الذي بَنَت عليه أوروبا علمها وحضارتها.

لم تجعل مكتشفات «جابر بن حيان» وأبحاثه في الكيمياء «كيمياء عربية»؛ ولا يمكن وصف الجبر والهندسة بأنهما علوم «إسلامية»، مع أن الجبر ظهر إلى الوجود على يد «الخوارزمي»، وظهرت الهندسة على يد «البتاني» وكلاهما كان مسلماً: تماماً كما لا يمكن لأحد أن يتحدث عن نظرية الجاذبية الأرضية «الإنجليزية»، مع أن من اكتشفها وصاغها كان رجلاً إنجليزياً. جميع المنجزات والمعارف ملكية عامة للجنس البشري، لذلك إذا تبنى المسلمون، كما يجب أن يفعلوا، المناهج المعاصرة الحديثة في العلوم والتقنية، فلن يكونوا إلا كمن يتبع غريزة التطور التي تتيح للبشر الاستفادة من إنجازات الجنس البشري. ولكن إذا تبنوا - ولا يجب أن يفعلوا - أشكال الحياة الغربية وأنماطها وسلوكيات أهل الغرب وعاداتهم ومفاهيمهم الاجتماعية، فسيكونون خاسرين؛ لأن ما سيأخذونه عن الغرب في تلك النواحي ليس أفضل مما وهبته لهم ثقافتهم، وما توجههم إليه عقيدتهم الإسلامية.

لو احتفظ المسلمون برباطة جأشهم، وقبلوا بالتقدم وسائل لا غايات، لما استعادوا فقط حريتهم الداخلية، بل ربما ينقلون إلى المواطن الغربي السر المفقود لحلاوة الحياة.

* * *

كان بين اليمنيين في السفينة رجل قصير نحيف له أنف مثل النسر، ووجه حاد كأن النار مشتعلة في ملامحه؛ إلا أنه كان هادئاً ومتزناً، وعندما علم أنني أسلمت حديثاً، أظهر لي وداً صادقاً، كنا نجلس ساعات على سطح السفينة يحكي لي عن قريته في اليمن، كان اسمه محمد صالح.

زرته ذات مساء في الأدوار السفلى من السفينة. كان أحد رفاقه من اليمنيين راقداً

في سريره يعاني حمى شديدة، ولم يهتم طبيب السفينة بالنزول إليه لفحصه. ولما تبينت أنه يعاني حمى الملاريا، أعطيته بعض حبوب «الكينين». وعندما كنت مشغولاً بالمريض، اجتمع اليمنيون في أحد الأركان حول محمد صالح الضئيل الجسم، كانوا في اجتماعهم الجانبي المتهامس ينظرون إليّ. في النهاية تقدم واحد منهم: رجل طويل ذو وجه بني زيتوني وعينين سوداوين، ومد لي يده ببعض الفرنكات الفرنسية المجعدة، وقال: «جمعنا هذا المبلغ - ياللأسف، هو مبلغ بسيط، تفضل واقبله».

خطوت إلى الخلف مندهشاً، وقلت لهم: إنني لم أعط صديقكم دواءً مقابل مال. قالوا: «كلا، كلا، نحن نعلم ذلك، ولكن تفضل واقبله، هو ليس ثمناً، بل هدية من إخوتك: نحن سعداء بك، ولذلك نهبك النقود، أنت مسلم وأخونا، بل أنت أفضل منا؛ لأننا ولدنا مسلمين، وآباؤنا وأجدادنا كانوا مسلمين، أما أنت فعرفت الإسلام بقلبك... اقبلها يا أخي.. من أجل خاطر النبي».

كنت حينها أسير بقناعاتي الأوروبية، ودافعت عن موقفي قائلاً: «لا يمكن أن أقبل هبة أو هدية مقابل خدمة أسديتها إلى صديق مريض... عدا أنه معي ما يكفيني من المال؛ أنتم بالتأكيد تحتاجون إليه أكثر مني. على أي حال، إن كنتم مصرّين على وهب تلك النقود، هبوها للفقراء في بورسعيد».

أعاد اليمني الاعتراض: «كلا، اقبلها منا وإن لم تشأ الاحتفاظ بها، هبها من نفسك إلى الفقراء».

كانوا يضغطون ملحين، وصدمهم رفضي، فأصبحوا صامتين في حزن، كما لو كنت رفضت حبهم الذي يقدمونه إليّ، وأدركت فجأة أنني نشأت في مجتمعات تقيم جدراناً بين الأفراد، على نقيض المجتمع العربي الإسلامي الذي لا توجد فيه أي جدران تعزل أبناءه بعضهم عن بعض، فقلت: «هاتوا النقود يا إخوتي، قبلتها وأشكركم».

(٣)

قلت لزيد: «غداً إن شاء الله سنكون في مكّة المكرّمة، ستكون النار التي تشعلها الآن يازيد آخر نار؛ وصلت الرحلة إلى نهايتها».

رد زيد: «بالتأكيد يا عمي ستكون هناك نيران أخرى، ورحلات أخرى بانتظارنا معاً».

قلت له: «ربما يا أخي زيداً: إلا أنني أعتقد أن الرحلات الأخرى لن تكون في هذه البلاد، تجولت في الجزيرة العربية كثيراً حتى أصبحت في دمي؛ وأخشى إن لم أغادرها الآن، فلن أغادرها أبداً... لابد أن أرحل يازيد: ألا تذكر المثل: إن الماء لا بد أن يتدفق ويتحرك حتى يظل نقياً؟ أريد وأنا مازلت شاباً أن أرى كيف يعيش إخواننا المسلمون في باقي بلاد العالم - في الهند، والصين، وجاوة...».

قال زيد بفزع: «لا أظن يا عمي أنك أصبحت لا تحب بلاد العرب؟».

قلت له: «كلا يا زيد، بالطبع أحبها كما أحببتها على الدوام، وربما أكثر من ذي قبل».

ارتفع صوت أقدام جمل يعدو من بين طنين صمت ليل الصحراء الساكن. أتى راكب وحيد وأحزمة الرَّحْل محلولة تتطاير من حوله، وعباءته تطير خلفه وهو خارج من الظلام، وتقدم باتجاه نارنا، وأوقف جمله بطريقة مفاجئة، وقفز من فوقه دون أن ينيخه. وبعد «السلام عليكم»، و«عليكم السلام» جلس محملقاً دون أن ينطق كلمة أخرى، ثم قام وفك رَحْل الجمل، وكوم خرجه إلى جانب النار، ثم جلس على الأرض، وهو في صمته، بوجه محتقن الملامح.

قال زيد، الذي اتضح أنه يعرف الرجل: «وهبك اللّه عمراً يا أبا سعيد»، ظل أبو سعيد صامتاً، بينما استدار زيد إليّ قائلاً: «هذا الشيطان واحد من رجال الملك عبد العزيز».

كان أبو سعيد فاحم السواد؛ وكشفت شفتاه الغليظتان وشعره الأجعد، الذي لمَّ أطرافه الطويلة في خصلتين خلفه، عن أصله الإفريقي. كان يرتدي ملابس ثمينة، وكان خنجره - وربما كان هدية من الملك - مطلياً بالذهب؛ وكانت ناقته من السلالات الغالية الثمن، فقد كان لونها عسلياً، من سلالة «شمالية»، رفيعة الأطراف، دقيقة الرأس، بكتفين قويين، وكفلين ضامرين.

سأله زيد، وقد حيره صمته الذي طال: «ماذا جرى لك ياأبا سعيد؟ ألا تريد الحديث مع أصحابك؟ هل ركبك جن؟».

همس أبو سعيد: «إنها نورة»، بعد أن حلّت القهوة الساخنة عقدة لسانه، حكى لنا عن «نورة»، كانت فتاة نجدية من مدينة «الرس» (ذكر اسم أبيها وكنت أعرفه)، كان قد رآها خفية من فوق سور وهي تجلب الماء مع النساء - قال: «شعرت وأنا أراها أن قطعة من جمر ملتهبة سقطت في قلبي. عشقتها، إلا أن أباها، لم يرض أن يزوجني إياها، راعي الخنازير - قال: إن ابنته تخاف عندما تراني، عرضت عليه مهراً كبيراً، وقطعة من أرضي؛ وأصر على الرفض، ثم زوجها بابن عمها.

أضاءت النار المشتعلة أحد جوانب وجهه الأسود القوي، وبدا تراقص ضوء النار على وجهه كمن يعاني عذاب الجحيم. لم يحتمل أن يجلس أكثر من ذلك، نهض واقفاً، شغل نفسه لحظات بالرَّحْل، ثم عاد قرب النار، وفجأة، ركض في الظلام. كنا نسمعه وهو يجري في دائرة واسعة حول المكان الذي كنا نجلس به، يصيح، ويصيح: «نار نورة تحرقني، نار نورة تحرق صدري»، ثم يصيح منتحباً «نورة، نورة».

اقترب من النار من جديد، وراح يعدو حولها في دائرة، وقفطانه يتطاير مثل شبح ليلي على ضوء النار المتراقص، والظلام المحيط، هل فقد عقله؟ لا أظن ذلك. ربما خرجت من خلال عقله البدائي الأول انفعالات الأجداد الإفريقيين الذين كانوا يعيشون بين الأعشاب، ذكريات من عاشوا على ذكر العفاريت والألغاز والغموض في الغابات الإفريقية، في وقت قريب من الزمن الذي نزلت فيه الومضة الإلهية

على وعي البشر، وحولت وعي الحيوان إلى وعي الإنسان؛ ولم تكن الشرارة بالقوة التي تكبح جماح الدوافع غير المكبلة، وتحولها إلى انفعالات راقية - لثانية بدا لي أنني أرى قلب أبي سعيد أمامي، كتلة من لحم ودم تصعد منها نار، ودخانه الغرام كأنه يحترق في نار حقيقية - وبشكل ما بدا لي أنه من الطبيعي أن يصرخ بذلك الصوت المفزع المخيف، ويجري في دوائر مثل مجنون، حتى أجبر جمالنا المعقولة أن تنهض خوفاً منه على ثلاث أرجل....

عاد إلينا وألقى بنفسه على الأرض، تبينت ملامح امتعاض بادية على وجه زيد من انفجارات أبي سعيد الخارجة عن أي تحكم. كان المزاج العربي الراقي الأصيل يزدري الانفعالات والمشاعر الغرامية المنفلتة - إلا أن قلب زيد الرقيق سرعان ما رق لحاله. أمسك بأبي سعيد من أكمامه، فرفع رأسه، وحملق في زيد بعينين غائمتين، جذبه زيد إليه؛ وقال: «أبا سعيد، كيف تنسى نفسك إلى هذا الحد؟ أنت مقاتل، أبا سعيد..لقد قتلت كثيراً من الرجال، وكاد يقتلك كثير من الرجال - والآن تطيح بك امرأة؟ يوجد نساء كثيرات غير نورة... يا أبا سعيد... يابطل.. يا أحمق».

أنّ الرجل في صوت خفيض، ورفع كفيه إلى وجهه، بينما استطرد زيد: «اسكت وارفع رأسك: هل ترى ذلك الخط المنير في السماء؟».

رفع أبو سعيد بصره إلى السماء في دهشة، وتابعت أنا بطريقة لا إرادية إصبع زيد المشير إلى صفحة السماء وتابعت الخط الشاحب الأكثر نوراً وغير المتساوي في كل مواضعه ويجري من أفق إلى أفق.. كان درب التبانة: ولكن حكمة بدو الصحراء لا ترى فيه إلا المسار السماوي للكبش الذي نزل إلى إبراهيم عندما أطاع أمر ربه واليأس يملأ قلبه، ورفع السكين ليذبح ابنه البكر، وظل مسار الكبش باقياً إلى الأبد على صفحة السماء، تذّكره برحمة اللّه ونعمته، وذكرى للفداء الذي أُنزل لشفاء ألم قلب إنساني، هو قلب إبراهيم - وسلوى لمن يأتون من بعده، ولمن يعانون الوحدة، أو تاهوا في الصحراء، ولمن يتعثرون في الحياة، ويبكون في وحدتهم منعزلين في بيداء حياتهم. استمر زيد، ويده مرفوعة باتجاه السماء، يتحدث بوقار ويقين، كما يتحدث حكماء العرب: «هذا مجر الكبش الذي أرسله اللّه إلى

سيدنا إبراهيم عندما همَّ بالتضحية بابنه البكر طاعة لأمر ربه، هكذا يظهر اللّه رحمته لعبيده.. هل تظن أنه ينساك؟».

تحت وقع كلمات زيد، رقَّ وجه أبي سعيد في تساؤل مثل ذلك الذي يظهر على وجوه الأطفال، أصبح أهدأ حالاً؛ وراح مثل تلميذ يتابع معلمه ينظر باتجاه السماء، محاولاً أن يجد على صفحتها إجابة عن اليأس الذي يغمر قلبه.

(٤)

ترد صورة إبراهيم وكبش الفداء إلى الذهن في هذا البلد بسهولة ويسر. لاحظت أن ذكرى أبي الأنبياء حية بقوة بين العرب أكثر مما هي حية بين مسيحيي الغرب الذين ترتكز عقيدتهم على العهد القديم والإنجيل؛ وكذا اليهود الذين تمثل لهم التوراة كلمة الرب الأولى والأخيرة. لا تشعر بالحضور الروحي القوي لإبراهيم إلا في الجزيرة العربية والعالم الإسلامي. لا من غزارة التسمي باسمه فقط، بل من ذكره المتكرر في القرآن الكريم وفي صلوات المسلمين اليومية كأول من دعا إلى عبادة واعية للّه الواحد، ويفسر ذلك الأهمية التي يوليها الإسلام للحج السنوي إلى مكّة المكرّمة، والذي ارتبط من عصور سحيقة بقصة إبراهيم.

لم يصبح إبراهيم معروفاً للعرب ـ كما يظن أهل الغرب ـ بعد أن أدخل محمد ﷺ اسمه في رسالته في محاولة منه «لاستعارة» عناصر الدين الإسلامي من اليهودية، لأنه من الثابت تاريخياً أن شخصية إبراهيم كانت معروفة للعرب قبل الإسلام من عصور قديمة ترجع إلى عصر إبراهيم ذاته، كما أن ما ذكر في القرآن الكريم عن إبراهيم معبر عنه بدقة لا تترك شكاً في أنه يعيش في واجهة الوعي العربي من عصور طويلة قبل محمدﷺ: فاسمه وسيرة حياته يذكران على الدوام من دون تمهيد للتعريف به، حتى إن القرآن الكريم حين كان يتلى بعد نزوله على أول من استمعوا إليه، لم يتساءلوا عن ذلك الاسم ولا عمن يكون. وكان يحتل أيضاً مكانة مرموقة في أنساب العرب، كأب أول من خلال إسماعيل لعرب الشمال الذين يكَوّنون اليوم نحو نصف عرب الجزيرة العربية، وتنتمي إليهم قبيلة محمدﷺ، وهم عرب قريش.
لم تذكر التوراة إلا بداية قصة إسماعيل وأمه هاجر، لأن تطوراتها اللاحقة لا تهم

الأمة العبرية، إلا أن الموروث المعرفي لعرب ما قبل الإسلام لديه كثير من تفاصيل قصة إسماعيل.

وطبقاً لذلك الموروث المعرفي الذي يُنقل شفاهاً، ترك إبراهيم هاجر وإسماعيل في المنطقة التي توجد فيها مكّة المكرّمة الآن، في وادٍ بين جبال صخرية عارية قاحلة تحت شمس حارقة، ورياح ساخنة لافحة، حتى إن الطيور الجارحة تعاف نزوله. وحتى اليوم مع امتلاء وادي مكّة المكرّمة بالبيوت والشوارع والبشر من كل الأجناس، مازالت مكّة المكرّمة تعاني قسوة الطبيعة، وتحوم فوق المتزاحمين حول الكعبة أشباح تلك الآلاف من السنين منذ أن وضع إبراهيم أول أساس لبيت اللّه الحرام بوادٍ غير ذي زرع.

بعث المكان اليأس في قلب هاجر، جارية إبراهيم المصرية التي تزوجها وولدت له ابناً فكرهتها سارة زوجة إبراهيم الأولى. كان لابد لإبراهيم أن يُبعد هاجر وابنها إسماعيل، وكان حزيناً وهو يقوم بذلك، إلا أنه كان عميق الإيمان برحمة اللّه التي لا حدود لها، ويقول سفر التكوين في التوراة: إن اللّه خفف عنه قائلاً:

«لا تكترث من أجل الغلام ومن أجل جاريتك.. وابن الجارية أيضاً سأجعله أُمة لأنه نسلك».

ترك إبراهيم المرأة الباكية وطفلها في الوادي، وترك معهما قربة ماء، وكيساً مملوءاً بالتمر، وعاد راجعاً إلى الشمال باتجاه مدين، ومنها إلى فلسطين. وكانت في الوادي شجرة وحيدة، جلست هاجر في ظلها وطفلها في حجرها، لم يكن حولها إلا رمال ومنحدرات صخرية وشمس حارقة. كان ظل الشجرة أروع ما في المكان، إلا أنه صامت صمت القبور، صمتاً مرعباً لأي كائن حي! كان الوقت يمضي متثاقلاً ببطء فكرت هاجر: لو يظهر أي كائن حي هنا، طائر، حيوان، أو حتى وحش مفترس. ولكن لم يظهر إلا الليل الذي حل، كان الليل مريحاً مثل كل ليالي الصحراء، قبة كبيرة من الظلام ونجوم تلطف من حرارة يأسها. دبت فيها بعض الشجاعة، أطعمت طفلها بعض التمر وارتويا من قربة الماء.

مر الليل، وجاء يوم آخر، وليلة أخرى، ولما حل اليوم الثالث بحرارته الشديدة، كان ماء القربة قد نفد، وأطبق اليأس عليها بكل قوته، أصبح الأمل مثل وعاء مهشم. وبكى الطفل، وراح صوت بكائه يضعف كلما مر الوقت، صرخت هاجر محدّثةً ربَّها؛ ولم يظهر أي جديد، طار لبها من معاناة ابنها المحتضر، راحت تركض غادية وراجعة وذراعاها مرفوعتان إلى السماء، راحت تركض بين تلين: ولإحياء ذكرى سعيها ذاك، يسعى الحجاج مثلما فعلت بين التلين سبع مرات، راحت تصيح كما صاحت من قبل: «أنت الكريم، يارحيم، مَنْ يرحمنا إن لم ترحمنا أنت؟».

ثم أتتها إجابة سؤالها، فانفجر من الأرض ماء غزير راح يتدفق على الرمال، صاحت هاجر من الفرح، ومالت بوجه طفلها إلى الماء المتدفق حتى يرتوي، وشربت من بعده وهي تصيح بين شهقاتها المتوسلة: «زم، زم»، ـ محاكاة لصوت الماء المتفجر من الأرض وكأنها تقول: «تدفق، تدفق»، وخوفاً من ضياع الماء في الرمال، صنعت حوله حافة من الرمال: وتحول مع الوقت إلى بئر يعرف الآن باسم بئر زمزم، موجود حتى اليوم.

أصبحا الآن بمأمن من الموت عطشاً، وكفاهم التمر وقتاً طويلاً. بعد بضعة أيام، مرت جماعة من البدو مهاجرة من جنوب الجزيرة، كانوا يبحثون عن مكان رعي جديد، مروا بالقرب من الوادي، فرأوا أسراباً من الطيور تحوم فوقه، فعلموا أن به ماءً، دخل منهم بعض الرجال إلى الوادي مستطلعين، وجدوا سيدة تجلس وحيدة ومعها طفلها بجوار حافة بئر عظيمة. استأذن منها الرجال في أدب إن كانت تسمح لهم بالإقامة في واديها. وافقت بشرط أن يظل البئر ملكاً لابنها إسماعيل وأبنائه من بعده.

أما إبراهيم، فيذكر الموروث المعرفي العربي أنه عاد إلى الوادي بعد زمن، ووجد هاجراً وابنه حيّين، كما وعده الله. منذ ذلك الوقت راح يزورهما كثيراً، حتى بلغ إسماعيل مبلغ الرجال، وتزوج بفتاة من قبيلة جرهم. بعد ذلك بأعوام رأى إبراهيم رؤيا تأمره ببناء بيت لله بجوار بئر زمزم، وهكذا، بمساعدة ابنه إسماعيل

بنى النموذج الأول لبيت اللّه الذي مازال قائماً حتى اليوم، ويعرف باسم الكعبة. وعندما كانا يقطعان الصخر لبناء البيت في دين التوحيد، أدار إبراهيم بصره في السماء وقال محدثاً ربه: «لبيك اللهم لبيك». لذلك يرفع المسلمون أصواتهم بالتلبية نفسها حتى اليوم وهم يقتربون من مكّة المكرّمة للحج.

(٥)

«لبيك اللهم لبيك»..

كم مرة سمعت فيها تلك التلبية في المرات الخمس التي قمت فيها بأداء فريضة الحج؟ بدا لي أنني أسمعها الآن، وأنا ممدد على الرمال بالقرب من زيد وأبي سعيد بجوار النار المشتعلة.

أغلقت عيني فاختفت النجوم، واختفى القمر. وضعت ذراعي على عيني وأنا مستلق على ظهري، فحجبت الضوء النافذ من جفوني إلى عيني، وراحت الأصوات تخفت، لا أسمع إلا «لبيك» في عقلي، وخفقان تدفق الدماء في أذني؛ كان الدم يخفق مثل أمواج متتابعة ترتطم بجدار سفينة، ويخفق مثلما يخفق صوت ماكينة، كنت أسمع خفقات الماكينة، وأشعر بارتجاف سور السفينة، وأشم دخانها ورائحة زيتها، وأسمع نداء «لبيك اللهم لبيك»، صادراً من مئات الحناجر على متن السفينة التي حملتني عند أول حج لي منذ ستة أعوام، من مصر إلى الجزيرة العربية، فوق سطح البحر الأحمر. كانت جبال قارة إفريقية إلى يميننا، وجبال شبه جزيرة سيناء إلى يسارنا - وكلاهما صخري عارٍ، وكانت المسافات بينهما تتباعد كلما مضينا في الخليج حتى أصبحت أشباحاً بعيدة تشعر لمرآها أن هناك يابسة إلا أنك لا تراها. بعد الظهر، دخلت السفينة إلى متسع البحر المفتوح، كانت المياه زرقاء مثل مياه البحر المتوسط.

كان كل ركاب السفينة من الحجاج، أعداد كبيرة لا أعرف كيف اتسعت لهم. كانت شركة النقل الجشعة قد ملأت السفينة حتى حافتها بالحجاج من دون أي تفكير في راحتهم، على السطح، في القمرات، وفي الممرات، على الدرج، وفي قاعات طعام

الدرجة الأولى والثانية، في أماكن ربط السفينة عند الرسو، في كل ثغرة متاحة حُشِر الناس حشراً. كان أغلب الحجاج من مصر وشمال إفريقية، كانوا في غاية التواضع، لا يشغل ذهنهم إلا ما سعوا إليه، وهو فريضة الحج، فتحملوا من دون تذمر جميع أنواع المصاعب التي كان يمكن تجنبها لولا جشع أصحاب السفن.

كانوا يجلسون على ممرات السطح، في مجموعات متزاحمة، رجالاً ونساءً وأطفالاً، يدبرون بصعوبة وجبات طعامهم؛ كانوا يناضلون ذهاباً وإياباً لجلب بعض الماء في أوانٍ من الصفيح، كل حركة كانت عذاباً بين هذا الحشد البشري المضغوط؛ كانوا يتجمعون في زحام أشد حول صنابير المياه القليلة للوضوء في أوقات الصلاة؛ كما كانوا يعانون الهواء الراكد في أعماق السفينة، التي كانت تستعمل في أثناء العام في غير موسم الحج مخازن لنقل البالات وصناديق البضائع، من ير ذلك يدرك قوة إيمان أولئك الحجاج. لم يهتموا بتلك المصاعب، كانوا مستغرقين، أينما كانوا، في التفكير في مكّة المكرّمة. لا يتحدثون إلا عن الحج، في انفعال يضيء وجوههم. والنساء تغني أغنيات جماعية عن المدينة المقدسة، ومرات بعد مرات يتكرر النداء: «لبيك اللهم لبيك».

دوت صافرة السفينة في اليوم التالي معلنة عن وصولها إلى ميناء رابغ الصغير شمال مدينة جدة، وهو ميقات حجاج شمال إفريقية الذي يحرمون منه إذ ينبغي للحجاج القادمين من الشمال أن يبدلوا بثيابهم لباس الإحرام، وهو مكون من جزأين غير مخيطين من نسيج أبيض قطني أو صوفي، أحدهما يُلفّ حول الخصر حتى ما يلي الركبتين، والآخر يلف على الكتف والصدر، ويبقى الرأس عارياً. حتى لا تكون هناك مشاعر اغتراب أو اختلاف بين المسلمين القادمين من جميع أنحاء العالم لزيارة بيت اللّه، لا فرق بين وجوه وقوميات وأجناس وأعراق وغني وفقير، لا فرق بين عالي المكانة في قومه أو بسيطها حتى يعلم البشر أنهم متساوون أمام اللّه، وأنهم إخوة في اللّه.

اختفت من حولي جميع الملابس الملونة للرجال: لا ترى طربوشاً تونسياً أحمر، ولا برنساً مغربياً أبيض، ولا جلابيب مصرية ملونة: في كل ماحولك لا ترى إلا

ملابس الإحرام البيضاء المتواضعة خالية من أي تزويق، ملتفة حول أبدان تتحرك بعزة وفخار. أما النساء فيبقين بملابسهن حتى لا يتعرضن إلى تعرية أجزاء من أبدانهن، لم يظهر على السفينة بعد لبس ملابس الإحرام إلا اللونان، الأبيض للرجال والنساء، والأسود لبعض النساء المصريات.

ألقت السفينة مرساها في فجر اليوم الثالث أمام سواحل الجزيرة العربية، تجمع عدد كبير من الحجاج بجوار حاجز السفينة يتطلعون إلى أرض الجزيرة التي كانت تتضح بالتدريج مع انقشاع ضباب الصباح. على صفحة البحر، انتشرت أشباح سفن أخرى تحمل الحجاج، وصفحة الماء صفراء شاحبة في مواضع، وخضراء عقيقية في مواضع أخرى، كانت ألوان الشعَب المرجانية التي تكونِ سلسلة محاذية للساحل، في الشرق باتجاه الساحل بدا ما يشبه التل، منخفضاً وأدكن، ولما أشرقت الشمس، اتضح أنها مدينة جدة التي ترتفع مبانيها من الحافة باتجاه المركز، مشيدة من أحجار وردية ورمادية صفراء من صخور مرجانية. راحت تتضح تفاصيل النوافذ المنقوشة، وأسوار الشرفات الخشبية، التي تحولت بفعل الرطوبة والزمن إلى الأخضر الرمادي، ارتفعت مئذنة في المنتصف، بيضاء مستقيمة كإصبع مرتفع.

تصاعد من جديد صوت التلبية: «لبيك اللهم لبيك»، صيحة تهز الأعماق فيها استسلام للّه، وحماس انتشر بين الحجاج على السفينة وعبر صفحة الماء باتجاه البلد الذي به معقد الآمال العظيمة كانت أملهم وأملي، بالنسبة إليّ كانت رؤية ساحل الجزيرة العربية يمثل طموح سنوات من البحث. نظرت إلى إلزا التي كانت ترافقني في الحج، قرأت المشاعر نفسها في عينيها...

رأينا أجنحة بيضاء كثيرة تخفق من الأرض باتجاهنا، كانت القوارب الساحلية بأشرعتها البيضاء اللاتينية تشق طريقها فوق صفحة الماء الهادئة بنعومة، ومن دون صوت بين الشعب المرجانية المختفية تحت سطح الماء، اقتربت ودنت حتى التصقت بالسفينة، وطوت أشرعتها واحداً بعد آخر بخفة وسرعة كأنها تختبئ من عملاق قادم ليأكلها، ثم ارتفع صياح النواتيّ الذين راحوا يقفزون من مركب إلى

مركب، ثم اكتسحوا سلم السفينة ليأخذوا أمتعة الركاب الذين امتلؤوا سعادة لمرأى الأرض المقدسة.

كان المركب الذي نزلنا به ثقيلاً وعريضاً وخشن التصميم عند موازنته بالصواري العالية الرشيقة، والأشرعة العريضة، لابد أن المركب الذي ركبه المغامر البحري سندباد كان من الطراز نفسه. كان سندباد ينطلق إلى مغامرات لم تُطلب منه، يرسي إلى جزيرة، وفجأة يكتشف أنها ظهر حوت... في مراكب مشابهة أبحر الفينيقيون قبل سندباد جنوباً في هذا البحر وعبر الخليج العربي لجلب التوابل والعطور وكنوز بلاد أوفر...

الآن، نحن الورثة الأقزام لأولئك المغامرين العظماء، نبحر عبر شعَبٍ مرجانية، متجنبين مواضعها في استدارات واسعة، الحجاج في ملابس الإحرام البيضاء مدسوسون بين حقائب وصناديق وحزم مربوطة، ضيوف صامتون في نشوة منتظرة.

كنت مملوءاً أيضاً بالأحلام والتوقعات، يد زوجتي في يدي، هل يوجد ما يعمق حياتنا أكثر من الحج؟ وجدت نفسي مجبراً على التفكير في سندباد من جديد، فحين غادر شواطئ بلده، كان مثلي تماماً ـ لا يفكر في المستقبل وما سيجلبه، لم يتنبأ ولم يخطر بذهنه كل ما وقع له من مغامرات كل ما أراده أن يتاجر ويكسب مالاً؛ بينما لم أرد أنا إلا أداء الحج، ولكن عندما وقعت له تلك المغامرات، كما وقعت لي مغامراتي، لم يستطع أي منا بعدها أن ينظر إلى العالم، كما كان ينظر إليه قبل مروره بتلك المغامرات.

لم تصادفني أشياء غريبة في طريقي مثل جن أو عفاريت مسحورة أو طائر رخ عملاق، مثلما صادف بحار البصرة السندباد، إلا أن حجي الأول كان مُقَدّراً له أن يعمّق حياتي أكثر مما عمقت حياته المغامرات العجيبة التي صادفته. أما إلزا، فقد كان الموت ينتظرها هناك؛ ولم يكن لدينا أي توقعات بمدى قربه منها؛ ولكنني لم أدرك أنني أغادر ماضيَّ كله وأتركه خلفي، ومن دون أي إنذار، وصل

عالمي القديم إلى نهايته، عالم أفكار الغرب ومشاعره، ومساعيه وتصوراته ومفاهيمه. كان باب عالمي القديم يغلق في صمت من خلفي، صمت مطلق حتى إنني لم أدرك ذلك ولم أشعر به؛ اعتقدت أنها رحلة مثل رحلاتي السابقة التي تجولت فيها في بلاد أجنبية، وعدت بعدها إلى ماضيّ الذي تركته: إلا أن الأيام ستكشف لي وجهاً آخر، تتغير معه اتجاهات آمالي ورغباتي.

* * *

زرت في ذلك الوقت،دولاً كثيرة من دول الشرق، وكنت أعرف إيران ومصر أفضل مما أعرف البلاد الأوروبية، وأعرف كابل معرفة تامة منذ أن كشفت لي أسرارها؛ وأسواق دمشق وأصفهان التي اعتدت عليها، لذلك قفز إلى ذهني تعبير «ما أبسطه»! حالما رأيت سوق جدة أول مرة. لم أر إلا خليطاً غير متجانس، وتقليداً بلا روح لما كنت أراه بكميات هائلة، وإتقان فريد في أسواق الشرق الأخرى. كانت شوارع السوق مغطاة بخيش وأقمشة بالية لحمايتها من الشمس الحارقة؛ وكانت أشعة الشمس تنفذ من ثقوبها في أعمدة مائلة منيرة. في الشوارع مطاعم مفتوحة يشوي أمامها غلمان سود قطع اللحم المشكوكة في أسياخ على الفحم المشتعل؛ والمقاهي المنتشرة تعج بأدوات ونراجيل نحاسية لامعة، ومقاعد مصنوعة من جريد النخيل؛ إضافة إلى محلات مملوءة بنفايات البضائع الأوروبية والشرقية. الحرارة الشديدة، وروائح الأسماك، والشعب المرجانية، والتراب في كل مكان. زحام في كل الأماكن، حجاج كثيرون في ملابس الإحرام البيضاء مقابل الملابس الملونة لأهل جدة الذين اعتادوا وألفوا الاختلاط بجميع مسلمي العالم. تجد أحياناً أباً من الهند، بينما والد الأم خليط من الملايو والعرب ـ ربما تزوج جدة كانت من جهة أبيها من أصل أوزبكي، ومن جهة أمها من نسل صومالي، نوادر حية نتاج قرون من مواسم الحج، ونتاج المجتمع الإسلامي الذي لا يعرف تفرقه على أساس لون أو جنس.

كانت جدة في تلك الأيام المكان الوحيد في الحجاز المسموح فيه بإقامة غير المسلمين. كان من المعتاد أن ترى لافتات محلات بلغات أجنبية وأناساً بأزياء استوائية بيضاء وقبعات للحماية من الشمس؛ كما كانت توجد فيها القنصليات الأجنبية.

كانت الروائح والأصوات تنتمي إلى عالم البحر أكثر من انتمائها إلى عالم اليابسة، أصوات روائح الميناء، والسفن التي ألقت مراسيها خارج الشعبَ المرجانية، ومراكب الصيد ذات الأشرعة المثلثة البيضاء ـ عالم لا يختلف عن عالم البحر المتوسط.

أما المنازل، وعلى الرغم من الاختلافات القليلة بينها، فقد كانت مفتوحة لنسيم البحر بواجهات غنية بالزخارف، نوافذ من خشب معشّق على الطراز العربي تسمح لمن في الداخل أن يرى من في الخارج ولا يمكن لمن في الخارج أن يرى من بالداخل، منازل لا تنتمي في طرازها إلى البحر المتوسط، كما أنها لا تعبر أيضاً عن الجزيرة العربية؛ كانت جدة تنتمي بشكل خاص إلى عالم سواحل البحر الأحمر، الذي يُنتج الطرز العمرانية ذاتها على سواحله.

وأما الجزيرة العربية ذاتها فقد أعلنت عن نفسها بسماء زرقاء، وتلال صخرية جرداء، وكثبان رملية إلى الشرق من جدة، وأنفاس العظمة والندرة اللتين تختلطان بغرابة في السهوب العربية الواسعة.

* * *

بدأت قافلتنا رحلتها إلى مكّة المكرّمة بعد ظهر اليوم الثاني من وصولنا إلى جدة، تشق طريقها خلال زحام الحجاج، والبدو والجمال المحملة وغير المحملة، وجمال الركوب والحمير المزينة عند الباب الشرقي للمدينة، وسيارات في ذهاب وإياب ـ كانت السيارات الأولى في السعودية ـ محملة بالحجاج وأبواقها تصدر أصواتاً عالية. يبدو أن الجمال أحست أن السيارات تنافسها، فقد كانت تجفل كلما مرت سيارة، وتركض إلى جوار الجدران، وتمد أعناقها إلى الأمام والخلف لا تعرف إلى أين تهرب. عهد جديد يبزغ على تلك الحيوانات العالية الصبورة، ويملؤها الخوف والتشاؤم.

أصبحت المدينة البيضاء خلفنا، ووجدنا أنفسنا فجأة في الصحراء في وادٍ متسع رمادي مهجور، تنبت فيه أعشاب شوكية متناثرة، وبقع حشائش جافة، وتلال

رملية منعزلة منخفضة تبرز من الوادي كما تبرز الجزر من البحار، وتحدها من الشرق مرتفعات صخرية زرقاء، خطوطها حادة ولا حياة فيها. كانت قوافل الحجاج تسير في هذا السهل، جمال بلا عدد، واحد وراء آخر، مئات وآلاف من الجمال محملة ببضائع وحجاج وحقائب، تختفي أحياناً خلف تلال لتظهر من جديد. اتحدت مساراتها في طريق رملي واحد، صنعته مسيرات الجمال والبشر عبر القرون.

في صمت الصحراء، ووقع أقدام الجمال التي لا تحطم الصمت بقدر ما تكوّن خلفية ثابتة له، ونداءات عشوائية من سائقي الجمال من البدو، أو أغاني الحجاج الخافتة هنا أو هناك، غلبني فجأة إحساس جارف ـ كان قوياً شبيهاً بالرؤيا، رأيت نفسي على قنطرة تمتد فوق هاوية غير مرئية، قنطرة طويلة حتى إن الجهة التي كنت قد بدأت منها العبور اختفت بعيداً بين الضباب؛ بينما طرفها الآخر الذي كنت أتجه إليه، يتضح من دون تفصيل. كنت أقف في الوسط، وخفق قلبي رعباً، ابتعدت عن بدايتها إلا أنني لم أدن من نهايتها، بدا لي على مدى ثوان طويلة، أنني سأبقى هكذا بين طرفيها، فوق هاوية سحيقة ـ حتى صاحت امرأة مصرية فجأة بصوت أيقظني: «لبيك اللهم لبيك»، انقطعت رؤياي وتلاشت.

في كل الجوانب كنت أسمع الناس يتحدثون بكل اللغات، يلبّي بعضهم أحياناً معاً «لبيك اللهم لبيك»، أو تنشد فلاحة مصرية أبياتًا في حب الرسول ﷺ، بينما تزغرد امرأة عربية من أعماق حلقها. لقد اعتدن على إطلاقها في المناسبات السعيدة ـ مثل الزواج، وولادة مولود، وختان، ومناسبات دينية، ومنها الحج بالطبع. في عصور الحروب المبكرة، كانت بنات رؤساء القبائل يركبن مع الرجال، ويخرجن إلى الحروب حتى يحثثن الرجال على الإقدام والشجاعة (كما كان من العار أن تُقتل إحداهن، والأسوأ أن تؤسر)، فكانت الزغاريد تسمع في ميادين القتال.

يتنقل الحجاج جماعات، اثنين على كل جمل ـ كان السير يبعث الدوار، ويثير الأعصاب، هزهزة لا تتوقف. يغفو المرء بضع دقائق، ليصحوا على توقف مفاجئ

وهزة مفاجئة، ثم ينام، ليستيقظ من جديد، وسائق قافلة الجمال الذي يرافقها على الأقدام ينادي الجمال بأصوات مفاجئة وحادة، وأصحابه ينشدون على إيقاع الخطوات الطويلة للجمال.

وصلنا في الصباح قرية «بحرة»، وتوقفت القافلة لتقضي النهار فيها، فقد كان السير ليلاً لتجنب قيظ النهار وحرارته اللافحة.

لم تكن تلك القرية - في الحقيقة إلا صفين من المقاهي وأكواخاً من جريد النخيل ومسجداً صغيراً - إلا أن ذلك الموضع كان في منتصف المسافة بين جدة ومكّة المكرّمة. معالم الصحراء كما هي لم تتغير منذ أن غادرنا جدة، تلال رملية متناثرة، وجبال صخرية في الشرق تفصل الأرض الساحلية المنخفضة عن هضبة المنتصف العالية، إلا أن تلك الصحراء تحولت إلى ما يشبه معسكر جيش ضخم بعدد لا يحصى من الخيام، والجمال، ولغات كثيرة مختلفة - عربي، هندوسي، ملاوي، فارسي، صومالي، تركي، باشتو، أمهري، ويعلم اللّه كم هناك من لغات غير ذلك، كان ذلك هو التجمع الحقيقي للأمم تحت راية واحدة، يرتدون الملابس ذاتها وهي ملابس الإحرام، ومن العسير ملاحظة أي اختلاف، بدا أن جميع الأجناس ليست إلا جنساً واحداً هو الجنس البشري.

كان الحجاج منهكين بعد رحيل الليل، لم يعرف إلا قليل منهم كيف يستغل وقت الراحة، كانوا لا يرتاحون؛ يتحركون من مكان إلى آخر، أيديهم تبحث عن شيء لتفعله، حتى لو كان فتح الحقائب وإعادة إغلاقها، وإلا فقد الإحساس بذاته، كأنه في بحر من سعادة غير أرضية.

كان ذلك ما حدث لأسرة في الخيمة المجاورة لخيمتي، كانوا حجاجاً من قرية بنغالية، لم يتبادلوا كلمة واحدة، جلسوا متربعي السيقان على الأرض، وراحوا يحملقون بنظرات ثابتة باتجاه الشرق، اتجاه مكّة المكرّمة، إلى الصحراء التي كانت تموج بحرارة لافحة، وتنفث ناراً، ملامح تفيض بالسلام كأنهم أمام بيت اللّه، أو في حضرته. كان رجالهم على درجة عالية من الجمال، رشيقي الأجسام،

شعرهم طويل حتى الكتفين، ولحى كثة. يرقد أحدهم مريضاً على سجادة، وجلست إلى جواره شابتان، مثل طائرين ملونين صغيرين، بسراويليهما الأزرقين والأحمرين الفضفاضين وفساتين فضية مرزكشة بألوان كثيرة، وضفائر شعرهما السميكة تتدلى على ظهورهما؛ صغراهما كانت تضع حلقة ذهبية في أنفها.

مات الرجل المريض بعد الظهر، لم ترفع النساء أصواتهنّ بالنواح، كما يفعلن في دول الشرق، لأن الرجل مات في الحج، على التراب المقدس، فهو شهيد. قام الرجال بغسله، ثم لفوه بملابس الإحرام كآخر ما يلبس. وقف واحد منهم أمام الخيمة وكور كفيه حول فمه ونادى بالصلاة: اللّه أكبر، اللّه أكبر، أشهد أن لا إله إلا اللّه، وأن محمداً رسول اللّه.. صلاة الميت، وليرحمكم اللّه جميعاً».

تقاطر الرجال من جميع الجهات بملابس الإحرام، ووقفوا صفوفاً خلف الإمام كجند جيش عظيم، صلوا عليه، وحفروا قبراً، وقرأ رجل عجوز بعض آيات القرآن الكريم، ثم أهالوا الرمال على الحاج الميت، الذي مددوه على جنبه، متجهاً إلى مكّة المكرّمة.

* * *

قبل شروق شمس اليوم الثاني، راح السهل الرملي يضيق، وتقاربت التلال بعضها من بعض؛ مررنا عبر ممر ضيق، ورأينا على ضوء الفجر الشاحب أول مباني مكّة المكرّمة؛ ودخلنا إلى شوارعها مع شروق الشمس.

كانت بيوت مكّة المكرّمة تماثل بيوت جدة، بنوافذ عربية من الأخشاب المعشقة والشرفات ذات الأسوار[1]؛ ولكن بدا أن الأحجار التي بنيت منها كانت أثقل من الأحجار المرجانية لمباني جدة. كان الوقت مبكراً في الصباح، إلا أن الحرارة كانت شديدة. أمام منازل كثيرة، كانت هناك أرائك ينام عليها المتعبون. ضاقت الشوارع أكثر، وكانت غير معبدة سرنا عبرها باتجاه مركز المدينة. وقد بقيت أيام

---

١ـ وتعرف بالمشربيات.

على موعد الحج وزحام الشوارع شديد. أعداد هائلة من الحجاج بملابس الإحرام، وأعداد لا تقل عنها مازالت بملابسها العادية التي تنتمي إلى جميع دول الأرض. يسير السقاؤون منحنين يحملون على ظهورهم قرب الماء الثقيلة، أو يحملون عصا غليظة على أكتافهم يتدلى منها من كل ناحية صفيحة ماء؛ حمير ركوب بأجراس معلقة في رقابها وزينة على برادعها، وحتى تكتمل الفوضى، تأتي جمال من اتجاه معاكس محملة بمحفات خالية، ترغي وتهدر بكل الأصوات، كانت هناك فوضى في الشوارع الضيقة، حتى إنك تعتقد أن الحج الذي يتم كل عام على مدى قرون طويلة، قد أتى فجأة أول مرة ودون استعداد. في النهاية، تبعثرت قافلتنا، وتحولت إلى فوضى من جمال ومحفات وأمتعة وحجاج وسائقي جمال وضوضاء.

لقد رتبت من جدة لكي نسكن في منزل مطوف مشهور اسمه حسن عبيد، ولم تكن هناك فرصة للعثور عليه في تلك الفوضى. فجأة، سمعت صوتاً ينادي: «حسن عبيد، هل هناك حجاج لحسن عبيد؟»، ومثلما يخرج عفريت من زجاجة وجدت شاباً يقف أمامنا، وبانحناءة عميقة، طلب منا أن نتبعه، كان حسن عبيد قد أرسله ليقودنا إلى منزله.

خرجت بعد إفطار غني قدمه لنا المطوف، ليرشدني الشاب إلى طريق الحرم. سرنا خلال شوارع مزدحمة، أمام جزارين سلخوا جلود الماعز وعلقوها؛ وأمام بائعي خضراوات فرشوها على حصر من قش، وبين أسراب من ذباب ورائحة خضراوات، وتراب وعرق؛ ثم عبر شارع سوق ضيق مغطى لا توجد فيه إلا محلات ملابس: مهرجان من ألوان. وكأي أسواق أخرى في غرب آسيا وشمال إفريقية، كانت المحلات فجوات صغيرة تعلو الأرض ببياردة، وصاحبه يجلس متربعاً أمامه، تحيط به أكوام ملابس من جميع أنواع الأقمشة، وبمختلف الألوان، ومعلقة فوق رأسه طرز ملابس الأمم الإسلامية.

مرة أخرى، شعوب من جميع بقاع الأرض، وأزياء، وتعبيرات متباينة، بعضهم بعمائم، وبعضهم عاري الرأس، بعضهم يسير صامتاً خافضاً وجهه ومسبحته في

يده، وآخرون يركضون بحماس في الزحام؛ خليط، أجسام بنية للصوماليين، يلمعون كالنحاس في ملابس صارخة الألوان؛ وعرب من أعماق الجزيرة العربية، وجوه نحيلة بلحى كثة، وخطوات متثاقلة، وآخرون ضخام الأجسام أوزبكيون من بخارى، مازالوا بملابس بلادهم، من قفطان سميك وحذاء طويل حتى الركبة على الرغم من جو مكّة المكرّمة اللافح، بنات من جاوة بوجوه مكشوفة وأعين مثل اللوز؛ مغاربة متثاقلو الخطو يتيهون بالبرنس الأبيض، وأهل مكّة المكرّمة بملابسهم البيضاء ورؤوسهم المغطاة، فلاحون مصريون بوجوه تملؤها الإثارة؛ هنود في ملابس بيضاء وعيون سوداء تتطلع من تحت عمامة ضخمة بيضاء، ونساء هنديات بزيهن التقليدي فبدين مثل خيام متحركة؛ الفولاتا السود من تمبكتو وداهومي في ملابسهم الزرقاء وغطاء رأس أحمر؛ سيدات صينيات دقيقات الحجم مثل فراشات ملونة، وخطوات صغيرة وأقدام دقيقة مثل حوافر الغزلان.

صراخ وزحام من كل ناحية حتى تشعر أنك في قلب موجة عاتية، ولا تتمكن من رؤية تفاصيل صورة مكتملة، كل المشاهد طافية على عدد كبير من اللغات واللهجات، إيماءات حماسية وإثارة حتى وجدنا أنفسنا أمام باب من أبواب الحرم.

كانت بوابة ثلاثية الأقواس بدرج حجري يصعد إليها، جلس عليها شحاذ هندي نصف عار يمد إلينا ذراعاً نحيلة. ثم رأيت أول مرة الساحة الداخلية التي كانت في مستوى منخفض عن مستوى الخارج ـ أدنى بكثير ـ. كانت مفتوحة أمام العين كالوعاء، مساحة مربعة واسعة تحيط بها من كل جانب عقود شبه دائرية ترتكز على أعمدة، في مركزها مكعب ارتفاعه أربعون قدماً، تنزل عليه ستائر سوداء بحزام عريض مذهب في أعلاها، وعليه آيات من القرآن الكريم.

هذه هي الكعبة، موضع شوق ملايين الناس وتوقهم على مدى قرون طويلة. ضحوا تضحيات عظمى في سبيل الوصول إليها؛ في الطريق إليها مات كثيرون؛ ووصل إليها كثيرون ممن يعانون الحرمان وشظف العيش؛ كان هذا المبنى المكعب غايتهم وأسمى أهدافهم،وكان الوصول إليه هو كامل التحقق.

ها هي ذي الكعبة هناك في المنتصف، مكعب مكتمل (ويدل الاسم العربي على الشكل)، مغطى تماماً بستائر سوداء، يقف كجزيرة هادئة في ساحة الحرم الواسعة: أهدأ من أي شكل عمراني آخر في العالم. أراد أول من بنى الكعبة ـ أعيد بناؤها منذ عهد إبراهيم عليه السلام عدة مرات على الشكل نفسه ـ أن يصنع مثلاً لتواضع البشر أمام الله. لقد أدرك من بناها أنه لايوجد جمال عمراني مهما كان رائعاً، ولا اكتمال في الخطوط، مهما كانت عظمتها، يمكن أن تتناسب مع عظمة الله، لذلك لجأ إلى أبسط مجسم ثلاثي الأبعاد يمكن تخيله ـ مكعب من الصخر.

لقد زرت مساجد وجوامع ومزارات إسلامية كثيرة رصعتها الأيدي الخلاقة بكل أنواع الفنون والأشكال، رأيت جوامع شمال إفريقية التي تبدو كقصور رائعة للصلاة مشيدة من الرخام والمرمر الأبيض؛ ورأيت مسجد قبة الصخرة في القدس، قبة عظيمة مكتملة فوق بناء رشيق، إنها حلم من الخفة والثقل من دون تعارض؛ ورأيت الجوامع الرائعة في إستنبول، جامع السليمانية، وجامع «يني ڤاليد»، وجامع بايزيد، وجوامع برصة، في آسيا الصغرى، وجامع السفاڤيد في إيران ـ إنها إيقاع ملوكي من الحجارة والصخور الملونة، والفسيفساء، ومداخل هائلة تعلو الأبواب المفضضة، ومآذن شاهقة مستديرة من المرمر بشرفات من الأزرق التركوازي، وساحات مغطاة بالرخام، ونوافير مياه، وأشجار نادرة عتيقة، عظيمة حتى في قِدمها.

رأيت كل ذلك ـ إلا أنني لم أشعر برهبة أمام أي منها كما أشعر بها الآن أمام الكعبة. لقد اقترب بانيها تماماً من التعبير عن مفاهيمه الدينية، في البساطة المطلقة للمكعب، في التخلي عن كل ادعاء بشري للجمال الفني، لقد فكر: «مهما كان قدر الجمال الشكلي الذي يمكن للإنسان أن يصنعه بعقله ويده، فسيكون من قصور الخيال أن يظن أنه يتناسب مع عظمة الله؛ ولذلك، فإن أبسط شكل يمكن أن يدركه العقل البشري هو أعظم شكل يتناسب مع عظمة الله». ويبدو أن المنطق نفسه هو الذي وجه مصمم بساطة الأهرام المصرية ـ على الأقل وجد الذهن البشري متنفساً لخياله في الأبعاد الهائلة التي بُنيِ عليها الأهرام. أما هنا، في

الكعبة، فيتحدث الشكل عن التخلي البشري عن كل ادعاء، ويتحدث عن التسليم للّه؛ ولا يوجد مثيل ولا شبيه للبساطة العظيمة لبناء الكعبة على وجه الأرض كلها.

* * *

لا يوجد إلا مدخل واحد للكعبة، وهو باب مغطى بطبقة رقيقة من الفضة في الجانب الشمالي الشرقي، على ارتفاع سبع أقدام عن سطح الأرض، ولا يمكن الوصول إليه إلا باستعمال سلم يوضع أمام باب الكعبة بضعة أيام من كل عام. والكعبة من الداخل، وهي مغلقة عادة (رأيتها من الداخل بعد ذلك في مناسبات أخرى)، بسيطة جداً، أرضها من الرخام عليها بضعة بسط، ومصابيح من البرونز والفضة تتدلى من دعامات السقف الخشبية، وداخل الكعبة، لا يحمل في الحقيقة أي معنى في ذاته، فقداسة الكعبة تخص المبنى بأكمله كقبلة لكل العالم الإسلامي، في اتجاه هذا الرمز إلى وحدانية اللّه، يتوجه مئات الملايين من المسلمين نحوها في الصلوات الخمس كل يوم.

يوجد في الركن الشرقي من مبنى الكعبة حجر أسود من دون ستائر، ويحيط به إطار فضي عريض، وأحدث تقبيل المسلمين له على مدى أجيال متتالية وقرون طويلة من الزمن، تجويفاً بالحجر، وكان تقبيل المسلمين له سبباً في سوء فهم كبير من غير المسلمين، فقد أشاعوا أنه جزء من صنم قد وضعه محمد ﷺ تصالحاً مع مشركي مكّة المكرّمة، وذلك مجاف تماماً للحقيقة. فالكعبة موضع تبجيل لا موضع عبادة، أي أنها لا تعبد، وكذلك الحجر الأسود موضع تبجيل لأنه كل ما تبقى من البيت الذي أسسه إبراهيم عليه السلام، ولأن شفتي محمد ﷺ قبلته[1] في حجة الوداع قبل موته، فإن الحجاج يفعلون ذلك اقتداء به، كان الرسول ﷺ واعياً أن أجيال المسلمين من بعده ستقتدي به في أفعاله وأعماله، وكان يعلم أنه بتقبيله الحجر ستلتقي شفاه أجيال المسلمين من بعده في وضع تقبيله الحجر في احتضان رمزي، أقوى من الزمن، وأقوى من الموت، لكل أمته في

١ـ إشارة إلى الحديث الشريف: رأيت رسول الله ﷺ يستلمه ويقبله، وحديث عمر بن الخطاب ﷺ قال: لولا أني رأيت رسول الله قبلك ما قبلتك. رواه البخاري في كتاب الحج، باب تقبيل الحجر ج٢/١٦٢، ومسلم ج٢/٩٢٥ رقم ٢٥٠٠.

حجها. والحجاج عندما يقبلون الحجر الأسود، كأنما يحتضنون الرسول ﷺ، ويحتضنون جميع المسلمين الذين جاؤوا هنا من قبلهم والمسلمين الذين سيأتون هنا من بعدهم.

لا ينكر أي مسلم أن الكعبة موجودة منذ عصور طويلة قبل محمدﷺ: ويكمن مغزاها في تلك الحقيقة، والنبي ﷺ لم يدَّع أنه أوجد ديناً جديداً. على العكس، قال إن الاستسلام للّه، والتسليم لمشيئته ـ الإسلام ـ كان طبقاً لما يذكر القرآن الكريم، فطرة الإنسان التي خلق عليها منذ فجر الوعي الإنساني؛ وأن ذلك هو ما دعا إليه إبراهيم، وموسى، وعيسى عليهم السلام من قبله بأن رسالة القرآن الكريم ليست إلا خاتمة الرسالات من الله. كذلك لا ينكر أي مسلم أن ساحة الحرم المقدس كانت مملوءة بالأصنام والرموز الوثنية قبل أن يحطمها محمد ﷺ؛ تماماً، كما حطم موسى عليه السلام العجل الذهبي الذي صنعه قومه في بر سيناء، لقد كان البشر يعبدون اللّه في موضع بيته الذي أقامه إبراهيم عليه السلام قبل عصور من ظهور الأصنام في ساحته. لم يفعل محمد ﷺ إلا أن استعاد البيت الذي أقامه إبراهيم عليه السلام للغرض الأصلي الذي شُيِّد من أجله.

* * *

وقفت أتأمل البيت الذي أقامه إبراهيم عليه السلام، وأتدبر عظمته من دون قدرة على التفكير (الأفكار والانعكاسات تأتي إلى المرء بعدها بزمن طويل)، من نواة فرح داخلي انبثقت بهجة وازدادت وعَلَت مثل الصوت الشجي.

كان بلاط الرخام يغطي الأرض في دوائر حول الكعبة تعكس ضوء الشمس، يسير عليها بشر كثيرون، رجالٍ ونساء، يدورون حول بيت اللّه. كان من بينهم من يبكون، وآخرون يدعون اللّه جهرة في الصلاة، وغيرهم ممن لم يجد كلاماً ولا دمعاً، راح يطوف ورأسه منكس إلى الأرض...

من شعائر الحج أن تطوف سبع مرات حول الكعبة، لا لتظهر تبجيلك للكعبة، ولكن لتذكير المسلمين بأساسيات الحياة. فالكعبة رمز لوحدانية اللّه، وطواف المسلمين حولها رمز لأنشطة الحياة، يتضمن أن عبادة اللّه لا تكون بالفكر والمشاعر

وحدهما ـ وكل ما يمكن تسميته «الحياة الداخلية» ـ بل بالفعل البدني والجسدي، أي بالمسعى والفعل، وبذلك يكون الوجود الإلهي محور الوعي الذهني والفعل البدني.

طفت أنا أيضاً ببطء، وأصبحت جزءاً من التدفق الدائر حول الكعبة. يظهر ويختفي رجل أو امرأة بالقرب مني؛ صور منفصلة تظهر أمام بصري وتختفي، رجل أسود عملاق بملابس الإحرام، وسبحة خشبية ضخمة يلفها حول معصمه، ظهر ثم اختفى بين الزحام، ورجل مالاوي عجوز، حاذاني فترة يحرك يديه كأنه في حيرة، ثم اختفى. عينان خضراوان تحت حواجب شعثاء ـ إلى من تنتمي؟ ضاعت في الزحام. ضمن زحام الناس أمام الحجر الأسود، كانت هناك امرأة هندية شابة، ومن الواضح أنها عليلة، على وجهها الرقيق الدقيق توق واشتياق، واضح وضوح قاع الماء الشفاف، كفاها مرفوعتين في ضراعة باتجاه الكعبة، أصابعها ترتجف كأنها في صلاة صامتة.

طفت، وطفت، مرت الدقائق لا أعرف لها عداً، اختفى ما كان بقلبي من مرار ومشاغل، أصبحت جزءاً من تيار يدور ـ آه! هل كان ذلك هو معنى ما نفعله؛ أن نعي أن المرء جزء يدور في فلك؟ هل يصبح إدراك ذلك نهاية كل حيرة؟ ذابت الدقائق، وتوقف الزمن، وكأن الكعبة مركز الكون..

* * *

ماتت إلزا بعد ذلك بتسعة أيام.

ماتت فجأة بعد مرض لم يستغرق أسبوعاً، بدا المرض في أوله كأنه توعك من الجو الحار والطعام الذي لم تعتده، إلا أنه تطور ليصبح مرضاً استوائياً غامضاً وقف الأطباء السوريون أمامه حائرين وعاجزين. وأطبق الظلام واليأس الخالص من حولي. دفنتها في مقبرة من الرمال في مكّة المكرّمة، ووضعت حجراً على مدفنها، لم أشأ أن أنقش عليه أي شيء؛ فالتفكير في نقش يمثل تفكيراً في المستقبل، ولم أكن قادراً على استيعاب أي تفكير في المستقبل عند موتها.

بقي معي ابن إلزا الصغير، أحمد، مدة عام رافقني في أول رحلة لي إلى أعماق الجزيرة العربية - وكان شجاعاً وهو ابن عشرة أعوام. بعد فترة كان عليّ أن أودعه أيضاً، فقد أقنعني أهل أمه أن الأفضل له أن يذهب إلى مدرسة في أوروبا، لم يبق من إلزا إلا ذكريات وحجر على مدفنها في مدافن مكّة المكرّمة، وظلام لم يرتفع عني إلا بعد زمن طويل من ارتمائي في أحضان الجزيرة العربية.

(٦)

أوغل الليل، إلا أننا بقينا جالسين حول النار، كان أبو سعيد قد خرج من حالته الانفعالية وتحول إلى حالة من الهدوء؛ كانت عيناه حزينتين ومتعبتين ويبدو عليه الإنهاك؛ تحدث إلينا عن نورة كما يتحدث امرؤ عن شخص عزيز مات منذ زمن. قال لزيد: «لم تكن جميلة، أنت تعرف ذلك، لقد أحببتها....».

القمر مكتمل فوقنا، مثل اكتمال خلق الوجود الإنساني. لم يكن من الغريب أن يعتقد عرب الجاهلية أن القمر من «بنات الرب» - وتخيلوها ذات شعر طويل، وأنها ربة الخصب، وأسموها «اللات»، ذات قوة غامضة خاصة بالتناسل على الأرض، وبذلك تهب الحياة للبشر والحيوانات.

اعتاد الشباب والشابات في مكّة المكرّمة والطائف قبل الإسلام الاحتفال باكتمال القمر كل شهر في الخلاء احتفاءً بها، يقضون الليل في قصف وعربدة وإلقاء الشعر بلا قيود. يراق الخمر من أوانيه الفخارية؛ ولأن النبيذ كان أحمر مثل الدم ويهبهم نشوة، ربط الشعراء بينه وبين دم المرأة في قصائدهم الشعرية. كان الفخر وحيوية الشباب يتدفقان في حجراللات «التي تتألق مثلما يتألق القمر في تمامه، وتعلو كما يعلو طائر مالك الحزين». وانتقلت ربة الشباب والتناسل القادرة بأجنحتها من جنوب الجزيرة العربية إلى الشمال حتى وصلت إلى اليونان على شكل الربة «ليتو»، أم «أبولو».

من فوضى الطبيعة الغامضة لعبادة اللات وآلهة أخرى حتى الوصول إلى مفهوم وحدانية الخالق في القرآن الكريم، كان الطريق طويلاً، إلا أن إنسان الجزيرة اعتاد

قطع مسافات طويلة على طريق الروح مثل باقي البشر، حتى إنه يمكن أن نطلق على ذلك التاريخ الطويل، «تاريخ البحث عن إيمان».

كان التساؤل والسعي الدائمان، يبحثان عن المطلق.
حتى في العصور المبكرة، عندما ملأ العالم المحيّر لهم أذهانهم بصور الآلهة والعفاريت والجان، كانوا يدركون أن هناك إلهاً واحداً فوق كل الآلهة التي يصورونها، إله غير مرئي، لا يمكن إدراكه؛ لأنه فوق قوة الإدراك، إله أزلي فوق كل موجوداته. لم تكن اللات وأخواتها المقدسات، مناة والعزى، إلا بنات الرب «الوسيطات بين الإله الذي لا يدركونه والعالم الذي يدركونه، رموز لقوى لا يفهمونها أحاطت بالطفولة البشرية، إلا أن أعماقهم كانت تدرك وجود الإله الواحد، كامناً في أعماقهم، جاهزاً على الدوام ليشتعل متحولاً إلى إيمان واعٍ، كيف يمكن أن يكون الأمر غير ذلك.

لقد كانوا بشراً عاشوا في عزلة بين سماء قاسية وأرض أقسى، وكانت حياتهم جافة بين تلك الفراغات غير النهائية الموحشة القاسية، لذلك وجدوا أنفسهم بحاجة إلى قوة تحتضن معاناتهم وتحتوي الوجود كله، قوة معصومة تتصف بعدل مطلق ورحمة، وحكمة عظمى، اللّه المطلق، يقطن في المطلق، وتشع حكمته في اللانهائي، ولكن لأنك من صنعه، فهو أقرب إليك من حبل الوريد....

* * *

انطفأت النار، نام زيد وأبو سعيد وبالقرب منا جمالنا الثلاثة على الرمال المغمورة بضوء القمر، تجتر طعامها، ويصدر عنها صوت مضغ هادئ، وتتوقف من حين إلى آخر. حيوانات عظيمة.. كان بعضها يغير موضعه، ويحك صدره بالرمال، أو يهدر من أنفه كأنه يتنهد، حيوانات عظيمة بلا تعبير معين يميزها بخلاف الخيل التي غالباً ما يكون لها شخصية متميزة؛ نعم، تختلف الجمال عن جميع الحيوانات التي يسخرها الإنسان، فهي مثل الصحراء الواسعة التي تنتمي إليها، والتي تختلف بدورها عن أي أرض أخرى، من دون تعبيرات محددة تتأرجح بين أضداد ومتناقضات، حالة مزاجية متقلبة، إلا أنها متواضعة إلى أبعد حد.

لم أتمكن من النوم، قمت أتجول، واعتليت أحد التلال، كان القمر منخفضاً في الأفق الغربي، وينير التلال الصخرية الغربية التي ترتفع من السهل على هيئة أشباح. من هذا الموضع حتى مكّة المكرّمة، تنخفض الأرض في انحدار متدرج حتى ساحل البحر الأحمر، تخلو من أي حياة، بلا قرى، بلا منازل، بلا أشجار صلبة في عريها الواضح تحت ضوء القمر. من تلك الأرض الموحشة الخالية من الحياة، من بين هذه الأودية الرملية والتلال العارية، انبعثت أعظم عقيدة دينية إلى الحياة في تاريخ الإنسانية...

كانت الليلة دافئة وساكنة، والضوء الشحيح والمسافات البعيدة أظهرت التلال كأنها تتمايل. تحت ضوء القمر الساطع تذبذب ضوء أزرق شاحب، من وسطه انزلق ضوء رمزي شفاف، ذكرى شبحية، تحمل جميع ألوان الأرض، إلا أن النور الأزرق غيَّر الأرض ونسخها جميعاً، ظهر ثابتاً من دون تحول ولا تبدل، كأنه أفق ثابت أو دعوة إلى مالا يعرف كنهه.

يقع صعيد عرفات قريباً من هنا، مختفياً عن عيني في منتصف هذه البرية، يجتمع عليه الحجاج في يومٍ من العام تذكرة لهم بآخر تجمع، حين يكون على كل امرئ أن يجيب أمام الله بكل ما فعله في حياته، كم مرة وقفت هناك، مكشوف الرأس، في ملابس الإحرام، بين حشد المحرمين في ملابسهم البيضاء وعراة الرؤوس، من القارات الثلاث، وجوهنا متجهة إلى جبل الرحمة الصاعد من وسط السهل الواسع، تقف منتظراً في الظهيرة وفيما بعد الظهر، في تماثل لذلك اليوم الذي لا مفر منه قال تعالى:

﴿لِّلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۗ وَإِن تُبْدُواْ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُۖ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٖ قَدِيرٌ ٢٨٤﴾[1].

أقف على الحافة الصخرية للتل الذي كنت عليه، أتطلع باتجاه سهل عرفات الذي لا أراه، وضوء القمر الفضي يسطع على السهل الذي أمامي والذي كان ميتاً منذ

١. البقرة: الآية ٢٨٤.

لحظة مضت، انبعثت به فجأة الحياة، ظهر على أديمه جميع البشر الذين مروا به في حياتهم، وتصاعدت منه أصوات ملايين الرجال والنساء الذين ساروا بين مكّة المكرّمة وعرفات خلال ثلاثة عشر قرناً من الزمان. استيقظت أصواتهم وأصوات الحيوانات التي ركبوها، رأيتهم يبعثون ويركبون حيواناتهم ويتجمعون في حشد لا حدود له، أسمع أصوات أيامهم الماضية؛ جمعتهم أجنحة الإيمان معاً في أرض ليس فيها إلا صخور ورمال وتبدو ميتة بلا خفقة قلب، الآن تموج بدفء الحياة فوق قوس الزمن، وجذبتني قوة الأجنحة الهائلة إلى مجالهم، ودرت في مدارهم وفلكهم، وجذبت أيام ماضيَّ النائية وحولتها إلى حاضر، ومرة أخرى أركب عابرا وادي عرفات...

أركب في ركض مرعد فوق السهل، وسط آلاف وآلاف من البدو المحرمين في أثواب بيضاء، عائدين من عرفات إلى مكّة المكرّمة - كنت نقطة ضئيلة في بحر، بين موجة من أعداد لا حصر لها من جمال راكضة براكبيها تهزّ الأرض هزّاً، وترجّها رجّاً، موجة لا يقف أمامها شيء، وبيارق القبائل تخفق على صواريها العالية، تخفق مثل الطبول، وصياح الحرب القبلي الموروث يمزق الفراغ: «يا روقة.. يا روقة» يحيي بها أبناء قبيلة عتيبة اسم جدهم العظيم الأول، ويرد عليه هتاف آخر من جهة أخرى في قوة: «يا عوف، ياعوف» من حناجر أبناء حرب، ويرد بعدهم في صوت متحد: «شمر، ياشمر»، من أقصى الجناح الشرقي للحشود المندفعة.

عدونا راكبين، مندفعين عبر الوادي، أحسست أننا نطير على أجنحة، مغمورين بسعادة وصفاء خالص، سعادة لا تعرف نهاية... والرياح تهمي بصيحات من المرح والفرح في أذني: «أبداً، أبداً، لن تكون غريباً بعد الآن».

إخوان عن يميني، وإخوان عن يساري، لا أعرفهم، إلا أنهم ليسوا غرباء عني: في اندفاعنا العنيف الصاخب كنا جسداً واحداً يمضي إلى هدف واحد. العالم رحب أمامنا، وفي قلوبنا تشتعل الشرارة التي اشتعلت في قلوب صحابة الرسول ﷺ.

يعلم إخوتي عن يميني، وإخوتي عن يساري أنهم قصّروا عن الغرض المتوقع منهم، ويعلمون أنه بمرور القرون تضاءلت قلوبهم، وفترت عزيمتهم: إلا أن وعد الحق باقٍ في قلوبهم... وفي قلوبنا...
بدل أحد الراكبين صيحة قبيلته بنداء إيماني: «نحن إخوة في اللّه، ونسلم أمرنا للّه» ورد عليه آخر: «اللّه أكبر، اللّه أكبر».

توحد جميع حجاج القبائل في صيحة واحدة. لم يعودوا بدو نجد المتشددين في فخرهم القبلي، يعرفون أن الأسرار الإلهية في انتظارهم... في انتظارنا... وسط آلاف من أقدام الجمال العادية، وخفق البيارق، تحولت نداءاتهم إلى هدير منتصر: «اللّه أكبر».

تدفقت الصيحة، كموجة هائلة فوق رؤوس حجاج الجزيرة على الجمال المندفعة عدواً، وامتدت لتشمل السهل كله، وتجتازه لتمتد وتشمل الأرض بأجمعها: «اللّه أكبر». تجاوز الرجال الحياة الصغيرة الخاصة بكل منهم، يدفعهم إيمانهم إلى الأمام، في توحد، نحو آفاق غير مرئية.. في توقٍ لم يعد ضئيلاً ولا مخفياً؛ حشود وجدت بعثها ويقظتها، شروق شمس الحق، وقوف الإنسان أمام جميع النعم التي وهبها اللّه له؛ وقفته فرح، ومعرفته حرية، وعالمه أرض بلا حدود...

رائحة أجسام الجمال، لهاثها وشخيرها ورغاؤها، أصوات أخفافها المدوي؛ صياح الرجال، خبط علاقات البنادق بجنبات الرحال، غبار وعرق ووجوه سعيدة مستبشرة؛ وسعادة مفاجئة تحل بي وتسري في أعطافي.

استدرت ملتفتاً خلفي وأنا على رَحْل ناقتي، رأيت خلفي الكتلة المتماوجة المنسوجة من آلاف الراكبين بملابس بيضاء، وخلفهم، القنطرة التي عبرت عليها طريق حياتي، وجئت خلالها إلى هنا: تركت نهايتها ورائي، بينما ضاعت بدايتها واختفت في مسافات غدت معالمها ضبابية.

# فهرس المحتويات

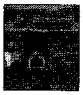 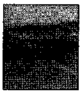 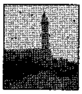

مقدمة ........ ٥

تقديم ........ ٩

مقدمة المؤلف ........ ٣١

العطش ........ ٤٣

بداية الطريق ........ ٨٧

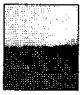
رياح ........ ١٢١

أصوات ........ ١٦١

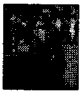
روح وجسد ........ ٢٠١

أحلام ........ ٢٣٣

في منتصف طريق ........ ٢٥٩

جن ........ ٣٠٣

رسالة فارسية ........ ٣٤١

دجال ........ ٣٨١

جهاد ........ ٤٢١

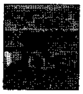
نهاية الطريق ........ ٤٦٣